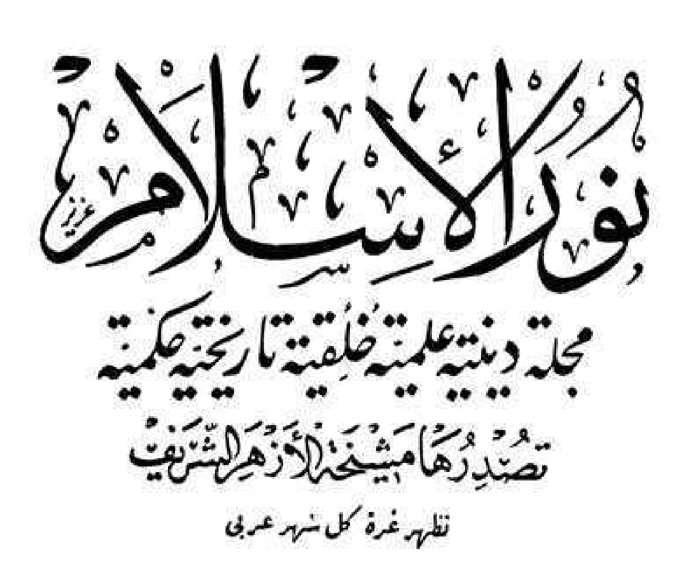


فهرس

المجلد الثاني



فهرس الموضوعات

(أ)

(ب)

(ت)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

فهرس الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
الجزء الاول			
١٧	٨	يفضَّل	يفضِّل
١٩	١	هلكُ عن بيِّنة	هلكَ عن بيِّنة
١٩	٧	عقُدة	عقْدة
١٩	٨	إنِّ	إنَّ
٣٠	١٧	لستُ	لستَ
٣٢	٢٠	يضلالل	يضلل
٣٥	١٠	فثل لذلك	فثل ذلك
الجزء الثانى			
٩٣	٢	إنا أنزلنا	وأنزلنا
الجزء الثالث			
١٤٩	١٧	على المدارة	على المداراة
١٥١	١٦	ألفت كتاب	ألفت كتابا
١٥٨	١٢	ونبلُوُكم	ونبلُوكم
١٧٦	٩	يراد به	يراد بها
١٨٤	١٩	قال فى صفحة	(١) قال فى صفحة
١٨٨	١٥	نكرو	نكروا

ص	س	خطأ	صواب
الجزء الرابع			
٢٥٩	٨	ومن شخصاته	ومن مشخصاته
الجزء الخامس			
٣٣٠	١٨	عن البتقيد	عن التقييد
٣٥٤	١٥	الوهابيون	الوهابيين
٣٥٩	١٣	بالله	يا ألله
٣٥٩	١٤	لم يسبقها اليه	لم يسبقها اليها
٣٦٥	١٤	هذا الربا الذى هو كان	هذا هو الربا الذى كان
٣٦٦	١٥	بالنواجز	بالنواجذ
٣٦٩	٧	الفعل	العقل
٣٦٩	٢١	أو كانوا	إذ كانوا
٣٧٠	١	فصوب	فنصوب
٣٧١	٢١	العليم فوق	العليم القاهر فوق
الجزء السادس			
٣٩٧	٨	نتساقط	تتساقط
٤٢٣	١١	جانبِ	جانبٍ

نـداء

من ادارة مجلة نور الاسلام

الى قرائها الكرام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال جل شأنه : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) .

ملاحظة

نرجو من حضرة القارئ حفظ هـذا الاعلان أو إحراقه بعـد تلاوته حتى لا يأثم بامتهان ما ورد فيه من كلام الله العزيز .

أيها الأخ المسلم :

غير خاف أن هداية الحيارى وإرشاد الضالين وتعليم الجاهلين من خير البر الذى يحق أن يتعاون فيه المؤمنون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، وينتظر عظيم الأجر فيه العاملون المخلصون ، لا سيما اذا كانت الحاجة ماسة اليه ، والدواعى متوافرة فى شأنه .

ولقد ابتلى المسلمون فى هذه الآونة بفئتين من الناس لا تزالان تحاولان مهاجمة الاسلام من كل جانب (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ) إحداهما طائفة المبشرين أو المغوين المضلين، والثانية طائفة من أبناء المسلمين درجوا فى عش الكافرين وتربوا فى أحضانهم دون أن تُعد لهم العدة للتوقى من نزعاتهم واتقاء شبهاتهم، فصادفت ترهاتهم من نفوسهم صحفا خالية فارتسمت فيها ، ورسخت أباطيلهم فى قلوبهم حتى عميت عليهم السبل ، فأصبحوا عونا لأعداء الدين يشوهون من محاسنه ما لم يفهموه ويظنون أنهم على شىء ، ولكنهم يعمهون .

ولقد اشرأبت أعناق المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى الازهر المعمور الذى هو مشرق نور الاسلام فى عصرنا وفيما قبله من عصور كثيرة ، وأخـذ الناس يتطلعون اليه وينتظرون أن يذب عن حمى الدين حتى وفق الله خيرة رجاله فانتهضوا لإجابة الداعى ، وأنشأ أولو الأمر فيه مجلة « نور الاسلام » تنشر من محاسن الدين ، وتقرر من قواعده ، وتشرح الحكم البالغة فى تشريعه ، وترد كيد الـكائدين فى نحورهم بما تكشف من أباطيلهم ، وتبين من تمويهاتهم . ولقد أذن الله بتوفيقه فكان ما يكتب فيها من خير ما أنتجه عصرنا هـذا .

ولما كانت النفوس الغافلة محتاجة دائما الى التذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين ، فإن المجلة توجه اليك هذا الخطاب تستحث منك الحمية الدينية والغيرة الاسـلامية لتعمل جهدك على شد أزرها وتنبيه أصدقائك ومعارفك وكل من يهمك سعادته فى الدنيا والآخرة على الاستفادة منها ، فلا سعادة إلا بالدين وتفهّم معناه حق اليقين .

ولقد جعلت قيمة الاشتراك فيها زهيدة جدا حرصا على تعميم الانتفاع بها فهي داخل القطر المصري والسودان عشرون قرشا للطلبة وأئمة المساجد ومعلمي المدارس الأولية والمأذونين والعمال ؛ وأربعون قرشا لغيرهم وفي الخارج ثلاثون قرشا للفئات المذكورة وخمسون قرشا لغيرهم ، إذ ليس الغرض منها استدرار المال ، وإنما نرجو بها المثوبة من الله والدخول في قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمر النَّعم » .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وأن يجعل كلمة الله هي العليا والله المستعان .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟ مدير المجلة

[مطبعة المعاهد الدينية ۲۰۰۰ـ۲ـ۱۹۳۲]

ص	س	خطأ	صواب
٤٣٨	١٨	قراءن	قرءان
٤٣٩	٤	بثمراتها	بثمراتهما
٤٤٨	١٠	آدائه	أدائه
٤٥٥	١٣	القضيائية	القضيانية
		الجزء التاسع	
٦١٩	٥	وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم	يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم
٦٢٦	١٧	وما قرر منه	والتحرز منه
٦٣٨	١٢	التخصيص عند	التخصيص بها عند
		الجزء العاشر	
٦٨٥	١٧	منْ المشركين	منَ المشركين
٦٩٤	١٤	بما هم فيه	بما هن فيه
٧٠٩	٢	فنذكر	فتذكر
٧١٧	٤	من طرف	من طرق
٧٢٢	١٠	ولله يقول	والله يقول

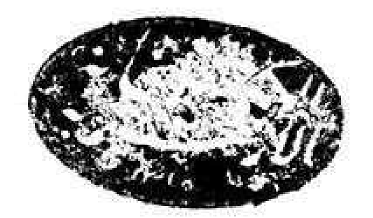
فى القسم الانكليزى

ص	س	خطأ	صواب
		الجزء الاول	
٦	١٧	كم أهلكنا قبلهم	كم أهلكنا من قبلهم
		الجزء الثالث	
١٧	١٧	وإنه هو رب الشعرى	وأنه هو رب الشعرى
٢١	١	وسنريهم	سنريهم
٢٣	٢٦	وقولوا للناس قولا حسنا	وقولوا للناس حسنا
		الجزء الرابع	
٢٨	٢٤	فوربك لنسألهم	فوربك لنسألنهم
		الجزء السابع	
٥٢	٦	لن يضروكمُ	لن يضروكمْ
		الجزء التاسع	
٦٢	٥	يعقَلون	يعقِلون
٦٢	٦	فى الصُدور	فى الصّدور

ERRATA

Page	1	Line	7	tribs	should read	tribes
«	2	«	13	is	«	in
«	2	«	23	with hold	«	withhold
«	2	«	26	on behalf	«	on behalf of
«	11	«	9	comprehensive	«	universal
«	11	«	14	from	«	of
«	13	«	1	from	«	against
«	13	«	3	for	«	of
«	13	«	16	from	«	of
«	13	«	35	science	«	Knowledge
«	13	«	36	from	«	of
«	13	«	41	from	«	of
«	19	«	2	Not only it is	«	Not only is it
«	20	«	11	fulfillment	«	fulfilment
«	23	«	14	aud	«	and
«	23	«	14	laws	«	law
«	24	«	9	succeed	«	inherit
«	24	«	33	heavens	«	heaven
«	39	«	17	abstinence from	«	taking of
«	44	«	14	inadverently	«	inadvertently
«	45	«	26	unvelievers	«	unbelievers
«	45	«	27	Heaven	«	Heavens
«	46	«	29	on	«	into
«	47	«	15	imposter	«	impostor
«	47	«	27	Christian	«	Christians
«	48	«	23	imposter	«	impostor
«	60	«	8	aught	«	none
«	61	«	4	sealead	«	sealed
«	62	«	26	imposter	«	impostor
«	62	«	30	imposters	«	impostors
«	63	«	11	imposter	«	impostor
«	64	«	22	imposter	«	impostor
«	64	«	25	imposter	«	impostor
«	65	«	7	has	«	had
«	65	«	7	has	«	had
«	67	«	5	appeares	«	appeared
«	71	«	31	afficteth	«	afflicteth
«	72	«	5	has	«	had

مطبعة المعاهد الدينية ١٠٠٠٠ـ٣ـ١٩٣٢



قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم •

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

العدد ١	المحرم سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة



المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقا
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى (

رئيس التحرير



السيد
محمد الخضر حسين
من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : بستان ٣٥٠٧

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	ص
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

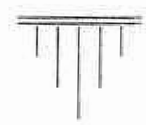
الحمد لله الذى أيد الحنيفية السمحة بالآيات البينات، ورفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى لقى فى سبيل الدعوة الى الحق أذى كثيراً فصبر، واعتصم بالتوكل على الواحد القهار فَخَذَلَ كل جبار يناوئه وخاب كل منافق يمكر به، حتى ظهر وانتصر، وعلى آله المستقيمين على الطريقة بأمتن عزم وأطهر جنان، وصحبه الذين جاهدوا فى الله بأبلغ حجة وأبرع بيان.

أما بعد فقد قضت هذه المجلة سنتها الأولى مبينة لحقائق دينية، مقررة لأحكام شرعية، دافعة لشبه إلحادية، باحثة فى مسائل لغوية عربية، باسطة القول فى سنن كونية وأسرار اجتماعية، مازجة جدها بطرف وملح أدبية، معرّبة من بعض المؤلفات الأجنبية مقالات فى مباحث علمية ومخترعات عصرية؛ قضت سنتها سائرة بحمد الله على خطتها الحكيمة، لا تلتفت الى من يهاجمها بقلب غير سليم، ولا تجارى من يتوجه اليها بخطاب غير كريم؛ أما من ينقدونها فى ألفاظ مهذبة، وأسلوب ظاهر فى القصد الى استكشاف الحق، فأولئك الذين تملأ عينها باحترامهم، وترتاح لأن تأخذ بأطراف محاوراتهم، حتى يستبين لها الحق فى جانبهم فتصلح خطأها، أو تستيقن أنها المحقة فتثبت على وجهة نظرها.

وقد لقيت المجلة فى العالم الاسلامى إقبالا شد عزمها، وقوّى أملها فى أن تجعل المسلمين على بصيرة من أمور دينهم، وتزيح أو تخفف شر الفتن التى تثار فى ديارهم، وتغشى أبصار الغافلين من أطفالهم وعامتهم.

ونظرت إدارة المجلة فرأت من واجبها أن تبلغ دعوة الاسلام من لا يفقهون اللغة العربية ، فأزمعت أن تضيف الى ما يحرر باللسان العربى مقالات فى حقائق الدين الاسلامى ومحاسنه تنشر باللغات الثلاث : الانكليزية والألمانيه والفرنسية ، وأخذ قلم الترجمة يعمل لهذا الغرض ، وسيرى القراء عمله فى وقت قريب إن شاء الله .

ونرجو ممن يقدرون الغاية التى تعمل لها المجلة أن يبذلوا جانباً من مساعيهم فى شد أزرها ، وتمهيد الوسائل لزيادة انتشارها ، وما تسمح به قرائح العلماء أو الأدباء من مقالات يحررونها على الطريقة الملائمة لخطة المجلة باللسان العربى أو باحدى اللغات الثلاث فانا نتلقاها بقبول حسن ، وننشرها شاكرين همم كتابها على ما أسدوه الى قراء هذه المجلة من علم نافع (وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .



القضاء العادل فى الاسلام

أحاط الاسلام بضروب السعادة هداية وتعليما ، فدل على كل ضرب منها دلالة تقوم بها الحجة ، وتقطع عن الناس عذر الجهل به ، وله فى هدايته درجات ، فقد يرشد الى الشيء دون أن يلهج به ، أو يلحف فى الترغيب فيه ، حيث يكون سهل المأخذ على النفس ، أو يكون فى طبيعة البشر ما يسوق اليه ، كإحسان الوالد لولده ، والسعى فى الأرض لابتغاء الرزق .

وقد يكون فى الأمر ثقل على النفس وصرف لها عن بعض شهواتها ، فلا تكاد تقبل عليه إلا بعزم صميم ، ونظر فى العواقب بعيد ، كاقامة الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ، وهذا ما يأمر به المرة بعد الأخرى ، ويسلك فى الدعوة اليه أساليب شتى ، حتى يأخذ اليه النفوس على تفاوت هممها واختلاف رغائبها . وكذلك ترى مسلكه فى الدعوة الى العدل فى القضاء .

يتقدم الخصمان الى القاضى وكثيرا ما يجد فى نفسه ميلا — شديدا أو ضعيفا — الى أحدهما ، يميل اليه لنحو قرابة أو صداقة أو وجاهة أو غنى ، أو يميل اليه لأنه فقير أو ضعيف أو خصم لمن يناوئه ، وقلما استطاع القاضى فى هذه الأحوال أن يضع الخصمين من نفسه فى درجة واحدة الى أن يفصل فى القضية بما أراه الله من الحق .

تلك العواطف التى تثور فى القاضى حال النظر فى القضية ، هى فى حكم المعفو عنه إلا أن يكون لها فى رجحان أحد الخصمين على الآخر أثر غير ما تقتضيه البينة وأصول الحكم .

شأن تلك العـواطف أن تجاذب القاضى وتناجيه أن ينحو بالحكم نحو منفعـة المعطوف عليه ، وعلى قدر العطف تكون هذه المجاذبة والمناجاة ، ومتى قويتا فى نفس لا تخاف مقام ربها ، ولم تـكن على بصيـرة مما فى لباس العدل من زينة وفخار ، نبذت الحق وراء ظهـرها ، وانحدرت مع عاطفتها الى هاوية الظلم ، وما هاوية الظلم إلا حفرة من النار .

هذه العواطف التى تجاذب القاضى وتناجيه أن يرضى خصما بعينه ، تجعل العدل فى القضاء من قبيل ما يثقل على النفس ويجمح عنه الطبع ، فكان من حكمة الدعوة الاسلامية أن تعنى به عناية ضافية ، وتدخل الى الترغيب فيه من أبواب متعددة .

عنيت الشريعة بالعدل فى القضاء عنايتها بكل ما هو دعامة لسعادة الحياة ، فأتت فيه بالعظات البالغات : تبشر من أقامه بعلو المنزلة وحسن العاقبة ، وتنذر من انحرف عنه بسوء المنقلب وعذاب الهون .

فمن الآيات المنبهة لما فى العدل من فضل وكرامة قوله تعالى : (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) . فقد أمر بالعدل ، ونبـه على أن خيرا عظيما ينال الحاكم بالقسط : هو محبة الله له ، وما بعد محبة الله تعالى إلا الحياة الطيبة فى الدنيا والعيشة الراضية فى الأخرى .

ومن الأحاديث الدالة على ما يورثه العدل من شرف المنزلة عند الله تعـالى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين ـ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وَلُوا [1] » . وهذا كناية عن شدة قربهم من رب العالمين وفوزهم برضوانه ، وفى ذكر «الرحمن» تربية للرجاء والثقة بأن الحاكم العادل يجد من النعيم ما تشتهيه نفسه وتلذه عينه ، شأن من يكون قريب المنزلة من ذى رحمة وسعت كل شىء .

(١) صحيح الامام مسلم .

وإن شئت مثلا من آيات الوعيد فانظر فى قوله تعالى : (يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ، تجد الآية تنادى بأن الفصل فى القضايا جريا مع الأهواء ضلال عن سبيل الله ، والضلال عن سبيل الله مُلق فى شديد من العذاب ، ومن ذا الذى يستخف بعذابٍ وَصَفه الكبير المتعال بالشدة ، ويشتريه بمتاع من هذه الحياة إلا من سفه نفسه ، ولم ينفذ الايمان الى سويداء قلبه ؟

فلهذه الآية أثر بليغ فى النفوس المطمئنة بالايمان ؛ كان أحمد بن سهل جارا لقاضى مصر بكار بن قتيبة ، فحدّث أنه مر على بيت بكار فى أول الليل فسمعه يقرأ هذه الآية قال : ثم قمت فى السحر فسمعته يقرؤها ويرددها ، فلا عجب أن يكون بكار هذا من أعدل القضاة حكما ، وأشرفهم أمام أولى الأمر موقفا .

ومن الأحاديث الواردة فى الوعيد على الجور فى القضاء قوله صلى الله عليه وسلم : « من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين[1] » ففى هذا الحديث تمثيل القاضى إذ يلاقى جزاءه فى الآخرة ، بأشد الناس عذابا فى هذه الحياة ، وهو المذبوح بغير سكين ، وهذا حال من يكون حظه من علم القضاء بخسا ، أو يكون خلق العفاف فى نفسه واهيا .

ويصح حمل الحديث على معنى الاشارة الى صعوبة القضاء ، حتى كأنّ القاضى من أجل مايلاقيه فى تَعرُّف الحق وتنفيذه من مكاره ومجاهدة للأهواء ، مذبوح بغير سكين ؛ وهو بعد هذا مشعر بسمو منزلة القضاء ، إذ كان القاضى العادل يضاهى القتيل فى سبيل الله بما انقطع عنه من شهوات وقاساه من آلام ، يبتغى أجر الله ، والله عنده أجر عظيم .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وحسنه . وابن ماجه والحاكم وصححه .

ومما جمع بين الوعد والوعيد قوله صلى الله عليه وسلم : (القضاة ثلاثة : اثنان فى النار ، وواحد فى الجنة : رجل عرف الحق فقضى به فى الجنة ، ورجل قضى للناس على على جهل فهو فى النار ، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار[1]) .

وصف هذا الحديث عاقبة من يقضى بالحق على بينة منه ، وهى المصير الى الجنة ، وآذن بعاقبة من يقضى على جهل أو جور ، وهى المصير الى النار . ولا يتناول هذا الوعيد العالم بأصول الشريعة يجتهد رأيه فلا يصيب الحق ، ويقضى بما رأى ؛ قرأ الحسن البصرى قوله تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) . وقال : لولا ماذكر الله من أمر هذين لرأيت أن القضاة هلكوا ، فانه أثنى على هذا بعلمه ، وعذر هذا باجتهاده .

وصف الاسلام ما فى العدل من فوز ، وأعلن بما فى الحيف من شقاء ، وكان قضاؤه صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لصيانة الحقوق والتسوية بين الخصوم ، ويكفى شاهدا على هذا أنه صلى الله عليه وسلم أراد إقامة الحد على امرأة مخزومية سرقت فخاطب قريش أسامة ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسقاط الحد عنها فقال صلوات الله عليه : « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟ ثم قام فخطب قال : « يأيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

رسم عليه الصلاة والسلام طريق العدل فى القضاء قيمة غير ذات عوج ، وزادها بسيرته العملية وضوحا واستنارة ، فاستبانت لأصحابه فى أجلى مظهر ، فاقتدوا بهديها الحكيم ، وأروا الناس القضاء الذى يزن بالقسطاس المستقيم ؛ انظر الى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى رسالته الى أبى موسى الاشعرى : « آس[2] بين الناس فى مجلسك

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم . (٢) آس : سو بينهم واجعل كل واحد أسوة خصمه .

وفى وجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك » .

كان للاسلام وسيرة الذين أوتوا العلم من رجاله أثر فى إصلاح القضاء كبير ؛ ولا تشرق المحاكم بنور العدل إلا أن يمسك زمامها رشيد العقل ، راسخ الايمان بيوم الفصل .

فتقوى الله تحمل القاضى على تحقيق النظر فى كل واقعة حتى يتعرف الحق ، ولا يأخذ بأول مايلوح له من الفهم وإن تيقن أن قضاءه نافذ ، وماله فى الرؤساء من معقب ؛ ومن أمراء الأندلس من كان يعزل القاضى متى رأى منه السرعة فى فصل القضايا التى تستدعى بطبيعتها شيئا من التروى ، إذ يفهم من هذه السرعة عدم تحرجه من إثم الخطأ فى الحكم .

وتقوى الله هى التى تقف القاضى فى حدود العدل : لا يخرج عنها قيد أنملة فى حال . قيل للقاضى إسماعيل بن إسحاق المالكى : ألا تؤلف كتابا فى أدب القضاء ؟ فقال : « اعدل ، ومد رجليك فى مجلس القضاء ، وهل للقاضى أدب غير الاسلام ! وفى سيرة أبى عبد الله محمد بن عيسى أحد قضاة قرطبة أنه « التزم الصرامة فى تنفيذ الحقوق ، والحزامة فى إقامة الحدود ، والكشف عن البيان فى السر ، والصدع بالحق فى الجهر ولم يهب ذا حرمة ، ولا داهن ذا مرتبة ، ولا أغضى لأحد من أرباب السلطان وأهله ، حتى تحاموا حدة جانبه ، فلم يجسر أحد منهم عليه » ونقرأ فى وصف ابراهيم بن أبى بكر الاجنادى أحد قضاة مصر أنه « كان لا يقبل رسالة ولا شفاعة ، بل يصدع بالحق ولا يولى إلا مستحقا » .

وامتُحِن عبدالله بن طالب — أحد قضاة القيروان — فكان يقول فى سجوده وهو فى السجن : « اللهم إنك تعلم أنى ما حكمت بجور ، ولا آثرت عليك أحدا من خلقك ولا خفت فيك لومة لائم » ووصف المؤرخون محمد بن عبد الله بن يحيى — أحد قضاة قرطبة — بأنه « لم يداهن ذا قدرة ، ولا أغضى لأحد من أصحاب السلطان ، ولم يطمع

شريف فى حيفه ، ولم ييئس وضيع من عدله ، ولم يكن الضعفاء قط أقوى قلوبا ولا ألسنة منهم فى أيامه » .

ومن القضاة العادلين من تطرح بين يديه قضية يدلى فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه فيرد الشهادة فى غير مبالاة ؛ شهد السلطان بايزيد عند شمس الدين محمد ابن حمزة الفنارى قاضى الأستانة فى خصومة رفعت اليه فرد القاضى الشهادة ، ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له : إنك تارك للجماعة ، فبنى السلطان أمام قصره جامعا وعين لنفسه فيه موضعا ، ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

ورفعت قضية الى محمد بن بشير قاضى قرطبة أحدُ الخصمين فيها سعيدُ الخير عم الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وأقام سعيد بينة أحدُ شهودها الخليفة نفسه ، ولما قُدم كتاب شهادة الخليفة الى القاضى نظر فيه ثم قال لوكيل سعيد : هذه شهادة لا تعمل عندى فجئنى بشاهد عادل ، فمضى سعيد الى الخليفة ، وجعل يغريه على عزل القاضى ، فقال الخليفة : القاضى رجل صالح لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولست والله أعارضه فيما احتاط به لنفسه ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله ؛ ولما سئل بن بشير عن رد شهادة الخليفة قال : إنه لا بد من الإعذار فى الشهادة ، ومن الذى يجترئ على القدح فى شهادة الأمير اذا قبلت ؛ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه .

فالاسلام يلقن القاضى أنه مستقل ليس لأحد عليه من سبيل ؛ وقد قص علينا التاريخ أن كثيراً من القضاة العادلين كانوا لا يتباطئون أن يحكموا على الرئيس الذى أجلسهم على منصة القضاء حكمهم على أقصر الناس يدا وأدناهم منزلة ؛ قال ابن عبد السلام يصف القضاة العادلين : « وربما كان بعضهم يحكم على من ولاه ولا يقبله إن شهد عنده » وقال المقرى يصف القضاء فى الأندلس : « أما خطة القضاء بالأندلس فهى أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدى القاضى » وحكم ابن بشير قاضى قرطبة على الخليفة عبد الرحمن الناصر فى قضية

رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية ، وأبلغ الخليفة الحكم مقرونا بالتهديد بالاستقالة من القضاء اذا لم يسلم الحكم ويبادر الى تنفيذه .

ومن القضاة العادلين من يرى بالمنصب فى وجه الدولة اذا أخذ بعض رجالها يتدخل فيما يرفع اليه من خصومات ؛ فعل هذا ابراهيم بن إسحاق قاضى مصر حين تخاصم اليه رجلان وأمر بكتابة الحكم على أحدهما ، فتشفع المحكوم عليه الى الأمير فأرسل اليه يأمره بالتوقف عن الحكم الى أن يصطلحا ، فترك القضاء وأقام فى منزله فأرسل اليه الأمير يسأله الرجوع ، فقال: لا أعود الى ذاك أبدا ، ليس فى الحكم شفاعة .

وفعل هذا برهان الدين بن الخطيب بن جماعة أحد قضاة مصر ؛ عارضه محب الدين ناظر الجيش فى قضية ، فقال : لا أرضى أن أكون تحت الحجر ، وصرف أتباعه ، وصرح بعزل نفسه وأغلق بابه ، فبلغ أمره الملك الأشرف فانزعج وما زال يسترضيه حتى قبل ، واشترط أشياء تلقاها منه بالاجابة .

والرئيس الناصح يكبر القاضى الذى يأنس منه استقامة ويعمل لإرضائه حتى يصرفه عن الاستقالة ؛ أرسل أبو عبيد قاضى مصر أبا بكر بن الحداد الى بغداد ليستعفى له عن القضاء ، فأبى الوزير على بن عيسى بن الجرح أن يعفيه وقال : ما أظنه إلا أنه كره مراقبة هلال بن بدر لأنه شاب غر لا يعرف قدره ، فأنا أصرف هلالا وأولى فلانا وهو شيخ عاقل يعرف قدر القاضى .

والرئيس العادل يُعجَب بالعالم الذى دلته التجربة على استقامته عند الحكم وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق ، ويدعوه هذا الاعجاب الى إقامته قاضيا بين الناس ؛ أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرسا من رجل على سوم ، فحمل عليه فعطب ، فخاصمه الرجل ، فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراق .

فقال شريح : أخذته صحيحاً سليما ، فأنت ضامن له حتى ترده صحيحا سليما ، قال الشعبي — وهو راوى القصة — فكأنه أعجبه فبعثه قاضيا .

ولصعوبة القضاء من ناحية التثبت من الحق أولا ، والقدرة على تنفيذه ثانياً ، أبى كثير من العلماء الأتقياء أن يقبلوا ولايته ، ورفضوها بتصميم ، يخشون أن يعترضهم فى التنفيذ ما لا طاقة لهم بدفعه ، أو يخشون الزلل عند النظر فى بعض النوازل وتعرّف أحكامها ، فان إدراج الوقائع الجزئية تحت الأصول الكلية عسير المدخل لكثرة ما يحوم حوله من الاشتباه ؛ فكثير من الجزئيات تحتوى أوصافا مختلفة ، وكل وصف ينزع الى أصل ، وقد يكون فى الأصل الذى هو أمس بالواقعة خفاء لا ينكشف إلا أن يردد القاضى الألمعى نظره ، ويجهد فى استكشافه رويته . عرض هارون الرشيد على المغيرة ابن عبد الرحمن بن الحارث قضاء المدينة المنورة بجائزة قدرها أربعة آلاف دينارا فأبى ، وقال : لأن يخنقنى السلطان أحب الى من القضاء .

ومن العلماء من يأبى قبولها ويكون الأمير ممن يقدر قدره ويراه أقدر أهل العلم على القيام بها ، فيهدده بالعقاب أو يسومه العذاب ليكرهه على قبولها ، ومنهم من يقبلها بعد التهديد البالغ ، مثل عيسى بن مسكين أحد الفقهاء بالقيروان ، عرف الأمير ابراهيم بن أحمد بن الاغلب من زهده فى المناصب أنه يأبى ولاية القضاء ، فأحضره وقال له : ما تقول فى رجل جمع خلال الخير أردت أن أوليه القضاء وألم به شعث هذه الأمة فامتنع ؟ قال له عيسى بن مسكين : يلزمه أن يلى ، قال : تمنّع ، قال : تجبره على ذلك بجلد ، قال : قم فأنت هو ، قال : ما أنا بالذى وصفت ، وتمنع حتى أخذوا بمجامع ثيابه وقرّبوا السيف من نحره ، فتقدم لها بعد أمر خطير .

ولارتباط سعادة الأمة باستقامة القضاء جاز للرئيس الأعلى متى رأى فى أهل العلم من هو أدرى بمسالكه ، وأقدر على القيام بأعبائه أن يكرهه على ولايته بالوسائل

الكافية ، قيل للامام مالك : هل يجبر الرجل على ولاية القضاء ؟ قال : لا ، إلا أن لا يوجد منه عوض ، فيجبر عليه ، قيل له : أيجبر بالضرب والسجن ؟ قال : نعم . وطلب ابن الأغلب أمير القيروان الامام سحنون لولاية القضاء فامتنع ، وبقى نحو سنة يطلبه لها وهو يمتنع ، حتى قال له حالفاً : لئن لم تتقدم لها لأقدمن على الناس رجلا من غير أهل السنة ؛ فاضطره هذا الحلف الى قبولها .

ومن العلماء من يُطلب للقضاء فلا يجيب إلا على شرط يصعب على رجال الدولة قبوله ولا يسعهم إلا أن يتركوه ، طلبوا أبا محمد بن أبى زيد لقضاء القيروان وقطعوا دون قبوله كل عذر ، فشرط عليهم أن يجعلوا لمن بين يديه من الأعوان مايقوم بكفايتهم من بيت المال بحجة أن من واجب السلطان أن يوصل لكل ذى حق حقه ، وليس على صاحب الحق أن يعطى من حقه شيئا[1] ، فاستكثروا ماينفق فى هذا السبيل ، وتركوه .

وإن شئت مثلا يريك الاعتزاز بالعلم والزهد فى المناصب إلا أن يتيقن السير بها فى استقامة ، فاليك قصة زياد بن عبد الرحمن : دعاه هشام عند ماتولى الخلافة بالأندلس الى القضاء فأبى ، وبعث اليه الوزراء فلم يتخلص منهم حتى قال لهم : علىّ المشى إلى مكة إن وليتمونى القضاء وجاء أحد يشتكى بكم ؛ لآخذن ما بأيديكم وأدفعه اليه وأكلفكم البينة ، لما أعرفه من ظلمكم ؛ فعرفوا أنه سيفعل ما يقول ، فتركوه .

وعناية الاسلام بالقضاء رفعته إلى درجة أفضل الطاعات ، فمن سار فيه على بينة وهدى كانت الأوقات التى يشغلها بالنظر فى النوازل وإعداد الوسائل لساعة الفصل ، أوقاتا معمورة بالعمل الصالح كافلة لصاحبها الكرامة فى الدنيا والفوز فى الأخرى ، ولهذا ترى بعض العلماء يتقلدون القضاء ويأبون أن يأخذوا عليه رزقا ، ومن هؤلاء العلماء الزاهدين أبو القاسم حماس بن مروان ، ولاه زيادة الله بن الاغلب قضاء افريقية

---

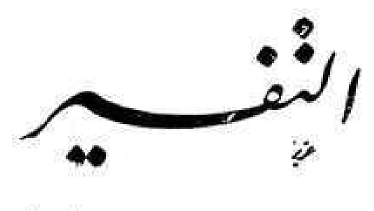
(١) نص على هذا ابن رشد فى كتاب البيان . وعمل القضاة جار على غير هذا وهو أن أجرة العون على طالب الحق .

فتولاه وأبى أن يأخذ عليه أجراً و «كانت أيامه أيام حق ظاهر . وسنة فاشية، وعدل قائم» وكان سحنون قاضى افريقية «لا يأخذ لنفسه رزقا ولا صلة من السلطان، وإنما يأخذ لأعوانه وكتّابه من جزية أهل الكتاب».

ومن أبى أخذ الأجر على القضاء فليدخر ثوابه كاملا عند الله، أو لأنه كان فى غنى، وليس فى أهل العلم من يكفى كفايته، فتكون ولايته من قبيل القيام بفرض عين . ومن تعين عليه القضاء وهو فى بسطة من المال فهو الذى لا يجيز له الفقهاء أن يأخذ على ولايته عوضا .

حقيقة إن الاسلام بنى القضاء على أسس محكمة، ونظم صالحة، وأخرج للناس قضاة سلكوا الى العدل فى الحكم، والحزم فى التنفيذ، مسلكا هو أقصى ما يستطيعه البشر، وأرقى ما يجده الباحث فى القديم والجديد، فاذا توفقت الدول الاسلامية لأن تربى رجالا مثل من وصفنا علما وجلالة أمكنها أن تحتفظ بروح العدل الذى لا يجرى إلا على يد من تنقه فى كتاب الله وسنة رسوله، واهتدى بحكمتها الى أن الدنيا متاع وأن الآخرة هى دار القرار ؟

محمد الخضر حسين



تفسير جزء تبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد طبِّ القلوب ودوائها ، وعافية الأبدان وشفائها ، ونور الأبصار وضيائها ، وعلى آله وصحبه وسلم . (رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً) .

سورة الملك

مقدمة

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي السورة السابعة والستون . وُضعتْ بعد السورة السادسة والستين : سورة التحْريم ، وضعا توقيفيا ، مع أنها نزلت بعد سورة الطُّور .

وذلك أن ترتيب سُوَرِ القرآن الكريم وآياته في التلاوة قد أَمَرَ به النبيُّ صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى هذا الترتيب كَتَبَ الصحابةُ رضوان الله عليهم المصحفَ في خلافة أمير المؤمنين سيدنا عثمانَ رضى الله عنه بإشرافه عليهم ؛ فكان ذلك المصحف الذى أَجْمَعَ عليه الصحابة علماؤُهم وقراؤُهم وسائرُ المسلمين الذين هم حفظة الدين القائمون بأمره وعلى رأسهم أميرُ المؤمنين الأجلُّ سيدُنا عثمانُ رضى الله عنه . هو مرجع المسلمين وقدوتهم في تلاوة كتاب الله تعالى وفي تَعَرُّف دينهم الذى أَكْمَلَهُ اللهُ لهم ،

وفى التفقه فى أحكام الاسلام الذى رضيه لهم دينا . ولهذا سُمِّىَ هذا المصحفُ بالمصحف العثمانى وبالمصحف الإمام .

قلنا لك إن ترتيب السور والآيات فى التلاوة والمصحفِ الإمامِ إنما كان بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن على حَسَبِ الترتيب فى نزول السُّوَر والآيات .

فأما الحكمة فى ترتيب النزول فهى أنَّ النزول كان بحَسَبِ الحوادث وعلى طِبْقِ ما يقتضيه تبليغُ الرسالة ونشرُ الدعوة الى الاسلام . ولهذا كان نزوله الى الرسول صلى الله عليه وسلم نزولا مُنَجَّما مقسَّما على الأزمان موزَّعا على الحوادث والأحوال ، كلٌّ له قِسْطُه الذى قضتْ به حكمةُ الله الحكيم . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى ردا على أعداء القرآن ، وبيانا لحكمته سبحانه فى إنزاله منجما إذ يقول : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً . كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) .

لا جدال أنَّ نزول القرآن العظيم على هذا السَّنَن القويم : سَنَن التقسيم والتنجيم ، حجةٌ من الله بالغةٌ تشهد بإحاطة علم مَنْ أنزله وحَقِّيَة إلٰهيَّته ، كما تشهد بصدق من أُنزِلَ عليه وكمالِ أمانته ، وأنَّ هذا القرآن المنزَّلَ (نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُبِينٌ . يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

أَوَلم يَرَ الذين كفروا أَن إنزال القرآن على هذا السَّنَن الحكيم سَنَن التنجيم إنْ هو إلَّا رُجُومٌ يقذفها الله تعالى على شبهاتهم فتصرَعُها ، وعلى أباطيلهم فتدْمَغُها ، فى الوقت الذى يكون فيه الحق وأهلُه أشدَّ حاجةً الى المدافعة عن الدين وصدِّ كيد الكائدين . وكذلك إنْ هو إلا هدى ونور يستبين به المؤمنون شرائعَ دينهم حينما تدعوهم الحوادث والأحوال الى استبانتها . ولا خفاء أنَّ إمْدَاد الله تعالى المؤمنين وتولِّيَه دَفْعَ الشبهاتِ

وكيدِ الكائدين لهم ، وأن زيادتهم إيمانا مع إيمانهم بما يُنزله عليهم من القرآن الكريم مُنَجَّما آناً فآناً ، في الوقت الذى تدعو الحاجة فيه الى ذلك ، بعد التشوّف والاستشراف له ، كل ذلك دليل قاطع على تمام علم من أنْزَلَه وقدرته وحكمته ، وأدْعَى الى مَزيد العناية بما ينزل من القرآن والاهتمام بحفظه وتفهّمه وثباته في القلب والحرص على العمل به . كما أنه أيضا أنْكَى وأفْعَلُ في نفوس المناوئين له ، وأدَلُّ على فحش خطئهم ، وبُعْدِ ضلالهم ، وأصالةِ جهلهم ، وأنهم (جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ) .

هذه مِيزَةٌ عظمى من الله عز وجل اختص بها رسولَه سيدَنا محمدا صلى الله عليه وسلم وقرآنَه وأمتَه . ولله الحكمة البالغة . يفضّل من شاء من عباده بما شاء كما قال : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ) (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ) .

لقد وَضَحَ لك أن نزول القرآن المجيد على هذه السنة المنجَّمة برهان ساطع على صدقه وحقّيته وأنه تنزيل من حكيم حميد ، وأنّ تلاوتَه وكتابتَه في المصحف الإمام بعد ذلك كانتا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم مُوْحًى به من الله الحكيم الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا تِبيانا لكل شيء .

وأما الحكمة (١) الإلهيـة البالغة في ذلك التوقيف فهي أن ترتيبه في التلاوة والكتابة على غير ترتيبه في النزول هو بيان وجه آخر لإعجازه ، وإبرازُ أسلوب أعْلَى أَخْرَسَ أَلْسِنَةَ المكابرين ، وتنسيقُ نَظْمٍ أَبْدَعَ أَقَرَّ ببلاغته وتَفَوّقه وإغداقِ أسفله وإثمارِ أعلاه أَسْبَقُ المعاندين في مضمار الفصاحة والبلاغة ، وأَغْلَبُهم في التحدى بنظم الكلام ونثره . فكان ذلك دليلا جديدا وحجةً ناطقةً على أن القرآن العظيم كلام الله وأنه كتاب مبارك أنزله على عبده ليدَّبَّرَ الناسُ آياتِه وليتذكر أولو الألباب .

---

(١) لم أر من تعرض لهذه الحكمة . وأرجو أن تكون صوابا بتوفيق الله تعالى .

وبهذا قامت الحجة على أولئك الذين كانوا يقولون : (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

قد يكون ما ذكرناه في الحكمة الثانية باعثا للنفوس تتساءلُ بينها : لِمَ كان الترتيب التوقيفي ترتيبُ التلاوةِ والكتابةِ آيةً بينة على إعجاز القرآن الكريم وأنه قد رَقِيَ في البلاغة الى أَسْمَى درجاتِها حتى وَلَّى أعداؤُه عن تَحَدِّيه مُدْبِرِين ؟ فالجواب عن ذلك أَن هذا الترتيب الإلهي التوقيفي قد جعل جميعَ الآياتِ والسورِ متصلا بعضُها ببعض اتصالا مُحْكَمَ العُرَا لا انفصامَ له ، حتى صارت الآياتُ والسورُ آخذا بعضها بِحُجْزَةِ بعض أَخذاً يَفُوتُ المعنى القرآني البليغ بانفكاكه ، وكانت كل آية أو سورة بمنزلة الجزء الذي لا قِوامَ لكله إلا به ، وكان القرآن العظيم جميعُه بعد التوقيف جملةً واحدةً آياتٍ بيناتٍ في صدور الذين أُوتوا العلمَ وفيما بين دَفَّتَيِ المصحف الإمام ، كلُّ سورة لا غنى لها عما قبلها ، ولا يستغني عنها ما بعدها ، وكل آية لا يقع موقعَها سواها ، حتى فيما يتراءى لأعداء القرآن أَنّ فيه كما زعموا تكرارا وأن بعضه يغني عن بعض ، كما ادعوه في الآيات التي جاءت في القصص وأخبار الأمم الماضية ، وفي آيات سور الشعراء والرحمن والمرسلات (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) . (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) . (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) . ولا ريبَ أَن هذه هي الدرجة العليا للبلاغة التي أَخرستْ البلغاءَ ، وعَيَّتْ لها مَقاوِلُ الفصحاء والخطباء من العرب أرباب اللَّسَنِ وملوكِ الكلام .

لا تك في مِرْية من بطلان ما زعمه هؤلاء الكاذبون ، فإنهم ما زعموا إلا كما زعم أَئمتهم الذين سبقوهم بعداوتهم للقرآن من قبلُ ، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) . هكذا قالوا ، وهكذا (ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) . وقد غاب

عنهم أَنَّ الغَلَبَ إنما يكون بالمنازلة ومقارعة الحجة بالحجة (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) . وقد تحدَّاهم اللهُ الذى أنزل الكتابَ ليأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة أو بحديث مثله إن كانوا صادقين فعجزوا وأفضى بهم العنادُ الى رضاهم بذلِّ العجز ومهانة العِيِّ وخيبة الهزيمة من ميدان التحدِّى .

ثم اليك مثالين من بلاغة هذا الترتيب الإلهى التوقيفى : المثالُ الأولُ للآيات ، قولُ الله جل ذكره : (وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ . وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ . إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) الآيةَ بعدُ .

فأنت ترى أن تلك الآية الأولى والآياتِ الكثيرةَ التى قبلها قد اشتملت على عِدّة أحكام ، بعضها فى العبادات كالصوم والحج ، وبعضها فى الأموال والمعاملات كالوصية والنهى عن أكل الأموال بالباطل والإدْلاء بها الى الحكام ، وبعضها فى الحدود وتأديب المعتدين كالقصاص فى القتلى والمدافعة عن الدين بالإحسان ، وبعضها فى الزواج وأحكام النساء وهو آخرها ، كما ترى أن الآية الثانية وما بعدها من الآيات قد تضمنت الأمرَ بالمحافظة على الصلوات وبيانَ أحكامها فى الخوف والأمن .

سيقول السفهاء من الناس : ما هذا الاقتضاب وما هذا البَوْنُ الشاسع بين السابق واللاحق ؟ وما الصلة التى يَتَّسِقُ بها نظمُ الآيات بعضِها مع بعضٍ ؟ وما المناسبة التى يمتزج لها موضوع آيات الصلاة بموضوعات الآيات التى قبلها ؟ فكيف يُعَدُّ مثلُ هذا الأسلوب أعلَى أساليبِ الكلام ؟ وأين تلك البلاغة التى هى إحدى معجزات القرآن ؟ .

نقول : هل عَلِمَ هؤلاء الحاقدون على القرآن السببَ الذى حَتَّمَ على أفواه

إخوانهم المُبْغِضِين للقرآن من قبلهم وهم ملوك الفصاحة والبلاغة من العرب الخُلَّصِ الذين عاصروا نزولَ القرآن وسمعوا تلاوته على هذا الأسلوب والترتيل فلم يَعيبوه ولم يَلْمِزوه بما هو أقل مما عابه به هؤلاء الناسُ؟ مع أن أولئك العربَ كانوا أَدْرَى منهم بلغتهم العربية وأَعْلَمَ بأسرارها وأعْرَفَ بأساليبها وأَخْبَرَ بوجوه فصاحتها وبلاغتها ومحاسنها وأَعْظَمَ وقوفا وأَكْثَرَ إحاطة بما يَزِينها وما يَشينها وبما يَرْقَى بها الى أعلى رتب الكلام وما ينحط بها الى أسفل دَرَكاتِه، مع تأصل عداوتهم للإسلام ومناوأتهم للقرآن ومناهضتهم لأهله.

قَسَمًا لقد عَلِمَ هؤلاء الناسُ هذا السبَبحقَّ العلم، (وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ). لقد عَلِمُوه كما علم أشياعُهم العربُ من قبل، ولكن تفرقتْ بهم سُبُلُ الجحودِ واللَّغْوِ فى القرآن المجيد، فسلك كل فريق منهم سبيلا فى الضلال غيرَ سبيل الآخر.

فأما العرب فإن الحياء قد حال بينهم وبين رَمْيِ القرآن بما تُؤاخذُهم عليه ضمائرُهم ويَعيبهم عليه العقلاء العادلون، فلم يَجْرُءوا على أن يَدَّعوا أنه ليس فى أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة وشرفِ الكلام كما اجترأ هؤلاء الناس، فسلك العرب لِلَّغْوِ فيه سبيلا آخر ظنّوه لجهلهم موصلا لهم الى ما يرجونه من الغَلَب وإطفاء نور القرآن بأفواههم، فتارة قالوا إنه سحر، وتارة قالوا إنه شعر، وتارة قالوا إنه كهانة، الى غير ذلك (والله يشهد إنهم لكاذبون).

افتَرَوْا على القرآن المجيد هذه النعوتَ الباطلةَ، يريدون أنه ليس منزلا من عند الله تعالى وأنه ليس من شأنه أن يكون ما تضمنه دينا وهدى للناس؛ زعموا هذا وأرادوه ولم يَخْجَلوا من أن بعضهم كَذَّبَ بعضا حينما اجتمعوا يتشاورون بينهم فيما يَلْغَوْنَ به فى وصف القرآن ليصُدُّوا الناسَ عن الايمان به، فكذّبوا من قال إنه سحر ومن قال

إنه شعر ومن قال إنه كهانة ، ثم انفضوا على غير رأى قطعوا به ، وتفرقوا حيارى على غير قرار اتفقوا عليه ، كما قال عز سلطانه فى شأنهم : (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ) . (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ . قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ . قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وأما هؤلاء الناسُ فإنهم وزنوا أنفسهم بغير ميزانها ، وأحلُّوها فوق رتبة العرب أهل العلم والبصيرة بمواطن الكلام وأساليبه ، ووجوه حسنه وقبحه ، وقبوله وردّه ، وعلوه ونزوله ، الى غير ذلك مما كانوا اليه يتسابقون وفيه يتنافسون . لقد استكبروا فى أنفسهم واجترءوا على لَمْزِ القرآن العظيم فى بلاغته وبديع نظمه ، وهو ما لم يجترئ عليه العرب الذين عَرَفْتَ من علمهم بلغتهم ما عرفتَ وشدةَ حرصهم على مغالبة القرآن واللغو فيه ورميه بما يشوِّه محاسنَه فى زعمهم ليصدّوا الناس عن اتباعه والإيمان به .

لو نظر هؤلاء الناسُ فى القرآن الحكيم نظر المتدبر النزيه القصد لعرفوا قدره العظيم فى متانة أسلوبه وحسن نظمه وعلوه فى إبداع مساقه وفصاحته وبلاغته ؛ ولكن ساء منهم القصد فلم يروا الحق حقا فيتبعوه ؛ بل زَيَّنَ لهم سوءُ قصدهم الباطلَ حقا فأذاعُوا به . (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

لو صح منهم النظر وسَلِمَت القلوبُ من العمى وتنزّه القصدُ عن إرادة السوء لعلموا سنّةَ الله تعالى فى قرآنه الكريم ، ولعرفوا أنه جلت حكمته يَقْرُنُ فى كتابه العزيز الشيءَ بما يقابله ، كالطاعة بالمعصية والثواب بالعقاب والايمان بالكفر والتصديق بالتكذيب ، الى غير ذلك من أنواع الصلاح والفساد ؛ وأنه كذلك يُتْبِعُ الأوامرَ والنواهيَ وقصصَ الأوائل وفضائلَ الأخلاق والأعمال ورذائلها بما يترتب عليها من المصالح والمنافع والمفاسد والمضار دينا ودنيا ، وأنه كذلك يُردِفُ الأحكامَ التى يشرعها لعباده ببيان الوسائل والأسباب الصحيحة التى تُيَسِّرُ لهم الائتمارَ بها وتسهِّلُ لهم طاعتَها

وأداءها على أحسن الوجوه وأحكمها ، وتَصِفُ لهم أنجعَ الأدوية لعلاج ما عسى أن يعترض طريقَ الامتثال من أمراض الاهمال والتفريط وأوهام المتاعب والمشاق .

على هذه السنة الالهية التي هى غاية الكمال البلاغى الذى لم يَعْهَدْه البشرُ من قبل القرآن المجيد كان الترتيب التوقيفي فى قوله تعالى : (حَٰفِظُوا عَلَى الصَّلَوٰتِ وَالصَّلَوٰةِ الوُسْطَىٰ) الآياتِ .

تتجلى لك الحكمة العليا فى هذه السنة الإلهية القرآنية إذا رجعتَ الى ما قدمناه لك وأنعمتَ النظر والتدبر فيما جاء فى غضونه من التصريح تارة والتلويح أخرى . وصفوة ذلك ما علمتَه من أن قوله تعالى : (حَٰفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ) الآياتِ ، قد جاء بعد آيات كثيرة اشتملت على جملة شرائع اصلاح العباد دينا ودنيا . ولما كانت النفوس الانسانية عُرْضَةً لأن تصاب بعدة أدواء مختلفةٍ ، وموانعَ وطوارئَ متنوعةٍ ، كالنسيان والإهمال والتواكل والتراخى ، واستثقال الأحكام والتهاون فى أدائها على وجهها وتأخيرها عن أوقاتها المحددة لها والملل والسآمة من المداومة عليها ، والبخل ببذل المال والجاه والمعروف وإسعاف المضطرين وإحسان المعاملة مع الأجانب والأقارب والأصهار والأزواج وغير ذلك ، لما كانت النفوس على ما ذكرنا عقَّبَ الله الحكيم تلك الشرائعَ فى الآيات السابقة بالأمر بالمحافظة على الصلوات على الوجه الذى يبينه فى الآيات بعد ، تعليما للناس وإرشادا لهم الى أن جميع ما قد يطرأ عليهم بإزاء تلك الشرائع من هذه الموانع والأدواء فإن الله تعالى قد أتمَّ نعمتَه عليهم فجعل لهم من هذه العوائق خلاصا ونجاة ، ومن تلك الأدواء سلامة وشفاء . تلك هى الصلاة التى اذا حافظوا عليها وحرَصُوا على إقامتها وأدائها كما أُمِروا فى أوقات الأمن والخوف والرخاء والشدة والصحة والمرض والإقامة والسفر وسائر أحوالهم وشؤونهم فإنها تكون السِّياجَ الأقوى والحصنَ المنيعَ لهم يتقون به ما يخشَوْن أن يَلْحَقَ بهم من تلك الهنَات . هذا نزرٌ قليل مما تضمنه قولُ

الله العليم الخبير فى بيان فضل الصلاة ومنافعها الجليلة فى الدين والدنيا إذ يقول : (إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ . وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

ما أَشْبَهَ هذا التوقيفَ الالهيَّ وذلك الترتيبَ القرآنيَّ (وللقرآن المثلُ الأعلى) بما يُصدره الملوك لعمَّال دُوَلِهِم من الأمر بشق الأنهار وإقامة الجسور واستصلاح الأرض للحرث والنسل وما الى ذلك ، ثم يُقَفُّونَ على ذلك فى كتاب واحد فيأمرونهم بتزكية نفوسهم من الرذائل وتزيينها بالفضائل ، ويحببون اليهم مَعَالِيَ الأمور ويُكَرِّهُون اليهم سفاسفها ومَحاقِرَها ، الى غير ذلك مما يشبهه ويتصل به . فهل يتوهم أحد أن عمّال الدولة يخفَى عليهم شئ مما أراده ملوكهم من هذه الوصايا التى قَفَّوْا بها على ما أصدروه اليهم من الأوامر الأولى ؟ لا يتوهمن أحد ذلك ، بل إنهم جميعا يدركون أن هذه الوصايا إنما قصد ملوكُهم بها عقب أوامرهم الأولى أن يتصفوا بها ويعملوا أعمالهم على مقتضاها ، لأنها الوسيلة الصحيحة الى بها يستطيعون أن يقوموا بما كُلِّفوه أحسنَ قيام .

المثال الثانى السور سورتا المؤمنين والنورِ : افتتح الله جل ذكرُه سورةَ المؤمنين بذكر طائفة من الأوصاف التى من شأن المؤمنين أن يتصفوا بها ليكونوا من المفلحين الفائزين برضا المولى جل وعلا . ومن هذه الأوصاف فضيلة العفة والتطهر من رِجْس فاحشة الزِّنَى . ثم ختم السورة بذكر نعوته الالهية العظمى ، فبيّن أنه تعالى حكيم فى صنعه لم يخلق الخلقَ عَبَثا ، بل إنما خلقهم ليَبْلُوَهم أَيُّهُم أحسنُ عملًا ثم إليه يرجعون ، وأنه تعالى الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، وأنه سبحانه وحده القائم على كل نفس بما كسبت ، يثيب المطيع بفضله ويعاقب العاصى بعدله ، وأنه هو الله الذى تُرْجَى مغفرتُه ورحمتُه ، وأنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، وأنه جل وعلا أرحم الراحمين .

وقد ذكر سبحانه فيما بين فاتحة السورة وخاتمتها ما شاء أن يذكره من بيان بعض صفات الربوبية العظمى ، كخلقه تعالى للانسان وخلقه للعالم العلوى والسفلى وما ذرأه فى خلقه من العجائب ودلائل الالهيـة ، ثم عقّب ذلك بقصص بعض الأمم الخالية الذين أشركوا به بعـد هذه الدلائل وأنه أرسل اليهم رسلا يهْدونهم الى ربهم مبشرين ومنذرين (فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) ، فوَفَّى لـكل منهم جزاء إيمـانه وكفره . وكذلك ذكر رسالة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتبليغَه قومَه فكانوا معه فى أمرها تصـديقا وتـكذيبا كما كان مَنْ قَبْلَهُمْ مع رسلهم ، (مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ) . ثم بين بعد ذلك عاقبة كل من الفريقين من الثواب والعقاب وأنّ كل نفس بما كسبتْ رَهِينةٌ (وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ) .

أما سورة النور ، فان الله جل ثناؤه قـد افتتحها بمقت تلك الرذيلة وهى فاحشة الزنى وبين ما فرَضَه على مرتكبها من العقاب المهين ، وأن تلك الفَعْلَةَ الدنيئةَ محرَّمةٌ على المؤمنين تحريما ، ونهى المؤمنين أن تأخذهم رأفةٌ مّا فى دين الله تعالى بمن يقذِّرون أنفسَهم برجسها ، بل يجب أن العـدل والزجر والتأديب وتطهير النفوس من الرذائل والفواحش تَمْلِكُ على المؤمنين أنفسَهم وتَحـولُ بينهم وبين الرقّة والعطف على أولئك المُفْحِشِين ، فإن الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر يضادُّ الشفقة على المجترئ على ربه المنتهك لحرماته المعتدى على الأعراض والأنساب الممزِّق لحجاب العفة والصيانة .

ثم ختم السورة بذكر نعوت الالهية العليا فبين أنه هو سبحانه مالك ملكوت السموات والأرض ، وأنه عليم بما يكون عليه الخلق من الأحوال والشؤون والأعمال ظاهرها وباطنها (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ) ، وأنهم سيرجعون اليه فينبئهم بما عملوا فى الدنيا من خير وشر فيثيب الأخيار ويعاقب الأشرار (جَزَآءً وِفَاقًا)

ثم بين أن علمه سبحانه أَشْمَلُ وَأَعَمُّ مِنْ ذلك ، فكما أحاط بأعماله العباد كذلك أحاط بكل شئ مما هو فى الغيب والشهادة فى الدنيا والآخرة .

ثم ذكر سبحانه بين بَدْءِ السورة ونهايتها جملةَ أحكام وآداب صالحة تتصل بذلك اتصالا وثيقا ، كَرَمْيِ المحصنات بالفاحشة وَرَمْيِ الرجال أزواجهم بها مع عدم الشهادة بها وبيانِ العقاب الدنيوى والأخروى على ذلك الرمى ، وكدخول البيوت بغير استئذان أصحابها ، وكَغَضّ الرجال والنساء الأبصارَ عن النظر المحرَّم وما يَتْبَع ذلك من إبداء النساء زينتَهن ومن إعلامهِن بها ، وكتزويج الأَيَامَى والإماء وعدم إكراه الفَتَيات المملوكات على البغاء كما كان يفعلُه أهلُ الجاهلية ، وكاستئذان الأطفال الذين بَلَغُوا الحُلُمَ فى دخول البيوت ، ونَحْلع القواعد من النساء ثيابَهن غيرَ متبرِّجات بزينة ، وحكم الأكل من بيوت الآباء والأمهات والأقارب والأصدقاء انفرادا واجتماعا ، والسلام على أهل البيوت حين دخولها تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً .

ثم إنه تعالى ذكر فى خلال ذلك كلّه ما اقتضته حكمته من بيان صفاته الإلهية الجليلة وآثارِ رحمته فى الخلق وبديع صنعه فى الأكوان عاليها وسافلها ، وما ادّخره المؤمنين المفلحين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وما أعدّه لغيرهم من توفية حسابهم على قدر جناياتهم وظلمهم لأنفسهم .

ثم بعد أن بين ما يتعلق به سبحانه أردفه ببيان ما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم ، فذكر أن المؤمنين حقا إنما هم الذين آمنوا بالله ورسوله ووقّروه حقَّ توقيره ، وإذا كانوا فى مجلسه الشريف للنظر والتدبر فى شأن من شؤون الدين أو الدنيا يجب أن يجتمعوا للبحث والتأمل فيه فإنه لا يجوز أن ينصرف عنه أحدهم إلا بعد استئذانه وإذنه عليه الصلاة والسلام ، فإن دعاءه لهم إلى الإيمان والعملِ بما جاءهم به واجتماعهم به فى مجلسه ليس كما يدعو بعضهم بعضا لأمرٍ ما ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يدعوهم إلا بدِعاية الله ولا يأمرهم ولا

ينهاهم إلا بأمره ونهيه سبحانه فكان دعاؤه لهم فوق كلّ دعاء ومجالسه أجلَّ من كل مجلس .

ثم ختم سبحانه ما أراد بيانه للعباد بتحذيرهم مخالفته فيما أرشدهم اليه من هذه الأحكام والآداب ، وأن عاقبتهم إن خالفوا أن تصيبهم فتنة من فتن الدنيا وكارثة من كوارثها يعجّلها الله المنتقم العدل لهم فيها ، أو يصيبهم معها أيضا عذاب أليم يدّخره لهم فى الآخرة (جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا) . (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ) .

فأنت ترى ما بين فاتحتى كلّ من السورتين وخاتمتيهما من كمال الاتصال وتمام التناسب ؛ كما ترى ذلك أيضا بين ما جاء فى أثناء السورتين مما لا حاجة بنا الى إعادته تصريحا ولا تلويحا . وعلى ذلك تكون جملة كل سورة من السورتين مرتبطةً بجملة السورة الأخرى آخذةً بحُجْزَتها كلَّ الأخذِ سائرةً معها جنبا لجنب ، فإنّ تآخِيَ المعانى فيهما ، وامتزاجَ المقاصدِ منهما ، وتلاقِيَ الأغراض عند نهاية واحدة ، جميع ذلك يكادُ يجعلُ السورتين سورة واحدة لا سورتين .

قلنا إن ما بين السورتين من وَثاقة التناسب ومتانة الاتصال وإحكامِ النظم يكاد يجعل السورتين سورة واحدة . حقًّا ، فان هذه حقيقةٌ ماثلةٌ لا تَخْفَى على البليغ البصير الحنيف . ثم نقول : إن خلاصة ما أسلفناه لك هو أن بين السورتين اتحادا من جهة وافتراقا من جهة أخرى . فأما اتحادهما فهو من جهة تآخى المعانى وامتزاج المقاصد الى آخر ما قدمناه . وأما افتراقهما فهو من جهة أن بعض المعانى قد ذكر فى السورتين معا ، وبعضها قد انفردت به إحداهما دون الاخرى ، وكذلك من جهة أن إحداهما قد جاء فيها ذكر معنى من المعانى ، وفى الأخرى جاء ذكر مقابِلِه الذى يُضادُّه ؛ ولكن فى جميع هذه الأحوال ترى الأسلوب هو الأسلوب الذى انقطعت دونه قُدَرُ البشرِ ، وأن النظم هو النظم الذى خَرَّتْ له جباهُ بلغاءِ العرب ساجدين .

إن الذين يتذكرون ما قدمناه لهم من أن النفوس الإنسانية عُرْضَةٌ لأن تُصابَ بعدَّة أَدْواءٍ مختلفة وعوائقَ وعوارضَ متنوعةٍ ، كالنسيان والإهمال والتواكل والسآمة

الى آخر ما سبق ، هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنَه ، وتتجلى لهم حكمةُ الله الحكيم فى قرآنه العزيز ، من أنه سبحانه يذكر المعنى بأسلوب تقتضيه حكمته فى وقت من الأوقات ، ثم يذكره مرة ثانية أو أكثر بنظم آخر أو نظمِه الأول على طبق حكمته سبحانه فى وقت آخر ، كما ترى ذلك ظاهرا فى معانى هاتين السورتين وفيما اشتمل عليه غيرهما من السور ، كقصص الرسل والنبيين وأخبار الأمم والإنذار والتبشير وأحوال الغيب وأمور الآخرة ، والوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والوعظ والترغيب والترهيب ، وبيان الأحكام وفضائل الصفات والأعمال والأخلاق ، وصفات الله عز وجل وكمالاته ، الى غير ذلك مما أنت به خبير .

ثم اعلم أن ذكر المعنى فى القرآن المجيد مرة بعد أخرى هو تثنية وثَنْىٌ له . وذلك المعنى مَثْنَاةٌ ومَثْنًى أى محلٌ للتثنية والثَّنْى بمعنى جعلِه ثانيا وتاليا لما قبله ، فالعدد الثانى مثلا هو ثان ومَثْناةٌ ومَثْنًى للواحد ؛ والعدد الثالث هو كذلك بالنسبة للثانى ؛ والعدد الرابع كذلك بالنسبة للثالث ، وهَلُمَّ جرًّا . وكذلك الآية أو السورة الثانية هى ثانية ومَثْنَاةٌ ومَثْنًى للأولى ، وهكذا . وبهذا الاعتبار سمى القرآن كله مثانى [١] ، أى تُعادُ فيه المعانى مرة بعد أخرى بأساليب مُعْجِزةٍ مختلفة النظم لحكمة بالغة اقتضت ذلك . ومن تسمية القرآن كله مَثَانِىَ قولُه تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ) وقولُ سيدنا حسانَ بنِ ثابت رضى الله عنه :

مَنْ لِلْقَوافِى بعد حسانَ وابنِه ومَنْ للمَثَانِى بعد زيدِ بنِ ثابتِ

وكذلك يسمَّى بعضُ القرآن مَثَانِىَ ، ومنه تسمية الفاتحة بذلك كما فى قوله تعالى . (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ [٢]) . وقولُ الشاعر :

---

(١) جمع مثناة أو مثنى . أى كما سمى مثنى أيضا باعتبار آخر . والآية صالحة لذلك . (٢) وهذا على جعل من فى قوله تعالى « من المثانى » للبيان لا للتبعيض .

الحمد لله الذى عافانى وكلَّ خير صالحٍ أعطانى رب مثانى الآىِ والقرآنِ

فهل بعد هذا يسوغ لمدل بصير بلغة العرب ، خبير بواقع الكلام ، عليم بدقائقه وحِكَمه و إشاراته ، عارف بأساليبه وفنونه ووجوهه ، أن يتّهمَ القرآنَ العظيمَ بالحشو أو التكرار المَعيب أو أنه فى حاجة الى الحذف والاختصار والتبديل والتهذيب ، الى غير ذلك مما زيَّنه لكثيرٍ من شياطين الانس أولياؤهم من شياطين الجن (يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) ؟ (فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) .

قد تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمد ويُنْكِرُ الفمُ طعْمَ الماءِ من سَقَمِ

على أن الله الذى أنزل القرآن قد أرشدنا الى أن الناس بإزاء القرآن العزيز كانوا حزبين : حزب الله وحزب الشيطان ، وذلك قوله تعالى : (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ . وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . أُولَـٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ) .

وبعدُ فاننا نرجو السَّداد والتوفيقَ من الله عز وجل فيما نكتبه من تفسير هذا الجزء التاسع والعشرين من كتابه العزيز ، حتى يتبين لهؤلاء الناس أنه الحق المنزل من الله الحكيم الحميد ، (هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) ، ويعلمَ المخدوعون بهم أن هؤلاء الناسَ للقرآن منكرون ، وعنه صادُّون صادفون ، و إذ ذاك تتقطعُ بهم الأسباب ، ويَرْجِعُ بعضُهم الى بعضٍ القولَ ، ويكونَ للقرآن العظيم عليهم الحجةُ البالغةُ . (وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا . قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) ؟

حسن منصور
وكيل دار العلوم سابقاً

التوسل وجهلة الوهابيين

كتبنا فى العدد الثامن كلمة وجيزة فى التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم وحذرنا غلاة الوهابية ومن حذا حذوهم من تكفير المسلمين وقلنا لهم إن التكفير أمر عظيم لاينبغى لمن يشفق على دينه أن يسارع اليه، وذكرنا من الأدلة على جوازه ما يخضع له المنصف ولا يمارى فيه إلا الجاهل المتعسف، فجاءتنا رسائل من جهلة الوهابيين كلها سب وإقذاع وليس فيها غير ذلك، ولا غرو فسلاح السفهاء بذاءة اللسان لا قوة البرهان.

وإنى أبادر فأقول: إن كل مايجد القارىء فى مقالى هذا من كلمة لاذعة فانَّا لا نقصد بها إلا سفهاءهم وأراذلهم وحاشا أن نقصد منهم عاقلا أو كاملا فانْ سبق القلم بغير ذلك فهو على غير قصد منا وإنما جرنا اليه جهل الجاهلين وجمود الجامدين.

وجرم جره سفهاء قوم ... فحل بغير جانيه البلاء

وقد خيل لأولئك السفهاء أنهم سينسفون الحق وأهله بسفاهتهم التى لا تزيدهم عندنا إلا صغارا واحتقارا ولسنا نقيم لها وزنا وإن تفننوا فيها؛ وكم فى كلامنا من إشارات لم يفهموها ورموز لم يدروا المراد منها وإن ظنوا أنهم مبرزون فيما يكتبون.

إن العصافير لما قام قائمها ... توهمت أنها صارت شواهينا

ويعز علىَّ أن أقول إن مجلة أم القرى (وإنا نحترمها كل الاحترام) كان فيها مقال طويل الذيل من هذا القبيل، وللحق والانصاف نقول إنه جاءنا رسالة من بعض المكيين تحت إمضاء (ا. د) سلك فيها الكاتب مسلك الأدب ولم يقذع إقذاع أولئك الزعانف، وربما نشرناها وعلقنا عليها تحقيقا للحق وإبطالا للباطل. أما اليوم فنقول: ليعلم القارىء الكريم أن إسناد الفعل تارة يكون لكاسبه كفعل فلان كذا

وتارة يكون لخالقه كفعل الله كذا والكل حقيقة فى اللسان العربى ؛ وقد جاء ذلك فى القرآن الشريف (وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) . ومع هذا فقد قال : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) . وهو كثير معروف .

فإن منع أولئك الجهال الإسناد على وجه الاكتساب فهم مجانين ؛ وإن ادعوا أن الواقع فى كلام الناس هو الإسناد للخالق لا للكاسب فهى دعوى كاذبة لم يقم عليها برهان، وقد استباحوا بهادماء المسلمين جهلاوضلالا . ومن منع الإسناد على وجه الكسب سقطت مخاطبته وانقطع الكلام معه . فمثلا : الغوث من الله خلق و إيجاد ومن النبى تسبب وكسب . هذا على فرض أننا طلبنا الغوث منه صلى الله عليه وسلم مع أننا لم نفعل ذلك ، ولو فعلناه لصح على طريق التسبب والاكتساب بطلب الدعاء منه عليه السلام ؛ وقد قالت أم اسماعيل عند ما سمعت الصوت (أغث إن كان عندك غواث) فأسندته إليه على سبيل الكسب ؛ فكيف يجوز مع هذا تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم بالتوسل والاستغاثة (حتى على اصطلاحهم الذى لا نوافقهم عليه والنزاع فى معان لا فى ألفاظ) ؟!

وقد جاء فى الحديث الصحيح « من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما فان كان كما قال و إلا رجعت عليه » وقد قال الله تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) . فاذا كان هذا فى رجل لم يكن منه إلا مجرد السلام الذى هو تحية المسلمين ، فكيف بمن يتجاسر على خيار الأمة المحمدية ويكفرهم بالتوسل بالأنبياء والصالحين بشبه أوهى من بيت العنكبوت (أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) ؛ ومن المقرر أن اليقين لا يزول بالشك وأنه يؤول للمسلم من وجه الى سبعين وجها كما نص عليه النووى وغيره من العلماء .

ولست أدرى هل يأخذ هؤلاء بظواهر العبارات أم بالمقصود منها ؟ ؛ فان كان التعويل عندهم على الظواهر كان قول القائل (أنبت الربيع البقل) وأروانى الماء وأشبعنى الخبز شركا وكفرا ؛ وإن كانت العبرة بالمقاصد والتعويل على ما فى القلوب التى تعتقد أنه لاخالق إلا الله وأن الاسناد لغيره إنما هو لكونه كاسبًا له أو سببا فيه لا لكونه خالقا له لم يكن شىء من ذلك كله كفرا ولا شركا ؛ ولكن القوم متخبطون خصوصًا فى التفرقة بين الحى والميت على نحو مايقولون (كأن الحى يصح أن يكون شريكا لله دون الميت) أو كأن الأرواح تستمد قوتها وسلطانها من الأشباح لا العكس ؛ ولكنهم ليسوا أهل منطق ولا برهان ، ثم انضم إلى ذلك الصلف المذموم والكبرياء الممقوتة . فبماذا نخاطبهم ؟ وعلى أى قاعدة نحاورهم ؟ ولكننا نكتب لغيرهم عسى أن نقيه شر سمومهم التى ينفثونها فيما يكتبون تبعا لأسلافهم مطبقين الآيات التى نزلت فى الكفار على المسلمين ؛ مع أن الشاذ عن جماعة المسلمين أولى بالتكفير منهم وأقرب إلى الخطأ والضلال . وهل يرضون أن نقول لهم إنكم مخالفون لسلف الأمة وخلفها اتباعا لمن قبلكم ، ثم نطبق عليكم قوله تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا) . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) . (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) . وعندنا من ذلك شىء كثير وهل لنا أن نأخذ بظاهر هذا الحديث وهو أصح مما تأخذون به فنقول إنكم كفرتم عند ما رميتم المسلمين بالكفر ؟ أو نقول إنكم من أولئك الذين يحقر أحدنا صلاته بجنب صلاتهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ؟ أو نقول إنكم من أولئك الخوارج الذين قال فيهم عبد الله بن عمر ـ كما فى صحيح البخارى ـ إنهم عمدوا إلى آيات نزلت فى المشركين فجعلوها فى المسلمين ؟ أو نقول

كما قال ابن عمر أيضا إنكم قتلتم أهل الاسلام وتركتم أهل الأوثان ؟ أو نقول : (ولا نريد إلا أولئك الفظاظ الغلاظ الجامدين الجاهلين) : إنكم أعداء الله حيث أثبتم له الجهة وشبهتموه بخلقه ، وأعداء رسول الله حيث لم توقروه ولم تراعوا حرمته ، وأعداء أولياء الله حيث حقرتموهم كل التحقير ، وأعداء جميع المسلمين حيث استحللتم دماءهم وأموالهم حتى قتل أطفالهم من بنات وبنين وذلك شيء لم نفعله مع أكفر الكفرة وأفجر الفجرة الى آخر فظائعكم وشنائعكم .

فيأيها الناس اتقوا الله فى المسلمين فنحن أحوج الى الوئام والاتحاد أمام العدو الذى أجمعنا جميعا على كفره وعداوته . بل اتقوا الله فى أنفسكم واعلموا أن النفس أمارة بالسوء وأن من اتبع هواه ضل عن سبيل الله ولو سلكنا مسلككم واتبعنا خطتكم وقابلنا السيئة بالسيئة لقلنا لمن يريد نصحكم ونحن يائسون منكم : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) . وعلى نهجكم كان يمكننا أن نسير ولكن ديننا أعز علينا من أعراضنا التى نهشتموها ودمائنا التى استبحتموها ؛ ولعمر الله لقد صيرتم الاسلام بذلك ناراً مضطرمة على وجه الأرض لا دين يسر وسلام كما جعله الله ، بل صار دين جهالة وجمود مع أن نبيه يقول : « إن الله لاينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم » . وإنا لنعلم أن الفرق الضالة كلها تستدل بالقرآن على نحلها ونزعاتها ، فلا يغرنكم ما تستدلون به من الآيات فى غير محل الاستدلال مطبقين إياها على المسلمين خطأ وجهلا كما فعل أسلافكم فان ذلك لايغنى عنكم من الله شيئا . والناجى من نجاه الله (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِياً مُرْشِدًا) . ولا أدرى لماذا قامت قيامتكم وقد قلنا إننا نعتقد فى توسلنا أن الله هو الفاعل ولسنا نطلب من غيره فعلا ولا عملا ولكن نسأله بمنزلة

النبي عنده وتلك المنزلة ثابتـة له فى الدنيا والآخرة وبها نذهب اليه للشفاعة يوم القيامة وذكرنا وجوها أخرى هى فى غاية الوضوح لا داعى لإعادتها ؟ : وسـنفيض بعد فيما يقنع المناظر ويفحم المكابر . فما ذلك الشرك الذى شغفتم بذكره ؟ وما ذلك التكفير الذى جننتم برمى المسلمين به ؟ وسنذكر من أدلة التوسل مايلقمكم الحجر ونبين لكم أن آية (وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ) . ما ذكرناها إلا لما قاله بعض أئمتكم وستسمعونه بعد ، ولأننا لا نسـتبعد منكم شيئا مما يعقل وما لا يعقل ، ولأن التفرقة بين الأحياء والأموات فى هذا المقام غير صحيحة ، فان الطلب من الله والفعل لله لا من المستغاث به على أنه يستطيع أن ينفعنا بدعائه على ما نوضحه أتم توضيح . ولنقتصر على هذا ونورد لكم شيئا عن الأرواح وعملها بعد الموت مما قاله ابن القيم ، وشيئا عن التوسل مما قاله الشوكانى وهما من أئمة الوهابية الذين يرددون كلامهم فى كل موطن ، بل كل ما تراه لهم من علم أو ما يشبه العلم فانما هو لابن تيمية وابن القيم والشـوكانى يحكونه واحدا بعـد واحد كالببغاء أو كالحاكى للصوت (الفنوغراف) وليتهم كان لديهم من الأمانة (ما للفنوغراف) أو ليتهم عرفوا كل ما قال أئمتهم فسلكوا طريقتهم ولم يقولوا بغير قولهم . وهذا هو كلام ابن القيم فى الأرواح بعد موتها :

عمل الارواح بعد الموت

قال ابن القيم فى كتاب الروح : إن للروح المطلقة من أسر البدن وعلائقه وعوائقه فى التصرف والقـوة والنفاذ والهمة وسرعة الصعود إلى الله تعالى والتعلق به سبحانه وتعالى ما ليس للروح المهينـة المحبوسة فى علائق البدن وعوائقه بسبب انغماسها فى شهواتها . فاذا كان هذا فى عالم الحياة الأرضية وهى محبوسة فى بدنها فكيف اذا تجردت عنه وفارقته واجتمعت فيها قواها وكانت فى أصـل نشأتها روحا عالية زكية كبيرة ذات همة عالية ؟ فهذه لها بعد مفارقة البدن شأن آخر وفعل آخر . وقد تواردت

الرؤى فى أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد الموت أفعالا لا تقدر على مثلها حال اتصالها بالبدن فى هزيمة الجيوش الكثيرة بالواحد، والفيالق بالعدد القليل جداً ونحو ذلك؛ وقد رئى النبى صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما فى النوم قد هزمت أرواحهم عساكر الكفر والظلم فاذا بجيوشهم مغلوبة مكسورة مع كثرة عددهم وضعف المؤمنين وقلتهم. هذا ما قاله ابن القيم. فانظر فيه مع ما يقول هؤلاء. ولا تنس أنه ليس لهم علم ولا شبه علم إلا من كلام ابن القيم وأصحابه؛ ولكن يظهر أنهم قاصرو الاطلاع كما أنهم قاصرو العقل.

التوسل فى رأى الشوكانى

وقال الشوكانى وهو ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة عندهم: قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى بعض فتاواه ما لفظه: « والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيه مسلم؛ ومن نازع فى هذا المعنى فهو إما كافر وإما مخطىء ضال » أقول فليكن النزاع فيما هو اللائق به وما يقدر عليه وفيما لا يليق به ولا يقدر عليه؛ ولا شك أنه قادر على أن يدعو لنا وهو فى البرزخ كما قال فى الحديث الذى ستعلم صحته: « تعرض علىّ أعمالكم فإن وجدت خيراً حمدت الله وإن وجدت شراً استغفرت لكم » ولنرجع الى تتميم كلام الشوكانى.

قال الشوكانى: « وأما التشفع بالمخلوق فلا خلاف بين المسلمين أنه يجوز طلب الشفاعة من المخلوقين فيما يقدرون عليه من أمور الدنيا » هذا ما قاله؛ وإنى أكرر لفت نظرك الى أنه يجب أن يكون البحث اذاً فى تحقيق ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه؛ وقد علمت أنه قادر على أن ينفعنا وهو فى البرزخ بدعائه كما كان فى الدنيا؛ فليكن محل النزاع هو كونه قادرا أو غير قادر؛ على أنه لا وجه للشرك على كل حال. ثم قال الشوكانى: وفى سنن أبى داود أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم إنا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك

على الله . فقال : « شأن الله أعظم من ذلك . إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » فأقره على قوله نستشفع بك على الله وأنكر عليه قوله نستشفع بالله عليك . الى أن قال :

وأما التوسل الى الله سبحانه بأحد من خلقه فى مطلب يطلبه العبد من ربه فقد قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : إنه لا يجوز التوسل الى الله تعالى إلا بالنبى صلى الله عليه وسلم إن صح الحديث فيه . ولعله يشير الى الحديث الذى أخرجه النسائى فى سننه والترمذى فى صحيحه وابن ماجه وغيرهم — أن أعمى أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى أصبت فى بصرى فادع الله لى فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « توضأ وصل ركعتين ثم قل اللهم إنى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد يامحمد إنى أستشفع بك فى رد بصرى اللهم شفع النبى فىّ » وقال « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » فرد الله بصره . وإنى ألفت نظرك الى قوله « فإن كان لك حاجة فمثل لذلك » .

ثم قال الشوكانى : وعندى أنه لا وجه لتخصيص جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم كما زعمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام لأمرين : الأول ما عرفناك به من إجماع الصحابة رضى الله عنهم . والثانى أن التوسل الى الله بأهل الفضل والعلم هو فى التحقيق توسل بأعمالهم الصالحة ومزاياهم الفاضلة ، إذ لا يكون الفاضل فاضلا إلا بأعماله ؛ فاذا قال القائل : اللهم إنى أتوسل اليك بالعالم الفلانى فهو باعتبار ما قام به من العلم ؛ وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما أن النبى صلى الله عليه وسلم حكى عن الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم الصخرة أن كل واحد منهم توسل إلى الله بأعظم عمل عمله فارتفعت الصخرة ، فلو كان التوسل بالأعمال الفاضلة غير جائز أو كان شركا كما يزعمه المتشددون فى هذا الباب كابن عبد السلام ومن قال بقوله من أتباعه لم تحصل الاجابة من الله لهم ولاسكت النبى صلى الله عليه وسلم عن إنكار ما فعلوه بعد حكايته عنهم .

وإنى أرجوك أن تمعن النظر فى جعله ابن عبد السلام متشددا مع قوله بجواز التوسل به صلى الله عليه وسلم ؛ غاية الأمر أنه قصر ذلك عليه . ثم قال الشوكانى :

وبهذا تعلم أن ما يورده المانعون من التوسل الى الله بالأنبياء والصلحاء من نحو قوله تعالى: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى). ونحو قوله تعالى: (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا). ونحو قوله تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ) ليس بوارد؛ بل هو من الاستدلال على محل النزاع بما هو أجنبي عنه فان قولهم (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) مصرح بأنهم عبدوهم لذلك. والمتوسل بالعالم مثلا لم يعبده بل علم أن له مزية عند الله بحمله العلم فتوسل به لذلك وكذلك قوله تعالى: (فلا تدعوا مع الله أحداً) فانه نهى عن أن يدعى مع الله غيره كأن يقول يا الله يا فلان، والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله؛ وإنما وقع منه التوسل اليه بعمل صالح عمله بعض عباده كما توسل الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة بصالح أعمالهم. وكذلك قوله: (والذين يدعون من دونه) الآية فان هؤلاء دعوا من لايستجيب لهم ولم يدعوا ربهم الذى يستجيب لهم؛ والمتوسل بالعالم مثلا لم يدع إلا الله ولم يدع غيره دونه ولا دعا غيره معه.

فاذا عرفت هذا لم يخف عليك دفع مايورده المانعون للتوسل من الأدلة الخارجة عن محل النزاع. الى أن قال: والمتوسل بنبي من الأنبياء أو عالم من العلماء لا يعتقد أن لمن توسل به مشاركة لله جل جلاله فى أمر. ومن اعتقد هذا لعبد من العباد سواء كان نبيا أو غير نبي فهو فى ضلال مبين. وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) فإن هاتين الآيتين مصرحتان بأنه ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر الله شيء، وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف يملك لغيره؟ وليس فيهما منع التوسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء أو العلماء. وقد جعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم المقام المحمود — مقام الشفاعة العظمى — وأرشد الخلق إلى أن يسألوه ذلك ويطلبوه منه

وقال له : « سل تعط واشفع تشفع » إلى أن قال : وهكذا الاستدلال على منع التوسل بقوله صلى الله عليه وسلم لما نزل قوله تعالى : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ) . يافلان ابن فلان لا أملك لك من الله شيئا . يا فلانة بنت فلان لا أملك لك من الله شيئا فان هذا ليس فيه إلا التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لا يستطيع نفع من أراد الله تعالى ضره ولا ضر من أراد الله نفعه ، وأنه لا يملك لأحد من قرابته فضلا عن غيرهم شيئا من الله تعالى . وهذا معلوم لكل مسلم ؛ وليس فيه ألاّ يتوسل به الى الله فان ذلك هو طلب الأمر ممن له الأمر و إنما أراد الطالب أن يقدم بين يدى طلبه مايكون سببا للاجابة ممن هو المتفرد بالعطاء والمنع .

هذا كلام علمائهم الذين يقدمونهم على علماء المذاهب الاربعة ؛ على أن لهم مع هذا شذوذاً لا نوافقهم عليه فى كثير من المواضع ؛ ولكن أتباعهم الذين لم يتذوقوا العلم إلا منهم ولم يتشدقوا بما يشبه الحق إلا بفضل كتبهم التى لا يستقون الدين والهدى إلا منها وليس وراءها لديهم علم ولا دين — يجب عليهم ألا يخالفوهم فى ورد ولا صدر ، وأن يكون كلامهم حجة عليهم كما كان الحجة لهم . ويكفى هذا اليوم . وسنذكر من الأدلة الصحيحة الصريحة مايدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم يجوز التوسل به قبل وجوده وبعد وجوده فى الدنيا وفى البرزخ وفى عرصات القيامة . وقد وعدناهم فى كلمتنا الأولى بذكر الأدلة وتمام التفصيل ولكنهم قوم لا يفقهون .

وكثيرا ماتراهم اذا أرادوا أن يردوا علينا أو على غيرنا قرروا مذهبهم (ونحن أعرف به منهم) متخيلين أن الأدلة يرد عليها بالدعاوى غير المبرهنة ؛ وحيث عجزوا عن الاستدلال فلنتبرع نحن باقامة الأدلة على فساد كل دعاويهم (حتى دعوى التفرقة بين توحيد الالوهية وتوحيد الربوبية) وإن كان عجز المدعى عن إثباتها كافيا فى سقوطها ؛ فلينتظروا ما سيخزيهم فى الأعداد المقبلة إن شاء الله .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الدين سبيل السعادة فى الحياتين

ما أعجب شأنك أيها الانسان ، أيها الضعيف الجبار، أيها العاتى العاجز، أيها الخطير الحقير ، أيها الصغير الكبير : إن من تأمل فى هذا المخلوق (النوع الانسانى) رأى العجب العجاب ، رأى أشد المخلوقات احتياجا ، وأكثرها مطالب ، وأعجزها عن أن يستوفى لوازمه بمفرده ، وأجزعها اذا فاته شيء مما يطلب ، وأحرصها على التمسك بما نالته يده ولو لم تدع اليه حاجته الحاضرة (إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ).

تنظر الى أنواع المخلوقات فتجدها كلها ذات حاجات محدودة يكفل كل فرد منها مصالح نفسه بنفسه ، واذا احتاج الى الانضمام الى غيره من جنسه فالى حد محدود بمقدار ما يتعاون على دفع عدو كبعض أنواع القردة ، أو بمقدار ما ينظم إنتاجه الذى هيئ له بحسب خلقته كالنحل ، أو ما يشاكل هذين الغرضين من المصالح التى ليست بضرورية لحياة الفرد أو النوع ، أما هذا المخلوق فأضعف المخلوقات عن أن يستغنى فى وجوده عن غيره فهو فى أشد الاحتياج بل الاضطرار الى أن يستخدم فى مصالحه واستكمال حياته من القوى ما لا يدخل تحت حصر ، وكلما استكمل حاجة من حاجاته بدت له حاجة أخرى أشد منها ، وهكذا :

نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجات من عاش لا تنقضى

تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقى

وإن الحاجة الواحدة لتستدعى من القوى المتعاونة ما لا يعرف عدده إلا بالتأمل وطول التفكير ، انظر الى ثوبه الذى يلبسه ولا بد له منه ليقى نفسه عوادى الجو التى

لا قبل له بها وهو وحده من بين المخلوقات الشديدُ الضعف عن تحمل حوادث الجو. انظر الى ثوبه وافرضه ثوبا بسيطا من قطن مثلا وادرس تاريخ حياة هذا الثوب من يوم حرث الأرض، ولا تنس المحراث وما ركب فيه من حديد وخشب وحبال ومواش وما يتطلبه كل واحد من هذه الأشياء من معدّنين يستخرجون المعدن من منجمه وصناع يصفونه ويصقلونه ويصوغونه ومثله الأجزاء الأخرى، ثم انظر الى وضع البذور وما يستتبعه من عملية زراعية سابقة، وانظر الى السقى وما يطلب من آلات متنوعة، وكم من الأيدى اشتغلت فيها، فاذا تم نباته وبدا صلاحه فما هى أعمال جمعه وإعداده للنسيج؟ وكم بين يد الزراع ويد الناسج من وسيط صناعى وتجارى؟ ثم ما هى أعمال النسيج وماذا تستتبع، وما طريق رده من يد الناسج الى يد المشترى المستهلك، وكيف يرده الى خائطه وما هى أدوات الخياطة وما تحتاج اليه؟ هذه سلسلة لا تحتاج الى أن نشرحها لك، وإنما نذكر لك شيئا منها ندعوك به الى التأمل فى كل حلقة من تلك السلسلة الطويلة كيف تجر وراءها سلسلة أطول وتستخدم أيديا عاملة أكثر؛ وما من يد عاملة إلا وهى محتاجة الى أيد كثيرة جدا تخدمها لتوفرلها قوتها التى تستعين بها على خدمتها لك.

فهل فكرت يوما فى هذا الجيش الجرار الذى يخدمك فى ثوبك القطن البسيط، وأنك بدونه لا تستطيع أن تعيش؟ وهل فكرت يوما فى ضعفك المتناهى وأنك فى حاجة شديدة فى أبسط أمورك الى خدم يقومون أودك ويؤدون اليك منافع أنت اليها جد مضطر؟ وهل أنت فى شك مما قدمناه اليك من أن هذا الانسان أشد المخلوقات حرصا على ما نالته يده مما عساه يحتاج اليه ولو على احتمال ضعيف فهو كنوز شحيح لا تسمح نفسه بالتجاوز عما أحرزت يده بل ولو لم يحتج اليه؟ هل هو كالسباع التى متى شبعت تركت فضل فريستها؟ وهل هو كالدجاج الذى متى اكتفى ترك الحب ومضى؟ وهل

هو كالبهائم التى ترعى حتى تشبع ثم تعرض عما تأكل حتى تجوع فتعود على قدر حاجتها ؟ كلا ، ما هو من ذلك فى شىء فهو اذا مسه الخير منوع فلا تطيب نفس امرئ عن شئ يناله إلا فى مقابلة شئ يعادله ، وعلى ذلك تجد نفسك مضطرا — لكى تنال خدمة هذا الجيش الجرار — أن تخدم هـذا الجيش الجرار خدمة تعادل ما نلته منه وهنا ألفتك الى كلمة (تعادل ما نالته منه) فمن ذا الذى يحكم لك أو عليك بأن هذا عدل ذاك فلم تظلم ولم تظلم ؟ إن هذا أيضا باب من أبواب الاحتياج يجر وراءه سلسلة من أطول السلاسل هى سلسلة الحكم والقضاء والتنفيذ وما الى ذلك من قوة مهيمنة على جميعها ثم جيش يسندها . أرأيت هذا الضعف ؟ وأى ضعف أشد من أن ترى نفسك محتاجا فى معيشتك البسيطة الى أن يخدمك جيش وأن تخدم جيشا ؟

وكلما ارتقت حياة المرء فى الحضارة وانغمس فى النعيم كثرت حاجاته واشتد اليها احتياجه ، والنعيم نُشدته دائما فهو فى كل حال ينشد الضعف وأسبابه ويجره الى نفسه جرا ، فالنعيم والترف محبوبان وهما من أقوى عوامل الضعف . فما أشبه حال الانسان فى ذلك بقول الشاعر :

أحبه وهلاكى فى محبته كعابد النار يهواها وتحرقه

ولا تنس أن المترفين أضعف منه وأوهى احتمالا وأشد جزعا لفقد حاجة من حاجاتهم بل لنقص لذة كمالية مما تعودوه بالرفه وأصبح قرين حياتهم ولا غنى لهم عنه . فكلما ارتقت حياة المرء اشتد ضعفه وناهيك بذلك ضعفا . وما أحسن تعبير ابن خلدون فى وصف بعض الأمم بقوله : وقد أصابهم (داء الترف) فأفناهم ، ويقول بعض الناس : « الرفه مرض اختيارى تجلبه النعمة ويأخذه من يشاء » .

هذه ناحية من نواحى ضعفه نبهناك اليها وهى مما يدل قليله على كثيره لمن تأمل وتنقل بنظره فى شئون الانسان المتكثرة .

وأما ناحية جبروته وقوته وعنفه فهى أظهر من أن تخفى ؛ فقد مكن الله له فى الأرض (خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا) وهداه الى كيفية الانتفاع بها وبقواها المبثوثة فيها وسخر له كل شىء وأطلق يده فى كل عمل غير معطل الأسباب ولا محروم النتائج ، وبث له من القوى فى هذا العالم ما تمكن به من التحليل والتركيب فى كبيرات الأمور وصغيراتها والاستثمار والاستعمار فى فجاج الأرض ومسالكها ، وأدنى له القطوف وركب فيه الحاجة التى تدفعه الى الكد والكدح وابتكار الوسائل وشجعه نجاحه فى الوصول الى ما يبتغى متى أحكم الوسائل مما لم يكن يخطر له على بال ؛ وهنا تفتقت له الصناعات وانقادت له القوى وصح أن يحرز هذا اللقب الجليل المذكور فى قوله تعالى : (إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولقد أخذ فى هذه العوامل يتمود بعضها بعضا ويساعد أحدها الآخر فكلما عالج غاية وصل اليها متى ثبت وأتقن أسبابه وانتفع بهذا الملك الواسع الذى منحه الله له فى قوله جل من قائل : (خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا) لقد بحث عما خلقه الله له بدافع حاجاته المتتالية المتزايدة التى لا تقف عند حد فاهتدى اليه والى استخدامه والانتفاع به بمقتضى ما وهبه الله من قوة العقل والفهم ثم نسى احتياجه وذكر نجاحه فاعتز واغتر وطغى وتجبر حتى حدثته نفسه أن يشارك ربه فى جبروته وكبريائه . (كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ) ولكن سرعان ما تفجؤه فاجعة لم تكن له فى حساب — وما أكثر نواحى ضعفه — فيخر من سماء كبريائه جزوعا هلوعا ويضعف ذلك الجبار حتى يرى نفسه غير جدير بالحياة التى وهبها له ربه فقد يحاول التخلص منها وهى أعز شئ عليه وكأنه يردد فى خطرات نفسه قول ذلك القائل الجبار :

وانا أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

على رسلك أيها القارىء الكريم ولا تتعجل فى النقد فكأنى أسمع منك هذه الكلمة (لقد نسى الكاتب رأس موضوعه) (الدين سبيل السعادة فى الحياتين) وخاض بنا

فى حديث غيره . لا لا ، مانسيته ولا نسيني و إنما مهدت لك بهذه المقدمة لتحسن الاستماع لما سيتلى عليك ، ولتعلم أن منزلة الدين من فروع الحياة منزلة النفس الذى لا يستغنى عنه لحظة فهو أكثر من منزلة الغذاء والشراب وكل شأن آخر .

لقد تبينت أن الانسان محفوف بعاملين عظيمين شديدى الأثر فى مجرى حياته : عامل الضعف وعامل القوة ، وأنهما يفعلان به فعلهما ويفتكان بسعادته وهناءته ، وأنه فريسة لهما لا يستطيع التخلص منهما ، فاعلم أن أعظم ما ينقذه من فتكهما ولعبهما به هو تدينه وشعوره بأن له إلهاً مهيمناً عليه وعلى كل شئ فى هذا العالم ، وأن بيده ملكوت كل شئ واليه المرجع فى كل شئ . هذا الشعور والاعتقاد متى حل فى النفس وتمكن منها غالبت به ما يعتريها من الوهن والتضعضع من متاعب الحياة ومصاعبها ، فاذا غلبتها تكاليف الحياة وناءت بثقلها تذكرت أن لها ربا ، ربا أغدق عليها نعمه وغمرها فى بحر إحسانه وكرمه ووهبها نعمة الوجود والقوة والعقل وتسخير كل شئ وتسهيل سبل الحياة ، وهبها كل هذا ولم تدفع له ثمنا ولا تصورته قبل أن يوهب لها ، فجدير بواهب النعمة كرما أن يديمها ويجددها كرما ، وهنا يحق له أن ينشد قول القائل :

لا تيئسن ولا تخف ودع التفكر والأسف[1]
الله عودك الجميـل فقس على ما قد سلف

فتقوى نفسُه على تحمل أكدار الحياة ويتسع صدره لمصاعبها ويزول عنه التضعضع المهلك والخنوع المزرى فيستجم نشاطا جديدا ويستجمع قوى فتية فيقبل على شأنه مستعينا

(١) شطرها بعض أهل العصر بقوله :

لا تيئسن ولا تخف من هاتف بك قد هتف
سلم لربك أمره ودع التفكر والاسف
الله عودك الجميـل وليس يسمح بالتلف
واذا سألت عن الدليـل فقس على ما قد سلف

بربه واثقاً بمعونته . وكيف به اذا هو أقبل على عبادة ربه واتجه الى مناجاته بلسانه وقلبه وبدأ عبادته بهذه الكلمة التى تبعث فيه أعظم قوة إذ يقول : الله أكبر ، ثم يردفها بقراءة أم الكتاب وفيها الثناء على الله بما هو أهله واستحضار أنه رب العالمين يربيهم ويبلغهم كمالاتهم التى أرادها لهم ، ثم ذكر رحمته المتكررة وقوة ملكه فى دار الآخرة وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ، ثم أخلص نفسه لعبادته وحده وجعل معونته به وحده ، وأى معونة تلك التى تستمد من أعظم قوة بل من مصدر القوى والقدر ، بل من واهب الوجود وما حوى ؟ ههنا تسمو النفس من حضيض ذلها ، وتسترجع العظمة بواسطة عبوديتها ، وتحتقر كل ما يصادفها مما تكره فى سبيل أنها أحرزت أعظم غاية تقصد من حياتها هذه الفانية .

فليت الذى بينى وبينك عامر	وبينى وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين	وكل الذى فوق التراب تراب

نعم ويشعر بأن هذه الدار دار فناء وممر وأن الدار الآخرة دار بقاء ومقر فلا ينبغى أن يذهب نفسه حسرات على حياة إنما هى لحظات قصيرة تنقضى سراعا ، ويقول كما قال فقير لعظيم : إن الفرق بينى وبينك لحظة وتنقضى فما مضى فنى منى ومنك ، وما بقى مغيب ومنعدم عنى وعنك ، وليس إلا اللحظة الحاضرة ، فما شأنها فى حياة الخلود فى الدار الآخرة ؟ أليس هذا الشعور مما يقوى عزائم النفوس ويشد أزرها فى تحمل أعباء هذه الحياة ؟ فكيف اذا اجتمع اليه الاعتقاد بأنه اذا قابل مصائبها بالاطمئنان وقضاء ربه بالرضا نال بذلك الجزاء الأوفر الأوفى وفاز عند ربه بالحسنى ودخل فى قوله جل شأنه : (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) ؟ أليس يعتبر ما هو فيه من نكد الحياة فرصة سعادة يغتنم بها رضا ربه والفوز بدخول جنته ؟ أليس يقول مع القائلين إن مصيبة تعطف المرء الى

ربه وتوجب عطف ربه عليه خير من نعمة تصرفه عنه وتكون وسيلة لنقمته ؟ إن الشعور بهذه النعمة من أعظم ما يهون على المرء شقاء الحياة (والحياة كلها شقاء) ويبدلها سعادة وغبطة . وحقا إن من سلب من المرء إيمانه فقد سلبه سعادة الدنيا قبل أن يسلبه سعادة الآخرة .

هذا شأن الدين فى إنقاذ النفوس من فتك عوامل الضعف بها ، وأما شأنه فى معالجة ما يبطش بها من عوامل الشعور بالقوة فهو أعظم خطرا وأكبر أثرا ؛ ذلك أن النفس اذا اعتزت بقوتها واغترت بالنعم التى أحرزتها فنسيت نفسها وتجاهلت منزلتها ملكها الطغيان وتمكن منها الشيطان فبطرت معيشتها وعتت عتوا كبيرا . وإنك لتجد فى طبيعة النفوس من التطلع الى مقام الكبرياء وأنه يملك عليها مشاعرها ما اذا تأملته أشفقت عليها من نتائجه الوخيمة ، وما ظنك بنزغة من نزغات الشيطان تطوح بتلك النفس الضعيفة الى منازعة الله العلى الأعلى فى كبريائه ؟ التفت وحقك الى ما يكون من المخدوم مع خادمه حين يعارضه فى رأى أو يشير عليه بصواب أو يدافع عن نفسه بالحق كيف يكبر منه هذا ويستاء له ويؤنبه على تكلمه أمامه وإن بحق ؛ روى أن عظيما قال لشخص كيف تجادلنى وترد على كلامى فقال ياسيدى إن الله تعالى يقول : (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) ألا ترى هذا العظيم يعطى نفسه حقا لم يرضه الله لنفسه وهو أنه لم يسمح لمن أمامه أن يجادل عن نفسه ؟ ! ثم ارجع بنظرك الى ما يجرى بين الناس الى وقتنا هذا ولا تغضب اذا قلت لك لعلك تكون من هذا القبيل فى بعض الأحيان و إلا فلماذا تجد نفسك تتحرك بالغضب اذا ما خاطبك خادمك أو مرءوسك يدافع عن نفسه بالأدب والحق ولا تتحرك اذا أغلظ لك القول من تعتقد فيه العظمة بالباطل ، اصدقنى وأنصف من نفسك واعلم أن الشعور بالقوة أخطر أثرا على النفس وأشد إهلاكا لها وأحوج الى المعالجة

لا نفاذها من براثنهـا من الشـعور بالضعف ، لا بل هما قوتان متكاتفتان على النفس تفتكان بها لولا ما وهبه الله من الدين الذى بعث به خير المرسلين وقال له : (وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ) .

فاعلم أن الشعور بأنك عبد الله أمرك أن تشكر نعمته عليك وتقدر نفسك قدرها ولا تعطيها ما ليس من حقها هو من نعم الله عليك التى تحفظ غيرها من النعم وتزيدها . هذا ، وإن الاسترسال فى الاعتداد بالقوة من شأنه أن يصرف القلوب بعضها عن بعض ويوقع بينها النفرة والبغضاء فتسوء حياة صاحبه ويشعر بالمقت يتبادل بينه وبين الناس ؛ ولا أتعس من حياة الكاره المكروه من خلطائه أجمعين .

ويعجبنى قول الغزالى فى التنفير من الكبر والترغيب فى التواضع « إنك لو رأيت عالما جوادا متكبرا لأبغضته لكبريائه ونفرت نفسك من علمه وجوده ، ولو رأيت جاهلا بخيلا متواضعا لوجدت من نفسك الميل اليه لتواضعه ، فناهيك برذيلة أودت بفضيلتين وفضيلة سترت رذيلتين» أضف الى ذلك أن الدين يعدل مزاج القوة ويوجهها الى خير طريق يوصل الى أشرف غاية . تأمل فى قوله تعالى : (وَٱبْتَغِ فِيمَا ءَاتَـٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) . تجد أن الله تعالى يرشدنا الى أن ما خولناه من نعمته بذر مخصب لمن أحسن زرعه وأنه صالح لأن يدر عليه أعظم الخيرات وينتج له أطيب الثمار حتى زرعه فى مكانه الصالح له ؛ ذلك بأن يبتغى فيه الدار الآخرة فيقوم بحق ربه فيه فتكون نعمة جرت نعما وغنيمة استتبعت غنائم ، وتكون كقولهم : الخير يجلب الخير . أو كقول العامة : لا يجلب المال إلا المال ، فهى نعمة امتحنك بها فإن شئت جعلتها متجرا رابحا لنعم وفيرة ، وإن شئت لهوت بها فضيعت على نفسك الخير العاجل الآجل ، فيكون الشخص حينئذ ممن خسر الدنيا والآخرة

ذلك هو الخسران المبين . ثم أردف ذلك بقوله : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) ونصيبه منها إما الاستمتاع بما خول من نعمة فكأنه يقول له : لم تكلف أن تصرف كل ما أوتيت من نعمة الى باب الإحسان الى الغير وتنسى نفسك فالدين يسر لا عسر وإما أن النصيب من الدنيا هو ما يحرزه بواسطة تلك النعم فى الآخرة ويكون المعنى أنك اذا لم تبادر الى اغتنام الفائدة العائدة عليك من نعم الله عليك فقد نسيت نصيبك وظلمت نفسك بحرمانها من ثمرة تهيأت لها ، وأى ظلم أكبر من ظلم المرء نفسه ؟ ويقول الله بعد ذلك « وأحسن كما أحسن الله اليك » يهون عليه أمر الاحسان بأن يفهمه حقيقة ما هو فيه وأنه إحسان من الله وأنه مهما ادعى لنفسه أن ذلك بقوته وكسبه وكده وكدحه فما وهبه تلك القوى بل ما وهبه أصل الوجود إلا الواحد القهار الذى إن شاء سلبه إحسانه وكان ذلك جزاء عادلا على أنه لم يحسن كما أحسن اليه . وما أجمل أن يردف هذا بقوله تخويفا و إرهابا : (ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين) . فإنها توجه الى النفوس التى تتعاصى على عوامل الترغيب ولا يجدى فيها إلا الإنذار والتهديد ويكفى التعبير عنه بأنه فساد فى الأرض و إن الله لا يحب المفسدين ، ومن ذا الذى يطمئن جنباه وقد أصبح وأمسى لا يحبه مولاه ؟ :

هـذا شيء من معالجة الدين لعوامل الفتك بالنفوس من ناحيتى القوة والضعف يتبين به مقدار السعادة العائدة على النفس من الدين ، وقد بقى عامل آخر أجل وأعظم يتجلى فى الدين الاسلامى أعظم تجل ، ذلك هو وضوح المعتقد ومتانة الدليل وسطوع الحكمة فى الأحكام . وأول آثار هذا طمأنينة النفوس و إنقاذها من الحيرة التى تقض المضاجع . وإن أكبر منغصات الحياة هو الحيرة فى فهم ما كلفت فهمه ، أوضعف الأدلة المؤيدة لما أوجب الدين اعتقاده أو منافرة الأحكام المكلف بها للصالح الخاص أو العام ولوشاء الله لا بتلانا بشيء من هذا ولكن رحمة منه وفضلا (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)

ولم يطلب منها لمرضاته إلا ما فيه خيرها ونفعها ، واعتبر ذلك فى الاحكام الخاصة والعامة تجده أوضح من أن يحتاج الى دليل .

فهل تستهين بنعمة إنقاذ النفوس من تلك الحيرة التى نشير اليها ، وهل تشك فى أن العقيدة الاسلامية فى وضوحها وسهولة قبولها وساطع براهينها هى فى الذروة السامية والمثل الأعلى ؟ وإن المجلة لتلم من حين الى حين بتفاصيل تجلو ما عساه أن يخفى على بعض النفوس وإن كانت الشمس لا تحتاج الى دليل .

وبعد فان ما بيناه يشرح أثر الدين فى سعادة الأفراد فردا فردا ، وقد بقى أثره فى سعادة الجماعة فى هيئتها الاجتماعية ؛ وإن هذه السعادة تتنوع الى نوعين : الأول ما يرتكز على سعادة الأفراد ، فإن الجماعة المكونة من أفراد تسود بينهم هذه السعادة يشعرون جميعا بسعادة مضاعفة ، واعتبر ذلك فى شخص مسرور بين قوم مسرورين وآخر عنده أسباب مسرة الأول ولكنه بين قوم محزونين ، ترى أن حزن جاره قد نغص عليه مسرته وأضعف ابتهاجه بها بخلاف الأول فقد استكمل الغبطة والحبور . والنوع الثانى ما تعود أسبابه الى الروابط الاجتماعية وعلاقات ما بين الناس بعضهم وبعض وهذا يرجع الى أصلين عظيمين : الفضل والعدل ؛ أما الفضل فبابه الأخلاق ، وقد بلغ من عناية الشرع بها أن كاد ينحصر فيها غرض البعثة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وأما العدل فناهيك بأحكام المعاملات سواء فى سياسة المنزل المعروفة بالأحوال الشخصية أو فى سياسة المدنية المعروفة بالأحكام المدنية أو ما يتبعها من أحكام العدو أو الجنايات التى تضمن ردع الناس عن غيهم وسلامتهم من شرهم .

ولقد جاءت الشريعة الاسلامية ولله الحمد بما لا مطلب بعده لطالب ، ولا تزال الأمم تحيد عنها عمدا ثم ترجع اليها قهرا وقسرا ، تقهرها التجارب وتلجئها المصالح

وما شذوا فيه اليوم فلا بد من رجوعهم اليه ولو بعد حين، و إن فى قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) . كفاية وكفاية، و إنك اذا تصورت حياة قوم قد نضبت نفوسهم من معين الدين وانتشرت بينهم الأخلاق المنهية شرعا وتصورت ما يكونون عليه من تنابذ وتدابر وشحناء وبغضاء واضطراب أمن وقطع صلات لتصورت التعاسة مجسمة وقلت بينك وبين نفسك : الحمد لله على نعمة الاسلام الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وكذلك لو تصورت حياة فرد قد نبذ الدين ظهريا واندفع فى شهواته المنهية شرعا ورأيت كيف يسوء حاله فى ماله وعقله وصحته وشرفه وكيف تؤول به حياة الدعارة والفجور الى أسوأ حياة وأشقى معيشة، لسألت الله السلامة من الفساد ولقلت : اللهم احفظ علينا ديننا، تبتغى بذلك حفظ سعادة هذه الحياة و إن لم تفكر فى أمر الحياة الآخرة، و إن أنس لا أنس رجلا شهدته بالاسكندرية مات أبوه عن ثروة واسعة جدا وقد كسبها بعرق جبينه فكان على تنميتها والمحافظة عليها جد حريص حتى فاته أن يعنى بتربية أبنائه وتهذيبهم بأكثر من منعهم قسرا مما يشتهون، ولم يؤيد ذلك بغرس الفضيلة فى نفوسهم أو توجيهها نحو الغايات السامية ولو بإشعارهم بمعنى الكرامة الدنيوية، فما هو إلا أن مات ذلك الأب المسىء حتى اندفع ذلك الابن التعس فى حياة اللهو والدعارة باستهتار وسراء شديدين فكان كمن كاد الظمأ يقتله فعثر بماء مثلوج فكلما شرب اشتد به الظمأ فلم تمض عليه شهور عدة حتى ذوى شبابه وساءت صحته وتملكته الأمراض من كل جانب ولم يكن له بها من عهد، فعرض نفسه على الأطباء فأشاروا عليه بترك النساء والخمور والسهر وحياة اللهو وأنذروه أنه إن خالف فإنه لا يمضى عليه شهر كامل حتى يفارق الحياة فاستمع لنصيحتهم أيام معدودات ثم غلبته شقوته واستحكمت فيه شهوته فعاد مندفعا بأشد

مما كان فلم يمض عليه شهر من تاريخ مشورة الأطباء حتى فارق الحياة غير مأسوف عليه من أحد ولا من أهله .

أفلا تقول معى بئست الحياة حياة لا تقوم على أساس متين ولم تشيد على أركان الدين : والأمثلة كثيرة على ذلك لا تكاد تحصى .

هـذا شئ من سعادة الحياة بالدين فى الدنيا ؛ وأما سـعادة الحياة الأخروية فنصوصها فى الشرائع جميعها وفى آيات القرآن الحكيم أكثر من أن تذكر ويكفى قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) . والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالأزهر

الطُرف والمُلح

قال بعض الحكماء : إن من علامة المؤمن قوةً فى دين ، وحَزْما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحُكما فى علم ، وعطاء فى حق ، وقصدا [1] فى غنى ، وغنى فى فاقة ، وإحسانا فى قدرة ، وطاعة فى نصيحة ، وتورعا فى رغبة ، وتعففا فى جَهْد [2] ، وصبرا فى شدة .

***

وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن فلانا رجلُ صدقٍ ، قال : سافرتَ معه ، قال لا . قال : فكانت بينك وبينه خصومةٌ ؟ قال لا . قال : فهل ائتمنته على شىء ؟ قال لا . قال : فأنت الذى لاعلمَ لك به ، أُراك رأيته يرفعُ رأسَه ويَخفضُه فى المسـجد !

(١) توسطا لاتبذيرا ولا تقتيرا . (٢) مشقة واحتياج .

الفتاوى والأحكام

القراءة على الأموات

وكون الله فى السماء

جاءنا خطاب مطول من الأستاذ محمود على أحمد المدرس بمدرسة المنتزه تكلم فيه عن التوسل وأنه يجب أن يكون قاصرا على الأعمال ، وعن القراءة للميت ويرى حضرته أنه لا فائدة فيها للأموات ، وعن كون الله فى السماء ويرى وجوب ذلك وأن القرآن يدل عليه وكذا السنة .

أما التوسل بالأعمال فهو مشروع به ورد الحديث الصحيح الذى رواه الامام أبو عبد الله البخارى وغيره ، ولكن التوسل ليس مقصورا على هذا وإنما هو نوع من أنواعه ؛ فان سر التوسل أن تسأل الله بما أحب من الأعمال الصالحة أو غيرها : كأن تسأله بصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، أو بمن أحب : كأن تسأله بأنبيائه وأصفيائه . ولا وجه لقصره على الأعمال كما يرى حضرته ؛ بل كل محبوب لله يصح التوسل به سواء كان عملا أو غيره ؛ والنبى أشد حبا لله من جميع مخلوقاته لا يوازيه فى ذلك عمل ولا غير عمل . وقد أوسعنا الكلام فى ذلك بما يشفى ويكفى ؛ فارجع اليه إن شئت . ولا داعى لأن نطيل بذكر كلام السائل فى هذا .

القراءة على الميت :

كتب السائل كثيرا نقتصر منه على المهم . والكاتب يرى أن القراءة بدعة لا فائدة فيها للميت ؛ قال العلامة ابن عابدين فى شفاء العليل : «وظهر فى هذه السنة الإيصاء بدراهم

تدفع لقراءة الصمدية » وتاريخ الفراغ من تأليف هذه الرسالة سنة ١٢٢٩ أى أنها بدعة من منذ ١٢٠ سنة . وقال العلامة النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « وأما قراءة القرآن وجعل ثوابها الميت فذهب الشافعى رحمه الله الى أنها لا تلحق بالميت » وقال الامام البركوى فى خطبة له : « والصلاة والسلام على حبيبه الذى نهى أمته عن الأكل بالقرآن والدين » وقال الامام الفيروزبادى : « ولم يكن من عادة السلف أن يجتمعوا للميت ويقرءوا له القرآن الخ » ثم قال السائل مفرعا على ذلك : « فكل ما لم يكن مشروعا منع التعبد به وهو مردود على صاحبه واذا كان كذلك فما وجه التعب فيما لا فائدة فيه للميت ؟ ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن لم تشرع للأموات وسواء كانت القراءة بسورة (الإخلاص) أو غيرها من القرآن فلم تشرع البتة . وأما حديث (اقرءوا على موتاكم يس) فقد نقل عن الدارقطنى أنه قال : «هذا حديث مضطرب الاسناد مجهول المتن ولا يصح» ووافق على ذلك الامام الرازى فى شرحه على الجامع الصغير . هذه عيون ما كتب السائل فى موضوع القراءة .

ونحن نقول له : (أولا) إننا اذا كتبنا عن شئ سئلنا عنه فانما نذكر ما نرجحه من آراء العلماء فى المسألة ؛ وليس معنى ذلك أنه لا خلاف فيها بل معناه أن المختار هو ما نذكره ؛ وقلما تجد مسألة مما يسأل عنه السائلون لا خلاف فيها . ولهذا ننصح لكل مشفق على دينه محتاط فى أمره أن يكون أحد رجلين : فإما باحثا منقبا عن كل ما قال العلماء غير مقتصر على بعض الآراء ، ولا مغترا بما يزينه كثير من أرباب الأهواء ، ويكون مع ذلك فيه أهلية المقارنة بين الأقوال ، والموازنة بين الأدلة ، قد جرد نفسه من النزعات الخفية قدر الاستطاعة بحيث يكون متهما لنفسه غير مسارع للحكم بما يراه أول وهلة : شأن أئمة الهدى وعلماء السلف الذين كانوا يحتاطون لدينهم ويخافون على أنفسهم ، وسيرتهم فى ذلك معروفة مشهورة . هذا أحد الرجلين .

أما الرجل الثانى فهو رجل نظر انفسه بالإنصاف فرآها قاصرة عن بلوغ ذلك المدى ، ورأى الأدلة متشعبة والأمر واسعا يحتاج الى فهم دقيق وعلم غزير يحيط بالأدلة وما يعارضها ، وبالعمومات وما يخصصها ، وبالمطلقات وما يقيدها ، وبالنصوص وماينسخها ، وبالظواهر وما يقدم عليها ، وبالضعيف وما يرجح عليه الى آخر ذلك البحر الزخار ، فعرف قدره ، ولم يتعد طوره ، فاختار ما عليه السواد الأعظم من المسلمين ، ولم يشذ عنهم فى قليل ولا كثير عالما أن الذئب إنما يأخذ الشاة القاصية . ويكفى أن نستشهد فى هذا الموضوع بأن الكاتب حفظه الله نظر فى كتب أعرفها أنا ويعرفها هو فخرج منها بعقيدة أن الله فى السماء ؛ وسنفيض القول فيها . ولنرجع الى مناقشة الاستاذ فى بعض ما قال فنقول :

إن الذى نقله عن ابن عابدين إنما يفيد كون الإيصاء هو الذى حدث فى السنة التى ذكرها للقراءة التى هى محل النزاع . ثم ليسمح لنا أن نسائله : لماذا لم ينقل عن الرسالة المذكورة إلا هذه العبارة وفيها كثير مما يؤيد رأينا من وصول القراءة للأموات ؟ : وكذا عبارة صاحب القاموس لا تفيد غير أن الاجتماع للقراءة على نحو مخصوص بدعة وليس هذا محل النزاع . على أن فى سفر السعادة أشياء كثيرة أخذت عليه .

أما عبارة البركوى فهى ناطقة بأن النهى إنما هو عن الأكل بالقرآن والدين ، وأين هذا مما نحن فيه ؟ والعجب كل العجب بعد ذلك من نتيجتك التى استخلصتها من تلك النصوص حيث تقول : فالقراءة على الأموات لم تشرع البتة : وقد أغفلت آراء محترمة لعلماء محترمين من أئمة الهدى لم تقم لها وزنا ؛ وليس هذا من شأن من خلا من العصبية وتجرد عن الأهواء ودعى للحق والهدى بنزاهة وإخلاص . ولا أدل على أن هناك شهوة خفية مما ذكرته حضرتك فى حديث « اقرءوا يٓس على موتاكم » عن الدارقطنى ؛ وكان الواجب أن تذكر ما قاله غيره فى الحديث أيضا . قال فى نيل

الأوطار الجزء الرابع نمرة ٥٢ : « اقرءوا يٰس على موتاكم » أخرجه أبو داود وأحمد في مسنده والنسائي وابن حبان وصححه . وقال أحمد في المسند حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان أن المشيخة كانوا يقولون اذا قرئت « يعني يٰس » لميت خفف عنه بها وأسنده صاحب مسند الفردوس ؛ وقال الطبري في الحديث : « إن المراد الميت الذي فارقته روحه . وحمله على المحتضر قول بلا دليل » أو نقول : مجاز بلا قرينة ؛ وقد ذكر شراح الكنز في مذهب الحنفية أن كل عمل صالح يصل ثوابه الى الميت سواء كان قراءة أو غيرها . فلينظر حضرة الكاتب هذا مع ما استنبطه من عبارة ابن عابدين الحنفي . وأما ما نقله عن الامام النووي في شرح مسلم فلا أجد عنه جوابا أحسن من أن أنقل لك نصوص الشافعية أنفسهم :

قال في شرح الروض في كتاب الإجارة : « فرع : الاجارة للقراءة على القبر مدة معلومة أو قدرا معلوما جائزة للانتفاع بنزول الرحمة حيث يقرأ القرآن » كالاستئجار للأذان وتعليم القرآن ويكون الميت كالحي الحاضر سواء أعقب القراءة بالدعاء أو جعل أجر قراءته له أم لا فتعود منفعة القراءة الى الميت في ذلك ، ولأن الدعاء يلحقه وهو بعدها أقرب إجابة وأكثر بركة ، ولأنه اذا جعل أجره الحاصل بقراءته للميت فهو دعاء بحصول الأجر له فينتفع به . فقول الشافعي إن القراءة لا تصل اليه محمول على غير ذلك ؛ بل قال السبكي تبعا لابن الرفعة بعد حمله كلامهم على ما اذا نوى القارئ أن يكون ثواب قراءته للميت بغير دعاء : على أن الذي دل عليه الخبر بالاستنباط أن القرآن اذا قصد به نفع الميت نفعه ، إذ قد ثبت أن القارئ لما قصد بقراءته نفع الملدوغ نفعته ، وأقر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « وما يدريك أنها رقية » واذا نفعت الحي بالقصد كان نفع الميت بها أولى لأنه يقع عنه من العبادات بغير إذنه ما لا يقع عن الحي . وفي الرملي على المنهاج في باب الوصايا أن الدعاء بوصول ثواب القراءة للميت مقبول قطعا ، فانه اذا كان مقبولا بما لا حق فيه للداعي فكيف بما له فيه حق وعمل . أي فهو مقبول من باب أولى .

وقال ابن الصلاح : وينبغي الجزم بنفع قوله : اللهم أوصل ثواب ما قرأناه ، لأنه اذا نفعه الدعاء بما ليس للداعي فماله أولى ؛ ويجرى هذا فى سائر الأعمال . وقال الشبراملسى على الرملى : إنه إن نوى ثواب قراءته أو دعا عقبها بحصول ثوابها الميت أو قرأ عند قبره حصل له مثل ثواب قراءته وحصل للقارئ أيضا الثواب ؛ فاذا سقط ثواب القارئ لمسقط كأن غلب الباعث الدنيوى فينبغى ألاَّ يسقط مثله بالنسبة للميت فيما اذا كانت القراءة بأجرة ، وينبغى أن تكفى نية القارئ الثواب للميت ولو لم يدع ؛ واختار السبكى وابن حجر والرملى وغيرهم جواز إهداء ثواب القراءة للنبي صلى الله عليه وسلم قياسا على الصلاة عليه .

نصوص المالكية :

قال فى الشرح الكبير : إن قراءة القرآن على الموتى ليست من عمل السلف الصالح لكن المتأخرون على أنه لا بأس بقراءة القرآن والذكر وجعل ثوابه للميت ، ويحصل له الأجر إن شاء الله ، وهو مذهب الصالحين من أهل الكشف . وقال فى التوضيح فى باب الحج : والمذهب أن القراءة لا تصل للميت ، حكاه القرافى فى قواعده والشيخ ابن حمزة وفيها ثلاثة أقوال : تصل مطلقا ، لا تصل مطلقا ، والثالث : إن كانت عند القبر وصلت وإلا فلا . وفى آخر نوازل ابن رشد فى السؤال عن قوله تعالى : (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ) قال : وإن قرأ الرجل وأهدى ثواب قراءته للميت جاز ذلك وحصل للميت أجره . وقال ابن هلال فى نوازله : الذى أفتى به ابن رشد وذهب اليه غير واحد من أئمتنا بالأندلس أن الميت ينتفع بقراءة القرآن ويصل اليه نفعه ويحصل له أجره اذا وهب القارئ ثوابه له . وبه جرى عمل المسلمين شرقا وغربا ، ووقفوا على ذلك أوقافا واستمر عليه الأمر منذ أزمنة سالفة .

ومن اللطائف أن عز الدين بن عبد السلام الشافعى رئى فى المنام بعد موته فقيل له : ما تقول فيما كنت تنكر من وصول ما يهدى من قراءة القرآن الموتى ؟ فقال : هيهات ، وجدت الأمر على خلاف ما كنت أظن .

وفى الحطاب والخرشى أجازها ابن حبيب لخبر « اقرءوا يس على موتاكم » وهذا مقابل لقول مالك بعدم الوصول ؛ ولعل ذلك لم يصح عن مالك ؛ سلمنا صحته فتحمل الكراهة على فعله استناناً . ونقل ابن الفرات فى باب الحج عن القرافى : الذى يتجه أنه يحصل لهم بركة القرآن كما يحصل لهم بركة الرجل الصالح يدفن عندهم . والقراءة للميت وإن حصل الخلاف فيها لا ينبغى إهمالها ؛ فلعل الحق الوصول ، فان هذه الأمور مغيبة عنا وليس الخلاف فى حكم شرعى إنما هو فى أمر هل يقع كذلك ؛ وكذا عادة التهليل اليوم؛ ويعتمد فى ذلك على فضل الله تعالى .

وقال فى المدخل : « من أراد ثواب وصول القراءة فلا نزاع ، فليجعل ذلك دعاء بأن يقول : اللهم أوصل ثواب ما أقرؤه إلى والدى مثلا . وفى مجموع الأمير ما يؤيد ذلك .

هذه نصوص العلماء سردناها عليك ، ووكلنا الحكم فيها اليك ؛ فكيف يحل مع هذه النصوص أن تقطع بعدم نفع الميت بالقراءة (البتة) ؟!

هذا ومعلوم أن الحديث الضعيف يعمل به فى فضائل الأعمال مع أن فى الباب غير الضعيف كما بيناه فى كتابتنا الأولى ؛ وقد قلنا إن الضعيف اذا عمل به المسلمون التحق بالصحيح لأنه يصير كالمجمع عليه ؛ ولا فرق بين الإجماع القولى والإجماع العملى ، وقلنا أيضا إن القياس يقتضيه ؛ وقد وردت الأحاديث التى لا شك فيها بوصول ثواب غيرها من الصدقة والصلاة والصوم والحج فكيف القطع بعد ذلك بأنه لا فائدة فيها للميت البتة !

إنى أحب من أهل الدين والعلم أن يعلموا أن من أدلة الدين شيئا غير ما يتشبسون به من النصوص التى جمدوا عليها يسمى القياس ، وهناك أنواع أخرى من الاستدلال عول

عليها العلماء فى كثير من المسائل . ويعجبنى فى هذا الموضوع قول من قال من المالكية : لاينبغى ترك القراءة للأموات فإنه خلاف فى الواقع المغيب عنا، فلعل الواقع الوصول. وغير خاف عليك بعد ذلك أن مسائل الفقه ظنية، ولعلنا نحرم الميت من ثواب كثير بترك القراءة له . هذا ما نراه ولا نفتى بغيره ؛ ويكفى هذا فى موضوع القراءة .

أما ما ذكر السائل من كون الله فى السماء، تلك العقيدة التى تصادم البراهين العقلية كل المصادمة فنرجىء الكلام فيه لعدد آخر فإن الكلام فى ذلك طويل وجليل ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الرضاع

وورد أيضا هذا السؤال من صاحب التوقيع :

س : ولدت امرأة ولدا وأخرى بنتا وأرضعت أم الولد البنت مع الولد ثم ماتت البنت ورزقت أمها بنتاً بعدها ولم ترضع مع الولد، ثم رزق المرأتان بولدين ورضع ابن أم الولد من أم البنت، فما حكم هذا الرضاع لو أراد الولد أن يقترن بالبنت الأولى التى لم ترضع معه، ولو أراد أيضا الولد الذى رضع مع أخيها أن يقترن بأختها ؟ وما حكم النكاح لو فرض أنهما تزوجا فعلا ؟

محمد ابراهيم أبو خضره
مدرس الإلزامى ببنى سويف

الجواب : إن الولد الذى رضع من امرأة يحرم عليه التزوج من بناتها سواء كان رضاعه معهن أو قبلهن أو بعدهن، والبنت التى رضعت من امرأة حرم عليها التزوج بواحد من أولادها كذلك ؛ أما الولد الذى لم يرضع من أم البنت فيجوز له أن يتزوج البنت

التى لم ترضع من أمه ؛ فقوله فى السؤال : « لو أراد الولد أن يقترن بالبنت التى لم ترضع معه » إن كانت هذه البنت لم ترضع من أمه أصلا لا قبله ولا معه ولا بعده ، وكان هو لم يرضع من أمها أصلا ، صح النكاح . أما لو رضعت من أمه أو رضع من أمها فلا يحل النكاح سواء كان رضاعهما معا أو لا ، وأما قوله : «ولو أراد أيضا الولد الذى رضع مع أخيها أن يقترن بأختها» فهذا لا يحل له ؛ فانه برضاعه من أمها صار أخاها سواء كان رضاعه معها أو قبلها أو بعدها . وبذلك يتبين جواب قوله « ما حكم النكاح لو فرض أنهما تزوجا فعلا » وذلك أن هذا نكاح باطل يجب فيه التفريق بينهما حالا .

والأصل فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرم من الرضاع ماحرم من النسب » رواه الترمذى ؛ وروى الشيخان وغيرهما أن رجلا استأذن على عائشة رضى الله عنها بعد مانزل الحجاب فأبت أن تأذن له حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن امرأة أخيه أرضعتها فقال لها : « ائذنى له فإنه عمك تربت يمينك » فبذلك كانت عائشة تقول «حرموا من الرضاع مايحرم من النسب» والقاعدة عند الفقهاء أن التحريم ينتشر بالرضاع من المرضع الى أصولها وفروعها وحواشيها أى أبائها وأبنائها وأخوتها اذا كان الراضع أنثى ، وأمهاتها وبناتها وأخواتها اذا كان الرضيع ذكراً ؛ وكذلك ينتشر التحريم من صاحب اللبن وهو أبو الطفل الذى نزل اللبن المرتضع من أجله ، فيحرم أصوله وفروعه وحواشيه ؛ أما الرضيع فينتقل التحريم منه الى فروعه فقط أى يحرم الرضيع وأبناؤه على مرضعته وتحرم الرضيعة وبناتها على صاحب اللبن وهو أبو الطفل الذى ينزل له اللبن ؛ وأما أصول الرضيع وحواشيه فلا يحرمون ولا يحرمن . والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالأزهر

بيـان
فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر
بشأن حوادث طرابلس الغرب وبرقة

فى ٢١ من شهر ذى القعدة سـنة ١٣٤٩ نشرت مجـلة الفتح أخبارا عما ارتـكبه بعض الايطاليين فى طرابلس الغـرب وبرقة من شأنها أن تهز العـالم الاسـلامى وتثير شـعوره واحتجاجه لما تضمنته من نحو إهانة المصاحف الشريفة وانتهاك حرمة بعض المعابد والاعتداء على الأعراض .

وعلى أثر اطلاعنا عليها فى ذلك التاريخ قمنا بأول الواجبات علينا نحو ذلك الموضوع واتصلنا برجال حكومتنا السنية لمعرفة حقيقة الأمر ؛ وقد أبدوا من جانبهم اهتماما يشكرون عليه واتصلوا بالمفوضية الايطالية فى القاهرة ، فأبلغتهم أن مانشر لا أساس له من الصحة ، وأصدرت بلاغا بذلك نشرته جريدة المقطم فى ذلك الحين . وكان فى مبادرة المفوضية الايطالية باصداره معنى التقدير للحرمات الاسلامية والشعور الاسلامى .

وعلى أثر توالى الاحتجاجات وعدم اكتفاء الجمهور بهذا البلاغ المختصر اتصلت من جديد بحضرة صاحب الدولة اسماعيل صدقى باشا رئيس مجلس الوزراء فأفهمنى اهتمام الحكومة بهذا الشأن ، وأن حضرة صاحب المعالى وزير الخارجية على اتصال بجناب الوزير المفوض للحصول على بيانات أوفى وعنـد ما يتم ذلك سـيطلع عليه الجمهور ؛ وقد شـكرت دولته وحكومة جلالة مولانا الملك على تلك العناية .

ولا شك فى أن الذى يهمنا ويهم العالم الاسلامى هو أن تكون شعائر الاسلام وعقائده وحرمات المسلمين هناك وفى كل مكان مصونة حتى تهدأ الخواطر وترد الى النفوس طمأنينتها ويزول ما اعتورها من قلق ؟

محمد الاحمدى الظواهرى

العلوم والآداب

للعلم حدود لا يتعداها [1]

إن العلم والفلسفة يبدوان بعيدين كل البعد عن متناول عامة الناس ولكن الواقع أنهما ليسا كذلك ، فان أجيالا متعاقبة من بنى الانسان تناولوا معضلة الخلود بالبحث وبحثوا غوامض ما وراء الطبيعة والمادة مما يروق العلماء والفلاسفة أن يطلقوا عليها أسماء ضخمة متعددة المقاطع وهم لا يعرفون عنها إلا القليل الذى يعرفه عامة الناس ، ولكن ابتكار تلك الأسماء الضخمة تجعلهم يشعرون بالبراعة والعبقرية ويتخذون منها سترا يتقون به النقد ، والحقيقه أنهم لا يحيطون منها إلا بالنزر اليسير .

والواقع أن الفرد العادى ليس أقل تفكيراً فيما وراء الطبيعة والمادة من الفيلسوف الكبير ، فكلاهما تائه فى مهامه هذا التفكير ، فاذا تعمق فيه واندفع الى أقصى حدوده أفضى به فى النهاية الى الشك المطلق والاعتقاد بعبث ما يبذله من مجهود .

ونحن فى هذا العصر عصر العلم والتعليم ليس لنا غرض أسمى من التغلب على العامية ، فلا بد لكل فرد أن يعرف القراءة والكتابة سواء كانت العقول والعواطف قد هذبت وصقلت ، أو بقيت على خشونتها مما يفضى بأصحابها الى السخف والهذيان .

فالآراء والأفكار المشككة التى تخامر ذوى الحصافة الحقيقية تتدفق بسرعة الى ذوى العقول الضعيفة فتجد فيها مرتعا خصبا حيث يسيئون فهمها ويتخذون منها ذريعة للاستهانة بنظام الوجود ؛ وقد يأمن ذو العقل الراجح النقاد مغبة الاعتقادات

---

(١) عن مقال لسوان هاردنج الكاتب الامريكى بمجلة « Open Court » .

غير الثابتة التى لم يقم عليها دليل ، وله أن يكون متشككا الى حد بعيد ، لأن مثله من يقدر قيمة كل اعتقاد ، ويعرف أن الاعتقادات النظرية لا يجب أن تسيطر على الأعمال ؛ فهو اذا عمل اتبع الحقائق الثابتة ولم يجر وراء الخيال .

ولكن الأمر بعكس ذلك فى العقول الضعيفة حيث تسيطر العقائد على الأفعال ، وليس لذلك علاج خير من أن يسيطر ذوو العقول الكبيرة على معتقدات العامة ويشكلونها بحيث يجعلونهم يعملون تبعا لعقيدة صحيحة بما يعود على الهيئة الاجتماعية بالخير والإسعاد .

لأن الفرد العادى اذا استسلم للشك أصبح غير أهل للقيام بواجبه نحو المجتمع فلا يعول عليه كأحد أفراده .

والمفكر البحاثة كالعالم الكبير مثلا يقبل تلك العقائد غير الثابتة — التى تستند كأصول العلوم على مجرد فروض يقول إنها بدهية — كما يقبل التقاليد الاجتماعية أوآداب الرسميات الدقيقة ، فهى لا تحتاج فى نظره لدليل بل هو يؤمن كل الإيمان بالبناء المنطقى الذى يقيمه عليها مع أن هذا البناء لم يقم إلا على البحث العقلى المحض الذى قوامه الدليل والبرهان .

فعقائد المفكر البحاثة كما رأيت لا تستند إذاً إلا على مجرد الفرض ، وهذا الفرض لايعوزه الدليل فهو مقبول لديه على أنه بدهى وحسب ؛ ومثله مثل تلك القواعد الأولى التى بنى عليها أقليدس [1] هندسته المنطقية الطريفة فهى هى وحسب ، وقد تظهر أحيانا وفى حالات معينة أنها تستند على مجموعة قوية من الحقائق الثابتة ، وهذا كل ما يمكن أن يقال فى تأييدها .

وإننا اذا عرضنا آراء العلماء لمحك الاختبار رأينا أنهم يبدون ظواهر الطبيعة عقب حدوثها فى صور معقولة ليؤيدوا آراءهم بما يتفق وأميالهم العلمية ، فيجعلون من الظواهر

---

(١) عالم إغريقى اشتغل بالهندسة حوالى سنة ٢٨٥ قبل الميلاد .

مبدأ وأساسا لعلومهم دون أن يفقهوا ما وراء هذه الظواهر من حكم وأسباب ؛ والواقع أن ما يحتاج إليه اليوم عامة الناس هو الاعتقاد بما وراء الطبيعة والمادة مما يتسنى لذوى الخبرة والدراية من علماء النفس والحياة أن يهيئوه لهم . وسيظل العلم مقصرا فى أداء واجبه نحو الهيئة الاجتماعية الى أن يبذل السعى فى هذا السبيل وإلا استحق ما يوجه إليه من اللوم والنقد ؛ فجميل أن يحيط العلم بنقط العلاجات الطبية الدقيقة أو يستغرق فى أبحاث عميقة عن الحيوانات الدنيا أو غيرها ، ولكن المعضلة الحقيقية التى تواجهه هى أن يسيطر على المجتمع وعامة الناس بحيث يتيسر له أن يوالى أبحاثه الانسانية ويطبقها على المجتمع بدون أن يصطدم بعقائد أولئك الذين يود أن يمد لهم يد المساعدة .

ومعنى هذا أن واجب العلم الأعلى هو أن يهيئ للناس عقائد صحيحة ويدربهم عليها حتى يتيسر امامهم أن يقوموا من الأعمال بما يتناسب مع ما أوتوا من ذكاء ومقدرة معتمدين على قوة هذه العقائد التى يعدونها ثابتة لا تقبل النقض والجدل ، فان كثيرا من الناس يتخذون اليوم من العلم مقياسا يقيسون به كل شئ حتى الدين ، فاذا أيد عقيدة دينية أصبحت هذه العقيدة أشد رسوخا وأكثر صوابا ، وإلا فان هذه العقيدة تضعف وتخور .

على أنه يتضح مما ينشر بالجرائد والمجلات الشائعة أن العلم لن يصبح « المهدى المنتظر » لعامة الناس ، والواقع أن فائدته قاصرة من هذه الناحية لأنه يعترف صراحة بأنه يستند على فروض نظرية بحتة ، ولكن الدين فضلا عن أن بناءه منطق معقول فهو لا يستند على فروض نظرية بل يستند على أساس فوق العقول هو أساس العلم بكل شئ والقدرة على كل شئ .

فالعلم يقول ها نحن أولاء عند الأساس . فهو هو ؛ فلنقم عليه صرحا رائعا ، ولكن الدين يقول هاك الأساس الذى لا يعتوره التغيير ولا التبديل ، الأساس الذى وضعه

الله العالم بكل شئ تاماً كاملاً من الأزل الى الأبد، فلنقم عليه صروح الحياة المثلى، فهما آل اليه أمره فى النهاية فان أساسه قاطع بات لا مرية فيه .

والواقع أن العلم ما هو إلا عقيدة موضوعة بطريقة جازمة، أو هو عقيدة لأقلية المفكرين من الناس لا لعامتهم، ويختلف عن الدين فى موقفه إزاء مبادئه العامة تلك المبادىء التى لا تتعدى كونها فروضا بحتة يسلم بها العلم على أنها فروض ولا يعتبرها نهائية بأى حال .

فالعلم يفرض مثلا أننا نصل بالملاحظة وإجراء التجارب الى استنباط النواميس الطبيعية باستنتاج معلومات خاصة، وهذا افتراض فى نفسه، لأن الملاحظة وإجراء التجارب كثيرا ما أنتجا عقائد باطلة كما أنتجا عقائد صحيحة، ولن يمكن أن نقيم الحجة على صحة الفرض عقليا فهو هو وحسب، ومن هذه النقطة — لا من قبلها — يتابع العلم سيره ؛ وعلى هذا المنوال يفرض العلم علة الوجود واطراد وقوع ظواهره تبعا للناموس الطبيعى، كذلك يحابه العلم مبدأ لا يسلم به العقل فى افتراضه أن السبب والمسبب هما هما وحسب، وفى شغفه وهيامه باطراد وقوع الظواهر الطبيعية وانتظامها كفكرة أن الشمس سوف تشرق غدا لأنها أشرقت أمس، وأنه لن تقع معجزة خارقة لذلك لأن الناموس الطبعى يأباها، فالعلم فى كل ذلك يفترض فروضا جديدة .

جلس مرة ممثل هزلى الى المعزف (البيانو) وقال : « سأعزف الآن هذه القطعة كما يعزفها بادروسكى[1] لو أنه عزفها كما سأعزفها » .

وهذا هو موقف العلم إزاء الظواهر الكونية ؛ فنحن نرى القمر وهو الذى يرسل شعاعه الى عيوننا، وقد نرى شبحا من الجن كما رأينا القمر رؤية مؤكدة فلا يكون فى نظر العلم شبحا من الجن بالرغم من رؤيتنا له لأن العلم لا يعترف بوجود الجن، كذلك

(١) هو المؤلف والموسيقى البولندى المشهور .

القول بعدم إمكان وقوع المعجزات وخوارق الطبيعة ، فالعلم يقول بعدم إمكان وقوعها لأن ذلك لا يتفق ونظام النواميس الطبيعية مع أن العلم هو الذى استنبط هذه النواميس باستنتاج معلومات خاصة من الظواهر الطبيعية . هذا الى أنه لا يمكن أن يدلى بالدليل القاطع على صحتها لأنه من المستحيل على العلم أن يتثبت من كل خاصية على حدتها فى أية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، فلماذا وحقك لا يجيز وقوع الخوارق بين الخواص الكثيرة التى لا يحيط بها ؟؟

ليس لذلك سبب معقول ولكنه يصر على أنها لا تحدث ، فاذا حدثت وقف أمامها باهتا مذهولا .

لماذا لا يقرر العلم وجود خالق هو سبب الوجود الأول ؟ إننا لا نجد لذلك من سبب سوى أن العلم لا يريد أن يجعل ذلك مبدأ له . ولكن ما فائدة مبدأ اطراد الناموس الطبعى اذا نقضته الطبيعة بخارقة من الخوارق ؟

ولماذا يكون العلم التجريبى المستمد من الاستقصاء والتجربة أعظم قيمة وأجل قدرا من العلم الوجدانى الذى يُلقَى فى روعنا ويُشعرنا بأنه الحق الصراح ؟

ليس لذلك من سبب سوى أن العلم يقبل الأول ويسلم به ، ويرفض الثانى على أنه لا يعول عليه .

وهنا نجد بعض الالتباس فى آراء علماء الطبيعة وعلماء النفس ؛ فالأولون يقولون إن كل ما فى الوجود آلى سواء كان سببا أو مسببا ؛ والآخرون يقولون إنه وجدانى وإن الوجدان هو الكل فى الكل .

على أنه من الممكن أن نجمع بين الرأيين المتفرقين فى وحدة كاملة لغرض الدراسة والبحث وبخاصة فى هذه الأيام التى أصبح فيها علم الطبيعة أسلس قياداً للبحث العقلى من قبل ؛ فقد جاء ضمن مقال للورد هالدين بمجلة القرن الصادرة فى شهر ديسمبر

سنة ١٩٢٨ أن أينشتين [١] قد أظهر لنا أن الزمن والفضاء ليسا إلا نسبة بين العقل وما نراه من الأشياء ، وأن هذه النسبة تتغير بحسب سرعة العقل الذى يراها . فترى من ذلك أننا قد رجعنا الى العقل حتى فى علم الطبيعة فليس هناك غير العقل شئ وليس لأى شئ معنى بدون العقل .

كذلك يقولون إن نظرية التطور (النشوء والارتقاء) تستند الى طريقة علمية هى طريقة الاستقصاء والتجربة ، ولكن علام يستند هذان ؟ فالاستقصاء والتجربة قد أنتجا حتى فى نظرية التطور أفكاراً وعقائد خاطئة تبينت فيما بعد ، فاذا كان الأمر كذلك فأى عقائد الطبيعيين صحيح اليوم وأيها خاطئ ؟

يقول الطبعيون إنه يستحيل تعيين الخاطئ منها خطأ تاما والخاطئ بعض الخطأ ، ويعتقدون أن التقدم العلمى سوف يحول النظرية (نظرية التطور) الى مبدأ صحيح يسلم به الجميع ، ولكن الطبعيين يعترفون أن مبادئهم الأساسية ما هى إلا فروض وحسب ، فهى إذن لا تستند على طريقة علمية صحيحة . هذا الى أنهم يعترفون بأن طريقة البحث العلمية قد انتجت — مراراً وتكراراً — أفكاراً خاطئة فى دائرة العلم المحدودة التى يدرسونها . وما يدرينا أن اعتمادهم على الطريقة العلمية واعتقادهم بتقدم العلم ليسا من العقائد الخاطئة أيضا ؟

ولنسلم معهم جدلا أن نظرية التطور أصبحت صحيحة فماذا تكون النتيجة ؟ تكون النتيجة أنها تصبح مبدأ قاطعا يسلم به كل إنسان غير مستندة فى ذلك الى حقيقة أو استقصاء أو تجربة أو طريقة علمية بل تصبح كذلك لأنها هى هى وحسب ، وبذا تصير نظرية التطور كنظريات العلم الأخرى عرضة للنقد والتجريح اذا بحثناها من أساسها بحثا عقليا .

(١) هو العالم الالمانى المشهور صاحب النظرية النسبية .

نعود الآن الى حيث بدأنا فنقول إنه لابد لكل إنسان من أساس لعقيدته والناس يعتقدون ما يشعرون بصلاحيته وصحته فيتخذون من عقيدتهم ما يقيهم شر الشك والفوضى التى تلحق الفكر من جرائه ويلتمسون منها ملجأ آمناً وأساسا متينا يشيدون عليه صرح عقولهم ويكفون به أنفسهم مؤونة الشعور بعبث الوجود .

والواقع أن ما نراه من النظام فى العالم ليس إلا ما تخلعه عليه عقولنا وأننا لا نحيط من أسرار العالم إلا بالنزر اليسير .

ولذا كانت المعجزات وخوارق الطبيعة تستند الى سبب أقوى من القوانين العلمية لأنها تشير الى تلك الرغبة الانسانية المعقولة فى وجود رب رحيم يكلؤنا بعنايته ويتولانا برحمته ، على حين أن الناموس الطبعى لا يعبأ بنا أو يعنى بأمر من أمورنا ، فانه وحده هو المرجع والأساس .

وواجب العلم أن ينظر الى الحياة فى جملتها ، وأن يخفف من غلواء عقائده الجازمة بشئ من الشك ، ويلتمس رضا النفس والعقل بدلا من الجزم بصحة نظرياته فانه لن يحيط من أسرار العالم بكل شىء م؟

ضغط الدم وعدد النبضات

جاء بمجلة « Kosmos » الألمانية أن الأبحاث التى قام بها الأستاذ الدكتور هيرنج دلت على أن مقدار ضغط الدم يتناسب تناسبا عكسيا مع عدد نبضات القلب ، أى أنه كلما ازداد عدد النبضات انخفض ضغط الدم ، وإذا قل عدد النبضات ارتفع ضغط الدم ، وفى كلتا الحالتين يتوقف مقدار هذا وذاك على عمر الانسان ، فقد لوحظ اطراد ارتفاع ضغط الدم ونزول عدد النبضات القلبية الى أن يبلغ الانسان الحادية والعشرين من عمره .

ومن البدهى أن معرفة العلاقة المتبادلة بين مقدار ضغط الدم وعدد نبضات القلب ثم ارتباط قدر كل منهما بعُمر الانسان مما يسهل على الطبيب تشخيص الأمراض بدقة .

تقدير قيمة الذكاء[1]

الذكاء عبارة عن المقدرة على تكييف الأشياء والقوة التى نستطيع بها حل مسائل جديدة.

ولكن هل معنى ذلك أن هناك وظيفة للعقل قائمة بذاتها ويمكن عزلها عن بقية القوى العقلية ؟

لقد قرر (سبيرمان) « Spearman » بعد تحليل دقيق للصلات التى تربط نتائج النجاح لعدة تجارب بأن هناك عاملا مشتركا للنجاح يطلق عليه اسم « الحذق العام » أو « الذكاء العام » .

ومن جهة أخرى نرى لدى الحشرات أو الحيوانات الفقرية أن الذكاء ينمو على حساب الإلهام الغريزى بنسبة موازية لتقدم النشاط المرتبط بتكوين مراكز عصبية لا تقوم بوظائف القوى الدافعة ، أو تلك هى الأجسام ذات الساق للغدة المخية لدى الحشرات ذات الأجنحة الغشائية مثل النمل والنحل وهى غشاء أنصاف الكرات المخية عند الحيوانات العليا ذات الفقرات . وأن النشاط الآلى المستقل عن الارادة وعمل الغرائز وحياة العواطف البحتة لدى الحيوانات ذات الثدى تتوقف على مراكز عصبية قديمة التكوين وهى عبارة عن أجسام كثيرة الأضلاع والغلافات كما بينتها بنوع خاص تجارب الاستئصال الحديثة عند قطع نصف المخ لدى الكلاب والقط على طريقة (روتمان) « Rothmann » (وزيليونى) « Zeliony » (ودوسر دى بارن) « Dusser de Barenn »

(١) معربة عن نبذة من كتاب « تنمية قوى الذكاء » للمسيو هنرى بيرون نشرت بمجلة « الكتاب » الفرنسية .

لكن الحصول على التجربة واستعمال وتطبيق هذه التجربة الخاصة بكل فرد كل ذلك يسمح لنا بتطبيق مرن للتجربة ممكن فى عدة ظروف مختلفة لحياة مركبة معقدة، وليس هذا ميسورا إلا مع وجود النشاط الذى تقوم به وظيفة نصفى المخ معا وهى وظيفة من نوع تلك الوظائف التى لا تؤدى إلا مشتركة، وقد حاول (باولو) « Pawlow » أن يحدد قوانينها الأساسية فى رسالته عن الحركة الآلية المجردة عن الارادة « Reflex » لدى الكلاب.

فالعته عند الانسان نتيجة محتمة لوقوف نمو غلاف المخ أثناء حياة الطفل عقب ولادته بزمن قصير؛ ويمكننا أن نقرر أنه من المرجح أن نمو الذكاء العام يسير بموازاة نمو المراكز العليا للمخ وبالأخص بموزاة نمو مقدرتها على القيام بوظائفها وبحركتها الخاصة، هذا فيما لو كان الأمر قاصراً على عامل واحد فقط، لأن المباحث التى لا تزال مفتوحة على مصراعيها لا تمنع على مايظهر من احتمال وجود عدة عوامل مركبة مع بعضها (وهى التى يمكن أن نعد بينها بعض الصفات المحركة للأعصاب المجتمعة وطرق اشتراكها فى العمل وقوة العوامل المحركة للعواطف وغيرها).

ولكن الدراسة المباشرة لهذه العناصر العضوية التى تتضمنها المقدرة على حل المعضلات تكاد تكون غير ممكنة ولا يمكننا أبداً — لو كان التقدير المباشر فى مقدورنا — أن نجعلها بمثابة تقدير للذكاء. ولنأت بمثل بسيط : إن سرعة عربة سيارة ترجع الى عامل أساسى هو المحرك وعلى الأخص قوة المحرك ولكن هل تكفى معرفة قوة المحركات المختلفة لعدة سيارات حتى نستطيع أن نضع ترتيباً تدريجيا للسرعات الحقيقية لتلك السيارات. لا شك، لا، لأن ثقل ونوع العجل وحالة العجلات ونوع المطاط وغيرها كل ذلك يلعب دوراً مهما فى التقدير.

ولكى نرتب العربات حسب السرعة فان إجراء التجارب لمعرفة السرعة هو الوسيلة الوحيدة لوضع ذلك الترتيب، ونحن نعرف أنه لايوجد فى العربة أية وظيفة

أو آلة تقابل تسمى السرعة بل هذه السرعة هى عبارة عن حكم تقديرى لسير العربة من وجهة نظر معينة من عدة وجهات نظر أخرى مثل الإيراد أو مقدار ما تستهلكه فى الكيلو متر أو مبلغ قوتها فى السحب وغير ذلك مما هو ممكن اعتباره لوضع ترتيب لدرجات العربات ، كذلك نحن نقدر درجة الذكاء بحسب قوة وظيفته فى التغلب على الصعاب دون أن تكون هذه القوة ناشئة عن مقدرة خاصة بالعقل تلك الذاتية الخيالية التى اذا أدخلناها فى تقديرنا لقوة الذكاء لما أفادتنا بشىء سوى أن تفسد علينا التقدير.

وفى الواقع أن العقل عند ما يتصادم مع مشكلة من المشاكل فانه يتخذ جميع الوسائل التى لديه ليصل الى حلها حلا قيما صحيحاً فجميع وظائف العقل تشترك فى هذا العمل المركب الذى يتيح لنا نجاحه الكثير أو القليل الفرصة لتقدير درجة الذكاء إلا أن اشتراك وظائف العقل يتطلب توازنا متناسباً مع نفس طبيعة المسائل المراد حلها بحيث إنه لا يكفى أن نقدر قيمة كل وظيفة على حدة وأن نجعل من مجموع تلك القيم الجزئية تقديراً حسابياً للذكاء، وكذلك الحال مع عربات السيارة فاننا اذا أعطينا مثلا رقماً معينا لقوة المحرك وثانيا للعجل وثالثاً لنوع المطاط ورابعاً « لزنبركات » عدة من العربات السيارة فاننا لا نكتفى بمجموع الأرقام التى وضعناها لكل فئة لكى نستطيع أن نضع ترتيباً بدرجات تلك العربات فيما لو أردنا أن نقارن بين سرعة كل منها بل يجب علينا أن نقوم بتجارب مباشرة لكل عربة فى ظروف وشروط معينة عن المدة والمسافة ؟

حوادث طرابلس الغرب

نشرت صحف القاهرة أنباء ما يرتكبه الايطاليون فى طرابلس الغرب من فظائع ودلت هذه الأنباء على أنهم يسومون نفوس أولئك الضعفاء أقسى العذاب وأشد القتل ، وينتزعون منهم ديارهم ومزارعهم ، ويتعرضون لإهانة دينهم وكتابهم على مرأى منهم ، وينتهكون أعراض محارمهم ؛ ذاعت هذه الأنباء فارتجف لها العالم الاسلامى فزعا ، وانهال المسلمون يوجهون ببرقيات الاستنكار والاحتجاج الى الصحف والمقامات التى يأنسون فيها عطفا على الانسانية .

وكان حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر خاطب حضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء ليتكلم مع المفوضية الايطالية فى هذا الشأن كما جاء فى بيان فضيلته المنشور فى ص ٥٨ فأصدرت المفوضية ذلك البلاغ المبهم ، فلم يجد فيه الناس ما يضعف الثقة بالأنباء التى تصف تلك الحوادث بتفصيل .

وما لم تصدر المفوضية الايطالية بلاغا ينفى تلك الحوادث المفصلة نفيا مؤيدا بالشواهد فمجلة نور الاسلام لا يسعها إلا أن ترفع صوتها بإنكار تلك الحوادث ، وترجو من عصبة الأمم ورجال الدول الذين يجدون فى أنفسهم شيئا من الشفقة على الانسانية أن ينظروا إلى ذلك الشعب الضعيف برحمة ويتخذوا الوسيلة إلى إنقاذه من ذلك العسف الشديد ، حتى يتحقق السلام ، وتمتد ظلال الأمن ، ولا يكون للأقوياء على الضعفاء سبيل غير سبيل العدل .

كتاب التربية الاستقلالية

أميل القرن التاسع عشر

أهدى حضرة صاحب العزة الاستاذ عبد العزيز محمد بك المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية سابقا، ومدير مجلة نور الاسلام، الى مكتبة هذه المجلة نسخة من هذا الكتاب الذى هو فى الأصل للفونس اسكيروس، ونقله حضرته من الافرنسية الى العربية، وهو كتاب يرمى مؤلفه الى غاية هى إنشاء الطفل حرا مستقلا : تصدر أعماله وآراؤه عن اختيار وعلم لا عن اضطرار وتقليد . والكتاب موضوع على أسلوب يقرب من أسلوب القصص ليكون أشهى للنفوس . وأنفى للملل عن القلوب، وقد سلك حضرة الاستاذ فى تعريبه أوضح طريق البيان حتى أن القارىء لا يشعر بشىء من التعسف الذى يحسه فى كثير من الكتب المعربة، بل يقرأ الكتاب فلا يجد أمامه إلا ألفاظا مهذبة عذبة، وأساليب راقية متينة . وقد قدرت وزارة المعارف العمومية فى مصر هذا الكتاب، وعرفت مبلغ ما يكون له من الأثر الطيب فى تربية النشء فقررت تدريسه فى مدارسها الثانوية . وقد تم طبعه الطبعة الرابعة فى مطبعة دار الكتب المصرية، وتمتاز هذه الطبعة عن سابقاتها بجمال الطبع : وشكل الحروف شكلا تاما، وبزيادة تعليقات فى بيان كلمات لغوية أو فنية، أو فى نقد آراء اجتماعية، فنشكر لحضرة الاستاذ المعرب إهداءه هذا الكتاب النافع، ونحث أهل العلم والأدب على اقتنائه .

وهو يطلب من منزل حضرة المعرّب بالحلمية الجديدة شارع مصطفى بك سرى رقم ١١ ومن دار جمعية الهداية الاسلامية بسكة الشابورى بالحلمية الجديدة رقم ١١

محمد
صلى الله عليه وسلم
المثــل الــكامل

تأليف حضرة الفاضل الأستاذ محمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف ؛ وهو كتاب بين فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المثل الكامل ، قال فى مقدمته : « لما كانت سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من مولده الى مماته ثابتة ثبوتا لا مرية فيه لجميع أعماله مدونة ، وأحاديثه مسطورة شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكانت حياته ملأى بالمثــل الصالحة الكفيلة بإنهاض بنى الإنسان وتثقيف عقولهم ، وتقويم أخلاقهم و إصلاح شؤونهم ، كان هو المثل الكامل » ويحتوى هذا الكتاب على مقدمة وعشرة أبواب : الباب الأول ـ الى محمد صلى الله عليه وسلم ترد الفضائل جميعها . الباب الثانى — محمد صلى الله عليه وسلم بين الرسل . الباب الثالث — الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التى اقتضت بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . الباب الرابع — مراحل حصــول النبوة واستقرارها . الباب الخامس — الأدلة القاطعة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم . الباب السادس — محمد صلى الله عليه وسلم أكبر المصلحين نجاحا . الباب السابع — محمد صلى الله عليه وسلم أوفى الأنبياء دينا . الباب الثامن — محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق . الباب التاسع — محمد صلى الله عليه وسلم أجدر الناس بالإيمان به ومحبته واتباعه وطاعته . الباب العاشر — موجز السيرة النبوية .

وهو محرر فى عبارات واضحة متينة ، وأسلوب سهل رصين ، وقد طبع بمطبعة دار الكتب المصرية طبعا متقنا ، فى ورق جيد تبلغ صفحاته ٢٧١ .

فنشكر لحضرة المؤلف هذا العمل الجليل ، ونحث أهل العلم والأدب على اقتنائه ، والاستفادة منه .

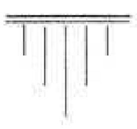
ويطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي .

كتاب المبسوط

للإمام شمس الدين أبي بكر محمد بن أبي سهل السرخسي
في مذهب الامام أبي حنيفة

قام بطبعه حضرة الفاضل الحاج محمد أفندي الساسي المغربي . في ثلاثين جزءاً ويطلب من مكتبته في سوق الفحامين م

تنبيه : وقع في فهرس موضوعات المجلة ٨ ص ١١ س « ظاهرة مرئية » . قلم الترجمة — ص ٦٧٢ والصواب « ظاهرة مريبة » . قلم التحرير — ص ٦٨٢ م



It contained reference to natural phenomena and heavenly mystries which recent investigations have disclosed and science has fully proven as in the verse

« وأرسلنا الرياح لواقح »

meaning: " And we sent forth the fertilising winds." (1)

and « مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان » and

meaning: " He hath let loose the two seas to meet each other yet interposed a barrier between them which they overpass not" (2).

and « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون »

meaning: " Have the unbelievers not seen that the Heavens and Earth were both a solid mass, and we tore them apart, and that from water We gave life to every living thing (3), Will they not then believe?"

Such is the Holy Koran as revealed to Mohammad the last of the prophets and the seal of God's messengers, recorded in book form and learnt by heart from the time of its revelation unto eternity.

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

meaning: " Verily We have sent down the Koran and verily We will be preservers thereof ".

---

(1) Winds carry pollen to fertilise trees.

(2) Fresh water of rivers and salt water of seas meet but never mix on account of the difference in density.

(3) Water is the main constituent element in plant and animal life.

meaning: " They shift the words from their places, and have forgotten part of what they were enjoined (1).

" Thou wilt not cease to discover deceit among them except in a few of them. But forgive them and pardon them for verily God loveth the benevolent."

and «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »

meaning: " Woe unto those who misconstrue the Book with their own hands and then say, " This is from God " that they may sell it for some paltry price!

" Woe unto them for that which their hands have written! and woe unto them for what they gain thereby ".

The Koran reveals perfect tenets suitable for all times and nations and vouchsafes the welfare of mankind in this world and the hereafter if only these tenets were rightly interpreted and duly fulfilled.

It inspires noble and virtuous conduct : patience, truth, honesty, equity, kindly treatment, neighbourly love, fulfilment of covenant, enjoinment of righteousness, forbiddance of evil and such other qualities which will inevitably result in the ascendancy and elevation of nations to the zenith of greatness and glory.

This, over and above, its fortelling of future events which took place long afterwards as for instance in the verse :

« لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين »

meaning: " Ye shall surely enter the Sacred Mosque in security by God's will." (2)

and « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »

meaning: " The Greeks have been defeated in a land near by but after their defeat, they shall defeat (their foes) in a few years." (3)

---

(1) In the scriptures.

(2) Foretold long before the conquest of Mecca.

(3) The Greeks were defeated by the Persians in the sixth year before the Hijra but inflicted a crushing defeat on their foes a few years later.

« إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون .
« واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف
الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »

meaning :

" Verily in the Heavens and the Earth are signs for the believers.

" And in your creation and in the beasts which are scattered abroad are signs for a people who firmly believe.

" And in the succession of night and day, and in the rain which God sent down from the Heavens whereby He gave life to the Earth after it withered, and in the directing of winds are signs for a people who understand.

" Such are the signs of God: with truth do We recite them to thee. In what discourse then, above the signs of God, would they believe ? "

The Koran reviews the history of past people and narrates stories from which deterrent examples are derived. It shows that their downfall and destruction were due to their deviation from the path of rightousness, their violation of God's commandments and their thanklessness for this blessings and favours.

« ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم . وأرسلنا السماء عليهم مدرارا
وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين . »

meaning :

" Have they not witnessed how many generations We have destroyed before them ?

" We had firmly established them on the earth as we did not establish you.

" And We sent down the Heavens upon them in copious rains, and We made the rivers to flow beneath them [1], then We destroyed them in their sins, and raised up other generations to succeed them."

It decried the alteration, by theologians of past religions, of their books, the misinterpretation of its texts and the inclusion of new precepts in their religion.

« يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا
منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين »

---

(1) We gave them plenty and prosperity.

masterpieces of prose and poetry were recited and the contest waxed hot between them for mastery and pride of place. They were a proud, haughty and supercilious people who would not acquiesce to iniquity or suffer any humiliation. They were keenly intent on the destruction of Mohammad and the refutation of his claims, yet, he called upon them, at the behest of God, to emulate the Koran and provoked them to dispute it if they can « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »

meaning: "Let them produce a discourse like it if they are truthful," and

« وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين »

meaning: "And if ye be in doubt as to that which We have sent down to our servant, then produce a text like it, and summon your witnesses, apart from God, if ye are truthful."

They could have assembled a mighty array of great orators and erudites to produce something like it and spare themselves the disgrace of being beaten, but they dared not do it or venture thereon in spite of the long duration of the challenge and their insistence on contumacy and disbelief.

And if the Arabs were incapable of emulating the Koran, others were even more so, and God hath, therefore, recorded their failure thus :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

meaning; "Say, Verily were men and djinn assemble to produce the like of this Koran, they could not produce its like though some were to support the others."

A conclusive and categorical assertion which no man, incognisant of future talents and faculties, could make. But it is the utterance of God, the bestower of talents, the apprised of past and future who knows full well that the Koran is beyond the capacity of men and that failure and ignominy are the inevitable lot of whomsoever sets himself to its imitation.

We proceed now to consider some of the contents of this Holy Book. The Koran draws the attention to God's creation of heavens and earth and inspires the meditation of His marvels which point out to the existence of an omnipotent God.

incumbent on every rational individual to believe implicitly therein and follow its teachings throughout his life.

Just as the Koran afforded a proof during the Prophet's lifetime that polytheists of the Arabs and many people of the scripture embraced Islam, evidence of the continuance of his creed after his death was not lacking. Countless numbers of Persians and others adopted Islam and the Book of God still remains a stupendous miracle establishing the authenticity of Mohammad's mission and an invulnerable evidence of the permanancy of his Faith.

The Holy Koran.

The Holy Koran « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » "a Book whose verses are judiciously arranged and clearly set forth from the Wise, the All-informed", revealed by the Almighty to His messenger Mohammad to warn mankind in a clear Arabic tongue. It appealed to the hearts of men with goodly advice and to their minds with clear proofs and testimony. It drew their attention to the marvels of the universe with the result that minds were freed from the shackles of bondage, and signs of animation began to show after their long slumber and inactivity.

The Koran was revealed to Mohammad the illiterate Arabian prophet who never had a tutor or held converse with a philosopher, nor read a book or penned a single letter with his own hand. It was sent down to establish his mission and prove, beyond all doubt, the truth and authenticity thereof. It constituted a challenge to the Arabs in their entirety and did not single out for that purpose one particular clan or tribe. The contemporary Arabs were masters of rhetoric and champions of eloquence and oratory. Prose was their best asset and poetry their most profitable avocation. They included in their number some of the most eloquent orators and august poets of great genius. Literary contests were the order of the day; they were wont to hold meetings at which

whose sole occupation was to make incursion on one another massacring men and plundering property.

No sooner had a war between two tribes come to an end than another broke out in its wake. This, to their misguided beliefs and the predominance of delusions and superstitions in their minds. Their moral decadence and debased customs have reached such an extent that they were wont to kill their sons for fear of penury and bury their daughters alive to spare themselves the disgrace their future life may bring.

The condition of other nations was no better, paganism pervaded the corners of the globe and pyrolatry and sabianism were practised to the exclusion of God's worship. The beliefs of the religious people were no less tainted with perversion and corruption. They ascribed to God such attributes as were incompatible with his perfect Divinity, misconstrued and altered the text of their Holy Books and arbitrarily laid down new precepts and admonitions. Their patriarchs prohibited the consideration of any of the holy texts and comprehending the meaning thereof, thus divesting the mind of its functions and stifling the ardour of thought. Iniquity and despotism were rife, the strong appropriated the gains of the weak and the rich dissolutely indulged in pleasures and dissipation while the poor were crushed under the harrowing burthen of misery and destitution. The unviolable rights of individuals were violated and sins were shamlessly committed. Signs of truth were obliterated and the light thereof dimmed forever as mankind deviated from the path wherein lies its salvation in this world and the hereafter.

It was out of God's mercy and benevolence towards mankind that He sent unto them a prophet to recall them from perversion and lead them unto the path of godliness and prosperity. He hath chosen Mohammad for this mission and honoured him with the announcement of His dispensation.

His mission was intended for mankind in its entirety as the need for reform was universal and comprehensive. He hath therefore, supported him with a miracle which surpassed, by far, all other miracles of the prophets preceding him. Theirs were natural phenomena that came to an end as soon as they have taken place or when the prophet supported thereby passed away such as the cleaving of the sea by Moses and the healing of incurable diseases by Jesus. But Mohammad's miracle is the Holy Koran, that eternal and intellectual marvel handed down by tradition and preserved from distortion and alteration at the behest of God:

« إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون »

meaning: " Verily We have sent down the Koran and verily We will be preservers thereof."

The Koran makes its appeal to the minds of mankind and affords an irrefragable proof of the truth and authenticity of Mohammad's mission that it is

Alone and single-handed and yet he achieves success and saves a people who were steeped in gross sin and wickedness, henceforth directing their hearts to the one and only God, creator of Heavens and Earth, at a time when every tribe had an idol god of its own make to which it pays homage and veneration.

He had introduced thereby order after chaos, unity after discord, co-operation after dissension, thus rendering his country the reformer of nations and mistress of the world.

Could all that be achieved by individual effort unaided and unsupported by the Almighty God?

Nay, forsooth! This could never have been accomplished save with the favour and grace of God.

A man who was sent to convert people whether religionists or atheists to their innate nature, to monotheism, the belief is one and Almighty God, infallible and far above taking a partner, a son, a father or a wife unto Him.

A man who announced unto mankind a new dispensation in connection with their worship and worldly affairs, a dispensation which has, hitherto, been the most perfect that a prophet had ever revealed, and proclaimed it the word of God and Lo: God never belied, forsook nor failed him and He who saith:

«ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين»

meaning: " If he had fabricated concerning Us any sayings,
We would have surely seized him by the right hand,
And had cut the vital vein of his heart,
Nor would any of you with hold him therefrom."

But He, therewithal, augmented his success and bestowed yet more and more godliness and prosperity on those who followed him. And when his mission was accomplished and his message duly delivered he gave utterance on behalf The Lord to the verse:

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا »

meaning: " This day have I perfected your religion and completed mine favours upon ye and chosen Islam to be your religion."

Could such a man be other than truthful and whatever he proclaimed anything but true? Aye, forsooth! There could be no doubt that he is truthful and that his Religion is true.

We proceed now to inquire into the condition of the Arabs before the advent of Mohammad.

As already pointed out, the Arabs were contending and dissentient tribes

THE MISSION OF MOHAMMAD.[1]

The mission of Mohammad extended over twenty three years, thirteen of which he spent in Mecca calling Koreish to the Faith but getting no response except from a few of them and a handful of others. He had suffered thereby all sorts of insults and persecutions which were humanly intolerable had it not been for the fortitude with which the Almighty had endowed him.

The other ten years he spent in Medina whence the call to The Faith had grown stronger and Islam spread among the tribs of the Arabs, and people betook themselves in multitudes to the Religion of Allah till it pervaded the whole Peninsula and Lo! This illiterate, ignorant, idolatrous, contending and dissentient people have become enlightened, united, monotheistic and conciliatory.

A truly striking reformation rendered more so by its quick development and minute precision. A reformation which combined the spiritual and physical welfare of mankind in a just measure and with due moderation.

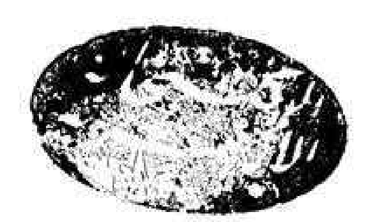
History has never witnessed, and it never will, such a swift and all comprehensive change in beliefs, manners, customs and social conditions achieved in any country by any reformer or prophet before the advent of the Prophet Mohammad.

A man who was brought up an illiterate orphan in poor circumstances, in a corner of the globe far away from order and civilisation, from erudition and learned people, among kinsmen and relations who were misguided polytheists, and yet grows up to abominate the delusions and superstitions under which his own folk labour and distinguishes himself by noble conduct and most excellent traits of character.

When he attains manhood, he declares his disagreement with his own folk and his discountenance of the evil beliefs, the shameful morals and pernicious habits of the people.

---

(1) Translated from the Reverend Sheikh Hassan Mansour's Book "*The Moslem Religion*".



قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ •

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

العدد ٢	صفر سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة
عبد العزيز محمد بك
المستشار بمحكمة الاستئناف } سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الأعلى }

رئيس التحرير
السيد
محمد الخضر حسين
من علماء الازهر

الادارة
شارع محمد مظلوم باشا رقم ١
تليفون : بستان ٣٥٠٧
الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصرى	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصرى	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب
وثمن الجزء الواحد ٣ صـ صاغ داخل القطر و ٤ صـ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية
١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب يهذى فى تأويل القرآن المجيد

علم الله أن فى البشر عقولا لا تدرك وجوه الخير ، وأن فى وجوه الخير ما لا تصل اليه العقول بنفسها ، وعلم أن فيمن يعقلون بعض هذه الوجوه أولى أهواء نزاعة الى الشر ، فأنزل كتابا يدعو الى توحيد الخالق ويهدى الى مكارم الأخلاق ، ويسن للقضاء والسياسة العامة أحكاما عادلة ، وينبه على بعض سننه فى الخليقة لندرك بالغ حكمته ، ويذكرنا بأيام أمم قد خلت من قبلنا لنتعظ بها ، ونحذر سوء منقلبها ، ويقص علينا من أنباء رسله ما يصف لنا صبرهم على ما أوذوا ، وتأييده لهم بما يقطع عذر المنكرين لرسالتهم ، ويخبر عن بعض الحقائق الغائبة عن أبصارنا لنزداد علما بسعة خلقه وكمال قدرته ، ونفقه أن ما لدينا من وسائل العلم لا نكسب به من العلم إلا قليلا .

وقد شاء الله تعالى أن ينزل هذا الكتاب على سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وقضت حكمته أن ينزله بلسان عربى مبين : بلسان أمة اختصت لذلك العهد بمزايا تهيؤها لأن تتقبل دعوته ، وتفقه مقاصده ، وتشيد بجانبه دولة تقيم لمن تقلدوه عزة ، وتمد على رءوس دعاته حماية يتقلبون فى ظلالها ، ويبلغون الأمم هداية الله تحت رايتها .

أنزل الله كتابه الكريم ، وعهد ببيانه إلى رسوله العظيم صلى الله عليه وسلم ، فتلقى عنه أصحابه ذلك الكتاب وبيان ما كان يخفى عليهم من آياته ، فما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى تركها شريعة غراء ليلها كنهارها ، وما انقرض عهد أصحابه رضى الله عنهم حتى ورثها عنهم التابعون وأدوها إلى الذين جاءوا من بعدهم بأمانة وتقوى ، وما زال القرآن يدرس والراسخون فى العلم لا يختلفون فى فهم آياته إلا آيات

لايمس الخلاف فيها أصلا من أصول الدين ، وليس فيما يعتد به من هذا الخلاف ما يخرج فيه الفهم عن أساليب اللغة العربية ومقتضى وضع ألفاظها ، حتى ظهر أشخاص قل فى علم اللغة نصيبهم ، أو خف فى علم الشريعة وزنهم ، فتناولوا القرآن بعقول لا تراعى فى فهمه قوانين البلاغة ، ولا تدخل الى تفسيره من باب السنة الصحيحة ، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة ومزاعم منبوذة ، ووجدت هذه الآراء وهذه المزاعم عند بعض العامة وأشباه العامة متقبلا .

وشر من هؤلاء طائفة الباطنية الذين هم رهط من المجوس ائتمروا على أن يكيدوا الاسلام بتأويل القرآن على وجوه غير صحيحة ، ليصرفوا الناس عن محجته البيضاء ، ويأخذوهم الى ما شاءوا من نحل خاسرة وأهواء ، ولولا رجال يدرسون الدين ببصائر تنفذ الى لبابه ، ويرزقون إيمانا يسوقهم الى دفاع الخبائث عن حياضه ، لكان لأولئك المضلين جولة أوسع مما جالوا ، واستدراج للنفوس أكثر مما استدرجوا .

وعلى الرغم مما فى كتب العلماء المصلحين من حق واضح وحجة دامغة لم ينقطع شر هذا الرهط الذين يمكرون بكتاب الله ، ويحرفون كلمه عن مواضعه ، ليقضوا مآرب ويشفوا صدور قوم لا يؤمنون .

وها هى تلك الفرقة البهائية قامت منذ عهد غير بعيد تتبع خطا الباطنية : تجهد نفسها إجهادهم ، وتهذى فى تأويل كتاب الله هذيانهم ، وقد تسنى لها أن تستهوى بعض النفوس الغافلة أيام كان دعاتها يراءون الناس ويضعون على ألسنتهم مسحة من الدين الحنيف ، أما اليوم فقد غرهم الغرور ، فأعلنوا نحلتهم وحملوا الناس على بينة من باطن أمرهم ، فما لهم بعد هذه العلانية إلا أن ينقض بناؤهم ، ويحذر المسلمون أينما كانوا حبائل دعاتهم .

ويضاهي البهائية وأسلافهم الباطنية فى العمل لتقويض أصول الاسلام على طريقة التأويل نفر يضعون على رءوسهم بياضا، ويحملون فى صدورهم سوادا، لم يرسموا لأنفسهم نحلة دينية، وإنما هى الغواية لعبت بعقولهم، وإكبار خصوم الدين ران على قلوبهم، فانطلقوا الى القرآن الكريم يؤولونه على ما يوافق شهواتهم، ويقضى حاجات فى نفوس ساداتهم، يفعلون هذا ولا يرقبون فى اللغة العربية ذمة، ولا يرعون لسنة أفضل الخليقة حرمة، وتراهم ينبذون ما يقرره أئمة العربية أو أئمة الدين نبذا لا يتكئ على دليل، ويطلقون ألسنتهم فى هؤلاء الأئمة الذين خدموا الدين والعلم والأدب، وإنما يعرف فضلهم العالم الناقد النبيل.

ومن هؤلاء النفر شخص سولت له نفسه أن يخوض فى آيات الله كالذين خاضوا فيها على عماية، فكتب جملا قصيرة قذف فيها شيئا من وساوسه، وسماها تفسيرا، بل تناهى فى الافتتان بها فسماها « الهداية والعرفان ».

والذى يقرأ هذه الجمل لا يرتاب فى أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة الاسلام من بعدهم جيلا بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه فى الآيات من سوء التأويل.

ونضع بين أيدى القراء أمثلة من هذا الكتاب ليعلموا أن رياسة الأزهر الشريف قد قضت بسعيها فى حجزه وإتلافه واجبا، هو حماية العامة من أن يقرءوا إلحادا فى آيات الله غير مقرون بما يكشف القناع عن وجهه الفظيع، وضلاله البعيد.

تأويله لآيات المعجزات:

ينكر ذلك المؤول المعجزات صراحة فقد قال فى صفحة ٣٠٦: « وإن آيتهم (أى الرسل) على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم، وصلاح رسالتهم، وأنهم

لا يأتون بغير المعقول ، ولا بما يبدل سنته ونظامه فى الكون » وقال فى ص ١٦١ : « وبعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغى أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه فى دعوته ، غير ما فى سيرته ورسالته » .

وقد جرى هذا المؤول وراء طائفة البهائية فإنهم ينكرون للرسل عليهم الصلاة والسلام معجزات ، صرح بإنكارها داعيتهم المسمى أبا الفضل ، فقد ذكر المعجزات فى كتابه المسمى بالدرر وقال : وكثير من أهل الفضل وفرسان مضمار العلم اعتقدوا أن جميع ما ورد فى الكتب والأخبار من هذا القبيل كلها استعارات عن الأمور المعقولة والحقائق الممكنة مما يجوزه العقل المستقيم . ثم أخذ يؤول بعض ما ورد فى تلك المعجزات من قرآن وحديث على نحو الوجهة التى ضل فيها هذا المؤول من بعده .

لم ينقل عن أحد ممن يؤمن بالرسل صلوات الله عليهم — إنكار المعجزات التى هي خوارق عادات يغير الله بها بعض سننه الظاهرة لتكون حجة على صدق من يبعثه داعيا الى سبيله ، وإنما ينكرها طائفة ممن أنكروا بعثة الرسل إذ قالوا : إن الرسالة تتوقف على المعجزة ، والمعجزة خرق للعادة ، وخرق العادة محال ، ودعوى استحالة خرق العادة قد أثخنتها الأدلة طعنا ، فلا يقيم لها النظر الصحيح وزنا . وكم من عقول ضلت سبيل الرشد ، وآفتها عدم التفرقة بين ما لا يكون عادة وما يقضى العقل بأن لا يكون ، فيغلطون فى تصور ما يستبعد العقل وقوعه استنادا للعادة ، ويخالونه من قبيل ما لا يمكن وقوعه ، واستبعاد العقل لشىء لم تجر العادة بوقوعه لا يقف أمام نصوص شريعة قامت الآيات البينات على أنها تنزيل من رب العالمين ، وليس ما يقصه القرآن من معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام إلا تغييرا لبعض السنن الكونية الظاهرة ، وتغيير هذه السنن لا يقضى بمنعه عقل يقدر قدرة الخالق قدرها ، ويسلم أن هذه السنن من صنعها .

وقوله تعالى : (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) . نص فى أن الله تعالى أرسل مع الرسل المتقدمين آيات غير سيرتهم وصلاح رسالتهم ، وقد مر المؤول على هذه الآية ولم يمسها بتحريف .

و إذا كانت معجزات النبى صلى الله عليه وسلم التى هى خوارق عادات قد شهدها الصحابة ، وعرفها السلف لا تأخذهم فى صدق أحاديثها ريبة ، ونقلت الى من بعدهم على طرق يكتنفها الصحة من كل جانب ، وكانت بمجموعها بالغة حد التواتر الموجب للعلم ، استبان لنا أن المراد من الآيات التى منع من إرسالها تكذيب الأولين آيات خاصة هى ما اقترحه قريش من نحو إحياء الموتى على ما ذكره المحدثون والمفسرون فى سبب نزول الآية ، والمعنى ما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود قد كذبوا بها ، فَتَوَغُّلُ المقترحين فى الضلال الى حد من لا يرجى منه الانتفاع بالآيات يجعل إرسال الآيات التى اقترحوها بعد إراءتهم آيات تثبت الرسالة وتقوم عليهم حجة ، خاليا من الفائدة ، وعدم إرسال هذه الآيات المقترحة لا يقتضى أن لا يظهر على يده صلى الله عليه وسلم آية من غيرها لم تقترح عليه أو اقترحها عليه غير من نزلت فيهم آية (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ) فهذه الآية بملاحظة أنها نزلت فى آيات خاصة اقترحها عليه قوم بأعيانهم ، لا تدل على أن الله لا يرسل أى آية من غيرها .

ينكر ذلك المؤول المعجزات ، فأخذ يتقصى الآيات الواردة فى شأنها ، وينحو بها نحوا يخرجها عن أن يكون فيما تدل عليه خارق للعادة ، ولا يندى جبينه حياء أن يتعسف فى التأويل ، فيأتى به بعيدا من مواقع حسن البيان خارجا عن المعقول من دلالة الألفاظ .

فانظر ماذا صنع فى قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) . فقد ذهب بالعصا الى معنى الحجة ، وقال : « يصور لنا كيف

كشفت حجته تزييف حججهم حتى سلموا له وآمنوا به » . وقال فى قوله تعالى : (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) . وقوله تعالى : (اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ) : « تفهم من تمثيل هذه الرواية أن الله أعد موسى وهيأه للدعوة وأراه كيف يتغلب على خصمه بالبرهان والحجة » وقال عند قوله تعالى : (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) : « انظر كيف يكون التمثيل فى قوة الحجة والبرهان » .

وقد اتبع المؤول فى هذا مهذار البهائية المسمى أبا الفضل فقد ذكر فى ص ٥١ من كتابه المسمى « الدرر البهية » أن أهل الفضل – فيما يزعم – فسروا العصا بأمر الله وحكمه ، وقال : إن موسى عليه السلام بهذه العصا غلب على فرعون وجنوده ، ومحا حبائل عتوه وجحوده ، وذكر فى صفحة ٥٣ من ذلك الكتاب أن اليد البيضاء عُبِّر بها عن الرسالة .

فى القرآن مجاز واستعارة وكناية ، ولكنه يسلك هذه الطرق على الوجه الذى يأتيه البلغاء من العرب ، وشأن البلغاء أن لا يخرجوا عن الحقيقة الى أحد هذه الطرق إلا أن يكون سهل المأخذ ، واضح المقصد ، أما ما يبدو على وجهه تكلف أو يكون فى دلالته التواء فمعدود فى معيب الكلام ، وداخل فيما يذهب بمزية الفصاحة ، وتأويل الآيات على ما قاله المؤول وسلفه البهائى يجعلها من قبيل المجاز الذى ينبو عنه الذوق لتعسفه ، ويبعد منه الفهم لخلوه من القرينة المشيرة الى أنه مستعمل فى غير ما وضع له ، فالمؤول ومعلمه البهائى لم يقدروا الله حق قدره ، إذ صرفوا كلامه عما يدل على سعة قدرته وخرجوا به عن حدود البلاغة وهو مثلها الأعلى ، والمختص بذروتها القصوى .

وانظر ماذا صنع فى قوله تعالى : (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ) . فقد حرف قوله : « أخلق لكم من الطين » عن حقيقته ، وقال يفيدك التمثيل لإخراج الناس

من ثقل الجهل وظلماته الى خفة العلم ونوره وتردد هنا فى معنى إبراء الأبرص فقال : « فهل عيسى يبرئ هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطبية ، أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى بالهداية الدينية » ويدلك على أنه يذهب فى تأويل الآية الى غير مذهب المسلمين قوله عند قوله تعالى : (اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) : واعلم أن قصة موسى فى العصا واليد كقصة عيسى فى إحياء الموتى وشفاء المريض كلاهما يتشابه فى معناه على الناس .

وقد مشى فى هذا خلف ذلك البابى المسمى أبا الفضل إذ تصدى فى كتابه المسمى «الدرر البهية» لبيان معنى هذه المعجزة فقال فى صفحة ٥٣ يتحدث عن حال بنى إسرائيل : « حتى انتهت دورتهم وانقضت مدتهم وماتت قلوبهم وبرصت بالذل جباههم وجنوبهم فرجعوا من أسر الفراعنة الى أسر القياصرة ، وعن عبادة المصريين الى عبادة الرومانيين حينئذ طلعت شمس الحقيقة عن أفق بلاد الجليل وارتفعت نغمات الانجيل فأحيا الله تعالى بأنفاس عيسى عليه السلام بعضا من تلك النفوس الميتة وبرأ بيده المباركة جملة من الجباه المبروصة » .

زخرف من القول ، وتحت هذا الزخرف جحود لمعجزات الرسل عليهم السلام وصرف لآيات الله عن معانيها المفرغة فى لفظها العربى المبين ، والتى عرفها المسلمون منذ نزل بها الروح الأمين متظافرين عليها جيلا بعد جيل .

يقول الله تعالى (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ) . والمعنى الذى يعقل من الآية أنى أصور لكم من الطين شيئا على هيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا حيا بأمر الله ، وأبرىء الأعمى والذى به وضح ، وأعيد الحياة الى جسم من فقد الحياة ، أفعل كل ذلك بأمر الله .

وأما نحو إخراج الناس من ثقل الجهل الى خفة العلم ، و إبراء الجباه المصابة ببرص الذل ، فلا يصح حمل الآية عليها إذ القرآن برىء من أمثال هذه الاستعارات البالغة فى التكلف والتعقيد غاية تذهب عندها الفصاحة وحسن البيان .

واذا قرأت فى بعض كتب التفسير ما يسمونه الإشارات ، ووجدت فى الحديث عن هذه الآيات ما يقارب أو يماثل كلام المؤول أو البهائى ، فاعلم أن أصحاب الاشارات غير من يسمونهم الباطنية ، فالباطنية يصرفون الآية عن معناها المنقول أو المعقول الى ما يوافق بغيتهم بدعوى أن هذا هو مراد الله دون ما سواه ، وأما أصحاب الاشارات فانهم كما قال أبو بكر بن العربى فى كتاب القواصم والعواصم : «جاءوا بألفاظ الشريعة من بابها ، وأقروها على نصابها ، لكنهم زعموا أن وراءها معانى غامضة خفية وقعت الاشارة اليها من ظواهر هذه الألفاظ ، فعبروا اليها بالفكر ، واعتبروا منها فى سبيل الذكر» .

فأصحاب الاشارات لا ينفون كما ينفى الباطنية وأذنابهم المعنى الذى يدل عليه اللفظ العربى من نحو الأحكام والقصص والمعجزات ، و إنما يقولون : إنهم يستفيدون من وراء تلك المعانى وعلى طريق الاعتبار معانى فيها موعظة وذكرى ، وعلى ما بين مذهبهم ومذهب الباطنية من فرق واضح نرى فى أهل العلم من نازعهم فى إلصاق تلك المعانى بألفاظ القرآن ، وقال : إن ما جاء فى صريح القرآن والسنة من مواعظ وحكم يغنى عن ارتكاب هذه الطرق البعيدة التى هى فى الأصل نزعة قوم شأنهم الصد عن هدى الله وتعطيل أحكام شريعته الغراء .

وأنكر ذلك المؤول أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم فى المهد فسام قوله تعالى : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ) سوء التأويل ، فقال : « فى دور المهد وهو دور الصبا ، علامة على الجرأة وقوة الاستعداد فى الصغر » يريد أنه يكلمهم فى سن اعتيد فيها الكلام .

جاء فى الجامع الصحيح للامام البخارى ما يدل على أن عيسى عليه السلام تـكلم قبل أوان الكلام ، تجد هذا فى حديث « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » وذكر فى أولهم عيسى عليه السلام ، وروى ابن جرير الطبرى بسنده الى ابن عباس رضى الله عنـه أنه قال فى تفسير المهد « مضجع الصبى فى رضاعه » والمهد فى الأصل مصدر مهد أى بسط ووطأ ، وهو كما فى لسان العرب اسم لموضع الصبى الذى يهيأ له ويوطأ لينام فيه ، فكان على المؤول إذ فسره بدور التمهيد للحياة أن يقيم على هذا شاهدا من كلام العرب ، ويبدى الوجه الذى دعاه الى الإعراض عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و إلا كان هـذا التأويل علامة على جرأته واستعداده لأن يخوض فى آيات الله بغير علم وعلى غير أصل .

أنكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم فى المهد ، وتأول آية : (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ) . على ما سمعت وبمثل هذا التأويل تناول قوله تعالى : (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا) . فقال : « أى كان ذلك النهار ولدا صغيرا ، فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم ، فهذا ابن حرام » .

ولما رأى أن ما قبل الآية وهو قوله تعالى : (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ) يدفعه عن هذا العبث ، صرفه عن وجهه فقال : « تحمله على ما يحمل عليه المسافر ومنه تفهم أنه كان فى سياحة طويلة » .

لم يكف المؤول أن يخرج فيما يكتب عن قوانين اللغة فطاش الى أن يقول فى التاريخ ما لا يعرفه التاريخ ، فمن أين اطلع على أن مريم عليها السلام كانت فى سياحة طويلة : كان على المؤول أن يثبت هـذه السياحة الطويلة من التاريخ أو من القرآن ثم يقول : « ومنها تعلم أنها كانت تحمله على ما يحمل عليه المسافر » ، ولكنه قلبَ الكلام فأتى الى قوله تعالى : (تحمله) الذى هو ظاهر فى أنها تحمله بنفسها ، وحرفه الى معنى تحمله على مركوب ، وأذن لك فى أن تأخذ منه أنها كانت فى سياحة طويلة .

ومقتضى إنكاره لمعجزات الرسل أن لا يسلم أن عيسى عليه السلام خلق من غير أب ، وقد كتب عند ما وصل الى آيات هذه المعجزة بلسان يدل على إنكارها فى غير صراحة فقال فى تأويل قوله تعالى : (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) : « استنكرت لما طرأ على فكرها أن الولد يأتيها من غير السبب المعروف » وقال فى قوله تعالى : (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ) : « اختصار فى التعبير لا يعوق دور الحمل الطبيعى » ، وقال عند قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ) : « فيه ملحوظة طريفة هى أن موسى لم يذكر له أب ولكن قومه لم ينكروا أباه أو يقولوا فيه كما قالت النصارى فى المسيح ابن الله بناء على أن المسيح نسب الى أمه ولم يذكر له أب » فاذا نظرت الى قوله « لما طرأ على فكرها أن الولد يأتيها من غير السبب المعرف » ثم الى قوله فى حديثه عن موسى عليه السلام « بناء على أن المسيح نسب الى أمه ولم يذكر له أب » اذا لاحظت هذا وهو صادر ممن ينكر المعجزات عرفت أنه لا يعترف كما لا يعترف اليهود بأن عيسى عليه السلام خلق من غير أب .

وحرف قوله تعالى : (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) فقال : « اضرب بعصاك البحر : اطرقه واذهب اليه » . وقال : « هذا بيان لحالة البحر يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة » .

قال هذا ولم يتحدث عن الفاء فى قوله تعالى : (فانفلق) وظاهر تأويله أن يكون المعنى فذهب الى البحر فانفلق فيكون الانفلاق قد وقع عقب الذهاب الى البحر ، والمؤول يقول : يصور لك البحر بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة ، ثم إن قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) ظاهر فى تصوير حال البحر عند انفلاقه ليريك كيف ينجى رسله على طرق يفتحها من أجلهم ، فتقف الأهوال حولهم ، لا يمسكها أن تطغى عليهم إلا قدرته التى يدخل تحت سلطانها كل ما يدخل فى حيز الامكان .

ومما هو ظاهر فى هذا المعنى قوله تعالى : (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي ٱلْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَىٰ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ) . فالمعقول من هذه الآية أن الطريق الذى سلكه موسى عليه السلام إنما تنحى عنه الماء حال مروره به ، وأن فرعون اقتفى أثره عند ما رأى الطريق الذى يسير فيه موسى وقومه يبسا ، ولما انحدر فرعون وقومه فى هذا الطريق عاد الماء الى حاله وغشيهم من اليم ما غشيهم فكانوا من المغرقين ، وأما قول المؤول . إن فرعون أضل الطريق اليبس الذى اهتدى اليه موسى ، فمن الأشياء التى يفرضها ويحمل عليها الآيات إنكارا للمعجزة .

وحرف قوله تعالى : (قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) فقال : « بعرشها بملكها يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول فى البلد فطلب الخريطة التى فيها مملكة سبا ، ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل » .

يقول الله تعالى : (أيكم يأتينى بعرشها) ويقول هذا المؤول « يأتينى بخريطة مملكتها » واذا كان طلب خريطة مملكتها لوضع خطط الحرب فما وجه عرض هذه الخريطة عليها بعد أن جاءت مسلمة ، وما حكمة سؤالها عن مطابقة هذه الخريطة لحال مملكتها ؟ !

عبث يهذى به حول كتاب الله ، فلا تقوى تحجمه عنه ، ولا حكمة يفرق بها بين الجد والمزح فترفعه عن أن يقول ما يضحك الناس منه .

وحرّف قوله تعالى : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) فتأولها على وجه ينكر به أن يكون ابراهيم عليه السلام ألقى فى النار وخرج منها سالما ، فقال : « معناه نجاه من الوقوع فيها » . وذكر أن نجاته كانت بالهجرة أى من وطن قومه الى ناحية فلسطين .

وظاهر الآية أنه ألقى فى النار وقد سلب الله منها حرارتها ، فإن حمل على معنى إيجاد حائل بين النار وجسم ابراهيم فهو تأويل غير بعيد ، أما صرف الآية الى معنى عدم الوقوع فى النار فتأويل لا داعى اليه ، ولا مسوغ له إلا ضيق الذهن عن تصور بشر يلقى فى النار ولا تحرقه النار ، و إذا لم يقل القرآن « فألقوه فقلنا يا نار كونى برداً » فلسبك الآية فى إيجاز يلائم حد الإعجاز ، فالجملة التى تدل على إلقائهم له فى النار بالوضع والمطابقة حذفت من النظم استغناء عنها بذكر ما يستلزمها ولا يستقر معناه فى ذهن السامع إلا بتقديرها ، وهو قوله تعالى : (قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم) .

وحرف قوله تعالى : (سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ) . فقال : « الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء ، والمسجد الحرام الذى له حرمة ، والأقصى الأبعد مسجد المدينة » .

وقصد المؤول إنكار واقعة الإسراء فحمل الآية على هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة الى المدينة .

أجمع أهل العلم على أن أوائل هذه السورة نزل بمكة أى قبل الهجرة ، ولو كان هذا المؤول ممن يفقه فائدة معرفة ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة فى تفسير كتاب الله تعالى لما تجاسر على تفسير الآية بواقعة الهجرة . وقد روى واقعة الإسراء من مكة الى بيت المقدس جمع عظيم من الصحابة رضى الله عنهم — منهم جابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وجاءت هذه الروايات فى الكتب الصحيحة مثل الجامع الصحيح للإمام البخارى والجامع الصحيح للامام مسلم ، فلو كان هذا المؤول ممن درس كتب السنة ، وكان ممن يستضئ فى تفسير كتاب الله تعالى بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رمى بنفسه فى حفرة لا يسمع صيحته فيها إلا فارغ الذهن من مبادىء الدين ، أو مزلزل العقيدة ما لقى ضِلّيلا إلا مال به عن السبيل .

دعوة الى الفسوق عن أحكام الشريعة :

يريد المؤول أن يفتح لذوى الأهواء باب الخروج عن الدين وتعطيل أحكام الشريعة ، فزعم أن المصلحة قد تكون فى غير ما أمر الله به فحرف قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) . وقال : «يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره ، وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع فيها بل هى من حكمة الشورى » .

فالمؤول يجيز تقرير رأى مخالف لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى هو أمر من الله تعالى ، ويرى فى هذا الرأى المخالف مصلحة تجعله أهلا لأن يعمل عليه بدلا من أمر الله ، يقول الله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) . ومصداق هذه الآية من يحكم بغير ما أنزل الله معتقدا أن المصلحة فيما حكم به ، ويتناول من يفتى برأى معتقدا أنه أحفظ للمصلحة مما أنزل الله ، فمن يأذن للناس فى تقرير رأى مخالف لأمر الله فإنما يقودهم الى حفرة من النار هى إنكار أن يكون الله تعالى أحكم الحاكمين .

فإن زعم المؤول أنه قصد ما كان يراجعه فيه بعض أصحابه رضى الله عنهم من نحو بعض الآراء الحربية ، قلنا له إنك أطلقت فى تأويلك ولم تقصره على هذا النوع من أوامره عليه الصلاة والسلام ، ثم إن مخالفة الأمر عدم العمل به ، وإبداء بعض الصحابة لآرائهم فى شىء من تدابير الحروب لا يسمى مخالفة للأمر ، بل كانوا يعرضون عليه الرأى فتارة لايراه صالحا فيرده ، ولو عملوا على مقتضى رأيهم لحق عليهم وعيد الآية ، وتارة يرى فيه المصلحة فيأمر بالعمل به ، والعمل على هذا النحو من قبيل اتباع أمره ، فأين المخالفة !

انكاره للجن :

يجيء هـذا المؤول الى الآيات التى ذكر فيها الجن ، ويحمل الجن على غير المعنى الذى عرفه الصحابة ومن بعدهم من أئمة الدين وعامة المسلمين ، وأكتفى بأن أسوق ما قاله فى آية هى من أظهر ما يدل على أن الجن خلق غير الانس ، وهى قوله تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) . فإنه بعد أن أحال القارىء على آيات من سور متعددة قال : « بعد هذا تفهم أنه يطلق الجن والجنة على الزعماء المستكبرين من السادة المتبوعين ، ويعبر عن الانس بسائر الناس المقلدين والتابعين المستضعفين » ويفسر الجن فى بعض الآيات بقواد الجيش .

لم ينقل عن أحد من المسلمين على اختلاف فرقهم إنكار الجن ، وإنما ينكرهم طائفة من غير المسلمين ، قال ابن حزم فى كتاب الفصل : « لما أخبرت الرسل الذين شهد الله عز وجل بصدقهم بما أبدى على أيديهم من المعجزات المحيلة للطبائع ، بنص الله عز وجل على وجود الجن فى العالم وجب ضرورة العلم بخلقهم ووجودهم » وقال : « وأجمع المسلمون على ذلك (وجود الجن) نعم والنصارى والمجوس والصابئون وأكثر اليهود حاشا السامرة فقط ، فمن أنكر الجن أو تأول فيهم تأويلا يخرجهم عن هذا الظاهر فهو كافر ومشرك » .

وإنما ينكر الجن من جمد عقله فى دائرة من المحسوسات لا يتخطاها أنملة ، ونحن نعلم أن العقل وحده لا يصل الى العلم بوجودهم ، كما أنه لا يستطيع إقامة الدليل على نفيهم ، بل إذا سئل عنهم وهو صحيح النظر مجرد من كل تقليد أقر بإمكان وجودهم إذ ليس من شرط كل موجود أن يدرك بإحدى الحواس الخمس ، فقدرة الله تعالى تسع خلقا ينشأ من عنصر لطيف ، فلا يقع عليه النظر ، وإذا أقرت العقول إمكان

شيء وأخبر الدين القائم على البرهان بوجوده ، تلقينا خبره بالقبول ، ولم نفرق بينه وبين ما أدركناه بالمشاهدة أو ثبت بالأدلة العقلية مباشرة .

إنكاره للشياطين :

ينكر المؤول الجن ، وينكر أن يكون هناك مخلوق غير الانسان يقال له شيطان ، تجد هذا الانكار عند ما يرد لفظ إبليس أو الشيطان فى آية ، فيأبى أن يبقيه على المعنى المعروف فى الكتاب والسنة وإجماع المسلمين ، فانظر الى أصرح آية فى هذا المعنى وهى قوله تعالى : (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ) كيف تأول لفظ إبليس فيها فقال : « إبليس اسم لكل مستكبر على الحق ، ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصى على الانسان تسخيره » . وكذلك تأول قوله تعالى : (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ) فقال : «والشياطين يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين» ولما وجد قوله تعالى : (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) نصاً فى أن الشيطان مخلوق يصل أثر فتنته الى نفس الانسان دون أن يأخذه بأحد حواسه ، ذهب فى تأويل الآية مذهب من يتظاهر بتفسير القرآن وهو يدس فى تفسيره جحودا ، فقال : « من حيث لا ترونهم فيها شياطين فيخدعونكم بأنهم من الأولياء الناصحين » .

واذا حمل بعض المفسرين لفظ الشياطين فى بعض الآيات على أشرار من الانس كما قال طائفة فى قوله تعالى : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ) : المراد شياطين الانس ، فما كان هؤلاء لينكروا ذلك الصنف من الجن المخلوق من نار السموم ، وإنما هو تأويل بدا لهم أن اللفظ يحتمله قريبا أو بعيدا ، ولا يستطيعون أن يذهبوا الى مثل هذا التأويل فى قوله تعالى : (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) .

فمن حمل مثل هذه الآية على فريق من الانس فهو ممن لا يؤمن إلا بما يلمس أو يرى ، ولم يجعل الله للعقول المتحجرة على تفسير كتابه سبيلا .

تأويله للملائكة :

يتخبط المؤول عند ما تجيئه آية فيها اسم الملائكة ، فمرة يفسره برسل النظام والسنن فى الكون كما قال عند قوله تعالى : (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ) : «إشارة الى أنه يأتيهم بسنن الله ونظامه أى بتغلبهم على العدو وبقوة الحرب ونظامه ، والملائكة كما قلنا فى ص ٢٤ رسل النظام والسنن فى الكون » وقال عند قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) : « الملائكة رسل النظام وعالم السنن ، وسجودهم للانسان معناه أن الكون مسخر له » ومرة يجعل الآية التى ذكر فيها الملائكة من قبيل التمثيل كما قال فى قوله تعالى : (جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) : « يمثل لك السرعة فى إجراء سننه فى الكون وتنفيذ أوامره فى العالم » وفسر جبريل وميكائيل فى قوله تعالى : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) بأنهما قسمان من الملائكة ، وقال : « الأول رسول الوحى والالهام ، والثانى رسول السنن والنظام » وقال عند تأويل الملائكة من قوله تعالى : (وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ) : « وهذا تابع للإيمان بالله ، فمن يؤمن بالله يؤمن بخلقه ونظامه ، والملائكة رسل هذا الخلق والنظام » فتحريفه الآية بادعاء التمثيل مرة ، وذكره لسنن الكون ونظمه مرة أخرى ، وجعله جبريل وميكائيل قسمين من الملائكة دون الاعتراف بأنهما فردان منهم ، يدل على أنه يريد من الملائكة معنى غير المعنى المعروف فى صريح الكتاب والسنة ؛ ونصوص الشريعة

فى دلالتها على وجود الجن والملائكة متساوية ، وهما من جهة إمكان وجودهما فى منزلة واحدة .

انكاره لأحكام معلومة من الدين بالضرورة :

أطلق المؤول قلمه فى الإنكار حتى ألحد فى آيات الحدود والأحكام المعلومة من الدين بالضرورة ، فانظر الى ما صنع فى قوله تعالى : (وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) إذ قال : « يعطى معنى التعود أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم ، ويظهر لك من هذا المعنى أن من يسرق مرة أو مرتين ، ولا يستمر فى السرقة ، ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده » .

وكذلك حرف قوله تعالى : (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) فقال : « يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنى ، وكان من عادتهما وخلقهما ، فهما بذلك يستحقان الجلد » وهذا الذى قاله فى اسم الفاعل من أنه يدل على التكرار والتعود من بهتانه الذى لا يقف عند حد ، فاسم الفاعل نحو السارق أو الزانى إنما يدل على ذات قامت بها السرقة أو الزنى ، ولا دلالة له على تجدد قيام الوصف بالذات ، ولا على تعودها عليه ، هذا ما يقوله علماء العربية فى القديم والحديث . قال ابن مالك فى كتاب التسهيل معرفا اسم الفاعل : « اسم الفاعل هو الصفة الدالة على فاعل ، جارية فى التذكير والتأنيث على المضارع من أفعالها ، لمعناه أو معنى الماضى » .

فقوله : لمعناه أو معنى الماضى ، تنبيه على أنه لا يدل على أزيد مما يدل عليه الفعل ، وهذا وجه الفرق بينه وبين صيغ المبالغة كفعال ومفعال وفعول ، فإن هذه الصيغ تدل على معنى زائد على حدوث الصفة لمن قامت به ، وهو قوتها فيه أو كثرة صدورها منه .

والكوفيون يمنعون عمل صيغ المبالغة فى نحو المفعول ، ويعللون هذا المنع بعدم مجاراتها للفعل المضارع فى وزنه ، وبمخالفتها له فى معناه لأنها تزيد عليه بالمبالغة ،

ومقتضى هذا أن اسم الفاعل عمل فى نحو المفعول لأنه لا يخالف المضارع فى معناه . فعلماء العربية من كوفيين وبصريين مجمعون على أن اسم الفاعل لا يدل على أكثر مما يدل عليه الفعل ، و إذا كان علماء العربية الذين قضـوا أعمارهم الطويلة فى تقصى اللغة ، والتفقه فى كلام العرب قد تظافروا على أن اسم الفاعل لا يدل على مقدار من الوصف أكثر مما يدل عليه أصـل المضارع والماضى ، أفيستطيع المؤول أن ينقض بناءهم بكلمة لا تمت الى البحث بسبب ، وإنما هى وليدة الهوى والانهماك فى مخالفة أهل العلم .

وعمد الى الآيات الصريحة فى ملك اليمين وحرفها بالتأويل تحريفا لا يختلف عن صريح الانكار إلا أن عليه مسحة من النفاق ، فانظر كيف حرف قوله تعـالى : (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) وحمل الفتيات على الخادمات فقال : « فيه عناية بالخادمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات » وقال عند قوله تعـالى : (وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) : « عبادكم و إمائكم : خادميكم وخادماتكم » وقـد ارتكب فى الآيات الواردة فى هـذا الشأن من التأويل ما لا يخطر على بال أصلب الباطنية جبهة ، فانظر اليـه ماذا يقول فى قوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) يقول : « والذين يبتغون الكتاب : كتاب الله وما كتب من الزواج والنسل (فكاتبوهم) : عاونوهم على أداء الكتاب » .

ولو قلت له : إن الذين فسروا الآية بأن يكاتب الرجل رقيقـه على مال حتى إذا أدى ما كتب عليه صار حرا ، قد أقاموا الشاهد على هذا من كتب السنة واللغة ، فهل لك شاهد على ما تأولت عليه الآية ، وما قلت فى تأويلها من أن المكاتبة : المعاونة على أداء الكتاب ، لما كان جوابه إلا أن هذا المعنى قد نفث فى صدره وهو لا يرجع فى تفسير

كتاب الله الى السنة ولا الى قانون اللغة ، ولا مرد لهذا الجواب إلا أن تتلو عليه قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) وتقرأ عليه قوله تعالى : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) .

ومن مقتضى إنكاره لأصل ملك اليمين إنكاره لأن يتمتع الرجل بما ملكت يمينه من الإماء ، وكذلك تجده يحرف الآيات الواردة فى هذا الشأن كما قال تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) فقال المؤول « أو ما ملكت أيمانهم من الخدم فان لهم ما ليس لغيرهم فقد يكون فى الانسان فروج أى نقائص وعيوب يسيئه أن يراها الناس فيه ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه » .

اذا كان فى بعض تأويله ما ينادى بانحرافه عن الهدى الى مكان بعيد ، ففى بعضه ما ينادى بأن الرجل ليس له فكر يتحامى به فضيحة العبث ، ويحبسه عن أن يقول ما يضحك منه المحزون ، فالمؤول يصرف الآية عن أن تكون للحث على الطهر والعفاف الى الأمر بستر العيوب والنقائص عن الناس إلا عن الأزواج والخدم ، ولم يكتف بهذا التأويل السخيف فقال عقبه : «ومن البلاغة فى التعبير أن لفظ «أو» أفاد التنويع بين ما يباح للأزواج وما يباح لملك اليمين ، إذ يوجد من العيوب ما لا ينبغى كشفه على الخدم» ولا ندرى كيف يفهم من « أو » العاطفة لما ملكت أيمانهم على قوله «أزواجهم» التنويع بين ما يباح للأزواج وما يباح لملك اليمين ، وهذا الذى يباح للصنفين فيما زعم لم يذكر فى نظم الآية !

والاسلام جاء فوجد عادة الرق جارية بين المتحاربين فهذبها وترك الأخذ بها لاجتهاد الإمام ، ولكنه أوصى بالإحسان الى الرقيق والرفق به ، وندب الى تحرير

الرقاب ، وجعله كفارة لبعض ما يرتكبه الانسان من عمل سيء كالظهار ، والفطر فى رمضان ، والحنث فى اليمين وقتل النفس خطأ ، وجعل فى يد الحاكم عتق الأرقاء الذين يلحقهم ممن هم تحت أيديهم ضرر فادح ، وتفويض أمر الاسترقاق الى الإمام يجعل له الحق فى العدول عنه كما هو مفصل فى كتب الأحكام .

وأنكر إباحة تعدد الزوجات الذى جرى عليه السلف من الصحابة فمن بعدهم ، وجعل آية (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) خاصة باليتامى فقال : « (من النساء) نساء اليتامى الذين فيهم الكلام لأن الزواج منهن يمنع الحرج فى أموالهن » ثم قال « ولتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق » يعنى (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ) واللاحق يعنى (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا) .

ومن البين تجافى هذا المعنى الذى ذكره المؤول عن نظم الآية ، ومن أظهر الوجوه التى يستقيم معها النظم ولا تمس إجماع المسلمين من الصحابة فمن بعدهم بشىء أن يكون المعنى : وإن خفتم أن تهضموا شيئا من حقوق اليتامى لضعفهن وتحرجتم منها ، فدعوا التزوج بهن ، وانكحوا ما طاب لكم من نساء غيرهن مثنى وثلاث ورباع .

زعمه أن المسلمين يروون الأحاديث النبوية عن اليهود .

لا يبالى المؤول أن يتكلم فى غير أمانة ، ويقول ما لا يطابق الواقع ، ومن أمثلة هذا أنه تعرض عند تأويل قوله تعالى : (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) لما ورد فى سحر بعض اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم وقال : « ومن الغريب مع هذا الدليل المبين أن المسلمين ينقلون فى كتبهم أن النبى سحر بناء على حديث رواه اليهود كما ينقل النصارى أن المسيح صلب بناء على رواية اليهود أيضا » .

من يقرأ هـذه الجملة يفهم منها أن حديث سحر النبي صلى الله عليه وسـلم تلقاه المسلمون عن اليهود ، والحقيقة أن الحديث مروى بأسانيد عن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ، وفى هذا الحديث أنه علم بهذا السحر من طريق الوحى ، ومن رواته من الصحابة رضى الله عنهم عائشة وابن عباس وزيد بن أرقم ، ثم رواه عن هؤلاء جماعة من الثقات حتى بلغ الأئمة : البخارى ومسلما والنسائى والبيهقى وغيرهم ، ولا صلة لحديث السحر بيهودى سوى أن النبى صلى الله عليه وسلم أوحى اليه بما فعل اليهودى لبيد بن الأعصم من السحر .

وأنكر بعض الناس هـذا الحديث فى القديم وأخذهم الريب فيـه من ناحيتين (إحداهما) قوله تعالى : (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُورًا) فهذا مما قصه الله تعالى عن كفار قريش فى سياق الإنكار عليهم ، ومقتضاه نفى أن يكون قد سحر ، والقرآن مقدم على الحديث ، و (ثانيتهما) أن تأثره بالسحر عليـه الصلاة والسلام يقدح فى الثقة بما يبلغه عن الله تعالى من أمر ونهى .

والذين لا يسارعون الى تكذيب الأحاديث المروية بأسانيـد صحيحة ما وجدوا لدفع ما يرد عنها من الشبه طريقا ، يقولون : إن قريشا أرادوا من قولهم «مسحورا» معنى اختلال العقل فيكون مرادفا لقولهم « مجنـون » أو أرادوا أنه مسحور سحرا من أثره هذا الدين الذى يدعو اليه ، وهذا موضع الانكار عليهم بإجماع ، ويقولون : إن السحر إنما تسلط على جسده وجوارحه الظاهرة ولم يمس شيئا من عقله وقلبه ، ويدل لهذا حديث ابن عباس رضى الله عنه فى رواية ابن سـعد (مرض النبي صلى الله عليـه وسلم وأخذ عن النساء والطعام والشراب) .

وليس من غرضنا الآن البحث عن حقيقة السحر ولا بسـط القول فى حديث سحره عليه الصـلاة والسلام ، وإنما أردنا أن نريك كيف يحاول المؤول أن يقذف

المسلمين بسبة تلقى أحوال النبى صلى الله عليه وسلم عن اليهود ، وانظر الى قوله « أن المسلمين ينقلون فى كتبهم » فانها كلمة لا أحسبها صدرت منه إلا فى حال نسيانه أنه استعار ثوب الاسلام ليتمكن من سحر أبناء المسلمين وصدهم عن السبيل .

هذه أمثلة من كتاب حشوه الجحود والهذيان ، نسوقها فى هذه المجلة ليزداد المسلمون علما بأن مؤلفه مهزول الفكر ، منحرف عن الرشد (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) ؟

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

قال بعض الشعراء فى استنجاز الوعد :

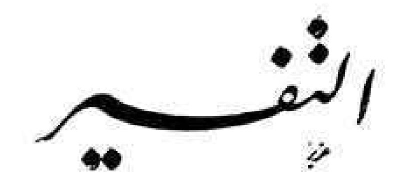
وعَدتَ فأنجِزْ ولا تبْلُنى ... بكدِّ التقاضى وذل السؤال
وصُن وجهَ حُرٍّ براه الزمان ... بأنيابه مثل بَرْى الخِلال
فان ضاق مالك عن رِفْده ... فجاهك أوسع من كل مال

***

مرَّ الامام الشافعى رضى الله عنه بسوق الحدادين بمصر ، فسقط[1] قوسه من يده فقام رجل من دكانه فأخذها ومسحها بكمه وناوله إياها ، فقال الشافعى لغلامه : كم معك؟ قال : سبعة دنانير ، فقال له : ادفعها اليه .

---

(١) كان رضى الله عنه شجاعا ماهرا فى الرمى بالسهام وكان يصيب المرمى فى تسعة من عشرة .



تفسير سورة الملك

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) .

ذكر الله جل اسمه فى سورة التحريم التى قبل هذه السورة أن تشريع الأحكام من التحليل والتحريم إنما هو من صفات الله تعالى ، لأنه هو وحده العليم بوجوه المنافع والمضار ، الخبيرُ بما يُصلِحُ شأنَ عباده دينا ودنيا ، الحكيمُ الذى يَشْرَعُ لهم من الأحكام الدينية والدنيوية ما يكون على وِفاق هذا العلم الأكمل المحيط بما ظهر لهم وما بَطَنَ .

ثم أمر المؤمنين بهذه الأحكام أن يَقُوا أنفسهم النارَ التى أعدّها عدلا منه لمن يخالفون أحكامه فيعصُون أوامرَه وينتهكون محارمَه بالكفر والفسوق . ثم نهى الذين كفروا أن يعتذروا يوم يوفّيهم جزاءَهم بما كسبوا من الكفر والسيئات ، مبينا لهم أنه سبحانه إنما كافأهم بما كانوا يعملون فى الدنيا جزاءً وِفاقا . ثم أمرَ المؤمنين أن يتوبوا إليه توبة نَصُوحًا صادقة إن فَرَطَ منهم ما يوجب غضبَه عليهم ، فإذا تابوا تلك

التوبة رُجِىَ لهم أن الله تعالى يقبل توبتهم فيكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة (يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) ثم أمَرَ سبحانه النبىَّ صلى الله عليه وسلم أن يَصْمُدَ لأعداء الاسلام ويؤدِّبهم بقدر ما يدبِّرون له من المكايد ويُثيرون من الفتن ويُرْجِفون من الأقاويل والأكاذيب .

ثم إنه عز وجل أخبر أن مصاحبة الأخْيارِ لا تنفع من يصاحبُهم إلا اذا اقتفى آثارَهم وسار على طريقتهم واستقام على سنتهم ، وأنَّ معاشرةَ الأشرار لا تضر من يعاشرُهم اذا خالفهم فيما هم عليه ، فَكَرِهَ ما كَرِهَهُ اللهُ تعالى وإِن أَحَبُّوه ، وأَحَبَّ ما أَحَبَّهُ اللهُ وإِن كَرِهُوه ، وأقام وجهَه لدين الله حنيفا ولم يكن من المشركين .

وقد ضرب سبحانه للنوع الأول مثلاً امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ اللتين أساءتا الى أنفسهما بالخيانة والكفر ، وللنوع الثانى مثلاً امرأةَ فرعونَ ومريمَ ابنةَ عِمْران اللتين أحسنتا الى أنفسهما بالإيمان والطاعة فكانتا من الناجين القانتين .

ثم إنه جل ثناؤه أَردفَ سورةَ التحْريم هذه (وقد عرفتَ إِجمال ما فيها) بسورة المُلْك مفتتحا لها بقوله : (تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) تنبيها على أنه جلّت عظمته مَصْدَرُ كلِّ شىء ، وإليه يُرْجعُ الأمرُ كلُّه ؛ فاذا شرع لعباده شرعا فأَحَلَّ هذا وحَرَّمَ ذاك ، أو أَمَرَ أو نَهَى ، أو ضربَ الأمثالَ لِيعقِلَها العالِمون (وقد ورد جميع ذلك فى سورة التحْريم) فإنما كلُّ ذلك على ما تقضى به حكمته البالغة التى هى على طِبْق علمه الشامل الذى لا يعزُب عنه شىء فى السموات ولا فى الأرض كما قال فى سورة التحْريم (وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) .

ثم ذكر سبحانه بعد آية الافتتاح هذه ما شاء من الآيات التى اتصل بعضها ببعض وتَناسبَ تأليفُها وأُحْكِمَ نظمُها على أبلغ وجه وأبدع أسلوب حتى آخرِ السورة ، كما ستراه بمشيئة الله تعالى وحسن توفيقه .

سؤالٌ قريبُ الخطور بالبال . قد يقال : اذا كانت السورتان على ما وصفت من متانة الاتصال حتى صارتا كأنهما سورة واحدة أفلا تكونُ البسملةُ بينهما كلاما أجنبيا منهما غيرَ مرتبط بهما فيتفكك نظمهما وينفصل وَصْلُهما ؟

أمّا الجواب فانه أقرب منه خطورا وجلاءً : ذلك أنّ من سنة الله الحكيم فى كتابه المحكم أنه حينما يذكر لعباده ما شاء أن يذكره يأتى فى غُضون كلامه الكريم أو أوائله [١] أو فى أواخر الآيات بما ينبههم ويوقظ نفوسهم الى تذكر الجزاء ، أو الى التفكر والتعقل ، أو الى الخوف والحذر ، أو الى صفاته وكمالاته ، وصِدْقِ القرآن وأنه تنزيل من حكيم حميد . ومن هذا الأخير ذِكْرُ البسملة الشريفة بين السورتين .

وذلك لجملة حكم سامية : فنها التذكير بنعوت الله تعالى وعظم جلاله ، ومنها أنّ ما ذُكِر قبلها وما سيُذكَر بعدها إنما هو باسمه عز وجل وعنوانه ، تنبيها على أنه كلامه الذى نَزَّله على عبده ليكون للعالمين نذيرا (هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) وليس من كلام أحد من الخلق مَلَكا مقرَّبا أو نبيا مرسلا ، بَلْهَ [٢] غيرَهما من الانس والجن (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

التفسير

أثنى الله جل ثناؤه على نفسه فى هذه الآية الشريفة بثلاثة نعوت من نعوته الالهية العظمى : أولها قوله تعالى : (تبارك) ، ثانيها قوله سبحانه : (الذى بيده الملك) ، ثالثها قوله عز وجل : (وهو على كل شىء قدير) .

فأما قوله : (تبارك) فانه لفظ جامع لعدة كمالات من كمالاته العظمى فان معناه : تعالى [٣] شأنه وجلّت عظمته وارتفع قدره كما قال : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ،

(١) كما فى سورة الفاتحة لأنها فاتحة القرآن العظيم ولم تتقدمها سورة . (٢) دع واترك .

(٣) اشارة الى أن تبارك مشتق من البركة التى هى العظم والزيادة والنماء والكثرة وما أشبه ذلك .

(وَلِلهِ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلَى) . ومعناه أيضا نمت بركته وزاد خيره وكثرت نعمته ، كما قال : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) .

وكذلك[1] معناه ثبتت ربوبيته ووجبت وحدانيته ودام سلطانه وكمالاته التى لا يعلمها إلا هو ، وذلك قوله جل وعز : (ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ) وقوله : (فَتَعَالَى ٱللهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ) .

وأما قوله سبحانه : (ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) فاعلم أن اليد التى هى من أعضاء الحيوان قد أخبرنا الله سبحانه أنه منزه عنها فى مثل قوله : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) ، وأيضا قد قام البرهان العقلى الصادق على وجوب تقديسه عن مشابهته لشىء من المخلوقات ، فإن هذه الجارحة لم يخلقها سبحانه للحيوان إلا لتكون آلة يستعين بها فى قضاء مآربه لأنه من العاجزين ، ولكن الله تنزهت صفاته لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وسيأتى لذلك مزيد بسط قريبا .

إذا علمت هذا علمت أن المعنى المراد من اليد فى حق الله تعالى فى هذه الآية وأمثالها إنما هو المعنى المناسب لتنزيهه وتقديسه سبحانه ، وهو القدرة الكاملة النافذة والتصرف التام المؤسس على الكمال الإلهى والحكمة البالغة ؛ وتوضيح ذلك أن القدرة على الشيء وصف لازم من لوازم اليد متسبب عنها ، ولولاها ما قدر ذو اليد على العمل والتصرف . وهذا يفتح لك إن شاء الله تعالى بابَ فهم المراد الصحيح من كل وصف ورد فى القرآن والسنة إطلاقه على الله سبحانه وظاهره مستحيل عليه كاليد والسمع والبصر والقدرة والاستواء على العرش وغير ذلك من المتشابهات ، وسيأتى عن الامام القفال ما يوضح ذلك أتم توضيح . أى أنك تنزه الله سبحانه عن الوصف الظاهر المستحيل كاليد المعروفة ، ثم تثبتُ له تعالى الوصفَ

(١) إشارة إلى أنه يصح أن يكون مأخوذا من البروك الذى هو الثبات واللزوم والبقاء .

الصحيح اللائقَ به من غير تشبيه له سبحانه بخلقه حسْبَما هداك الدين والعقل السليم ، وذلك الوصف هو الوصف اللازم المترتب على ذلك المعنى المستحيل ، وهو القدرة اللازمة لليد المترتبة على وجودها ، وكالعلم بالمسموعات اللازم للسمع المترتب على وجوده ، وكالعلم بالمبصرات بالنسبة الى البصر ، وهكذا [1] .

أما الْمُلْكُ فهو حيازة الشيء وضَبْطُه والتسلطُ عليه بالأمر والنهى والمحو والإثبات وسائرِ وجوه التصرف . ويطلق أيضا على ذلك الشيء نفسهِ الذى هو موضع التصرف ، فيكون هو المملكة التى هى محل سلطان الْمَلِكِ . هذا .

ثم انظر تَرَ أَنَّ الله جل ذكره عبّر عن نفسه بهذا اللفظ الكريم وهو : (ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) لينبه على أنه تعالى مستحق لهذا التبارك (فى قوله تبارك) لا شريك له فيه ، لأن بيده سبحانه وحده الْمُلْكَ ، ولا يشك عاقل أن من كان كذلك كان حقيقا باختصاصه بهذا التبارك الأسْمَى . وبهذا نعلم أن قوله سبحانه : (بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) دليل قاطع نَصَبَهُ الله تعالى لعباده يعلمهم أنه هو الموصوف بالتبارك لا يزاحمه فيه أحد من خلقه .

وخلاصة ذلك أن الله جل ثناؤه قد تولى الثناء على نفسه بنفسه فى هذه الآية الكريمة مبينا أن جميع هذه الكمالات الجليلة (وهى معانى تبارك التى ذكرناها) واجبةٌ له وحده ، لأنه دون سواه مالك هذا الْمُلْك العظيم : عَرْشِهِ وفَرْشِه ، عُلوِيِّهِ وسُفْلِيِّه ، نفذت فيه إرادته ، وقبضت عليه قدرته ، وبُسِطَتْ عليه كلمتُه ، وأحاط به قهرُه وسلطانُه .

وأما قوله عز من قائل : (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فهو للتنبيه صراحةً على أمرين مختصين به تعالى : أحدهما أن تَصَرُّفَهُ فى الْمُلْك عامٌّ فى تصرفه فى أعيان

(١) وهذا معنى قول العلماء : كل وصف استحال على الله تعالى باعتبار أوله جاز إطلاقه عليه إذا ورد باعتبار غايته .

الموجودات وذواتها بإيجادها بعد عدمها تارة ، وبإعدامها بعد وجودها تارة أخرى ؛ وكذلك فى تصرفه فى صفاتها وأحوالها فى أثناء وجودها بالإيجاد والإعدام كذلك . وبهذا التصريح يندفع تَوَهُّمُ أن تصرفه سبحانه فى الملك إنما هو تصرف فى صفات أشياء قد وجدت من قبل التى هى الملك ، أمّا أعيانها وأشخاصها فإنه لا تصرف له فيها ، (وهذا باطل بضرورة العقل) فيكون نظيرَ تصرف سلطان فى مُلْكه ، فإنه إنما يتصرف فى أحواله وشؤونه لا فى أعيانه التى يتكون منها الملك بالإيجاد والإعدام .

ثانيهما التصريح أيضا بأن قدرته جل وعلا وسلطانه وتصرفه على مقتضى الحكمة البالغة عامةٌ أيضا لهذا العالَمِ الدنيوىِّ وذلك العالَمِ الأخروىِّ : كل من الحياتين وما فيهما فى قبضة قدرته ، لا يعجزه من أمرهما شىء . ونظيرهذا التعبير القرآنى الكريم لإفادة ذلك التعميم قولهُ تعالى : (ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

قد وعدناك فيما سبق أننا سنبين لك طَرَفاً يهديك بتوفيق الله تعالى الى فهم المراد مما ورد إطلاقُه على الله عز وجل فى القرآن والسنة مما يوهم التشبيه ، فنحن هنا نذكر لك ما نقله الامام فخرُ الدين الرازىّ ونظام الدين النَّيْسابورىّ عن الامام[1] القَفَّالِ ، فإن فيه كفايةً (لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) .

قال القَفَّالُ رحمة الله تعالى عليه : العرش فى كلامهم هو السرير الذى يجلس عليه الملوك ، ثم جُعِلَ العرشُ كناية عن نفس المُلْكِ ، يقال : ثُلَّ عرشهُ أى انتقض مُلْكُهُ وفَسَد ، وإذا استقام له مُلكهُ واطَّرَدَ أمرُه وحكمُهُ قالوا استوى على عرشه واستقر على سرير ملكه .

(١) أى فى تفسيريهما لآية (إن ربكم الله الخ) فى سورة الاعراف .

قال الفخر الرازى : هـذا ما قاله القَفَّالُ ، وأقول [١] : إن الذى قاله حق وصدق وصواب ؛ ونظيره قولُهم للرجل الطويل : فلان طول النِّجاد [٢] ، وللرجل الذى يُكْثِرُ الضيافة : هو كثير الرَّماد ، وللرجل الشيخ : فلان اشتعلَ رأسُه شَيْباً ، وليس المراد فى شىء من هذه الألفاظ إجراءها على ظواهرها ، إنما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية ، فكذا هنا : يُذْكَرُ الاستواء على العرش والمراد نَفاذُ القدرة وجريانُ المشيئة [٣] .

ثم قال القَفَّالُ رحمه الله تعالى : والله تعالى لما دَلَّ على ذاته وعلى صفاته وكيفية تدبيره العالَمَ على الوجه الذى أَلِفُوه من ملوكهم ورؤسائهم استقرَّ فى قلوبهم عظمةُ الله وكمال جلاله ، إلَّا أن كلَّ ذلك مشروط بنفى التشبيه ، فاذا قال : إنه عالم ، فَهِمُوا منه أنه لا يخفى عليه تعالى شىء ، ثم علموا بعقولهم أنه لم يُحَصِّلْ ذلك العلمَ بفكرة ولا رَوِيَّة ولا باستعمال حاسة ، واذا قال : قادر ، علموا منه أنه متمكن من إيجاد الكائنات وتكوين الممكنات ، ثم عَلِمُوا بعقولهم أنه غنى فى ذلك الإيجاد والتكوين عن الآلات والأدوات وسَبْقِ المادّة والمدّة والفِكْرة والرويَّة ، وهكذا القول فى كل صفاته ؛ واذا أَخْبَرَ أَنّ له بيتا يحب على عباده حَجَّه ، فَهِمُوا منه أنه نَصَبَ لهم موضعا يقصدونه لمسألة ربهم وطلب حوائجهم ، كما يقصدون بيوتَ الملوك والرؤساء لهذا المطلوب ، ثم عَلِمُوا بعقولهم نفىَ التشبيه وأنه لم يجعل ذلك البيت مسكنا لنفسه ولم ينتفعْ به فى دفع الحر والبرد ؛ وإذا أمرهُمْ بتحميده وتمجيده فَهِمُوا منه أنه أمرهم بنهاية تعظيمه ، ثم عَلِمُوا بعقولهم أنه لا يفرح بذلك التحميد والتعظيم ، ولا يغتمّ بتركه والإعراض عنه .

انتهى كلام الإمام القَفَّال رحمه الله تعالى ، ونفع به (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ . أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَـٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) ؟

حسن منصور
وكيل مدرسة دار العلوم العليا سابقا

(١) هذا من كلام الرازى . (٢) علاقة السيف . (٣) انتهى كلام الفخر .



الترغيب فى بذل المعونة بالمال والمقال

بسم الله الرحمن الرحيم

عن البَرَاء بن عازبٍ رضى الله عنه قال : سمعتُ رسـولَ الله صلى الله عليه وسـلم يقول : مَنْ مَنَحَ مَنِيحَةَ لَبَنٍ أَو وَرِقٍ أَو هَدَى زُقَاقًا كان له مِثلُ عِتْقِ رقبةٍ[1] .

الشرح

منيحةُ اللبن هى الناقة أو الشاة تعطيها غيرَك ليحتلبَها ثم يردَّها عليـك . ومنيحةُ الوَرِق هى دراهم الفضة تُقرِضُها غيرَك . وهدايةُ الزقاق هى أن تدل غيرك على الطريق ليسلكه .

اشتمل هذا الحديث الشريف على نوعين من أنواع البر والمعونة التى جاء بها الدين الاسلامى الحنيف . فالنوع الأول المعونة بالمال ، والنوع الثانى المعونة بالمقال . ثم إن النوع الأول صنفان : معونة النَّقْد من الفضة ، ومثلها الذهب كما سيأتى ، ومعونة غير النقد من الحيوان النافع .

كل خَصلة من هذه الخصال هى تعليم من التعاليم التى جاء بها الإسـلام على وَفْق ما قضتْ به عقول ذوى الألباب والمُروءات ، عَلّم بها النبيُّ صلى الله عليه وسـلم أمتَه

(١) رواه الائمة أحمد والترمذى وابن حبان .

أنه ينبغى للقادر أن يُسعف العاجز ، وأن يبسط الغنىُّ يده للفقير ، وأن يَبْذُل العالِمُ علمَه للجاهل ، وجميعها خلال وفضائل مما بُنِى عليه الاسلام من إعانة المحتاجين وإغاثة الملهوفين وإرشاد الضالين وتعليم الجاهلين .

إذا علمتَ أن ما ورد فى هذا الحديث الشريف إنما هى تعاليم من تعاليم الاسلام المؤسَّس على الإصلاح وأنواع البر ، وأن الحكمة الإلٰهية فيها إنما هى سدُّ حاجة المحتاجين ، وإسعافُ المُعْوِزين ، يتبين لك أن ما ذكر فى الحديث من مَنيحة اللَّبَن والوَرِق وهدايةِ الطريق إنما هو من قبيل ذكر الأمثلة الخاصة التى تدل المتدبرَ فيها على أن نظائرها من سائر الأعمال والأقوال مطلوبةٌ مثلها ومندوبٌ اليها فى دين الله تعالى ، لأنها مشتملة على الحكمة الإلٰهية التى لأجلها حث الله تعالى عبادَه عليها ورغّبهم فيها .

وهذه طريقة من طرق التعليم الصحيح ، يقتصر بها المرشد على ما يراه أقربَ الى أفهام المتعلمين وأسهل على أذهانهم ، لكونه ماثلا أمامَ أعينهم مألوفا فيما بينهم . على أن فى هذه الطريقة فائدةً جليلةً أخرى ، وهى إيقاظ أفكار الأذكياء من المتعلمين ، وتوجيهُها الى مزيد التدبّر والتفهم فيما سَمِعوه من الأمثلة حتى يفقَهوا الحكمةَ فيها ثم يقيسوا عليها نظائرَها من كل ما أفاد فائدتها وتضمن حكمتها . ولا يخفى ما فى ذلك من تثقيف العقول وتربية ملكات البحث والتصرف فى الأمور تصرفا صحيحا مبنيا على البرهان والاستنتاج المستقيم .

هذا يشرح لك السببَ فى اقتصاره صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث وأمثاله على بعض الأشياء والسكوتِ عن بعض آخر لما يراه عليه الصلاة والسلام فى ذلك من مصلحة التعلم والمتعلمين .

هذه طريقة ناجعة فى التربية والتعليم والتثقيف قد سار عليها علماء التربية الآن ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم قد سنَّها قبل ذلك وأرشد اليها الأمة من نحو

أربعةَ عشَرَ قرنا فى ضمن إرشاده لهم الى مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال ومحاسن الأقوال ، فكان تعليمه هذا تعليما مُزْدَوِجا ، وتربيتُه لأمته تربيةً مضاعَفَةً ، فجزاه الله تعالى أعظم مما جزى به نبيا عن أمته .

إذا تمهد هذا علمت أن منيحة اللبن مثلُها منيحةُ كلِّ حيوان يُنتفع به انتفاعا صحيحا مأذونا فيها : كدابة ينتفع بها فى الحمل عليها أو فى الركوب أو الحرث أو السقى أو الصيد أو الحراسة ، وكدَجاج ينتفع ببيضه أو بتفريخه لبيض عنده بدون دَجاج ، وهكذا .

ثم إن منيحة الحيوان مثلُها منيحةُ غيرِ الحيوان : كآلات الزرع والحرث والسقى وحيوانها بالنسبة الى الزراع ، وكآلات الصناعات على اختلافها بالنسبة الى أهل الحِرَف ، وكالكتب بالنسبة الى المتعلمين والمعلمين والقارئين ، وكالثياب وأمتعة البيوت وأدواتها لمن يحتاج اليها وقد يَعْسُرُ عليه شراؤها ، الى غير ذلك مما هو معروف ومستفيض .

هذا أحد الصنفين الداخلين فى نوع المعونة بالمال . فأما الصنف الآخر منهما فهو منيحة النقد ، وهو أن تسلف غيرك ما يحتاج اليه من نقد الفضة أو الذهب ليردَّه اليك بَعْدُ إذا أَيْسَرَ .

إن ما قدمناه لك فى هذا الشرح مع إيجازه يكفى المتبصرين فيه أن يَفْقَهوا الحكمةَ البالغةَ فيما ورد فى الدين الاسلامى الحكيم من الندب الى هذه الخصال المذكورة ، تلك الحكمة كما سبقت الإشارة اليها هى تيسير الأمور على من تعسرت عليه ، وتفريج الكروب عمن نزلت به ، ومد القادرين أيديَهم للأخذ بأيدى العاجزين ، وتوسيعُ الموسرين بأموالهم على من ضاقت عليهم حياتهم ، وبذلُ أهلِ البر والمروءة مما يحبون لإغاثة المحتاجين والمعوزين .

إن السلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية قد علموا هذا الحكم من دينهم، وفقهوا الحكمة الإلهيةَ فيه، واستقاموا على العمل والحرص عليه، وتواصوا بالصبر والإخلاص له، فكان من ثمرات طاعتهم لأوامر ربهم وتمسكهم بأحكام دينهم القويم أَن المضطر منهم لا يلبث أَنْ يُجابَ، وأَن المعسر لا يَعْدَمُ من يسارع الى التيسير عليه، وأَن من نزل به أمر من حوادث الدهر لا يتركه إخوانه المسلمون فريسة لما نزل به من الكوارث، بل كانوا يرون أن ما يصيب أخاهم المسلم من خير أو شر فلهم منه قسط، فاذا أصابته حسنة فَرِحوا بها، وإن أصابته سيئة حَزِنوا لها، وكان مَثَلُهم فى ذلك كما قال عليه الصلاة والسلام فى شأنهم: (تَرَى المُؤْمنينَ فى تَرَاحُمِهِم وتَوادِّهِم وتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجسدِ إذا اشْتَكَى عُضْوًا[1] تَدَاعَى له سائِرُه بالسَّهَرِ والحُمَّى)[2] هذا ما وصف به النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين من أمته، فأخبَرَنا أن المؤمنين حقاً هم الذين تتمكن فى قلوبهم أخوةُ الإسلام حتى يرحمَ بعضُهم بعضا ويُشفق عليه من مكروه يصيبه، وحتى يودَّ بعضُهم بعضا كذلك، فيتواصلوا التواصلَ الجالبَ للمحبة كالتهادي والتزاور، وحتى يَعْطف بعضُهم على بعض كما يُعْطَف طَرَف الثوبِ على باقيه لتقويته، وإنما يكون ذلك باعانة بعضهم لبعض وشَدِّ أَزْرِه له.

إن المسلمين إذا فعلوا ذلك تَمَّ إيمانُهم وكانوا مؤمنين حقا وصاروا كالجسد إذا مَرِضَ عضو منه اشترك معه باقى الأعضاء فى الألم، فالعين تسهرُ، والجسم يُحَمُّ، والمَعدة تَضْطَرِبُ، والفكر يرتبك، فما مَثَلُ الجسد فى كونه إذا اشتكى بعضه اشتكى كله إلا كمثل الشجرة إذا ضرب غصنٌ من أغصانها اهتزت الأغصان كلها بالتحرك والاضطراب.

إن ما جاء فى السنة النبوية من أوصاف المؤمنين حقا هو تعليم من النبي صلوات الله وسلامه عليه لأمته، وبيان لما نزل اليه من ربه فى مثل قوله تعالى فى شأن معاملة

---

(١) هكذا بالنصب. (٢) رواه البخارى.

الأنصار لإخوانهم المهاجرين : (وَالَّذِينَ (١) تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ (٢) مِنْ قَبْلِهِمْ (٣) يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً (٤) مِمَّا أُوتُوا (٥) وَيُؤْثِرُونَ (٦) عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٧) وَمَنْ يُوقَ شُحَّ (٨) نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

فيأيها الذين آمنوا هذا كتاب الله الذى أنزله اليكم نورا مبينا ، وهذه سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بين لكم بها ما نزل إليكم من ربكم ، وهؤلاء هم سلفكم الصالحون المؤمنون حقا الذين إذا تُلِيَتْ عليهم آياتُ الله زادتْهم إيمانا ، واستيقنوا السعادة الدينية والدنيوية فى اتباعها ، والشقاء والخذلانَ فى مخالفتها ، فأصبحوا بنعمة الله عليهم إخوانا متكافلين متعاضدين ، قويُّهم ملجأ لضعيفهم ، وغنيُّهم كافل لفقيرهم ، فسَعِدوا وسادوا وأتمّ الله تعالى عليهم نعمته وكانوا من المفلحين .

ولكنْ خَلَفَ مِنْ بعدهم خَلْفٌ نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون ، وانحرفوا عن سنة رسولهم حتى جهلوها وكانوا قوما عَمِينَ ، وسَخِروا مِنْ سَلَفِهم الصالحين وهجروا سَنَنَهُمْ القويمَ فضلُّوا وما كانوا مهتدين .

عابوا أحكام الله وعادَوْها ، كما عابوا فضائل الدين ومَحاسنَه وتمارَوا فيها ، (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) فـ (ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) .

زعموا أن البخل بالمال حزْم محمود ، وأن قَبْضَ الأغنياء أيديَهم عن سدِّ حاجةِ المحتاجين أمرٌ لا تثريبَ عليهم فيه ، وأن فى ترك المُعْوِزين فريسةً بين أنياب الفقر حفظا لأموالهم وسلامةً لثروتهم أنْ تنتقص بإسعاف المضطرين و إغاثة الفقراء البائسين

(١) الأنصار الذين سكنوا المدينة المنورة . (٢) ألفوه وقبلوه . (٣) من قبل أهل مكة المهاجرين . (٤) حسدا . (٥) من أجل الأموال التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم المهاجرين وهى أموال بنى النضير . (٦) يفضلون المهاجرين على أنفسهم . (٧) احتياج إلى ما يؤثرون به على انفسهم . (٨) حرصها على المال .

كان شُحّهم بأموالهم وغَلَّ أيديهم أنْ يبسُطوها لإعانة إخوانهم المسلمين مَدْعاةً لارتكاب ضعفاء الإيمان ما حرّمه الله تعالى فى كل شرائعه، فوقعوا فيما وقع فيه مَنْ قبلَهم من الأمم التى فَسَقَتْ عن أمر ربها وأخذت الربا وقد نُهيَتْ عنه، ولم تُبالِ بأكل أموال الناس بالباطل.

فَعَلَ ضعفاء الإيمان من هذه الأمة لَمَّا بَخِل أغنياؤهم بأموالهم، كما فعل أشياعهم من أهل الكتاب، فنبذوا القرآن كما نبذ أولئك التوراةَ وراء ظهورهم، وأَوَّلوا ما شاءوا أن يؤوّلوا، وحرّفوا كتبَ الله عن مواضعها، بل أحلّوا ما حرّم الله من الربا (وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ[1]).

وَلَّوا وجوهَهم بعد ذلك الى بيوت أموال الربا ظانين أنها ستأخذ بأيديهم، وتُنقذهم مما وقعوا فيه من الفقر، وتكشفُ عنهم ما نزل بهم من البأساء، الى غير ذلك مما أَمَرَتْهم به أحلامهم؛ ولكنهم ما عَتَّمُوا حتى أظلمتْ عليهم مسالكهم، والْتَوَتْ مقاصدُهم، وانعكستْ آمالُهم و (أَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) و (مَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ).

أَمْسَى الواحدُ الذى أخذوه من بيتِ أموال الربا عشرةً، كما أَمْسَت العشرةُ مائةً، والمائةُ أَلْفًا بل ألوفا، وكانت عاقبةُ أكلهم الربا الذى آذَنَ اللهُ تعالى آكلَه بالحرب أَنْ سَلَبَهُم ما كان فى أيديهم حتى الكَفَافَ، وأصبحو خدّا ما لساداتهم المرابين، وصاروا بين عشائرهم أذلاء مُسْتَجْدِينَ، لا يملكون كثيرا ولا قليلا، وكان مَثَلُ أعمالهم (كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَالُ ٱلْبَعِيدُ) (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

---

(١) ذوى بصائر تريهم الحق ولكنهم تعاموا فلم ينتفعوا بها.

كثيراً ما حَزِنَ المؤمنون الصادقون ، وأَخَذَهم العجبُ من أمر هؤلاء المخذولين الذين أكلوا الربا ناراً صَهَرَتْ ما فى بطونهم ، وأذابت جلودهم ، وكانوا من الخاسرين .

تَساءلَ أولئك المؤمنون المحزونون : كيف أَقْدَمَ أَكَلَةُ الربا على أكله وقد رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم وعلموا ما أصاب أسلافهم الذين استهوتهم بيوتُ الربا فوَلَجُوها ورَمَوا بأنفسهم بين أيديها فأَنشبتْ أظفارَها فى أحشائهم فمزّقتها كلَّ مُمزَّقٍ ، وانتزَعتْ من أيديهم كلَّ ما كانوا يملكون ولم تُبْقِ لهم منه باقيةً ، فأصبحوا فى الفقر المُدْقِع بعد الثَّراء ، وأُرْغِموا بعد رَغَدِ العيش وسُكنى القصور على الشظف ومرارة الحياة والانزواء فى العَراء .

ولكن أتظنُّ أن لأولئك المؤمنين المحزونين الذين يتساءلون عن أَكَلَةِ الربا الذين استهتروا ولم يُبالوا إيذانَ الله تعالى لهم بالحرب حتى أصابهم سيئات ما عملوا ، عُذْراً فى هذا التساؤل ؟ ليس لهم عذر فى ذلك البتة .

إن الحقيقة أن أولئك المتسائلين لا عذر لهم ولا شبهة فى هذا التساؤل ، لأنهم إنما تساءلوا ظنا منهم أن أكلة الربا قوم يعلمون قُبْحَ تعاطيه ، ومقتَ الله وغضبَه على متناوليه ، وسوء مصير الذين يأكلونه فى بطونهم نارا ؛ والواقع الذى لا مِراءَ فيه أنهم جهلة لا يعلمون شيئا من ذلك بل لا يشعرون .

وبيان ذلك أن العلم الحقيقى الذى يستحق المتصف به أن يكون فى زُمرة العلماء الذين أثنى الله تعالى والعقلاء عليهم فى مثل قوله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وقوله : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ) هو الإيقان بالشىء والإذعان والتصديق به وامتزاجه بالنفس يَجْرى فيها كما يجرى الدم فى الشرايين ، حتى تتأثر النفس به تأثرا يَحفُزها الى المسارعة الى الانقياد له والعمل به ؛ وإذ ذاك تظهر آثاره فى أعمال العالِم به ، فاذا أَقْدَمَ أو أَحْجَمَ فإنما يكون ذلك منه

طاعةً لذلك العلم وتسليما له ، لا للرياء ولا للشهرة وحسن الأُحدوثة والخضوع لشهوات النفس .

ثم نقول : إنّ فحش الرذائل والمخازى والمضار وسائر المعاصى لا يخفى على أحد ، فما من إنسان إلا يدرك قبح القتل والسرقة وشرب الخمر وتعاطى ما يضر الجسم والعقل والمال والعِرْض ، الى غير ذلك من سائر المحظورات ؛ ولكن هذا الإدراك لا يسمى علما بالمعنى الذى شرحناه لك آنفا ، وإنما هو مجرد اطلاع للنفس على ذلك الشيء . ولا جدال أن هذا الاطلاع المجرد عن الأثر المحمود إنما هو وقوف محض للنفس على ذلك الشيء وعثور به ، لا يملك عليها قوُاها ولا يكون دافعا لها فى الفعل ، ولا وازعا لها فى الترك ، بل الفعل والترك معه إنما هما أثران يَصْدُران عن شهوة تحكمت فى النفس وعن رغبة أحاطت بالعقل ورَانَتْ على القلب ، ولم يكن للنفس الانسانية فى هذه الحالة نصيب من العلم الحقيقى الذى بيّناه لك ، كما أنها أيضا لا حظَّ لها من آثاره . وبهذا تعلم أن تسمية هذا الاطلاع النفسى المجرد عن آثاره علما إنما هى تسمية غير حقيقية .

فجملة القول أن الإدراك الذى يحصل فى النفس إنْ صَدَّقَتْ به وأذعنَتْ له وسلَّمتْ به تسليما تظهر آثارُه فى أعمالها وأحوالها فهو العلم الحقيقى المعتدُّ به ، وهو الذى يحول بين العالِم به وبين ارتكاب ما يخالفه ، وإن لم يكن الإدراك على هذه الكيفية فهو علم غير حقيقى ولا يستتبع آثارَه الخاصة به ، ولا يكون صاحبه عالما منتفعا بعلمه ، بل هو والجاهلُ سواءٌ ؛ وهو الذى نَعَى اللهُ تعالى عليه فى قوله : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) .

فمِنْ هذا كله تعلم أن المدرك لقبح المعاصى والرذائل وسائر المخالفات ولا يكون إدراكه لذلك زاجرا له ولا حائلا بينه وبين الانغماس فى رِجْسِها فإنه لا يكون فى الواقع عالما علما حقيقيا منتفعا به ، بل يكون محروما من ثمراته وآثاره ، وكان إدراكه هذا

حجةً قائمةً عليه عند الله والناس ، بل عند نفسه : توبّخه وتَخِزُه به وَخْزاً بين آنٍ وآخر ، إن كانت له نفس تَفِيءُ الى فطرتها الإنسانية وقتاً ما .

من ذلك الفريق الذى لم ينتفع بعلمه حتى كان فى الحقيقة غير عالم وصار هو والجاهل سواء ، آكلُ الربا الذى زينت له نفسُه سُوءَ عمله فرآه حَسَناً ، واطَّرَحَ الأوامر والنواهىَ ظِهْرِيّاً ، ولم يُبالِ بما حلَّ بأمثاله الذين ملأوا بطونَهم بالربا من قبله ثم باءوا بالخسران يتضورون ويتكفّفون نادمين (يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللهَ وأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا) .

كل هذه العواقب الوخيمة السيئة التى سقط فيها آكِلُو الربا إنما مصدرُها الأغنياء الذين قبضوا أيديَهم وغلُّوها إلى أعناقهم ، ولم يبسُطوها كما أُمِرُوا الى الفقراء لينقذوهم ويردّوا عنهم غوائل الفقر والحاجة وهم يعلمون أن للفقراء حقا أوجبه الله تعالى لهم فى أموال الأغنياء يؤدونه اليهم : إما زكاة وإما صدقة وإما قرضا وعارية ومَنِيحةً .

يعلمون كل هذا كما يعلمون ما أعده الله سبحانه لهم من حسن الثواب إذا عَمِلوا بما عَلِمُوا ، وسوءَ العقاب والمؤاخذةِ إذا لم ينتفعوا بما علموا وكانوا من الزاهدين فيما أعدّه الله الغنى المتفضل للمنفقين .

النوع الثانى من أنواع البر والمعونة : المعونةُ بالمقال . وهى باب واسع يدخل فيه كل قول صالح نافع يرشد إلى صلاح الدين والدنيا ، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبيان كل ما تستقيم به أحوال المسلمين عامة ؛ وقد مثّلَ صلى الله عليه وسلم لذلك بإرشاد الجاهل للطريق وهدايته الى سلوكه ، وذلك بأن يشير إليه أو يَصِفَهُ له وصفا يكشفه له أو يأخذَ بيده إليه إن احتاج الى ذلك .

ثم إنه صلوات الله وسلامه عليه بين ما يناله العبد المطيع لهذه التعاليم التى عَلَّمها أُمتَه ليعملوا بها وتستقيمَ لهم دنياهم وأخراهم : بَيّنَ أنها جزاء حسن عند الله سبحانه يماثل جزاء من أعتق رقبة فأعاد اليها إنسانيتها الكاملة ، وردَّ عليها حريتها المطلقة ،

فأصبحت بنعمة العتق كاملة الملك تامة التصرف فيما تملك صالحة لكل ما يصلح له الأحرار من سائر الأحكام والمعاملات الدينية والدنيوية التى خوّلهموها الاسلامُ .

أما الجزاء العظيم الذى أعدّه الله تعالى لمن أعتق رقبة مكافأةً له على ذلك الإعتاق، فقد ورد بيانه والترغيب فيه فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، فمن ذلك قولُه تعالى : (فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ) وقولُه عليه الصلاة والسلام : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ ٱمْرَأً مُسْلِماً ٱسْتَنْقَذَ ٱللهُ تَعَالَىٰ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْواً مِنَ ٱلنَّارِ [1] » .

أَلَا فَلْيَعْلَمِ المسلمون الأغنياء والقادرون منهم على إعانة إخوانهم ولو بالهداية والنصيحة ، أَنَّ أَمامهم عقبةً لا يستطيعون اقتحامَها ، ونارا تَلَظَّى لا مَحِيصَ لهم منها ، إلا إذا أنابوا الى ربهم وتقربوا اليه بما يرضيه عنهم من أنواع الطاعات التى منها ما ورد فى الحديث الذى نشرحه ، فاذا فعلوا ذلك كان لهم من الجزاء الحسن عند الله تعالى مثلُ ما لإخوانهم الذين وفقهم الله تعالى فاقتحموا العقبة واستنقذ اللهُ تعالى بكل عضو من أعضاء مَنْ أعتقوه عضوا من النار . ولعلهم فاعلون ذلك إن شاء الله تعالى ؟

حسن منصور
وكيل مدرسة دار العلوم العليا سابقاً

(١) رواه البخارى .

التوسل وجهل الوهابيين

قلنا فى العدد السابق إنه لا بأس أن نتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ونستغيث به فى حياته وبعد مماته لأن التوسل إنما هو بمنزلته عند الله وهى ثابتة له فى الدنيا والآخرة والمطلوب منه هو الله تعالى ، على أنا لو طلبنا من النبي أن يتشفع لنا عنده تعالى لصح عقلا ونقلا ، فإنه يمكنه وهو فى البرزخ أن يسأل الله لنا كما كان يسأله فى حياته . وقد قلنا إن الأرواح بعد الموت باقية فاهمة مدركة ، بل نقلنا عن إمامهم ابن القيم أن للروح بعد مفارقة الجسد أعمالا تعملها (فى هذا العالم) لم يكن يمكنها أن تعملها حال اتصالها بالبدن الى آخر ما نقلنا عنه ؛ وهو معقول جدا ، فان الأرواح لم تستمد قوتها من الأشباح حتى تذهب قواها وخصائصها بمفارقتها ، بل الأشباح هى التى تستمد حياتها وأفاعيلها من الأرواح ، فما هذا الاشتباه الذى أدى الى قلب الحقائق ومصادمة المعقول والمنقول ! على أن تخصيص الجواز بالحى دون الميت أقرب الى إيقاع الناس فى الشرك ، فإنه يوهم أن للحى فعلا يستقل به دون الميت ، فأين هذا من قولنا إن الفعل فى الحقيقة لله لا للحى ولا الميت ؟ ! ومن أمعن النظر فى كلامهم لم يفهم منه إلا مذهب المعتزلة فى الأحياء ، ومذهب الذين يئسوا من أصحاب القبور فى الأموات . وعلى كل حال فالغفلة عن الفاعل الحقيقى وتخيل أن الفاعل غيره أظهر فى الأحياء منه فى الأموات . وقد نقلنا لك كلام الشوكانى وهو من أئمتهم أيضا فى التوسل ورده على العز بن عبد السلام فى تخصيصه جواز ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم وقال : إنه لا فرق بينه وبين غيره .

ولنقل كما قال على سبيل التنزل عسى أن ينقطع النزاع بيننا وبينهم : لماذا لا تجعلون التوسل بالولى أو النبي توسلا بعمله الصالح فإنك تتوسل بالولى من حيث

هو ولى مقرب الى الله تعالى وما تقرب اليه إلا بما أحبه من صالح الأعمال ، وسؤال الله بالأعمال الصالحة مجمع على جوازه منا ومنكم ؟ ! وستسمعون أكثر من هذا .
ولنذكر لكم اليوم عبارة ابن قدامة وهو من كبار الحنابلة الذين أنتم على مذهبهم وقد قال فيه ابن تيمية : إنه لم يدخل الشام بعد الأوزاعى أفضل منه ، فلعله يحرك منكم الانصاف أو يذكركم بمذهبكم إن كان لكم مذهب كما تدعون .

نريد أن نحاكمكم الى العقل تارة والى ما قاله الشوكانى وابن القيم وأئمة الحنابلة تارة أخرى .

وليت شعرى هل يفيد شيء من هذا ! (بكل تداوينا فلم يشف ما بنا) وقد قال الله فى حق قوم أشربوا فى قلوبهم التعصب والعناد : (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً) وسر ذلك كما بين الله أنهم كانوا يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وأى تكبر أعظم من تكبر من يحتقر جميع المسلمين ويعتقد أن لا ناجى غيره ! ولكننا نكتب لغير جهلة الوهابيين كى نقيه من عدواهم ، وللمنصفين منهم كى يرجعوا الى الحق اذا تبين .

أما عبارة ابن قدامة الحنبلى فى مغنيه الذى هو من أجل كتب الحنابلة أو أجلها على الاطلاق فهاك نصها : قال فى صفة زيارته صلى الله عليه وسلم فى صفحة ٥٩٠ من الجزء الثالث : تأتى القبر فتولى ظهرك القبلة ، وتستقبل وسطه وتقول : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك يا نبى الله وخيرته من خلقه ، الى أن قال : اللهم اجز عنا نبينا أفضل ما جازيت به أحدا من النبيين والمرسلين ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه به الأولون والآخرون ، الى أن قال : اللهم إنك قلت وقولك الحق : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) وقد أتيتك مستغفرا من ذنوبى مستشفعا بك الى ربى . فانظر الى استشفاعه به

وهو فى قبره الذى يحرمه الوهابيون « الحنابلة » ؛ وأظن أنهم لا يجرءون على التفرقة بين الاستشفاع والتوسل وإن كنا لا نستبعد منهم ما يعقل ومالا يعقل ، كما نعتقد أنهم لا يفهمون إلا ما يفهمه الناس من أن الزائر يستغفر والرسول يستغفر أيضا وهو فى البرزخ ، وإلا فلا معنى لإيراد هذه الآية ولا بعد فى استغفاره صلى الله عليه وسلم بعد موته ، فقد ورد فى الحديث الصحيح « تعرض علىّ أعمالكم » أى بعد الموت « فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت لكم » وقد أطال المناوى وغيره فى تصحيح هذا الحديث ، فأنت تراه أثبت الاستغفار لنا بعد وفاته بنص الحديث . وفى شرح المقنع المطبوع مع المغنى على نفقة جلالة الملك بن سعود و بتصحيح الأستاذ السيد رشيد رضا فى صفحة ٤٩٥ مثله حرفا بحرف وفيه زيادة على ذلك ما نصه : روى الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حج فزار قبرى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » وفى رواية : من زار قبرى وجبت له شفاعتى اﻫ . والدارقطنى من أعظم المحدثين تحريا وأكثرهم تشددا فى الحديث ، ولكنه وافق على حديث الزيارة كثيره من الحفاظ النقاد كما بينه السبكى فى شفاء السقام بما لا مزيد عليه .

فهذا كلام الحنابلة الأول المتبعين لمذهب الامام أحمد ، المتمسكين بسنة النبى صلى الله عليه وسلم ومحبته كسائر علماء المذاهب .

ولنذكر لك بعد ذلك ما وعدنا به من أدلة التوسل من السنة الصحيحة فنقول :

شىء من أدلة التوسل :

جواز التوسل وحسنه معلوم لكل ذى دين ؛ وكأنه مركوز فى الفطر الانسانية أن يتوسل الى الله بأنبيائه وأصفيائه والمقربين لديه ، ولذلك يذهب الناس يوم القيامة للأنبياء كى يشفعوا لهم لمنزلتهم عنده وإن كان الله أقرب إليهم من حبل الوريد ، وأتباع كل نبى

كانوا يتوسلون الى الله بذلك النبي ، وقد ثبت التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل وجوده وبعد وجوده فى الدنيا وبعد موته فى مدة البرزخ ، وبعد البعث فى عرصات القيامة . أما التوسل به قبل وجوده فيدل له ما أخرجه الحاكم وصححه ولم يتعقبه الذهبي فى كتابه الذى تعقب به الحاكم فى مستدركه ، وقد صح عن مالك أيضا على ما رواه القاضى عياض فى الشفاء أن آدم لما اقترف الخطيئة توسل الى الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال له من أين عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ فقال وجدت اسمه مكتوبا بجنب اسمك فعلمت أنه أحب الخلق اليك فقال الله : إنه لأحب الخلق إلىّ وإذ توسلت به فقد غفرت لك . وقال مالك للمنصور وقد سأله : يا أبا عبد الله أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال له الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك الى الله ووسيلة أبيك آدم . يشير الى ذلك الحديث ، وقال المفسرون فى قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا) : إن قريظة والنضير كانوا إذا حاربوا مشركى العرب استنصروا عليهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان فينتصرون عليهم ؛ وهو مروى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما ؛ فأنت تراهم سألوا الله به قبل وجوده .

أما التوسل به بعد وجوده فى حياته فلا أظن أن أحدا يمارى فيه ، فقد كانوا يذهبون اليه فى كل شدة : إذا أجدبوا أو نزلوا منزلا فلم يجدوا به ماء ، وعند ما يمسهم ضر أو كرب مما لا يسعنا الإفاضة فيه الآن ، وإن أنكره منكر ملأنا له الدنيا أدلة وبراهين ، وإن سموا بعضه استغاثة فلا ضرر فإنه يثبت المطلوب بالطريق الأولى ويرد عليهم على كل حال ، والنزاع ليس فى ألفاظ وعبارات كما قلنا فى العدد السابق .

ولكن نسوق لك الآن حديثا صحيحا أخرجه الترمذى وصححه والنسائى والبيهقى والطبرانى بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ حتى (الشوكانى) : رووا جميعا عن

عثمان بن حنيف رضى الله عنه أن رجلا أعمى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وهم جلوس معه فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر ، فقال ليس لى قائد وقد شق علىّ فقد بصرى ، فقال له : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إنى أتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة يا محمد إنى توجهت بك الى ربى فى حاجتى لتقضى لى اللهم شفعه فىّ » وفى رواية « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » قال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيرا كأنه لم يكن به ضر . هذا هو الحديث الصحيح الصريح الذى كان ينبغى أن يقطع النزاع .

ولكن السخيف المتعصب لا يعدم خيالا فاسدا وكلاما فارغا ، وقد قال الله تعالى : « وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً » . فلننتظر حتى يتخيل ، وإنى ألفت نظرك الى قوله عليه السلام . « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » والى ندائه صلى الله عليه وسلم وهو غائب عنه وهو مما يحرمه الوهابيون أو يجعلونه شركا .

وأما التوسل به بعد وفاته فيمكننا أن نستدل عليه بهذا الحديث ، فان قوله صلى الله عليه وسلم « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » صريح فى جوازه بلا قيد ولا شرط ، ويدل له أيضا ما رواه الطبرانى والبيهقى والترمذى بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف الى عثمان بن عفان زمن خلافته فى حاجة له فكان لايلتفت اليه ، فرجا عثمان بن حنيف أن يكلمه فى شأنه فعلمه الدعاء المذكور فتوضأ وصلى ثم دعا به كما علمه ، ثم جاء الى باب عثمان فأخذه الخادم وأدخله عليه فأجلسه بجانبه على الطنفسة ثم قضى حاجته وقال له : إذا عرضت لك حاجة فأتنا ، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف قال له : جزاك الله خيرا ، ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته فيها ، فقال له والله ما كلمته ولكنى كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه أعمى وذكر الحديث . هذا وقد توسل صلى الله عليه بالأنبياء السابقين بعد موتهم كما فى الحديث الصحيح .

فعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكانت قد ربت النبى صلى الله عليه وسلم ، دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها ثم قال : رحمك الله يا أمى بعد أمى وذكر ثناءه عليها ، ثم كفنها ببردته وأمر بحفر قبرها ، قال فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وأخرج ترابه بيده فلما فرغ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال : «الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت» اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع لها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين . أخرجه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم بسند صحيح . وروى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله تعالى عنه مثل ذلك ، وروى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه ، ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله تعالى عنه .

ثم نقول إنهم كانوا يتبركون بآثاره صلى الله عليه وسلم بعد موته، فقد ثبت أنه كان له صلى الله عليه وسلم جبة عند أسماء بنت أبى بكر كانوا يستشفون بها ، ولا معنى لهذا إلا أنهم كانوا يتوسلون بآثاره إلى الله تعالى فيشفيهم ببركتها .

والتوسل يقع على وجوه كثيرة لا على وجه واحد كما يفهمه هؤلاء ، أفتراهم يتوسلون بآثاره ولا يتوسلون به ! وفى الباب شىء كثير لعلنا نذكره بعد . أما توسل عمر بالعباس حينما استسقى به دون النبى صلى الله عليه وسلم فلكون ذلك هو سنة الاستسقاء ولكون العباس من ذوى الحاجة للمطر ، أو لكون عمر أراد أن يبين للناس أنه يجوز التوسل بغيره صلى الله عليه وسلم لفضله أو لقرابته منه عليه السلام أو لخوفه على ضعفاء المسلمين وعوامهم إذا تأخر المطر بعد التوسل ، أو ليدلهم على أن التوسل بالمفضول جائز مع وجود الفاضل ، وإلا فَعَلِىٌّ أفضل من العباس وكذا عمر .

على أن البيهقى فى دلائل النبوة أخرج ما يأتى ، وكذا أخرجه بن أبى شيبة بسند صحيح عن مالك الدار خازن عمر رضى الله عنه قال : أصاب الناس قحط فى زمان عمر ،

فجاء رجل قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسـول الله استسق الله لأمتك فانهم قدهلكوا، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال ائت عمر فاقرأه السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك الكيس الكيس فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضى الله ثم قال يارب ما آلو إلا ما عجزت عنه . ومحل الاستشهاد فى هذا الأثر طلبه الاستسقاء من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته وإقرار عمر إياه على ذلك . هذا وأحب أن تتذكر ما قلناه من أن المسؤول هو الله تعالى لا فاعل غيره ولا خالق سواه ، وإنما نسأله بمنزلة حبيبه لديه ومحبته له ، وذلك شيء ثابت لا يتغير فى الدنيا ولا فى الآخرة . ومن شـك فى منزلته أو قربه صلى الله عليه وسلم فقد كفر . على أن قول عمر بحضر من الصحابة إنا نتوسل اليك بعم نبيك يدل على جواز التوسل بالمنزلة وإلا لم يكن له معنى، وأى حاجة اليه إذا كان المقصود دعاء العباس، وهل ذلك من دعاء العباس ؟ !

أما التوسـل به فى عرصات القيامة فلا حاجة للإطالة فيه فان أحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر ، وفيها أن الناس يذهبون الى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعة الى آخر ما هو معروف : « ضاق الكلام بنا من عظم ما اتسعا » .

الخلاصة

والخلاصـة أنه مما لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم له عند الله قدر علىّ ومرتبة رفيعة وجاه عظيم ، فأى مانع شرعى أو عقلى يمنع التوسل به فضلا عن الأدلة التى تثبته فى الدنيا والآخرة ولسنا فى ذلك سائلين غير الله تعالى ولا داعين إلا إياه ؟! فنحن ندعوه بمـا أحب أيا كان ، فتارة نسأله بأعمالنا الصالحة لأنه يحبها ، وتارة نسأله بمن يحبه من خلقه كما فى حـديث آدم السابق وكما فى حديث فاطمة بنت أسـد الذى ذكرناه ، وكما فى حديث عثمان بن حنيف المتقـدم ، وتارة نسأله بأسمـائه الحسنى كما فى قوله صـلى الله عليه وسـلم : « أسألك بأنك أنت الله » . أو بصـفته أو فعـله

كما فى قوله فى الحديث الآخر : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك » . وليس مقصورا على تلك الدائرة الضيقة التى يظنها الجاحدون .

وسر ذلك أن كل ما أحبه الله صح التوسل به ، وكذا كل من أحبه من نبى أو ولى ، وهو واضح لدى كل ذى فطرة سليمة ولا يمنع منه عقل ولا نقل بل تضافر العقل والنقل على جوازه ، والمسؤول فى ذلك كله الله وحده لا شريك له ، لا النبى ولا الولى ولا الحى ولا الميت (قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ٱللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) وإذا جاز السؤال بالأعمال فبالنبي صلى الله عليه وسلم أولى لأنه أفضل المخلوقات والأعمال منها ، والله أعظم حبا له صلى الله عليه وسلم من الأعمال وغيرها . وليت شعرى ما المانع من ذلك واللفظ لا يفيد شيئا أكثر من أن للنبى قدرا عند الله ، والمتوسل لا يريد غير هذا المعنى ، ومن ينكر قدره عند الله فهو كافر كما قلنا .

لو كنا مثلهم نأخذ بالظنة ونتصيد الشبه ونسارع الى تكفير المسلمين لأمكن أن نقول لهم : إن من لا يعرف قدر النبى أولى بالاشراك ممن عرفه ، ومن استباح دماء المسلمين أقرب الى الضلال ممن استبرأ لدينه وعرضه . وبعد ، فمسألة التوسل تدور على عظمة المسؤول به ومحبته ، فالسؤال بالنبى إنما هو لعظمته عند الله أو لمحبته إياه ، وذلك مما لا شك فيه .

على أن التوسل بالأعمال متفق عليه منا ومنهم ، فلماذا لا نقول إن من يتوسل بالأنبياء أو الصالحين هو متوسل بأعمالهم التى يحبها الله تعالى وقد ورد بها حديث أصحاب الغار فيكون من محل الاتفاق ؟ ! ولا شك أن المتوسل بالصالحين إنما يتوسل بهم من حيث إنهم صالحون فيرجع الأمر إلى الأعمال الصالحة المتفق على جواز التوسل بها كما قلنا فى صدر المقالة . ولنقتصر اليوم على هذا وموعدنا الأعداد المقبلة إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

نقل معانى القرآن

الى اللغـــات الأجنبيـــة [1]

يتحدث الناس عن نقل معانى القرآن الى اللغات الأجنبية ، وتأتينا الرسائل فى السؤال عن حكم هذا النقل ، وذلك ما دعانى أن أنظر فى هذا الموضوع الخطير ، واعرض ما وصلت اليه من نتيجة ، وأرجو أن أكون ممن استقام فى البحث حتى اهتدى الى الحقيقة .

هل فى المستطاع ترجمة القرآن الى لغة غير عربية ؟

للقرآن — ككل كلام عربى بليغ — معان أصلية ، وهى ما يستوى فى فهمه كل من عرف مدلولات الألفاظ المفردة ، وعرف وجوه إعرابها من فاعلية ومفعولية ، وحالية وإضافة ، وما يشاكل ذلك من الأحوال المبحوث عنها فى علم النحو ؛ فالمعنى الأصلى لقوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ) يفهمه كل من له إلمام باللغة العربية ، سواء عليه أكان خبيراً بطرق البلاغة ، أم كان فاقد الاحساس الذى يتذوق به طعمها ؛ فكل عارف بمدلولات ألفاظ هذه الآية ووجوه إعرابها ، يعقل منها أن قتل الذى يقتل نفساً بغير حق ، يحمى من القتل فيما بعد ، ويكون سبباً لحياة كثير من الناس ، لما فى القصاص من الزجر البالغ والإرهاب .

وللقرآن معان ثانوية ، ويسميها علماء البلاغة بمستتبعات التراكيب ، وهى خواص النظم التى يرتفع بها شأن الكلام ، وتتسابق فى مجالها فرسان البراعة من الخطباء والشعراء ، فقد يتحد الخطيبان أو الشاعران فيما يريدان إفادته من المعانى الأصلية ، ويتفاضلان فيما يتبع هذه المعانى من لطائف ومعان ثانوية .

---

(١) محاضرة ألقيت فى دار جمعية الهداية الاسلامية .

والمعنى الأصلي قد يوافق فيه بعض الآيات منثور أو منظوم من كلام العرب، ولا تمس هذه الموافقة إعجاز القرآن، فإن إعجازه ببديع نظمه، وروعة بيانه، وبما حف به من المعاني الزائدة على أصل المراد، وبحكمة معنى كل آية بحيث لا يجد أولو الأبصار في آياته تخاذلا، ولا في كلماته لاغية، وبما يضاف الى هذا من إخباره عن غيوب وقعت كما وصفها.

وإذا كان للقرآن معان أصلية وأخرى تابعة وهي مظهر بلاغته وملاك إعجازه، فإن ترجمته بالنظر الى المعاني الثانوية غير ميسورة إلا أن توجد لغة توافق اللغة العربية في دلالة ألفاظها على هذه المعاني المسماة عند علماء البيان خواص التراكيب، وذلك ما لا يسهل على أحد ادعاؤه، وممن نبه على هذا في القديم أبو القاسم الزمخشري في كشافه إذ قال: « إن في كلام العرب — خصوصا القرآن — من لطائف المعاني ما لا يستقل بأدائه لسان ».

وليس في هذا إنكار أن يكون في اللغات الأخرى بلاغة، ويكفي في تعذر ترجمة ما يحمله اللفظ العربي من دقائق المعاني أن هذه المعاني أو بعضها مما لا يشير اليه اللفظ المرادف له من اللغة الأجنبية إلا أن تصاغ له جملة مستقلة، وأضرب المثل لهذا بتقديم المفعول على الفعل يدل في اللغة العربية على الاهتمام بشأنه، وربما كانت اللغة الأخرى لا تدل بالتقديم على هذا المعنى، فيحتاج المترجم في الدلالة على معنى الاهتمام الذي يشير اليه اللفظ العربي بالتقديم الى عبارة أخرى بعد العبارة التي ينقل بها أصل المعنى، واذا كان التنكير يدل في اللغة العربية على التعظيم أو التحقير، ولم يعتد أهل اللغة الأجنبية أن يدلوا به على هذا المعنى، فإن المترجم يقتصر في ترجمة الاسم النكرة على مدلوله اللغوي، ويفوته معنى التعظيم أو التحقير الذي يعد من مقاصد المتكلم العربي ويدخل فيما يورث الجملة العربية رفعة، واذا زاد المترجم كلمة ترادف معنى عظيم أو حقير ذهب رونق البلاغة الذي هو حلية اللفظ العربي، لأن لأخذ هذا المعنى من التنكير وقعا في نفس السامع غير الوقع الذي يكون له عند ما ينطق المتكلم بلفظه الصريح.

وعلى فرض أن يوجد لسان أجنبي يستقل بأداء ما فى كلام العرب من لطائف المعانى، فلا يثق أحد بأنه وصل الى كل ما فى الآية من المعانى التى يرتفع بها شأن الكلام حتى يصح له ادعاء أنه عبر باللغة الأجنبية عن كل ما أريد من الآية، وأن نقله لها الى تلك اللغة ترجمة طبق الأصل .

والذى يمكن نقله الى لغة أخرى إنما هو معانيه الأصلية حيث لا تقصر اللغات الأجنبية عن تأديتها، قال أبو إسحق الشاطبي فى كتاب الموافقات : « إن ترجمة القرآن على الوجه الأول (يعنى النظر الى معانيه الأصلية) ممكن ، ومن جهته صح تفسير القرآن وبيان معانيه للعامة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه، وكان ذلك جائزا باتفاق أهل الاسلام، فصار هذا الاتفاق حجة فى صحة الترجمة على المعنى الأصلى » .

واذا كان نقل المعانى الأصلية قد يقع صحيحا، وكان فى مستطاع من يجيد لغة أجنبية أن ينقل هذه المعانى من اللغة العربية الى اللغة التى أجاد معرفتها، لم يبق سوى النظر فى تفصيل حكم هذا النقل، وبيان حال المنع منه أو الاذن فيه .

ويرجع النظر فى هذا البحث الى مقامين :

المقام الأول : قراءة ترجمة القرآن فى الصلاة ، والمقام الثانى : نقل معانى القرآن ليطلع عليها أهل ذلك اللسان لعلهم يهتدون .

المقام الاول :

نجد فى المسائل التى هي موضع خلاف بين الأئمة القراءة فى الصلاة بألفاظ غير عربية يعبر بها عن طائفة من معانى القرآن الكريم، يروى عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه كان يرى جواز القراءة فى الصلاة باللغة الفارسية، وبنى بعض أصحابه على هذا القول جوازها بالتركية والهندية وغيرها من الألسنة، وظاهر هذه الرواية جواز القراءة بالفارسية ونحوها ولو كان المصلى قادرا على النطق بالعربية، ومبنى هذا القول

على أن القرآن اسم للمعانى التى تدل عليها الألفاظ العربية ، والمعانى لا تختلف باختلاف ما يتعاقب عليها من الألفاظ واللغات .

أما صاحباه الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن فجعلا القراءة فى الصلاة باللسان الأعجمى من قبيل ما تدعو اليه الضرورة ، فأجازاها للعاجز عن العربية دون القادر على القراءة بها ، وهذا ما تجرى به الفتوى فى مذهب الحنفية ، قال فى معراج الدراية : « إنما جوزنا القراءة بترجمة القرآن للعاجز اذا لم يخل بالمعنى ، لأنه قرآن من وجه باعتبار اشتماله على المعنى ، فالإتيان به أولى من الترك مطلقا ، إذ التكليف بحسب الوسع » .

وما روى عن الإمام أبى حنيفة من جواز القراءة فى الصلاة بترجمة القرآن قد صح رجوعه عنه ؛ حكى هذا الرجوع عبد العزيز فى شرح البزدوى ، قال صاحب البحر المحيط « والذين لم يطلعوا على الرجوع من أصحابه قالوا : أراد به عند الضرورة والعجز عن القرآن ، فإن لم يكن كذلك امتنع وحكم بزندقة فاعله » وليس الإلحاد ممن قدر أن يقرأ فى الصلاة بالعربية فعدل عنها الى الأعجمية ببعيد .

أما المالكية والشافعية والحنابلة فقد منعوا القراءة بترجمة القرآن فى الصلاة ، سواء أكان المصلى قادرا على العربية أم عاجزا ، ناظرين الى أن ترجمة القرآن ليست قرآنا ، إذ القرآن هو هذا النظم المعجز الذى وصفه الله تعالى بكونه عربيا ، وبالترجمة يزول الإعجاز .

قال القاضى أبو بكر بن العربى ـ وهو من فقهاء المالكية ـ فى تفسير قوله تعالى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) : قال علماؤنا : هذا يبطل قول أبى حنيفة رضى الله عنه — إن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز ، لأن الله تعالى قال : (ولو جعلناه قُرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى) ، نفى أن يكون للعجمة إليه طريق ، فكيف يصرف الى مانفى الله عنه

ثم قال « إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب ، فلو قلب الى غير هذا لما كان قرآنا ولا بيانا ، ولا اقتضى إعجازا » .

وقال الحافظ ابن حجر وهو من فقهاء الشافعية — فى فتح البارى : « إن كان القارئ قادرا على تلاوته باللسان العربى فلا يجوز له العدول عنه ، ولا تجزئ صلاته (أى بقراءة ترجمته) وإن كان عاجزا ، ثم ذكر أن الشارع قد جعل للعاجز عن القراءة بالعربية بدلا وهو الذكر .

وقال الشيخ ابن تيمية وهو من فقهاء الحنابلة — فى الرسالة الملقبة بالسبعينية : « وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلا ، ولهذا كان أئمة الدين : على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية لا مع القدرة عليها ولا مع العجز عنها ، لأن ذلك يخرجه عن أن يكون هو القرآن المنزل » .

وخلاصة البحث أن الخلاف فى القراءة فى الصلاة بغير العربية يرجع الى مذهبين (أولهما) أن ذلك محظور والصلاة بهذه القراءة غير صحيحة ؛ وهو مذهب الجمهور من أئمة الدين ، و (ثانيهما) جواز القراءة بالأعجمية عند العجز عن النطق بالعربية ، وهو مذهب الامامين : أبى يوسف ومحمد بن الحسن ، ولا يعد بجانب هذين المذهبين مايعزى للإمام أبى حنيفة من صحة القراءة بالفارسية ولو للقادر على العربية ، لما عرفت من صحة رجوع الامام عنه ، والقول الذى يرجع عنه الامام لا يعد قولا فى المذهب ، وإذا نظرنا الى أن من الفقهاء الحنفية من حمل ما روى عن الامام أبى حنيفة على حال العجز عن العربية لم يبق فى المذهب الحنفى سوى قول واحد وهو تقييد الجواز بحال العجز عن النطق بالعربية :

المقام الثانى فى نقد للاطلاع على حكمه :

فى النقل وجوه من الفساد تقتضى المنع منه ، وفى النقل مصلحة تستدعى الإذن فيه ؛ وها نحن أولاء نذكر لك وجوه الفساد ، ونكشف عن وجه المصلحة ، ونعرض

عليك آراء أهل العلم . ونرجو أن يكون نقل ما يمكن نقله من المعانى الأصلية على وجه التفسير غير محظور .

وجوه الفساد فى ترجمته :

الترجمة نوعان : (أحدهما) أن يعمد المترجم الى كل كلمة عربية ويضع بدلها ما يرادفها من اللسان غير العربى ، ثم يسوق الجملة مراعيا ترتيبها على قدر ما تسمح به قواعد ذلك اللسان ، وهذا ما يسمى ترجمة حرفية . (ثانيهما) أن يلم بمعنى الجملة العربية ، ثم يصوغه فى جملة من اللغة الأخرى سواء أساوت ألفاظ الترجمة ألفاظ الأصل أو اختلفتا إيجازا وإطنابا ، وهذا مايسمى ترجمة معنوية .

والخلل الذى يشترك فيه الترجمتان : الحرفية والمعنوية أن يكون اللفظ ذا معنيين أو معان تحتملهما الآية ، فيضطر المترجم الى أن يضع بدله من اللغة الاجنبية اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين أو المعانى ، حيث لا يجد لفظا يشاكل اللفظ العربى فى احتمال تلك المعانى المتعددة ؛ ومثال هذا ما صنع ماكس هينيج Max Henning مترجم القرآن للسان الألمانى ، فانه ترجم الإبل فى قوله تعالى (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) . باللفظ الموضوع فى الألمانى للسحاب ، وهو أحد المعانى التى حملت عليها الآية ؛ والجمهور يفسرون الإبل بالحيوان المعروف ، وهو المتبادر ، ولا داعى الى صرف اللفظ عنه الى ذلك المعنى المجازى وهو السحاب .

ومن الخلل الذى يدخل الترجمة الحرفية أن يستعمل القرآن اللفظ فى معنى مجازى فيأتى المترجم بلفظ يرادف اللفظ العربى فى معناه الحقيقى ، وهذا ماصنع مارما ديوك بكتهول Marmaduke Pickthall مترجم القرآن الى اللسان الانكليزى فى كثير من الآيات ، وقد وقع من هذه الناحية فى أخطاء لا تحصى ، تجدونه مثلا — يترجم قوله تعالى (فيدمغه) من آية (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) . بمعناها

الأصلى ، وهو (فيشج رأسه) ويترجم قوله تعالى : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) . بمدلولها الأصلى وهو جمع اليد الى العنق و إطلاقها ، والقارئ الانكليزى لم يعتد أن يفهم من مثل شج الرأس معنى الغلب ، ولا من جمع اليد الى العنق و إطلاقها معنى البخل والإسراف .

ومن هذا القبيل أن يطلق القرآن لفظا عاما ويريد به خاصا كما أطلق الواقعة على يوم القيامة فى قوله تعالى : (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) . فيأتى المترجم بما يرادف الواقعة دون ما يرادف يوم القيامة ، وكذلك فعل المترجم الألمانى إلا أنه كتب فى أسفل الصحيفة منبها على أن المراد يوم القيامة .

ومن هذا الباب أن يستعمل القرآن الكلمة ومعناها لا يظهر إلا بملاحظة متعلق محذوف ويكون هذا المتعلق قريب المأخذ فى النظم العربى دون لغة الترجمة كقوله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) . فان ترجمتها من غير ذكر متعلق السابقين الواردة أولا وهو (فى الدنيا) ومتعلق السابقين الواردة ثانيا وهو (فى الآخرة) لا تأتى للقارئ الألمانى بفائدة .

وفى القرآن بعد هذا كلمات كثيرة اختلف فيها أهل العلم ، فمنهم من يقف دون تفسيرها فيؤمن بأن لها معانى صحيحة ، ويدع تعيين هذه المعانى الى علم الله وحده ، ومنهم من يأخذها بالتأويل ويذكر لها معانى معقولة ، ويذهب هذا الفريق فى التأويل مذاهب يحتاج ترجيح أحدها على غيره الى ذوق فى لغة العرب سليم ، ونظر فى فهم أصول الدين مستقيم ، وهذا ما يسمونه آيات الصفات فى قوله تعالى : (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) .

وقد تعرض الامام الغزالى فى كتاب إلجام العوام للاخبار الموهمة للتشبيه ، وقرر الامساك عن التصرف فى ألفاظها بتفسيرها بلغة غير عربية ، وقال : « لا يجوز النطق

إلا باللفظ الوارد لأن من الألفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها، ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها، لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها، ومنها ما يكون مشتركا فى العربية ولا يكون مشتركا فى الفارسية » .

ولما يعرض فى ترجمة القرآن من الصعوبة أجاز بعضهم ترجمة الآيات المحكمة والقريبة المعنى بمقدار الضرورة اليهما من التوحيد وأركان العبادات ، وقال : لا يتعرض لما سوى ذلك ، ويؤمر من أراد الزيادة على ذلك بتعلم اللسان العربى[١] .

الداعى الى نقل معانى القرآن الى اللغات الأجنبية :

كان المسلمون فيما سلف يقتحمون للسيادة كل وعر ، ويركبون لإظهار دين الله كل خطر ، ويلبسون من برود البطولة والعدل وكرم الأخلاق ما يملأ عيون مخالفيهم مهابة وإكبارا ، وكانت اللغة العربية تجر رداءها أينما رفعوا رايتهم ، وتنتشر فى كل واد وطئته أقدامهم ، فلم يشعروا فى دعوتهم الى الاسلام بالحاجة الى نقل معانى القرآن الى اللغات الأجنبية ، وربما كان عدم نقلها الى غير العربية وهم فى تلك العزة والسلطان من أسباب إقبال غير العرب على معرفة لسان العرب ، حتى صارت أوطان أعجمية الى النطق بالعربية .

ذلك الأمر الذى جعل اللغة العربية تتقلب فى البلاد ، والقرآن يدرس باللسان الذى نزل به فى كل واد ، قد سكنت منذ حين ريحه وتقطعت أسبابه ، غشيت المسلمين فتن ، وناموا عن واجب الدعوة الى سبيل ربهم ، فخسروا مظاهر عزهم ، وفقدوا الوسائل التى كانت تسعد اللغة العربية فتنطلق بها ألسنة المخالفين ، ويدخلون منها الى الاطلاع على ما فى القرآن من بلاغة وحكمة .

(١) نسبه الزركشى فى البحر المحيط الى بعض الأئمة المتأخرين من المغاربة .

أصبحنا أمام أمر واقع هو عدم استطاعتنا لنشر اللغة العربية فى غير بلاد إسلامية يرأسها مسلم طاهر السريرة ؛ و إبلاغ دعوة الاسلام الى الشعوب غير الاسلامية فريضة لا تسقط إلا حين يسقط غيرها من الفرائض ، فلا بد لنا من ابتغاء الوسيلة الى القيام بهذه الفريضة ، وليس فى يدنا اليوم وسيلة إلا نقل معانى القرآن الى ألسنة من نريد دعوتهم الى شريعته الغراء .

ومما يدعو اليوم الى نقل معانيه الى بعض اللغات الأجنبية على وجه التفسير أن كثيرا من الأوربيين ـ ومنهم قسس ـ قد ترجموا القرآن الى لغاتهم تراجم مملوءة بالخطأ ، وإنما يُكفَى شر هذا الفساد بإراءة أصحاب تلك اللغات معانى القرآن على وجهها الصحيح .

هذا ما يأخذ النظر الى مذهب الإذن فى نقل معانى القرآن الى اللغات الأجنبية ، وقد صرح بجواز هذا النقل طائفة من كبار أهل العلم ، قال ابن بطال : « إن الوحى كله متلوا وغير متلو إنما نزل بلسان العرب ، ولا يرد على هذا كونه صلى الله عليه وسلم بعث الى الناس كافة عربا وعجما وغيرهم ، لأن اللسان الذى نزل عليه به الوحى عربى ، وهو يبلغه الى طوائف العرب وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم » .

وقال الحافظ ابن حجر: « فمن دخل الاسلام أو أراد الدخول فيه فقرئ عليه القرآن فلم يفهمه فلا بأس أن يعرب له لتعريف أحكامه أو لتقوم عليه الحجة فيدخل فيه[1] » .

وقال ابن تيمية فى الرسالة السبعينية : « ولكن يجوز ترجمته كما يجوز تفسيره وإن لم تجز قراءته بألفاظ التفسير وهى اليه أقرب من ألفاظ الترجمة بلغات أخرى » .

وبعض من منعوا ترجمة القرآن الى اللغات الأجنبية صرحوا بما يقتضى جواز تفسيره بها ، قال القفال من كبار علماء الشافعية : عندى أنه لا يقدر أحد على أن يأتى

(١) الفتح — باب ما يجوز من تفسير التوراة وكتب الله بالعربية .

بالقرآن بالفارسية قيل له : فاذاً لا يقدر أحد أن يفسر القرآن ؛ قال : ليس كذلك لأن هناك يجوز أن يأتي ببعض مراد الله ويعجز عن بعضه ، أما اذا أراد أن يقرأها بالفارسية ، فلا يمكن أن يأتي بجميع مراد الله .

نتيجة البحث :

إذا كانت ترجمة القرآن إبدال اللفظ العربي بلفظ من لغة أجنبية يقوم مقامه في الدلالة على ما يفهم منه عربية ، فانا نرى كثيراً من الآيات لا يمكن ترجمتها على هذا الوجه ترجمة صحيحة ، فترجمة القرآن من فاتحته الى منتهاه غير متيسرة ولو بالنظر الى المعاني الأصلية ، فان الآيات المحتملة لوجوه متعددة لا يمكن نقلها الى لغة أخرى إلا على وجه واحد ، وهذا ليس بترجمة ، وإنما يصح أن يسمى تفسيرا ، اذاً يجوز نقل معاني القرآن الى اللغات الأجنبية على أنها تفسير لا على أنها ترجمة مطابقة للأصل .

ولا بد في نقل معاني القرآن الى اللغات الأجنبية من إشعار القارئين بأن هذا النقل تفسير لا ترجمة ، ومن طرق التنبيه جمل تكتب في حواشي الصحائف يبين بها أن هذا أحد وجوه أو أرجح وجوه تحتملها الآية ، ومما يدفع بمثل هذا البيان توهّمُ من يقرأ تراجم الأوربيين أن في القرآن اختلافا ، فان المترجم الألماني مثلا — قد ترجم « الإبل » في قوله تعالى (أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت) بالسحاب ، والمترجم الانكليزي ترجمها بمعنى الحيوان المعروف ، فالأوربي الذي يقرأ الترجمتين يتوهم أن هذا الاختلاف في أصل نُسخ القرآن ، ولا يخطر له أن هذا الاختلاف نشأ من جهة أن كلا من المترجمين نقل معنى من معنيين يحتملهما لفظ الآية .

واذا كانت الترجمة بمعناها الحقيقي ولو للمعاني الأصلية لا تتيسر في جميع آيات القرآن ، وإنما المتيسر الترجمة على معنى التفسير ، كانت الترجمة المعنوية أقرب الى الصحة من الترجمة الحرفية متى أفاد بها المترجم معنى الآية في أسلوب من أساليب اللغة الأجنبية لا زيادة فيه ولا نقصان .

فلو قامت جمعية ذات نيات صالحة، وعقول راجحة، وتولت نقل معانى القرآن الى بعض اللغات الأجنبية وهى على بينة من مقاصده، وعلى رسوخ فى معرفة تلك اللغات، وتحامت الوجوه التى دخل منها الخلل فى التراجم السائرة اليوم فى أوربا، لفتحت لدعوة الحق سبيلا كانت مقفلة، ونشرت الحنيفية السمحة فى بلاد طافحة بالغواية قاتمة ؟

محمد الخضر حسين

الطُرف والمُلح

قال بعض عمال الدولة لأعرابىّ : ما أَحْسَبُكَ تدرِى كَمْ تصلّىّ فى كل يوم وليلة . فقال : أرأيتَ [1] إِنْ أنبأْتُك بذلك تجعل [2] لى عليك مسألةً ؟ قال نعم، قال الأعرابى :

إن الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهن أربع

ثم صلاة الفجر لا تُضيَّع

قال : صدقت، فَسَلْ. قال : كم فَقَار [3] ظهرك ؟ قال : لا أدرى، قال : أَفَتَحْكُمُ بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك ؟!.

---

(١) اخبرنى . (٢) تلتزم لى أن أسالك سؤالا فى مقابلة سؤالك لى . (٣) اسم جمع لفقارة . والفقار سلسلة عظام الظهر أى العمود الفقرى .

الفتاوى والأحكام

ورد السؤال الآتى من حضرة صاحب التوقيع :

س : ذكرتم فى كلمة القضاء والقدر أن العبد غير مجبور مع أن العلم الإلهى سبق بكل ما كان وما يكون ؛ وما سبق فى العلم الإلهى لا يتخلف ؛ فكيف يكون العبد مع ذلك مختارا ؟ عبد الرحمن محمد — بشبين

الجواب : قلنا فى كلمتنا فى القضاء والقدر : إن العلم غير مجبر للعبد ولا مسقط اختياره بل يحقق الاختيار فإن الله اذا علم أنك ستفعل كذا باختيارك كان ذلك محققا لاختيارك لا منافيا له وإن كان ذلك الفعل لا بد من وقوعه ، ولكن ليس معنى ذلك أنك تدفع اليه دفعا أو تفعله قسرا ، فان الله وهب للانسان إرادة واختيارا فضله بهما على غيره ، ولولا ذلك ما صح أن يكلفه ولا أن يحاسبه ، فهو بمنزلة السيد الذى أعطى عبده الحرية فيما يفعل ثم يحاسبه بعد ذلك على ما كان منه ؛ فلو فرضنا أن السيد فعل ذلك امتحانا لعبده وكان عالما بما سيفعله عبده باختياره ، لم يكن علم السيد مجبرا للعبد على ما فعله ، لأن العلم ليس من صفات التأثير وإن كان معلومه لا يتخلف ، فان هناك فرقا بين صحة العلم وعدم تخلفه ، وبين كونه قاهرا أو مؤثرا .

ثم قلنا فى تلك الكلمة : إننا نعلم بالضرورة فرقا واضحا بين حركة المرتعش والمحموم ، وبين حركة المختار الذى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، ونعلم مع هذا أن الله لو أراد لسلبه ما وهبه من القوة على الفعل وما أعطاه من الإرادة والاختيار ، ولا يكون فى ملكه إلا ما أراد ، ولكنه منحك الإرادة ولم يرد سلبها منك ولا قهرك

على غيرما تريد . ثم قلنا فى الخلاصة إننا نعلم حق العلم أن لنا دخلا فى أفعالنا الاختيارية ونعرف أيضا أننا غير مستقلين فيما نأتى ونذر ، فكأن دائرة الحرية لدينا دائرة محدودة وعلى قدر تلك الحرية التى منحناها تكون المسؤولية ويتوجه الحساب . أما تحديد ما لنا فى أفعالنا وما لله تعالى فى تصريفه المطلق غير المحدود فيجب علينا ألّا نبحث عنه أو نتطلع اليه فإن ذلك خارج عن الطاقة البشرية ؛ وقلنا إن علمنا بأى شىء من الأشياء (حتى المحسوسات) ناقص جدا ولا يمكن أن نصل الى الحقيقة فى أى شىء مما علمناه ، بل علمنا قاصر على الظواهر واقف عند حد محدود منها ؛ ولا بد أن يبقى وراء ما علمنا شىء كثير يستأثر به العلم الإلهى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) .

ولا بد أن تعرف أنه قليل كمًّا وكيفا ، فعلوماتنا فى عددها قليلة ، وفى الإحاطة بها واحدا واحدا فيما علمناه منها قليلة ، وقد نظم الله الملك على حسب ما يقتضيه علمه لا علمك ، ولا سبيل الى أن تعرف ما فى علمه الذى انبنى عليه ذلك النظام المراعى فيه حلقات سلسلة المخلوقات كلها لا كل حلقة على حدتها ؛ ولعل فى هذا مقنعا وكفاية ؟

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء

حكمة صلاة الجمعة

وسر استقبال القبلة

جاء الدين الاسلامى الحنيف لهداية البشر وإيصالهم باختيارهم المحمود الى ما هو خير لهم بالذات ، فعم العالم الاسلامى نفعه وشملهم إسعاده . أبدل جهلهم علما ، وتظالمهم عدلا ، وتحاربهم سلما ، وتفرقهم وحدة ، وانحطاطهم نهوضا . حولهم عن خرافات واهية وأباطيل فاسدة الى حقائق ناصعة وأحكام رائعة وحكم بالغة ملؤها العلوم الجمة والمعارف المهمة . اختط لهم فيها سبل الحياة الهانئة ، وطرق السعادة الخالدة ، فكان ذلك هو الهدف الفرد للدين ، والغرض الوحيد الذى جاء من أجله ، ولم يكن حكم من أحكامه خاليا عن عظة ترشدنا أو عبرة توقظنا وتهدينا .

أجل : ما تركنا الله سبحانه هملا نتخبط فى دياجير الجهالة ونتعثر فى ميادين الحياة حيارى هائمين ، بل وضع لنا قانونا محكما وسن لنا نظاما قيما أودعه لطائف الحكم ودقائق الأسرار التى لا يعقلها إلا أولو الألباب وأرباب البصائر ، فكان ذلك دستور معالم الحضارة العالية ونبراس العيش الراقى النضير ، بل الذريعة المثلى لكل خير فى الدنيا والعقبى .

اعمل فكرك قليلا وتمعن فى صلاة الجمعة فانك بلا شبهة تدرك كثرة منافعها ووفرة فوائدها ، وجليل محاسنها وآدابها ، فتعلم إذ ذاك أن الله ما أوجبها على كل مكلف إلا ليسعى بتأديتها بالاشتراك مع إخوانه المسلمين ليكتسبوا جميعا من مآثرها الجليلة ما يضم شتاتهم ويصلح فاسدهم ، فترى المصلين مندفعين بكامل الرغبة الى المساجد ووجوههم باشة نضرة ، ونفوسهم مازجها الابتهاج والسرور لإقامة تلك العبادة العظيمة

التى هى من أجلى مظاهر الدين وأوضح معالمه وشعائره ، فيجتمعون من كل صوب وأوب — والاجتماع روح التآلف والتضامن ورأس التعاضد والتكاتف — وكلهم متلبسون بسننها الأدبية ومستحباتها الكمالية من الاغتسال والتنظيف قبل الحضور ، والتجمل بجديد الثياب ، والتطيب بالروائح الزكية ، ليكون الانسان على أكمل حال فى هذا الاجتماع العظيم الذى يضم الكثير من مختلف طبقات الأمة على تفاوت مراتبهم وتباين مراكزهم ، وليكون ذلك نموذجا حسنا لاجتماعات الأمة المحمدية التى مآلها كل خير وصلاح ، ومرماها كل نفع عام ، وهو إشارة مثلى ناطقة بلسان العمل الجوهرى بأن قوام الإصلاح لشؤوننا الحيوية وملاك النجاح والسعادة لنا فى معترك هذه الحياة — اجتماعات صحيحة رائدها الإخلاص ، فتقيم أودنا وتقاوم اختلافنا وتفرقنا ، وتدلنا على مواطن الضعف ومواضع الخلل ، وترشدنا الى خير علاج وأنفع دواء ، وحسبك هذا وسيلة عالية ترقى بالأمة فى مدارج المجد الى ذرا عليائه .

فلم تكن صلاة الجمعة سوى مجلس إسلامى عظيم لم يكن فى أنحاء المسكونة مثله ، يعقد فى أقطار العالم الاسلامى فى منتصف يوم الجمعة المبارك الذى هو يوم فرح ومسرة فتغدو المساجد إذ ذاك غاصة بأهل الإيمان ، حافلة بجماعات الإسلام ، وقد لاح على وجوههم الاستبشار ، وساد بينهم الأنس الأخوى فيجددون تعارفهم ويمكنون أواصر ألفتهم ووداده ، ويتزودون فيها ما يهمهم من أمر دينهم ودنياهم مما به تهذيب أخلاقهم ، وتثقيف نفوسهم على مبادئ الدين الحنيف والشريعة السمحة ، وإصلاح مجتمعهم الدنيوى ، وأمر معادهم الأخروى . أما الدين فلأنه يجتمع العالم بالجاهل فى هذه الفريضة فيعلمه ما يحتاج اليه من الأحكام ليؤدى العبادة صحيحة مستوفاة الشروط فضلا عما تشتمل عليه الخطبة من الوعظ والارشاد الى أمور شرعية يفقهها ، ومسائل دينية يفهمها ، فيكون على رغب فى الثواب يحمله على الخير ، ورهب من العقاب يكفه عن ارتكاب الشر . ولا ريب أن هذه أمور خطيرة لا يستقيم شأن الخليقة إلا عليها ، ولا يبلغون الغاية منها

بغير الدين المشروع والحكم المسموع ، فاجبلت الطباع البشرية على الاتفاق على المصلحة والتناصح فى الحقوق من غير داع ولا مرشد ، بل خلقت أسيرة الأطماع نزاعة الى مختلف المنافع ، حريصة على المنافع الشخصية والمرافق الحيوية ؛ فالشريعة البيضاء التى ليلها كنهارها تعرّف كل إنسان حده ، وتوقفه عنده ، فيعم الخير ويسود السلام .

وأما الدنيا فلأنه يحصل بينهم التعارف والتحابب والمصافاة الحقيقية بملاقاة بعضهم بعضا ، وانتظام الكل فى سلك العبادة التى تطهر نفوسهم من أدران الحقد والحسد ، ومن شوائب التفرقة والمعاداة ، وتزكيها بالصدق والاخلاص والوئام والإخاء المتين ، فيلتف بعضهم حول بعض ، ويتطلعون الى شؤونهم وأحوالهم ، فلا يجدون بينهم محتاجا إلا عطفوا عليه ومدوا يد المعونة اليه ، ولا مضطرا لأمر إلا أسرعوا بالقيام به ؛ وإن علموا أن بعضهم غاب لمرض عادوه وقدموا له وسائل الراحة ، أو للإشراف على خطر سارعوا لإنقاذه وبادروا بتخليصه مما ألم به ، أو كان متراخيا عن العمل الواجب والسعى المطلوب إهمالا منه وكسلا لاموه ونهضوا به الى ذلك كما كان شأن النبى الكريم ذى الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم القائل : « المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه » و « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » وهذا دعامة الخير وسنام السعادة . ولا شك أن طلب تكاتفهم فى أداء هذه العبادة يرشدهم الى أن تعاضدهم وتعاونهم على الخير وشد بعضهم أزر بعض فى كل أمر هام دينى أو دنيوى مطلوب منهم فى كل آن مدعوون اليه فى أى مكان ، وأن تضاعف قوتهم وإعلاء شوكتهم يتحققان بتواصلهم وتناصرهم وأخذ بعضهم بأيدى بعض ؛ وحسبك حاثا على ذلك الخطبة التى أوجبها الشارع لهذه الصلاة فإنها تجلى ما على القلوب من صدأ ، وتروى ما بها من ظمأ بآيات التذكير وعبارات الارشاد وهم جاثون على ركبهم ، مطرقون برءوسهم ، منصتون هادئون ، كأن على رءوسهم الطير لعلمهم أن ما يلقيه عليهم خطيبهم وما يحضهم به على

الاستمساك بأحكام الله والجرى على سننها والقيام بالأعمال الشريفة النافعة ـ هو موافق لشريعة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فاذا أقيمت الصلاة وقفت الجموع صفوفا مستقيمة على الفور بكل سكينة وخشوع ووقار : الأمير بجانب المأمور ، والخادم بإزاء المخدوم ، والفقير بحذاء الغنى ، والضعيف بجانب القوى ، دون ميزة لبعضهم ولا أفضلية فيها بينهم ، وفى ذلك تعويدهم على المساواة والحرية والائتلاف ، لأن المرء اذا وقف فى صف يكون فيه السيد والمسود والخادم والمخدوم والرفيع والوضيع وكلهم منكسر لله ذليل بين يدى رب عظيم قاهر قال فى محكم كتابه : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ) لم يجد له فى هذا الموقف الرهيب فضلا على غيره ، فيمزق رداء الأنفة والعظمة وينبذ المغالاة والكبرياء بجعله فى مستوى إخوانه فى الاسلام ، بل بوضع أشرف الأعضاء على موطئ الأقدام ، فيلين جانبه ، ويوطأ كنفه ، وتصفو نفسه من كدر الشوائب النفسية ، وتتحلى بجلائل الصفات وأمهات الفضائل . وأجمل بهم وهم يتابعون إمامهم فى جميع أعمال الصلاة : حركاتها وسكناتها التى هى من أهم الحركات الرياضية الشاملة لكل أعضاء الجسم كبيرها وصغيرها بكيفية تدعو الى الإعجاب بما لها من الأثر البين فى تنشيط الجسم وتنمية أعضائه . وفى هذه المتابعة تمرينهم على الطاعة والانقياد الى الرؤساء وأولى الأمر منهم كما أمر به الكتاب العزيز والسنة النبوية ، وذلك ماتستوثق به روابط الوحدة والقوة ، وقد وقف ضابط فرنسى عقب الاحتلال الأجنبي تجاه باب الجامع العمرى فى بيروت وهو يشاهد المصلين فى صفوفهم المستقيمة ، ومتابعاتهم المتعادلة ، وانتقالاتهم المنتظمة ، وتسوية صفوفهم واختلاف حركاتهم ، ويفكر فيما يعود به ذلك من عظيم الفائدة على أجسامهم وتوحيد كلمتهم وتضامنهم ، فقال إذ ذاك لبعض المسلمين : « إن نبيكم هو أعظم فيلسوف فى العالم » وقد ذكرت الصحف قبلا أن كاتبا

غريبا كبيرا قال ذات مرة : إنه ما دخل مسجدا إلا أسف على أنه لم يولد مسلما ، وكيف لا يأسف وقد قال الله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) .

أجل : إنك أيها اللبيب لو أعملت فكرك مليا فى استنباط سر توجه المصلين الى الكعبة المشرفة على اختلاف أقطارهم وأصقاعهم ، وتعدد جهاتهم وبلدانهم والكعبة بذاتها بناء قديم لا يضر ولا ينفع ، لحدا بك الفكر الى أن اتجاههم الى نقطة واحدة وبقعة قد أشرقت منها شمس الهداية المحمدية ، وانبثقت أنوارها فأفاضت على العالمين رشادا وإسعادا وعزا وسؤددا إنما هو لضبط قلوبهم بتوجيهها الى مركز واحد وارتباطها بجهة معينة فى أى مكان من أمكنة المعمورة كان المصلى ؛ وفى ذلك سر عظيم وحكمة بالغة ألا وهى الإشعار بأن المسلمين مهما اختلفت أجناسهم وتباينت لغاتهم وتباعدت أقطارهم فالدين يجمعهم والدين يربطهم والدين آخى وسوى بينهم : فلا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى . وناهيك ما فى هذا من الدعوة العملية الى الوفاق والتماسك بين المسلمين مما به فلاحهم ونجاحهم فان الاتجاه الى تلك النقطة المركزية الاسلامية من أقوى دعائم الارتباط ، وأجلى دواعى الاتحاد .

فما أعظم سر استقبال الكعبة المكرمة ، وما أوضح برهانها ! فقد أضحت المحور الوحيد الذى عليه مدار الجامعة الاسلامية ، بل القطب الفرد الذى تلتف شعوب الأمة وأجناسها عليه . وفى طوافهم حولها بفريضة الحج إظهار لهذا الأمر الخطير المعقول بمظهر المشاهد المحسوس ، توفيقا وإخراجا للحكمة المنوية من حيز القوة الى الى حيز الفعل . ولو أن المسلمين فى عصورهم الأخيرة جروا على نهج الشرع الطاهر ومقتضاه الحكيم لكان لهم شأن خطير ومظهر عزيز ؛ ولكن إهمالهم للعمل بقوانينه وعدم محافظتهم على آدابه ألقى بهم فى هذه الحالة الشائنة . فعسى أن يفيقوا من سباتهم بإيقاظ العلماء العاملين وسعيهم المتواصل ، حقق الله الآمال ؟

بيروت أحمد محيي الدين العجوز

الذهب فى العالم (١)

يوجد الذهب إما خالصا على حالته الطبيعية أو ممزوجا بمعادن أخرى ، إلا أنه قلما يوجد نقيا خاليا من مواد أخرى ، بل يوجد فى جل الأحوال إن لم يكن كلها ممزوجا مع غيره من المعادن المختلفة : كالفضة والزيبق والبلاديوم (وهو معدن أبيض صعب الذوبان وسهل التطريق) .

وتمتزج تلك المعادن بالذهب امتزاجا بنسبة معينة فى أغلب الأحيان وتسمى بأسماء خاصة مثل « الالكتروم » (Electrum) (وهو مزيج من الذهب مع ٢٠ فى المائة من الفضة) « والپرويبزيت » (مزيج من الذهب مع ١٠ فى المائة من البلاديوم) . « والروديت » (Rhodite) (مزيج من الذهب مع ٤٣ فى المائة من الراديوم) (وهو معدن قليل الذوبان يوجد فى البلاتين) وفى تلك الأحوال التى يوجد فيها الذهب ممزوجا مع غيره من المعادن يكون المزيج فيها على شكل أخلاط ممتزجة ببعضها امتزاجا كثيرا أو قليلا مثل «الناحياجيت» (Nagyagite) «والألاسموس» (Elasmose) (وهو مزيج من الرصاص والفضة والذهب ويحتوى على ٦ فى المائة الى ١٢ فى المائة من الذهب) .

وهذه الأخلاط لم يكن يعرف علم المعادن عنها إلا شيئا يسيرا فيما مضى حتى أخذ الاهتمام ببحثها أولا فى منجمين عظيمين من مناجم الذهب وهما منجم الكولورادو وكارجوجليا فى استراليا الشرقية .

(١) مترجمة عن الفرنسية نقلا عن مجلة العلم والحياة الباريسية .

توزيع الذهب

فى أنحاء العالم

إذا كنا نجد أحيانا فى بعض المناجم أو فى عروق المناجم قطعا نادرة من الذهب فان مناجم الذهب الموزعة فى أنحاء العالم والتى كانت تخرج أعظم محصول منه يوجد بها الذهب على شكل خامات (هي عبارة عن الذهب الممزوج بالتراب) فقيرة من الذهب نسبيا لا يرى بها الذهب ظاهريا، ويستخرج الذهب من تلك الخامات بطريقة الرواسب إلا أن طريقة الرواسب هـذه أخذ يقل شيوعها يوما عن يوم، واستعيض عنها باستخراج الذهب مباشرة من مناجمه الأصلية التى بقيت على حالتها الطبيعية وهى التى تورد لنا فى الوقت الحاضر أكثر من ٨٥ فى المائة من مجموع محصول الذهب فى العالم. وسنعنى بها فيما يلى:

استخراج الذهب الى سطح الأرض

بواسطة صخور طفحية

(١) عجائن حجر الجرانيت (**الصوان**):

يقول المسيو ل. ده لونيه (L. de Launay)

يستخرج الذهب لسطح الأرض بواسطة الصخور الطفحية لأن مناجم الذهب التى على حالتها الأولى الطبيعية متصلة بصخور مصهورة على عمق بعيد أو قريب وأحيانا تكون متصلة بصخور بركانية.

أما العجائن الصخرية التى يستخرج منها الذهب فى مواطنه العميقة فهى دائما أو تكاد تكون دائما عجائن من حجر الصوان، لكن الصلة التى بينها وبين مناجم الذهب قد تكون ظاهرة كثيرا أو قليلا.

فأولا يمكن وجود الذهب إما مندمجا فى أحجار الصوان وإما فى صخور خضراء مثل « الديوريت » (وهى عبارة عن مزيج من صخور طفحية والجرانيت) ممتزجة به ، وقد يوجد منعزلا فى تلك الصخور الجرانيتية بشكل عروق متبلورة أو عروق صوانية وهذه الأخيرة تنشأ عن تفاعل انفصال جميع عناصره الأصلية عدا الرمال (غاز السيلسيوم) ومن الطبيعى أننا نجد الذهب فى تلك المناجم مخلوطا بالقصدير أو بغيره من عنصر هذه الفصيلة المعدنية نحو « التونجستين » (Tungstene)[1] والبزموت (Bismuth) كما فى مناجم الذهب التى فى هضبة جبال فرنسا الوسطى والتى أهمها منجم « شاتليه » (Chatelet) ومناجم « لوسيت » (La Lucette) و« بلبير » (La Belliére) وكلها من نوع الفصيلة المذكور .

وأما المنطقة الشرقية من جبال « الأورال » (P. Oural) بالقرب من « ييكاتريتنبورج » (Iekaterinenbourg) فان الذهب فى منجم « بيريزفسك » (Beresovsk) يمتاز بكونه يوجد فى شقوق رفيعة متبلورة وموجودة فى عروق صخرية طفحية تشبه « الجريزين » (Greisen) وهى صخرة مركبة من الصوان والميكا (Mica) البيضاء وفى أقليم كوتشكار من الجنوب الغربى من المياس (Miass) بجبال القوقاز يوجد نحو من ٧٠٠ الى ٨٠٠ عرق رفيعة من البلورات الممتزجة بمعدن « البيريت » (Pyrite) و « المسبيكل » (Mispickel) (وهو مكون من كبريت الزرنيخ الطبيعى للحديد) وتخترق سلسلة جبال من الصوان .

ثم توجد هنالك كذلك مناجم « جاليس » (Galice) « والكورنوال » (Cornwall) وبعض مناجم « بوليفيا » (Bolivie) « وأنام » (Annam) التى لها صلة مباشرة بعجائن الصوان .

---

(١) كلمة سويدية تطلق على اسم معدن تبلغ كثافته ١٩٫١ ذى لون رمادى قاتم .

لكن ليس من السهل تفسير الصلة التى بين وجود الذهب مع عجائن الجرانيت فى مجموعة بأكملها من الطبقات المهمة جدا من الوجهة الصناعية ، وهذه الطبقات مكوّنة إمّا من كتل موشاة أو من عدسات ممتزجة بمعدن البيريت أو المسبيكل أو البيريت المكاس ومخلوطة بالذهب فى وسط طبقات من الأرض استحالت طبيعتها الى مادة أخرى غير مادتها الأصلية مثل « الجنيس » (الميكا) وصفحات الميكا . إلا أن تلك الطبقات الأرضية قد نشأت وتكونت أثناء تفاعلات عميقة لعبت فيها عجائن الصوان دورا مهما على الراجح . ويوجد كثير من المناجم من نوع هذه المجموعة ، وأكثرها مشابهة لها هى المناجم التالية .

سيبريا — إن الذهب هو المعدن الوحيد الذى يوجد فى مناجم سيبريا التى تعتبر ذات قيمة كبيرة من حيث استغلالها بالنسبة للظروف السيئة التى عليها تلك البلاد . وهو يوجد فى الجنيس على شكل البيريت الموشى بالذهب ولكن طبقات الذهب هناك لم تسمح إلا ببعض التجارب لاستغلالها فى موضعها إلا أن طريقة الرواسب هى الطريقة المتبعة والتى تؤسس عليها ثروة البلاد .

الهند — يحتوى جنوب الهند على مساحات شاسعة للذهب ، لكن حقلا واحدا من تلك المساحات هو الذى أنتج محصولا عظيما ، والذهب هناك يوجد فى عروق من الصوان المرصوصة بين صفائح الميكا ولا يرى خلالها عادة .

استرالية الشرقية — إن اكتشاف الذهب فى هذا القسم من استراليا كان فى سنة ١٨٥١ من الميلاد ، وأهم مركزين هما منجمُ «بلّارات» (Ballarat) ومنجم « بنديجو » (Bendigo) فى مديرية فيكتوريا ، وإن عدد ذات العروق الذهبية فى هذه المديرية عظيم جدا إذ قد اهتدى الى أكثر من ٣٠٠٠ عرق .

والعروق فى مناجم البلارات منتظمة انتظاما كافيا . ونسبة الذهب فى عرق « ايجلهاوك » (Eaglehawk) هى ٤ كيلوجرامات من الذهب فى الطن (أربعة فى الألف) لأن سمكه أو كما يقولون قوته تختلف من مترين الى عشرة أمتار ، وأما فى مناجم بنديجو فقد صودفت كذلك بعض العروق المنتظمة فى وسط صفائح الميكا ولكن أهمها هى التى توجد مرصوصة طبقات بعضها فوق بعض وشكلها يأخذ شكل السروج المعتدلة أو المقلوبة وذلك وقت حدوث انفصال الطبقات عند القمة الى ثنايا حادة بشكل زوايا السروج أو مقوسة ومستديرة ، وقد قطع فى منجم « نيوشوم » (New Chum) وفيكتوريا أكثر من ثلاثين سرجا الى عمق ٧٥٠ مترا ، وإن المعدن الموجود بها مركب من الصوان الأبيض والذهب الطبيعى وهذا كثيرا ما يكون سميكا .

وقد وجد كذلك فى نيوشوم قطع تزن الواحدة منها من ٣٠ الى ١٠٠ جرام .

استراليا الغربية — نجد فى هذا القسم من استراليا أن الأراضى المتغيرة المشربة بالذهب تمتاز عن غيرها بوجود بعض المعادن بها ممزوجة بالكبريت ، وأهم المناطق كانت « كولجاردى » (Coolgardie) « وكالجورى » (Kolgoorie) وقد اكتشفا فى سنتى ١٨٩٢ و ١٨٩٣ إذ مضى عليهما زمن كان محصولهما كثير الانتاج والرواج إلا أنه قل بعدئذ شيئا فشيئا . يتبع

We have already pointed out that Islam is completely consistent with natural sciences. In fact Moslems themselves were ignorant of the significance of many of the Koranic texts until the progress of natural sciences disclosed the meaning thereof; as for instance, the fertilisation of trees by winds which was only recently discovered. The Koran referred to this phenomenon over thirteen centuries ago in the verse :

« وأرسلنا الرياح لواقح » *meaning:* " And We sent forth the fertilising winds."

This verse was interpreted according to contemporary knowledge until its full meaning was at last disclosed and the verse stood out a marvellous sign of the Holy Koran.

Again the verse « وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج »

meaning: " And We have caused to grow in it (1) all pairs of beauteous species"

and the verse « ومن كل شيء خلقنا زوجين »

meaning: " And of everything have We created pairs"

and the verse « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون »

meaning: " Glory be to Him who hath created all pairs of species of what the earth produceth (2), and of (mankind) themselves and of what they know not".

Commentators used to interpret these verses according to the scientific standards recognised at the time. But it was not until natural sciences have discovered male and female species in plants, that we knew the full meaning of those verses.

Again, such verse as :—

« حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مسا كنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون »

meaning: " Till they came to the Valley of Ants (3); said an ant " O ye ants, enter your dwellings, lest Solomon and his army crush you and they know it not"

was taken for a mere similitude or a kind of metaphor until the entomologists have unravelled many astounding mysteries in the life of ants and the real meaning of the verse was thereby disclosed.

---

(1) The earth.
(2) Plants and trees.
(3) A valley in Syria abounding in ants.

in the Christian press to encourage marriage among their race. It is significant in this connection that the question of illegitimate children in Christian countries is assuming great dimension and causing serious consternation and alarm. Their people have turned from the lawful to the unlawful, from the limited to the unlimited and from truth and rectitude to hypocrisy and deceit.

Another teaching of Islam is that in connection with speculation. Germany has introduced a law prohibiting speculation save within certain limits very nearly identical with the teachings of Islam.

England on the other hand, has officially prohibited prostitution. It has recognised, as Islam did, the serious disadvantages which affect the race had such a breach of morality been licensed by the state.

Yet another teaching of Islam is alms-giving regarding which a French orientalist says :—

" The Moslem Religion affords the most effectual safeguard against the menace of communism which threatens to disrupt the social structure and shake the world-peace to its very foundation. This safeguard is alms-giving ordained by Islam and constituting the payment of a portion of the wealth of the rich to the poor every year. It made it incumbent on the ruler to collect these alms even though he had to enforce their collection as in judicial decrees."

But the knowledge of this French orientalist is even deficent in that respect. Islam has, over and above enjoining the payment of legal alms, urged its followers to secret and public charity and has forcibly insisted thereupon. It urged them to lend the needy, and set more recompense for such charity than for legal alms-giving.

It ordained that such loans should be given free of any interest or advantage accruing to the rich from the poor. Benevolence was thus rendered one of the rights of humanity, an obligation of the rich to the poor.

This very same measure is what certain parties in European countries persistently clamour for. They insist on the assessment of a levy on bankers who contribute nothing to the public treasury in contradistinction to property and land owners.

There are other parties which call for the adoption of certain reformative measures corresponding, in more than one way, with the teachings of Islam.

Briefly, intuitive, scientific and empirical knowledge have all combined to prove the verity and truth of the Moslem Religion even in regard to the most transcendental questions and other questions which were positively denied by past generations.

They were wont to deride the idea of the destruction of the universe and the extinction of the luminary planets until recent discoveries have shown that the celestial world is composed of the same constituents as this world.

They discovered that potassium, for instance, is a constituent element of the sun, that the heat of the sun is gradually diminishing and that the laws of this terrestial world obtain in the celestial worlds as well.

It is not conceivable, therefore, that such a religion could be liable to abrogation or doomed to extinction.

Indeed, time and progress of civilisation are ever and anon offering fresh proofs of the verity and greatness of Islam. Many teachings were considered in olden days merely devotional and appeared to have no justifiable ground or known cause such as the scouring with dust of any vessel which a dog has licked and washing it thoroughly with water. Also the forbiddance of pork which is commonly known now to be the cause of many diseases particularly tape worm and trichina [1] which play havoc with the human body and very often cause death.

As to the dog, it is maintained that it often harbours different kinds of parasitic helminths which infect the human body with devastating results.

Abstinence from alcoholic drinks is another teaching of Islam. Science has definitely established the pernicious effects accruing from drinking. It weakens the heart, damages the kidneys, causes cirrhosis [2] of the liver, enfeebles the progeny and clouds the intellect.

Europe and America are gradually coming nearer and nearer Islam and adopting its teachings day by day, conciously and unconciously after having long been its sworn and inexorable enemy.

They were wont to condemn the institution of divorce in Islam. But when they found out that it was necessary for the progress of civilisation and that it is unreasonable to force a man into continuation of matrimony in spite of incompatibility of temperament and inclinations, they were obliged to adopt that institution. Divorce courts were established and the number of divorce cases are increasing year by year.

Then again the institution of polygamy. This institution evoked their bitter censure and condemnation. Subsequent events and disasters have, however, pointed to its efficacy and the advantages accruing therefrom. The increase in the number of men, the consequent augmentation of power and the amelioration of conditions in every sphere of life are too self-evident to be enunciated. This is particularly the case after those devastating wars in which thousands of thousands of men are lost to the race and countless numbers of women are rendered widowed in consequence.

The Moslems have often been envied the multiplicity of their members within short periods on account of the prevalence of marriage among them.

We have lately noted with interest, the vigorous campaign conducted

---

(1) A parasitic worm which infects the intestinal canal and the muscular tissue of man and certain animals especially the pig.

(2) Inflammation and proliferation tending to destroy the liver cells and impede the flow of blood through the veins of the liver.

people to profess it, but they were waged in order to defend it from outside attacks and pave the way for its announcement and propagation so that the world, which was in desperate need for a new religion, might hear of it.

Islam enjoins kindly treatment of the neighbour, the wife, the friend, the parents and children and all kinsmen and others whether they profess it or not. This is prescribed in the most eloquent and easily assimilated language. It warned against deviation from these rules on penalty of severe punishment in the hereafter and instituted such temporal penalties as were indispensable for the welfare of mankind.

Such then, are the main teachings which constitute the truths of Islam. They were the light that shone on a world steeped in stygian darkness of ignorance and penetrated its furthermost corners. It is the religion of nature for which nature will accept no other substitute had it been free from the taints of superstitions which pervaded it.

The first fundamental precept of Islam is the acceptance of monotheism and the expurgation of souls f om sin and wickedness. Its texts clearly point out that salvation is the outcome of mental and conscious striving for truth and that perdition and aberration are the result of mental and conscious inactivity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that the great thinkers of the world have of old been deeply interested in the search after a religion which fulfils the material needs and spiritual aspirations of mankind and combine the two in accordance with a just and reasonable criterion; thus establishing the right proportion between their respective claims in such a way as to keep them within bounds and withhold the one from dominating the other. But they discovered it nowhere except in Islam which warranted salvation in this world and the hereafter and was not oblivious of both material and spiritual claims.

It is for this reašon that Islamic civilisation was assiduously songht after by mankind and had spread in such a fashion unprecedented in the annals of history.

It is feasible for anyone who studied history and social science to find out that this civilisation was the most progressive and far-sighted of all civilisations and that it has fully wielded the sceptre of authority over its followers and exercised the most astounding influence over their minds. It comprised the basic elements of all human progress viz., science and activity and it left out nothing that tends to purge the soul from its taints and fit it for the fulfilment of its functions to which it did not refer and insist upon.

Islam had thus become the crowning conclusion of all God's dispensations and the ultimate end of man's salvation.

It aimed at strict moderation throughout and strove for the expurgation of minds from the taints of delusion and the directing thereof to the sources of truth and blessedness.

religions suffer, such as the doctrine of incarnation, trinity, anthropomorphism (1), divestment of certain divine attributes and other doctrines which are definitely incompatible with the perfect divinity of God.

The Moslem Religion is absolutely clear on this point and both the proletariat and learned classes fully understand it, while followers of other religions are faced whith the most serious complications and ambiguities which baffle the intellects not only of the proletariat but also of the learned classes. The teachings which were handed down to them were not of such clarity as to be understood without painstaking assiduity; they were so vague and ambiguous on so many points that inquirers were apt to lose their way in a labyrinth of complications.

As for the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions, the Moslem Religion is decidedly a clear and vast fount of information, and an aim beyond which no one could aspire for better hope or end.

Islam had rendered mankind a most inestimable service which anterior religions failed to offer; nor could the master minds of legislators interested in the organisation of human activities and the amelioration of social conditions, ever discover anything approaching it. It enjoined charity and benevolence towards the followers of other religions though they are the first, the maltreatment of whom, would strike the imagination as a religious injunction.

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن »

meaning: " Dispute not except in a kindlier way, with the People of the Scripture"

and the Prophet Mohammad saith in this connection «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة» "Whoso inflicteth harm on a follower of the Scripture will I be his adversary on the Day of Judgement".

Islam enjoined that Moslems and all others should be treated on an equal footing. This is clearly shown in various parts of the Koran and the Tradition for the fulfilment of justice and maintenance of equity so that non-Moslems may feel secure under the rule of Islam and may not find therein an unsupportable burthen. Also that they may procure their assigned share of the means of subsistence which God hath bestowed as commonweal upon all His creatures.

It forbade interference with their religions and did not compel their adoption of Islam so that its own merits and clear teachings may be the sole incentive to its adoption. In no instance, indeed, did Islam have recourse to the sword to superimpose its will under penalty of death, as other religions did. The holy wars prescribed at the beginning of Islam were not waged to force

---

(1) The representation of the Deity in the form of man or with bodily parts.

Thus it has thrown the door wide open for reflection and delivered mankind from the bondage of imitation.

It spared them the turmoils of faction, and enjoined the Jew to rever Jesus and the Christian to respect Moses and that all should venerate any messenger or prophet who might have been sent, unknown to us, to other people as pointed out in the verse: —

« ومنهم من لم نقصص عليك »

meaning: "And of some We have told thee not".

Islam is, thus, a comprehensive religion which relies on the mind as its sole arbiter and forbids the submission of man to man or the glorification of any creature.

The Islamic teachings which were revealed to the Prophet Mohammad, to announce unto mankind, and the goodly exhortations with which he was sent to purge the souls from sin and recklessness, constitute an irrefutable and unassailable argument in the face of the most virulent attacks of criticism. These teachings are established on a solid substratum of reason which no criticism could affect or prejudice.

The tenets of Islam are purely intellectual and absolutely uncontaminated with delusion, superstitious beliefs or pernicious customs. They were not ordained in accordance with the consuetudinary approbation or censure of a particular people, but were instituted in strict accordance with intellectual truths established at all times and suited to all races of mankind.

It is for this reason that the message of Islam was a general one; it was no more intended for the Arabs than for others or for urban than for nomadic communities on account of its complete adaptability to all people in just the same way and same proportion; and it is no wonder, therefore, that Islam is called the "Natural Religion".

The teachings of Islam are classified into three main classes :—

(1) The avowal of one Creator and the admission of the Day of Judgement.
(2) Human actions pertaining to the Hereafter.
(3) Human actions pertaining to the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions.

These are the main divisions under which there are several other subdivisions the consideration of which we defer for the time being.

As to the avowal of one Creator and the admission of the Day of Judgement, they are nowhere more clearly ordained than in the Moslem Religion. It is for this reason that monotheism in Islam is free of the defects from which other

This is a fact which all just and unbiased people will readily admit. Superstitions unsupported by tradition nor sanctioned by mind or conscience crept into religions prior to Islam and the most flagrant errors and misconceptions could easily be traced in the beliefs in God and His Holy Prophets and other precepts the consideration of which we leave entirely to your own judgement.

Islam required mankind to believe in all prophets without exception and addressed them thus :—

« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب والأسباط .
وما أوتى موسى وعيسى . وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »

meaning : " Say ye: We believe in God and that which hath been sent down to us, and that which hath been sent down to Abraham and Ismaël and Issac and Jacob and their offspring ; and that which was given to Moses (1) and Jesus (2) and that which was given to the prophets from their Lord ; we make no distinction between any of them and to God we are resigned "

and it addressed the people of the Scriptures thus :—

«يأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم»

meaning : " O People of the Scriptures ! you have no reliable Faith until ye observe the Torah and the Evangel and that which hath been sent down to you from your Lord "

and forbade them to commit what they have committed before

« ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »

meaning : " Ye shall not barter my signs for a paltry price and fear ye me; and confuse not the truth with falsehood and conceal not the truth when ye know it ".

Islam led mankind to the pure founts of religion and freed their minds from the confusion of misguidance and superstitions which no Prophet or Holy Book had ever revealed. It appealed to them to shake the torpor off their minds and rouse their conscience in contemplation of God's blessings and marvels.

---

(1) The Law.
(2) The Gospel.

ENGLISH SUPPLEMENT OF

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR

ISLAM

THE IDEAL RELIGION[1]

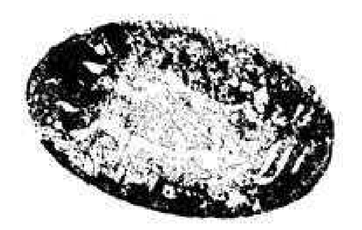
Islam is a universal religion revealed to rectify the corrupted beliefs of mankind and set the seal to previous Scriptures. It enjoins respect and veneration to all the Prophets and is not a religion of egoism that preaches hatred and animosity to all others; nor does it require its followers to believe only in their particular prophet imputing perfidy and falsehood against those of other religions. Nay, but the magnanimous spirit of Islam rises far above this and enjoins the belief in all God's messengers for thus Mohammad was addressed :—

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك . ومنهم من لم نقصص عليك »

meaning: " And We have sent messengers before thee; of some We have told thee; and of others We have told thee not "

to warn us against disbelief or defamation of any of His Prophets and enjoin us to acknowledge that they were all sent with guidance, enlightenment and true beliefs. But the patriarchs and followers of past religions have misconstrued and altered its texts and Islam was revealed to sanctify them from the taints of superstition and innovation and lead mankind to the very sources of true belief. It honoured and revered their prophets and laid the responsibility of perversion on those who misconstrued and distorted the word of God.

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El Digwy's Book "Messages of Peace".



قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٭



مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الثالث	ربيع الاول سنة ١٣٥٠	المجلد الثانى

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الازهر الأعلى } سابقا

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر



الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : بستان ٣٥٠٧

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصرى	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصرى	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ قرش صاغ داخل القطر و ٤ قرش خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

المداراة – والمداهنة

خلق الناس للاجتماع لا للعزلة ، وللتعارف لا للتناكر ، وللتعاون لا لينفرد كل واحد بمرافق حياته .

وللانسان عوارض نفسية كالحب والبغض ، والرضا والغضب ، والاستحسان والاستهجان ، فلو سار على أن يكاشف الناس بكل مايعرض له من هذه الشؤون فى كل وقت وعلى أى حال ، لاختل الاجتماع ، ولم يخلص التعارف ، وانقبضت الأيدى عن التعاون ، فكان من حكمة الله فى خلقه أن هيأ الانسان لأدب يتحامى به ما يحدث تقاطعا أو يدعو الى تخاذل ، ذلك الأدب هو المداراة .

فالمداراة ترجع الى حسن اللقاء ولين الكلام وتجنب ما يشعر ببغض أو غضب أو استنكار إلا فى أحوال يكون الاشعار به خيرا من كتمانه ، فمن المداراة أن يجمعك بالرجل يضمر لك العداوة مجلس ، فتقابله بوجه طلق ، وتقضيه حق التحية ، وترفق به فى الخطاب ، قال سحنون فى وصيته لابنه محمد : « وسلم على عدوك وداره فان رأس الايمان بالله مداراة الناس » وقال أحد الحكماء من بنى أسد :

وأمنحه مالى وودى ونصرتى ... وإن كان محنىّ الضلوع على بغضى

ونقرأ فى سيرة الأستاذ محمد بن يوسف السنوسى صاحب المؤلفات المعروفة فى علم الكلام وغيره أنه « كان يفاتح من تكلم فى عرضه بكلام طيب وإعظام ، حتى يُعتقد أنه صديقه » ونقرأ فى سيرة القاضى يحيى بن أكثم أنه « كان يداعب خصمه وعدوه » .

قد تبلغ المداراة الى إطفاء العداوة وقلبها الى صداقة ، قال محمد بن أبى الفضل الهاشمى : قلت لأبى: لم تجلس الى فلان وقد عرفت عداوته ؟ قال : أخبى نارا ، وأقدح وداً . وقد يقصد المدارى الى علاج جرح العداوة ومنعه من أن يتسع ، قال عقال ابن شبة : كنت رديف أبى ، فلقيه جرير على بغل ، فحياه أبى وألطفه ، فلما مضى قلت : أبعد ما قال لنا ما قال ! قال : يابنى أفأوسع جرحى !

ومن المداراة أن يلاقيك ذو لسان أو قلم عرف بنهش الأعراض ولمز الأبرياء ، فتطلق له جبينك وتحييه فى حفاوة ، لعلك تحمى جانبك من قذفه ، أو تجعل لدغاته خفيفة الوقع على عرضك .

نقرأ فى الصحيح عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها أخبرته « أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال : (ائذنوا له فبئس ابن العشيرة) أو (بئس أخو العشيرة) فلما دخل ألان له الكلام » وفى رواية « فلما جلس تطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه وانبسط اليه ، فقلت يارسول الله قلت ما قلت ، ثم ألنت له القول ! فقال : « أى عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه » أو « ودعه الناس اتقاء فحشه [1] » .

فلقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا الرجل المعروف بالبذاء ، من قبيل المداراة ، لأنه لم يزد على أن لاقاه بوجه طلق أو رفق به فى الخطاب ، وقد سبق الى ذهن عائشة رضى الله عنها أن الذى بلغ أن يقال فيه (بئس ابن العشيرة) لا يستحق هذا اللقاء ويجب أن يكون نصيبه قسوة الخطاب وعبوسة الجبين ، ولكن نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد مدى ، وأناته أطول أمدا ، فهو يريد تعليم الناس كيف يملكون ما فى أنفسهم فلا يظهر أثره إلا فى مكان أو زمان يليق فيه إظهاره ، ويريد تعليمهم أدبا من آداب الاجتماع هو رفق الانسان بمن يقصد الى زيارته فى منزله

(١) صحيح الامام البخارى .

ولو كان شره فى الناس فاشيا ، على أن إطلاق جبينك لمثل هذا الزائر لا يمنعك من أن تشعره بطريق سائغ أنك غير راض عما يشيعه فى الناس من أذى ، ولا يعوقك عن أن تعالجه بالموعظة الحسنة إلا أن يكون شيطانا ماردا .

ومن المداراة أن تلق ذا يد تبطش فتمنحه جبينا طلقا و تتجنب فى حديثك ما لا يكون له أثر فى نفسه إلا أنه يثير فيها القصد الى أذيتك ، وهذا محمل قول أبى الدرداء رضى الله عنه : « إنا لنكشر فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم » وفى رواية « لتقليهم »(١) والكشر : التبسم ، وفى هذا الأثر شاهد على أن التبسم فى وجه الظالم اتقاء بأسه ضرب من المداراة ، ولا يتعداها الى أن يكون مداهنة .

ومن المداراة أن يكون الرجل على حال تقتضى صرفه عن بغية أو عمل ، وتعرف أن فى الاعتذار له بهذا الحال ما يثير فى نفسه ألما ، فتعرض عن ذكر ما يؤلم ، وتذكر له وجها غيره مما هو واقع ، حتى لا تجمع له بين الحرمان من بغيته ، وإيلامه بما لا يحب أن يعتذر له به ، أصاب الكسائى وضح (برص) وهو مؤدب أبناء هرون الرشيد ، فكره الرشيد ملازمته لأولاده ، فقال له : كبرت فى السن ، ولسنا نقطع راتبك ، وأمره أن يختار لهم من ينوب عنه ممن يرضاه ، فاختار لهم على بن الحسن المعروف بالأحمر ، ولا ريب أن اعتذار هرون الرشيد للكسائى بكبر السن أخف على نفسه من أن يقول له : أصبت بوضح ، ولسنا نقطع راتبك .

فالنفوس المطبوعة على المدارة نفوس أدركت أن الناس خلقوا ليكونوا فى الائتلاف كجسد واحد ، وشأن الأعضاء السليمة أن تكون ملتئمة متماسكة على قدر ما فيها من حياة ، ولا تنكر عضوا ركب معها فى جسد إلا أن يصاب بعلة يعجز الأطباء أن يصفوا له بعدُ دواء .

---

(١) تبغضهم .

فالمداراة يبتغى بها رضا الناس وتأليفهم فى حدود ما ينبغى أن يكون ، فلا يبعدك عنها قضاء بالقسط ، أو إلقاء النصيحة فى رفق ، فلم يخرج عن المداراة أبو حازم حين دخل على سليمان بن عبد الملك وقال له : « إنما أنت سوق فما نفق عندك حمل اليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت » .

ترجع المداراة الى ذكاء الشخص نفسه ، فهو الذى يراعى فى مقدارها وطريقتها ما ينبغى أن يكون ، ولأسباب العداوة مدخل فى تفاوت مقادير المداراة واختلاف طرقها ، فاذا ساغ لك أن تبالغ فى مداراة من ينحرف عنك لخطأ فى ظن يظنه بك ، أو لعدم ارتياحه لنعمة يسوقها الله اليك ، فلمداراة من يحارب الحق والفضيلة إن صادفك واقتضى الحال مداراته ، حد قريب ومسحة من التلطف خفيفة ، وينبغى أن تكون مداراتك لمن ترجو منه العود الى الرشد ، وتأنس فى فطرته شيئا من الطيب ، فوق مداراتك لمن شاب على عوج العقل ولؤم الخلق حتى انقطع أملك من أن يصير ذا عقل سليم أو خلق كريم ، ولك مع من فيه بقية من العقل ضرب من المداراة لا تسلكه مع من يعد مداراتك له أثر الخوف من سلاطة لسانه ، فيزداد فحشا ، ليزداد الناس رهبة ، فيزيدوه خضوعا .

المداراة خصلة كريمة ، يحكمها الأذكياء ، ولا يتعدى حدودها الفضلاء ، أما المداهنة فهى إظهار الرضا بما يصدر من الظالم أو الفاسق من قول باطل أو عمل مكروه ؛ وأصلها الدهان وهو الذى يظهر على الشىء ويستر باطنه .

تضم المداهنة تحت جناحيها الكذب ، وإخلاف الوعد ، أما الكذب فلأن المداهن يصف الرجل بغير ما يعرفه منه ، ومن دخل الكذبَ من باب سهل عليه أن يأتيه من أبواب متفرقة ، وأما إخلاف الوعد فلأن المداهن يقصد الى إرضاء صاحبه فى الحال فلا يبالى أن يعده بشىء وهو عازم على أن لا يصدق فى وعده ، وليس من

الصعب على المداهن وقد مرد على الكذب أن يخلف الوعد ويختلق لإخلافه عذرا ، وهذا الاختلاق لا يرتكبه الراسخ فى كرم الأخلاق وإن كلفه الوفاء بالوعد أمرا جللا ، فالمداهن لايتريث فى أن يعد لأنه لايتألم من أن يخلف ، ولا يصعب عليه أن يصور من غير الواقع عذرا ، والراسخ فى الفضل لايعد إلا عند العزم على أن يصدق فيما وعد ، فان وقف أمامه عائق كشف لك عن وجه الحق ، فاذا لم يساعده الحال على إنجاز الوعد لم يفته الصدق فيما يلقيه إليك من عذر .

ومن المداهنة أن تثنى على الرجل فى وجهه فاذا انصرفت عنه أطلقت لسانك فى ذمه ، قيل لابن عمر رضى الله عنه « إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فاذا خرجنا قلنا غيره » فقال : « كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد قرر أهل العلم أن الرجل إن كان مستغنيا عن الدخول على من يضطره الحال الى الثناء عليه ، فدخل وأثنى بغير ما يعلم كان نفاقا ، أما إن اضطر الى الدخول على ذى قوة لا يخلص من بأسه إلا أن يسمعه شيئا من الإطراء فهو فى سعة من أن يطريه بمقدار ما يخلص من بأسه ، ولا تلحقه هذه الحالة الشاذة بزمرة المداهنين ، انهزم جيش السلطان فرج بن برقوق أمام جيش الطاغية تيمورلنك ، ووقع طائفة من العلماء فى أسر الطاغية ، ومن هذه الطائفة الفيلسوف ابن خلدون ، فكان من هذا الفيلسوف أن تقدم الى تيمورلنك وقال له فيما حادثه به : « إنى ألفت كتاب فى تاريخ العالم ، وحليته بذكرك ، وما أسفى إلا على هذا الكتاب الذى أنفقت فيه عمرى ، وقد تركته بمصر وإن عمرى الماضى ذهب ضياعا حيث لم يكن فى خدمتك ، وتحت ظل دولتك ، والآن أذهب فآتى بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى أموت فى خدمتك ، فأطلق سبيله فقدم مصر ولم يعد إليه .

ومن أسوأ ما يفعل المداهن أن يلاقى الرجلين بينهما عداوة فيظهر لكل واحد منهما الرضا عن معاداته لصاحبه ، ويوافقه على دعوى أنه المحق وصاحبه هو المبطل ، وفى مثل هذا ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « تجد من شرار الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه [(١)] » وقال حكيم من بنى أسد :

واست بذى وجهين فيمن عرفته ولا البخل فاعلم من سمائى ولا أرضى

يتخذ الرجل وجهين متى كان يطمح الى ما فى أيدى الناس من متاع ، أوكان يطمع فى إرضاء طوائف على تباعد مابينهم من نزعات ، وعلى شدة مابينهم من اختلاف ، والعبور الى النفع على جسر من المداهنة يحرم من أعز متاع هو الصدق ، بعد أن يحرم من أطيب لذة هى ارتياح الضمير ، ومن كان حريصا على أن يكون صديق الطوائف المتباينة ، فان الطيّب منهم يأبى أن يلوث صدره بصداقة من يتملق الخبيث .

المداهنون يجعلون ألسنتهم طوع بغية الوجيه ، ويعجلون الى قول ما يشتهى أن يقولوا ، فيمدحون مايراه حسنا ، ويذمون مايعده سيئا ، أما الذين يعرفون ما فى المداهنة من شر ، ويحزنهم أن يظهر الشر على يد من فى استطاعته الخير ، فيربئون بألسنتهم أن تساير فى غير حق ، ويؤثرون نصح الوجيه على أن يزينوا له ما ليس بزين ، ابتنى الخليفة عبد الرحمن الناصر « القبيبة » بقصر الزهراء ، واتخذ اسطحها قراميد من ذهب وفضة ، وجلس فيها إثر إتمامها ، وقال لمن حضر مفتخراً : « هل رأيتم أو سمعتم من فعل هذا من قبلى » ؟ فقالوا : إنك لأوحد فى شأنك كله ، ولكن القاضى منذر بن سعيد وعظه وعظا بليغا ، وتلا عليه قوله تعالى : (وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) فأطرق الناصر مليا ، ثم أقبل على منذر ، وقال له : جازاك الله ياقاضى عنا وعن نفسك خيرا ، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه ، فالذى قلت هو الحق ، وقام من مجلسه ونقض سقف « القبيبة » وأعاد قرمدها ترابا .

---

(١) صحيح الامام البخارى .

والوجيه الحازم يكره المداهنة ، ويملأ عينه باحترام من يوقظه لوجه الخير اذا كان فى غفلة منه ، ولوجه الشر اذا اشتبه عليه ، قال طاهر بن الحسين فى الكتاب الذى بعث به لابنه عبد الله بن طاهر : « وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من اذا رأى عيبا لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى ستر ، وإعلامك بما فيه من النقص ، فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك » .

وقع الوزير هاشم بن عبد العزيز فى يد العدو أسيرا ، وذكره الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى فى جماعة من رجال دولته مستقصرا له ناسباله الى الطيش والعجلة والاستبداد برأيه ، فلم ينطق أحد ممن كان فى المجلس بالاعتذار عنه ما عدا الوزير الوليد عبد الرحمن بن غانم فانه اعتذر عن الوزير هاشم ورد على السلطان فى مسلك سائغ ، ومما قال فى الاعتذار عن هاشم : « قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حق الإقدام ولم يك ملاك النصر بيده ، فخذله من وثق به ، ونكل عنه من كان معه » ثم قال : « فانه لا طريق الملام عليه ، وليس عليه ما جنته الحرب الغشوم ، وأيضا فانه ما قصد أن يجود بنفسه إلا رضا للأمير ، واجتنابا لسخطه ، فاذا كان ما اعتمد فيه الرضا جالبا التقصير ، فذلك معدود فى سوء الحظ » فأعجب الأمير بكلامه ، وأقصر بعد عن تفنيد هاشم ، وسعى فى تخليصه من الأسر .

ومن عظماء الرجال من يبغض المداهنة ، ولا يقبل من جليس مبالغة فى مدح أو مسايرة ، ومن المثل الكاملة لهؤلاء العظماء عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، فانا نقرأ فى سيرته أنه قال لجرير حين دخل عليه بقصيدة يهنئه فيها بالخلافة : « اتق الله ياجرير ولا تقل إلا حقا » وقال له رجل مرة : « طاعتكم مفروضة » فقال له : « كذبت لا طاعة لنا عليكم إلا فى طاعة الله » :

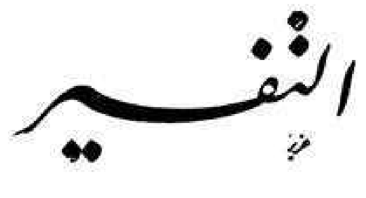
والأجلاء من علماء الدين الذين كانوا يداخلون رجال السياسة فينعقد بينهما التئام أو صداقة ، كانوا يأخذون بسنة المداراة ، ولم يكونوا فيما نقرأ من سيرتهم يتلطخون

برجس المداهنة ، فهذا أبو الوليد الباجى كان يصاحب رجال السياسة ، ويختارونه للسفارة بينهم ، وهو الذى قال لمن ذكره بمداخلة السلطان : لولا السلطان لنقلنى الذر من الظل الى الشمس ، وتاريخه يشهد بأن قوة إيمانه كانت تحرسه من أن يقع فى حمأ المداهنة . كان مرة فى انتظار أحمد بن هود صاحب سرقسطه بالأندلس ، فجالسه ابنه الملقب بالمؤتمن ، وأخذ المؤتمن يجاذب الباجى الحديث فى كتب الفلاسفة حتى قال له : « هل قرأت أدب النفس لأفلاطون ؟ فقال له الباجى : « قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم » يعنى شريعته من قرآن وسنة ، والباجى هو الذى رجع من الشرق الى الأندلس فوجد أمراءها فى تقاطع ، والعدو يتحفز لوضع يده على رقابهم ، فقام يتردد على مجالسهم ، ويطرق بالنصيحة آذانهم ، ويسعى لجمع كلمتهم ، فكانوا يجلونه فى الظاهر ويستبردون نزعته فى الباطن ، وأقل ما يجتنيه الداعى الى الاصلاح براءة ذمته ، وأمنه عند الوقوف بين يدى ربه .

فالنفوس التى تنحط فى المداهنة انحطاط الماء من صبب ، نفوس لم تشبّ فى مهد الأدب السنىّ ، ولم تهدها المدرسة الى الصراط السوىّ ، وما شاعت المداهنة فى جماعة إلا تقلصت الكرامة من ديارهم ، وكانت الاستكانة شعارهم ، ومن ضاعت كرامتهم ، وداخلت الاستكانة نفوسهم ، جالت أيدى البغاة فى حقوقهم ، وكان الموت أقرب اليهم من حبال أوردتهم .

فمن واجب أساتذة التربية ودعاة الاصلاح أن يعنوا بجهاد هذا الخلق المشئوم حتى ينفوه من أرضنا ، وتكون أوطاننا ومدارسنا منابت نشء يميزون المداهنة من المداراة ، فيخاطبون الناس فى رقة أدب وشجاعة ، ويحترمون من لا يلوث أسماعهم بالملق ، ولا يكتمهم الحقائق متى اتسع المقام لأن يحدثهم فى صراحة ؟

محمد الخضر حسين



سورة الملك

٣

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل فى قرآنه العظيم : (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ) .

كلمة تُذكِّر القارئ بصفوة ما اشتملت عليه الآية الشريفة السابقة :

شَهِدَ الله سبحانه لنفسه — وهو خير الشاهدين — بأنه الملك [1] الحق المتعالى عما سواه فى ذاته وصفاته ، الرفيع القدر الثابتُ الإلهية كثيرُ النعم ذو الفضل العظيم . ثم إنه تعالى أقام البرهان على صدق هذه الشهادة بأنه وحده الذى بيده الملك ، لا كلمة لغيره فيه بنهى ولا أمر ، ولا تصرف بإيجاد ولا إعدام ولا بمحو ولا إثبات ، وهو على كل شىء قدير .

ثم إنه جل ثناؤه قَفَّى على الآية السابقة بقوله : (ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ) الآية ، فكانت مَنزلتُها من الآية السابقة أنها شروع فى بيان بعض شؤون الله عز وجل فى ذلك ٱلْمُلْكِ بعد أن خَلَقه ، ففصَّل فيها بعضا من الأحكام التى خلق ذلك العالَمَ عليها ، كما بيَّن آثارَ قدرته وتصرفِه سبحانه فيه بعد أن أبدعه ، مبيّنا أن تلك

(١) هذا معنى التبارك الذى ذكرناه فى العدد الثانى .

الأحـكام التى حكم بها وتلك الآثار والتصرفات فى ذلك المُلْك إنما كانت على مقتضى قوانين العـدل وسُنَن الحِكَمِ البالغة المؤدية الى جلب المنافع والمصالح ، الصارفة عن الشرور والمفاسد .

أخبرنا سبحانه بذلك أنه خلق هذا المُلْكَ العظيم ثم لم يتركه سُدًى مهملا ، بل إنه جعله فى قبضـة يده سبحانه يدبر أمره ويتصرف فيه بقدرته على وَفْق ما سبق به علمـه المحيط وإرادته النافذة وحكمته الإلهية البالغة ، كما قال عز اسمه : (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) .

فمن أحـكام الله عز وجل فى ذلك المُلْك العظيم وآثار قدرته الباهرة فيه ، خَلْقُه الموتَ والحياةَ . فأما الحياةُ فإن المراد بها هنا حياةُ الإنسان الدنيويةُ التى قبل موته ، وحياته الأخرويةُ بالبعث بعد موته . فحياتهُ الدنيوية هى القوة التى وهبها الله تعالى له وجَعَلَها مصدرَ العقل والعلم والعمل ، وحياتهُ الأخرويةُ هى القوة التى يعطيه الله تعالى إياها بالبعث فيبقى بها بقاءً أبديًا ، فإذا كان محسنا كانت حياتُه حياةً طيبة سـليمة من شـوائب الآفات الدنيوية والأخروية ، وإن كان مسيئا فقد ظَلَمَ نفسـه (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

هذه الحياة الأخروية، وسيلتها التى يُتَوَسَّلُ بها اليها هى الحياةُ الدنيوية التى بيّناها لك من قبل ، (وهى قوة العقل والعلم والعمل) وذلك كما فى قول العاصى يوم القيامة : (يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) تمَنّى أنْ لو كان انتفع بحياته الدنيوية لتـكون وسـيلةً له الى طيب الحياة الأخروية الخالدة ، ولـكن (لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) . (١)

(١) لايدعون إلى التوبة ولا تطلب إليهم الطاعة كما كانوا يدعون الى ذلك فى الدنيا لأن الآخرة ليست دار تكليف وعمل بل دار جزاء على ما أسلفوا فى الدنيا .

وأما الموت هنا فهو الصفة الوجودية الطارئة على الحياة مضادةً لها ، يخلقها الله تعالى فى الانسان فتزول بها قوة الإحساس والنماء والتعقل .

قدّمنا أن المراد بالحياة هنا حياةُ الانسان الدنيويةُ وحياتهُ الأخرويةُ ، وهذا هو الذى ينطق به قوله تعالى بعد : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) كما ستعرفه : ذلك أن البَلْوَ والإبلاءَ والابتلاءَ بمعنى واحد ، وهو فى الأصل الامتحان والاختبار ، أى تَعَرُّفُ حالِ الشىء والبحثُ عنه للوقوف على حاله المجهولة ، فإذا ما حصل البَلْوُ على وجهه الصحيح كان أثره اللازمُ المترتبُ عليه هو ظهورُ حالِ ذلك الشىء من جَوْدة ورداءة ، وخيرٍ وشرٍّ ، وحُسْنٍ وقبحٍ ، الى غير ذلك من الصفات . ولا جدال أن المعنى الأصلى للبَلْوِ يستحيل وصفُ الله سبحانه به ، لأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، بل هو من صفات المخلوقين الذين لا يعلمون إلا ما علّمهم الله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) .

فعلى ذلك وجب أن يكون معنى البَلْوِ هنا هو المعنى الثانى الذى هو الأثر اللازم المترتب على المعنى الأصلى المستحيل ، وذلك المعنى الثانى الجائز على الله سبحانه هو إظهار أحوال العباد حتى يظهر خيرها وشرها ، ويتضح حُسْنُها وقبحها ، ويتبين أحسنُها وحَسَنُها .

تتميز هذه الصفات المتقابلات وتتجلى حقائقها لأصحابها المتصفين بها ، كما يقف عليها غيرهم أيضا ، خصوصا فى اليوم الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) (هُنَالِكَ تَبْلُو[1] كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ) (وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) .

(١) تختبر وتعاين وتذوق . وقرأ حمزة والكسائى تتلو أى تقرأ كما فى نحو اقرأ كتابك . فاولئك يقرءون كتابهم .

وبالجملة فخلقُ الله جل ذكره الموتَ والحياةَ إنما هو لأجل ظهور صفات الأعمال للعباد أنفسهم، وهو معاملة منه سبحانه لهم تُشْبِهُ فى ظاهرها معاملةَ المخلوقين إذا امتحن بعضهم بعضا للوقوف على ما جهلوه من أحوالهم. أمّا اللهُ تبارك وتعالى فإنه يعلم من أحوال عباده وشؤون خلقه ما ظهر وما بطن.

من هذا الذى قررناه لك يتضح لك أن ابتلاء الله تعالى للعباد ليس مقصورا على أحسن أعمالهم وَحَسَنِها كما قد يُتوهم من ظاهر الآية الشريفة، بل هو متناول لأعمالهم كلها: حَسَنِها وَأَحْسَنِها، قبيحها وحسنها، نافعها وأنفعها، كاملها وأكملها، ناقصها وكاملها، خيرها وشرّها.

فانظر بعد هذا الى ذلك الإبداع القرآنى المعجز الذى جاءت عليه هذه الآية الكريمة — ألا ترى أن البَلْوَ قد ذُكِرَ فيها متعلقا بأحسن أعمال العباد وحَسَنِها فقط، دون سائر أعمالهم التى مثلنا لها فيما سبق، مع أن البَلْوَ فى الواقع متعلق بجميع أعمالهم على كثرتها واختلاف أجناسها، كما قال عز وجل: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) (وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ[1] هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ).

أمّا الحكمة القرآنية البلاغية فى قصر الابتلاء على الأحسن والحَسَن فى الآية فهى أن الله جلّت حكمتُه يرشد العباد الى أن المراد بالذات والمقصدَ الأصلىَّ من ابتلائه لعباده هو أن يظهر كمال إحسان المحسنين، وتمام إجادة المجيدين لأعمالهم، فتتميز أعمالهم وتتجلى متفوقةً أرقى من أعمال غيرهم الذين تحقق فى أعمالهم أصل الحسن بالإيمان والطاعة.

(١) جمع شاهد كصاحب وأصحاب أو شهيد كشريف وأشراف وحبيب وأحباب.

أما الأعمال التى لم تتصف بالأحسنية ولا بالحُسن كالمعاصى وسائر المخالَفات فإنّ تعلُّق الابتلاء بها مع كونه مرادا فى الواقع، هو غير مراد إرادة أصلية بالذات كما تقدم، بل هى أَبْعَدُ من أن تكون مرادةً، فإن حقها أنها لا ينبغى وقوعها من العباد بعد أن تبين لهم الرشدُ من الغىّ، وعلموا ما أعدّه الله المحسنين من الثواب وللمسيئين من العقاب.

فاذا كان هذا هو حالها من الحقارة والضعة فانها لا تكون حينئذ صالحة لأن تنظم فى سلك الحِكَمِ البالغة الإلهية لأفعاله تعالى، بل هى أعمالُ سَوْءٍ ذميمةٌ تصدُر عن عامليها بسُوء اختيارهم وحُمْقِ تصرفهم لا شبهة لهم فى الإقدام عليها ولا عذر لهم فى ارتكابها. وفى هذا من الترغيب فى الترقى الى معارج العلوم ومدارج الطاعات، ومن الزجر عن الوقوع فى نقائصها وسوء عواقبها ما فيه (ذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ).

وخاتمة القول أن الحكمة الإلهية فى خلق الله تعالى الموتَ والحياةَ هى أن تَظْهَرَ أعمالُ العباد على تباينها، وتتبين لأصحابها ولغيرهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهادُ، ليكون ظهورُها إذ ذاك على هذا الوجه مرغبا الآن المحسنين فى الاستزادة من الإحسان والرقى فى معارجه، وزاجرا المسيئين عن التمادى أو الوقوع فيما ادّخره الله تعالى للمسيئين.

وبهذا ظهر لك أن الآية الكريمة قد نطقت بأن المراد بالحياة فيها ما يعم الحياتين: الدنيوية والأخروية كما قدمناه لك، فإن كلا منهما يحمل الناظر فيه المتدبر له على إحسان العمل والمسارعة الى المزيد والترقى فى مدارج الباقيات الصالحات، مع ملاحظة أن الأعمال لا يمكن صدورها عن عاملها إلا بالحياة الدنيا.

ثم إنه لا يخفى على الفطن ما فى تقديم الموت على الحياة فى الآية الكريمة من الحسن والبلاغة الفائقة، فان تذكر الموت وما فيه من السَّكرَات والشدائد وما يعقبُه مما لا تدرى

نفسٌ ما اللهُ فاعلٌ بها فيه، هو أدْعى للذين أسرفوا على أنفسهم أن يتوبوا ويُنيبوا الى ربهم (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ) وأعظمُ ترغيبا للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن ينافسوا فى الطاعات ويسارعوا الى الخيرات وهم لها سابقون.

هذا، وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) بقوله[1] «أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلاً وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ تَعَالَى وَأَسْرَعُ فِى طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» أى أن الله تعالى خالق الموت والحياة ليتبين لكم أيها الناس وتعلموا أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله تعالى وأسرع فى طاعة الله عز وجل؛ فإذا ما تبينتْ لكم أعمالُكم ووجدتْ كلُّ نفس ما عملتْ من خير أو شر مُحْضَراً لم يكن لأحد على الله حجةٌ بعد هذا الإعذار، وبعد أن يَرَوا ما قدّموا لأنفسهم ليوم الحساب. وحينئذ يجازيهم الله الحكمُ العدل مجازاةً متفاوتة على حَسَب تفاوتهم فى الأعمال (وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ).

وقد اشتمل الحديث الشريف الذى فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قولَه تعالى: (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) على ثلاثة أمور: أولها العمل القلبى، وهو أَحسنيّةُ العقل، أى كمالُ حُسْنِ[2] التعقل وتمامُ إجادة التفكر والتفهم فى ملكوت السموات والأرض وفى شرائع الله تعالى التى شرعها لصلاح الدين والدنيا وللوصول الى معرفة المخلوقين لله خالقِهم وخالقِ كلِّ شئ، وذلك أن الطريق المستقيم الموصل الى هذه المعرفة الفضلى إنما هو كمال التعقل والنظر فى بدائع صنع الله تعالى، وتمامُ التفكر والتدبر فى آياته الكونية المنصوبة فى الأنفس والآفاق، وفى آياته وشرائعه المنزلة على رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسير سورة هود عن ابن عمر. (٢) إشارة إلى أن العقل فى الحديث الشريف مصدر عقل الشيء بمعنى تعقله وأدركه بعقله.

ثم إن هذا الأمر الأول عمل قلبي كما علمت، وهو أشرف الأعمال على الإطلاق لأشرفية مصدره — وهو العقل — على سائر مصادر الأعمال الإنسانية؛ وكيف لا يكون العقل كذلك وهو الوسيلة العظمى الى معرفة العباد ربهم جل وعلا! ولهذا كان هذا الأمر الأول هو الأساس الأعظم الذى لا قيمة لأعمال العباد إلا بعد تحققه على الوجه الصحيح.

ومما يزيدك علما بهذا قولُ النبي صلى الله عليه وسلم — فيما ذكره الحافظ بن كثير وغيره — : « لَا تُفَضِّلُونِى [1] عَلَى ٱلْأَنبِيَاءِ وَلَا عَلَىٰ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ فَإِنَّهُ كَانَ يُرْفَعُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلُ عَمَلِ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ ». قال العلماء: وإنما كان ذلك هو التفكرَ فى أمر الله عز وجل الذى هو عمل القلب، ضرورةَ أنه لا يقدِر أحد على أن يعمل بجوارحه كل يوم مثلَ عملِ أهل الأرض.

ثانيها أحسنية الورع — وهى المبالغة فى التباعد عما حرمه الله، وزيادة التحرز عن القرب مما نهى عنه، وهـذا الأمر الثانى هو من قبيل التعفف والتزكى عن المنهيات.

ثالثها الأسرعية فى طاعة الله — وهى الأسبقية وزيادة التنافس فى أداء حقوق العبودية لله رب العالمين، وهذا الأمر الثالث هو من قبيل أعمال الجوارح.

وجملة القول أن الحديث الشريف قد اشتمل على ثلاثة أمور: أولها عمل العقل، وهو أفضـلها. ثانيها الترفع عن المحارم. ثالثها عمل الأعضاء ولا اعتداد بهما إلا بعد عمل العقل الصحيح.

(١) السبب فى هذا النهى هو سد الذريعة وإغلاق الباب فى وجوه ضعفاء العقول الذين ربمـا أوقعهم جهلهم فى تنقص الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ونظير هذا ما وقع فيه المبتدعة والغلاة الذين خاضوا فى التفضيل بين الصحابة باهوائهم حتى أفضى ذلك ببعضهم الى الفسق بل الكفر. وإنما خص سيدنا يونس عليه السلام بالذكر نظرا الى قصته الواردة فى القرآن الكريم. فقد يظنها بعض الحمقى مدعاة لنقص درجته عليه السلام. حاش لله. وهذه غفلة قبيحة عن قول الله تعالى فى حقه عليه السلام: (وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون) فانت ترى أن الله تعالى قد أثنى عليه بالرسالة فى وقت إباقه الذى ربما زعمه الأحمق منافيا لجلال الرسالة. وبهذا تعلم أن هذا الحديث وأمثاله لا ينافى أن سيدنا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الاطلاق.

كذلك دل الحديث على أن الابتلاء يتعلق بأحسنها كلها ، كما دل على أن العمل فى الآية الكريمة شامل لعمل القلب وعمل الجوارح .

ثم انظر بعد هذا الى ما فى هذا الحديث من البلاغة العالية — ألا تراه يقول : « وأَسرَعُ فى[1] طاعة الله » دون أن يقول : « الى طاعة الله » وإن كان كل من العبارتين بليغا جليلا قد ورد[1] فى القرآن الكريم .

ووجه أبلغية التعبير هنا (بفى) هو أنهم قائمون بطاعة الله تعالى بالفعل مؤدون لها داخلون فيها ، ولكنهم لا يبغون بقاءهم على درجتهم الحاضرة فى الطاعة ، بل لا يرضيهم إلا المسارعة والمسابقة والمنافسة وهم فيها ليتقربوا الى الله زلفى .

أما التعبير بلفظ (الى) فانه يفيد أنهم خارجون عن الطاعة لم يقوموا بها ولم يباشروها بالفعل ، ولكنهم يسارعون ليصلوا ويدخلوا فيها . وهذا المعنى لا يناسب معنى الآية هنا ، فانه منابذ للتعبير فيها بالأحسنية فى قوله تعالى : (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

أما التعبير (بإلى) كما فى بعض الآيات فلأن مقام البلاغة العليا فيه يقتضيه ، ولكل مقام مقال ، ولكل حديث مجال ، وللقرآن الكريم المثل الأعلى ؟

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم العليا سابقا

(١) وسارعوا إلى مغفرة من ربكم — أولئك يسارعون فى الخيرات .

تقرير اللجنة الازهرية

فى التعليق الذى هذى به صاحبه حول القرآن الكريم

تألفت لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة : الأستاذ الشيخ عبد الهادى الضرغامى مساعد شيخ المعهد الأزهرى بالقسم الثانوى للأزهر الشريف ، والأستاذ الشيخ محمد العنانى المدرس بقسم التخصص ، والأساتذة المدرسين بالأزهر الشريف : الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى ، والشيخ محمد عبد السلام القبانى ، والشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، ونظروا فى ذلك التعليق الذى هذى به صاحبه فى تأويل القرآن الكريم ، وكتبوا فيه تقريرا رفعوه الى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأزهر ، وقد بسط الاساتذة فى هـذا التقرير البحث عن ضلالات ذلك التعليق وأوردوا عند كل ضلالة ما يدفعها وينبه على إلحاد من اعتقدها ، والى حضرات القراء نص هذا التقرير :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله رب العالمين والصـلاة والسـلام على خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـد . فقد أشيع أن من يدعى (أبا زيد) وضع تعليقا على حواشى المصحف الشريف أسماه (الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن) .

وأن هذا التعليق قد اشتمل على ضلالات لا يقرها الاسلام ، وسخف ينبو عنه نظم القرآن الكريم .

فرأينا أن نطلع على هـذا التعليق ثم نبين ما فيه مما يخالف الدين ليتبين الأمر للعالم الاسلامى ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة . ولقد كان اهتمامنا بهذا

الموضوع عظيما فإنه من أوجب الواجبات ، ضرورة أنه متعلق بالقرآن الذى هو أصل الشريعة الاسلامية ، بل هو ملاك الشرائع كلها والأديان السماوية جميعها كما قال تعالى : (مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) .

وقبل أن نورد ما لاحظناه على هذا التعليق نذكر مقدمة يسايرها العقل ويؤيدها السمع لتكون كأساس لما يرد بعدها من الملاحظات .

المقدمة

فيما يجب أن يراعيه من يتصدى لتفسير القرآن الكريم وبيان ما فيه من حكم وأحكام وغيرها .

كل من يتعرض لتفسير الكتاب العزيز فعليه أن يلاحظ ما يأتى :

١ — اللغة العربية : مفرداتها ومركباتها وأساليبها وما اشتملت عليه من عموم وخصوص، وإطلاق وتقييد، وإجمال وبيان، واشتراك وترادف، وحقيقة ومجاز وكناية ، وما يتعلق بكل هذه الأنواع من الأحكام الثابتة بالأدلة الصحيحة : كحمل المطلق على المقيد ، وتخصيص العام ، وحمل المشترك على جميع معانيه أو بعضها عند القرينة ، وحمل الظاهر على ما يفيده إلا لدليل يقتضى تأويله ، وحمل اللفظ على حقيقته إلا لصارف يصرفه عنها .

وكما تجب مراعاة ذلك تجب أيضا مراعاة ما تقتضيه متانة الأسلوب وجزالة المعنى بحيث يكون النظم الكريم مرتبطا بعضه ببعض متجاوب الأطراف .

وعلى العموم تجب مراعاة ما تمس الحاجة اليه من علوم اللغة العربية على اختلافها : كعلم متن اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة وغيرها مما يتوقف عليه فهم المعنى فهما ينتظم مع ما للقرآن من علو الأسلوب ومتانة التركيب ، وكونه قانونا سماويا يرجع اليه فى الاعتقاد والعمل ؛ والدليل على ذلك أن القرآن نزل بلغة العرب (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا

عَرَبِيا) (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وهو أيضا معجز للخلق عن معارضته والإتيان بمثله (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ) الآية (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) وإعجازه على التحقيق بلفظه ومعناه ، فهو فى أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة .

اتضح من هذا أن القرآن نزل بلغة العرب وأنه فى أعلى طبقات الفصاحة والبلاغة ، فيجب أن يراعى فى تفسيره ما يتناسب مع ذلك مما عهد فى أساليب العرب ، وما عليه أوضاع اللغة العربية واستعمالاتها على التفصيل المدون فى علوم اللغة كما قدمناه .

٢ — أسباب النزول من الوقائع والحوادث التاريخية التى نزل فيها القرآن ، فإنه ليس من المعقول أن تكون الآية قد نزلت فى حادثة معينة ثم تفسر بما ينبو عن هذه الحادثة ، فإن هذا لا يليق بكلام العقلاء فضلا عن كلام رب العزة الذى هو أصح كلام وأعلاه ، وليس مثل ذلك إلا مثل من يسأل عن أمر فيجيب بما ليس له أدنى صلة بالسؤال ، ومثله لا يعهد إلا فى كلام غير العقلاء .

ولسنا نعنى من مراعاة أسباب النزول تقييد القرآن بها وقصره عليها ، وإنما نعنى أن سبب النزول يجب أن يكون من متناول اللفظ ، ولا نعنى كل سبب قيل مهما كان سنده ، وإنما نعنى الأسباب الثابتة بالأسانيد الصحيحة .

٣ — مراعاة العقائد الثابتة بالأدلة القاطعة ، فان أول ما يدعو اليه القرآن إنما هو التوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فيستحيل أن يكون

فى القرآن ما ينفى شيئا من ذلك ويناقضه ، فاذا ورد فى القرآن ما ظاهره نقض عقيدة معلومة وجب صرفه عن ظاهره جمعا بين الدليلين كما هو المعقول والموافق لقوله تعالى فى وصف القرآن : (لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) .

لذلك وجب تأويل المتشابه فى القرآن بصرفه عن ظاهره مع تعيين المعنى المراد أو عدم تعيينه على اختلاف الرأيين للسلف والخلف أخذا من قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ) الخ .

٤ — مراعاة السنة النبوية من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله تعالى ، وتجب طاعته فيما يأمر به أو ينهى عنه (وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا) (مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ) ولا يعقل أن يأتى الرسول بما يتناقض مع الكتاب العزيز . وعلى الجملة فالسنة النبوية على اختلاف أنواعها مبينة للكتاب العزيز (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) .

لهذا تجب مراعاتها فى بيان معناه ، والشواهد على ذلك كثيرة : فالصلاة لم تعلم كيفيتها إلا بقوله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » والحج احتاج فى بيانه الى فعل النبى صلى الله عليه وسلم ، واليه الإشارة بقوله عليه السلام : « خذوا عنى مناسككم » والزكاة احتاجت فى بيان مقدارها وتفصيل أحكامها الى ذلك .

يتضح من ذلك أن مراعاة هذه الأمور فى تفسير القرآن الكريم ليس من تحكيم الأوضاع والاصطلاحات فى القرآن أو إخراجه عن وصفه وجعله موافقا لآراء قوم مخصوصين لم ينزل الله بهامن سلطان مع أن القرآن فوق هذه الآراء والمصطلحات كما يقوله هذا الكاتب فى مقدمة تعليقه إذ يقول : « وقد جعلوا (المفسرون) الاصطلاحات والمذاهب الفقهية والكلامية أصولا حكموها فى القرآن وأنزلوه عليها

حتى صار ميدانا للجدل وأصبح غير صالح للحياة بما حملوه من الأثقال ؛ وقد تغيرت معانى القرآن أيضا وتبدلت مقاصده باعتماد المفسرين على بعض كتب اللغة التى تفسر الألفاظ بلازمها وتقصرها على بعض معانيها » .

وإنما ذلك رجوع للغة العربية التى نزل بها القرآن إذ لا يعقل أن يفسر كلام متكلم بغير لغته ، فاذا فسر اللفظ بلازم معناه فهذا إنما يكون لقرينة عليه ، واللغة لا تمنعه ، بل توجبه متى لم يصلح المعنى الحقيقى ، والمفسرون لا يحتجون لهذا إلا فى مقام يقتضيه . ورد لما يقتضيه قانون التخاطب من ارتباط المنزل بالحوادث والوقائع التى نزل فيها ، كما فى مراعاة أسباب النزول . وصون للقرآن من التناقض المنفى عنه بنفس القرآن ، كما فى مراعاة العقائد . وتصديق للقرآن الذى يخبر بأن السنة مبينة له وبأن الرسول واجب الطاعة على الأمة ، كما فى مراعاة السنة النبوية .

هذا ، وإن نظرة بسيطة فى القوانين الوضعية واللوائح ، وما يوضع لها من مذكرات تفسيرية تبين أغراضها ومراميها ، وشروح تحدد مقصود الواضع ويرجع اليها القضاء فى تطبيق الحوادث المعينة — من ألقى أقل نظر على ذلك أمكنه أن يحكم بأنه لا يصح تفسير القرآن مع إغفال اللغة العربية أو أسباب نزوله ، أو السنة النبوية التى يعلم صاحبها عليه الصلاة والسلام من القرآن ما لا يعلمه أحد سواه من الأمة .

نعم كان المتصدون لتفسير القرآن الكريم فى الصدر الأول : كحبر الأمة عبد الله ابن عباس فى غنية عن هذه العلوم المدونة ، لأنهم كانوا عربا بطبعهم وسليقتهم ، عالمين باللغة : مفرداتها ومركباتها وأساليبها ، وما يتوقف عليه فهم الكتاب العزيز من هذه الناحية ؛ ومع ذلك كانوا يستعينون بأساليب من تقدمهم .

ومن جهة أخرى — كانوا عالمين بأسباب نزول القرآن ، بل ربما شاهدوها ، وعالمين بالله تعالى وما يجب له ولأنبيائه ورسله ، وما يستحيل عليهم ، الى غير ذلك .

وكما أنهم يعلمون ذلك يعلمون أيضا السنة النبوية على تفاصيلها ، بل هم رواتها وحملتها .

وعلى الجملة فعلوم القرآن حاضرة لديهم وعنهم أخذت ، لذلك لم يكن هناك تدوين لهذه الفنون ، ولا حاجة الى مراجعة المدونات . اذا تمهد هذا فنقول :

الكلام مع هذ الكاتب يتلخص فى ثلاثة مباحث :

١ — فيما جاء بمقدمته .

٢ — فيما يتصل بالعقائد — كالمعجزات والسمعيات كالملائكة والجن والشياطين .

٣ — فيما يتصل بالفروع الفقهية .

الكلام فى المقدمة

(أولا) قال فى ص (١) من المقدمة تحت عنوان (حاجة الناس الى الدين) : « والناس من غير الدين لا يمكنهم أن يحددوا المصالح ولو أمكنهم فانهم يحتاجون الى زمن طويل ولا يتفقون عليها بعد ذلك لما لهم من الشهوات والأغراض ، فالدين يوفر عليهم الوقت فى تحديد المصالح ويوفق بينهم فيها ويحملهم على العمل بها » .

ثم يقول فى ص ٢١٨ سورة النور — فى قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) الآية ٦٣ : « (عن أمره) يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى » .

انظر الى ما يقوله أولا وآخرا تعرف ما بين كلاميه من التناقض ، فإنه يقرر أولا أن الناس من دون الدين لا يمكنهم تحديد المصالح التى يجب عليهم العمل على ما يحصلها ، وأن الدين هو الذى يحدد لهم ذلك ؛ وليس الدين شيئا وراء التشريع الإلهى الذى جاء به الرسول عليه السلام من عند الله تعالى من الأحكام المأخوذة من قرآن يتلى أو قول

أو فعل للرسول عليه السلام الذى لا ينطق عن الهوى ولا يقول إلا عن وحى إلهى (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ).

ولا شك أن هذا صريح فى أن ما يراه الناس من المصالح مخالفين فيه للرسول عليه السلام لا قيمة له بجانب ماجاء به الرسول، لأن نظرهم مهما بعد فهو قريب، ومهما طال فهو قصير، نظراً لاختلاف مشاربهم ومنازعهم، وتغلب الشهوات عليهم كما يقول. ولا شك أن النتيجة المنطقية لذلك أن قول الرسول عليه السلام فوق الأقوال، وأمره فوق الآراء.

وإذاً فلا تجوز مخالفته والخروج عن أمره عليه السلام مهما كانت المخالفة، سواء أكانت عناداً وإعراضا، أم كانت لما يراه المخالف مصلحة، لأن الناس قاصرون لا يمكنهم الوصول الى تشريع ثابت. ولا شك أن هذا مناقض مناقضة صريحة لما قاله فى الآية الآتية، فقد قرر جواز مخالفة أمر الرسول للمصلحة أخيرا ونفى ذلك أولا، وهو تناقض. ومن جهة أخرى كأنه يقول: الدين وحده هو القانون الذى يرجع اليه — الدين وحده ليس هو القانون الذى يرجع اليه. ولا شك فيما بينهما من التنافى فضلا عما يترتب عليه من الحط من شأن الرسول عليه السلام والتقدم عليه، والله تعالى يقول: (لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) وسيأتى لهذا مزيد بحث بعد.

(ثانيا) قال فى ص (ز) من المقدمة تحت عنوان (اختلاف الأفهام فى القرآن لا يدعو الى الشقاق والتفرق): « والواجب أن يفهم المسلمون أن القرآن شائع مشترك بين الناس، وأن من آياته الدالة على أنه من عند الله اتساعه للأفهام وتحمله لاختلاف الآراء والأفكار فى كل زمن، وهذا معنى أنه متشابه، أى أنه من تعدد المعنى يتشابه ويختلف على الناظرين، ولا يضر الناس اختلافهم فى المعانى والأفهام

ما داموا يرجعون الى المحكمات من الأصول والأمهات أى يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات » .

ثم قال فى ص (ح) من المقدمة أيضا تحت عنوان (الواجب الختامى) : « والواجب أن كل إنسان يعمل فى خاصة نفسه بما يفهم ويقتنع به ولا يكون تابعا لأحد بغير برهان » انتهت عبارته ؛ ونحن نقول :

١ — هذه دعوة الى الاجتهاد تفتح الباب على مصراعيه ، وفى ذلك من الفساد ما لا يخفى ، واسنا نرى أن الاجتهاد مستحيل أو مقصور على زمن دون آخر ، فإنه فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ولكنا ممن يتوسط فى الأمر مجانبا حد الإفراط والتفريط غير غال ولا متعصب. إن الاجتهاد هو بذل الوسع فى استنباط الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأساسه أن يكون المرء محرزا لقسط مناسب من علوم اللغة والسنة النبوية رواية ودراية ، عالما بالجرح والتعديل وطرق الترجيح وأسباب نزول القرآن والناسخ والمنسوخ ، وما الى ذلك : كإجماع المسلمين — هذا عدا الورع والتقوى وصفاء القريحة والاحتياط فى الدين .

ولقد كان لنا فى سيرة الأئمة المجتهدين وشدة خوفهم من الله تعالى أن يقولوا فى الدين بغير علم أو يفتحوا بابا للفساد أكبرُ دليل وأعظم عبرة . عرض على بعضهم أن يقول بخلق القرآن ، وما كان عليه من بأس فى العقيدة لو قال ذلك وعنى به اللفظ الذى تقرؤه ألسنتنا ويدل عليه كتْبنا ونقشنا ، إلا أنه لما كان لفظ القرآن مشتركا بين الكلام النفسى القائم بذاته تعالى المنزه عن الخلق والإيجاد وبين الألفاظ المقروءة وهى حادثة ، خشى من القول بخلق القرآن أن يتسرب الى الذهن بتطاول الزمن أنه عنى بالقرآن المخلوق صفتَه تعالى القائمة بذاته ، فيلزم من ذلك القول بقيام الحوادث بذاته

تعالى وهو محال . ساقتهم شدة الحذر والخوف على عقائد الناس الى أن يتحملوا أنواعا من الإهانة والتعذيب ، والتاريخ أكبر شاهد .

كان لهم من العلم بالقرآن والحديث ونقده ما يشهد لهم بغزارة المادة وحدة الذهن وجودة الرأى وإحكام النظر ، ومن الورع فى الدين ما يعجز عنه اللسان ويقصر دونه البيان . وليس هذا الذى يدعو اليه الكاتب بجديد ، فقديما سبقه الى هذه الدعوة أناس كنا ولا نزال نجلهم أن يقصدوا بها من ليس أهلا ، بيد أن الدعوة الى الأمور الخطيرة — ما لم تحط بسياج يحول بينها وبين الأدعياء — لا تحمد مغبتها ، ويكون إثمها أكبر من نفعها . ولقد يكون من آثار هذه الدعوة اجتهاد هذا الكاتب الذى أفضى به الى القول بحل الربا الذى تقرره الأمة وترى أنه معتدل ، والقول بحرمة الاستمتاع بملك اليمين ، والى إنكار الإسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى (مسجد بيت المقدس) وإنكار بقية معجزات الأنبياء والرسل ، والى تأويل القرآن تأويلا لا يتفق هو واللغة التى نزل بها كتأويل ضرب الحجر بالعصا فى قوله تعالى لموسى عليه السلام : (أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ) بالسير الى منابع الماء ، وفرق البحر بالاهتداء الى الطريق اليابس ، والنملة بالقبيلة ، والسحرة بعلماء السوء ، وغير ذلك مما سنذكر بعد .

٢ — يقرر أن الناس لا يضرهم اختلاف الآراء والأنظار ما داموا يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون الصالحات .

ولعمرى إنه ممن ينطبق عليه القول المشهور : «حفظت شيئا وغابت عنك أشياء» ! ألم يعلم أن الرأى اذا لم يكن مبنيا على أساس متين ولم يكن صاحبه فيه الأهلية ، ذا كفاية لما يريده من الاستنباط يكون إثمه أكبر من نفعه ، وقد يفضى به الى تحريم الحلال أو تحليل الحرام ونحو ذلك من المخالف لما أجمع عليه المسلمون وكان معلوما من الدين بالضرورة ؟! .

أليس الاجتهاد المفضى الى هذا منافيا للايمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات؟! اللهم إلا إذا كان له رأى فى الايمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات غير ما يعرفه المسلمون ! .

ويظهر أنه يرى أن مجرد النظر كاف فى الوصول الى الاعتقادات والعمليات ، وأن كل إنسان مكلف بأن يعتقد ويعمل بما يؤدى اليه نظره ، سواء أكان النظر قاصرا أم غير قاصر ، تصادم مع عقيدة ثابتة أو حكم مقرر أم لم يتصادم ؛ وهذا الذى قلناه هو ما تعطيه عبارته .

يدعى أنه يفسر القرآن بالقرآن ، فماذا يقول فى قوله تعالى (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وفى قوله تعالى : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) ؟ !

أليس من افتراء الكذب على الله واتباع ما ليس للمرء به علم أن يقول من ليس ذا كفاية فى الدين برأيه ؟ ! .

أليس ذلك من تحكيم العقل القاصر فى شرع الله تعالى ودينه الذى لا يصل الى حكمه وأسراره إلا من اختصه الله برحمته وآتاه من الحكمة ما لم يؤت غيره ؟ ! .

أليس من الفساد الكبير والجرم العظيم أن يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه حتى يدعيه من هو فى حاجة الى تعلم أبسط المبادئ فضلا عن مقاصد العلوم ودقائقها ، فيقول لما يصف لسانه الكذب : هذا حلال وهذا حرام ، ليفترى على الله الكذب ؟ ! سبحانك هذا بهتان عظيم ! .

وليس بغريب أن يكون هذا ، فإن لكل شئ هرما وشبابا ؛ ويظهر أنه قد حان الوقت الذى تنبأ به بعض الصحابة أو علمه من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد روى

أن عمر رضى الله عنه قال : كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة ؟ فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فاذا كان لهم فيه رأى اختلفوا ، فاذا اختلفوا اقتتلوا . قال : فزجره عمر وانتهره ، فانصرف ابن عباس ونظر عمر فيما قال فعرفه ، فأرسل اليه فقال : أعد علىّ ماقلت ، فأعاده عليه فعرف عمر قوله وأعجبه . وقد روى أن عمر رضى الله عنه استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر فقال : إن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر : من يشهد على ما تقول ؟ قال الجارود : أبو هريرة يشهد على ما أقول ، وذكر الحديث ، فقال عمر : يا قدامة إنى جالدك ! قال : والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدنى ! قال عمر : ولم ؟ قال : لأن الله يقول : (لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا ٱتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ) الآية ، فقال عمر : أنت أخطأت التأويل يا قدامة ، اذا اتقيت الله اجتنبت ما حرمه الله .

انظر الى هذه القصة تعلم أنه لا يجتمع تقوى الله تعالى مع فعل المحرمات ، فكيف يتأتى الإيمان بالله واليوم الآخر وعمل الصالحات مع القول فى القرآن بالرأى من غير مستند صحيح ! .

إن هذه إلا دعاية الى الفوضى فى الدين ومسايرة الهوى باسم الشرع الشريف .

المبحث الثانى فيما يتصل بالعقائد

وفيه ثلاث مسائل :

١ — فى وجوب طاعة الرسول عليه السلام وعدم جواز مخالفة أمره أو نهيه .

٢ — فى معجزات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام .

٣ — فى الملائكة والجن والشياطين .

١ — وجوب طاعة الرسول عليه السلام وعدم جواز مخالفته فيما يأمر به أو ينهى عنه

فى ص ٢٨١ آية ٦٣ قال تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) الآية .

يقول ذلك المحرف فى تفسير قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) ما نصه : « يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون للإعراض عن أمره وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى » اه .

فهو إذاً يجاهر فى تبجح بأن مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم جائزة للمصلحة ! ونحن إزاء هذا النوع الجديد من التطرف والمكابرة نأسف على أن تصل القحة ببعض من يحسبون أنفسهم على الاسلام الى هذا الحد من معارضة الآيات الصريحة ، وإلا فكيف يفهم هذا الانسان قوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) وقوله تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وقوله : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وقوله : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

أليست هذه آيات تدل فى صراحة لا تخفى على الأغبياء فضلا عمن يزعمون الفطنة على أن طاعة الرسول واجبة فى كل ما يأمر به وينهى عنه ؟ ! وعلى أنه صلى الله عليه وسلم هوا الحكم الذى يرجع اليه فى كل خلاف ولا يجوز الخروج على أقواله وأفعاله بحال من الأحوال ؟ !

نستطيع أن نتنزل الى فهمه ونجاريه على سبيل الافتراض ، ثم ننظر هل يصل بنا الى نتيجة ؟ ؟ ونحسبه على هـذا يعتبر كلمة (عن) غير صلة زائدة كما يقول المفسرون ، وأن الحـذر من المخالفة بمعنى الإعراض حتى يكون المعنى بعـد ذلك : فليحذر الذين يعرضون عن أمره ، ويكون المفهوم للآية أن المخالفة من غير إعراض جائزة ، كما تشبث هو بذلك التأويل وفرضه لزاما .

وهنا نعلمه من جديد أن الآيات التى سردناها صريحة المنطوق فى وجوب الطاعة على وجه الإطلاق ؛ ودلالة المنطوق مقدمة على دلالة المفهوم ، ولا يكون المفهوم مقيدا للمنطوق إلا اذا كان معتبرا ، واعتبار المفهوم له شروط : منها ألا يكون المنطوق واردا على سبب خاص كما هنا . تقضى بذلك قواعد العلم ويعرفها من تعلم ، فليس له بعد ذلك أن يركن الى ما ركن اليه من الأخذ بالمفهوم والقرآن مملوء بالآيات التى يؤخذ بمنطوقها ولا يجـوز الأخذ بمفهومها ؛ ومن ذلك تحريم الربيبة (بنت الزوجة) على زوج أمها فى قوله تعالى : (وَرَبَآئِبُكُمُ ٱللَّاتِى فِى حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَآئِكُمُ) .

وربما يفهم هذا المفسر وأمثاله أن الربيبة لا تحرم اذا كانت بعيـدة عن كفالة زوج أمها ، كما يفهم من الآية ، مع أن الحكم الشرعى أنها حرام مطلقا ، والمفهوم معطل إلا على مذهب ذلك المجدد وعند الإباحيين ، ومن ذلك قوله تعالى : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) فإن الإكراه على البغاء حرام مطلقا ولو لم يردن التحصن ؛ ولكن الآية وردت على سبب خاص وفيها حكم أخرى .

والخلاصة أن دلالة المفهوم ضعيفة بالنسبة لدلالة المنطوق ؛ وفى اعتبارها خلاف بين الأئمة ؛ ومن اعتبرها فقد شرط لاعتبارها شروطا خاصة لم تتحقق هنا ، فلا يصح الركون اليها وترك صريح الآيات من غير دليل — خصوصا أن القول بجواز مخالفة الرسول

للمصحة قد يفضى الى نبذ جميع أحكام الشرع الشريف بحجة أن المصلحة فى العمل بغيرها .

وكثيرا ما نسمع من يدعو الى نبذ هـذا الدين (حاشا لله) باعتباره دينا يتناسب مع زمن مضى وأصبح لا يتمشى مع هذا العصر .

وأما الشورى التى يدعو اليها الدين فذلك مما لا ننازع فيه ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستشير الصحابة فيما لم ينزل فيه وحى ، وكانوا يقولون له : أذلك عن وحى أم هو الرأى والمصلحة ؟ فإن كان عن وحى لم يسعهم إلا التسليم والامتثال ، وإن لم يكن عن وحى أبدوا رأيهم كما فى غزوة بدر ، فالمسألة إنما هى إبداء رأى أذن فيه رسـول الله صلى الله عليه وسلم لا مخالفة أمر . فكيف يصح الاستناد الى الشورى التى أكثر ما فيها أن تـكون مخالفة رأى الرسول عليه السلام لا أمره ؛ إن هذه إلا دسيسة خفية يراد به تغيير الأحكام الشرعية والانتقاض عليها باسم الدين .

أما الآن والأحكام الشرعية مقررة فلا محل للرأى فيها ، اللهم إلا فى تطبيق حكم حادثة منصوصـة على أخرى لم ينص عليها ، أو فى رد بعض الحـوادث الى عمومات الكتاب أو السنة ، فقد اشتبه على الـكاتب الفرق بين الأمر والرأى مع بعد ما بينهما ، ففى الأمر معنى الجزم والتحتيم ، وفى الرأى معنى الاختيار والحرية فيما يبديه كل من أصحاب المشورة . وإن نظرة الى وظيفة الرسول عليه السلام — وهى هداية الأمة الى ما فيه رشدها وصلاحها — لـكفيلة بإعلامنا بأن كل أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام ونواهيه فيها المصلحة وإن خفيت على بعض الناس .

فكل مخالفة لأمره هي إعراض عنه ، لأنه لا يأمر إلا بالخير ولا يهدى إلا للطريق الأقوم .

ومن المضحك أن هذا الـكاتب ناقض نفسه بنفسه حيث كتب فى صـفحة ٦٩ آية ٦٥ من سورة النساء ما نصه :

« يفيدك أن مقتضى الاسلام لله تحكيم دين الله والرضا بقضاء رسول الله فكل من ينتسب الى الدين ولا يخضع لحكمه لا يكون انتسابه إلا رياء ونفاقا » .

فهل ترى بعد ذلك اضطرابا فى الرأى وحيرة فى العقيدة ؟ ! حسبنا منه أنه شهد على نفسه ، وإنما ننصح له بأحد أمرين : إما أن يستغفر الله تعالى ويتوب من هذا النفاق والرياء اللذين أقر بهما على نفسه ، فيكون منتسبا للاسلام بحق ، وإما أن يدع المراوغة والتشكل بأشكال المشعوذين ويسلك فى الزندقة سبيلا ، ويدع الناس فى مأمن من تلبيسه عليهم دينهم ولكن (مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) .

٢ — فى المعجزات

سلك هذا الكاتب فى معجزات الأنبياء وما أيدوا به من خوارق العادات مسلكا غريبا أفضى به الى إنكارها ، بل لقد صرح بذلك حيث يقول فى صفحة ٢٩٠ آية ٦٢ — ٦٣ من سورة الشعراء ما نصه : « واعلم أن آيات الله فى نصر أنبيائه لا تناقض سنته فى خلقه وكونه . اقرأ أواخر فاطر الخ » ويقول فى صفحة ٢٩٧ سورة النمل آية ١٣ ما نصه : « وقد كانت كل آياتهم حججا وبراهين من سيرتهم ورسالتهم فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها لتكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها » وسيأتى نقل كثير من عباراته فى تأويل المعجزات .

وأنت اذا تتبعت كلامه فيها تراه مرة يفسرها بقوة الحجة وظهور البرهان حيث يقول فى قوله تعالى : (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ) صفحة ١٢٦ سورة الاعراف آية ١٠٧ — ١٠٨ ما نصه : « مثال من قوة حجته وظهور برهانه » .

وتارة بإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته الى خفة العلم ونوره حيث يقول فى صفحة ٤٥ آية ٤٩ سورة آل عمران قوله تعالى : (أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) ما نصه : « (كهيئة الطير) تفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته الى خفة العلم ونوره » .

وتارة بتكميل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية حيث يقـول فى الآية نفسها ما نصه : « (الأكمه) من ليس عنده نظر. (الأبرص) المتلون بما يشوه الفطرة ، فهل عيسى يبرئ هـذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطبية أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية » ؟ انتهت عبارته .

وقد أراد المعنى الثانى (وهو تكميل التـكوين الروحى بالهداية الدينية) بدليـل تصريحه بهامش صفحة ٩٧ من سـورة المائدة آية ١٠٩ حيث يقول بعـد إحالات كما هى عادته : «من هذا تعرف أن عيسى نبى أرسله الله الى بنى اسرائيل ليشفى مرض نفوسهم ويحيى موت قلوبهم فآيته فى دعوته وسيرته وهدايته » .

وتارة يجعلها أمرا عاديا لا هو من ناحية قوة الحجة كما فى القسم الأول ، ولا من ناحية إخراج الناس الى خفة العلم ونوره أو تكميل روحهم بالهداية الدينية كما فى القسمين : الثانى والثالث ، وذلك فى عدة مواضع .

أولا — فى معجزات سيدنا عيسى عليه السلام

يقول فى صفحة ٤٥ آية ٤٩ سورة آل عمران قوله تعالى : (وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) ما نصــه :« (فى بيوتـكم) يعلمهم التدبير المنزلى » اه .

فانظر الى حضرة المفسر تر أنه جعل تعليم عيسى عليه السلام لأمته التدبير المنزلى

آية على نبوته كما قال تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ) فهل يصلح ذلك النوع من التعليم أن يكون دليلا على دعوى النبوة أو الرسالة ؟ : .

إذاً يحق لمعلمات المدارس الأولية اللاتى يباشرن هذه المهنة أن يدعين النبوة ، لأنه قد وجد لديهن دليلها الذى نصبه الله تعالى آية على نبوة عيسى عليه السلام : أم أن التدبير المنزلى الذى كان يعلمه عيسى عليه السلام غير ما فى المدارس الأولية ؟ !

وقد يقال : إن غرض المؤلف التدبير المنزلى الراق ، لا المقدار الذى يؤخذ فى المدارس الأولية ، فنقول : لو صح هذا النوع أن يكون دليلا على النبوة لكان الأولى منه فى الدلالة عليها العلوم الحديثة التى أوصلت الى اختراع الطيارات الهوائية والمائية والآلات الجهنمية وما الى ذلك مما أدهش العالم .

ثم كان الأولى بعارفى هذه العلوم أن يكونوا فى مقدمة الأنبياء والرسل ، وكان المنطق أن يقرر المؤلف ذلك ويعلن اعتقاده ، لأن تفسيره يتمشى مع العصر والسنن الكونية كما يفيده كلامه : .

ثانيا — معجزة سيدنا موسى عليه السلام :

قال فى صفحة ١٣١ آية ١٦٠ من سورة الأعراف قوله تعالى : (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا) ما نصه : « ويصح أن يكون الحجر اسم مكان ، واضرب بعصاك الحجر معناه : اطرقه واذهب اليه ، والغرض أن الله هداه الى محل الماء وعيونه » .

قد خالف فى تفسير هذه الآية اللغة التى نزل بها القرآن ، فإنه لم ينقل عن أحد من أهل اللغة أن الحجر اسم مكان أمر موسى بالتوجه اليه ، كما لا تستعمل اللغة

ضرب الحجر بالعصا فى السير فى الأرض ، واذا كان الضرب فى الأرض بمعنى السير فيها والسفر كما فى قوله تعالى : (وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَاةِ) فأين هذا من ضرب الحجر بالعصا ؟ ! ومن الغريب أنه يستدل على هذا المعنى بقوله تعالى فى سورة الشعراء : (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ) بناء على ما فهمه فيها من أن ضرب البحر بالعصا عبارة عن السير فى الأرض مع أنه مخطئ فى هذا الفهم أيضا ، فقد استدل بخطأ على خطأ ، ثم اذا كانت العصا (عصا سيدنا موسى) فى رأيه هى الحجة كما تقدم ، فكيف ينتظم المعنى الذى ذكره هنا ؛ أم عصا موسى فى نظره كانت متعددة فعصا يسير بها فى الأرض وأخرى يحتج بها على سحرة فرعون ؟ ! وهل انبجاس العيون وانفجارها الذى أخبر به القرآن الكريم تستعمله اللغة فى الاهتداء اليها ؟ ! .

الحق أنه أبعد فى هذا التأويل وأتى بمعنى لا يصح أن يراد من اللفظ لا من جهة الحقيقة ولا من جهة المجاز ولا يقبله إلا عقول أمثاله .

ثم قال فى صفحة ٢٩٠ آية ٦٢ ، ٦٣ من سورة الشعراء وهى قوله تعالى : (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ) ما نصه : « البحر الماء الواسع (اضرب بعصاك البحر) اطرقه واذهب اليه (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) هذا بيان لحالة البحر يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة راجع ١٦٠ فى الاعراف ثم راجع طه فى ٧٧ ، ٧٨ لتعرف كيف اهتدى الى طريق يبس مرئية واقرأ استعمال الضرب فى السير فى قصة أيوب فى ص » الى آخر الإحالات التى تعودها . ونحن نقول هذا المعنى الذى ذهب اليه لا تقره اللغة ولا يقبله النظر ، وأين قوله تعالى : (فكان كل فرق كالطود العظيم) ؟ !

وهل يعقل أن يكون فى البحر طريق يبس طبعى على جانبيه الماء فى غاية الارتفاع كالجبل العظيم، أم هى القدرة الالهية شقت لموسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين طريقا فى البحر حتى جاوزه بسلام ؟ ! واذا كان موسى قد اهتدى الى طريق يبس ثم أتبعه فرعون وجنوده كما قال تعالى فى سورة يونس : (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فكيف غرق ومكان العبور ليس فيه ماء ! أم يرى أن الماء طغى بقدرة الله تعالى على الطريق اليبس حتى غرق فرعون ؟ اذا كان كذلك فهذا أمر مخالف للسنن الكونية ، فكيف يقرر أن المعجزة لا تخالفها ؟ ! أم يرى أن فرعون عبر البحر من المكان المغمور بالماء ابتداء فغرق ؟ وهل نظم الآية يساعد على هذا ؟ (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ) يقال جاوزنا فأتبعهم بدون أن يكون الإتباع فى طريق عبورهم .

وهل كان فرعون إذ ذاك فاقد الشعور حتى يلقى بنفسه فى البحر ؟ ! ألم يكن معه من يرشده الى الطريق اليبس حيث البحر ذو مناطق بعضها يبس وبعضها مغمور بالماء وهو فرعون الذى ادعى الألوهية من دون الله وعنده من الأعوان والمرشدين ما يفوق الحصر .

لا لا — هناك معنى يناسب مبدأ الكاتب ومراعاة الشئون العصرية فى تفسير القرآن الكريم ، وهو أن فرعون خرج ومن معه فى طلب موسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين ، فلما وصلوا الى البحر ويئسوا من إدراكهم آثروا الانتحار على الحياة فألقوا بنفسهم فى البحر فغرقوا ، فكان عليه أن يقرره .

ثالثا — معجزة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

قال فى صفحة ٢٥٦ آية ٦٩ — ٧١ قوله تعالى : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً

عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) الخ ما نصه : « معناه نجاه من الوقوع فيها . راجع ٦٤ فى المائدة و ٢٦ فى النحل وترى فى الآية وباقى القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم » .

وإنا ننقل اليك ما أحال عليه فى هذه الآية لتكون على بينة من مقدار استنتاجه ، وأنه إنما يسلك مسلك التضليل والإيهام :

آية ٦٤ فى المائدة هى قوله تعالى : (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ) . وآية ٢٦ فى النحل هى قوله تعالى : (قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) .

أما الآية الأولى فليس فيها استعمال كون النار بردا وسلاما فى النجاة من الوقوع فيها حتى يكون ذلك الاستعمال دليلا على ما أراده فى آية إبراهيم عليه السلام ، إنما فيها (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ) ، وهذا كناية عن عدم تمكينهم من إمضاء ما عزموا عليه من الحرب ، بدليل أن الحرب لا يوقد لها نار ؛ فأين هذا من الآية التى نحن بصددها ؟ ! .

وأما الآية الثانية فليس فيها أدنى صلة بآية إبراهيم عليه السلام ، وإنما هى إخبار عن نوع من العذاب أوقعه الله تعالى ببعض المكذبين ، ويحتمل أن تكون تمثيلا لخذلان الله تعالى أعداء الأنبياء وعدم تمكينهم منهم ؛ وأيا ما كان لا تصلح دليلا لما زعمه ، إذ لا يلزم من كون بعض الآيات تمثيلا أن يكون غيره كذلك ، فالقرآن فيه التمثيل والصريح .

ثم كيف نجاه الله من الوقوع فيها وأعداؤه من العدد والقوة بحيث لايفلت منهم إبراهيم عليه السلام، وكانوا حريصين كل الحرص على إهلاكه ؟ ! ومن أين للكاتب أن الهجرة التى حكاها الله تعالى بقوله : (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) كانت سببا لنجاته من الوقوع فى النار ؟ ! ولم لا تكون النجاة بهذه الهجرة من كيد آخر غير إحراقه بالنار كما هو شأن العدو يكيد لعدوه فاذا فشل فى أمر دبر له آخر وهكذا ؟ ثم نسائله :

أإقدار الله لإبراهيم على الهرب والاختفاء قبل أن يحين وقت إلقائه فى النار أدخل فى كمال القدرة الإلهية وأنكى للأعداء أم جعل النار عليه بردا وسلاما بعد إلقائه فيها ؟

نريد أن نقول : نطق القرآن الكريم بقوله تعالى : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ) أفيكون حينئذ حمله على ظاهره أدل على تمام القدرة الإلهية وصدق سيدنا إبراهيم عليه السلام فيما يدعو اليه أم تأويله بما ذهب اليه الكاتب ؟ ! إن هذا إلا افتراء !

على أن المسئله لاتحتاج الى كثير رد فإنا نوافقه على تفسير القرآن بالقرآن فيما يصح فيه ذلك ، ونذكر لك نص الآيات لتعلم من أسلوبها كيف ينتظم المعنى ، وما الذى يصح أن يفهم منها : قال تعالى : (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . قَالُوا حَرِّقُوهُ وَٱنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ) .

انظر الى صدر الآية تعلم أنهم عزموا على إحراقه بالنار ، فالمناسب لذلك أن يكون قوله تعالى : (قُلْنَا يَا نَارُ) الخ على ظاهره ، لأنه أنكى لهم ورد لكيدهم كما قدمناه

وأما قوله تعالى : (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا) الخ فهو فى نجاة من كيد آخر دبروه له كما قدمناه ، فهو انتقال من نعمة الى نعمة أخرى .

ألا ترى الى قوله تعالى : (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً) الآية وبعدها (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) .

رابعا — فى معجزة سيدنا داود عليه السلام :

قال فى صفحة ٢٥٧ آية ٧٩ من سورة الانبياء قوله تعالى : (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) ما نصه : « (يسبحن) يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التى كان يسخرها داود فى صناعته الحربية » اه .

وإنا نسائله: فى أى لغة وضع التسبيح لإخراج المعادن ، وكيف كان ذلك؟ أبانشقاق الجبال عنها من غير عمل كما هو قضية التسخير ، أم أنه كان بعمل الحفارين والمعدنين ؟ ! فإن كان الأول كان أمرا مخالفا للسنة الكونية وهو لا يقره ؛ وإن كان الثانى فما وجه الامتنان فيه على داود مع أن إخراج المعادن من الأرض والجبال أمر هين ومألوف لسيدنا داود وغيره ، وهل يصلح أن يكون دليلا على النبوة كما يقتضيه سياق الآية حيث يقول تعالى : (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) .

خامسا — معجزة سيدنا سليمان عليه السلام :

قال فى صفحة ٢٥٧ آية ٨١ قوله تعالى : (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ) ما نصه :

« (تجرى بأمره) الآن تجرى بأمر الدول الأوربية وإشاراتها فى التلغرافات والتليفونات الهوائية اقرأ سبأ ٨٣ — ٨٦ اقرأ ص » اهـ.

أما الذى فى سبأ فهو قوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ) وأما الذى فى ص فهو قوله تعالى: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) وقال فى تفسير الآية الأولى: « (غدوها شهر) مدة سير المراكب الشراعية التى تنقل البضائع والذخائر وإنك لترى الآن الريح تغدو وتروح بالطيارات وبالمخابرات وصور المرئيات ».

يرى أن معجزات سليمان عليه السلام هى تسخير الريح له و إيجادها لتستخدم فى تسيير السفن الشراعية، فانظر أيها القارىء الكريم — هل تسخير الريح بهذا المعنى أمر خاص بسليمان عليه السلام ؟ ! أليس هذا كتسخير الشمس والقمر والليل والنهار وما الى ذلك لمنفعة الانسان ؟ ! وأيضا اذا صح أن يكون هذا آية على النبوة فكل الخلق حينئذ يصح أن يدعوها، بل الدول الأوربية ومخترعو الطيارات ونحوها يحق لهم أن يدعوا هذه الدعوى، لأن لديهم من الدليل عليها ما هو أقوى من دليل سليمان عليه السلام بناء على هذا الزعم.

وهل المفهوم لغة من تسخير الريح له تجرى بأمره حيث أراد ما ادعاه ؟ ! لا، بل المفهوم أن الريح تحت أمره وسلطانه يرسلها حيث يشاء ويأمرها بما يشاء فتأتمر ويتم له ما أراد بإذن الله تعالى.

ومن الأسف أنه لا يراعى المقام فيما يفهم — هل مقام الامتنان يقضى بالمعنى الظاهر من الآية أو يقضى بما ادعاه. ندع للقارىء الحكم؛ وقد سايرناه فيما زعم من أن الريح تجرى بأمر الدول الأوربية وفندنا ما ادعاه فى معجزة سيدنا سليمان عليه السلام. والآن نواجهه بالحقيقة، وهى أنه لا أمر للدول الأوربية على الريح، فكثيرا ما تهدم

أبنيتهم وتعطل سفنهم وطياراتهم وما إلى ذلك ، ولو كان لهم سلطان عليها ما وقع شيء من هـذا .

(ب) قال فى صفحة ٢٩٧ آية ١٦ و ١٧ و ١٨ و ١٩ من سورة النمل قوله تعالى : (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) ما نصـه : « (منطق الطير) كل من يربى الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقه وماذا يريد ويمكنهم أن يستعملوه فى الرسائل وغيرها » ثم قال : « (نملة) قبيلة من (النمل) قبائل الوادى » .

انظر الى هذا السخف الجديد ، فهل كان سليمان عليه السلام (دجاجا) مثلا يربى الطير ويعرف لغته كما يزعم هذا الـكاتب ؟ : وتأمل قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) تعلم أنه يناسبه أن يكون المعنى كما زعم الـكاتب ، أم أن الله تعـالى امتن عليه بمعرفة لغة الطير وماذا يريد من غير تربية ولا تأليف .

ثم انظر تفسيره للنملة بالقبيلة — من أى لغة أخذه مع أنه ينبو عنه النظم الـكريم ؟ : فإن قوله تعالى: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) صريح فى أن النمـلة هى الحيوان الصـغير المعروف ، بدليل قوله تعالى : (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) ويدل عليه أيضا قوله تعالى : حكاية عن سليمان عليه السلام : (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا) وقوله : (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) الخ .

حيث جعل النملة تهابه أيضا بأن خلق فيها إدراكا لسلطانه وقوته، وهل يقبل هذا ممن يرمى المفسرين بأنهم اتبعوا فى تفسيرهم كتب اللغة التى تفسر الألفاظ بلازمها : فاذا كان تفسير اللفظ بلازمه غير مقبول، فكيف يقبل هذا التفسير الذى لا مستند له أصلا :

والخلاصة أن من قرأ هذه الآيات الكريمة أمكنه الجزم لأول وهلة بأن ما جاء فيها أمور خارقة للعادة امتن الله بها على نبيه سليمان عليه السلام، وكذلك قوله تعالى : (وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) فى سورة ص : يدل على أنه ملك الجن والإنس والطير والريح، وأن الله تعالى قد جعل له سلطانا على كل هذه المخلوقات وأراه من خوارق العادات كثيرا .

(ج) قال فى صفحة ٢٩٨ و ٢٩٩ الآيات من ٣٨ — ٤٢ سورة النمل ما نصه : « (بعرشها) بملكها . يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول فى البلاد فطلب الخريطة التى فيها مملكة سبأ ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل . (عفريت من الجن) أحد القواد، ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج الى الذى عنده علم (من الكتاب) من الكتابة والرسم والتخطيط (قبل أن يرتد إليك طرفك) الغرض أنه يأتى به حالا ، وقد أتى به، ويحتمل أنه رسمه فى الحال أو كان عنده مرسوما . ولو كان عهدالفوتوغرافيا قديما لصح أن يكون ذلك الرسم بها، وترى أن سليمان يشكر الله على ما فى المملكة من العلماء العاملين فى كل فن، وتأخذ من القصة أن الله يعظم شأن العلم ويدعونا الى التمسك بالأسباب الكونية لتشييد الملك وإقامة الدولة (وأوتينا العلم) يؤيد لك أن المسألة علمية (مسلمين) منقادين لله، يعنى أنهم جمعوا بين العلم والتربية على الخلق العظيم، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة » انتهت عبارته .

ونحن نذكرلك هذه الآيات الكريمة التى كتب عليهاهنا ثم نبين لك خطأه فيما قال :

قال الله تعالى: (قَالَ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ) .

هذه هى الآيات الكريمة التى حشر فيها الكاتب ما شاء له التخريف والتشبث بأذيال الجديد الذى لا هو منه ولا من القديم فى شىء . ألق نظرة بسيطة عليها تعلم أنها حكاية حال واقعية امتن الله بها على نبيه سليمان عليه السلام ، فإنه قال: أيكم يأتينى بعرشها ، وهل هـذه تفيد إلا أنه أراد حضور عرشها لديه ولم يرد رسم خريطة تبين له أرض سبأ ومملكتها قبل أن يغزوها كما زعم الكاتب ؟ ! .

ثم هل العرش معناه المملكة أم معناه سرير الملك ؟ ثم انظر الى قوله تعالى : (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ) (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا) (فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ) تعلم أن هذه كلها وقائع حقيقية لا تمثيل كما يدعى .

ثم من أين له أن عفريت الجن أحد القواد ، وأنه ما كان يعلم أن المسألة علمية جغرافية مع أن الجن خلق آخر وراء الانسان لا هو من القواد ولا من المقودين كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى بحث الجن ؟ ! ومن قال إن الكتاب هنا هو الرسم والتخطيط ، مع أن الذى عنده علم من الكتاب قد ورد فى القرآن مثله وليس معناه ما يقوله ها هنا مع أنه يدعى أنه يفسر القرآن بالقرآن ؟ ! .

قال تعالى فى آخر سورة الرعد : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) فهل من عنده علم الكتاب هنا هو العالم بصناعة الرسم والتخطيط ! .

وأما استدلاله على ذلك بقوله تعالى فى هذه الآيات : (وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا) فهو غير صحيح لأنه تحدث بنعمة الله عليه حيث ورثه علوم النبوة والرسالة ، كما شكره تعالى على حضور عرش بلقيس قبل أن تقدم عليه مما كان دليلا على صدقه فى دعوى الرسالة وكانت عاقبة ذلك إسلامها لله رب العالمين (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

سادسا — معجزة سيدنا محمد عليه السلام :

قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

قال فى صفحة ٢١٩ على هذه الآية ما نصه : « (أسرى) الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء . انظر ٧٧ فى طه و ١٣٨ فى الأعراف و ٥٢ فى الشعراء و ٢٣ فى الدخان و ٨١ فى هود و ٦٥ فى الحج ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء (المسجد الحرام) الذى له حرمة يحترم بها عند جميع الناس ٢١٧ و ٢١٨ فى البقرة و ٢٥ فى الحج (المسجد الأقصى) الأبعد — مسجد المدينة — وقد بارك حوله فكان للنبي صلى الله عليه وسلم هناك ثمرة وقوة وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان كل ذلك من آيات الله انظر ٢٠ فى يس و١٠٨ فى التوبة ثم ارجع الى الإسراء فاقرأ الى ٦٠ و ٩٣ » .

يزعم هذا الكاتب أن الإسراء ورد فى القرآن فى بعض المواضع بمعنى الهجرة كما فى إسراء سيدنا موسى ببنى إسرائيل ، و إسراء سيدنا لوط قبل أن ينزل العذاب بقومه ، فيجب أن لا يخرج عن هذا المعنى فى كل موضع ورد فيه فى القرآن ! .

فيكون إسراء سيدنا محمد هو هجرته من مكة الى المدينة ؛ وعلى ذلك يجب أن يكون المسجد الأقصى فى الآية الذى هاجر اليه النبي عليه السلام هو مسجد المدينة الذى لم يكن موجوداً إذ ذاك ، وإنما شيده النبي عليه السلام بعد ! .

وغفل أو تغافل عن التاريخ والسنة الصحيحة التى تثبت أنهما واقعتان لا واقعة واحدة — منطق غريب ! .

ويسند هذا الزعم بأن أواخر سورة النحل وعلاقتها بالإسراء تؤيد ما يقول .

وها هى ذى أواخر سورة النحل ليتبين القارىء مقدار جرأته : قال تعالى : (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) .

هذه كل الآيات التى يشير اليها ، وليس فيها أزيد من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يسلك سبيل الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة الى الله تعالى وبحسن مجادلة الأعداء ، ثم المساواة فى العقاب وعدم الاعتداء ، ثم الصبر على ما يناله صلى الله عليه وسلم من أذى ، وبشارته بأن الله معه .

هذا كل ما فى الآيات الكريمة ، وهل هو غير مناسب للإسراء بالمعنى المعروف ؟ ألم يتل الإسراء تكذيب للنبي صلى الله عليه وسلم ومجادلة من قريش للنبي عليه السلام فيما أخبر به ، وإيذاء له عليه السلام من جراء ذلك ، فتكون هذه الآيات متصلة بأول سورة الإسراء ؟ !

وماذا يقول فى أحاديث الإسراء وفيها مايفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم أسرى به الى بيت المقدس، وأنه لما أصبح وأخبر قريشاً بذلك كذبوه وكشف الله له عن بيت المقدس فوصفه لهم وأخبرهم بعلاماته ؟ وهل يتأتى أن يكون ذلك بالمدينة بعد الهجرة اليها مع أن المكذبين له من قريش كانوا إذ ذاك بمكة ؟ ! وهل شق صدره صلى الله عليه وسلم الذى جاء بالسنة الصحيحة كان ليلة الهجرة ! وهل كانت الهجرة على البراق كما جاء فى حديث الإسراء ! بل كان الخروج فيه ليلا مع أبى بكر رضى الله عنه ثم ارتحلا الى المدينة على راحلتين كان أعدهما أبو بكر لذلك ، أو كانت الهجرة رؤيا منامية حتى أمكن القول بذلك فى الإسراء وإن كان خلاف التحقيق ، أم كان هناك إسراءان : إسراء هو الهجرة وهو الذى ورد فى القرآن كما يزعم ، وإسراء غيرها لم يرد فى القرآن ؟ !

ولنذكر لك طرفا مما ورد فى الإسراء :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لما كذبنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه » انتهى — الحديث فى مختصر صحيح البخارى .

وأيضاً حديث طويل فى الاسراء وهو : عن مالك بن صعصعة رضى الله عنهما أن نبى الله صلى الله عليه وسلم حدثه عن ليلة أسرى به قال : « بينما أنا فى الحطيم وربما قال فى الحجر مضطجعاً إذ أتانى آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه الى هذه قال الراوى من ثغرة نحره الى شعرته فاستخرجا قلبى ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيمانا فغسل قلبى ثم حشى ثم أعيد ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض قال الراوى وهو البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه فحملت عليه فانطلق بى جبريل الخ »
ولولا خوف الإطالة لنقلنا لك الحديث بتمامه وما فيه من روايات ، لتعلم أن الإسراء فى الآية غير الهجرة الى المدينة المنورة .

وعلى الجملة فقد أراد هذا الكاتب أن يرضى جماعة الماديين على حساب دين الله ، فذهب فى هذه المسألة الى أن المعجزة على النحو الذى ذهب اليه علماء الملل جميعهم — من أنها الأمر الخارق للعادة المقصود به تأييد الرسول فى دعواه ـ أمر لم يكن ، وليس لنبى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تدعيم رسالته وإقامته الحجة على ما يدعيه أمر يظهره الله له يكون خارقا للعادة والسنن الكونية ، ويقول فى صراحة وتبجح : « إن آية الله فى نصر أنبيائه لا تكون مخالفة لسنته فى الكون » وقصر معجزة الرسل على «سيرتهم الخلقية ومقدار تأثيرهم فى نفوس الناس ومبلغ هدايتهم إياهم بالحجة والبرهان» كما قدمناه .

ووقفت نصوص القرآن الصريحة حجر عثرة فى سبيله ولم تمكنه من تشييد ما ذهب اليه ، لأنها تنطق عليه بالحق وتناديه بأنه سلك غير سبيل المؤمنين ، ولكنه رجل قد ركب رأسه وزين له شيطانه سوء عمله فرآه حسنا ، فانطلق الى هذه الآيات يؤولها ويحملها على معان انتزعها انتزاعا من مواضعها ، فألصقها بآى الذكر الحكيم غير محتكم الى قاعدة ولا مستند الى برهان ، فلما صارت معانى الآيات الدالة على خوارق العادات راجعة الى المادة أخذته نشوة المغرور وطفق يعلن أنه جاء بما لم يجىء به أحد من قبل ، وهو فى هذه كاذب ، فان له سلفا سيئا فى ذلك من الباطنية والبهائية .

وقبل أن نجبهه ونرد كيده الى نحره نريد أن نتساءل : إذا كان هذا المخدوع يمنع الناس أن يفهموا كتاب الله وهم متأثرون بقواعد علوم الشريعة واللغة التى نزل بها ، فكيف استباح لنفسه أن يفهمه وهو شديد التأثر بظواهر علوم الماديين ونزعاتهم ،

وإذا كان لابد من التأثر بقواعد علم من العلوم ، أفليس علم اللغة وهو علم لغة الخطاب وعلم الشريعة : أصوله وفروعه ، وهو العلم الذى به نزل الكتاب — نقول : أفليست هذه العلوم أولى بالتأثر بها والاحتكام اليها ؟ ! ثم نتكلم معه فى أمرين يظهر أن جهله بهما هو الذى أوقعه فيما وقع فيه :

الأول : — فى أن خوارق العادات من الممكنات العقلية ، وأن ما جاء فى القرآن بإزاء تأييد الرسول محمول عليها لا على ما ادعاه .

الثانى : — هل ما ذهب اليه ذلك المغرور من تأويل الكتاب العزيز وصرفه عن الظاهر جائز لغة ؟ .

فأما عن الأمر الأول فمدار المسألة على أن يخلو الانسان من الغرض ويرجع بالأشياء الى نصابها ويزنها بميزانها الصحيح . ونحن لو رجعنا الى أنفسنا لوجدنا من يؤمن بالله تعالى وبأنه سبحانه الخالق القادر ، مضطرا الى الإيمان بأن الذى فطر السموات والأرض ولم يعى بخلقهن وقدر لكل شىء قدره غيرُ عاجز عن أن يؤيد رسوله بما يشاء سبحانه ، فقدرته تعالى متمكنة من هذا صالحة لإجرائه (إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) وقد علم الناس متدينهم وغير متدينهم أن خرق العادة وفلتات الطبيعة ومجىء الشىء على غير السنة المعهودة من الأمور الممكنة التى لا يترتب على وقوعها محال ، وليس هناك من يشك فى أن ما حدث للرسل من فلق البحر لسيدنا موسى ، وإبراء الأكمه والأبرص لسيدنا عيسى ، وتسخير الجن والطير والريح لسيدنا سليمان ، والإسراء بسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام ، وغير ذلك مما هو معروف ومشهور — ليس من يشك فى أن هذه الأمور لو وقعت على النحو الذى فهمه علماء الشريعة وصرحت به آيات القرآن لم يترتب عليها أمر محال لذاته ، ولم تتداع السموات أو تنشق الأرض أو تتغير عامة السنن الطبيعية وينقلب نظام الحياة ، فاتضح أن خرق العادة أمر ممكن ، والممكنات بأسرها لا سبيل لإنكار جواز وقوعها ، فلا مناص من الإذعان بأن خوارق العادات لا ينكر جواز وقوعها إلا مختلط العقل أو من لا يذعن للحجة الواضحة والبرهان القاطع .

وإذ قد تبين أن خوارق العادات أمور ممكنة ولا مانع من وقوعها ، فلنبين لك بعد ذلك أنه هل يجب أن يكون ما قصه الله علينا من آيات الأنبياء ومعجزاتهم من

هذا النوع ، ولا يكفى أن يؤيدوا بقوة تأثيرهم فى نفوس أممهم أو حسن سيرتهم كما زعم هذا الكاتب ، وبيان هذا سهل يسير ، فقد علم جميع الناس أن المعجزة عبارة عن دليل ينصبه الله تعالى للنبي أو الرسول يؤيد به دعواه ، ومن حيث هى دليل يجب أن يكون لها ما للدليل : كأن تكون مستلزمة للمدلول ، فلو كانت أعم من المدلول وجوداً لم يجز أن تكون دليلا .

هـذه أمور يعرفها من له أدنى مسكة من علم ، ولو كانت المعجزة فى قوة الحجة أو حسن السيرة لما صح أن تكون برهانا على النبوة أو حجة على الرسالة ، فإن قوة الحجة توجد فى كثير من الفسقة والداعرين ، بله الأتقياء والصالحين . وحسن السيرة يوجد فى كثير من الصالحين الذين لم يصلوا الى درجة الأولياء فضلا عن الأنبياء أو الرسل ولم يتصدوا للدعوة الى الله تعالى ، فليست قوة الحجة أو حسن السيرة مما يصح أن يكون دليلا على النبوة أو الرسالة ، لأنه أعم وجودا منها .

وكم سمعنا عن قوم قيل عنهم إنهم كانوا أسرع خاطراً وأقرب بديهة وأفصح لسانا وأبين برهانا ممن كان حولهم ، بل لقد قيل إن أبا حنيفة رضى الله عنه كان من قوة الحجة وسطوع البرهان بحيث لو أراد أن يبرهن على أن سارية المسجد من ذهب لفعل وعقله السامعون ، أفيصح أن يدعى مدع لمثل هؤلاء نبوة أو رسالة إلا أن يكون قد مسه طائف من الشيطان ! وقد يجتمع قوة الحجة وحسن السيرة فى غير الأنبياء كما كان لكثير من العلماء ، وقد يكون واحد منهما لكثير من الناس على ما تبين لك ، فليس من المعقول أن يكون شىء من ذلك دليلا على دعوى النبوة أو الرسالة ، فلم يبق إلا أن ينفرد الأنبياء والرسل بشىء لا يكون لأحد من الناس البتة ، ولا يمكن أن يكون هذا إلا ذلك الأمر الخارق للعادة على مثال ما فهمه ويفهمه علماء الأديان جميعهم ، واذا كان الأمر على ذلك النحو تعين حمل ماجاء فى كتاب الله تعالى بإزاء تأييد الرسل عليهم السلام عليه .

ومن ذلك ما يذكره الله تعالى لموسى عليه السلام من انقلاب عصاه حية تلقف ما يأفك السحرة، ومن ضربه الحجر بها لينبجس الماء منه وغير هذين، وكذا ما يذكره الله سبحانه لعيسى عليه السلام من إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى وإحياء الموتى بإذن الله، وما يذكره جلت قدرته لمحمد صلى الله عليه وسلم من الإسراء، وما يذكره لغيرهم من الأنبياء مما هو كثير فى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويجب أن نبين مقصودنا من الخارق للعادة لئلا يلتبس على الناس، فإنا لا نعنى به مجرد كونه أمراً غير معتاد ولا ميسور لمن يقيم الرسل الحجة عليهم، فإن هذا يوجد مثله فى كثير من الناس، فمن تفوق فى علم أو حرفة حتى شأى غيره وبزّ من عداه يمكن أن يدعى له مدع أنه جاء بما خرق العادة، لذلك فإنا لا نعنى بالخارق هذا المعنى، وإنما نعنى به أن يكون أمرا ليس من نوع ما يقدر البشر عليه عادة مهما توسلوا اليه بالوسائل وحاولوا التوصل اليه بالأسباب. وأقوى شىء يؤيد ذلك أن العلماء الذين يعرفون أقصى ما يمكن أن تبلغه الطاقة الانسانية وآخر مدى يدركه الجهد البشرى، هم الذين يدركون تمام الإدراك المعجزة من غيرها. ألست تعرف أن السحرة الذين حشرهم فرعون كانوا أول من أدرك أن إلقاء العصا وصيرورتها حية تلقف ما يأفكون شىء لا يصل اليه السحر مهما ارتقى وبالغ صاحبه فى اتخاذ الأسباب، ولم يعاندوا بعد هذا الإدراك، فكانوا أول من آمن مع موسى عليه السلام؟ وأما فرعون وجنده فلكونهم لا يميزون الفرق بين السحر والمعجزة ولغير هذا لم يؤمنوا به. وهؤلاء المصاقع من العرب أهل الحجا واللسن وأرباب الذلاقة — كانوا أول من ذاق حسن تركيب القرآن وبديع أسلوبه وشهدوا بأنه فوق السحر والشعر والكهانة، ولكن منهم من أذعن لما أدركه فآمن، ومنهم من بقى مصرا معاندا بعد هذا الإدراك وهذه الشهادة.

ومن هنا تعلم أن ما ظهر من العلوم الكونية وما سيظهر بعد اليوم ليس من المعجزة فى شىء ، لأنه أمر يقدر البشر عليه ويتوصلون له بالأسباب العلمية ، فكل من سلك سبيلها أدرك غايتها وعرف كنهها ، كذلك ما ظهر على يد الكهان والسحرة مما لم يكن معتادا لغيرهم هو أمر مقدور لأمثالهم ممن يتخذ أسبابهم وينتهج سبيلهم .

فإن زعم زاعم أن من الأمور الخارقة للعادة التى ليست مما تتناوله قدرة البشر مايجرى على أيدى غير الأنبياء : كما اشتهر عن العلاء بن الحضرمى من المشى على الماء ، وكما نقل عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه من مخاطبته لسارية من فوق المنبر ، وكما روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه شرب السم ولم يؤثر فيه ونحو ذلك ، فلم تبق معجزة النبي خاصة به واستمر اللبس الذى فررنا منه ، فالجواب على ذلك من بسائط الأمور وهيناتها ، فإن الله جلت قدرته إنما أجرى على أيدى هؤلاء ما لا يكون مثله إلا للنبى ليقيم البرهان جديدا على أن الدين الذى يعتنقونه ويدعون اليه دين صحيح ، فهذه الأمور معجزات للأنبياء بعد موتهم ، كما أن مايظهر على أيدى الأنبياء قبل بعثهم تمهيد للنبوة وبناء للدعائم التى ترتكز عليها .

وقصارى القول أن المعجزة دليل النبوة أو الرسالة ، ولا يكون الدليل دليلا إلا اذا استلزم المدلول ، بحيث وجد يوجد المدلول وحيث انتفى ينتفى ، ولا ينطبق ذلك إلا على أمر خارق للعادة ليس من جنس مقدورات البشر .

ومما أسلفنا لك يتضح أن البينات التى أيدت بها الرسل وفصلها الله تعالى فى كتابه العزيز بالنسبة لبعضهم لابد أن تكون أمورا خارقة للعادة على مايعرفه المسلمون ويقرره علماء الشرائع ، والقائل بغير هذا غير مصدق بالكتاب العزيز ومنكر لما سماه الله آيات وبينات .

وأما عن الأمر الثانى فإن القرآن نزل بلغة العرب كما قدمناه ، وفى اللغة العربية الحقيقة والمجاز ، وقد علم أنه اذا قال قائل كلاما ولهذا الكلام معنيان أحدهما حقيقى والآخر مجازى لم يكن للسامع أن يفهم المعنى المجازى ويعرض عن الحقيقة إلا اذا تبين له أن القائل قد نصب لكلامه قرينة تصرفه عن الأصل فيه ، ولو أنه ساغ للمخاطب أن يصرف كلام المتكلم عما هو حقيقة فيه الى مجازيه لارتفعت الثقة بالألفاظ ولم تكن طريقا لإفادة السامع ما يجول بنفس المتكلم ، ولم تكن هناك ثقة بالعقود والمعاملات والمخاطبات ، لأن لكل متخاطبين أن يتخلصا مما أبرماه بينهما ، بأن يقول كل واحد للآخر : لقد فهمت من كلامك معنى مجازيا ولم أفهم أنك تريد المعنى الحقيقى .

هذا كلام يعرفه أقل الناس علما باللغة العربية ، وقد أنزل الله القرآن قانونا لهداية الناس وإرشادهم لما فيه مصلحتهم ، فاذا كانت ألفاظه غير محدودة المعانى أو لو ساغ تأويلها الى أى معنى يرتئيه الناظر فيه ، لما صح أن يكون من القوانين الوضعية فضلا عن كونه قانونا إلٰهيا محكما (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) وقد أشرنا الى ذلك فى المقدمة .

لهذا كله يكون تأويل آيات المعجزات وحملها على غير معانيها الحقيقية أمرا غير جائز ، لما فيه من ابتذال الكتاب العزيز ابتذالا لا يليق بعبث العابثين بله الكتاب الكريم الذى له المنزلة العليا والدرجة الرفيعة .

هذا عدا ما فى بعض التأويل الذى ذهب اليه هذا الكاتب من البعد الشديد عن اللغة العربية كما تقدم فى صدر البحث .

وأما احتجاجه بالآيات الدالة على أن سنة الله لا تتغير ولا تتبدل ، فهو كباقى احتجاجاته لاعلاقة فيها بين الدعوى والدليل ، مع أنه يقرر أنه لا بد من العلاقة بينهما .

جاء فى القرآن فى غير موضع ما يدل على عدم تبدل سنة الله تعالى ، غير أن الكاتب اشتبهت عليه السنن الكونية بسنة الله تعالى فى معاملة الأمم الذين انتقضوا على أنبيائهم وأصروا على معاندتهم بعد قيام الحجة وظهور أن ما يدعو اليه الرسل إنما هو الحق من عند الله .

فالأولى هى الصفات التى أودعها الله تعالى فى المخلوقات : ككون النار محرقة ، والأعمى لا يبصر ، والماء لا ينبع من الحجر الصاب الذى لا منفذ فيه . هذه السنن وأشباهها لا تتبدل بحسب العادة والمألوف ، وقد تتبدل بتبديل الله تعالى ، فتكون النار غير محرقة بعد الالقاء فيها ، والسكين غير قاطعة بعد وضعها على الرقبة ، وهكذا .

ولسنا فى حاجة الى إثبات ذلك التبدل ، فكثيرا نقرأ فى الصحف من عجائب المخلوقات ما يشهد على كمال القدرة الإلهية والإتيان بغير المألوف والمتعارف من شواذ الخلقة .

والثانية كما يأتى : — كانت عادة الله تعالى مع هذه الأمم أن يأخذهم بعذاب من عنده ، وأن يخذلهم وينصر رسله عليهم (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

جاء القرآن مبينا ذلك ، وأن هذه السنة والعادة فى معاملة المكذبين لا تتغير ، وحذر المخالفين من الأمة المحمدية عاقبة عنادهم وانتقاضهم على الرسول عليه السلام .

انظر الى قوله تعالى فى آخر سورة فاطر آية ٤٢ و ٤٣ — وهو مما احتج به على دعواه — : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ

ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا) والى قوله تعالى فى سورة الفتح آية ٢٢ و٢٣ :(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا) .

وفى سورة آل عمران آية ١٣٧ (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ) .

وفى سورة الأنفال آية ٥٢ (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) .

وفى سورة فاطر آية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ . ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) .

فهذه الآيات تدل دلالة صريحة على أن سنة الله تعالى فى معاملة المكذبين لا تتغير، فأين هذا مما أودعه سبحانه وتعالى فى مخلوقاته من صفات ؛ ومنشأ هذا الخطأ عدم مراعاة موارد الآيات وسياقها ، لذلك يجعل الآيات الواردة فى موضوع دليلا على دعوى ليست من موارد هذه الآيات ؛ وقد يبتكر معنى لآية ويجعل ذلك المعنى الذى اخترعه من غير حجة دليلا على المراد من آية أخرى ؛ ومن ذلك أنه يستدل على أن معنى ضرب البحر بالعصا هو السير فى الأرض بقوله تعالى فى قصة أيوب عليه السلام سورة ص : (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ) مع أنه ليس معنى اضرب به سر به فى الأرض ، وإنما معناه : اضرب به من حلفت أن تضربه لتبر فى يمينك ، كما قال تعالى (وَلَا تَحْنَثْ) فالآية فى أن أيوب عليه السلام حلف أن يضرب إنسانا عددا معينا من الأسواط فأمره الله تعالى أن يجمع هذه الأسواط وأن يضرب المحلوف على ضربه

مرة واحدة بها ، وأعلمه بأن هـذا يكفى فى البر وعدم الحنث فى اليمين . فأين هـذا من السير فى الأرض الذى يدعيه : وهل لهذا معنى فى الآية ؟ !

وأما احتجاجه على أن المعجزة يجب أن تكون من سيرتهم ودعوتهم ليكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها فغير صحيح .

أما حسن السيرة فقد تقدم أنه أعم ، فلا يصلح أن يكون دليلا على الرسالة . وأما الحجة من نفس الدعوة فسفسطة منشؤها التشبث بأذيال المادة كما قدمناه . وكأنه تخيل أن الرسالة صناعة من الصناعات يدعيها الرسول ، فلا بد إذاً أن يأتى بدليل من جنس الحرفة التى يدعى مهارته فيها ، كما يدعى شخص أنه ماهر فى بناء المنازل فيطالب بأن يبنى منزلا كبرهان على ما يدعى ! .

ليس الأمر كما يتخيل ، إنما الرسالة اصطفاء من الله تعالى يختص به من يشاء من عباده ، ولاشك أنها ليست من جنس ما يقدر عليه البشر ولا مما يتوصل اليه بالأسباب ؛ فاذا كانت الحجة والمعجزة لمن يدعى هـذا الاصطفاء أمراً من الله تعالى الذى اصطفاه يظهره على يديه وليس من جنس ما يقدر عليه البشر ، فلا شك فى تمام الاتصال والعلاقة بين الدعوى والدليل .

نحن لا ننكر أن استقامة ما يدعو اليه الرسل وحسن ماضيهم قد يكون سببا فى الإيمان بهم ، ولكن هـذا شىء ، وكونه الدليلَ الذى نصبه الله تعالى لتصديقهم شىء آخر .

٣ — الملائكة والجن والشياطين

قال فى صفحة ٧ آية ٣٤ قوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ما نصه : « (الملائكة) رسل النظام وعالم السنن وسجودهم للانسان معناه أن الكون مسخر له . راجع ٢٩ ثم انظر

الملك فى ١٥ (ابليس) اسم لكل مستكبر على الحق ، ويتبعه لفظ الشيطان والجان وهو النوع المستعصى على الانسان تسخيره » .

وقال فى صفحة ١٤ آية ٩٨ قوله تعالى : (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) ما نصه : « (جبريل وميكائيل) قسمان من الملائكة . الاول رسول الوحى والإلهام والآخر رسول السنن والنظام . اقرأ أول فاطر » .

ثم قال فى الصفحة نفسها على قوله تعالى : (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ) الآية ما نصه : « (الشياطين) هم المستكبرون دعاة الشر انظر ١٤ كانو يحكون على ملك سليمان أكاذيب » .

ثم قال فى صفحة ١٠٥ آية ٧١ قوله تعالى : (قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) الخ ما نصه : « (الشياطين) تطلق على الحيات والثعابين تستهوى من يتبعها ليقتلها فيهوى معها وتضله بتعرجها راجع ٢٧٥ فى البقرة » .

وفى صفحة ٢٠٤ آية ٢٦ — ٥٠ قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) الخ ما نصه : « يمثل لك بوصف الانسان النوع الهادئ صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد (والجان) النوع المتشرد الذى اذا قاربته يؤذيك ويغويك ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله والنوعان موجودان فى كل أمة » الى آخر ما قال من الإحالات الطويلة العريضة .

وفى صفحة ٢٩٧ آية ١٧ « (الجن) يطلق على العالم الخفى والظاهر القوى ، وجن كل شىء أوله ومقدمته ، وجن الجيش قواده ورؤساه ، والانس طائعوه ومرءوسوه . اقرأ الجن » .

وفى صفحة ٣٥٦ قوله تعالى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) آية ١٥٨ من سورة الصافات ما نصه : « الجنة أو الجن سادتهم وكبراؤهم » .

وفى صفحة ٣٥٩ آية (وَٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ) نمرة ٣٧ و ٣٨ من سورة ص ما نصه : « (والشياطين) يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين (مقرنين فى الأصفاد) مسلوكين فى القيود . ومنها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم » الى آخر ما قال مما لا يخرج فى جملته عما نقلناه من نصوصه .

ويتلخص كلامه (أولا) فى أن الملائكة قسمان : الأول رسل النظام، والثانى عالم السنن، وأن (جبريل وميكائيل) قسمان من الملائكة لا فردان منهم .

(ثانيا) فى أن الجن هم المستكبرون على الحق من الرؤساء المستبدين ، وأن الشياطين بهذا المعنى ، ويطلق اسمهم أيضا على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين والحيات والثعابين، وأن (إبليس) ليس شخصا واحدا وإنما هو اسم لكل مستكبر على الحق . ونحن نقول :

١ — فى الملائكة

نحن لا ننازع فى أن رسل النظام نوع من الملائكة ، بيد أنا لا نرسل القول إرسالا كما فعل ، إنما نقول إن رسل النظام الذين هم من نوع غير الانس والجن وهو النوع الذى وصفه الله فى القرآن بقوله تعالى : (لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ) الى آخر ما يأتى نقله من النصوص — نقول إن رسل النظام من هذا النوع هم من الملائكة ، وأما المصلحون ممن عدا هذا النوع فليسوا منهم ، وإن صح أن يقال إنهم رسل النظام . وأما أن السنن الكونية من الملائكة فهذا مما لا يقره الشرع ، وهذه آيات أبان الله سبحانه وتعالى فيها الملائكة بصفات خاصة نسوقها اليك أيها القارئ لتكون على بينة مما زعم هذا الكاتب :

قال تعالى : (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

فهذه الآيات صريحة فى أن السنن الكونية ليست من الملائكة فى شئ ، وأن الملائكة نوع من الخلق مفطورون على طاعة الله سبحانه وتعالى ، فيكونون نوعا مغايرا للإنس والجن .

أما أنهم غير الانس ، فلأن الانس فيهم المطيع وغيره ، قال تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) وأما الملائكة فهم مطيعون لا غير .

وأما أنهم غير الجن ، فلأن الجن مكلفون كبنى آدم وفيهم أيضا المطيع وغيره ، قال تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) وقال تعالى : (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ

نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ) .

فالكاتب مخطئ فى أن السنن الكونية من الملائكة، كما أنه مخطئ فى أن جبريل وميكال قسمان من الملائكة، لأنهما فردان لا قسمان (الأول) ملك الوحى قال تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) وهل يقال لقسم وفريق من الملائكة رسول ؛

وعلى الجملة فكون جبريل وميكائيل عليهما السلام ملكين اثنين لا قسمين من الملائكة وفريقين أمر معلوم من الشرع ومستفيض .

قلنا إن القرآن الكريم يفيد أن الملائكة عباد الله تعالى قد فطرهم على الطاعة . وأما تحديد حقيقتهم وأنهم أجسام نورانية قادرة بإقدار الله تعالى على التشكل بالأشكال الجميلة، وعلى الأفعال الشاقة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ولا يأكلون ولا يشربون، كما هو مستفاد من نصوص الشرع الشريف ، أو أنهم جواهر مجردة عن المادة ولوازمها، بل هم من جنس الأرواح والنفوس الناطقة كما هو رأى الفلاسفة — نقول إن تحديد ماهيتهم وبيان الحق فى ذلك ليس من موضوعنا اليوم ، إنما موضوعنا بيان خطأ الكاتب فيما زعم .

وانظر الى استدلاله تعلم مقدار ما عنده من المنطق . أحال على آية ٢٩ فى سورة البقرة وهى قوله تعالى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

أترى أن فى هذه الآية ذكرا للملائكة وبيانا لهم بالسنن الكونية وأن آدم هو الانسان ، وأن سجود الملائكة لآدم معناه خضوع السنن الكونية للانسان ؛ أم أن ما فى الآية أن الله تعالى خلق ما فى الأرض من جبال وأنهار وحيوان ومعادن وماء ونبات وما الى ذلك لمنفعة الانسان .

أحال أيضا على آية ١٥ فى الملك وهى قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ) .

أين الملائكة فى الآية ، وأين تفسيرها بالسنن الكونية ! لعله يرى أن الأرض معناه الملائكة ، وأن الملائكة هى السنن الكونية ، وأن الضمير فى (لكم) لآدم ، وأن آدم هو الإنسان ، وهو وضع جديد للألفاظ بإزاء مدلولات لا ندرى هى فى أى لغة!!.

يتبع

الطُّرَف والمُلَح

خطب بلالٌ على[1] أخيه خالد رضى الله عنهما امرأةً من بنى حِسْلٍ[2] من قريش ، فقال: نحن مَنْ قد عرفتم ، كنا عبدَين فأعتقَنا اللهُ ، وكنا ضالَّين فهدانا اللهُ ، وفقيرَين فأغنانا اللهُ ، وأنا أخطبُ على أخى خالد فلانةَ ، فإن تُنْكِحوه فالحمد لله ، وإن تردّوه فالله أكبر[3] ، فأقبلَ بعضُهم على بعض فقالوا : هو[4] بلالٌ ، وليس مثلُه يُدْفَعُ ، فزوّجوا أخاه . فلما انصرفا قال خالد لبلال : يغفرُ الله لك ! ألاَ ذكرتَ سوابقَنا ومشاهدَنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قال بلال : مَهْ ![5] صدقتُ فأنكحَكَ الصدقُ .

(١) أى لأجله . (٢) فى العقد الفريد من بنى ليث . (٣) أى إن ترفعتم ورأيتم أنفسكم أكبر وأعظم من أخى فالله جل وعلا أكبر من كل كبير . فاياكم والكبرياء . (٤) اى ذلك الخاطب هو بلال صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم له معه السوابق والمشاهد المحمودة . (٥) امسك عن هذا الكلام .

التوسل والاستغاثة

لا تزال تردنا الرسائل بشأن التوسل طلبا للتوضيح والإسهاب .

وقد ذكر بعض مرسليها أن من الناس من يكفر المتوسلين برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى سنتوسل به جميعا يوم القيامة على ما نطقت به الأحاديث الصحيحة . ولوقالوا إن فى المسألة تفصيلا أو أن بعض العبارات التى يقولها المتوسلون أو الزائرون ينبغى التحاشى عنها وتعليم ما يصح أن يقول فى توسله أو عند زيارته ، لقبلنا منهم ذلك وشكرناهم عليه ، ولكنهم أفرطوا كل الإفراط فرأينا أن نفيض القول فى ذلك فلعلنا بزيادة التقرير والتكرير نزيل تلك العقيدة التى هى أخطر شىء على الاسلام والمسلمين . ولنجعل الكلام معهم فى مقامين حتى نفحمهم بالمعقول والمنقول فنقول :

الكلام معهم من جهة الدليل العقلى وما نضطر اليه من الدليل النقلى :

قبل الخوض فى الموضوع نحب أن نشترط عليهم أن يصبروا صبر المرتاضين بصناعة المنطق العارفين بقوانين المناظرة ، فلا يخرجوا عن الفرض الذى نفرضه حتى نتم الكلام فيه ، وأن يعرفوا موضوع البحث فلا ينتقلوا عنه الى غيره ، وسنفرض الفروض كلها ثم نبطلها واحداً واحداً .

ولينظروا حتى لا يختلط المعقول بالمنقول ولا المنقول بالمعقول ، وسنوفى كلا حقه إن شاء الله ، وعسى ألاَّ يكونوا بعد ذلك ممن يسلم المقدمات ثم ينازع فى النتيجة ، فنقول:

هؤلاء إن كانوا يمنعون التوســل والاستغاثة ويجعلونهما شركا من حيث إنهما توسل واستغاثة ، فاستغاثة المظلوم بمن يرفع ظلمه اذاً شرك ، واستغاثة الرجل بمن يعينه

فى بعض شئونه شرك ، واستغاثة الملك بجيشه لدى الحروب شرك ، واستغاثة الجيش بالملك فيما يصلح أمره شرك ، بل نقول يلزمهم على هـذا الفرض أن طلب المعونة من أرباب الحرف والصنائع التى لا غنى للناس عنها شرك ، وطلب المريض للطبيب شرك ، بل يلزم بناء على تلك الكليات التى تقتضيها الحيثية أن استغاثة الرجل الإسرائيلى بسيدنا موسى عليه السلام وإجابته إياه كما قال تعالى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ) شرك ، الى غير ذلك مما لا يقول به عاقل فضلا عن فاضل .

هذا كله إن كانوا يقولون إنها ممنوعة من حيث إنها استغاثة بغير الله كما فرضنا ، فان قالوا إن الاستغاثة والتوسل بالأموات شرك دون الأحياء ، قلنا لهم لا معنى لهذا بعد أن سلمتم أن الاستغاثة بغير الله من الأحياء ليست بشرك ، وبعد ما ورد به القرآن ووقع عليه الإجماع فى كل زمان ومكان ، ولا معنى لأن يكون طلب الفعل من غير الله شركا تارة وغير شرك تارة أخرى ، فإن فيه نسبة الفعل لغير الله على كل حال ؛ وإن قالوا إننا لا نعتقد التأثير الذاتى من الأحياء الذين نطلب منهم المعونة ، قلنا لهم يجب إذا أن تجعلوا مناط المنع هو اعتقاد التأثير الذاتى لغير الله تعالى لا فرق بين الأحياء والأموات ، فإن وجد ذلك الاعتقاد كان شركا وإلا فلا سواء كانت الدعوة لحى أو ميت ؛ وإن كان مناط المنع هو تلك السببية الظاهرة التى تفهم من ظواهر الألفاظ وجب أن يكون ذلك كله شركا ، حتى طلب الرجل من أخيه أن يعينه فى الحمل على دابته أو بناء داره أو حفر نهره الى غير ذلك كما أوضحنا فى الفرض الأول .

فإن قالوا إننا ننسب تلك الأفعال والتأثيرات الى غير الله تعالى من الأحياء معتقدين أن الخلق والإيجاد ليس إلا لله تعالى وأن الحى ليس له إلا الكسب لا غير ، قلنا لهم كذلك من يطلب من الأموات أو يتوسل بهم ، والقرينة فيهما واحدة وهو

إيمانه بأن الله بيده ملكوت السموات والأرض واليه يرجع الأمر كله، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا خالق غيره ولا موجد سواه؛ وإن كان سر المنع عندهم هو أن الميت لا يقدر على شيء مما طلب منه فنقول لهم:

أولا — لا يلزم من ذلك أن يكون الطلب شركا بل عبثا فقط، والاستغاثة بالأحياء أقرب الى الشرك منها بالأموات، لأنها أقرب الى اعتقاد تأثيرهم فى الإعطاء والمنع بمقتضى الحس والمشاهدة — لولا نور الإيمان وساطع البرهان.

ثانيا — ثم نقول لهم ما معنى قولكم إن الميت لا يقدر على شيء، وما سره وباطنه عندكم؟ إن كان ذلك لكونكم تعتقدون أن الميت صار ترابا فما أضلكم فى دينكم وما أجهلكم بما ورد عن نبيكم بل عن ربكم من ثبوت حياة الأرواح وبقائها بعد مفارقة الأجسام، ومناداة النبي صلى الله عليه وسلم لها يوم بدر بقوله: «ياعمرو بن هشام وياعتبة بن ربيعة ويافلان بن فلان. إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا» فقيل له ما ذلك؟ فقال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ومن ذلك تسليمه على أهل القبور ومناداته لهم بقوله: السلام عليكم يا أهل الديار. ومن ذلك عذاب القبر ونعيمه، وإثبات المجيء والذهاب الى الأرواح، الى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التى جاء بها الاسلام وأثبتتها الفلسفة قديما وحديثا؛ ولنقتصر هنا على هذا السؤال:

أيعتقدون أن الشهداء أحياء عند ربهم كما نطق القرآن بذلك أم لا؟ فإن لم يعتقدوا فلا كلام لنا معهم، لأنهم كذبوا القرآن حيث يقول: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وإن اعتقدوا ذلك فنقول لهم: إن الأنبياء وكثيرا من صالحى المسلمين الذين ليسوا بشهداء كأكابر الصحابة أفضل من الشهداء بلا شك ولا مرية، فاذا ثبتت الحياة للشهداء فثبوتها لمن هو أفضل منهم أولى؛

على أن حياة الأنبياء مصرح بها فى الأحاديث الصحيحة، وقد رأى صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام يصلى فوق الكثيب الأحمر وراجعه مرارا عند ما فرضت الصلاة خمسين فى كل يوم وليلة حتى صارت خمسا، كما قابل آدم وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام، فهذا كله يثبت حياة الأرواح وأنه لا شك فيها، فاذاً نقول حيث ثبتت حياة الأرواح بالأدلة القطعية التى قدمنا بعضها فلا يسعنا بعد ثبوت الحياة إلا إثبات خصائصها، فإن ثبوت الملزوم يوجب ثبوت اللازم كما أن نفى اللازم يوجب نفى الملزوم كما هو معروف .

وأى مانع عقلا من الاستغاثة بها والاستمداد منها كما يستعين الرجل بالملائكة فى قضاء حوائجه أو كما يستعين الرجل بالرجل — وأنت بالروح لا بالجسم إنسان !

وتصرفات الأرواح على نحو تصرفات الملائكة لا تحتاج الى مماسة ولا آلة، فليست على نحو ما تعرف من قوانين التصرفات عندنا فانها من عالم آخر (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى) وماذا يفهمون من تصرف الملائكة أو الجن فى هذا العالم ؟

ولا شك أن الأرواح لها من الإطلاق والحرية ما يمكنها من أن تجيب من يناديها وتغيث من يستغيث بها كالأحياء سواء بسواء، بل أشد وأعظم . وقد ذكرنا لك فيما سبق عن ابن القيم أن الأرواح القوية كروح أبى بكر وعمر ربما هزمت جيشا الى آخر ما ذكرناه . فإن كانوا لا يعرفون إلا المحسوسات ولا يعترفون إلا بالمشاهدات فما أجدرهم أن يسموا طبيعيين لا مؤمنين : على أننا نتنزل معهم ونسلم لهم أن الأرواح بعد مفارقة الأجساد لا تستطيع أن تعمل شيئا، ولكن نقول لهم : إذا فرضنا ذلك وسلمناه جدلا فلنا أن نقرر أنه ليست مساعدة الأنبياء والأولياء للمستغيثين بهم من باب تصرف الأرواح فى هذا العالم على نحو ما قدمنا، بل مساعدتهم لمن يزورهم أو يستغيث بهم

بالدعاء لهم كما يدعو الرجل الصالح لغيره ، فيكون من دعاء الفاضل للمفضول ، أو على الأقل من دعاء الأخ لأخيه ؛ وقد علمت أنهم أحياء يشعرون ويحسون ويعلمون ، بل الشعور أتم والعلم أعم بعد مفارقة الجسد لزوال الحجب الترابية وعدم منازعات الشهوات البشرية ؛ وقد جاء فى الحديث أن أعمالنا تعرض عليه صلى الله عليه وسلم فإن وجد خيراً حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر لنا . ولنا أن نقول إن المستغاث به والمطلوب منه الإغاثة هو الله تعالى ، ولكن السائل يسأل متوسلا الى الله بالنبى أو الولى فى أنه يقضى حاجته ، فالفاعل هو الله ، ولكن أراد السائل أن يسأله تعالى ببعض المقربين لديه الأكرمين عليه ، فكأنه يقول : أنا من محبيه (أو محسوبيه) فارحمنى لأجله . وسيرحم الله كثيرا من الناس يوم القيامة لأجل النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء والعلماء .

وبالجملة فإكرام الله لبعض أحباب نبيه لأجل نبيه بل بعض العباد لبعض أمر معروف غير مجهول ، ومن ذلك الذين يصلون على الميت ويطلبون من الله أن يكرمه ويعفو عنه لأجلهم بقولهم : وقد جئناك شفعاء فشفعنا فيه . والمقصود من ذلك كله إثبات أن الله يرحم بعض العباد ببعض ؛ على أن توجه الانسان الى النبى أو الولى والتجاءه إليه تحس به روح النبى والولى تمام الإحساس ، وهو كريم ذو وجاهة عند الله تعالى ، كما قال تعالى فى بعض أصفيائه : (وَكَانَ عِنْدَ ٱللهِ وَجِيهاً) وكما قال فى بعض آخر : (وَجِيهاً فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ) فتعتنى تلك الروح بذلك الملتجىء أشد الاعتناء فى تسديده وتأييده والدعاء له هى والملائكة الذين يحلونها ويحبون مسرتها ورضاها ، والأنبياء والأولياء محبوبون الملائكة بشاهد قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله إذا أحب عبداً نادى جبريل فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه » الى آخر الحديث ؛ وإن الملائكة لتقول للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ) كما نص على ذلك القرآن الشريف ، وذلك سر التوجه الى الأولياء وزياراتهم لتتنبه أرواحهم لحال الزائر وتلتفت الى معونته بما أعطاهم الله تعالى من الخصائص ، كما تنفع أخاك بما أعطاك

الله من قوة أو وجاهة أو مكانة أو ثروة أو أعوان أو أنصار الى آخره ، وإن الانسان هو هو فى الدنيا والآخرة من حيث روحه التى هى باقية فى العالمين جميعا . وليس الانسان إنسانا إلا بها كما شرحنا ، والأمر جلى (ولـكنها الأهواء عمت فأعمت) .

ولنرجىء تتميم المقام الثانى ، فربما طال الـكلام فيه لعدد آخر إن شاء الله .

والخلاصة أنه لا يكفر المستغيث إلا إذا اعتقد الخلق والإيجاد لغير الله تعالى . والتفرقة بين الأحياء والأموات لا معنى لها ، فإنه إن اعتقد الإيجاد لغير الله كفر ، على خلاف للمعتزلة فى خلق الأفعال ؛ وإن اعتقد التسبب والاكتساب لم يكفر .

وأنت تعلم أن غاية ما يعتقد الناس فى الأموات هو أنهم متسببون ومكتسبون كالأحياء ، لا أنهم خالقون موجدون كالإله ، إذ لا يعقل أن يعتقد فيهم الناس أكثر من الأحياء وهم لا يعتقدون فى الأحياء إلا الـكسب والتسبب ، فاذا كان هناك غلط فليكن فى اعتقاد التسبب والاكتساب ، لأن هذا هو غاية ما يعتقده المؤمن فى المخلوق كما قلنا ، وإلا لم يكن مؤمنا ، والغلط فى ذلك ليس كفرا ولا شركا .

ولا نزال نكرر على مسامعك أنه لا يعقل أن يعتقد فى الميت أكثر مما يعتقد فى الحى ، فيثبت الأفعال للحى على سبيل التسبب ويثبتها للميت على سبيل التأثير الذاتى والإيجاد الحقيقى ، فانه لا شك أن هذا مما لا يعقل ، فغاية أمر هذا المستغيث بالميت — بعد كل تنزل — أن يكون كمن يطلب العون من المقعد غير عالم أنه مقعد ؛ ومن يستطيع أن يقول إن ذلك شرك ؟ ؛ على أن التسبب مقدور للميت وفى إمكانه أن يكتسبه كالحى بالدعاء لنا ، فإن الأرواح تدعو لأقاربهم كما فى الحديث الشريف اذا بلغهم عنهم ما يسوءهم ، فيقولون : « اللهم راجع بهم أو لا تمتهم حتى تهديهم » بل الأرواح يمكنها المعاونة بنفسها كالأحياء ، ويمكنها أن تلهمك وترشدك كالملائكة إلى غير ذلك على ما شرحناه ، وكثيرا ما انتفع الناس برؤيا الأرواح فى المنام . ولعلنا نعود اليه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الحيـاة وأطوارها

وإثبات الحياة البرزخية

لما منّ الله علىّ فى هذا العام بالحج الى بيته الحرام كان من حسن الحظ أن جمعتنى المصادفات بعلم من أعلام الفضل وعالم جليل يجمع الى عظيم الذكاء عظيم الإنصاف والغيرة على جمع شتات المسلمين والرغبة فى توحيد كلمتهم والتوفيق بين آرائهم .

ولقد بدأ الكلام معى فى العتب على فضيلة الاستاذ المحقق الشيخ يوسف الدجوى فيما نسبه الى الوهابيين من تكفيرهم بالتوسل والاستغاثة بالموتى ، فقد زعمهم الأستاذ يسوون بين الاستغاثة والتوسل فى الإنكار ، وليس الأمر كذلك عندهم ، فهم وإن لم يقولوا بالتوسل لاينكرونه إنكارهم للاستغاثة ولا يكفرون به ، إنما المنكر فى نظرهم أشد الإنكار هو الاستغاثة بالموتى وأن يطلب من الميت ما لايقدر عليه ؛ ولقد كان من حق الاستاذ أن يفحص كلامهم ويتثبت مما يقولون قبل أن ينسب اليهم ما نسب ، فقلت له إن ولوع المسلمين بتوسيع نطاق الخلاف بينهم قد أوقفهم شر موقف ، فالمسلمون اليوم لايؤتون من قلة ، فقد أصبحوا من الكثرة بحيث لا يخشى عليهم ، ولكنها كثرة ككثرة أنقاض البناء ، لا تؤوى ولا تظل ، وذلك بفعل التفرق بين طوائفهم والتفكك فى عرا وحدتهم حتى ذهبت ريحهم وأصبحوا طعمة الآكلين ومستعمرة المستعمرين ، ولو أنهم كانوا يختلفون فى أمر من أصول الدين التى لا يسع المؤمن إغفال أمرها ولا يتم إيمانه إلا بالجزم فيها بنفى أو إثبات لا لتمسنا لهم العذر ، ولكنها اختلافات تتسع هوتها ويفترق المسلمون من أجلها طوائف وشيعا ، وهى من الأمور الثانوية التى يدخلها التأويل ويتسع لها مجال النظر ، فينظر إليها كل فريق من الناحية التى تساعده على ما يقول ويهمل

الناحية التى تساعد خصمه فلا ينظر اليها إلا بمقدار ما يجد فيها مما يمكنه من الاعتراض عليها .

فلو أن أهل النظر وقادة الرأى فى المسلمين كانوا أوسع صدرا وأطول صبراً ونظر كل منهم فى المسائل المختلف فيها من الناحية التى ينظر اليها صاحبه ، وكذلك يفعل صاحبه ، فيضم كل منهما الى علمه فى المسألة علم مناظره ، لكان جديرا أن يتقاربا فى الرأى إن لم يتفقا تماما ، وفى ذلك رأب لصدع المسلمين وجمع لشملهم وضم لشتاتهم ، وفى ذلك قوتهم وحفظ كيانهم ، وبذلك يحققون مضمون الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ويكون مثلهم مثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . فأمّن حفظه الله على هذا وقال : بشرط أن يكون اجتماعهم على الحق ، قلت نعم ، فالحق هو ما ينشده الجميع وكل يدعيه ، ولكن علينا أن نكون أوسع صدرا وأطول صبرا حتى يفهم بعضنا ما يريده البعض فهما تاما ، لا أن يقتصر من فهمه على ما يمكنه من الرد عليه ، وهو لو أدرك وجهة نظره على ما هى عليه لكان جديرا أن يوافقه . فقال : هذا صحيح ، قلت إذاً يصح أن أعود الى ما كان فيه الكلام ، وهو مقال الاستاذ الدجوى بشأن الأموات وصحة الاستغاثة أو التوسل بهم :

كلنا نحب الحياة ونتعلق بها ونحرص عليها ، وهى جديرة بذلك ، ولكن هل فهمنا معنى الحياة واستوعبنا أطوارها ؟ إن الكثير من الناس يقصر الحياة على هذا الطور الظاهر الذى أوله الولادة وآخره القبر ، ولكن الحقيقة أن الحياة مظهر كمالى الموجود بحسب ما يليق به ، وأنها فى الانسان لها أربعة أطوار تتدرج من أدنى الى أعلى بحسب ترتبها فى الحصول والتحقق : طوران شاهدناهما ، وطوران أخبرتنا بهما النبوة الصادقة :

الأول — الحياة الجنينية : حياة الطفل فى بطن أمه . هذا طور من أطوار الحياة وهو أقصرها مدة وأضيقها مجالا وأخفاها أثراً وأضعفها احتمالا ، فانك تعد مدته بآحاد

الشهور ، وتجد مجاله لا يتجاوز شبراً فى شبر وهو بطن الأم ، وأثر الحى فيه لا يكاد يحسه أحد ، اللهم إلا حاملته فى بعض أحيان حركته أو من يتصل بها فى أواخر شهوره ، وقوة الحى فيه أضعف من أن يتحمل صدمة خفيفة فتقضى اللكزة لساعته .

وبعد فهو دور من أدوار الحياة وطور من أطوارها يغتبط به الحى ويحرص عليه ويجزع لمفارقته ، حتى إنه يستهل صارخا اذا انتقل الى مايليه مع أنه انتقل الى أفسح وأوسع وأرغد وأكمل ، ولكنه عبد لما ألف ورق لما عهد .

الطور الثانى ـ حياة عالمنا هذا الفانى : هو ذلك الطور الظاهر لنا المستولى على مشاعرنا ، هو الطور الذى اغتر به المغترون وانخدع به الكافرون فقالوا (إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) وهو طور أرقى مما قبله فى كل شىء ، فبينما تعد فى مدة الأول بآحاد الشهور اذا بك تعد فى مدة هذا بعشرات السنين ، وبينما كان مجال الحى فى الأول شبراً فى شبر تجد مداه فى هذا ذلك الفضاء المادى الأرضى الفسيح ، وبينما كان أثر الحى فى الأول لا يكاد يحسه إلا حاملته أو من اتصل بها اذا بآثاره ههنا تملأ الكون — من أنهار يشقها ، وأشجار يغرسها ، واستعمار واستثمار ، وتحليل وتركيب ، حتى عد بحق خليفة الله فى أرضه ، لقب حسدته عليه الملائكة (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) ثم بينما كانت قوة الحى فى الأول من الضعف بحيث تقضى عليه لكزة اليد أو وخزة الأصبع اذا به فى هذا الدور قد أصبح يقارع الخطوب والخطوب تقارعه ، ويصارع الدهر والدهر يصارعه ، فتارة غالب وتارة غُلب ، وطورا سلم وطورا هُزم .

طوران من أطوار الحياة يشتركان فى معنى الحياة ويتجاوران بل يتلاصقان ، فمنتهى أحدهما مبدأ الآخر ، ومع ذلك يتباعدان فى أحكامهما تباعدا شديدا ، حتى إن ما يشترط لصلاح أحدهما تراه مفسدا للآخر ، فانك لو عرضت الجنين قبل ولادته للهواء لفسدت

حياته ، ولو أعدت الوليد عقب ولادته لبطن أمه لمات لساعته . فانظر كيف تجاورا وتلاصقا مع تناقضهما فى الأحكام والمقتضيات ، وقد اقتضت إرادة الحكيم العليم أن نرى هذين الطورين من أطوار الحياة متجاورين متناقضين لتتسع مداركنا لفهم معنى الحياة فهما أوسع مما يبدو لصغار العقول وقصار النظر فى فهمها من قصرها على هـذا الدور الظاهر ، فأرانا جل شأنه الحياة فى مظهرين متقاربين متباعدين لتعلم أن الحياة أوسع معنى من قصرها على حال واحدة ، فنفهم من أطوارها ما تحدثنا به النبوة الصادقة وذلك هو الطوران الآتيان .

الطور الثالث من أطوار الحياة — وهو الأول من الطورين اللذين أخبرتنا بهما النبوة — هو الحياة البرزخية ، هو الطور الذى يبتدئ بالقبر وينتهى بالحشر ، هو الطور الداخل فى عبارة ما بعد الموت ، ونسبته الى الطور الثانى كنسبة الثانى الى الأول ، فاذا عددت فى مدة الاول بآحاد الشهور وفى مدة الثانى بعشرات السنين ، فعد فى مدة الثالث بآلاف الأجيال والقرون ، واذا كان مدى الأول شبراً فى شبر ومدى الثانى هذا الفضاء المادى الأرضى ، فمدى الثالث ملأ أعلى روحانى سماوى ، واذا كان أثر الحى فى الأول لا تحسه إلا حاملته وأثر الثانى تلك الشئون المادية التى شرحناها لك ، فأثره فى الثالث يتجلى باتصاله بأرواح الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين والملائكة المقربين فيتجلى له من أسرار العلم الروحانية العلوية ما يحقر أمامه تلك الشؤون المادية الأرضية ، واذا كانت قوة الحى فى الأول بحيث تقضى عليه لكزة يد أو وخزة أصبع ، وقوته فى الطور الثانى بحيث يصارع الدهر والدهر يصارعه فتارة غلب وتارة غلب ، فقد أصبح فى الطور الثالث فى مأمن من الدهر وغوائله ، حتى يأتى أمر الله يوم ينفخ فى الصور .

لهذا الطور حكمه وأثره على نسق ما بين الطور الأول والثانى ، ألا ترى أنك اذا عرضت على واحد فى هذه الحياة الدنيا أن يعود الى بطن أمه عد ذلك جنونا أو سخفا

ولا يكاد يصدق أنك تخبره تخبيرا صحيحا مع أنه قد بكى عليه يوم فارقه ، فكذلك لو عرضت على المؤمن أن يعود من طوره الثالث الى طوره الثانى الذى حزن يوم فارقه لكان بمثابة أن تعرض عليه وهو فى هذه الحياة أن يعود الى بطن الأم وقذرها وحبسها.

نعم : فالدنيا سجن المؤمن ، أما الكافر والعياذ بالله فيتمنى لو لم يحى حياته الأولى التى كانت عليه وبالاً ظهر أثره فى الطور الثالث . هذا الطور ثابت بالقرآن الكريم وبالسنة الصحيحة ، قال تعالى : (وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وقال جل من قائل (وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ) ما كان قولهم عنهم إنهم أموات أى لن يبعثوا ، فما كان هذا على بال المؤمنين فى شأن الشهداء ، وإنما هو ظن أنهم أموات عقب استشهادهم ، فكان فى الآية رد هذا الزعم وإثبات أنهم أحياء الآن ، ولكنها حياة ليست من جنس الحياة التى تحسونها وتشعرون بها ، وإنما هي حياة على معنى آخر أخبرتنا بها النبوة فنصدق بها وإن لم نحسها ولم نشعر بها ، وكفانا فى اتساع عقولنا لفهم معنى الحياة على وجه أوسع ما شهدناه من تنوعها وتفننها فى الطورين السابقين . هذا الطور غير قاصر على الشهداء ، وإنما اختصهم الله بالنص عليهم لاختصاصهم بالقرب منه تعالى ومزيد البهجة والكرامة ، وإلا فلا يعقل أن يكون الأنبياء وهم المتبوعون محرومين من حياة استمتع بها الشهداء التابعون . لا لا ، بل قد دلت الآية الكريمة على ثبوت هذه الحياة حتى للكافرين ، يقول الله جل شأنه : (ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ) فما كان قوله : النار يعرضون عليها غدوا وعشيا حكاية عن نار يوم القيامة ، فما كان فى القيامة غدو ولا عشى ولا شروق ولا غروب ، والمتعاطفان متغايران ،

وقد حكى عن الأول بكلمة النار يعرضون عليها ، وعن الثانى بكلمة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ، والعرض غدوا وعشيا غير الإدخال المستمر . وهل يتصور أن تكون هذه الحياة ثابتة للشهداء وبالأولى للأنبياء ، ثم هى ثابتة بالنص القرآنى للكافرين ويكون المحروم منها هم سائر المؤمنين ؟ ! أفلا يصح أن تكون هذه الآيات سندا متينا لما ورد فى السنة من مثل « القبر حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » ؟ ! أو لا يصح أن تؤيد مثل ما روى فى قصة بدر أنه بعد أن قتل صناديد قريش وردوا فى القليب : قليب بدر جاء صلى الله عليه وسلم وأخذ يناديهم بأسمائهم : يا فلان بن فلان يا فلان بن فلان إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ! فقال قائل : أو تخاطبهم يا رسول الله أو يسمعون ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم — أو لا يصح أن يسند ما ذكر من الآيات ما ورد من قوله صلى الله عليه وسلم : « حياتى خير لكم ومماتى خير لكم : حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ومماتى خير لكم تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن رأيت غير ذلك استغفرت لكم » .

إن الحياة البرزخية وعذاب القبر ونعيمه واستدعاء ذلك للحياة أمر لا ينبغى أن يشك فيه مؤمن ، وإذاً فالميت بعد موته له حياة وله شعور ، ويصح أن يكون له استغفار ودعاء ، كما فى الحديث السابق ، فما المانع من أن يتوسل به الى الله كما يتوسل بالحى ، ومبلغ تأثير العبد فى الوجود لا يعدو أن يجرى الله بعض الشؤون عن طريقه ، وإلا فالله هو المتفرد بالإيجاد والمتوحد بالتصريف لا رب غيره ولا معبود سواه ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وبعد فهب أن ما ذكر لا يكفى دليلا صحيحا وبرهانا صريحا على ما رأيت من وضوح الأمر فيه الى هذا الحد ، أفلا يكفى لأن يكون تأويلا مقبولا فيخرج صاحبه عن

أن يكون مشركا فى نظر من لا يقول بمقالته والله يقول : (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ؛ أما أن الأجدر بالمسلمين — وخصوصا أولى العلم والرأى — أن يتلمسوا أسباب التوفيق ما وجدوا اليها سبيلا ، وينبذوا الكلام وتوسيعه فى أمور ليست مما يجب على المسلم فى تصحيح عقيدته التى ينجو بها يوم الفزع الأكبر أن يجزم فيه بنفى أو إثبات ؛ فلو أن مسلما صحت عقيدته فيما يجب لله ولرسله وعرف ما يجب عليه وما يحرم ثم لم يجزم فى أمر التوسل والاستغاثة بحكم لما قيل له إنك مشرك .

فالواجب الجزم بأن الله هو المنفرد بالإيجاد والإعدام وأنه ربط العالم بنظام عرفنا منه ما عرفنا وجهلنا ما جهلنا ، ولكن مهما عرفنا ومهما جهلنا فإنا لا نعدو ذلك الحكم الجازم وهو أنه جل شأنه هو وحده المهيمن على العالم المتصرف فيه المسيطر عليه ، وأن ارتباط بعض أجزائه ببعض فى حصول شئ بعد شئ إن هو إلا تسبب وربط باختياره تعالى ، ولوشاء لعكس القضية فجعل من النار ريا ومن الماء إحراقا ، وإن فى خرق النظم فى بعض الأحوال لتأييد رسله أو لحكمة أخرى لأكبر شهادة على أنه الفاعل المختار لا رب غيره ولا معبود سواه .

الطور الرابع — هو الحياة الآخرة ، هو الحياة الحقيقية ، هو المعبر عنه بقوله تعالى: (وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ) هو طور له أول ولا آخر له ، هو طور النعيم المقيم والسعادة الدائمة ، هو طور الوجود الذى لا نهاية له ، هو الذى يرى المؤمنون فيه من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم يقول الله تعالى فيه للمؤمنين : « ألا أمنحكم ما هو أعظم من ذلك » فيقولون : وأى شئ أعظم من ذلك ؟ فيقول : « أحل عليكم رضائى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » هو الذى يكون للمؤمنين فيه أن يروا ربهم كما يرون القمر ليلة البدر لا يمارون فيه ولا يشكون ، فيلحقهم بذلك من الغبطة والابتهاج ما يتقاصر أمامه نعيم الجنان مهما كان عظيما . نسأل الله أن يمنحنا سعادته ويجعلنا من أهل نعيمه .

فقال الأستاذ حفظه الله : كل هذا نقول به ، ولا ننكر طورا من أطوار الحياة ، فعجبت من قوله ، فانه قد ينقل عنهم إنكار الطور الثالث ، حتى إن منهم من يقول : عصاى فى يدى خير من جثة فلان وفلان ، فإنى أتوكأ عليها ولى فيها ما آرب ، وأما تلك الجثة فلا نفع فيها ! فقال الأستاذ : إنا لا ننكر هذه الأطوار ونقول بها جميعها ، ونعتقد أن أرواح الميتين السابقين تتلاقى مع الأرواح القادمة عليها يسألونهم عن ذويهم ويقولون ما فعل فلان وكيف حال فلان — إلا أنا لا نقول بصحة الاستغاثة بالميت وأن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الحى . قلت اذاً فالأمر بيننا أَمَم ، ولعل بيننا وبينكم وسطاء سوء ينقلون لنا عنكم وينقلون لكم عنا إما بسوء قصد أو بسوء فهم ، أفليس من الصواب أن نتفاهم بطريق هادئ بعيد عن الصخب والعلانية حتى يفهم كل من الطرفين وجهة نظر صاحبه ، فهو أقرب أن نصل معا الى حكم واحد وحقيقة واحدة ، أو على الأقل نتقارب ولا يكفر بعضنا بعضا ، وذلك أجدى على المسلمين وأجمع لهم وجمهورهم وديعة فى يد أولى الرأى منهم يسألون عنهم كما يسأل الوديع عن الوديعة التى اؤتمن عليها ، ويكفى ما أصاب المسلمين من شتات أضعفهم وذهب بريحهم ؟ فأمّن حفظه الله على ذلك ورحب به وقال : كلنا نألم لفرقة المسلمين ونرجو أن يسلموا من ذلك وتجتمع كلمتهم ، فعسى أن يحقق الله هذا الرجاء إنه سميع مجيب ، فليس فى إسناد بعض الحوادث الى بعض الخلائق على سبيل السببية لا الإيجاد ما يوجب الكفر والشرك والعياذ بالله ، وليس من المؤمنين من يعتقد أن لله شريكا فى ملكه أو من يستقل بفعل من دون الله .

بعض شئون أخرى :

ولا يفوتنى قبل أن أترك القلم أن أنوه بشأن عظيم شاهدناه فى تلك الديار الحجازية : ذلك هو استتباب الأمن والطمأنينة فى تلك الديار بحالة لا يكاد يصدقها من رأى أو سمع بما كانت عليه تلك الأماكن من اضطراب فى الأمن وهلع متوال

من حوادث السرقات والنهب والقتل جهارا نهارا ، فقد أصبح بدل ذلك كله كما يقول القائل : الذئب والنعجة فى سقيفة ، واللص والتاجر فى قطيفة ، لا لا — فلا لص ولا ذئب ، نعم نقول فلا لص ، فقد قضت الأحكام الشرعية وإقامة الحدود التى سنها الله لعباده رحمة منه ورأفة بهم — قضت على مبدأ اللصوصية قضاء تاما ، وظهرت حكمة التشريع بأجلى مظاهرها ، ولا شاهد أصدق من التجربة ، وإن فى حمل المجرم ما بقى من يده الأثيمة بعد القطع لزاجرا قويا لمن تحدثه نفسه أن يقترف مثل هذه الجريمة ، فكأنها إعلان متحرك يسير مع صاحبه أينما سار ، وذلك أمر لا يتحقق فى حبس السارق أياما أو شهورا أو سنين ، وهل فى حبسه أكثر من اختفائه عن أهله مدة ثم عودته واحتفائهم به وتكريمه مما يقوى فى النفس التى تشاكله فى طبعه أن تشاكله فى جرمه ليحتفى بها كما يحتفى به وتكرم كما يكرم الأبطال ؛ لقد صدق الذى يقول إن الأصبع اذا بدا عليه اسوداد دل على تسوسه وسريان العلة فيه يرى الطبيب قطعه لتسلم اليد ، أو قطع اليد كلها ليسلم الجسد ، ويرى ذلك حكمة من الطبيب . أفلا تكون الجريمة مرضا معنويا يسرى من يد ليد فينتشر المرض وتفتك علته بالناس ، فيكون الرأى الحكيم أن تقطع حتى تستأصل جرثومة المرض ولا يسرى من اليد الأثيمة الى اليد السليمة ، سبحانك يا حكيم يا عليم ، شرعت لنا من الدين ما هو رحمة ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وتقوم التجربة أمامهم حجة قاطعة وبينة ناصعة ، ومع ذلك يتعامون عنها ويكابرون ويجادلون .

شأن آخر مما شاهدناه فى أرض الحجاز :

إن أكثر البوادى على جهالة بأبسط الأحكام الدينية ، كمن تربى فى شاهق جبل لم يخالط أحدا ولم يسمع بدين . وما ظنك بمن تلقاه فى المسجد الحرام حيث مهبط الوحى وهو لا يعرف من فاتحة الكتاب شيئا وتستغرق معه الوقت الطويل فى تحفيظه حتى

تمل وتضجر وهو كما بدأت معه ! وليس هـذا فى واحد أو اثنين ، بل كان استقرابنا لهذا الأمر مدعاة لأن نكثر من التحرى فيه ، فكان الأمر فى أولئك البدويين أمرا عجبا ، وأما الجهل بالأحكام الشرعية واحتياج العامة الى التفقه فى الدين فهو أظهر من أن يحتاج الى التبيين ، فحبذا لو تضافرت جماعات المسـلمين على العناية ببث التعليم الدينى فى هذه البقاع المقدسة التى اذا احتمل الجهل فى جهة فلا يصح أن يحتمل فيها . والله تعالى يتولانا بهدايته وكرامته إنه سميع الدعاء مجيب النداء ؟

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالازهر الشريف

الطرف والملح

قال كُلثومُ العتابى يخاطب زوجته :

تلوم على ترك الغنى باهليـةٌ ... زوَى الفقـرُ عنها كلَّ طِرْف وتالد
رأتْ حولها النسوانَ يرفُلْن فى الثَّرا[1] ... مقـلّدةً أعناقُها بالقـلائد
أَسرَّكِ أَنى نلتُ ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحى بن خالد
وأَنَّ أمير المؤمنين أَغصَّنى ... مَغَصَّهما بالمرهَفات[2] البوارد
دَعِينى تَجِئْنى مِيتتى مطمئنةً ... ولم أَتجشم هـول تلك الموارد
فانَّ رفيعات الأمور مَشُوبةٌ ... بمستودَعاتٍ[3] فى بطون الأساود[4]

(١) مخفف الثراء بالمد وهو الغنى . (٢) السيوف القواتل . (٣) بنوائب مودعة فى الأيام والليالى . (٤) جمع أسود وهى الحية العظيمة والسم مستودع فيها . استعيرت للأيام والليالى .

المياه و تنقيتها [1]

يرجع تاريخ تنقية المياه الى أزمان بعيدة ، ولا شك أن الماء كان يصفى اذا ظهر كدراً رنقاً أو كان يترك حتى ترسب المواد العالقة به . كذلك نعلم أن الملاحين قد وجدوا بالتجربة أن المياه الرديئة الطعم التى اختزنوها فى أحد الثغور كثيراً ما صارت عذبة نقية قبل أن يلقوا مراسيهم فى ثغر آخر ، ومن المحتمل أن تنقية الماء بالغلى كانت إحدى طرق الوقاية القديمة فقد عرف الانسان قوة الحرارة الفعالة من قديم الزمان ، ويمكن أن أسلافنا خامرتهم الشبهات فى أن المياه القذرة تسبب الأمراض فالتجئوا الى الحرارة لإبادة ما بها من الشوائب والجراثيم ، وقد يجوز أيضا أنهم كانوا يضيفون عدة أنواع من المواد الى المياه لجعلها أصلح للشرب إن لم يكن لتنقيتها تنقية تامة .

على أنه من الثابت أن أهمية صيانة مياه الشرب من المواد القذرة كانت معروفة من زمن بعيد يرجع الى سنة ١٦١٢ ميلادية حيث جاء فى منشور صدر فى تلك السنة أن « لايلقى الناس فى الأنهار أى قاذورات من تراب أو حصى أو حجارة أو قطط أو كلاب أو جثث الماشية الميتة أو أى شىء مضر بالصحة أو غير نظيف » .

وقد تبين الناس بمرور الزمن فوائد الرمل وأثره فى الترشيح ، ولا شك أنهم عرفوا ذلك من أول الأمر لما رأوه من صفاء المياه المرشحة ، ويرجع تاريخ الترشيح بواسطة الرمل الى سنة ١٨٢٩ ميلادية ، ويظهر أن الفضل فى اتباع هذه الطريقة يرجع الى مدينة لندن حيث قامت به شركة مياه تشلسى وأصبحت تنقية المياه بواسطة الرمل طريقة ثابتة فيما بعد ، ونسج على منوالها فى أنحاء العالم ولم تزل معروفة الى يومنا هذا باسم طريقة لندن .

---

(١) عن دائرة المعارف البريطانية .

وقد صار من المعروف أن المياه المرشحة — فيما عدا القليل من الجراثيم (البكتيريا) التي توجد بها بعد الترشيح — مأمونة الجانب ولا يخشى منها أن تنقل الأمراض .

وقد أظهر (كوخ) [1] أن الترشيح يزيل ٩٨ في المائة من الجراثيم (البكتيريا) وقد يستغرب المشتغلون بعلم الصحة كيف يكون للرمل مثل هذا الأثر الكبير في الترشيح مع أن ذراته المنفصلة ذات حجم كبير اذا قورنت بحجم الجراثيم ، ولكن ظهر فيما بعد أن ذرات الرمل تتضخم تدريجيا وأن كل ذرة يعلوها طبقة وبرية مخاطية ، وعلاوة على ذلك فقد لوحظ أن الذرات التي على السطح أو القريبة منه تكسوها طبقة كثيفة من مواد مخاطية تزداد كثافتها الى حد تكاد معه تمنع المياه من السريان خلالها .

فاذا حدث ذلك أصبح من اللازم تفريغ المرشح وإزالة طبقات الرمل العليا وغسلها غسلا جيداً قبل إعادة الترشيح .

وقد أدت الصعاب المتزايدة التي تلاقيها المدن للحصول على موارد قريبة للماء الى الاغارة على الهضاب والأراضي الملَق المرتفعة البعيدة عنها ، ولكن قامت بعد ذلك صعاب جديدة ، فقد كانت المياه بالرغم من عذوبتها ونقائها عطنة ذات لون ظاهر وكان بعضها حمضيا يؤثر في معدن الرصاص (المتخذة منه المواسير) .

وقد أظهرت التجارب أن أفضل طريقة لمعالجة مثل تلك المياه هي ترشيحها بمرشحات آلية تعمل بسرعة كبيرة تبلغ خمسين جالونا [2] لكل قدم مربع (من مساحة الحوض) في الساعة ، ويستعمل لازالة اللون وجعل المياه المرشحة شهية الطعم حسنة المنظر (كبريتات أو كسيد الألومنيوم) بمقدار من قمحة الى قمحتين لكل جالون تقريباً .

وهذه المرشحات الآلية يسهل تنظيفها بسرعة بمجرد عكس سير الماء فيها .

---

(١) هو العالم الألماني المشهور مكتشف جراثيم السل والملاريا وغيرها . (٢) مقياس انجليزي للسوائل مقداره أربعة ألتار ونصف تقريبا .

إلا أن كثيرا من الخبيرين يعتبرون أن المرشحات الآلية ليس لها فعل المرشحات الرملية البطيئة فى إزالة الجراثيم (البكتيريا) ولكن لا يعلق على ذلك أهمية كبيرة ما دام مورد الماء خاليا من الشوائب الوبائية .

والواقع أنه يمكن باستعمالها الحصول على نتائج مرضية من حيث صفاء اللون لا يمكن الحصول عليها بواسطة المرشحات الرملية البطيئة .

أما فيما يتعلق بفعلها فى الرصاص فهو أمر خطير لأن الرصاص سم مركز .

على أنه من الممكن لحسن الحظ جعل مثل هذه المياه مأمونة لاخطر من استعمالها فى الأعمال المنزلية باستعمال الجير بكميات مناسبة .

ولنبحث الآن طرق التنقية الحديثة :

استعمال الكلورين :

إن استعمال الكلورين فى الولايات المتحدة وكندا استمر بالقاعدة المتبعة فى تنقية المياه ، ولكن التقدم فى اتباع هذه الطريقة كان ضئيلا فى انجلترة إلا أن الحال تغير تغيراً كبيرا بقيام الحرب الكبرى ، فقد خطا مجلس المياه بلندن خطوة جريئة بأن استعمل الكلورين فى كمية هائلة من المياه تزيد على مائة مليون جالون فى اليوم ، وقد كانت تلك الخطوة باعثا على ازدياد البحث فى هذه الطريقة .

ويقول المؤيدون لاستعمال الكلورين : إن هذه الطريقة لا تبيد فعلا جميع الجراثيم غير الوبائية فحسب بل إنها تقضى على الجراثيم الوبائية التى تحملها المياه أيضا .

ويقول المعارضون لاستعمال الكلورين : إن المياه التى يدخلها مخدر كالكلورين لا تكون صالحة بأى حال ، وإن بها عيوبا كثيرة أظهرت التجارب وجودها ، ويقولون إن الطرق الطبيعية كالتخزين والترشيح الرملى البطىء تزيل ٩٨ فى المائة على الأقل من مجموع عدد الجراثيم فى الماء مهما كان نوعه ، وإن التجربة والاختبار قد أظهرا أن فى اتباع هذه الطرق وقاية تامة من الأمراض التى تنشأ من شرب المياه غير النقية .

وهناك فريق ثالث يقول إن جميع طرق التنقية ليست إلا حركة انتقال من حسن الى سيء، وإن السلامة كل السلامة فى اختيار موارد مياه بكر غير ملوثة لا تحتاج الى أى نوع من التنقية أو التطهير .

وقد نشعر بميل كبير الى هذا الرأى الجميل إلا أنه يجب ألّا ننسى ضرورة جعل المياه غير النقية صالحة للاستعمال المنزلى .

على أن هناك ما يصح أن يقال فى تأييد كل من الفريقين المؤيدين والمعارضين لاستعمال الكلورين إن لكل من الفريقين حججا قوية :

فطريقة استعمال الكلورين طريقة رخيصة جداً بحيث يكفى (شلن) واحد لتنقية مليون جالون من الماء إلا أن فعل الكلورين لم يزل موضعاً للجدل ، فالبعض يقول إن له فعلا يسبب الصدأ، والبعض الآخر يقول إن له فعلا مباشراً فى الجراثيم .

وكمية الكلورين التى تستعمل فى التنقية هى من ٠٫٢٥ الى ٠٫٥ جزءاً من الكلورين لكل مليون جزء أو من ٢٫٥ إلى ٥ أرطال من الكلورين لكل مليون جالون .

ويختلف الوقت الذى تستلزمه التنقية باختلاف الكمية ونوع الماء ؛ فقد تكفى بضع دقائق أحيانا ولكن الوقت الكافى هو من ساعة الى خمس ساعات .

ويوضع الكلورين بشكل سائل كلوريد الجير أو غاز الكلورين السائل الموضوع فى اسطوانات معدنية ، والطريقة الأخيرة هى الطريقة المنتشرة . وهناك جهازات دقيقة لمعرفة مقدار الغاز الذى يخرج من هذه الأسطوانات معرفة دقيقة ؛ ومن المهم جداً بغض النظر عن الطريقة التى تتبع أن يمتزج الكلورين والماء امتزاجا سريعاً تاماً .

على أن رداءة طعم الماء بعد معالجته بالكلوريد هى من العيوب الخطرة ؛ وكثيراً ما أنقصت كمية الكلورين الى ما دون الحد اللازم للتنقية لتجنب هذه الرداءة .

إلا أن العلم قد تقدم أخيراً تقدماً كبيراً وأصبح من المعروف أن السبب فى رداءة الطعم هو وجود أجسام خاصة بمقادير صغيرة جداً (أقل من جزء واحد لكل ألف مليون جزء) . وقد يكون الجو مصدر هذه الشوائب اذا كان غير نقى ، أو قد تنتقل الى الماء بطريق إلقاء سوائل ملوثة كمياه غسل الطرقات أو غيرها .

على أنهم وجدوا لحسن الحظ علاجات تمنع رداءة الطعم « كبرمنجنات البوتاسيوم » والنشادر مثلا بمقدار ٠٫٢ جزءا منها لكل مليون جزء من الماء .

ومن موانع رداءة الطعم المواد العضوية الموجودة بطبيعتها فى الماء فهى مانع ذو فائدة كبيرة ، وليس هناك ما يدل على أن للماء الذى عولج بالكلورين أثرا ضارا فى الانسان أو الحيوانات الدنيا أو الأسماك ، كذلك يمكن أن يقال بوجه عام إنه ليس له أثر ضار فى المعادن .

فالكلورين عامل عظيم الأهمية فى تنقية المياه ؛ فهو يجعل المياه الموبوءة مأمونة الجانب بدون أن يتخلف بها طعم ردىء (اذا استعملت مانعات الطعم السالفة الذكر) . وهو يوضع فى الماء بمقدار ٠٫٢٥ الى ٠٫٥ جزءاً منه لكل مليون جزء من الماء ، ومن المعقول أن نعتبر هذه الطريقة أنفس معين لطرق تنقية المياه الأخرى لا دواء عاماً لها .

وقد ظهرت فى سنة ١٩١٢ م . طريقة جديدة للتنقية أطلق عليها اسم طريقة (استعمال الجير بمقدار مفرط) فاذا أريد جعل الماء عذبا أضيف اليه الجير بمقادير متساوية أو تنقص قليلا عما هو لازم لامتزاجه بحامض الكربون المذاب فى الماء أو ثانى الكربونات الموجودة به فيتكون من ذلك كربونات الجير ، ولما كانت هذه الكربونات لا تذوب فهى ترسب فى قاع الحوض وهذا ينقى الماء تنقية آلية بدرجة عظيمة . وفى طريقة « استعمال الجير بمقدار مفرط » يزاد مقدار الجير الذى يوضع فى الماء قليلا

فيجعل الماء قلويا كاويا ويؤثر تأثيراً ظاهرا فى الجراثيم (البكتيريا) وتتوقف كمية الجير التى تزاد على مدة وجوده بالماء وكمية الشوائب الموجودة به .

ويكفى عادة لعملية التنقية هذه جزء واحد من الجير لكل ألف جزء من الماء .

ويتبين لك فوائد طريقة « استعمال الجير بمقدار مفرط » من النبذة الآتية التى وردت فى تقرير بعض الخبيرين :

قد أظهرت التجارب التى قمنا بها فى خلال السنتين الماضيتين بمحطة لانجفورد التابعة لشركة مياه سوتند أن طريقة استعمال الجير بمقدار مفرط ، قد أتت بنتائج مرضية أكثر من استعمال الكلورين لأن الكلورين لا يزيل المواد العضوية فى المحلول على حين أن طريقة استعمال الجير تزيل ٥٠ من المائة من هذه المواد على الأقل . وعلى ذلك يمكن الآن بهذه الطريقة استعمال المياه التى كانت تعتبر غير صالحة كمورد للماء فيما مضى والتى لم يكن من الممكن تنقيتها بأية طريقة .

وقد نجحت طريقة استعمال الجير بمقدار مفرط نجاحا كبيراً فى أكرا بساحل الذهب سنة ١٩١٧ م حيث استعملت فى مستنقع موبوء فنجحت فى تطهيره .

وقد احتفظت مدينة أبردين[١] بنهر « الدى » كمورد للماء بعد أن ظهرت صلاحية هذه الطريقة فاقتصدت بذلك مائة ألف جنيه كانت ستصرفها فى البحث عن مواد أخرى .

وظهر أن مياه نهر التيمس الطبيعية يمكن تنقيتها بتلك الطريقة بدرجة عجيبة .

على أن للطريقة عيوبها كالتكاليف مثلا والصعاب التى يلاقونها فى إزالة الطعم القلوى الذى يتركه الجير بالماء والتخلص من رواسب الجير اللينة .

اختبار المياه لمعرفة صلاحيتها :

لم يطرأ على طرق الاختبارات الطبيعية والكيمائية والمتعلقة بالجراثيم تغيير كبير فى السنوات الأخيرة ، ففى الاختبارات الطبيعية يلاحظ اللون بمقياس خاص ، للون

(١) مدينة على بحر الشمال باسكتلندة .

ودرجة الكدرة بمقياس خاص ، وأهم ضروب الاختبارات الكيمائية ما كان الغرض منه معرفة وجود النشادر والزلال والنيتروجين والكلوريد والأكسوجين الناتج من البرمنجنات .

ولم يطرأ على الاختبارات المتعلقة بالجراثيم (البكتيريا) أى تغيير من حيث معرفة عددها وخاصة فى درجة ٣٧ بمقياس سنتيجراد .

الطرق الطبيعية :

لم تهمل طرق تنقية الماء الطبعية فى السنوات الأخيرة ، وقد أخذت أهمية تخزين المياه تزداد فعلا ، والعوامل الثلاث التى تجعل الماء صالحا هى :

توحيد درجة كثافة الماء ، والترسيب ، والتعقيم ، فتوحيد درجة الكثافة هو تخفيف أى زيادة طارئة من الشوائب فى المياه التى تغذى المستودع الذى يخزن به الماء ، والترسيب هو فصل الشوائب الصلبة عن الماء .

والتعقيم هو إبادة الجراثيم (البكتيريا) المضرة غير المرغوب فيها .

ولطريقة التنقية الطبعية هذه عيوب فانه ولو أن جزءاً من الجراثيم يبيد فالذى يبقى منها يتكاثر تكاثراً يحير العقل أحيانا .

فثمت النباتات المتناهية فى الصغر التى لا ترى إلا بالمنظار المعظم والجراثيم الأحادية الخلية ونوع من الطحلب الأخضر والأزرق ، وبعض هذه يجعل طعم الماء رديئاً والبعض الآخر له تأثير خطير فى منع الماء من السريان خلال الرمل .

وقد ظهر أن كبريتات النحاس بمقدار من ١ر٠ الى ٠ر١ جزءاً منها لكل من مليون جزء من الماء أو من رطل إلى ١٠ أرطال لكل مليون جالون عامل مهم فى تنقية الماء من هذه النباتات والجراثيم .

المرشحات :

من التحسينات التى أدخلت أخيرا على طرق تطهير المياه المرشحات الآلية السريعة وهى تستعمل لازالة كل المواد العالقة بالماء تقريبا ؛ ومنها النباتات المتناهية فى الصغر وأنواع الطحلب الأخرى . وهذه المرشحات تعمل بسرعة كبيرة تبلغ من ١٠٠ إلى ٢٠٠ جالون للقدم المربع من مساحة الحوض فى الساعة ، وللتأكد من نقاء الماء نقاءاً تاماً يستعمل المرشحات الرملية البطيئة بعد ذلك ؛ وفى هذه الحالة يمكن أن تعمل هذه المرشحات بسرعة أكبر ما دامت المرشحات الآلية السريعة قد أزالت جل المواد العالقة بالماء من قبل .

ويرى البعض زيادة فى الوقاية استعمال الكلورين كاحتياط أخير إذا احتاج الأمر .

الدم كأداة للشم

إذا حقن الانسان بمادة ذات رائحة فى إحدى الشرايين فانه لا يلبث أن يشعر برائحتها أقوى مما لو شمها بأنفه وذلك لأن الدم يحمل هذه الرائحة الى أعصاب الشم بداخل الأنف .

وتستعمل هذه الطريقة عند اختبار المرضى الذين اختلت فيهم حاسة الشم بواسطة الأنف للتحقق مما إذا كان من الممكن علاج هذا الداء ، فاذا تمكنوا من إدراك رائحة هذه الأمصال بواسطة الدم فان ذلك يثبت أن أعصاب الشم بداخل الأنف لا زالت سليمة ولكن لا تصلها الرائحة بالطريق الطبعى لانتفاخ أو تورم يحول دونها ، ويمكن إعادة حاسة الشم اليهم اذا أزيلت هذه العوائق من الطريق العادى .

[مترجمة عن مجلة « Umschau » الالمانية]

الجاليات الاسلامية[1]

فى أطراف العالم النائية

المستعمرون والمهاجرون الرحل

فى أقيانوسية (جزر المحيط الأعظم الهادى)

استراليا — بلغ تعداد المسلمين فى استراليا ٣٫٩٠٨ نفس فى سنة ١٩١٦ (وقد كان ٦٫٤٠٠ فى سنة ١٩٠٦) وهم من الافغان السنيين حنفيي المذهب ، وقد نزحوا إليها منذ سنة ١٨٦٠ كرعاة للإبل وأقاموا على الأخص فى القسم الغربى منها ، ويوجد بها مسجدان مستديمان فى بلدتى برت وأديلاد ، وسبعة مساجد متنقلة ، كما يوجد بها خمسمائة مسلم قدموا إليها من جزر الهند الشرقية وأقاموا بغينيا الجديدة التى كانت تابعة للألمان والآن تحت الانتداب الاسترالى . وهؤلاء شافعيو المذهب .

جزر فيجى — يقيم بها باستمرار ٣٠٠٠ مسلم سنيون شافعيو المذهب من ١٤٠٠٠ من الرحل الهنود يشتغلون بفلاحة الأرض .

فى امريكا

الولايات المتحدة — بلغ عدد المسلمين بها فى سنة ١٩٢١ — ١٠٫٠٠٠ نسمة أغلبهم من المهاجرين الرحل الذين نزحوا اليها من شمال الهند وسوريا واليمن وتركيا وأقاموا فى بلاد ميلووكى وشيكاغو وبتسبورغ وكليفلان واكرون ونيويورك وفيلادلفيا وبالتيمور وبوسطون وووسيستر . وبها مسجد (أحمدى) فى الميشيغان و ١٢ جريدة عربيـة منها واحدة درزية (جريدة البيان) وأخرى للدفاع عن المصالح التركية وهى (سيرات ثم بيليك) .

---

(١) مترجمة عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى — الطبعة الثالثة .

ويقال إنه يوجد بها ألفان من الجنس الانجلو ساكسونى اعتنقوا البهائية، كما أنه يوجد بعض المهاجرين السنيين بجزيرة هايتى وجمهورية الدومنيكين.

المكسيك — يوجد بها ألف مسلم من المهاجرين الرحالة.

بلاد البرازيل — بها ٢٥٫٠٠٠ مسلم من الزراع الذين أقاموا بها إقامة مستديمة منذ القرن الثامن عشر من الميلاد و ٥٠٠٠ من المهاجرين الرحل السوريين، وأولئك هم زنوج من نسل العبيد الأرقاء الذين استجلبوا من غرب افريقية من قبائل النجوس والحاوساس والطياس والجيجى والجروما والبرنوان والكابندا والباربا والمينا والكلابار والجابو والمندوبوس والبينيين، وقدحاولوا القيام بحركة تمردضداستعبادهم فى باهياسنة ١٨٣٥ إذ كانوا كونوا لهم جمعيات سرية استعاضوا عنها فى سنة ١٨٥٠ ميلادية بتأسيس هيئة دينية سنية حنفية المذهب تحت رياسة « القالى » أو القاضى ؛ وأول رئيس لتلك الهيئة كان عبد الرحمن افندى وفى سنة ١٩١٠ كان يرأسها الامام حسونه فى باهيا، وكان يساعده ثلاثة أئمة فى بلدان ريو وبرنامبكو وسيارا، وعندهم ثلاثة مساجد ويقومون بأداء فريضة الصوم، وقد عاد كثير منهم الى داهومى منذ سنة ١٨٥٠ ويصدرون أربع جرائد عربية فى ريو، وستا فى ساو باولو منها ثلاث إسلامية.

الجمهورية الفضية — بها ثمانية ألف مسلم من الرحالة، ولهم ست جرائد، تصدر بالعربية منها اثنتان كانتا مخصصتين لخدمة ملك الحجاز وهما جريدتى « الحاوى » و « يقظة العرب » وقد نزح منهم بعض الأسر الى برغواى ويوراغواى.

كولومبيا وفنزويلا — قد كان يوجد منذ سنة ١٦١٥ إلى سنة ١٧٦٠ من الميلاد بعض جاليات المسلمين من مغاربة الأندلس الذين أبعدوا عن طريق كارتاجينا من الهند. والآن لا يوجد بها أكثر من ألف مسلم من الباعة المتجولين الذين يطلق عليهم فى مدينة كاراكاس (فنزويلا) اسم التركوس.

سورينام (غيانه الهولندية) — إن عدد المسلمين بها يبلغ ثلث سكانها الذين بلغ تعدادهم فى سنة ١٩١٩ مائة وسبعة آلاف وثمانمائة وسبعا وعشرين ، ومن بين المسلمين نحو عشرة آلاف من زنوج افريقيا الذين جاءوا اليها منذ القرن الثامن عشر كأرقاء من ذوى البشرة الكستانية ، وهم يتكلمون لغة تدعى « البوش » وألفوا بينهم الجمعيات السرية سواء من الذين يتبعون المذهب الروحانى فيرجعون جميع الأشياء حتى العقلية الى الروح وأصلهم من بلاد دهومى، أو من الذين لم يكمل إسلامهم وهم يعيشون فى أطراف الغابات ، ونحو عشرين ألفا من العمال المسلمين الرحل ومن بين هؤلاء ١٢ر٧٨٥ من أهالى ماليزيا (البالغ تعدادهم ٢٠ر٨١٤) وسبعة آلاف من الهنود .

غيانة الفرنسية وجزر الارخبيل الافرنسية — كان يوجد بها ٦ر٧٥٠ مسلم فى سنة ١٩٠٨ حسب ما جاء فى بعض الإحصائيات التركية .

غيانة البريطانية — بلغ عدد سكانها فى سنة ١٩٢١ ثلاثمائة وعشرة آلاف ، منهم ١٣٤ر٧٨٥ عاملا استجلبوا من الهند، ومن بين هؤلاء ١٨ر٢١٧ مسلم .

جزيرة الترينيداد — كان عدد سكانها سنة ١٩٢١ — ٣٦٥ر٩١٣ منهم ١٢٨ر٥٠٠ من العمال الذين استجلبوا من الهند من بين هؤلاء ١٧ر٦٩١ مسلما حاولوا تأسيس طريقة أحمدية ومائة وخمسين ألف من زنوج أفريقية الذين لا يزال يوجد بينهم بعض آثار للاسلام .

جزيرة جاميكا — يوجد من بين سكان هذه الجزيرة البالغ عددهم سنة ١٩٢١ — ١٨٨ر٨٥٨ نفسا منهم ١٨ر٩١٢ عامل استجلبوا من الهند ومن بين هؤلاء ٥ر٠٠٠ مسلم . ومن بين ٦٦٠ر٠٠٠ زنجى من زنوج أفريقيا (المتمذهبين بالمذهب الروحى أو المتنصرين) يوجد عدد منهم ينتمى لجمعيات سرية نصف إسلامية من نوع الهاووسه فى نيجيريا م؟

favours to you; then the kindred on account of their relationship, and according to their proper degree of kinship; then the orphans who lost their providor and found nowhere to turn to; then the poor and needy; and lastly kindly treatment to all others.

Islam insisted on the kindly treatment of the neighbour so much so that the Prophet Mohammad saith in this connection:

«مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (حديث)

meaning: "So often did Gabriel exhort me to kindly treatment of the neighbour, that I bethought he will succeed him". *(Tradition.)*

It urged strongly to doing good unto all people whether you happen to know them or not. Nay but it goes further still and ordains the clearance of impediments which might cause harm, from the path of people and considers such act a sign of true belief.

Nor was the social side neglected in Islam, good manners were insisted upon to such an extent that the eating of garlic and onions was forbidden before going to a meeting or visiting a mosque so that the susceptibilities of other people may not be offended.

Islam ordained cleanliness. It prescribed, over and above the daily ablution, bathing one's self as an essential obligation particularly on Friday on account of the congregation that takes place on that day for prayer.

Not only has Islam urged to cleanliness as pointed out before but it requested further to have one's self scented. In short, it requested you to afford your brethren-in-Islam all possible pleasure and happiness and promised you the highest recompense thereof.

Islam united the believers with the strongest of bonds the bond of brotherhood which God hath fostered between them and made them thereby one family despite the difference of their races and the distances that separate their countries:

«انما المؤمنون اخوة»

"Verily the believers are but brethren".

It insisted on the love of one another so much so that true belief was made conditional thereupon for thus it saith:

«لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا» (حديث)

meaning: "Ye shall not enter heavens until ye believe, and ye shall not believe until ye love one another". *(Tradition.)*

***

We will now proceed to consider the teachings of Islam in some detail.

Islam ordained to seek your own welfare, that of your own people, your neighbours and all others. It forbade to expose yourself to danger as ordained in the verse :

«ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»

" God ordains not to throw yourselves with your own hands into destruction ".
(Baidawy's Commentary.)

It forcibly warned against committing suicide and acted as a deterrent, through the love and veneration of God which it engendred in the hearts of men, to restrain people from recklessly exposing themselves to danger and rushing headlong into destruction.

Man-made laws exercise no such influence over mankind and utterly fail in restraining people from committing suicide. Hence the prevelance of this evil in Europe aud America the land of laws and civilisation!

Islam enjoins esteem and kindly treatment of the wife for thus the tradition ordains:

«خيركم من كان خيره لأهله وشركم من كان شره لأهله» (حديث)

meaning: " The best of you is he who is benevolent unto his people, and the worst of you is he who is malevolent unto them"; *(Tradition.)*

also:

«إن الرجل ليحشر مع المتجبرين يوم القيامة وليس عنده غير أهل بيته» (حديث)

meaning: " Verily, man will be huddled together with the overbearing tyrants on the day of resurrection yet he has had no others to illtreat except his own folk". *(Tradition.)*

The Holy Koran prescribes:

« لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس قولا حسنا »

" God ordains to worship none but Him, to be kind and benevolent to parents, the kindred, the orphans and the poor, and to treat all people in a kindly way."

It first of all enjoined the worship of one God for He is the source of all good, then it ordained benevolence towards the parents on account of their love and

ride them and make use thereof for pageantry: and other things which ye know not, apart from those referred to, doth He create"; *(Alucy's Commentary.)*

"which ye know not" may be taken to include such vehicles. It is significant that they were alluded to after horses and mules which sequence corresponds with the obtaining order of things.

It is feasible to deduce that the earth was a part of the sun as established by astronomers at the present, from the verse:

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما »

"Have the unbelievers not known that the heavens and the earth were joined together in one solid mass and that God hath separated them and distinguished their phases". *(Alucy's Commentary)*

Again it could be easily elicited that the heavens were composed of nebulæ (1) or diffused gaseous matter from the verse:

« ثم استوى الى السماء وهي دخان »

"After the creation of the earth, God applied himself to the creation of the heavens which was vapour". *(Alucy's & Ibn Katheir Commentaries.)*

We do not suggest that this is definitely the meaning of the verse because it has not been as yet, definitely established by science; but we do wish to point out that the Koran does not contradict the facts established by science; nor is it unyeilding to the proofs thereof to deserve to be called an enemy of science as is alleged by wily missionaries and misinformed Christians who know nothing about Islam.

Many European philosophers have, however, commended the Moslem Religion and its teachings.

"He who practices the tenets of cleanliness ordained by the Moslem Religion, never will he commit a sin or perpetrate a crime", says Bentham (2), the great English philosopher and one of Europe's most able men of letters.

Societies in Europe and America have been establised to promulgate a new religion which they call "the natural religion": all the fundamental principles thereof are identical with those of the Moslem Religion. Nay but the tenets of Islam are for more perfect and comprehensive.

---

(1) The nebular hypothesis expounded by Laplace and Sir W. Herachel to the effect that nebulæ form the earliest stage in the formation of stars and planets.

(2) Jeremy Bentham (1748-1832) exponent of doctrine of utilitarianism summed up by Priestly as "the greatest happiness of the greatest number".

and « وسنريهم آياتنا فى الآفاق »

" God declared that He will shew his signs to the unbelievers in the Islamic conquests in all directions, east, west, north and south achieved by the Prophet, his successors and his companions. " *(Alucy's Commentary.)*

Recent discoveries have disclosed many undreamt of marvels of heavens and earth to which the Koran referred long before.

In this connection we should allude here to the possible meanings which many Koranic verses may be taken to imply. The rotation of the earth for instance could be implied in the verse:

«وكل فى فلك يسبحون»

" And each one, doth journey in an assigned orbit "; *(Alucy's Commentary.)*

after referring to the sun and the moon and that is why they were referred to in the verse in the plural form: «يسبحون»

In fact, the Koran does not contradict anything which true science has definitely established and very often include a reference to scientific facts or is at least amenable thereto.

The verse:

«وخلقنا لهم من مثله مايركبون»

" And that God hath created of the like of arks such other things as camels, ships, boats, etc.", *(Baidawy's Commentary.)*

directly following the verse:

«وآية لهم أنا حملنا ذريتهم»

" And a sign unto the unbelievers is that God hath caused their sons to embark on full-laden arks in pursuit of trade " *(Baidawy's Commentary).*

may be taken to refer to airships.

Aeroplanes, tram-cars, motor-cars and other modern vehicles are alluded to in the verse :

«والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون»

" God hath created among other animals, horses, mules and asses that ye may

The Koran recognised the continual regeneration in man and that the tissues of the human body are periodically destroyed and renewed. The processes of decomposition and regeneration are ever taking place.

The Koran has further foretold the persecution of the Jews and their continued suffering under the yoke of others as testified by the verse :

« وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب »

" And God hath declared that He would surely send against the Jews, until the end of the world, those who would inflict on them severe punishment and subject them to tyranny and humiliation." *(Alucy's Commentary.)*

In fulfillment of the above, the Jews were scattered all over the world. They were ruthlessly persecuted by the French in Algiers and hounded down and banished by the Russians and were, therewithal, hated and despised wherever they set foot.

Nor was that the only prophecy that came true. The Koran prophesied many future events as testified by the following verses :

« سيهزم الجمع و يولون الدبر »

" The host of unbilievers shall be utterly routed and shall take to their heels in the battle of Bedr" ; *(Alucy's Cammentary.)*

and « ولن يتمنوه ابدا بما قدمت أيديهم »

" The Jews who worshipped the calf, claimed that Paradise is exclusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims they were challenged to wish for death if they were so sure of going to heavens, but never will they wish for it on account of the sins they have committed which rendered them liable to hell-fire"; *(Baidawy's Commentary.)*

and « لتدخلن المسجد الحرام »

" The Moslems were promised to enter Mecca in full security and this verse was revealed to the effect that they will enter the Sacred Mosque in Mecca, which entry was materialised soon after"; *(Alucy's Commentary.)*

and « وهم من بعد غلبهم سيغلبون »

" The Persian defeated the Greeks in the nearest boundary town to them. The unbelievers of Mecca rejoiced at their victory as the Persians were unbelievers like themselves and the Greeks were followers of Scriptures like the Moslems. This verse was thus revealed foretelling a victory of the Greeks over the Persians and was fulfilled a few years later" ; *(Baidawy's Commentary.)*

Yet another discovery is the recognition of the advantages derived from ablution. Not only it is effectual against mouth and nose diseases, but it is one of the most important preventive measures against consumption ; the nose being the chief medium through which this virulent disease is contracted.

Small wonder therefore, that noses which are washed fifteen times a day should be completely free from the germs of this malignant malady. It is significant in this connection, that cases of consumption is Moslem countries are few and far between whereas they are decidedly more prevelant in other countries.

Again the Koran proclaimed that men were created out of dust, a fact which was completely unrecognised at the time of its revelation, as signified by the verse :

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون »

" And of the signs of God is that He hath created mankind out of mere sorry dust that has the least conceivable connection with their life, and then caused them to spread far and wide on earth." *(Alucy's Commentary.)*

This fact is now as clear as it is indisputable. The germ of life owes its origin to nutriments derived from animals dependent for their life on plants, or from plants produced directly from earth.

Again the following verse is significant :

« وينزل من السماء من جبال فيها من برد »

" God causeth hail to descend in copious measures from the clouds accumulating into the like of mountains." *(Kashaf's Commentary.)*

It is established that snow forms mountains of ice which float on the surface of the sea and are called icebergs, a German word meaning mountain of ice. It so happened in 1912 that the *Titanic*, the world's biggest liner at the time, owned by the White Star Line Company came into collision with one of these icebergs floating on the surface of the Atlantic. The *Titanic* had a displacement of 46,000 tons and the number of passengers on board was no less than 2500. Its formidable frame could not withstand the impact with that huge monster and it floundered to the deep despite the fact that it was the world's biggest ship at the time.

No less pregnant with significance, is the verse :

« بل هم في لبس من خلق جديد »

" God hath caused the first creation, but men are dubious of a regeneration of a new one" *(Alucy's Commentary.)*

until recent discoveries have disclosed that the Sun is greater than the earth a million and three hundred thousand times and that the Sirius is many times greater than the Sun and that the light of the Sun is one fiftieth of the light of the Sirius.

Through the development of natural sciences, many astronomical, medical and geographical facts referred to in the Koran were definitely established. Nor did social, ethical and economic questions lack corroboration. Recent scientific and philosophical researches have fully born out the concepts of Islam.

Some of these concepts pertaining to the hereafter and the spirit world, have long been made the object of derision and ridicule. The establishment by Islam of spiritual apart from material worlds was considered mythical and absurd. It was not until a faint ray of light from that prodigious world has filtered through to us by means of spiritualism, which is already fast becoming an established fact, that the deriders of Islam realised their mistake and were convinced of what the Koran says :

« وما يعلم جنود ربك إلا هو »

" And none is apprised of the varieties of God's creatures, including the angels referred to in a preceeding verse, but the Lord Himself. "

(Alucy's Commentary.)

They knew, through the manifestations of the spirit which has broken all material laws, the secret of the Lord's saying :

« قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

" The spirit which is the cause of life is a hidden secret which the minds of men fail to comprehend and whose reality is but known to God. The knowledge of men in that respect is but an iota compared with the infinite knowledge of God. " *(Alucy's Commentary.)*

Among other corroborative discoveries, is the forbiddance of water contained in a copper vessel and left exposed to the sun in hot climes on account of the chemical reaction that takes place.

Another discovery is that of eating salt which certain Islamic traditions hold to be an effectual cure of many diseases. Medical men were at first dubious regarding its efficacy and were disinclined to endow common salt with such curative properties. The discovery, however, was made and the facts thereof published in medical journals, the discoverer having shown that a hypodermic injection of salt solution is a sure remedy of many ailments (1).

---

(1) Dose 8 grammes of salt to every 1000 grammes of water injected under the skin.

English Supplement of

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ISLAM

THE IDEAL RELIGION[1].

(Continued).

The Holy Koran contains, moreover, the most striking references to animals which caused the scientists of Europe no small amazement. An orientalist is said to have remarked in this connection that there in nothing more clearly significant of the importance of animals than the Koranic verse :

« وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم »

" No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth in any clime with its wings, but are communities like you, whose functions and conditions of life are ordained from on high, and whose interests are maintained and controlled by means of judicious laws in accordance with God's ministrations." *(Alucy's Commentary.)*

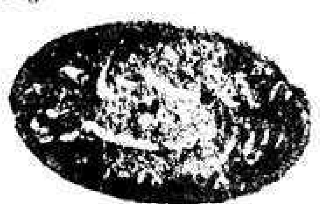
Again, we were not aware of the magnitude of the Sirius [2] to which the Koran referred in the verse :

« وإنه هو رب الشعرى »

" And that God is the absolute Lord of the Sirius which was worshipped before Islam to the exclusion of God" *(Alucy's Commentary.)*

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El Digwy's Book: "Messages of Peace".

(2) The Dogstar or Canicula, the brightest star in the heavens, situated in the constellation of Canis Major, or the Great Dog.



قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الرابع	ربيع الثاني سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الازهر الأعلى } سابقاً

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر



الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : بستان ٣٥٠٧

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصرى	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٣٠
خارج القطر المصرى	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

الامانة فى العلم

فلاح الأمة فى صلاح أعمالها ، وصلاح أعمالها فى صحة علومها ، وصحة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون ، فمن تحدث فى العلم بغير أمانة فقد مسّ العلم بقرحة ، ووضع فى سبيل فلاح الأمة حجر عثرة .

لا تخلو الطوائف المنتمية الى العلوم من أشخاص لا يطلبون العلم ليتحلوا بأسنى فضيلة ، أو لينفعوا الناس بما عرفوا من حكمة ، وأمثال هؤلاء لا تجد الأمانة فى نفوسهم مستقرا ، فلا يتحرجون أن يرووا ما لم يسمعوا ، أو يصفوا ما لم يعلموا ، وهذا ما كان يدعو جهابذة أهل العلم الى نقد الرجال وتمييز من يسرف فى القول ممن يصوغه على قدر ما يعلم ، حتى أصبح طلاب العلم على بصيرة من قيمة ما يقرءونه ، فلا تخفى عليهم منزلته من القطع بصدقه أو كذبه ، أو رجحان أحدهما على الآخر ، أو احتمالهما على سواء .

قيض الله للسنة النبوية رجالا أشربوا فى قلوبهم التقوى ، فنهجوا فى روايتها نهج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يروون إلا ما وثقوا من صحته ، وهم بعد هذا الاحتراس البالغ على فريقين : فريق يحافظون فى الرواية على الألفاظ لا يغيرون منها حرفا ، ومن أصحاب هذه الطريقة القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن سيرين .

وفريق من أولئك الراشدين يحافظون فيما يروون من الحديث على المعنى ، ولم يروا بأساً فى التعبير عنه بلفظ غير لفظ الرواية على شرط أن يؤدى المعنى كما هو ، ومن أصحاب هذه الطريقة الحسن البصرى ، والشعبى ، وإبراهيم النخعى .

اندس بين هؤلاء الأمناء أشخاص يتشابهون فى الاستخفاف بصدق اللهجة ، ويختلفون فى الأغراض التى دعتهم الى هذا الاستخفاف ، فمنهم الجاهل الذى يحسب أن من طرق الإحسان الى الدين وضع أحاديث للترغيب فى بعض ما ندب اليه من أعمال صالحة ، كما وضع نوح بن أبى مريم أحاديث فى فضل سور القرآن ، وقال : رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن اسحاق ، فوضعت هذه الأحاديث حسبة .

ومنهم المغلوب على رشده : يضع الحديث لنحو تأييد مذهب أو إصابة عرض زائل كأن يصنع حديثا فيما يوافق هوى ذى سلطان ليزداد عنده حظوة ، مثل غياث ابن ابراهيم رأى المهدى يلعب بالحمام ، فتصرف فى حديث (لا سبق إلا فى نصل أو خف أو حافر) فزاد فيه (أو جناح) وقد شاء الله تعالى أن يتنبه المهدى لهذه الخيانة ، فأنب غياثا وترك الحمام وأمر بذبحها .

ومنهم الزنديق : يضع أحاديث ليفسد القلوب ويزعزع الإيمان كما وضع بعض عباد الأوثان حديث « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » .

ونهض باللغة العربية وآدابها رجال طبعوا على الأمانة ، مثل أبى عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، والخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وأبى عمرو الشيبانى ، ومحمد بن مسلم الدينورى ، ولم تخلص اللغة وآدابها من أن ينتمى اليها نفر لا يتحاشون أن يدخلوا فيها ما ليس من حقائقها ، كقطرب[1] ، وحماد الراوية ، ولولا العلماء الذين ينقدون ما يرويه أمثال هؤلاء لأصيبت اللغة بفساد كبير .

وللتاريخ القسط الأوفر من اختلاق الرواة وتزوير الكتّاب ، فكم من حقائق شاخصة حاولوا أن يذهبوا بها هباء ، وكم من سير نقية أخرجوها فى صورة ما يستحق

(١) كان متهما فى رأيه وروايته عن العرب (مقدمة التهذيب لأبى منصور الأزهرى) .

هجاء ، وسير مدنسة ألبسوها ثوب ما يستأهل ثناء ، ومن ناحية المحرومين من نعمة الأمانة فى العلم صدرت كتب مثل كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة — وصفت كثيراً من أفاضل السلف فى غير إنصاف ، وولغت فى أعراض الصحابة وهم خير أمة أخرجت للناس ، وقد حذّر أهل العلم من التسرع الى تسليم ما يكتبه المؤرخون فى شأنهم ، وإنما يعول فى أخبارهم على الروايات الموثوق بها كالأخبار الواردة على طريق علماء الحديث .

وكذلك ترى فى غير الحديث واللغة والتاريخ من العلوم رهطا يمسونها بأيد غير مؤتمنة ، ويحشرون فيها ما لا يصح رواية أو لا يقبل دراية ، فيتناولها الجهابذة بالنقد ، فينفون خبثها كما تنفى النار خبث الحديد .

فالأمانة زينة العلم وروحه الذى يجعله زاكى الثمر لذيذ المطعم ، واذا قلبت النظر فى تراجم رجال العلم ، رأيت بين العالم الأمين وقرينه غير الأمين بونا شاسعا ، ترى الأول فى مكانة محفوفة بالوقار ، وانتفاع الناس منه فى ازدياد ، وترى الثانى فى منزلة صاغرة ، ونفوس طلاب العلم منصرفة عن الأخذ عنه أو متباطئة .

وقد تقرأ كتابا فتراه حافلا بالمسائل النادرة ، فيكبر صاحبه فى عينك ، ومتى عرفت أنه من المطعون فى أمانتهم ، شعرت بأن شطراً من ذلك الإكبار قد ذهب ، وخالطك الريب فى صحة ما أعجبت به من المسائل الراجعة الى الرواية .

كيف تكون منزلة الجاحظ عندك لو درست حياته فخرجت مالئا يدك بالثقة من أنه راوية أمين ؟ لا أشك فى أن الأمانة اذا انحازت الى مثل ذكاء الجاحظ وسعة اطلاعه بلغ صاحبها فى الشرف والسؤدد المكانة القصوى ، ولكنك تقرأ ما شهد به بعض[1] ناقدى علماء العربية من أن الجاحظ غير مأمون فيما يروى ، فلا يبقى فى نفسك من احترامه إلا ما جاءها من ناحية سعة علمه وبراعة بيانه . ولا أظنك بعد أن تعلم أن

(١) أبو منصور الأزهرى فى مقدمة كتاب التهذيب .

أبا الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى غير معدود فيمن يُطمَأَن الى روايته[1] إلا أن تقرأ كتاب الأغانى على أنه كتاب أدب يجمع بين الصحيح والسقيم ، حتى اذا أردت تحقيق موضوع تاريخى ، لم تعول على ما ينفرد بروايته فتورده كما تورد ما يرويه ابن جرير الطبرى مثلا — وأنت مطمئن اليه ، ولو كنت إذ درست حياة أبى الفرج وجدتها خالصة مما يخدش فى أمانته لأخذ فى نفسك مكانة فوق المكانة التى حازها من جهة سعة اطلاعه وإتقانه لصناعة التأليف .

فالرجل الذى يكون على جانب من العلم ولا يتصرف فيه بأمانة حصينة ، يرمقه الناس بازدراء ، وتذهب ثقتهم به فلا يكادون ينتفعون بما يمكنهم أن ينتفعوا به من معلوماته الصحيحة ، وهذا صاعد بن الحسين البغدادى — دخل قرطبة أيام المنصور بن أبى عامر ، وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار ، ولكن أهل العلم اختبروه فوجدوه يتنفّق بالكذب ، فأعرضوا عنه ولم يأخذوا منه شيئاً ، وألف كتابا سماه الفصوص نحا فيه نحو الأمالى لأبى على القالى فغلب شؤم ما فيه من كذب على ما فيه من صدق ، وكان شكرهم لهذا الكتاب أن طرحوه فى النهر .

قد يقع الرجل فى حال يرى أن الاعتراف فيه بالجهل يذهب بشىء من احترام سائليه له ، فيقف بين داعيين : فضيلة الأمانة تدعوه الى أن يقول « لا أدرى » وحرصه على أن يبقى احترامه فى نفوس سائليه غير منقوص يدعوه الى أن يستمد من غير الحقيقة جوابا ، وفى مثل هذا الحال يظهر مقدار صلة العالم بمزية الأمانة ، فإن كان راسخاً فيها رسوخ الجبل تشتد به العواصف فلا تزحزحه قيد شعرة ، أجاب داعيها ، واستيقن أن الاحترام الحق فى الوقوف عند حدودها ، وإن كانت الأمانة كلمة يقولها بفمه ويسمعها بأذنه دون أن تتخلل مسلك الروح منه ، آثر لذة الاحترام فى ذلك المشهد ، وأجاب بما ليس له به علم ، حضر بعض أدباء المغرب مجلس السلطان اسماعيل أو ابنه محمد ،

(١) انظر عيون التواريخ لابن شاكر .

وقرأ هذا الأديب بين يديه صحيفة ، فجاءت كلمة «الوخيد»[1] فقرأها «الوخيذ» بالذال المعجمة ، فأرجمه السلطان ، فقال ذلك الأديب : إنه بالمعجمة والمهملة ، فطاب منه شاهداً على ذلك فارتجل :

أقول لصاحبي لما ارتحلنا وأشرعنا النجائب فى الوخيذ
تمتع من لذيذ كلام حورا فما بعد العشية من لذيذ

واذا كان هذا الأديب قد خرج من مجلس السلطان فى ستر ، فقد لقى مايلقاه المستخف بحق الأمانة فى العلم، فافتضح أمره، ووعت صحف التاريخ حديثه، فأزرى بقدره .

واذا أبديت فى العلم رأيا ، ثم أراك الدليل القاطع أو الراجح أن الحق فى غير ما أبديت ، فمقتضى الأمانة أن تصدع بما استبان لك أنه الحق ، ولا يمنعنك من الجهر به أن تنسب الى سوء النظر فيما رأيته سالفا ، فما أنت إلا بشر ، وما كان لبشر أن يبرئ نفسه من الخطأ، ويدعى أنه لم يقل ولن يقول فى حياته إلا صوابا، والأمانة هى التى كانت تحمل كبار أهل العلم على أن يعلنوا فى الناس رجوعهم عن كثير من آراء علمية أو اجتهادات دينية تبينوا أنهم لم يقولوا فيها قولا سديداً ، تجد هذه الفضيلة فى الأئمة المقتدى بهم كمالك بن أنس وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل ، والفتاوى التى رجع عنها أمثال هؤلاء العظماء منبه عليها فى كتب الأحكام ، ولا يعد شيء منها فيما يصح الاقتداء به إلا أن يراه بعض المجتهدين صحيح الاستنباط ثابت الأصل فحكمه العمل على ما رأى .

يُسأل العالم ذو الخلق العظيم عما لا يعلم ، فلا يجد فى صدره حرجا أن يقول «لا أعلم» وهذه سيرة علمائنا الأجلاء ، يلقى على الواحد منهم السؤال فى العلم الذى علا فيه كعبُه ، فاذا لم يحضره الجواب أطلق لسانه بكلمة « لا أدرى » غير مستنكف ولا مبال بما يكون لها من الأثر فى نفوس السائلين ، واذا فاته أن يجيب طالب العلم عما سأل ، لم يفته أن يعلمه خلقا شريفا هو أن لا يتحدث فى العلم إلا على بصيرة ، فيحفظ مقامه من أن يرمى

(١) الوخيد للابل : الاسراع .

بضعف الرأى إن كانت المسألة من قبيل الدراية ، أو بقلة الأمانة إن كانت عائدة الى الرواية ، ولأن يقال : سئل فقال : لا أدرى ، خير من أن يقال : سئل فقال خطلا ، أو روى ما لم يكن واقعا . قال ابن هرمز : ينبغى للعالم أن يُورث جلساءه قول « لا أدرى » .

والمسائل التى قال فيها كبار العلماء « لا أدرى » بالغة من الكثرة ما لا يحيط به حساب ، سأل رجل مالك بن أنس عن مسألة ، وذكر أنه أرسل فيها من مسيرة أشهر من المغرب ، فقال له : أخبر الذى أرسلك أنه لا علم لى بها ، قال : ومن يعلمها ؟ قال : من علمه الله ، وسأله آخر عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب ، فقال : « ما أدرى ماهى » فقال الرجل : يا أبا عبد الله تركت خلفى من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك ، فقال مالك غير مستوحش : اذا رجعت فأخبرهم أنى لا أحسن ، وقال الكاتبون فى سيرته : لو شاء رجل أن يملأ صحيفته من قول مالك « لا أدرى » لفعل .

ونقرأ فى سيرة الشعبى أنه سئل عن مسألة فقال « لا أدرى » فقال له السائل : فبأى شىء تأخذون رزق السلطان ؟ فقال : لأقول فيما لا أدرى « لا أدرى » .

ومن شواهد أمانة محمد بن الأعرابى أن محمد بن حبيب سأله فى مجلس واحد عن بضع عشرة مسألة من شعر الطرماح ، فكان يقول : لا أدرى ، ولم أسمع ، أفأحدس لك برأيى ؟

وقد تخون الرجل ذاكرته أو تأخذه غفلة فيقع لسانه فى خطأ ، ويُنبه بعد أو يتنبه من نفسه الى هفوته ، فإن كان على حظ عظيم من الأمانة بادر الى إصلاح خطئه بنفسه غير مستنكف من الاعتراف بما أخذه من ذهول قلب أو غلط لسان ، حضر أبو بكر بن العربى[1] مجلس أبى الفضل النحوى فسمعه يقول : طلّق رسول الله صلى الله

(١) هكذا وردت هذه القصة فى كتاب الفائق لابن راشد القفصى وأوردها ابو بكر بن العربى فى كتاب الاحكام على انها وقعت لمحمد بن قاسم العثمانى حين حضر مجلس ابى الفضل الجوهرى .

عليه وسلم ، وآلى ، وظاهر ، فلما انصرف قصده الى منزله ، وقال له : أصلحك الله : قلت : إنه صلى الله عليه وسلم طلق وآلى وظاهر ، وإنه صلى الله عليه وسلم لم يظاهر ، فإن الله جعل الظهار منكرا من القول وزورا ، فكان من أبى الفضل أن شكره ، ومن الغد قال أبو الفضل لأهل مجلسه بعد أن قرب ابن العربى اليه : إنى قد قلت لكم بالأمس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق وآلى وظاهر ، وإن هذا أرشدنى الى أنه لم يظاهر ، وهو كما قال ، وإنه شيخى فى هذه المسألة .

من الأمانة الرجوع الى الحق ، وهو كمال لا تحرص عليه إلا نفوس ذللت لها سبل المكارم تذليلا ، ومن الأمانة أن تنتقد الآراء ولا تغمض فيما تراه باطلا وإن كان بينك وبين صاحبها صلة الصداقة أو القربى ، قدّم أبو جعفر أحمد بن يوسف الفهرى للملك المستنصر فى تونس كتابا فى النحو ، فدفعه المستنصر للأستاذ أبى الحسن حازم ، فزار أبو جعفر حازما يوما ، فرأى الكتاب بين يديه ، فقال له يا أبا الحسن « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » فقال له حازم : أنت سيدى وأخى ، والعلم لا يحتمل المداهنة ، فقال له أبو جعفر : فأخبرنى بما عثرت عليه ، فأراه مواضع فسلمها وأصلحها بخطه .

ومن أمانة العالم أن لا يفتى أو يقضى بما يراه باطلا ، فحرام عليه أن يفتى أو يقضى برأى غيره وهو لا يتردد فى بطلانه ، ويبقى النظر فى المسائل التى تعود الى الاجتهاد ولا يتعدى حكمها مراتب الظنون ، وهذا ما يمكن أن يكون موضع اختلاف الفقهاء فى قضاء العالم أو إفتائه بغير مذهبه ، كأن يقضى بين خصمين من أتباع بعض المذاهب على مقتضى المذهب الذى تقلداه . كان العالم الجليل قاسم بن محمد بن سيار يفتى فى الأندلس بمذهب مالك وهو يخالفه فى كثير من المسائل ، فقال له أحمد بن خالد : أراك تفتى الناس بما لا تعتقد : وهذا لا يحل لك ، فقال : إنما يسألونى عن مذهب جرى فى البلد فعرف ، فأفتيهم به ، ولو سألونى عن مذهبى لأخبرتهم به .

ويسهل على العالم السبيل لإفتاء القوم بمذهب إمام تقلدوه أن المجتهد وإن خالف غيره من المجتهدين فى بعض الأحكام المستنبطة، يرى أن عبادات كل مجتهد ومن يقلدونه فى مذهبه صحيحة، لأنها قائمة على الاجتهاد الذى هو أقصى ما كلفهم الله بالعمل عليه، وليس عليهم أن يكون اجتهادهم مطابقا لما هو الصواب عند الله.

وممن لا يجيز للعالم أن يحكم بمذهب غير راجح فى نظره أبو بكر الطرطوشى، فإنه كان ينكر ما يفعله ولاة قرطبة من أنهم اذا ولوا أحدا القضاء شرطوا عليه أن لا يخرج عن قول ابن القاسم، وقال: هذا جهل عظيم.

والحق أن ولاية القضاة المتبعين لمذهب بعض الأئمة المقتدى بهم — عند فقد المجتهدين — صحيحة، ولولى الأمر أن يشترط عليهم الحكم بالمشهور أو الراجح فى مذهب يعينه عند الولاية، ضبطا للأحكام وسدا لأبواب اتباع الأهواء، ولا حرج فى قضائهم على هذا الشرط وإن حكموا بما لا تطمئن اليه نفوسهم، فإن آراء من لم يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق أو المقيد تسقط أمام آراء المجتهدين، وليس لها فى نظر الشارع من قيمة، أما بالغ رتبة الاجتهاد فليس له أن يحكم بغير ما قامت الأدلة القاطعة أو الراجحة على أنه حكم الله الذى شرع لعباده.

واذا كانت الأمانة فى العلم منبع حياة الأمم وأساس عظمتها، زيادة على أنها الخصلة التى تكسب صاحبها وقارا وجلالة، كان حقا علينا أن نعطف على نشئنا من طلاب العلم، ونتخذ كل وسيلة الى أن نخرجهم أمناء فيما يروون أو يصفون، ذلك بأن نتحرى فى دروسنا الأمانة فيما نروى، ولا نجيب سؤالهم إلا بما ندرى أو بقولنا «لا ندرى» واذا أوردنا رأيا استبنّا بعدُ أنه مأخوذ من غير أصل، قلنا لهم فى صراحة: قد أخطأنا فى الفهم، أو خرجنا على ما تقتضيه أصول العلم.

ومن أساليب تلقينهم الأمانة فى العلم أن نتلق مناقشاتهم بصدر رحب ، ولا نقتل آراءهم بالكلمات الجارحة ، أو نتعسف فى ردها فندافعها بما نعتقد فى أنفسنا أنه غير كاف لدفاعها .

وعلى الأستاذ بعد أن يقوم بحق الأمانة ملاحظة سير الطلاب حتى اذا وقع أحدهم فيما يدل على أنه غافل عن رفعة شأنها وغزارة فوائدها ، أرشده الى أن العلم بغير أمانة شر من الجهل ، وأن ذكاء لا يصاحبه صدق اللهجة نكبة على العقل (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) ؟

محمد الخضر حسين

الطُرف والمُلح

خطب سعيد بنُ شريك بحِمْصَ ، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناسُ ، إن الاسلامَ حائط مَنيعٌ ، وباب وَثيقٌ . فحائطُ الاسلام الحقُّ ، وبابهُ العدلُ . ولا يزالُ الاسلامُ منيعا ما اشتدّ السلطانُ ؛ وليس شدةُ السلطانِ قتلا بالسيف ولا ضربا بالسوط ، ولكنْ قضاءٌ بالحق ، وأخذٌ بالعدل .

***

هجا أبو الهَوْل الحِمْيَرِيُّ الفضلَ بنَ يحيى ثم أتاه راغبا اليه ، فقال له الفضل: ويْلَكَ ! بأيِّ وجه تلقانى ؟ ! قال : بالوجه الذى ألقَى به ربى وذنوبى إليه أكثرُ ، فضحِك ووصله .



سورة الملك

٤

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ) .

تفسيرات لغوية عامة

الخَلْقُ هنا هو إبداع الشيء من غير أن يكون هناك أصل سابق يقلّده الخالق ، ولا مِثالٌ يَقيس عليه ويَحْتَذِيه . والخلق بهذا المعنى لا يكون إلا لله القدير على كل شيء ، ولهذا قال سبحانه فى بيان الفصل والفرق العظيم بينه وبين ما اتخذوه آلهةً من دونه : (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ !) .

أما الخَلْقُ بمعنى تحويل الشيء من حال الى حال ، ونَقْلِه من صفة الى صفة ، فقد أعطاه الله تعالى بعضَ خلقِهِ فى بعض الأحوال ، كما أعطى سيدَنا عيسى عليه السلام تحويلَ الطين من صفة الطينية الى صفة الطَّيْرية حيث قال : (وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى) .

والسموات جمع سماء، وسماءُ كُلِّ شيء أعلاه، كما أن أرض كلِّ شيء أسفلُه، ومن ذلك قول الشاعر يَصِفُ فرسا :

وَأَحْمَرَ كَالدِّيباج أَمّا سماؤُه   فَرَيًّا وأما أرضُه فَمُحُولُ

يريد أَنَّ ظَهرَهُ ممتلئ وأن بطنه ضامر .

والطِّباق جمع طَبَقٍ كجَبَلٍ وجبال، أو جمع طَبَقَة كرحَبَة ورحاب ؛ والطبَق والطبَقة (ومثلها الطريقة فى أحد معنييها كما سنبينه) كلُّ شيْءٍ وُضِع فوق غيره وضعا جَعَلَ جميعَ أجزاء كلٍّ واحدٍ منهما مُسامِتةً مُقابِلة لجميع أجزاء الآخَرِ لم يَخرجْ جزءٌ من أحدهما عن الآخر .

والمعنى الثانى للطريقة هو الطريق أى السبيل الذى يُسلَك ويسارُ فيه .

والتفاوت هو الاختلاف وعدم التناسبِ والتوافقِ بين الشيئين ، بأن يفوتَ ويذهبَ من أحدهما بعضُ ما فى الآخر فواتا يوجبُ نقصا واعوجاجا وعدمَ حكمة .

ورَجْع البصرِ كرّتين هو ترديده فى رؤية الشيء وتكرير النظر اليه مرة فمرة وهكذا حتى تتبينَ حقيقةُ ذلك الشيء . فالغرض من تثنية الكرَّة التكثيرُ لا الحصرُ فى اثنتين فقط ، وهذا استعمال معهود فى لسان العرب : يُثَنُّون الكلمةَ ويريدون ما هو أكثرُ من التثنية ، كقولهم لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ وحَنَانَيْكَ .

والفُطورُ جمع فَطْرٍ ، وهو الصَّدْع والشَّقّ .

وانقلاب البصر خاسئا هو رجوعه الى حالته قبل النظر قارًّا ساكنا منصرفا عن النظر فى خلق الرحمن ، صاغرا مَهِينا متحيِّرا لعدم عثوره على تفاوت مَّا .

والحسيرُ هو الكليل التعِبُ المنقطعُ عن الوصول الى الغاية التى كان يريد الوصولَ اليها .

التفسير

أيقظ اللهُ تعالى فى الآية السابقة عقولَ العباد الى النظر فى آثار قدرته وأحكامه وحِكَمِه وآياتِه فى الأنفس ، من خلقه الموتَ والحياةَ ليبلوكم أيُّهم أحسنُ عملا ، ليعلموا أن آثاره سبحانه فى أنفسهم على هذا الوجه شهادةٌ صادقةٌ بأنه وحده المستحق للتبارُك ، المتوحِّدُ بالتعالى والبقاء والفضل العظيم وسائرِ الكمال الإلهى .

ثم أيقظها مرة ثانية فى هذه الآية الى النظر فى آثار تصرفه جلّ وعلا فى الآفاق ، ليعلموا كذلك أن آثاره عز شأنُه فى السموات السبع تشهد بما شهدت به آثارُه فى أنفُسِ العباد .

قد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أن السموات سبعٌ ، وكذلك فى عدة آيات أُخَرَ ، فكان ذلك منه سبحانه توجيها للعقول الى النظر والتدبر فى أثرين عظيمين من آثاره فى خلقه ، كلٌّ منهما شاهدُ صدقٍ بكمال الله الخلاق العليم — هذان الشاهدان أحدهما عالَمُ السموات المتعددةِ (١) وثانيهما كونُ عددِها سبعا (٢) على ما سنبينه ؛ ومما لا مِراء فيه أن كون السموات متعددةً ، وكونَ عددِها سبعا ، أمر معروف مستفيض بين الأمم قديما وحديثا كما ستعرفه .

ولهذه الشهرة والاستفاضة كان الاقتصار فى الآيات الكريمة على ذكر السبع ، وحينئذ لا تكون هناك منافاةٌ بين الاقتصار على السبع فى القرآن والزيادةِ عليها اذا فُرِضَ أن البحث والنظر فى ملكوت السموات قد أوصلا الباحثين الناظرين الى اثنتين أُخْرَيَيْنِ أو أكثر حتى صارت السموات تسعا (٣) .

---

(١) والتعدد يصدق على أقل من السبع . (٢) فذكر السبع نص فى أن التعدد ليس اقل من السبع .

(٣) راجع تفسير الفخر فى سورة البقرة .

على أننا نعلم الآن أن هؤلاء الباحثين قد وصلوا ببحثهم الى معرفة عالَمَين سماويين آخرَين هما (نبتون واورانوس) فبهما تكون السموات تسعا ، وبهما يزيد عدد الآثار الإلهية الشاهدة بوحدانيته تعالى وجلاله ، وتعظمُ[1] الشهادةُ قوةً وصدقا ، ويقوَى قيامُ حجةِ الله البالغةِ على أولئك الذين اتخذوا من دونه آلهةً أخرى ، وبدَّلوا نعمةَ الله كفرا .

قلنا فيما سبق : إن كلا من تعدد السموات وكونِ عددِها سبعا كان معروفا مشهورا بين الأمم القديمة والحديثة ، فما يدل على الأول وهو تعددها قولُ الله تعالى حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام فى محاجته لفرعون وأمته : (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . قَالَ[2] رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) وقولهُ تعالى خطابا لنبينا صلى الله عليه وسلم فى شأن أمته : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ) .

ومما يدل على الثانى وهو كونها سبعا قولهُ عز وجل فيما قصه من مُحَاجَّة سيدِنا نوحٍ عليه السلام إذ قال لقومه : (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) . وقولُه سبحانه فى صَدَدِ مُحاجَّةِ رسولنا صلى الله عليه وسلم لأمته : (قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) .

فأنت ترى أن السموات قد ذُكرتْ بلفظ الجمع الدال على التعدد فى الآيتين : الأولى والثانية ، ومعدودةً سَبْعًا فى الآيتين : الثالثة والرابعة ، ولم يُنكرْ أحد من الأمم القديمة كفرعونَ وقومهِ وأمةِ سيدنا نوحٍ عليه السلام ، ولا من الأمة الحديثة وهى الأمة المحمدية ، كونَ السمواتِ متعددةً ، ولا كونَها سبعا ، مع حرص هذه الأمم كلَّ الحرصِ على تكذيب رسلهم وظهورهم عليهم فى المحاجة .

---

(١) فان تعدد الشاهد الصادق أدل وأكثر إثباتا للحق . (٢) أى سيدنا موسى عليه السلام .

وحينئذ لا يكون ذلك الخَرَسُ الذى قطعهم عن المحاجة إلا لأن الحجة التى أقامها عليهم رسلُهم قد جاءتهم على طِبْق ما يَعْلَمُون .

زد على ذلك أن انهزامهم من ميدان المحاجة اعتراف ضمنىٌّ أَىُّ اعترافٍ بتعدد السموات وأنها سبع كما بلّغهم رسلُهم الصادقون ؛ على أن بعض الأمم قد اعترف اعترافا صريحا بالأمرين معا ، كما فى الآية الرابعة المتقدمة ، وهى قوله تعالى : (قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) . وفى قراءة أبى عَمْرٍو وسَهْلٍ ويعقوبَ (سَيَقُولُونَ ٱللَّهُ [1]) أى اللهُ ربُّ السمواتِ السبع ، وليس بعد هذا إقرار يدلنا على أن الناس كانوا يعلمون تعدد السموات وأن عددها سبع سموات .

ثم إن هذا التعدد لا ينافى التعبيرَ بالإفراد فى بعض الآيات كقوله تعالى : (وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ [2] وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [3]) فإن كلمة السماء مفردةٌ فى اللفظ جَمْعٌ فى المعنى ، أَلَا ترى قوله تعالى : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ) . وقوله : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ) فقوله تعالى : (فَسَوَّاهُنَّ) وقوله : (فَقَضَاهُنَّ) يدلان على أن كلمة السماء المفردة فى اللفظ هى جمع فى [4] المعنى .

ولعلنا نوفق لإتمام الكلام فى مبحث السموات فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى .

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم العليا سابقاً

---

(١) قراءة إثبات اللام مع لفظ الجلالة موافقة فى المعنى لقراءة حذفها ، فإن قولك : من رب هذا ولمن هذا ؟ فى معنى واحد . (٢) بقدرتنا الكاملة . (٣) لذو وسعة وغنى غير محدود . (٤) أى أنها اسم جنس فتارة يلاحظ الجمع فى معناها فتعامل معاملة الجمع كجمع ضميرها فى نحو قوله تعالى : (فسواهن) وتارة يلاحظ لفظها فتعامل معاملة المفرد كما فى قوله تعالى : (السماء منفطر به) .

تقرير
اللجنة الازهرية

فى التعليق الذى هذى به صاحبه حول القران الكريم

٢

٢ — القول فى الجن والشياطين

ادعى هذا الكاتب أنه يفسر القرآن بالقرآن ، وتحت هذا الستار طفق يعبث بدين الله تعالى ويلصق به ما هو براء منه ، وفى الوقت الذى أعرض فيه عن السنة النبوية الصحيحة وعن كلام علماء الاسلام الراسخين فى العلم تراه مولعا بأقاويل الملاحدة وأباطيل المبتدعة ينقلها على هوامش المصحف ، ولا يخجل من أن يدعيها لنفسه ويزعم أنها فهم منحه الله إياه فى كتابه .

وكلامه فى هذه المسألة من أقوى الأدلة على أنه رجل لا يعرف الأمانة فى نسبة الآراء لأصحابها صحيحة كانت أو فاسدة ، كما أنه يدل على ولوعه الشديد بالبحث عن الآراء الفاسدة المنبوذة رجاء أن يعرف بين الناس ولو بالزيغ والضلال .

ولقد كنا بصدد أن نعرض عن هذه المسألة لأن متقدمى علماء الاسلام رضى الله عنهم قد كفونا مئونة البحث فيها والرد على مخالفيهم ، ولكن الرغبة فى ألا ينخدع أحد من الناس بما جاء به هذا الكاتب ، والحرص على ألا يفهم من يميل اليه ممن غلبت عليهم العلوم المادية أن مجتهدى هذه الأمة وسلفها الصالح لم يلتفتوا الى مثل ما التفت هؤلاء اليه ، كل ذلك يدعونا الى العناية بهذه المسألة وبيان وجه الصواب فيها ، ومن الله العصمة والتوفيق :

ادعى هذا الكاتب أنه لا وجود للجن والشياطين بالمعنى المتعارف عند الشرعيين وجمهرة الفلاسفة — وهو أن الجن خلق مغاير للنوع الإنسانى — على اختلاف فى التفصيل بين رجال الشريعة والفلاسفة سنأتى عليه بعد ، وبناء على هذه الدعوى تأول آيات الكتاب العزيز بما يرجع هذين الجنسين الى صنف من الإنسان ممتاز عن باقيهم بالتمرد والاستكبار ، وعند ما شعر بخطئه أراد أن يتداركه فأخذ يتخبط كالممسوس فيقول : يطلق الجن على العالم الخفى وجن كل شىء أوله وجن الجيش قواده ، وبقوله فى الشياطين : الحيات والثعابين ، إلى غير ذلك .

ولو أراد الرجوع للصواب لقرر بطلان ما زعمه أولا واقتصر على ما هو معروف ومقرر فى معنى النوعين .

ومن قبل هذا الكاتب قد اختلف الناس فى وجود جنس مغاير للإنسان له المقدرة على التشكل بالأشكال المختلفة والإتيان بالأعمال العظيمة الشاقة : فذهب أهل الأديان وفلاسفة الاسلام الى وجوده ، وذهب بعض الفلاسفة ممن لا يدين بدين الى عدم وجوده ، وقد استدل منكر وجوده على الإنكار بأمور :

(منها) أنه لو كان موجودا لكان جسما إما كثيفا وإما لطيفا ، وكل منهما ليس صحيحا ، فيجب ألا يكون موجودا ؛ فأما عدم صحة كونه جسما كثيفا فلأنه لو كان بهذه الحال لشاهدناه كما نشاهد سائر الأجسام الكثيفة ، ونحن لا نشاهد شيئا من ذلك ؛ وأما عدم صحة كونه جسما لطيفا فلأنه لو وجد على هذا النحو لكان بصدد أن ينعدم بمجرد وجوده ، لأن الجسم اللطيف لا يتحمل الرياح العاصفة ونحوها ، ثم إن الجسم اللطيف ليست له المقدرة على الإتيان بالعجائب ؛ ومعتقد وجود هذا النوع يقرن باعتقاده هذا اعتقادا آخر وهو أنه قادر على هذه الأمور .

(ومنها) أن هذا الجنس لو كان موجودا مخالطا لنا لحدث البتة من مخالطته لنا إما عداوة يظهر لها أثرها من الضرر والإفساد ، وإما صداقة ينشأ عنها صلاح ونفع .

(ومنها) أن القول بوجود هذا الجنس مما يفضى الى إفساد عقيدة من يعتقد بوجوده، لأنه يبطل نبوة الأنبياء بما يورث من الشبهة فى معجزاتهم.

وهذه شبه أوهى من بيت العنكبوت يكفى فى نقضها أن نقرأها، فانها تنطق بفساد نفسها.

وقبل الخوض فى تفنيد هذه الشبه نسائل هذا الزاعم ومن على شاكلته: أهو ممن يؤمن بالله واليوم الآخر ويعتقد أن الله قادر على إيجاد خلق مخالف لما يألف الناس ويعتادون، ويكون له خاصة تمنعه أن يتأثر بالعواصف ونحوها وتجعله قادرا على التشكل والمجيء بعجائب الأمور مع كونه جسما لطيفا، وأن يكون مع ذلك غير صديق لنا ولا عدو، ويمنعه الله من التسلط على الأدلة التى نصبها الله تعالى لتأييد أنبيائه ورسله — أهو ممن يؤمن بذلك، أو هو على العكس من هذا يعتقد أن الله لا يقدر على مثل هذا؟! فإن كان من الفريق الثانى، فقد كفانا مئونة البحث معه والتصدى له بإدحاض مفترياته، فإن الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر يستدعى الإيمان بجميع ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه فى كتابه الذى عجز عن مقارعته فرسان البلاغة أيام التنزيل الذين تصدوا لمعارضته ولم يدركوا من ذلك مأربا، فلم يسعهم إلا الإذعان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو الإصرار على معاندته من غير حجة ولا بينة؛ وإن كان من الفريق الأول، فنحن نتكلم معه فى إبطال هذه الشبهة، وإليك البيان:

عن الشبهة الأولى:

اذا كانت قدرة الله تعالى صالحة للتعلق بجميع الممكنات — ولا شك أن الجن أو الشيطان بالمعنى الذى يعرفه المثبتون أمر ممكن الوجود — فما المانع من وجوده على أن يكون كل منهما جسما لطيفا مغايرا للإنسان قادرا على التشكل بأشكال مختلفة، وأن يكون الجن فيهم المؤمن وفيهم الكافر، أو بعبارة أخرى الخير والشرير، وعلى أن يكون

الشيطان شرا محضا — وهذا رأى الشرعيين فى هذين النوعين : أو ما المانع من أن يكون كل منهما جواهر مجردة عن المادة وعلائقها فلا يكون جسما ولا جسمانيا ، ويفترقان بنحو ما تقدم عند الشرعيين ؟ :

ما المانع من وجود هذين الصنفين من المخلوقات على أن يكونا محفوظين من المؤثرات العادية ، وعلى أن يكون لهما من الأفعال والغرائب ما يعجز عنه كبار الأجسام وعظام الخلقة ؟ : فمدار الكلام على أن وجود هذه الأنواع ممكن ، وعلى أن قدرة الله صالحة لإيجاده .

وعن الشبهة الثانية :

بناء على ما قدمناه فى دفع الشبهة الأولى فأى مانع من وجود خلق آخر من بين أيدينا ومن خلفنا ولا نراه وليس لنا معه عداوة ولا صداقة كما يقول هذا الزاعم — خصوصا وقد جاء فى الشرع الشريف ما يؤيد بظاهره أو بصريحه فكرة وجودهم وعدم نفيها (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) .

وعن الشبهة الثالثة :

أما احتمال دخول الشيطان أو الجنى فى الجذع مثلا (فأولا) لا يقدح فى معجزات النبي عموما ، فان معجزاته لا تنحصر فى هذا ونحوه ، و (ثانيا) أن النبى صلى الله عليه وسلم معصوم من أن يتأثر بالشيطان أو الجنى أو يتأثر بهما شىء مما يتعلق به ، فلا يصح هذا الاحتمال بحال من الأحوال .

وخلاصة القول أن هذه المخلوقات الغريبة من الممكنات التى لا مانع من وجودها عقلا ، وقد جاء الكتاب العزيز فى غير آية وكذلك السنة النبوية بوجود هذا النوع ، فلا سبيل الى جحده إلا بإنكار الكتاب العزيز أو السنة النبوية وقدرة الله تعالى ،

واذا وصل حال الباحث المنكر الى هذا الحد فليس انا معه كلام، ولا يصح أن نعنى بالرد عليه كما قدمناه.

وإليك ما جاء فى إثبات ذلك من الكتاب والسنة :

أما الكتاب فآيات (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ) (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) (وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) (إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) (إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) (قُلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ) الآية (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) الآية (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) الآيات (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) الآية .

وأما الأخبار فكثيرة، منها ما رواه مالك فى الموطأ عن صيفى بن أفلح، وفيه : « فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن بالمدينة جنا قد أسلموا — وكان قد تشكل بصورة حية — فمن بدا لكم منهم فآذنوه ثلاثة أيام فإن عاد فاقتلوه فإنه شيطان » ومنها ما رواه فى الموطأ أيضا عن يحيي بن سعيد قال : « لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم رأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رآه فقال جبريل : ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن طفئت شعلته » ؟ الحديث .

ومنها ما اشتهر وبلغ مبلغ التواتر من خروج النبى صلى الله عليه وسلم ليلة جن نصيبين وقراءته عليهم ودعائه إياهم الى الاسلام . وهو فى صحيح مسلم وأبى داود . ومنها قصة العفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته . وهى فى صحيح البخارى .

فقد استبان أن وجود الجن والشياطين بالمعنى الذى يعرفه المثبتون أمر لا نزاع فيه ، وأن إنكارهم لا يصدر إلا من جامد القريحة الذى لا يؤمن بالغيب ولا يصدق إلا بما يقع تحت الحس ، واذا كان كذلك فكيف يصدق بوجود الإله الذى لا تدركه الأبصار ولا تحيط به العقول ؛ وحينئذ فتأويل الآيات الواردة فى أخبار الجن والشياطين تأويل لا دليل عليه ، بل قام الدليل على بطلانه ، فهو تكذيب للقرآن تحت ستار التأويل ؛ وخير للمؤول أن يجاهر بأنه لا يقول بالقرآن ولا بالسنة النبوية حتى يعرف أمره ويفتضح شأنه فيكون الناس فى أمن من الانخداع برأيه والافتتان بما سماه جديدا فى الدين ، والله ولى التوفيق .

ومن الغريب قوله فى أول ما نقلناه عنه : «(ابليس) اسم لكل مستكبر على الحق»

قال الله تعالى فى إبليس : (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

فهل كل مستكبر على الحق منظر ومؤخر بالحياة الى يوم الدين ؛ وأين كان كل مستكبر على الحق حتى قال تعالى له : (فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) ؛ وهل كل مستكبر على الحق كتب عليه الشقاء والطرد من رحمة الله الى يوم الدين (وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ) أو لم يكن من بين المستكبرين من هداه الله للحق ؛ .

وهل جميع المستكبرين على الحق تصدوا لغواية الناس أجمعين إلا من عصم الله حيث يقول تعالى : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) .

وفى آية أخرى (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) وفى آية ثانية (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) .

المبحث الثالث فيما يتصل بالفروع الفقهية

وفيه مسائل

١ — حد السارق والسارقة

يقول فى صفحة ٨٨ سورة المائدة آية ٣٨ (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) الآية ما نصه : « واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطى معنى التعود أى السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم ويظهر لك من هذا المعنى أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده لأن قطعها فيه تعجيز له ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه » اهـ كلامه .

كان الأولى بهذا الكاتب الذى يدعى أنه يفسر القرآن بالقرآن أن يقول إنه يتصرف فى أحكام القرآن ، فإن استعصت عليه آية فى حملها على ما يريد ترقى الى التحوير والتعديل فى اللغة التى نزل بها ، لأن هـذا هو الذى ينطبق على صنيعه فى هذه الآية الواضحة والحكم الاسلامى المعروف ، كأنه أثرت فيه أفكار خصوم الاسلام الذين يتخذون هـذه الآية مطعنا عليه بأنه ذو أحكام قاسية ويعللون ذلك بنفس تعليل هذا الكاتب (أن قطع اليد فيه تعجيز لصاحبها) فقام إرضاء لهم يحرف كلام الله عن مواضعه وعما فهمه منه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال : إن لفظ السارق والسارقة يفيد أنه لا يحد السارق إلا اذا تكررت منه السرقة مرارا عديدة حتى صارت صفة ملازمة له ، ظانا من نفسه أن هذا الفهم يمكن أخذه لغة من اللفظ ؛ وقد خاب ظنه

وظهر جهله بلسان العرب الذين وضعوا للصفة ثلاث صيغ مختلفة متباينة لا تستعمل إحداها فى معنى الأخرى إلا لدليل ، كباقى الألفاظ المجازية ينقل فيها اللفظ من مكانه الى مكان لفظ آخر لدليل ، وأين هو فيما نحن بصدده ؛ وهذا الوضع معروف عند أبسط طلاب العلم ومذكور فى كتب النحو المتداولة ، وإليك البيان :

الوصف إن كان ملازما لصاحبه فله صيغة خاصة اسمها الصفة المشبهة ؛ وإن تكرر من صاحبه جملة مرات فله صفة خاصة اسمها صيغة المبالغة ؛ وإن لم يدل على شىء من ذلك بل على مجرد الاتصاف ولو مرة واحدة كان هو صيغة اسم الفاعل ، والصيغة التى معنا منه ، إذ ليست من صيغ المبالغة ولا الصفة المشبهة كما يعلم بالرجوع الى اللغة .

وعمل النبى صلى الله عليه وسلم قاطع فى ذلك ، فهل من يجهل مثل هذا فى اللغة العربية والسنة الواضحة يقبل منه أن يخط حرفا واحدا فى فهم كلام العرب فضلا عن تفسير كتاب الله !

وبعد : فليس هذا الفهم الخاطىء مما يكفل المصلحة الاجتماعية التى يدعيها ، لأنه يطلق العنان للسارقين والسارقات فى الاعتداء على الأموال حتى يصل كل سارق الى أن تصير السرقة ملكة له ولا تقطع يده إلا اذا ثبت عليه ذلك ، وهيهات مثل هذا الإثبات . ثم هل هذا هو الذى ينطبق على حكمة الشارع الحكيم : يترك الجانى بلا عقوبة حاسمة تردعه من أول الأمر حتى يبتلى بهذا المرض الاجتماعى الفادح الذى قد يجر الى قتله أو قتل غيره ، ثم بعد ذلك يقطعه بعد أن يكون قد آذى المجتمع عدة مرات وأصبح من العسر علاجه ؟! وقد دلت المشاهدات على أن عقوبة السارق بغير القطع الوارد فى الشريعة الاسلامية لم تكن دواء ناجعا لاستئصال شأفة هذا الداء وشفاء النفوس منه .

هـذا فضلا عن أن حكم قطع اليد فى السرقة ولو مرة واحدة حكم لم يختلف فيه أحد من المسلمين ، ومن المعلوم بينهم بالضرورة ، وقد نفذه النبى صلى الله عليه وسلم بالفعل فى حوادث مفردة ، وكذلك أصحابه من بعـده وهم أئمة المسلمين كما يأتى ، فما مقدار جرم هذا الذى يجترئ على المولى سبحانه وتعالى بتبديل أحكامه ويفهم منها خلاف ما فهمه الرسول صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الفهم العامى الخاطىء ! وخصوم الاسـلام الذين طعنوا عليه فى هـذا الحكم لم يكلفوا أنفسهم عناء المقارنة بين قطع يد واحدة فى سرقة وما تقترفه هذه اليد المقطوعة من آلاف الحوادث من السرقات التى قد يكون فى واحدة منها القضاء على أسرة بحالها، أو على أطفال يتامى فجعهم السارق فى ثروتهم ؛ ولو فكر هؤلاء الطاعنـون أدنى تفكير علمى مبنىّ على ما عرف من علم النفس والأخلاق وشئون الاجتماع وأمراضه ما وسعهم إلا الإيمان بقانون الجنايات الوارد فى الاسلام عن رب العالمين العالم بأخلاق عباده وطباعهم ، ولعرفوا أنه القانون الوحيد الكافل للأمن العام .

وإليك بعض الروايات الواردة فى قطع يد السارق من مرة واحدة :

أولا — قال أبو بكر الجصاص من أئمة الأحناف صفحة ٤١٤ جزء ثان مانصه : « لم تختلف الأمة فى أن اليد المقطوعة بأول سرقة هى اليمين » .

وقال المجد بن تيمية فى منتقى الأخبار فى باب ما جاء فى كم يقطع السارق — من كتاب القطع فى السرقة : عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقطع يد السارق فى ربع دينـار فصاعدا » رواه الجماعة إلا ابن ماجه ، ورواه أحمـد فى مسنده . وقال المجـد : وفى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقطعوا يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا » رواه أحمد ومسلم النسائى وابن ماجه . وفى رواية قال : « تقطع يد السارق فى ربع دينار » رواه البخارى والنسائى وأبو داود . وفى رواية

قال : « تقطع اليد فى ربع دينار ولا تقطع فيما هو أدنى من ذلك » رواه أحمد . وعن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده » قال الأعمش : كانوا يرون أنه بيض الحديد ، والحبل كانوا يرون أن منها ما يساوى دراهم . متفق عليه ، وليس لمسلم فيه زيادة قول الأعمش .

ولم يجىء فى هذه الروايات مايفيد أن القطع مشروط بتكرر السرقة وكونها عادة للسارق كما يدعيه هذا الكاتب ! .

٢ — مسألة حد الزنى

وقال فى صفحة ٢٧٤ آية ٣٢ (اَلزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) : « (الزانية والزانى) يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل اذا كانا معروفين بالزنى وكان من عادتهما وخلقهما فهما بذلك يستحقان الجلد » انتهت عبارته .

والذى قلناه فيما قال فى آية السارق والسارقة يقال هنا ، والأحاديث وردت فى الحد على مرة واحدة كما وردت فى مسألة السارق والسارقة ، ولم يوجد أدنى خلاف فى مسألة حد الزنى ، كما لم يوجد خلاف فى حد السرقة .

وهذه بعض الروايات الواردة فى إقامة الحد على الزانى لأول مرة :

قال المجد بن تيمية فى منتقى الأخبار — باب ما جاء فى رجم الزانى المحصن وجلد البكر وتغريبه ما نصه : « عن أبى هريرة وزيد بن خالد أنهما قالا : إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أنشدك الله إلا قضيت لى بكتاب الله ، وقال الخصم الآخر — وهو أفقه منه — : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل . قال : إن ابنى كان عسيفا على هذا

(أجيرا عنده) فزنى بامرأته ، وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليـدة ، فسألت أهل العلم فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجل الرجم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد (أى ترد الى أبى الولد الزانى) وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس (لرجل من أسـلم) الى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها » قال فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسـول الله صلى الله عليه وسلم فرجمت » رواه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد .

ليلتفت حضرة القارىء الى ما جاء فى هذا الحديث من قول أبى الزانى : إن ابنى كان عسيفا على هـذا فزنى بامرأته ، فإنّ (زنى) فى عبارته صريحة فى أنه فعل الزنى ، وذلك لا يقتضى التكرار ، ولم يذكر فى هذه الحادثة ما يفيد أنها تكررت ، ولا أن ابن هذا الرجل كان معتادا ذلك ، وقد قضى النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الحد عليه وعلى من زنى بها ، وبين أن ذلك بكتاب الله تعالى ، فهل قضاء النبى صلى الله عليه وسـلم فى هذه الواقعة يدل على المعنى الذى أراده الكاتب من الآية الكريمة ؟ ! كلا بل يدل على خـلافه .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وإقامة الحد عليه . رواه أحمد والبخارى .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « خذوا عنى خـذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » رواه الجماعة إلا البخارى والنسائى . وعن جابر بن عبد الله أن رجلا زنى بامرأة فأمر به النبى صلى الله عليه وسلم فجلد الحد ، ثم أخبر أنه محصن فأمر به فرجم . رواه أبو داود .

وعن جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ماعز بن مالك ولم يذكر جلدا . رواه أحمد .

كل هذه الروايات لم يرد فيها ما يدل على أن الحد مقيد بالتكرار ، ولو كان هذا الشرط معتبرا فى الحد لسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن توفره قبل أن يقضى بالحد ، إذ هو القائل صلى الله عليه سلم : « أدرءوا الحدود بالشبهات » حتى قال لماعز حينما قدم نفسه لإقامة الحد عليـه : لعلك قبلتها لعلك كذا ، حتى نطـق باللفظ الصريح فى معنى الزنى والفعل المخصوص ، وعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم : « خذوه فأرجموه » .

أفبعد مبالغة النبي صلى الله عليه وسلم فى التحرى الى هذا الحد حقنا للدماء وصونا لهـا أن تراق فى غير موجب شرعى يتوهم عاقل أن الله تعالى يقول : لا تقيموا الحـد إلا على من اعتاد الزنى ، ثم يقيمه النبي صلى الله عليه وسلم بدون أن يثبت لديه أن المتهم به معتاد أو غير معتاد ، وبدون أن يسأل عن ذلك ؟ ! كأن هذا الكاتب يرمى النبي صلى الله عليه وسلم بالتساهل فى تطبيق الكلام العزيز على الحوادث التى رفعت اليه وطلب منه أن يقضى فيها بكتاب الله : وهذا مما يجل عنه مقام أصغر قاض يتصدى لإقامة العدل بين الناس ، فضلا عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم الذى هو أقضى القضاة وأعدل العادلين .

وقد بسطنا لك طائفة من النصوص لا تحتمل الريبة ولا تبيح لواحد فى وجهه قطرة من ماء الحياء وفى نفسه حبة خردل من إيمان أن يذهب فى فهم الألفاظ وتوجيه معانيها الى حيث يقوده الهوى ، طامعا فى ترويج سخفه وإيهام الناس أنه اكتشف من أسرار الدين ما لم يسبق به ، وتلك فعلة لا يجرؤ عليها إلا من غلبت عليه شقوته ، ومثل هذا جدير بأن تزل قدمه ويبوء بخسران مبين .

٣ — تعدد الزوجات

قال فى صفحة ٦١ آية ٣ من سورة النساء (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ) الآية ما نصـه : « (من النساء) نساء اليتامى الذين (كذا) فيهم الكلام لأن الزواج

منهن يمنع الحرج فى أموالهن ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا للضرورة التى يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضررا على المجتمع من تركه ولتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق أى (وإن خفتم ألاّ تقسطوا) ، (فإن خفتم ألا تعدلوا) » .

يفهم ذلك الكاتب من الآية أن تعدد الزوجات لا يجوز إلا بشرطين :

أولا — أن يكن يتامى فى حجره ولهن مال ويخشى عدم العدل فيه ، فحينئذ له أن يتزوج باثنتين فأكثر منهن ليرتفع هذا الحرج عنه فى أموالهن ، فالتزوج فى نظره يبيح للزوج أن يأكل من مال الزوجة ما شاء بغير إذنها ورضاها ، فكأن الدين يبيح للمرء أن يتخذ التزوج أداة لكسب المال ! وعلى هذا الفهم الغريب الذى لا يقره الدين لزم أن لا يباح تعدد الزوجات من غير اليتامى اللاتى فى حجر من أراد التزوج منهن ، وهذا من الدين بمكان بعيد ، فإن التعدد عند عدم خوف الجور جائز مطلقا لم ينكره مسلم من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى الآن ، وعليه عمل المسلمين من عهد البعثة .

الشرط الثانى — أن لا يخاف الجور . ولم يتكلم عليه ، وهو معروف فى الفقه .

وإنا نذكر لك ما ورد فى سبب نزول هذه الآية لتكون على بينة من أمرها ، وتعلم مقدار خطأ الكاتب وجرأته على الدين :

فى سبب نزول الآية روايات — قيل نزلت فى الرجل يكون عنده اليتيمة فى حجره ويريد أن يتزوجها بأقل من صداق مثلها ، فنهوا عن ذلك وأرشدوا الى أن يتزوجوا من غيرهن ما شاءوا : مثنى وثلاث ورباع ، وقيل نزلت فى الرجل كان يتزوج الى عشر نسوة فينفد ماله ويعمد الى مال اليتامى اللاتى فى حجره فيأخذ منه ما ينفقه على أزواجه ، فنهوا عن ذلك وأمروا بالتقليل من الزوجات الى أربع فقط .

وظاهر الآية أن المعنى : إن خفتم الجور فى مال اليتامى بسبب زواجكم منهن فاعدلوا عنهن وانكحوا ما طاب لكم من النساء الأجنبيات : مثنى وثلاث ورباع ، أو تمتعوا بما ملكت أيمانكم . فالآية لا تبيح مال اليتيمة بالزواج منها كما فهمه هذا ، بل تأمر بالعدول عن الزواج بها اذا خاف الوصى الجور فى مالها ، ولا يوجد فى الشرع ما يبيح مال الزوجة للزوج من غير رضاها (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ) الآية . وقد خرج هذا الكاتب عما شرط لنفسه فى المقدمة من ملاحظة سنن الاجتماع فى تفسيره ، فإن الحكم على الصورة التى فهمها لا ينطبق على قوانين الاجتماع ، كما أنه لم ينطبق على الشرع الشريف .

وكما لا تفيد الآية ذلك لا تفيد قصر التعدد على نساء اليتامى ، فقد اعتدى على الدين فى الأمرين ، وألصق به ما هو براء منه .

٤ — مسألة الربا

قال فى صفحة ٣٧ : « (الربا) الزيادة من الربح فى رأس المال وهو معرف ومقيد بالآية ١٣٠ فى آل عمران أى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) » .

وقال فى صفحة ٣٨ آية ٢٧٨ — ٢٨٠ ما نصه : « (ذروا ما بقى) (فلكم رءوس أموالكم — وإن كان ذو عسرة) كل ذلك يفيدك أن الكلام فى المعاملة الحاضرة ويبشر من يتوب بأنه لا يحاسب على ما كسبه من قبل (فله ما سلف) انظر ٣٨ فى الأنفال » يريد قوله تعالى : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) .

وقال فى صفحة ٥٣ آية ١٣٠ ما نصه : « (الربا أضعافا مضاعفة) أى الربا الفاحش وبمعنى آخر الربح الزائد عن حده فى رأس المال وتقدره كل أمة بعرفها راجع فى جزائه أواخر البقرة وقصة اليهود فى أواخر النساء ثم ارجع الى ٥ فى النساء » يريد قوله تعالى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ) .

يتلخص ما يستفاد من كلامه فى أمرين :

الأول — أن الربا غير الفاحش لا يحرم ، وهو ما كان معتدلا فى نظر الأمة التى فيها التعامل به ، وليس له أدنى سند ولا شبهة فى هذا الرأى الفاسد الذى يكل إباحة الربا الى الرأى والعرف ، وذلك أن آيات الربا قد نزلت — وهى من آخر القرآن نزولا — والناس يتعاملون به ، على معنى أن الرجل يكون له دين عند آخر ، فاذا حل الأجل قال للمدين : إما أن تدفع وإما أن أنسىء لك (أى أؤخر) وتزيدنى . فهو زيادة فى رأس المال بمقدار يتفقان عليه كيفما كان فى مقابل التأخير ، ولم يكن يعرف الناس وقت النزول ربًا سوى هذا ، فنهاهم القرآن عن ذلك بقوله تعالى : (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) لأنها تؤول باطراد الزيادة الى أن تصير أضعافا مضاعفة ، وبقوله : (وَحَرَّمَ الرِّبَا) ثم عرفهم أن من تاب من معاملة الربا السابقة على نزول آيات التحريم فله ما سلف ، وفى المعاملة القائمة له رأس المال فقط بقوله تعالى : (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ) (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ) (وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) فالآيات أفادت بوضوح حكم الأحوال الثلاثة فى معاملة الربا ، فقضت فى المعاملة السابقة على نزول آية التحريم بالعفو ، وفى المعاملة القائمة بأن ليس لهم إلا رءوس أموالهم ، وفى المعاملة المتجددة بعد ذلك بالتحريم بتاتا .

هذا هو صريح آيات الربا ، وهذا هو ما فهمه المسلمون كافة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى الآن ، وقد قال الإمام أحمد فى ربا النسيئة ، وهو الزيادة فى مقابلة التأخير : « إن هذا النوع من الربا لا يشك فى تحريمه أحد » فمعنى أضعافا مضاعفة ما يؤول الى ذلك باطراد الزيادة ، لا أن ذلك شرط فى أصل الربا المحرم ، كما فهم هذا الكاتب المخالف لما علم من الدين بالضرورة وعليه كافة المسلمين ؛ على أنه اذا كان المحرم من الربا هو الفاحش ، فكان الواجب عند التوبة أن يكون للتائب رأس ماله مضافا اليه

الربا المعتدل ، فكيف يقول الله تعالى : (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ) : فما فهمه لا يتمشى مع الآية بحال من الأحوال .

الأمر الثاني — أن ظاهر كلام هذا الكاتب أن هذه الآيات تشمل المعاملة الحاضرة الآن ، وأن من يتوب من التعامل بالربا فله ما سلف وتقدم التوبة ، وأن الآية تبشر المرابين بذلك اذا تابوا ، وهذه كبرى الدواهي الطامة من هذا المغرور الجاهل ، إذ التوبة من المظالم المالية لا تمكن إلا بردها الى أربابها ، وإلا استحل السارقون والغاصبون والمرابون أموال الناس بالباطل ، ما داموا يخرجهم من ذلك قولهم : تبنا الى الله .

وهذا ما لا يقبله العقل فى أدنى المعاملات الوضعية ، فضلا عن أن يكون قانون رب السموات والأرض بين عباده ، وأين مقام النظم الاجتماعية والسنن الكونية من مثل هذا السخف الذى يفسر به كتاب الله على سنن الكون ونظم الاجتماع كما يقول ! وما نرى مثل هذا التأويل إلا فعل من يرمى الى هدم الدين من مكان بعيد ، على أن حرمة الربا لا تخص الزيادة فى مقابلة التأخير ، بل تعم الزيادة مطلقا سواء أكان معها تأخير أم لا ، والسنة الصحيحة مستفيضة بهذا — من ذلك ما رواه أبو بكرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا سواء بسواء ، والفضة بالفضة إلا سواء بسواء ، ويبيعوا الذهب بالفضة والفضة بالذهب كيف شئتم » وما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الذهب بالذهب مثلا بمثل ، والورق بالورق مثلا بمثل » وعنه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائبا بناجز » الأحاديث فى صحيح البخارى جزء ٣ صفحة ٧٤ الطبعة السلطانية .

نقول إن السنة الصحيحة تدل على حرمة الزيادة مطلقا ، ولا تنافى أيضا ما جاء فى القرآن ، فإن الربا فى آية (وَحَرَّمَ الرِّبَا) عام فى الزيادة مطلقا ، وآية (أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً)

لا تنافى ذلك العموم، لأن ذكر بعض أفراد العام بحكم يوافقه ليس تخصيصا له . يعرف ذلك أهل الصناعة ومن عرف قواعد علم الأصول المرتكزة على الأدلة الصحيحة .

٥ — التسرى (الاستمتاع بملك اليمين بغير عقد)

قال فى صفحة ٦١ : « (أوما ملكت أيمانكم) انظر آية ٢٥ الى ٢٨ من النساء » .

وقال فى آية ٢٥ (وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) : « فيه عناية بالخادمات وتسهيل لمن يريدون الزواج ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوت انظر ٣٣ فى النور و ٦٠ فى الكهف ثم ٣٠ و ٣٦ و ٤٢ و ٦٢ فى يوسف (العنت) الحرج انظر ٢٢٠ البقرة و ٧ فى الحجرات و ١٢٨ فى التوبة و ١١٨ فى آل عمران وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات بحجة أنهن مشتريات بالمال أو أسيرات بالحرب فليس فى الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج مملوكة كانت أو مالكة فتدبر بذلك فى الآيات » .

وقال فى قوله تعالى فى سورة المؤمنون : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) : « اقرأ المعارج » ثم قال فى المعارج على مثل هذه الآية : « (أو ما ملكت أيمانهم) من الخدم فإن لهم ما ليس لغيرهم فقد يكون فى الإنسان فروج أى عيوب ونقائص يسيئه أن يراها الناس فيه ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه » انتهى كلامه .

والرد على هذا لأول وهلة من نفس القرآن الذى يدعى أنه يفسره به : قال تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الى قوله : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) وقال

تعالى : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) وفى آية تعدد الزوجات (فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) فالتمتع بملك اليمين فى كل هذه الآيات مقابل للنكاح بمعنى العقد ، فلو كان يشترط فى التمتع بالمملوكة مايشترط فى الحرة من العقد لما كان فى عطفه على النكاح فائدة ، وهذا واضح من قراءة الآيات التى فى هذا المقام ، فأين تفسيره القرآن بالقرآن ! وإليك البيان :

يقول الله تعالى فى آية تعدد الزوجات : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) فلو كانت المملوكة زوجة لا يحل الاستمتاع بها إلا بالعقد كالحرة لكان لها من الحقوق على زوجها ما للحرة ، فلا يجوز تزوجها على زوجة أخرى إلا بشرط العدل ، وهل تفرق الشريعة بين الزوجة الحرة والأمة ، فتفرض للأولى من حق المبيت معها وغيره ما لا تفرضه للأمة ؟ ! كذلك قوله تعالى : (لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ الى قوله : (إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ) .

لو كانت المملوكة زوجة لكانت ممن لا يحل له كباقى النساء يتحقق فى التزوج بها ما يقتضى المنع كغيرها ، فما معنى الاستثناء حينئذ ؟ ! وأيضا فى آية (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) اذا كانت المملوكة زوجة فما معنى العطف وما حكمته ؟ ! وهل الأمة أشرف من الحرة حتى يقال إنها عطفت على الأزواج وأفردت بالذكر لشرفها ، كما عطف جبريل وميكال على الملائكة وهما منهم ؟ ! على أن العطف بأو لا يكون إلا فى المتغايرين ، فقد خرج عن أصله وحكم على قوله بالفساد .

وأما تفسيره الفروج فى سورة المؤمنون بالعيوب فالآية ومقامها تكفى فى الرد عليه بأنه ليس أهلا لفهم المفردات الظاهرة الواضحة من كتاب الله ، فكيف بمقام التفسير والرجوع بالآيات الى مثيلاتها ، إلا أن يكون هو وضع معانى للألفاظ من عنده ، وجعل المعانى المجازية فى اللغة هي المعانى الحقيقية ، والحقيقية هى المجازية ، ثم هو

يحمل القرآن الكريم على ما وضع ، فيكون قد وقع فيما ادعاه هو على المتقدمين من أنهم يضعون الاصطلاح والقواعد ثم يحملون القرآن عليها ، وهو لا أصل له ، بل هى دعاوى كاذبة والقصد فيها سيء ، لأن القواعد إنما هى مأخوذة من كلام العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، ونفس القرآن هو من أول أصول هذه القواعد وأدلتها .

فتفسيره الفروج فى آية المؤمنون بالعيوب أخذا من الآية (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) هو تفسير للفظ الحقيقى الذى لا يقبل الكلام خلاف معناه الوضعى بالمعنى المجازى الذى ينافيه المقام .

وإليك آية (وما لها من فروج) التى هى فى سورة قٓ وما كتبه عليها بهامش صفحة ٤١٠ :

الآية (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) قال : « (فروج) عيوب ونقائص اقرأ الملك وراجع ٣٠ و ٣١ فى النور و ٧ فى الذاريات و ٩ فى المرسلات » هذه الآية معناها واضح ، وأن الله تعالى يلفت نظر الخلق الى هذا البناء الضخم الذى رفعه بلا عمد ، محكم الصنع بديع الإتقان ، مزينا بالكواكب ليس فيه شقوق ولا عيوب ، فهذا فى مقام التنبيه على النظر فى بعض مصنوعات الله تعالى وما فيها من أسرار وحكم لعلهم يؤمنون ، فأين هذا من مقام بيان ترك محارم الله تعالى التى منها الزنى وعدم العفة : ذلك الترك الذى رتب الله عليه الفلاح والظفر بثوابه جل شأنه ورضاه ، حيث قال عز من قائل : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) ، ثم أخذ يبين خلالهم وما به يكونون مؤمنين حقيقين بوصف الفلاح فقال : (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) الخ ، فهذه الآيات كآيات (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا الى أن قال : (وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) فيتعين أن يكون المراد بحفظ الفروج عدم التمتع إلا بالزوجة أو الأمة المملوكة .

وإذ قد بطل كلامه بنفس القرآن وبان خطؤه فى تفسيره بما أصَّل هو من قواعد وأصول ، ووقع فيما اعترض به على غيره من غير فهم لما قاله ، وخالف بذلك ما عليه المسلمون من أول الاسلام الى الآن ، لأن التمتع بملك اليمين مستفيض فى السنة معلوم من الدين بالضرورة ، فقد خرج على الدين واعتدى عليه اعتداء صريحا ؛ ولو أنه أنكر فى مواطن اشتباه أو خلاف للعلماء لكان محتملا ، ولكن هو الجهل بالإسلام والاستبداد بالرأى والهوى يوديان بصاحبهما ويفضيان به الى الهلاك ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

وإذا تأملت قوله تعالى فى سورة المؤمنون (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) عقب قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) إلى آخر الآية ، تعلم أن الغرض من الآية الأمر بعدم التمتع إلا بالزوجة والأمة ، وأن الكلام ليس فى ستر العيوب البدنية عن غير الزوجة والخادمة ، فإن من كان ببدنه عيب وأبداه لغير زوجته وخادمته لا يقال إنه عاد ؛ ثم انظر الى قوله تعالى : (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ) فإنه واضح فى التوسع فى الشهوات وعدم ضبط النفس وقصرها على ما أحل الله التمتع به من زوجة يستبيحها بالعقد ، أو أمة يستحل الاستمتاع بها بملك اليمين .

٦ — مسألة الزكاة

فى صفحة ١١٣ سورة الأنعام قوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) عرض ذلك الكاتب لتفسير هذه الآية جاريا على خطته من عدم التقيد بسنة ولا مراعاة ما عليه المسلمون ، فاضطرب رأيه بين الصواب والخطأ ، وانتقض على أحكام إسلامية مجمع عليها ، وإليك عبارته : « (وآتوا حقه) يفيد أن فى كل خارج من الأرض حقا لا بد من إعطائه

يوم حصاده زمن تحصيله وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق أمر الحاكم العام بأخذه والعمل على جبايته لبيت المال وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحالة » اه .

ونحن لا ننازعه أن فى الخارج من الأرض زكاة واجبة ، ولكننا نلفتك الى قوله : وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحالة ، فإن فى هذا خطأ فاحشا لا يرتضيه رجل يزعم أنه يفهم ، وأن له دينا يحرص عليه . وقبل السير فى بيان ذلك نضم اليه ما كتبه فى هذا الصدد عند تفسيره قول الله تعالى : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ) الآية — صفحة ١٥٠ سورة التوبة إذ يقول فى تفسير الرقاب ما نصه : « فى خلاصها من الاستعباد وفى هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم وفى الصدقات حق لهذا التعاون » اه .

ونحن نلفتك هنا أيضا الى قوله : « وفى هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم وفى الصدقات حق لهذا التعاون » فقد قصر عقله عن فهم الصواب فى بيان الرقاب التى يجوز شرعا أن تصرف فيها الزكاة ، وتخبط فيها تخبط الأعشى الذى يتهافت على قيادة الناس وهو لا يحسن أن يضع قدمه ، ومن ذلك يبدو أن خطأه فى هذا المقام راجع الى أمرين :

الأول — دعواه أن تقدير ما يخرج فى الزكاة موكول للأمة .

الثانى — جعله من مصارف الزكاة التعاون على التخاص من الشعوب القوية المتغلبة على الضعيفة .

أما الأول فهو ابتداع يخالف السنة الصريحة وما يعرفه المسلمون قاطبة من أن الزكاة مقدار حدده الشارع فى كل نوع من الأموال التى فرضت فيها الزكاة اذا كمل النصاب ، على ما هو مبين فى الكتب ولا يتسع له بحثنا هذا ، وليس هناك مذهب من

مذاهب المسلمين يرى أن الزكاة أمر مبهم فى الشرع يتقدر بحسب الحالة كثرة وقلة، وإلا كان هذا انحلالا فى نظام الأحكام، وفتحا لباب التأويل الفاسد، ودفعا لكل ذى دخل فى عقله أن يقدر فى الزكاة ما تشتهى نفسه؛ وكأن هذا الكاتب يرى الى أمر خاص؛ وكان الواجب عليه ألا يعلن ذلك باسم الدين لو كان يستحى، فإن هذا تبديل لشرع الله تعالى، وتلبيس على المسلمين.

ولعله بنى سخافته هذه على ما يزعم من أن مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم تجوز بحسب ما يراه أهل كل عصر وزمان، ومعنى ذلك أنه ليس هناك أحكام مستقرة من الشرع يجب على الأمة التعبد بها والعمل بموجبها، وقد سبق لنا تفنيد هذا الزعم والقضاء عليه.

وهاك بعض ما جاء من الأحاديث مؤيدا لما عليه المسلمون من أن الزكاة مقدار محدود:

قال فى منتقى الأخبار جزء ٤ من شرح نيل الأوطار صفحة ٢٠٢ — باب زكاة الزروع والثمار ما نصه: عن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « فيما سقت الأنهار والغيم العشور، وفيما سقى بالسانية نصف العشور » رواه أحمد ومسلم والنسائى وأبو داود، وقال: « الأنهار والعيون » (يعنى بدل الأنهار والغيم) وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « فيما سقت السماء والعيون أو كان عَثَرِيًّا (هو الذى يشرب بعروقه من غير سقى) العشر، وفيما سقى بالنضح نصف العشر » رواه أصحاب الكتب الستة الصحيحة إلا مسلما، لكن لفظ النسائى وأبى داود وابن ماجه « بعلا » بدل « عثريا » ورواه أيضا الإمام أحمد فى مسنده.

وفيه فى صفحة ١٩٨ باب زكاة الذهب والفضة: عن على عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « قد عفوت لكم عن صدقة الخيل والرقيق فهاتوا

صـدقة الرقة (الفضة) من كل أربعين درهما درهما وليس فى تسعين ومائة شيء فاذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم» رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذى . وفى لفظ « قد عفوت لكم عن الخيل والرقيق وليس فيما دون المائتين زكاة » وفى صفحة ١٩٩: عن على ابن أبى طالب عليه السلام عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا كانت لك مائتا درهم وحال عليها الحول ففيها خمسة دراهم وليس عليك شيء يعنى فى الذهب حتى يكون لك عشرون ديناراً فاذا كانت لك عشرون ديناراً وحال عليها الحول ففيها نصف دينار » رواه أبو داود ، إلى غير ذلك مما فاضت به السنة . وإنما تعرضنا للكلام على الذهب والفضة وإن كان زيادة على موضوع الخلاف ، ليكون ذلك ردعا للمكابر وكفاية للمستزيد .

وأما الأمر الثانى فقد خالف بتفسـيره الرقاب على نحو ما أسلفنا ما أريد منها فى القرآن ويساعده عمل النبى صلى الله عليه وسلم والمسـلمين من بعده ، فإن المتعارف فى مفهوم الرقاب هو الصـنف المعروف بالعبيد والإماء الذين ثبت اسـترقاقهم بالطريق الشرعى المعروف .

ولما كان الإسلام يسقط عن العبد بعض ما يكلفه الأحرار من الأحكام الشرعية لعـدم تفرغه لها بسبب اشتغاله بخدمة سـيده ، وكان مع هذا يعنى بعتقه ويرغب فيه السادة المالكين حتى يدخل مع الأحرار فى جميع التكاليف ، شرع إعطاء الزكاة للملوك حتى يسـتعين بها على التخلص من ربقة الملك ، وهو ما جرى عليه العمل فى جميع العصور الاسلامية .

وأنت ترى أن تغلب الشعوب القوية على ضعاف المسلمين لا يعتبر امتلاكا يخول مثـل ما فى العبيد والإماء من بيع وشراء واستمتاع بالنساء وما إلى ذلك . وعلى هـذا فما ادعاه الكاتب لا يدخل فى قوله تعالى : (وفى الرقاب) بل هو داخل فى قوله تعالى : (وفى سبيل الله) .

لا ينكر أحد أن تخليص الشعوب الضعيفة من الشعوب القوية أمر يفرضه الدين ويحتمه على الأمم متى استطاعوا الى ذلك سبيلا، وأنه لا مانع من صرف الزكاة فيه، إلا أنه يدخل فى قوله تعالى: (وفى سبيل الله) لا فى قوله تعالى: (وفى الرقاب) كما قلنا؛ فلو سايرنا هذا الكاتب فيما زعم فماذا تكون فائدة قوله تعالى: (وفى سبيل الله) إذاً، مع أنهم فسروه بالجهاد لنصرة الدين وإعادة عز المسلمين ؟!

٧ — مسألة الاسهام فى الغنيمة لذوى القربى

صفحة ١٤٠ آية ٤١ (وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ) الآية — يقول المفسر عند تفسيره هذه الآية ما نصه: «أصل فى تقسيم غنائم الحرب القربى فى الله لا فى النسب اقرأ الشورى الى ٢٣».

يرى أن القربى فى الآية المستحقة للقسم فى الغنائم هى القربى فى الله لا فى النسب، ومعناه أن أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم لا حق لهم فى الغنيمة، وهو خطأ من وجهين:

أولا — أن الأقارب فى الله هم من تربطهم رابطة الدين وأخوة الاسلام كما فى قوله تعالى: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فعلى كلام هذا الكاتب يكون جميع المسلمين لهم سهم فيما غنمه المجاهدون منهم، وهذا ما لم يقل به أحد من أئمة المسلمين ولا يفهم له معنى؛ وإن أراد تخصيص ذى القربى من المسلمين باليتامى والمساكين مثلا — فهو ما صرح به بعد فى الآية، فلا معنى لذكره، مع كونه مخالفا لما جرى عليه العمل فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

ثانيا — أن جميع الأئمة على أن المراد من ذوى القربى قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك اختلفوا فى تحديدهم: فمن قائل هم بنو هاشم فقط، ومن قائل هم بنو هاشم

والمطلب ، ومن قائل غير ذلك ، كما اختلفوا أيضا فى أن سهم ذوى القربى أهو ثابت لهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان فى حياته أم غير ثابت لهم بعد الوفاة ؛ وقد أحال الكاتب فيما كتبه كما هى عادته على بعض سور القرآن ، شأنه فى التلبيس والتضليل ، وقد رجعنا الى سورة مما أحال عليه فلم نجد فيها مناسبا للموضوع إلا قوله تعالى : (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ) فإن كان الكاتب أخذ من هذه الآية أن ذوى القربى لا حق لهم فى الغنائم فهو فهم فاسد ينبو عنه المنطق ، ولا يسوغ إلا عند أمثاله ، فإن معنى الآية أن الرسول لا يطلب من الأمة أجرا ماليا على التبليغ وما يقوم به من الإرشاد . وفرق واضح لمن يفهم بين أن يطلب الرسول أجرا على التبلغ ، وبين أن يفرض الله تعالى له ولذوى قرباه سهما فى الغنيمة من الكفار ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام : (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ) وهذه سنة الأنبياء والرسل : يفرغون وسعهم وقصارى جهدهم فى إرشاد أممهم الى سبيل الحق ، لا لغرض دنيوى ولا لمنفعة يبتغونها من الأمم ، ولكنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا .

قلنا إن حرمان قرابة النبي صلى الله عليه وسلم من الغنيمة كما يرى هذا الكاتب مخالف لإجماع المسلمين ، والدليل من السنة على أن القربى قرابة الرسول عليه السلام ما أخرجه البخارى من حديث جبير بن مطعم قال : « مشيت أنا وعثمان بن عفان الى النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله أعطيت بنى المطلب من خُمس خيبر وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شئ واحد » فهذا الحديث صريح فى أن قرابة النبي صلى الله عليه وسلم لهم حق فى الغنيمة ، وأن ذوى القربى فى الآية هم أقارب الرسول صلى الله عليه وسلم

لا كما يدعى هذا الكاتب، والآية بعد ما تقدم تدلك دلالة واضحة على أن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم القائم بأمر المسلمين من بعده له حق فى الغنيمة، وربما يقوم مقام هذا الحق ما يفرض له فى بيت مال المسلمين مما كان يتقاضاه الخلفاء الراشدون، كما يثبت ذلك التاريخ الصحيح، وليس أخذ سيدنا عثمان بحقه كاملا من بيت المال واحتجاجه على من نقم عليه ذلك بقوله: «إن عمر قد ترك حقه وقد أخذت بحقى» ليس هذا ببعيد، وأياما كان فهذا أمر آخر يرجع فيه للفقه، وليس من موضوعنا، وإنما عرضنا له لمناسبته لموضوعنا.

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أن ما فهمه الكاتب محض هذيان لا يستند الى أصل من كتاب الله ولا سنة رسوله.

٨ — مسألة الطلاق

قال فى صفحة ٤٤٥ سورة الطلاق الآية عدد ١ ما نصه: «(بيوتهن) بيوت الزوجية راجع البقرة من نمرة ٢٢٦ — ٢٤٢ والأحزاب نمرة ٤٩ والتحريم نمرة ٥ والنور من ٥ — ١٠ لتعرف أن الطلاق وإن كان فى يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية».

يفيد كلامه أن ما هو معروف عن بعض الطوائف المسيحية من أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمرا يخل بنظام العشرة آتيا من قبل الزوجة هو من حكم الاسلام بنص الكتاب العزيز فى غير آية، كما تفيده الاحالة على الآيات المذكورة، ويقرر أن المسلمين مخطئون من عهد النبوة المحمدية الى الآن، وغير فاهمين لكتابهم على ما ينبغى أن يفهم، حيث يحكمون ويفتون بوقوع الطلاق مهما كان سببه، ومن غير أن تأتى الزوجة أمرا يخل بنظام العشرة.

ونحن بإزاء هذه الضلالة والجراءة الغريبة نذكر للقارئ الآية الكريمة، ونبين له ما قيل فى تفسيرها مما يطابق نظمها ويساعد عليه أسلوبها، ويؤيده النقل الصحيح من

السنة النبوية وأقوال السلف الصالح، حتى يتبين أمر هذا الكاتب، ويعلم أن ما قاله هنا ضلال مضاف الى ضلاله السابق واللاحق ينبو عنه القرآن والإسلام:

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ).

قد اشتملت هذه الآية الكريمة على ثلاثة أحكام:

(١) أمر الرجال اذا أرادوا تطليق نسائهم أن يطلقوهن للعدة.

(٢) أمرهم بإحصاء العدة.

(٣) نهيهم عن إخراج الزوجات من بيوتهن ونهى الزوجات عن الخروج منها إلا أن تأتى الزوجات بفاحشة مبينة.

أما الأول فالقصد منه إرشاد الأزواج وأمرهم بالرفق بالنساء حيث يريدون مفارقتهن، كما أرشدهم الى الرفق بهن حيث يريدون المعاشرة، فذلك كقوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) وكما قال فى الآية اللاحقة فى هذه السورة (سورة الطلاق) (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ).

وإليك البيان:

اذا أراد الرجل طلاق زوجته فقد يطلقها وهى حائض، وقد يطلقها وهى طاهر؛ واذا طلقها طاهرا فقد يطلقها فى طهر مسها فيه، وقد يطلقها فى طهر لم يمسها فيه.

هذه أحوال قد يحصل الطلاق فى كل منها، وهى مختلفة: فنها ما يترتب عليه ضرر المرأة فوق الضرر الذى قد يلحقها بالمفارقة مهما كان شكلها، ومنها ما فيه رفق بها وعدم

إعنات لها : ذلك أن الطلاق فى الحيض يؤدى الى تطويل العدة على المرأة ، لأن العدة إنما تبتدئ من الطهر الذى بعد الحيض ، أو من الحيض التالى ، فاذا طلقها الرجل فى حال حيضها فهى فى هذه الحالة كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى معتدة تنتظر انقضاء عدتها ، والاتصال ببعل آخر قد يكون لها من معاشرته ما ينسيها ألم الفرقة السابقة ، فالطلاق فى الحيض يجمع للمرأة ألما إلى ألم (ألم تطويل العدة وألم الفرقة) .

كذلك اذا طلقت المرأة فى طهر مسها فيه التبس عليها أمر عدتها ووقعت فى حيرة ، إذ لا تدرى أحملت من ذلك المس فتعتد بوضع الحمل (وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) أم لم تحمل فعدتها بالأقراء ، فطلاقها فى طهر مسها فيه يوقعها فى حيرة ، ويضاعف ألمها ، أضف الى ذلك ما يلحقها من الألم اذا تبين حملها ، فإنها لا تدرى بعد ذلك كيف يتربى هذا الطفل الذى نشأ كأنه يتيم حيث فارقت أمه أباه ، ومتى تنتهى من الرضاعة والحضانة حتى تخلص من آثار هذه الزوجية التعسة وتتصل بزوج آخر ربما يكون لها معه السعادة والهناء !.

هذا من جهة المرأة ، وأما من جهة الرجل فقد يندم ندما شديدا على ما فرط من الطلاق اذا ظهر حملها بعد ، فكان من الرفق بالمرأة بل بالزوجين معا أن لا يكون الطلاق فى طهر مسها فيه .

أما اذا طلقت فى طهر لم يمسها فيه فليس فى الطلاق حينئذ إضافة ألم على ألم بالنسبة للمرأة ، ولا ما يوجب الندم من قبل الزوج ولا من قبلها أيضا إذا كانت هى المتسببة فى قطع أواصر الزوجية .

لهذا يقول الله تعالى : (إِذَا طَلَّقْتُمُ) أيها الأزواج ، أى اذا أردتم تطليق نسائكم فطلقوهن فى زمن تبتدئ فيه العدة أو تستقبلها فيه النساء من غير حيرة ولا ندم ، وذلك وقت الطهر الذى لم يحصل فيه مس وقربان للزوجات ، ويدل على هذا التفسير السنة النبوية :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأة له وهى حائض، فذكر ذلك عمر للنبى صلى الله عليه وسلم، فتغيظ عليه السلام ثم قال: « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها، فتلك العدة كما أمر الله تعالى » وفى لفظ « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » رواه أصحاب الكتب الستة إلا الترمذى فإنه روى منه الى الأمر بالرجعة، ولمسلم والنسائى رواية أخرى نحو هذه الرواية، وفى آخرها قال ابن عمر: وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ) انظر الى قوله صلى الله عليه وسلم: « فتلك العدة كما أمر الله تعالى » وقوله عليه السلام فى الرواية الأخرى: « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » يتبين لك جليا أن معنى قوله تعالى (لعدتهن) لزمن تبتدىء فيه العدة أو تستقبل فيه العدة، وهو زمن الطهر الذى لم يمسها فيه، كما هو مصرح به فى قوله عليه السلام: « فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ».

الى هنا ثبت ما ادعيناه فى بيان معنى الجملة الأولى، ويتلخص فى أنها إرشاد لأحسن الحالات والأشكال التى يقع عليها الطلاق اذا عزم وصمم عليه، وأمر باتباع ذلك.

الحكم الثانى — قال تعالى: (وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ) ومعناه اضبطوها واحفظوا عددها لتعرفوا متى تسقط عنكم الحقوق الواجبة المعتدة من نفقة وسكنى، ومتى يحل لكم من يحرم جمعه معها: كأختها وعمتها وخالتها ونحو ذلك مما يترتب على انقضاء العدة من الأحكام، وهذا أمر ظاهر ومعلوم.

الحكم الثالث — قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) ومعناه نهى الأزواج عن إخراج

المطلقات من البيوت التى كن فيها حين الطلاق مدة العدة ، كما فى قوله تعالى : أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ) ونهى الزوجات عن الخروج من تلقاء أنفسهن إلا فى حالة خاصة ، والحكمة فى هذا النهى الرفق بالمطلقة وتخفيف الألم عليها بإبقائها فى البيت الذى كانت ربته ومتصرفة فيه مدة العدة ، وإن كانت فى مدة العدة ليست كما كانت زوجة — إلا أن بعض الشر أهون من بعض ، فليس من المروءة أن يطلق الرجل زوجته ويخرجها فورا من منزله فتفقد كل ما كان لها من ترف ونعمى مرة واحدة ، فذلك من عدل الإسلام ورفقه بالمرأة وعنايته بها ، حيث حث على الإحسان اليها وهى مطلقة ، وفرض لها حقوقا على من كان زوجها ، كما فرض لها حقوقا عليه وهى زوجة (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) .

من جهة أخرى أن المطلقة يلحق مطلقها ما يتصل بها من سبة وسمعة سيئة ، وهى عرضة للخطبة وطلب الرجال لها من الطلاق الى الخروج من العدة ، وإن كان العقد عليها لا يجوز فى العدة — إلا أن الحرمة شىء والشهوة والعادة شىء آخر ، فكان من الحكمة أن تبقى بعيدة عن الرجال مدة العدة مراقبة ممن كان زوجا لها ، حتى لا يطلبها الرجال ولا تتصل بهم فيحدث ما يسىء سمعتها وسمعة مطلقها أيضا ، ولذلك لم يقصر النهى على الأزواج ، بل تعداهم الى الزوجات أيضا حيث يقول تعالى : (وَلاَ يَخْرُجْنَ) ومن جهة أخرى قد تكون الزوجة حاملا ، فكان من الحكمة إبقاؤها فى البيت حتى تنقضى عدتها بوضع الحمل ، صونا لماء الرجل .

فالجملة نهى للأزواج عن إخراج المطلقات من البيوت مدة العدة ، ونهى للزوجات عن الخروج أيضا مدتها ، ثم استثنى الله تعالى من ذلك الحكم حالة خاصة تقتضى خروج المرأة من بيت العدة هى ما اذا زنت وأريد إقامة حد الزنى عليها ، فيجب خروجها ليقام عليها الحد ، وهذه رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما . وفى رواية عنه أن تلك الحالة هى

بذاءة المعتدة وفحشها على أهل الزوج ، فحينئذ يحل للأزواج إخراجها من بيت العدة لسقوط حقها فيه حيث لم تحافظ على الكرامة التى أكرمها الله بها ، الى غير ذلك من الأقوال التى لا تخرج فى مجموعها عن أن الجملة الأخيرة فى سكنى المعتدة ؛ وليس من بين المسلمين من يقول إنها فى التطليق وسببه كما يزعم هذا الكاتب .

يصير معنى الآية الكريمة على ما سمعت هكذا : اذا عزمتم الطلاق فطلقوا نساءكم فى وقت تُبتَدأ منه العدة أو تستقبل منه ، فاذا طلقتم فاحفظوا عدد العدة واضبطوها ، ولا تخرجوا المطلقات من البيت زمن العدة ، ولا يباح لهن الخروج إلا بسبب غير شريف منهن .

فالجملة الأولى متعلقة بشكل الطلاق ، والثانية والثالثة متعلقتان بما يكون بعده ، ولا شك أن النظم حينئذ فى غاية الاتصال والمتانة .

أما اذا كان المعنى كما زعم هذا الكاتب فيكون هكذا : اذا أردتم تطليق النساء فطلقوهن لعدتهن ، ثم اذا وقع الطلاق فأحصوا العدة ، ثم لا تطلقوهن ، ولا يقع عليكم طلاق إلا بسبب غير شريف منهن .

وخلاصة هذا المعنى بيان لشكل الطلاق ، ثم الحكم بعد وقوعه ، ثم رجوع لذكر السبب الذى يبيح الطلاق ويقع عند توفره . ولا شك فى تفكك النظم الكريم وسوء الترتيب (حاشا لله) حينئذ ، إذ لو كان الأمر كذلك لكان مقتضى البلاغة وحسن الترتيب ومراعاة تقديم الأهم وموافقة العبارة للترتيب الخارجى أن يبين أولاً سبب الطلاق ، ثم شكله ، ثم ما يكون بعده .

وأيضا اذا كان الطلاق لا يكون إلا لسبب غير شريف من الزوجة ، فكيف يعقل أنها اذا اقترفت هذا السبب يبقى لها حرمة وكرامة حتى يؤمر الأزواج بالرفق بها وعدم طلاقها فى الحيض ، أو فى طهر حصل لها فيه قربان من الأزواج ! أليس من المعقول حينئذ أن ينبذها الرجل ويقطع معاشرتها على أى حالة كانت ؟ !

فقد استبان لك أن ما زعمه هـذا الكاتب مما لا يستقيم نقلا ، فإن المنقول عن السلف هو ما قدمناه من التفسير ، وهو الموافق لما عليه عمل المسلمين من وقوع الطلاق مهما كان سببه .

وعلى فرض أن معنى الجملة الأخيرة النهى عن التطليق كما زعم ، فالنهى شيء وعدم وقوع الطلاق المنهى عنه شيء آخر .

وماذا يقول فى طلاق ابن عمر رضى الله عنه لزوجته ؟ فقد أمره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الطلاق بالرجعة لزوجته ، ولا رجعة إلا اذا وقع الطلاق ، فهل كان هذا الطلاق لسبب غير شريف من الزوجة ؛ وأيضا فهذا الطلاق منهى عنه لوقوعه فى الحيض ، ولم يمنع النهى عنه من وقوعه ، فليس هناك تلازم بين النهى عن الطلاق وعدم وقوعه .

ولولا خوف الإطالة لشرحنا لك مسألة النهى ، وأنه يقتضى فساد المنهى عنه لو فعل ، أو لا يقتضيه .

وأما ما أحال عليه من الآيات الكريمة فلا يدل على ما يدعيه ، وإنما هى شنشنة نعرفها من أخزم . وقد أبنا لك فيما تقدم نموذجا من إحالاته واستنتاجه ، فلا حاجة بنا الى الإطالة فى مثل هذا الذى لا يصدر إلا عن الواهمين والمضللين .

كلمة ختامية

هذه طائفة من البحث أوردناها (كما وعدناك فى المقدمة) لنكشف لك ما يحتويه ذلك التعليق من الأباطيل التى لا تمت الى العلم بصلة ، ولا يصدر مثلها عن عقل فيه قبس من نور ، والتى لا يكاد يأبه لها بعد الذى بسطناه إلا من ران الضلال على قلبه ، وأعمته العصبية للجهالة فتمادى فى مكابرته ، وأمثال هذا الى ربهم موكولون .

واذا كان من واجب العلماء أن يحبطوا مساعى هذا الأفاك وأمثاله الخراصين ، ويقطعوا عليهم طريق التضليل بتفنيد مفترياتهم ، راجعين فى ذلك الى كتاب الله تعالى

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فليس من الهين أن يقفوا هـذا الموقف من رجل يشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد فى الدين بتحريف كلام القرآن عن مواضعه ، ليستفز الكثير من الناس الى الحديث فى شأنه وترديد سيرته ، وبذلك تبتهج نفسه ، ولا يؤلمه بعد أن يكون استسلم لشهوته وضحى بدينه وخرج على المسلمين ، كما فعل مثل ذلك من قبل .

نقول لم يكن يروق العلماء أن يتخذوا التحرش بهم والتحكك بالدين أداة يتعرف بها هذا الانسان الى الناس ، ولولا أنه الواجب الملقى فى عنقهم نهضوا لتأديته صيانة لعقائد البسطاء أن يتسرب اليها حسن الظن بهذه التخرصات اذا لم تصادف نكيرا ممن عهد اليهم حراسة الدين ، لما كنا لنصغى الى مثل هذا التعليق ، أو نكترث بهذا الهراء .

ولا يعنينا بعد أن يستتر هذا الحائر وراء ما يرمينا به هو ومن لف لفه من خدمة أغراضنا أو إرضاء سياسة خاصة .

وقد راعينا فى بحثنا هذا أن نتناول الأمور التى يكون تخبطه فيها أفحش خطرا ، وفهمه أسخف تأويلا ، تاركين أمورا أخرى قد يستطيع التهرب منها ولو من أضيق سبيل وبالارتكان الى أوهى الأسباب .

وعلى الجملة لم نقصد أن نعرض لجميع ما جاء فيه ، روما للاختصار ما أمكن ، واكتفاء بما أوردناه ، ليكون كمحذر للعالم الاسلامى من النظر فى تعليقه هذا ، أو الأخذ بآراء ذلك الرجل الذى لا يميز بين الحق والباطل ، ولا يفرق بين الدين والهوى .

كما راعينا أن نسير فى أسلوب البحث على ما يسهل فهمه ويستطاع الإلمام به لمتوسطى الإدراك .

ولعلنا بعد نكون قد أبرأنا ذمتنا الى الله من واجب الإرشاد ، وها هو الحق صراح بيّن لذى عينين ، وعلى الله قصد السبيل وبه التوفيق ؟

تنزيه الله عن المكان والجهة

بقية الكلام على سؤال الأستاذ محمود على المدرس بمدرسة المنتزه

قال حضرته ما ملخصه : إن الله فى السماء بمعنى جهة العلو ، ويدل لذلك آيات كثيرة وأحاديث عديدة ، ثم ساق من الآيات مثل قوله تعالى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) وقوله: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) الى غير ذلك ، ومن الأحاديث مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : هل من مستغفر فأغفر له هل من داع فأستجيب له » الخ .

ونحن نقول له : ما كان ينبغى أن تذكر هذه الآيات المتشابهة مجتمعة ، وكذلك أحاديث الصفات ، فإن هذا يلبس على الناس ويدع فى نفوسهم أثرا سيئا عند ما تمتلئ من تلك الظواهر التى لم تذكر فى الكتاب والسنة إلا فى مقامات معدودة ، وربما احتف بها من القرائن ما يوجب صرفها عن ظاهرها ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فيمن ذكر أنهم يكونون على يمين الرحمن ، معرفا إيانا أنه يجب تنزيهه عما يعطيه ظاهر لفظ اليمين فقال : « وكلتا يديه يمين » ولا يكاد يذكر ذلك فى مقام واحد على نحو ما تفعلون قصدا للتأثير فى الناس والتلبيس عليهم خصوصا من لا علم له بما ذكره أهل البيان من الاستعارات والمجازات والكنايات ، ولا ارتاض بصناعة المنطق ، ولا زاول العلوم العقلية ، ولا تعمق فى براهين العقائد ، ولا عرف ما قاله العلماء فى ذلك ، وقد قال تعالى : (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) .

ولا بد أن تكون قد عرفت أن السلف فى آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه، وأن الخلف يؤولون خوفا من التشبيه، فكلهم متفقون على التنزيه، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد فيقولون مثلا فى قوله تعالى: (يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ): المراد باليد القدرة؛ والسلف يفوضون بعد التنزيه فيقولون: إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئا خاصا من المعانى التنزيهية كما يفعل علماء الخلف. أما أولئك المتفيهقون الذين يعينون ويشبهون فهم مجسمون مشبهون يبرأ منهم السلف والخلف جميعا، فهم كراميون [1] لا سلفيون ولا خلفيون.

وليت شعرى أيثبت هؤلاء الجاهلون كل ما ورد من تلك الظواهر: فيثبتون له تعالى يدا بمقتضى قوله: (يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) أم يدين بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «كلتا يديه يمين» أم أيديا عديدة بمقتضى قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) أو يثبتون له عينا بمقتضى قوله: (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي) أم أعينا بمقتضى قوله: (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) الى غير ذلك، وهو كثير جدا ألف فيه ابن الجوزى وغيره، أو يقولون إن الله فى السماء بمقتضى (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي ٱلسَّمَاءِ) أم على العرش بمقتضى قوله: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) أم فى الآفاق بمقتضى قوله: (وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ) أم فى أماكنناوأحيازنا بمقتضى قوله: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) أم يثبتون له أصابع بمقتضى قوله: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» أم يثبتون له يمينا فى الأرض من حجر بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم: «الحجر الأسود يمين الله فى الأرض»؛ وبعد هذا فأى لون يثبتون له وأى طول وأى عرض يصفونه به الخ الخ؟!

ويرحم الله الإمام الغزالى حيث يقول: «من أخذ علمه من العبارات والألفاظ ضل ضلالا بعيدا، ومن رجع الى العقل استقام أمره وصلح دينه»

(١) أى منسوبون لمحمد بن كرام وهو من رؤساء المشبهة.

ولست أدرى كيف يخوضون فى هذا وهم لم يعرفوا حقيقة أرواحهم التى يحيون بها : فكيف يعرضون للكلام فيمن ليس كمثله شىء (سبوح قدوس رب الملائكة والروح) وقد أقام كل ذرة من ذرات الكون دليلا على وجوده ، حتى أصبحت معرفته بآثاره من أجلى الواضحات وأظهر الظاهرات ، ولنقل ما قال فيلسوف الإسلام ابن سينا فى بعض مؤلفاته :

الحمد لله بقدر الله ... لا قدر وسع العبد ذى التناهى

الحمد لله الذى من أنكره ... فإنما أنكر ما تصوره

الحمد لله الذى برهانه ... أن ليس شأن ليس فيه شأنه

أما معرفة حقيقته والوقوف على كنهه فهو من أول المحالات ، فإنه ليس بيننا وبينه مشاكلة ولا مناسبة ، فكيف يمكن أن تحيط به العقول وهى لا تحيط إلا بما شاركها فى نوع أو جنس أو فصل مما هو حادث مثلها ؛ فهو بكل شىء محيط ، ولا يحيطون به علما ، وإنما غاية ما نعلم منه وجوده وتنزيهه عن صفات المحدثات ؛ وقد علمنا فى أول ما علمنا تلك القضية العقلية مع برهانها الواضح فقلنا : تجب مخالفته تعالى للحوادث ، لأنه لو ماثلها لكان حادثا مثلها لكن التالى باطل فبطل المقدم . والإلهية يجب أن تكون أكبر من أن تخضع لسلطان عقل قاصر هو من صنعتها ، وقد عجز عن إدراك نفسه وعن حقيقة مايقع تحت حسه ، فيكفيه أن تدهشه تلك الآيات الباهرات وما أبدعه فى الأرض والسموات ؛ أما ما وراء ذلك فليس من علمه ولا يليق بمرتبته ولا بمرتبة الإلهية .

قال الجاحظ فى بعض كتبه : « إياك وأن تظن أن العلم بوجود الشيء يستلزم العلم بحقيقته ، أو الجهل بحقيقته يستلزم الجهل بوجوده ، فإنه اذا ضربك أحد فى ليل مظلم علمت وجوده لا محالة وإن لم تعرف شخصه » .

تاه الأنام بسكرهم ... فلذاك صاحى القوم عربد

تالله لا موسى الكليـــــم ولا المسيح ولا محمد
كلا ولا جبريـــــل وهو إلى محل القدس يصعد
علمـوا ولا النفس البسيـطة لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنـك أوحدى الذات سرمد
من أنت يارسطو[1] ومن أفلاط قبلك قد تفرد ؟ !
ما أنتمو إلا الفــــرا ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحـــــرق نفسه ولو اهتدى رشدا لأبعد

وإنى لأعجب كل العجب والله ممن يجعله على العرش : فأين كان قبل أن يحدث العرش ، وهل العرش غير محتاج الى من يحمله أم هو محتاج الى من يحمله ؟ ! وكذا حامله أيضا ، حتى تصل الى حامل غير محمول كما يقتضيه البرهان ، وهل يقولون إن الله محتاج الى العرش والعرش غير محتاج اليه ، أم كلاهما محتاج لصاحبه ، أم ماذا يقولون ؟ ! وهل العرش أكبر منه تعالى أم مساوٍ له ، أم هو عز وجل يزيد عليه : وليت شعرى بعد ذلك من أى العناصر هو ، وكيف تركيبه الخ الخ ؟ ؟ ! ومتى ثبت له بعض لوازم الجسم ثبت له جميعها ، وقد بالغ الإمام الرازى فى الرد على القائلين بذلك ؛ وله فيه كتاب سماه « أساس التقديس » ولننقل لك شيئا مما قاله علماء الإسلام فى التنزيه ، ونبدأ بعبارة الرازى :

كلام العلماء فى التنزيه

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى: (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) : فى الاستواء عند الخلق تأويلات: أولها أنه كناية عن تمام الملك ، كما يقال جلس فلان على عرش المملكة وإن لم يكن

(١) هو أرسطاليس واضع المنطق . وأفلاط هو أفلاطون أحد فلاسفة اليونان وهو أستاذ أرسطو وقد تصرف الشاعر هذا التصرف لأنهما أعجميان وهم لا يبالون بالاسماء الاعجمية كما قالوا : عجمى فالعب به .

هناك عرش ولا جلوس، فيكون مثل قوله تعالى حكاية عن اليهود: (يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ) كناية عن البخل. ثم قال: إن من ملك بلدا صغيرا لا يحسن أن يقال فيه جلس على العرش، وإنما يحسن ذلك فيمن ملك البلاد الشاسعة والأقطار الواسعة. ومما قاله: إن العرش يطلق على الملك، وعلى السرير الذي يجلس عليه الملك ووزيره أمامه على الكرسي، فالعرش والكرسي في العادة لا يكونان إلا عند عظمة المملكة، فلما كان ملك السموات والأرض في غاية العظمة عبر بما ينبئ في العرف عن العظمة. ثم قال: ونظير هذا أنك تقول للمقهور المغلوب: ضاقت به الأرض. أتظن أنهم يريدون به أنه صار لا مكان له؟ وكيف يتصور الجسم بلا مكان: فكما يقال: الهارب لم يبق له مكان، مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر: هو متمكن وله عرش، وإن كان التنزه عن المكان واجبا له. ومن التأويل أن استوى بمعنى استولى، كما هو في كتب اللغة كديوان الأدب وغيره كقوله:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

كأنه قال: خلق السموات والأرض ثم ههنا ما هو أعظم منه (استوى على العرش) فإنه أعظم من الكرسي، والكرسي وسع السموات والأرض. إلى أن قال ما محصله: إنه لا يجوز أن نفهم من هذا الكلام إثبات المكان له تعالى، حتى ولو قيل إنه استقر على العرش، فإنّ فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن، حتى اذا قال قائل: استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه في مكان، واذا قال قائل: استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان، فقول القائل: الله استقر على العرش، لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان ما لم يعلم أنه مما يجوز عليه أن يكون في مكان، فجواز كونه في مكان إن استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه، وهو محال. ثم قال: كيف يكون محتاجا الى العرش وهو الغني عما سواه! وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج الى مكان، لأن بديهة العقل حاكمة بأن الحيز إن لم يكن لا يكون

المتحيز باقيا ، فالمتحيز ينتفى عند انتفاء الحيز ، وكل ما ينتفى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمراره ، فالقول باستقراره يوجب احتياجه فى استمراره ، وهو غنى بالنص . الى أن قال : اعلم أن كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير ، كما يقول القائل : لولا فلان على فلان لأشرف على الهلاك ، وكذلك يقال : لولا فلان على أملاك فلان أو على أرضه ما حصل له شئ ، فكيف لا تقول فى استوى على العرش إنه استوى عليه بحكمه ، كما تقول هو معنا بعلمه ؛ كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على أنه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان ؛ وذلك لأن كلمة ثم للتراخى ، فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه ، فقبله إما أن يكون فى مكان أو لا يكون ، فإن كان يلزم محالان : أحدهما كون المكان أزليا ، والثانى جواز الحركة والانتقال على الله تعالى ، وهو يفضى الى حدوث البارئ ، أو يبطل دلائل حدوث الأجسام ؛ وإن لم يكن فى مكان كان هناك محال آخر ، وهو أن ما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ، واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم ، لأنه إن سلم أنه قبل المكان لم يكن فهو القول بحدوث الله تعالى ، وإن لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الأزل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان ، فلا يتم دليل حدوث العالم ، فيلزمه أن لا يقول بحدوثه .

ألا يعلم ذلك الجاهل أنه جعله معدوما حيث أحوجه الى مكان ؛ فإن كل محتاج اذا نظر الى عدم ما يحتاج اليه معدوم . ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام .

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رضى الله عنه فى حديث النزول المتقدم : ما أسهل على العالم إرشاد الجاهل ؛ بأن يقول : إن كان المراد من النزول الى سماء الدنيا أن يسمعنا فما أسمعنا ، فلا فائدة فى النزول ، فلا بد أن يكون المراد بالنزول شيئا آخر له محصل : كنزول الرحمة أو نحو ذلك ؛ وقد تكلمنا على التأويل وما قال العلماء فيه فى عدد سابق .

وقال إمام الحرمين : إن الله خلق العرش من درة ، وهو بالنسبة الى قدرته أقل من ذرة ، فكيف يكون مستقره ! .

وقال ذو النون المصرى رضى الله عنه وقد سئل عن التوحيد : التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنيعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى ، وكل ما تصور فى وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك .

وقال أبو الحسين النورى رضى الله عنه وقد سئل عن القرب من الله تعالى فقال : أما القرب بالذات فتعالى الملك الحق عنه ، وأنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فهذا قرب محال ، وقرب هو فى نعته واجب ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز فى وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الرحمة واللطف .

وقال يحيى الرازى رضى الله عنه وقد قيل له : أخبرنا عن الله تعالى فقال : إنه واحد ، فقيل كيف هو؟ فقال : ملك قادر ، فقيل أين هو؟ فقال بالمرصاد ، فقال السائل : لم أسألك عن هذا ، فقال : ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق ، فأما صفته فما أخبرت عنه .

وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : من زعم أن الله سبحانه فى شىء أو من شىء أو على شىء فقد أشرك بالله ، إذ لو كان على شىء لكان محمولا ، ولو كان فى شىء لكان محصورا ، ولو كان من شىء لكان محدثا ، تعالى الله عن ذلك .

وقال بعض العلماء لتلميذ له يمتحنه : لو قال لك أحد أين معبودك فأى شىء تقول ؟ قال كنت أقول : حيث لم يزل ، قال فإن قال : فأين كان فى الأزل فأى شىء تقول ؟ قال أقول : حيث هو الآن ولا مكان فهو الآن على ما عليه كان ، قال التلميذ فارتضى

الشيخ ذلك . وقال السهروردى من كلام طويل : جل الله عما يهجس به الوسواس ، وعظم عما تكتنفه الحواس ، وكبر عما يحكم به القياس ، لا يصوره خيال ، ولا يشاكله مثال ، ولا يعتريه زوال ، ولا يشوبه انتقال ؛ لا يلحقه فكر ، ولا يحصره ذكر ؛ لا تحد أزليته بمتى ، ولا تقيد أبديته بحتى ؛ إن قلت أين فقد سبق المكان ، وإن قلت متى فقد تقدم الأزمان ، وإن قلت كيف فقد جاوز الأشياء والأمثال والأقران ، وإن طلبت الدليل فقد غلب الخبر العيان ، وإن رمت البيان فذرات الكائنات بيان وبرهان ؛ عرفنا المكان بتعريفه إيانا ، ولو شاء كوننا ولم نعرف زمانا ولا مكانا ، وكوننا فى المكان ولو شاء كوننا ولا مكان ، فعوالم قدرته غير محصورة ، وغرائب مشيئته غير منكورة ، وما نحن فيه من العالم بما نحن فيه من العقل والعلم عالم من عوالمه ، ولا يستبعد قولى : «ولو شاء كوننا فى غير مكان» فقد كون المكان لا فى مكان ، إذ لو كان فى مكان لتسلسل ، فمن يكون المكان والمكون فيه والزمان والمقدر فيه عالما من عوالمه ويسيرا من مبدعات قدرته كيف يحصره الزمان والمكان ؛ فما أحقرك وأحقر علمك ؛ فلو فتحت عين بصيرتك استحييت من قياسك وفكرك ووهمك وخيالك . أيها المحدود المحصور ! لا ينتج فكرك إلا محدودا محصورا ، وأيها المحيط به الجهات ؛ لا يحكم علمك إلا على الجهات ، فالجهات من جملة العالم ، وقد علمت نسبته الى عظمة الله ، فتبارك الله رب العالمين .

والخلاصة أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها ، وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ، ولا نقطع بتعيين تأويل منها ، بل نكل ذلك الى العليم الخبير ، ولكن لا بد من التنزيه على كل حال ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

البعث بالجسم والروح

أجمع أهل الأديان السماوية على الاعتراف بالبعث واليوم الآخر ، وبنيت الشرائع على تكاليف العباد بعقائد وأعمال ، وترتيب الجزاء على امتثال التكاليف أو عدم امتثاله بالثواب والعقاب (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) وكذلك رأى الفلاسفة الحكماء الذين يستمدون آراءهم من نظر العقل أن لا بد من جزاء فى حياة أخرى تتعرض لها النفس الناطقة بعد مفارقة البدن الذى هو من عالم المادة ، بل قد اهتدى بعض أهل الفترة بفطرتهم من غير أن يدرسوا علوما فلسفية أو يتلقوا شرائع سماوية الى أن حياة بعد هذه الحياة يلقى فيها المحسن جزاء إحسانه والمسىء جزاء إساءته أمر لا مفر منه ولا مندوحة عنه . روى أن بعض رؤساء العرب كان يقول دائما : من يظلم يظلم ومن اعتدى اعتدى عليه . فلما رأى أفراداً استطالوا على الناس بقوتهم ، وظلموهم معتدين ثم مضوا لسبيلهم ، وانتهت آجالهم بدون أن ينتقم منهم ، ولم يلحقهم أذى فى دنياهم ، فكر ثم قال : والله لا بد من يوم يحيا فيه الناس ويتقاصون ويلقى كل امرىء جزاء ما عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

أعمل هذا ومثله فكرهم فى روية فتأملوا فى صنع الحكيم العليم الذى أبدع خلق هذا العالم على أكمل نظام ، وأعطى كل نوع كماله الذى يناسبه ، فلم تقبل عقولهم أن يترك أفراد الناس فوضى يتطاحنون ويتظالمون ، ويمكن بعضهم من قهر بعض بلا رادع ولا وازع ، ثم يمضون هكذا لسبيلهم بدون أن يقتص لبعضهم من بعض ، ورأوا أن ذلك لا يتفق وما يرون من كمال الإتقان والإبداع ومظاهر الحكمة والعدالة التى تتجلى فى خلق العوالم المتنوعة بسائر نواحى وجودها كلية وجزئية ، فجزموا بما جزموا به

بفطرتهم وإن لم تصلهم تفاصيل الشرائع السماوية وأحكامها مما جاء به الأنبياء والمرسلون على وجه يكفى فى الإيمان والإذعان .

هكذا رأت العقول السليمة بفطرتها ، والى هذا وصل حكماء الفلاسفة ببحوثهم ، وبهذا وردت الشرائع السماوية برمتها ، وعلى هذا درجت الأمم المتدينة قديمها وحديثها .

ولقد شذ عن هذا بعض الناس فى بعض الأحيان والعصور فقالوا : « إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » وإنك اذا فحصت حال هؤلاء وتأملت فى دخائل نفوسهم وجدت لهم دواعى نفسية دعتهم الى التمسك بهذه المقالة والإصرار عليها ، واضطرتهم الى التفتيش عن مستند لها مهما ضعف ، ففتشوا حتى عثروا بشبه واهية تخيلوها أدلة ثم خالوها ، إذ كانت توافق أغراضهم ، فعملوا على تثبيتها حتى دانت لها نفوسهم وخلدوا الى السكينة عندها .

فأما دواعيهم اليها فإنها لا تعدوا الحرص على تحقيق رغائب النفس الأمارة بالسوء — من انغماس المترفين فى شهواتهم ولذائذهم غير منغصين بعقوبة متوقعة ، أو استمراء الأقوياء الظالمين مراتع الظلم الوخيمة غير مروعين بقصاص عادل ، فليس أبغض الى المستهتر فى شهواته العاكف على لذاته ، ولا أثقل على سمع المعتد بقدرته المفتات على الضعيف بفضل قوته من أن تذكره بأن هناك جزاء عادلا ، وقصاصا شاملا ، لا ينجى منه مال ولا بنون ، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين . هذه الفكرة مروعة للظالم ، منغصة للمترف ، مفسدة على كليهما ما يشعر به من لذة ، سواء أكانت لذة الاسترسال فى اللهو ، أو نشوة النصر والغلبة والقهر . ومن ذا الذى يسمح للمنغصات أن تدخل عليه بلا استئذان ، أو للمروعات تلج الى نفسه من أى باب ؟ فالمرء مجبول على أن يحتاط لنفسه فلا يسمح لأى غبار أن يعكر عليه صفوه ، فحين يقرع سمع هؤلاء مثل هذه الكلمات فتحدث فى نفوسهم أثرها الطبيعى يثورون عليها بطبعهم ، ويهاجمونها بكل قوتهم ، ويبحثون بكل

ما يملكون عن شىء يميت هذه الفكرة المنغصة للذات ، المفسدة للشهوات ، المعكرة للصفو ، المفوتة للهو ؛ فاذا لم يجدوا ماينشدون تمنوا ولو شبهة ، ثم تخيلوا ما تمنوه حاصلا ، ثم خالوا ما تخيلوا حقيقة واقعة ، بل زعموه أدلة ساطعة ؛ وهكذا يتحيل المرء على ما يوافق غرضه بأية حيلة ويسلك اليه أوهى وسيلة . ولو خلى هؤلاء وعقولهم ، ولم تعبث بتفكيرهم أهواؤهم لكان أدنى مراتب الحكم أن البعث إن لم يكن ثابتا جزما فهو على الأقل أمر محتمل ، فيصح الاحتياط من الوقوع فى شره أو التعرض لضرره ، بل العقل يوجب الحذر للنفس والتوقى من التعرض للخطر والضرر ولو على سبيل الاحتمال ؛ فمن المجازفة المقوتة ، بل من الجناية على النفس تعريضها لعقاب شديد وعذاب أليم لا تأمن الوقوع فيه ، ولا دليل لها على النجاة منه ، ولا طريق لها الى الأمن من الوقوع فيه ، ويصح أن يقال فيه على الأقل ما قاله الأول :

قال المنجم والطبيب كلاهما لا يبعث الثقلان قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

ولا أظنك تجد فرداً واحدا يفكر فى أمر البعث بدون أن تدفعه رغبة خاصة الى جهة معينة ، بل يكون غرضه الحقيقى فهم الأمر على ما هو عليه ، ثم يجزم من قرارة نفسه بأن البعث لن يكون قطعا — نكاد نجزم بأنه لا يمكن أن يوجد مفكر بلا غاية خاصة يصل به التفكير الى هذا الجزم ، فإن أمر البعث على فرض أن لم تكف الأدلة المثبتة لوقوعه فإنه لا توجد أدلة تقوم على نفيه ، فاحتماله على الأقل لا يزال قائما ، فالحيطة له والحذر من التعرض لخطره وصون النفس عن أضراره المحتملة أمر يحتمه العقل ويوجبه الاحتياط . كل هذا بقطع النظر عن نصوص الشرائع التى لاسبيل الى التخلص منها ، ولكن من لك بأن تقنع عصابات الشر وجماعات اللصوص وقطاع الطريق أن يفكروا فى أمر العقوبات والقوانين ، وأن يذعنوا الى أن لهم حكومة ساهرة على الأمن تتعقب

المجرمين حتى تظفر بهم فتوقع بهم عذاب الهـون ؟ ! إنك مهما جاهدت فى أن توجه تفكيرهم الى هـذا ما رأيت منهم إلا اشمئزازا بل ازدراء لمن يعرض عليهم مثل هذه الفكر، وسدا للآذان وإغماضا للجفون، حتى لا تقرع أسماعهم المزعجات، ولا تبهر أبصارهم الآيات الواضحات . ولو أنهم راضوا أنفسهم على التفكير فيما تدعوهم اليه ما ارتكسوا فيما ارتكسوا فيه ، ولكانوا إن لم يستجيبوا لداعى الفضيلة فروا من العقاب الذى قد يربو أضعافا مضاعفة على ما يحرزونه من مال أو متاع بتمردهم وطغيانهم ، ولقالوا فى نفوسهم إن الضرر أكبر من النفع ؛ وإنك لتجد أقرب جواب حاضر لديهم اذا ما نبهتهم الى شناعة ما هم فيه ، ووخامة عاقبته عليهم فى الدنيا من حبس أو تعذيب قول القائل :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أو قول من سرق منه :

من راقب الناس مات هما وفاز باللـذة الجسور

هل رأيت مرة مجرما يفكر فيما هو عرضة له من عقوبة ؟ لو فكر فى ذلك لارتدع من أول الأمر ؛ ولو فرض أن خاطب أحد المجرمين رفقاءه يذكرهم لثاروا فى وجهه : إن هـذا جبن وخور ، فلتكن مقداما ولا تفكر فى مثل هذا ، ودع عنك الهواجس والخزعبلات . وهكذا شأن المجرمين اذا دعوا الى التفكير فى البعث والجزاء الأخروى . ولعل هذه الحالة النفسية مما يلمع إليه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » أى أنه لا يمر على خاطره مقتضى إيمانه ، وإلا كان إن لم يردعه الخوف من العقاب منعه الحياء من مالك الرقاب . نعم ليس أثقل على نفس المجرم من التفكير فى مآله وصيرورة حاله ، ولا يزال يعرض عن ذلك ويتناساه حتى يران على قلبه وينساه ، ثم ينتقل الى أن يجزم بخلافه ويتلمس أوهى الأسباب

يتمسك به ، حتى يقنع نفسه ومن قدر عليه قهراً أنه لا شيء مما يخاف بواصل اليه ، واذا قدرت له السلامة مرة ومرة اتخذ ذلك ذريعة للاسترسال فى غوايته والاجتهاد فى تثبيت ما زعمه عقيدة ، ومحال مهما حاول أن يظهر بأنها عقيدة أن ترسخ الرسوخ الحقيق الذى هو شأن العقائد ، بل هى مزعزعة بأى ريح تمر عليها لولا التشبث الشديد الذى يبعثه فى نفسه حرصه على استيفاء اللذائذ ؛ فمثل هؤلاء مثل منكرى البعث — والكل من فصيلة واحدة يجمعهم التغافل عن العواقب — أو يقولون من الذى بعث من الآباء والأجداد على تقادم العصور والأحقاب ؟ هل عاد أحد منهم وخبرنا أن بعد الموت حياة ؟ وإذ لم نسمع ممن مضوا وهم الذين شهدوا وعرفوا فلا يكون لذلك حقيقة ولا ثبوت ، كأنهم إذ لم يروا ولم يسمعوا ممن رأى وشاهد لا يكون عليهم سلطان ولا يقدر عليهم ديان ، فما أشبههم بالنعامة تدفن رأسها بين حجرين لكيلا ترى الصياد ظنا منها أنها اذا لم تره لم يرها فتسلم ، وبذلك تستسلم حتى يدركها حتفها فى غفلتها .

ولعلك قائل إن هذا إسراف من الكاتب فى تصوير ما عليه المنكرون ، فيرى أنهم يشعرون بالبعث ويتغافلون عنه ويتناسونه ، ولكن ما هم فى ذلك من شىء ، فهم ينكرونه من قرارة نفوسهم ويرون أنه لن يكون ، ولعل الكاتب حكمت عليه عقيدته فتخيل كل الناس على رأيه ، إذ قاس العقائد عند الناس بما حقه أن يكون فى نظره ، وإلا فالمنكرون منكرون وكفى . وأقول على رسلك ورويدك رويدك ! إن من نظر فى كلام قدمائهم على تعدد طبقاتهم وتباين منازعهم ، ثم تحدث الى محدثيهم الذين درجوا على سننهم لا يجدها تعدو ما قدمنا لك من أن أمر البعث أمر سمعنا به وما شاهدناه وما لنا به من علم ؛ ومعنى ذلك أنهم لا يصدقون بوجوده ، لا أنهم يجزمون بعدم حصوله ، وفرق ما بينهما ، أو يقولون كما حكاه عنهم القرآن الكريم : (أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ) ومعنى ذلك أنهم يستبعدون أن تعود إليهم الحياة

بعد أن ابتعدوا عنها ، ومعنى ذلك أنهم فى شك واستبعاد ، لا أن لديهم الجزم بالنفى ، ومثل هذا قولهم : (مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ) فكأنهم ما حيرهم فى أمر البعث إلا عجزهم عن تصور من يقوم به ، وأما تصور الموجد للحياة الأولى بلا سابقة حياة فهو أمر غير محير عندهم ، نعم حاول فئات منهم أن يبرهنوا على استحالته مبالغة منهم فى الأمن منه وجلبا للطمأنينة الوهومة ليخلو لهم الجـو ، فكدوا قرائحهم وأجهدوا نفوسهم وما ظفروا من ذلك بما يبل ريقهم ويحـرك فى أفواههم ألسـنتهم ، إذ كان كلامهم من جنس هـذه الكلمة : لو كان المعاد هو الأول لعـاد بشخصه وبجميع مشخصاته ، ومن شخصاته وجوده فى الوقت المعين الأول ، فاذا كان وجوده فى وقت آخر كان مغايرا للموجود الأول فكان المعاد غير الأول .

والعجب منهم أن يدعوا لأنفسهم العقل حتى مع هذا الهذيان ، فهل يرون أنهم يوم اكتملوا حتى قالو هذه المقالة هم غير من ولدتهم أمهاتهم أطفالا على فراش آبائهم ؟ ! فكيف إذاً ينتسبون الى آبائهم ويتوارثون معهم ويكافئونهم أن يربوهم وقد صاروا شيئا آخر بمجيء وقت آخر ؛ وإنها لسخافة لا تستحق الالتفات اليها ولا الرد عليها .

وما أحسن قول أستاذ لتاميذه فى إفحامه وقد قال بمثل هذه المقالة : « أنا لا يلزمنى الرد عليك ، فإن السائل والمسئول قد مضيا لحالهما وجاء خلق جديد غيرهما بتبدل الوقت » وأحسن منه أن واحداً صفع صاحب هذه المقالة على وجهه ، فلما أراد الاقتصاص منه قال له : « علام ؟ قد ذهب الضارب والمضروب وجاء بدلهما شخصان جديدان » فترى أن أمر البعث لا تكاد نفس تصل الى دليل أو شـبهة تصف به قدمها وتستطيع أن تثبت استحالته وعدم إمكانه أو الجزم بأنه غير حاصل . وغاية متمسكهم أنهم لم يجزموا بحصوله ، فزعموا أنهم جزموا بعدم حصوله .

أما بعد : فالناس فى أمر البعث قسمان : فريق لا يقول بدين ولا يعتقد بصدق أحد من الأنبياء والمرسلين ، وهؤلاء منهم من هدته فكرته ودلته فطرته على أن لا بد من

يوم يحاسب فيه الناس على أعمالهم ويجزون بما كان منهم ، ومنهم من سمع بمثل هذه الكلمة فنأى عنها ، أو حاربها جهد استطاعته فرارا من صدمتها له فى رغائبه وأغراضه .
وفريق متدين ومعتقد صدق الأنبياء والمرسلين ؛ وهؤلاء كلهم معترفون بالبعث واليوم الآخر ، ولكن منهم من يعترف بالبعث بالجسم والروح ، ومنهم من يقول به ولكن بالروح فقط ، إذ كانت إعادة الأجسام عنده محل إشكال ، فذهب الى التأويل فى النصوص الشرعية جريا على القاعدة المقررة : أن ما ورد من النصوص وكان إجراؤه على ظاهره غير ممكن وجب تأويله .

وليس من غرضنا فى هذه الكلمة أن نعرض لإثباته على فريق من لا يقول بالأديان ولا يذعن للتصديق بنبوة الأنبياء ورسالة المرسلين ، فهؤلاء قد أقام القرآن الكريم فى وجههم من الآيات البينات ما يفهمه كل من عنده أدنى عقل اذا لم يغمض عينيه عن النور ، ولم يجعل أصابعه فى أذنيه فراراً من صيحة الحق ، وإنما كلامنا مع من صدق بالشرائع وأذعن لدلالة النصوص ، وزعم أن البعث الجسمانى أمر غير ممكن أو لا فائدة منه فيجب تأويله وصرفه الى البعث الروحى وتأويل ما ورد فى أمر النعيم والشقاء بأنه كنايات لتقريب اللذائذ الروحية الى الفهم بتشبيهها باللذائذ الجسدية التى ألفها الناس وركنت لها نفوسهم ، حتى أصبحت أكبر عامل فى اجتذابهم والتأثير على ميولهم .

وكلام هؤلاء فى شعبتين : الأولى أن إعادة الأجسام غير ممكنة . الثانية أنها لا فائدة لها . فأما الأولى فقد استندوا فيها الى شبه بعضها أو هى من بعض — قالوا أولا تلك الكلمة التى سبق أن حكيناها عن بعض المنكرين ، وهى أن المعاد يلزم أن يستوفى كل مشخصات المبدوء ، ومنه وقته الذى وجد فيه ، وحينئذ يلزم أن يكون بدءا لا إعادة . وقد عرفت أن اتحاد الوقت غير لازم فى اتحاد الذات مطلقا ، ولا يقول به إلا من نسى نفسه وغفل عن ذاته ، وأنه هو نفسه الذى يبدئ كلامه وهو الذى يتمه ، وقد بدأه فى وقت

وأتمه فى وقت آخر ، بل هو نفسه الذى ولد صغيراً وعاش حتى هرم وشاخ ، وهو هو الذى يموت بعد أن يستوفى أجله ، بل اذا فرض أن تقطعت أجزاؤه ونبت له غيرها ما كان ذلك بمغير شخصيته ولا بمخل بوحدته ، وعلى العموم فسخافة هذه الشبهة أوضح من أن تحتاج الى عناء . وقالوا ثانيا : قد يصح أن يأكل شخص شخصا فيمتزج بدن هذا ببدن ذاك ، فهل الأجزاء التى دخلت فى جسمين تعاد مع الأول أو مع الثانى أو مع كليهما ؟ وقد يرى بعض الناس أن هذه الشبهة من القوة بحيث لا يمكن التخلص منها ، ثم يعززها بفروض قريبة الوقوع ، كأن يقول : قد يغرق شخص فتأكله الأسماك حتى يتحد بجسمها ، ثم يأكل هذه السمكة شخص آخر تتحد بجسمه ؛ أو يقول : قد تتحات أجزاؤه وتصير ترابا تمتزج بنبات تمتصها جذوره ثم نغتذى بهذا النبات ؛ وأمثال هذه الفروض كثير ؛ ويستأنس بقول الشاعر :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد

خفف السير ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد

وإنك لتجد الكثير من الناس مولعا بهذه الشبهة يتشدق بها ، إما طربا لها اذ وافقت هواه وهو تخليص رقبته من ربقة التكليف ، وإما ارتباكا فى أمرها وتحيرا فى كيفية الخلاص منها ، فاذا تأملت ما سيتلى عليك لم تجد لها من الشأن ما يستحق كل هذا ، وذلك أولا أن هذا أمر إنما يعنى من يقوم بتنفيذ الإعادة والبعث ، وهذا أمر لم ينط بنا حتى نهتم بتعرف كيفيته وتدبير تنفيذه ، فالذى أخبر به هو الذى تكفل به (وَهُوَ ٱلَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) وثانيا قال العلماء : إن الذى يعاد هو الأجزاء الأصلية التى لا تتبدل ولا تزيد ولا تنقص وتبقى من أول العمر الى آخره ، فمن فرض أنه أكل شخصا أو أكل حيوانا أو نباتا اغتذى من شخص كانت الأجزاء المأكولة معادة للمأكول لا للآكل ، إذ لم تكن من الأجزاء الأصلية التى وجدت من أول

خلقته الى آخرها ؛ وثالثا فإن الأجزاء ليست هى نفسها التى تحس الألم واللذة وتدرك النعيم والشقاء ، وإنما المدرك الروح والنفس ، وإحساسها — على ما سيأتى تفصيله فى تفنيد الشبهة الثانية — تارة يكون بلذة وألم روحانيين : كالغبطة التى تشعر بها النفس السامية اذا أدركت منزلة من منازل المجد والرفعة ، والمذلة والانكسار التى تلحق بعض النفوس حين تبتلى فى كرامتها ، وتارة يكون بلذة وألم جسميين : كلذائذ الطعام والشراب وآلام الضرب والجراحة مثلا ، ففى كلتا الحالتين المحس هو النفس لا الجسم ، وإنما تحس النفس بلذة جاءتها من طريق الجسم ، ألا ترى أن من عمل له عملية جراحية فى بعض أعضائه يكفى فى عدم إحساسه بالألم أن تعطل وسائل التوصيل بين العضو وبين مركز إحساس النفس الذى هو المخ ؟ وتلك الوسائل هى أعصاب الإحساس ، فحياة العضو باقية ، وطرق التوصيل مسدودة ، فلم تحس النفس بألم العضو ، حتى اذا زالت أسباب التعطيل أحست النفس بما فى العضو من ألم ، وعلى ذلك فمعنى اللذة والألم الجسمانيين هو تلذذ النفس وتألمها من أمر حل بجسمها ؛ ولا يفهم من هذا أن المعاد هو الروح لا الجسم ، بل معناه أن الجسد يعاد لتكون النفس عرضة لنوعين من النعيم والشقاء :

(الأول) ما يلحقها لذاتها وهو النعيم والشقاء الروحانيان كنعيم اليقين وألم الحيرة .

(والثانى) ما يلحقها لجسمها كنعيم المأكل والمشرب وألم التعذيب بالنار على ما سنذكره فى دفع الشعبة الثانية من شبهتهم .

الشعبة الثانية من شبهتهم قولهم : إن بعث الجسم لا فائدة منه ، ذلك أن الروح هى المدركة وهى الشاعرة وهى المحسة باللذائذ والآلام ، وأما الجسد فهو فى ذاته — لولا الروح — جماد لا إحساس له ؛ وإذ كانت النفس هى المحسة الشاعرة ، بل كانت بالحقيقة هى المكلفة والمخاطبة ، فلتكن هى المثابة والمعاقبة ، وإذ كانت لذائذ النفس والروح غير

لذائذ الجسد ، فليكن معنى النصوص الواردة فى الشرائع تمثيلا للذائذ المعنوية الروحية باللذائذ الحسية الجسدية ، إذ كانت هى المعروف للناس المألوف لهم الغالبة على ميولهم ، فهى المؤثرة فى نفوسهم بالرغبة أو الرهبة ، فما جاء من مثل قوله تعالى : (وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ أُولَـٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ومن مثل قوله تعالى : (وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ) أو قوله : (إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ) أو قوله جل شأنه : (يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) وأمثال ذلك من آيات النعيم أو العذاب الأليم — زعموا كل ذلك من باب التمثيل للذائذ والآلام الروحية المرادة باللذائذ والآلام الجسدية المعروفة ، وزادوا فى ترويج شبهتهم أسلوبا فلسفيا فقالوا : إن الانسان وسط بين طرفين : طرف منحط هو البهائم أو الشياطين ، وطرف سام هو الملائكة ، والشرائع جاءت لتسمو به الى الطرف الأعلى الملكى ، فكلما جد فى امتثالها صعدت روحه الى الملأ الأعلى ، حتى يلتحق بالعالم الملكى الصرف ، فيكون أسمى من أن يتطلع فى هذا الدور الكامل الى الجسد ولذائذه المادية أو أن يعبأ بآلام جسمية ، وأما اذا ارتكس الإنسان فى الشهوات البهيمية أو غلبت عليه الشرور الشيطانية فإنه ينحط فى حياته الأخرى ، فيلتحق بالشياطين الذين تكونوا من الشر وفى الشر يعيشون ، فهم دائما حيارى قلقون وفى حياتهم مضطربون ، لا يفارقهم الكدر والكآبة والانقباض ، بينما الآخرون

فى غبطة وسرور ، أو يلحق بالبهائم فيحرم لذة الفهم والعلم والنور ، فتكون حياته الأخرى لاغيـة ويكون من المهملين . هكذا قالوا ، وهكذا روجو رأيهم وخدعتهم شقاشق ألسنتهم ، وبهرتهم بوارق فلسفتهم ، وما كانوا فى شىء منها بموفقين لا فى نظر الشرع والنصوص النقلية ، ولا فى نظر العقل والآراء الفلسفية ؛ وإنا نطلب اليك أن تبعد عن نفسـك السأم والملل وإن طال بنا وبك القول ، فللأمر أهمية كبرى ليس كبيرا عليها أن تمنحها قسطا وفيرا من وقتك ونشاطك ، والله يتولانا وإياك بالهداية الى الحق والى طريق مستقيم .

أما النصوص الشرعية فلا أحد من المسلمين ولا غير المسلمين من المتدينين يخفى عليه النصوص الواردة فى الشرائع السماوية من حكاية النعيم والعـذاب وتفصيلها حتى نحتاج الى سرده ، وقد ذكرنا فيما مضى طرفا منه ، وأما التأويل فيصار اليه اذا لم يستقم المعنى الصريح ، فما وجه عدم استقامته ؟ أما عدم الإمكان فقد سبق لك القول فيـه واستيفاؤه ، وأما عدم الفائدة والتوجيه بما ذكروا من أن النفس هى المحسة وهى المدركة ففى نفس تقسيمهم ما يشهد بأن لذائذ النفس قسمان ، وآلامها كذلك فى هذه الحياة ، فلتكن فائدة الثواب والعقاب الجسديين فى الآخرة أن تستوفى النفس حظها وقسطها من الجزاء ، سواء منه ما يلحق النفس مباشرة : كالفرح والاستبشار والرضا ، وكالكآبة والحزن والقلق ، أو ما يلحقها بواسطة جسمها : كالمطاعم والمشارب وما معها ، وكتحريق الجسم وتكراره (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) .

وأما النظر العقلى والاعتبار الفلسفى كما يتشدقون به ، فإن العقل يحكم بأن الجزاء الأوفى هو ما يكون من جنس العمل ، وكمال العدل يقتضى أن من عمل عملا من جنس فحقه أن يستوفى أجره من ذلك الجنس ؛ وقد جاءت التكاليف الشرعية على نوعين : نوع منها يرجع الى النفس بدون مدخلية الجسم والجوارح ، وذلك كالإيمان ، وهو أصـل

التكاليف ، وكتطهير النفس من رذائل الأخلاق الممقوتة : كالحسد والكبر وبغض الناس وإضمار الحقد عليهم ؛ ونوع يرجع الى النفس بواسطة الجسم والجوارح : كالصلاة والصيام والحج والجهاد وأمثالها ، وكالكف عن الزنى والقتل وأكل مال الغير ظلما وأشباهها ، فحين تحكم النظر العقلى وترجع الى ما يسمونه بالآراء الفلسفية ألا ترى أن من العدل وقضية العقل أن يستوفى المكلف جزاءه من الجنسين : النفسى المحض والنفسى الآتى من طريق الجسم ؟

نعم هذا هو ما تقتضيه العقول الراجعة فى تفكيرها الى فطرتها السليمة التى لم تعوج بالتواء الأهواء بها ، وهذا هو عين ما جاءت به النصوص الشرعية وما يعطيه التأمل فى تفاصيل الجزاء فى اليوم الآخر ، فإنك اذا تأملت فى تلك التفاصيل الواردة تجدها قد جاءت طبق هذا الأصل تماما ، انظر الى الإيمان وهو أصل هذه التكاليف وأفضل الأعمال على الإطلاق تجده من قبيل العلم والتصديق ، وللعلم لذته ، يعرفها من عانى شيئا منه ، وتزداد هذه اللذة بازدياد اليقين ، وأرقى أنواع اليقين المشاهدة ، وتزداد أيضا بشرف المعلوم .

فهل تنبهت الى أن الحكيم العليم الحكم العدل اللطيف الخبير الغفور الشكور قد جازى المؤمنين على إيمانهم فى دار الكرامة بأرقى أنواع العلم متعلقا بأكمل ما يمكن أن يعلم ، فمنحهم جل شأنه رؤيته والنظر الى وجهه الكريم فى دار كرامته ؛ وإن لها من اللذة ما يصغر أمامه نعيم الجنان مهما عظم وازداد ، حتى قيل إن أنواع النعيم تكاد تكون آلاما اذا قيست بنعيم الرؤية ولذتها ، أليس فى هذا أحسن جزاء وأوفاه ؟ وانظر الى قوله تعالى : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) واعتبر بما تراه من أحوال نفسك اذا ملكك الغيظ ولم تستطع تصريفه وتفريج كربة نفسك ، حتى انقلب ذلك الى غل — حماك الله ووقاك شر الغل ، فإن كنت سليما من هذا النوع المرذول من الخلق : خلق الغل والحقد ، فاحمد الله فى نفسك واعتبر آثاره فيمن ابتلى به ، وتأمل قول حكيم : لله در الحقد

ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله . فاذا رأيت أن الحقد فى الدنيا يؤلم الى درجة أن يقتل صاحبه أو يستل نفسه منه تدريجا ويسلب هناءة حياته جملة ، فكم ترى من النعيم واللذة فى نزع الغل من صدور المؤمنين جزاء لهم على تطهيرهم أنفسهم من شروره فى الدنيا وامتثالهم معنى الحديث الشريف : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ؟ فهذان مثالان من النعيم الروحى واللذائذ النفسية الصرفة ، وتراها تقابل معانى من جنسها .

أفليس يروق فى نظر عقلك فلسفيا أن تقول : إذاً يحسن أن يكون جزاء من أجاع نفسه فى الصيام وأظمأها وكف على الجملة عن المنهيات من شهوتى بطنه وفرجه أن يطعم من طعام الجنة ويهنأ من شرابها ويستمتع بحورها جزاء وفاقا على ما عمل كما قال تعالى : (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ؟! أليس من حق من جاهد فى سبيل الله وسافر فى طريق الحج والهجرة أن يأوى الى ظل ظليل ، وأن يكون مع أصحاب اليمين فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، وأن يكون له فى مقابلة أن هجر فراشه وعف نفسه عما نهى أن يكون له من المتع ما تقر له عينه ويسر له قلبه ممن وصفهم ربهم بقوله جل شأنه : (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ) .

واعتبر مثل ذلك فى أصحاب الجحيم فى أمثال قوله تعالى : (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) وتأمل تلك الحسرات التى تفيض بها نفوس الكفار

حين يقولون : ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار تجـد غيظ المخذول وألم المخدوع الذى تبين له الأمر بعد فوات الوقت ، فشمله الندم ولات ساعة مندم .

هذا هو حكم العقل وقضية العدل وما يقضى به صحيح الرأى ، فكيف وهو صريح الشرع ومدلول النص ؛ وما كان تأويله إلا عن ضعف فى الإدراك وقصر فى النظر ، ونعوذ بالله من الخذلان .

أما قولهم إن العالم الملكى هو المثل الأعلى الذى تسمو اليه النفس الإنسانية فهو إن صح ليس معناه أن ينهدم ركن من ركنى الإنسانية وهو الجسد ويهمل بتاتا ويصير روحا بلاجسم، وإلافلو كان الأمر كذلك ما استقام أن يكون النوع الإنسانى هو صفوة الخلائق على الإطلاق كما يقتضيه منحه لقب الخلافة فى قوله تعالى (إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) وكما يدل عليه أن الملائكة تمنوا مكانه . ففى الحقيقة قد جمع هذا النوع الإنسانى بين النفس الملكية والجسم المادى ، واستخدم كلا منهما فيما صلح له ، فتعاونا على ما لا تقوم به النفس المجـردة ولا الجسم وحده ، ثم أوتى فضيلة المجاهدة بين الروح وملكيتها وبين الجسـد وماديته ، فاذا ظفرت الروح وخرجت غالبـة كان لها منزلة المجاهدين الفائزين .

وبعد أن استقر فى نفسك أن المنعم والمعـذب فى الحقيقة هو النفس ، وأن لها نوعين من النعيم أو العذاب : نفسى وجسدى ، وأن إحساسها بكل واحد منهما يغاير إحساسها بالآخر ، وأنها كلفت تكليفين : جسدى وروحى ، ولا يسـد أحدهما مسد الآخر ، حتى لا يجزى الإيمان عن الأعمال ، ولا الأعمال عن الإيمان ، وأن قضية الجزاء الأوفى أن لا يهمل نصيب أحد النوعين ويستوفى نصيب النوع الآخر ، لا نخالك فى شك من أن العقل اذا خلى ونفسه ، والفكرة اذا رجعت الى فطرتها جزمت بأن لا بد من استيفاء الجزاءين الجسدى والروحى ، حتى يكون جزاء وفاقا ،

وإن كان مرجع كليهما الى النفس ، فهى المعـذبة فى الحقيقة وهى المنعمة ، واذا وصلت الى هـذا الحكم فلك أن تقول : إذاً ليست الذرات المادية هى التى تلقى الجزاء من نعيم وشقاء ، بل هى النفس يلحقها الجزاء مباشرة أو بواسطة الجسد ، فعلى ذلك لو فرض أن قائلا قال : إن تلك الذرات خلقت من جديد بعد أن أعدمت الذرات المادية الأولى ، وإن المخلوق من جديد مغاير بشخصه لما سبق عدمه ، فإن هذا لا يضر فى أن النفس قد لحقها بواسطة بدنها الذى خلق لها نعيم وألم ، على أن لك أن تطعن فى مغايرة المخلوق بعد العدم للموجود أو لا الذى لحقه العدم والفناء ، فإنه يصح فى نظر العقل أن يقال : أوجد الشىء ثم أعدم ثم أعيـد وجوده . ولو فرض أن قائلا قال : إن الأجزاء فرقت لا أنها أعدمت ، والتفريق ليس إعداما ما ضر ذلك فى أنه إعادة بعد الفناء ، ففناء الشىء يكفى فيه تفككه حتى يزول عنه المعنى المقصود منه وإن كانت جزئياته حاصلة بذاتها .

ألا ترى أنك اذا هدمت منزلا ثم جددته ولو بأنقاضه الأولى كنت قد أفنيته ثم أعدته ؟ والواقع أنه قد قيل بكل من هذين القولين : فقد قال جماعة : معنى الإفناء الإعدام بالكلية ، ومعنى الإعادة الخلق من جديد ، والمخلوق ثانيا هو عين المخلوق أولا الذى لحقه العدم . وقال آخرون : بل الفناء هو تفريق الأجزاء حتى يزول عنه اسمه الأول ومميزاته وتضيع خواصه ، ثم إعادته هى جمع تلك الأجزاء ، والله عليم بها وبتقلباتها لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؛ ومعنى البعث الجسمانى قابل لكلا الرأيين ، فكل منهما محقق له ، بل لو قيل إنه متى كان الغرض إيصال الأذى أو النعيم للنفس على جهتين ، إما بطريق المباشرة كالنعيم والشقاء الروحيين ، أو بطريق الحواس كالنعيم والشقاء الجسديين لم يفوت ذلك معنى البعث الجسمانى . ونظير ذلك بأن يهدم شخص بيت شخص آخر فينتقم منه بالمثل ويأبى إلا أن يصنع معه مثل ما صنع فلا يرضى بضربه ولا إهانته ، وإنما يرضيه أن يهدم بيته كما هدم هو بيته ، فهذا لا يحاول إيذاء البيت ولا يخطر بباله أن البيت يلحقه أذى ، وإنما يريد أن يعاقبه بجنس ما صنع ، حتى لو تعددت البيوت

التى يسكنها ذلك المعتدى لكان غرضه يتحقق بهدم البيت الذى يشغله حال الانتقام منه لا الذى كان يشغله يوم تعديه عليه ، وذلك أن غرضه الانتقام من المتعدى بهدم بيته المنسوب اليه لا الانتقام من البيت نفسه .

على أن هذا كله إنما يلتجأ اليه لو صح أن المعدوم اذا وجد كان مغايرا للأول ، ولا سبيل لإثبات هذا ، أو ثبت أن الأجزاء المادية المفرقة قد تتوارد على أشخاص عدة من المكلفين تدخل فى تركيبهم الأصلى ، فلا يمكن أن تعاد مع كليهما ، ولا اختصاص لأحدهما دون الآخر ؛ وقد عرفت أن شيئا من ذلك غير لازم بما قدمنا من أن الأجزاء الأصلية هى التى تعاد ، وهى التى تلازم الشخص من أوله الى آخره .

وقد بقيت كلمة لها مساس بالموضوع ، وهي أن بعض فلاسفة الطبيعيين يزعم أن جزئيات الأبدان كلها فى تحليل وتركيب مستمر ، وأن كل جزء يتجدد بتوالى الأزمنة فينمو بالغذاء وينحل عنه البعض بالحركة أو الذبول أو ما شئت ، حتى إنه بعد مضى عدد من السنين تكون الذرات التى كانت داخلة فى تركيب الجسم قد زالت كلها وتجدد مكانها ذرات جديدة . وإن هذا لا يمنع اتحاد الشخص قبل تلك السنين وبعدها ، فلو صح هذا القول أيضا كان شاهدا لما نقول من أن اتحاد اللاحق والسابق لا يتوقف على أن الذرات الداخلة فى تركيبه باقية بشخصها لم يزد عليها ذرة ولم ينقص منها ذرة ، وإنه لشبيه باتحاد القبيلة أو الجيل من الناس على كر السنين والأعوام مع زوال الأشخاص الذين تتألف منهم القبيلة أو الجيل ، فالعرب هم العرب يعتز آخرهم بأولهم ، وقريش اليوم مثلا — هى قريش تأخذ أحكامها وإن تبدلت أشخاصها .

ومن هذا البيان نخلص بنتيجتين : (الأولى) أن إعادة الروح أمر لا غبار عليه ولا نكير فيه ؛ و (الثانية) أن إعادة البدن أمر لا يمنع منه مانع عقلى ولا وهمى . وعلى ذلك يكون صرف النصوص الشرعية عن ظاهرها ليس إلا لمجرد التشهى ، وليس له من

مقتض ولا داع ، وأن تلك الثرثرة التى تلوكها ألسنة فئة من الناس ليخرجوا على حكم الشريعة بجديد ثرثرة واهيـة ، حتى لو قيست بمقياس العقـل المحض بدون رجوع الى نصوص الشرع لبددها وجزم بأن المقبـول فى نظره هو البعث الجسمانى والروحانى ، لتسـتكمل النفس جزاءها وفق ما صنعت من أعمـال البـدن أو الروح (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ ٱلناسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لنار أبدا أو لجنة أبدا » والله الهادى الى سبيل الرشاد ؟

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالأزهر

الظُّرَفُ والمُلَحُ

كان أولُ عمل وَلِيَه الحجاجُ تَبَالَةَ [1] ، فسار إليها فلما قَرُب منها قال للدليـل : أين هى وعلى أى سَمْتٍ هى ؟ قال : تسترها عنك هذه الأَكَمَةُ . قال : لا أُرانى أميرا إلا على موضع تسـتر منه أَكَمَةٌ . أَهْوِنْ بها ولايةً . وكَرّ راجعا . فقيل فى المثل : « أَهْوَنُ من تَبَالَةَ على الحجاج » .

(١) بلدة خصبة باليمن .

أسطورة تنصر المعز لدين الله

فى تقويم سنة ١٩٣١ الذى يصدره قلم نشر مطبوعات الحكومة فصل بقلم سعادة مرقس سميكة باشا وصف فيه الكنائس والأديار ، ومما قال فى هذا الفصل يصف كنائس دير أبى سيفين « وبجانبها كنيسة صغيرة بها أحجبة من العصر الفاطمى ، محلاة بنقوش بارزة تمثل القديس ومعمودية ، يقال : إن المعز لدين الله تعمد بها سرا » .

وعند ما ارتفعت الأصوات بإنكار أن يكون المعز قد تنصر أجاب سميكة باشا — بأنه استند فيما كتب من تنصر المعز الى ما نقله بتلر فى كتاب « كنائس مصر القبطية القديمة » وهو : « وفى هذه المعمودية عمد السلطان المعز حينما ارتد الى النصرانية » والى ما جاء فى كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، وهو : « قيل : إن المعز بعد حادثة المقطم تخلى عن كرسى الخلافة لابنه ، وتنصر ، ولبس زى الرهبان ، وقبره الى الآن فى كنيسة أبى سيفين » .

رواية تنصر المعز لدين الله ظاهرة الاختلاق الى حد لا يحوم عليه اشتباه ، ويكفى فى التنبيه على أنها رواية خيالية محضة بعث على تزويرها الدعاية الى دين النصرانية عدمُ ورودها فى كتاب من كتب التاريخ الاسلامية ، ولا نعنى بهذا أن مجرد عدم وجود الواقعة فى الكتب الاسلامية يدل على نفيها ، وإنما نريد أن ارتداد ملك أو خليفة عن دينه هو من قبيل الحوادث التى شأنها أن تذيع ولا يختص بخبرها سمع دون آخر ، فليس من المعقول أن يرتد المعز لدين الله ويغفل المؤرخون عن نقل هذا الحادث ونحن نراهم يعنون من شئون صاحب الدولة بما هو أصغر من الارتداد عن الدين .

ومن المنبوذ على البداهة أن يقال : إنهم أجمعوا على كتم هـذا الحادث ، وأخلوا كتبهم من ذكره لأنه ينفع دين النصرانية ، ذلك لأنا نراهم يذكرون ما يتهم به بعض ملوكهم أو خلفائهم مما يشبه هذه التهمة ، وهم بعد ذكرها إما أن يقرروها أو يتصدوا لتزييف روايتها ، فلو ارتد المعز لدين الله ولبس زى الرهبان لم يخف حاله عن الكتاب المسلمين ولم يسعهم إلا أن يعترفوا بنصرانيته .

والواقع أننا نجدهم ينقلون عن المعز ما يدل على تمسكه بالاسلام كالخطبة التى ألقاها بالاسكندرية وقال فيها : إنه لم يرد دخول مصر لزيادة فى ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يأمر بعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ولو ارتد المعز عن الإسلام لم ينقلوا عنه مثل هذه الكلمات دون أن ينبهوا على أنه لم يختم عمره كما قال — بالأعمال الصالحة ، ونجدهم يصفونه بتعظيم الاسلام كما قال صاحب شذرات الذهب فى شأنه « وكان مظهرا للتشيع معظما لحرمات الاسلام حليما كريما وقورا حازما سريا يرجع الى عدل وإنصاف فى الجملة [1] » .

والمعز كما هو معروف — مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر التى قامت لتقويض الخلافة العباسية ، فله خصوم سياسيون لا ينتفعون فى هدم دولته بأشد من أن يذيعوا عنه أنه مرتد عن الاسلام ، فلو تنصر المعز ولبس زى الرهبان للهجت بتنصره النوادى وطار حديثه الى خصومه السياسيين ببغداد فأذاعوه طعنا فى خلافتـه ، ولم يبق كتاب يذكر أخبار الدولة الفاطمية إلا تعرض لهذا النبأ العظيم .

ومما جرى أيام القادر سنة ٤٠٢ هـ أن أسجل القضاة بنفى الفاطميين من نسب العلويين ، وشهد بذلك على السماع جماعة من الأعلام ، والذين يتشبثون فى دفع المعز وآله عن الخلافة بنفى العلوية عنهم ، ويسعون لإذاعته وإقامة الشهادة عليه ، لا يتباطئون لو تنصر

(١) فى حوادث سنة ٣٦٥

المعز أن ينادوا بنفى إسلاميته ، فإن أهل العلم لم يشترطوا فى الخليفة أن يكون علويا ، وشرط الإسلام لإمارة المسلمين لم يكن فى يوم من الأيام موضع خلاف .

يقول صاحب الخريدة : « إن المعز بعد حادثة المقطم تخلى عن كرسى الخلافة لابنه ولبس زىّ الرهبان » .

يشير بحادثة المقطم الى أسطورة هى كما جاء فى تاريخ « الكنيسة القبطية » تأليف الشماس منسى القمص : أن يعقوب بن يوسف اليهودى [١] الذى عهد اليه المعز جباية الخراج كان يمقت المسيحيين ، فأطلع الخليفة على قول الإنجيل « لو كان لكم إيمان مثل حبة من خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل » وقال له : اذا كان دين النصارى صحيحا فهاهو ذا جبل المقطم ينقلونه لنا ، فاستدعى الخليفة البابا آبرام ، واقترح عليه نقل المقطم ، فخرج البابا والخليفة فى جمع عظيم ، ودعا البابا آبرام فحدثت زلزلة عظيمة ولاح الجبل للناظرين كأنه يتزحزح عن مكانه ، وبعد ذلك ارتفع حتى ظهرت الشمس من تحته ثم عاد الى مكانه .

ولو وقعت هذه الحادثة فى مشهد كالذى وصفه صاحب (تاريخ الكنيسة القبطية) لما أغفل الكتاب المسلمون ذكرها ولو لم يصدقوا بأنها أثر دعاء البابا آبرام ، وكثيرا مانراهم يذكرون بعض عجائب تجرى على يد من لا يعتقدون صلاحه ، ولكنهم لا يسمونها كرامة أو معجزة .

وزعمُ صاحب الخريدة أن المعز تخلى عن كرسى الخلافة لابنه ولبس زى الرهبان مضروب به فى عرض الحائط ، والمؤرخون مجمعون على أن المعز استمر فى الخلافة الى أن توفى فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ وذكر المقريزى أن العزيز بالله بويع يوم وفاة أبيه المعز ، وكذلك يقول ابن خلكان فى التعريف بالعزيز : « ولى العهد بمصر يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه » .

---

(١) هو يعقوب بن يوسف بن كلس ، أصله من اليهود وأسلم ، استوزره المعز وابنه العزيز من بعده حتى توفى سنة ٣٨٠

يقول صاحب الخريدة النفيسة : «وقبره الى الآن فى كنيسة أبى سيفين» ولا ندرى أى عقل يقبل هذه الرواية أو يتردد فى أنها مزورة ، يموت الخليفة المعز لدين الله ، وتنقل جثته من بين يدى ابنه الخليفة ، فتدفن فى كنيسة أبى سيفين ، ولا يذكر هذا الخبر أحد من مؤرخى المسلمين : والموجود فى كتب المؤرخين المسلمين أنه دفن فى التربة المعزية وهى التربة التى نقل اليها المعز آباءه فى توابيت من بلاد المغرب ، قال المقريزى : « واستقرت مدفنا يدفن فيها الخلفاء وأولادهم ونساؤهم ، وكانت تعرف بتربة الزعفران ، وفى تاريخ ابن خلكان عند التعريف بالعزيز « ودفن عند أبيه المعز فى حجرة من القصر » وفيه عند التعريف بتميم بن المعز « وغسله القاضى محمد بن النعمان » ثم قال : « وحمله الى القصر فدفنه بالحجرة التى فيها قبر أبيه المعز » .

وهذا القمص صاحب كتاب « تاريخ الكنيسة القبطية » ذكر أسطورة المقطم بإسهاب ولم يذكر هذا الذى يقوله بعض الأقباط من تنصر المعز أو تخليه عن كرسى الخلافة أو لبسه زى الرهبان أو دفنه فى كنيسة أبى سيفين .

ومما يلاحظ أن كلمة « سرا » فى قول سميكة باشا « تعمد بها سرا » لم ترد فى النصين اللذين اعتمدهما ، ولعلها ألصقت بالرواية لتخفف شيئا من إنكارها ولا يرفضها القراء لأول ما تقع أبصارهم عليها .

وخلاصة المقال أن هذا الذى اختلق رواية تنصر المعز يجهل أن للتاريخ أصولا تعرض عليها الروايات فينكشف أمرها « إن صدقا وإن كذبا » ، وتواترها بمعنى انتشارها بين طائفة خاصة بعد صدورها من خادم كنيسة ، لا يخرجها عن كونها فرية ، ولا قيمة لمثل هذا الضرب من التواتر فى تقرير الحوادث ، ولا سيما ما تدفعه قواعد التاريخ وتأبى أشد الإباء أن يعد فى التاريخ الصحيح أو فيما هو قريب منه .

الفتاوى والأحكام

حكم ترجمة الخطبة

بغير العربية بعد تلاوتها بالعربية

ورد من حضرة صاحب التوقيع السؤال الآتي :

س : إن فى بلدتنا بمباى التى هى من أشهر بلاد الهند مسجدا جامعا هو أكبر المساجد فيها ، وهو مبنى على طبقتين : العليا والسفلى ، ومقام الإمام إنما يكون فى الدرجة التحتانية دائما ، وفى خارج بناء الطبقتين بجانب الشرق عرصة واسعة وخمسة سطوح مختصة بالصلاة ، وفى المسجد والفناء والأسطح سعة عظيمة تكفى لسبعة آلاف رجل مع هذا فى صلاة العيدين . المسجد مع المواضع الملحقة المذكورة لا يسع كثرة المصلين بل يحتاج الأمر الى مزيد الاعتناء والاهتمام لنحو ثلاثة آلاف رجل على الشوارع العامة فى الجنوب والشرق خارج المسجد ، وأهل الدرجة العليا والدرجة السفلى من المسجد ، وأهل ملحقات المسجد والمصلون بالشوارع كلهم يصلون فى الفطر والأضحى خلف إمام واحد شافعى يخطب بالعربية فقط ويقتدون به ، فالمؤتمون وإن كانوا فى أماكن متعددة لكن الصلاة إنما تكون خلف إمام واحد . ولما كان لا يبلغ ما يقول الخطيب الى آذانهم لأجل البعد فيما بينهم وبينه كانوا لعدم سماع خطبته لا يعتنون بها فكانوا يرجعون بعد صلاة العيدين بمجرد تمام الصلاة الى بيوتهم ولا ينتظرون استماع الخطبة ، لأجل هذا رأينا فى السنة الماضية أن ننصب فى الدرجة العليا وجميع الأماكن المذكورة حتى الشوارع رجالا آخرين غير الإمام يخطبون بالعربية ،

وبعد تمام الخطبتين بالعربية يترجمون لهم بالأردو (لسان الهند) فهل تعيين هؤلاء الرجال للاستماع ، والترجمة بعد الخطبة العربية على النهج المذكور لتعليم الأحكام يجوز فى مذهب الامام الشافعى أم لا ؟ وهل يجوز للخطيب يوم الجمعة أن يخطب بالعربى ثم يترجمها بالأردو قبل الصلاة أم لا ؟ وأنا المفتقر الى الله تعالى .

عبد القادر لهابى
الناظر للمسجد المذكور وأوقافه

الجواب : يشترط لصحة صلاة الجماعة شروط : منها أن لا يتقدم المأموم على الإمام ، ومنها أن يعلم المأموم بانتقالات الإمام كانتقاله من القيام الى الركوع ومن الركوع الى الاعتدال ومن الاعتدال الى السجود وغير ذلك ، حتى يتمكن من متابعته فيما يفعل ، فمتى علم بانتقالات الإمام ولو بسماع صوت مبلغ وتابعه صحت الصلاة وانعقدت جماعة ، ولا يضر كون المأموم مرتفعا عن الإمام أو عكسه فى مذهب الشافعية ، فإن ذلك مكروه فقط إلا عند الضرورة وهى موجودة عندكم ، فالكراهة منتفية أيضا ولله الحمد ، فلو صلى الإمام بالمسجد والمأموم بسطحه أو كان المسجد طبقتين والإمام بالطبقة السفلى والمأموم بالعليا كما هو فى مسجدكم صحت الصلاة .

وكل ما تقدم شرط فى صحة صلاة الجماعة سواء كانت الصلاة فرضا أو نفلا طلبت فيه الجماعة كصلاة العيد والتراويح .

هذا : أما ما سألتم عنه من إقامة رجال يترجمون الخطبة بالأردو للحاضرين من المصلين فجوابه أنه جائز فى الفطر والأضحى ، سواء كان المترجم واحداً أو متعدداً ، وسواء كان مرة واحدة أو مراراً كثيرة ، فكل ذلك جائز لا شئ فيه ، وليعلم أن سماع الخطبة فى العيدين ليس واجبا وإنما هو سنة . أما خطبة الجمعة فيجب أن تكون باللغة العربية فى المشهور من مذهب الشافعية ، ويجب أن يسمعها أربعون من أهل الجهة وإن لم يعرفوا

لغة الخطيب أو لم يفهموا معنى الخطبة فإنه لا يشترط فهم معناها، فإن شئتم اقتصرتم على إلقائها بالعربية ولا يضر عدم سماع غير الأربعين، وإن شئتم ترجمتها للمصلين بلغتهم فافعلوا ذلك بعد الصلاة لا قبلها، محافظة على الموالاة بين الخطبة والصلاة، فليتنبه لذلك، وأنتم وما تريدون بعد الصلاة، فلكم إن شئتم أن تجعلوها خطبة بالاردو، ولكم أن تجعلوها درسا واحداً أو متعددا، ولا أدرى لماذا يعيدها المعيدون بالعربية ثم يترجمونها على ما يقول السائل.

والخلاصة أنكم إذا اقتصرتم على الخطبة العربية صح وإن لم يسمعها جميع الحاضرين أو لم يفهموها، فإنه لا يشترط سماع الجميع ولا فهمهم للخطبة، وأما بعد الصلاة فللإمام أن يترجمها وكذلك لغيره منفرداً أو متعدداً، وإن عملتم دروساً بعد الصلاة تلقى فى نواحى المسجد وما اتصل به يبين فيها موضوع الخطبة أو غيره كان ذلك حسنا ومفيدا والله يتولى هدى الجميع ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الطرف والملح

قال شاعر حكيم:

ولو قَدَرْتُ على نسيان ما اشتملتْ   منى الضلوعُ من الأسرار والخبر
لكنتُ أولَ من ينسَى سرائرَه   إذ كنتُ من نشرها يوما على خَطَر

تعليق

على بعض ماجاء فى مقال الاستاذ الشيخ الجبالى
فى العدد الثالث نقلا عن بعض علماء الوهابية

قال فضيلته عن ذلك العالم: « بدأ الكلام معى فى العتب على فضيلة الأستاذ المحقق الشيخ يوسف الدجوى فيما نسبه الى الوهابيين من تكفيرهم بالتوسل والاستغاثة بالموتى فقد زعمهم الأستاذ يسوون بين الاستغاثة والتوسل فى الإنكار، وليس الأمر كذلك عندهم فهم وإن لم يقولوا بالتوسل لاينكرونه، إنكارهم للاستغاثة ولا يكفرون به، إنما المنكر فى نظرهم أشد الإنكار هو الاستغاثة بالموتى، ولقد كان من حق الأستاذ أن يفحص كلامهم ويتثبت مما يقولون قبل أن ينسب إليهم مانسب» ونحن نقول أولا: إننا كتبنا ما كتبنا إجابة عن سؤال يقول سائله: إنه اشتد النزاع فى التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إن بعضهم كفر من يتوسل به عليه السلام، وثانيا نقول لذلك العالم الوهابى: يكفينا منكم تكفير المسلمين بالاستغاثة على مايفهم من كلامك السابق، على أن إمامكم محمد بن عبد الوهاب فى رسالته الأربع القواعد كفر المتشفعين بالملائكة والصالحين، بل قال إن شركهم أغلظ من شرك المشركين الذين كانوا فى زمنه صلى الله عليه وسلم، وسنسوق لك عبارته مع الرد عليها فى العدد المقبل إن شاء الله. ولولا الخوف على بعض القراء اذا سقنا زخرف قوله من غير أن نتبعه بما يكشف عن باطله لذكرناها اليوم، ولمتبوعيكم كثير من أمثالها فى كتبكم المطبوعة المنشورة وإن كنتم سياسيين أو نقول متناقضين (والمبطل لابد أن يتناقض شاء أم أبى) وإن غدا لناظره قريب ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الأخطار

التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها[1]

إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب فى السنوات الأخيرة يضطرنا الى لفت نظر الرأى العام الى الأخطار التى تنجم عن ذلك ، خصوصا وأن الحال لم تقتصر على مجرد اقتنائها ، بل قد تعدت ذلك الى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدى الصغار والكبار ، بل كثيرا ما تترك تلعق فضلات الطعام من الصحون المعدة لحفظ مأكل الانسان ومشربه.

ومع أن فى كل ما ذكر من العادات عيوبا ينبو عنها الذوق السليم ولا ترتضيها الآداب ، هذا فضلا عن أنها لا تتفق مع قواعد الصحة والنظافة ، إلا أننا نغض النظر عنها من هذه الوجهة لخروجها عن مجرى الحديث فى هذا المقال العلمى ، تاركين تقديرها للتربية الخلقية وتهذيب النفس .

أما من الوجهة الطبية — وهى التى تهمنا فى هذا البحث — فإن الأخطار التى تهدد صحة الانسان وحياته بسبب اقتناء الكلاب ومداعبتها ليست مما يستهان بها ، فإن كثيرا من الناس قد دفع ثمنا غاليا لطيشه ، إذ كانت الدودة الشريطية بالكلاب سببا فى الأدواء المزمنة المستعصية ، بل وكثيرا ما أودت بحياة المصابين بأمراضها .

وهذه الدودة هى عبارة عن إحدى الطفيليات الشريطية الشكل ، وتسمى دودة الكلب الشريطية[2] ، وتظهر فى الانسان على شكل بثرة ، وكذلك فى المواشى خصوصا

---

(١) نقلا عن مقال للأستاذ الدكتور جرارد فنتسمر من مجلة (Kosmos) الالمانية .

(٢) وكثيرا ما يطلق عليها اسم الدودة ذات القشرة وذلك لوجود ما يتولد عنها بداخل قشرة صلبة وأما اسمها العلمى فهو (Taenia Echinococcus) .

فى الخنازير ، ولكنها لا توجد تامة النمو إلا فى الكلاب ، وكذلك فى بنات آوي والذئاب ويندر وجودها فى القطط ، وتختلف عن الديدان الشريطية الأخرى بأنها صغيرة الحجم جدا حتى إنها تكاد لا ترى ، ولم يعرف شىء عن حياتها إلا فى السنوات الأخيرة .

وهى تتكون من رأس به عدة خطافات حادة وثلاث أو أربع أعضاء أخرى على الأكثر ، ولا يزيد طولها عن نصف السنتيمتر ، وأما العضو الخلفى بها فلا يزيد عرضه على المليمتر الواحد ويحتوى فى طور البلوغ على ما لا يقل عن ٥٠٠ بيضة دقيقة جدا .

وتتكون البويضات بداخل إحدى أعضاء الدودة الشريطية وتعلوها قشور صلبة جدا ، وتمتاز هذه البويضات المستديرة التى لا يزيد قطرها عن $\frac{٣}{١٠٠}$ من المليمتر بمقاومتها العجيبة حتى إنها تحتمل الجفاف التام ، كما أنها قادرة على المعيشة فى الماء ، ولوحظ فى التجارب العلمية أن حياتها لا تقل عن ١١٦ يوما فى درجات الحرارة بين درجة واحد فوق الصفر والدرجة واحد تحت الصفر دون أن يدب اليها الفساد أو يتعطل نشوءها .

فاذا ما انزلقت هذه البويضات الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة الى أمعاء الانسان — ويسهل ذلك باختلاط الانسان بالكلاب فى الأحوال المذكورة فى أول المقال — فان أعصرة الهضم تعمل فيها حتى تمزق قشرتها فتخرج منها شرنقة بها ستة خطافات مدببة وتندفع فى مجرى الدم بعد أن تخترق جدار المصران الى أن تصل الكبد ، وهنا تستقر فيه فى أغلب الأحيان وتأخذ فى النمو والانتفاخ تدريجيا وتظهر على شكل البثرات فى الأعضاء المصابة ، ولا يزيد حجم البثرة عن المليمتر الواحد فى الثمان أسابيع الأولى ، وعن ٢ سم بعد خمسة شهور ، آخذة فى النمو سنين عديدة .

وتتفتح هذه القرحة فى غضون سنى نموها عن بثرات منتفخة صغيرة داخلية أو خارجية ، وكثيرا ما يتوالد عنها رءوس لديدان شريطية دقيقة قد تتحول الى بثرات جديدة .

فاذا ما انفجرت هذه القرحات التي تحتوى على عدد كبير من رءوس الديدان الشريطية وانتقلت من عضو الى آخر وتلوث بها جسم المصاب أصبح يخشى عليه من استفحال أمراضه واستعصاء أدوائه .

وفى حالات أخرى تتكون أكياس صغيرة على جدار القرحات وتمتلئ هذه الأكياس برءوس الديدان الشريطية ، وهذه الأحوال كثيرة الوقوع فى البهائم التى ترعى الغيطان الملوثة ببراز الكلاب الموبوءة ، فتنتقل البويضات مع ما ترعاه المواشى من الحشائش الى أمعائها ، وتنمو بداخلها الشرنقة الى أن تصيب قرحاتها الكبد أو الرئة من الماشية وتنتشر فيها حتى يستعصى إزالتها وتخليصها منها ، فتلقى هذه الأعضاء الملوثة ولا يصرح بها لمأكل الانسان .

ومما يدعو للأسف الشديد أن هذه الأعضاء الملأى بالأدران تلقى غذاء للكلاب ، فلا تكاد تستقر بجوفها وتجد البيئة التى تساعد على حياتها بمصران الكلب حتى تأخذ رءوس الديدان التى بداخل القروح فى النمو الى أن تصير دودة شريطية بالغة ، وهكذا تعود الى الإنسان والحيوان تفت من عضده وتهدد حياته وغذاءه بأكبر الأخطار .

ولأطوار نشوء دودة الكلب الشريطية خواص فريدة فى علم الحيوان ، فمن البويضة الواحدة تنشأ رءوس ديدان شريطية عديدة بالقرحات الناتجة عنها ، كما أنه يمكن أن ينتج عن البويضات المتشابهة بثرات مختلفة اختلافا تاما ، هذا الى أن رءوس الديدان المتولدة من القروح تتحول الى ديدان شريطية كاملة التكوين بالغة النمو بمصران الكلاب ولا ينشأ عنها بالإنسان والحيوان سوى بثرات وقروح جديدة تختلف اختلافا كليا عن الدودة الشريطية .

ولا تتعدى القرحة فى الماشية حجم التفاحة إلا فيما ندر ، ومع ذلك يلاحظ أن وزن الكبد يزداد ازديادا بالغا قد يصل من خمسة الى عشرة أضعاف وزنه العادى .

وأما فى الإنسان فإنها تصل الى حجم قبضة اليد أو رأس الطفل الصغير ، وتمتلئ سائلا أصفر ، وتزن من ١٠ الى ٢٠ رطلا .

وأغلب ما توجد فى الإنسان فى الكبد كما أسلفنا ، وتظهر فيه بأشكال عديدة متباينة ، إلا أنها كثيرا ما تنتقل الى الرئة والعضلات والطحال والكلى والى تجويف الجمجمة ويتغير شكلها وتكوينها تغييرا كبيرا حتى إنه كثيرا ما اختلط على الاختصاصيين تميزها الى عهد قريب .

وعلى كل حال فإن هذه القرحة أينما وجدت خطر أكيد على صحة المصاب بها وحياته ، ومما يزيد الطين بلة أنّ توصلنا الى معرفة تاريخ حياتها وطرق نشأتها وتكوينها لم يساعدنا حتى الآن على الاهتداء الى طرق علاجها ، إلا أنه فى بعض الأحيان قد تموت هذه الطفيليات من تلقاء نفسها ، وقد يكون السبب فى ذلك هو أن مواد يفرزها الجسم تعمل على إبادة هذه الطفيليات ، وقد ثبت أخيرا أن جسم الإنسان يفرز فى مثل هذه الأحوال مواد مضادة لفعل هذه الطفيليات لإبادتها وإبطال عمل سمومها .

ولكن مما يدعو للأسف الشديد أن الحالات التى تموت فيها هذه الطفيليات دون أن تترك أثرا أو تحدث ضرراً نادرة بالنسبة للحالات الأخرى ، وهذا فضلا عن أن محاربتها بالطرق الكيمائية لم تأت بأية فائدة ، وطالما لا يلتجئ المصاب الى أسلحة الجراحين لا ينقذه من الوبال أى طريق من طرق العلاج الأخرى .

وهذه الأسباب مجتمعة تضطرنا لاتخاذ جميع الوسائل المستطاعة لمكافحة هذا المرض العضال ووقاية الإنسان من أخطاره الفجائية .

وتدل الإحصائيات الأخيرة على أن كلاب الرعاة والقصابين وكلاب الصيد هى أكثر الكلاب تلوثا بهذه الدودة الشريطية ، هذا الى أنه قد اتضح أن جميع فصائل الكلاب المختلفة حتى أصغر أنواعها لم يسلم من الإصابة تماما .

وقد ثبت للأستاذ الدكتور « نوللر » من تشريح الجثث بألمانيا أن الإصابات الآدمية بقروح دودة الكلب لا تقل عن ١ فى المائة بكثير ، وأما أكثر البلدان

الأجنبية تلوثا بهذه الدودة فهى المناطق الشمالية بالأراضى الواطئة ودالماسيا وبلاد القرم واسلنده وجنوب شرق أستراليا ، وفى أقليم قريزلند بهولنده حيث تستخدم الـكلاب فى الجر ظهرت الإصابة بالدودة الشريطية فيما لا يقل عن ١٢ فى المائة من الـكلاب ، كما وجد فى اسلنده أن بين كل ٤٣ من الأهالى شخصا مصابا بقروحها ، وفى محافظة فكتوريا بأستراليا شخصا فى كل ٣٩ من السكان ، وكذلك ثبت أن هذه الدودة كثيرا ما كانت سببا مباشرا فى الأمراض بتركيا وبلغاريا وبالروسيا وفنلنده وفى مناطق عديدة من شمال السويد وكذلك بأفريقا الشمالية ومستعمرة الـكاب وبأقطار مختلفة من أمريكا الجنوبية ، كما دل الإحصاء على أنه يتوفى متأثرا بهذه الأمراض فى انجلترا وحدها فى الوقت الحاضر نيف وأربعمائة نفس سنويا .

فاذا كانت الإصابات الآدمية بسبب دودة الـكلب الشريطية محدودة فى بعض الجهات فإن إصابة المواشى بها بكثرة زائدة تجعل اهتمامنا بمكافحتها مضاعفا ، فقد دلت الإحصاءات التى أجريت فى المجازر الألمانية على أن ٢ فى المائة من الأغنام ، ٢و١ فى المائة من الأبقار ، ٥و١ فى المائة من الخنازير مصاب بقروح دودة الـكلب ، على أنه فى بعض نواحى ألمانيا — مثل مكلنبورج — كثيرا ما تصل هذه الأرقام الى حد يوجب القلق ، إذ قد بيّن الإحصاء أن بهذه المنطقة ما لا يقل عن ١٢ فى المائة من الأبقار و ١١ فى المائة من الأغنام ملوثا بهذه القروح ، وكذلك ثبت فى مجزرة مدينة هامبورج أن ١٨ فى المائة تقريبا من الخنازير مصاب بها .

فإذا ما أضفنا الخسارة التى تصيب غذاء الإنسان من جراء إبعاد أكباد هذه المواشى الموبوءة الى الأخطار التى تهدد صحة الإنسان بوجود هذه الدودة الشريطية ، فإنه ما من أحد يتردد فى أن إبادتها من ألزم الواجبات، وقاية للصحة العامة وحرصا على غذاء الشعب، خصوصا وأن النواحى التى سلمت حتى الآن منها مهددة من حين لآخر بأن يسرى اليها الوباء .

ولقد يكون أنجع الطرق فى مكافحتها هو أن نجتهد فى حصر هذه الدودة فى الـكلاب وحبسها عن الانتشار ، وذلك لعدم استطاعتنا فى الواقع منع اقتناء الـكلاب بتاتا .

فلا ينبغى السماح للكلاب بدخول المجازر العامة بأى حال من الأحوال ، كما يجب أن يراعى إبعادها عن الذبائح ولا يقدم لها الغذاء من فضلات الذبيح النيئة بل يجب طبخها الى أن تنضج تماما .

ولا ينبغى إغفال معالجة الكلاب التى يثبت إصابتها المعالجة اللازمة فى مثل هذه الأحوال لطرد الدودة الكامنة بمصرانها ، ويستحسن تكرار هذه العملية من حين لآخر لكلاب الرعاة وكلاب الحراسة .

كما ينبغى بذل الكثير من العناية بالذبائح فى المنازل والمحال الخصوصية ، فإنها تساعد كثيرا على انتشار هذه الطفيليات ، فلا ينبغى أن يقتصر التفتيش الصحى على البحث عن دودة الخنزير [١] فحسب ، بل يجب أن تسرى لوائح التفتيش الصحى فى المجازر على الذبيح بالمنازل ومحال الأكل العمومية ، فلا يخفى على من أتيحت له فرصة مشاهدة الذبائح المنزلية الخصوصية أن كثيرا ما يرتكب الناس إثم أكل لحوم ملوثة بدودة الكلب ، خصوصا وأن القصابين العاديين الذين يقومون عادة بالذبح يجهلونها كل الجهل وتنقصهم الخبرة العلمية .

ويمكن للانسان وقاية لصحته وحرصا على حياته أن يراعى بدقة زائدة الابتعاد الكلى عن مداعبة الكلاب ، فلا يسمح لها بالاقتراب منه ، كما ينبغى تربية الأطفال على الاحتراس من الاختلاط بالكلاب ، فلا تترك تلعق أيديهم ولا يسمح لها بالإقامة بأماكن نزهة الأطفال ولهوهم ، فإنه مما يدعو للأسف الشديد أن نرى عددا كبيرا من الكلاب خصوصا فى ميادين رياضة الأطفال ، هذا الى برازها المبعثر فى كل أركانها .

كما ينبغى إعداد أوان خاصة لإطعام الكلاب ، فلا تترك تلعق فى الصحون التى يستعملها الإنسان ، ولا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العمومية أو المطاعم الى آخره ، وعلى العموم يجب أخذ الحيطة التامة بإبعادها عن كل ما له مساس بمأكل الانسان أو مشربه .

---

(١) هى إحدى الطفيليات التى يصاب بها لحم الخنزير واسمها العلمى (Trichina) .

also :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله »

" The recompense of evil is a like evil but he who forgiveth the offender and reconcileth himself to his enemy and overlooketh the harm done him, will the Lord afford him ample recompense." *(Alucy's Commentary.)*

It describes the pious thus:

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس »

" Those who suppress anger and give no vent thereto, and forego the punishment of offenders against them." *(Baidawy's Commentary.)*

Islam recognised the eagerness with which men seek the fleeting world and the sad regret with which they view the lost opportunities to secure material ends. They assign causes to their failure to avail themselves of those opportunities but they get no further in the process and remain ignorant of the underlying causes which transcend all human knowledge or comprehension and whose minute workings are ordained from on high.

The following verse is significant in this connection :

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير »

" No misfortune is there, that afflicteth the earth as dearth, sterility, blighted crops or earthquakes; or that afflicteth your persons as disease, plague, wound or injury; but ere God caused them, was known to Him and recorded in the Book of Divine Decrees; for such is easy unto the Lord." *(Alucy's Commentary.)*

Islam embraced the very sources of virtue and good conduct. It strongly urged to justice which constitutes the restraint imposed on the self to keep within certain assigned limits. It enjoined all virtues and forbade all vices for thus it saith:

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان و إيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي »

" God enjoineth moderation in all things; the doing of good and performance of duties and prayers in a becoming manner; the giving to the kindred what they stand in need of; and forbideth the following of lustful desires; the giving vent to anger and passion; and the oppression of men."

(Baidawy's Commentary.)

according to the tenets of virtue, will he be reckoned in the same category as the martyres". *(Tradition.)*

It urged to piety and pointed out the salient feature of the pious, yet it recognised the tendency of the soul to succumb to the forbidden and ordained the most effectual remedy thereof:

« اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »

meaning: " Fear God wherever you may be and cause the good deed to follow the evil so that it may be expiated thereby and treat people in a kindly way"; *(Tradition.)*

and « لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس »

meaning: " Man will not attain to the exalted position of the pious until he refrains from the mere permissible lest he be tempted to lapse unto the forbidden". *(Tradition.)*

It recognised that souls are susceptible to the least offence and that hatred and malice may be born even against an otherwise well-meaning offender. It has therefore urged to peace-making and reconciliation among people and made such act one of the best a man could do:

« لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما »

" Vain are their deeds except those who enjoin charity and do the good by lending the needy, relieving the distressed, giving voluntary alms and by peace-making and reconciliation.
" Whosoever does that to please the Lord, will the Lord recompense him beyond all measures". *(Alucy's Commentary.)*

It recognised that human souls are prone to wreak vengeance and are not content, in the exercice of justice, with mere retribution. The offender might, out of pity, be forgiven on the grounds of ignorance or the overwhelming motive which impelled him to commit what he has committed. Foregiveness will, in such case, be more compatible with mercy and farther removed from injustice and iniquity.

Islam has, therefore, repeatedly urged to forgiveness for thus it saith:

« خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

" Use indulgence with sinners and forgive them their trespasses, enjoin the good actions and return not the evil of the ignorant with a like evil but overlook it"; *(Alucy's Commentary.)*

Another Tradition ordains:

« لتأمرن بالمعروف . ولتنهون عن المنكر . ثم لتأخذن على يد الظالم . ولتأطرنه على الحق أطرا .
ولتقسرنه على الحق قسرا أوليضربن الله قلوب بعضكم ببعض . ثم يلعنكم كما لعن بنى إسرائيل »

meaning: " Let ye enjoin the good and forbid the evil, check the iniquity of the unjust, restrain him therefrom and force him back to the truth, or will hatred of one another be engendered in your hearts and ye will be accursed as were the sons of Israel " *(Tradition.)*

Islam recognised the inherent love of life and the covetousness of material ends inborn in men, the hatred and jealousy engendered in the hearts of the poor against the rich and the love of pelf and cupidity of the latter that it assigned a share of their wealth to the poor every year and prescribed its collection by force if need be.

Islam has furthermore urged the rich to charity so that malice and hatred may be exterminated from the hearts of the poor and love and good-will substituted instead. Also that the rich may set themselves free from the vice of avarice and cupidity:

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

" Expend of what the Lord hath given you in the manner He ordained and save yourselves from the greed of your souls that ye may prosper ".

(Baidawy's Commentary.)

It urged to lend the needy and set a greater value thereon than on charity.

Through the forbiddance of usury, Islam has striven to strengthen the bonds of love and implant kindness and benevolence in the hearts of men.

It is deplorable, indeed, to see how far mankind have disregarded, to their detriment, the dictates of virtue. The reforms clamoured for by extremists in many Christian countries, are not, indeed, without justification. Evil institutions are undermining the very edifice of society in those countries and a complete disruption is only averted through constantly grappling with the exigencies of the moment. But should they only give the question of religion their serious consideration, they will find in Islam and its benign teachings a perfect panacea for all their social evils.

Islam has recognised the worldly needs of man and his covetousness of material ends as a means to his welfare. It pointed out that therein lies the cause of wretchedness and perdition and ordained:

« من طلب الدنيا حلالا فى عفاف كان فى درجة الشهداء »

meaning: " He who seeketh the world within the bounds of the lawful and

The Prophet saith in this connection :

« إن الله يكره أن يرى عبده فارغا من عمل الدنيا والآخرة »

meaning: " Verily God detesteth to see man unoccupied with a pursuit of this world or the hereafter "; *(Tradition.)*

also « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »

meaning: " A sign of a good Moslem is to let severely alone what doth not concern him ". *(Tradition.)*

Islam recognised the advantages accruing from the enjoinment of good and the forbiddance of evil in view of the inherent inclinations of men:

« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »

meaning: " Let ye enjoin the good and forbid the evil, or will the Lord send the wicked among you to perpetrate evil, then the pious will pray for deliverance in vain ". *(Tradition.)*

It showed that disregard of such an injunction will inevitably result in the disruption and downfall of nations. It referred to a people who evoked, through their sin, the wrath and damnation of the Lord thus:

« كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون »

" The unbelievers forbade not one another such sins as they have committed before. Detestable indeed are their wicked actions." *(Baidawy's Commentary.)*

Another verse counsels :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

" Fear ye a sin that will not only affect those who committed it but will affect you, one and all, in your entirety." *(Alucy's Commentary.)*

The Prophet saith in this connection :

« إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها »

meaning: " If a sin be committed on earth, he who hath witnessed it and condemned it, will he be freed of its sin ; and he who hath not witnessed it and approved of it, will he be made a party thereto." *(Tradition.)*

from the path of righteousness for they counsel nought but evil and follow a mere delusion; and they are but liars to ascribe to God a begotten son or a human attribute." *(Baidawy's Commentary.)*

It showed that the path of righteousness could not be approached by way of delusion and falsehood and that it could only be found through sound and sane reflection. Hence the frequent repitition in the Koran of such verses as:

« إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون »

" There is verily a sign in such and such thing for a people who understand";

and « إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

" There is verily a sign in such and such thing for a people who reflect."

It reproves others thus:

« أولم يتفكروا »

" Have they not reflected!"

and « أو لم ينظروا »

" Have they not witnessed!"

and other like verses.

Islam recognised the value of time and that men are prone to waste it in vain discourse or futile pursuits. It warned against such waste and strongly urged us to make good use thereof. It described the blessed thus:

« والذين هم عن اللغو معرضون »

" Those who avoid vain discourse and futile pursuits and busy themselves with useful avocations", *(Alucy's Commentary.)*

and saith further:

« فوربك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون »

" God will subject all kinds of unbelievers to a severe trial on the Day of Judgement for what they have committed of sins and disbelief".
(Alucy's Commentary.)

Islam has recognised the influence exercised by passion over the minds of men, and has forcibly cautioned them against it. It has exposed the role it assumes in the direction of their souls and the extent to which it holds sway over their hearts.

So great indeed, is the influence of passion over men that it was referred to in the Koran as a deity worshipped to the exclusion of God:

« أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة »

" Hast thou not seen he who hath deviated from the right path and so eagerly followed his passion as to make a deity thereof to be worshipped, and God hath forsaken him knowing of his misguidance and the corruption of his soul, and hath his ears and heart sealed up so that he hearkens not to goodly exhortations and is heedless of the signs of God." *(Baidawy's Commentary.)*

It warned against following its precipitous path thus:

« ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »

" Follow not the passion of thy soul in judgement or in any other spiritual or worldly affair lest it causeth thee to miss the signs of God with which He hath indicated the path of rectitude." *(Alucy's Commentary.)*

It urged men to shun the sinster influence of passion thus:

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »

" He who hath feared his trial before his Lord on the Day of Judgement, curbed the unlawful desires of his soul, preferred the good thereto and was heedless of worldly gratifications, Verily, Paradise, and nowhere else, shall be his abode." *(Alucy's Commentary.)*

Islam found mankind groping in the darkness of superstitions and delusions and hath reached forth a helping hand unto them to save them from the dire influence of conceit as signified by the verse:

« إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا »

" The unbelievers follow but a mere delusion, a false conceit of their own rectitude, whereas truth could only be perceived if it is founded on reality and not on mere delusion or conceit." *(Alucy's Commentary.)*

Also:

« وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »

" Unbelievers or ignorant people will—if they are obeyed—lead others astray

It urged strongly to faithfulness and benevolence and warned against hypocrisy and deceit which taints corrupt the souls and detract from virtue to vice :

« إن الشرك (الرياء) أخفى فيكم من دبيب النمل فى الليلة الظلماء »

meaning : " Verily hypocrisy is more imperceptible in you than the crawling of ants in the darkest of nights ". *(Tradition.)*

It recognised the natural tendency of mankind to injustice and warned forcibly against it in the most vehement manner for thus it saith :

« ما من أمير عشرة إلا يجاء به يوم القيامة مغلولة يداه فلا يفكه إلا العدل »

meaning : " No prince is there who rules over but ten people, but will he be brought on the day of judgement with his hands chained together, and none will set him free save the justice he dispensed ". *(Tradition.)*

It insisted on the upholding of Divine Justice and made it incumbent on all people so that no one escaped the responsibility, for it most wisely saith in this connection :

« كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته »

meaning : " Ye are all shepherds and ye are all responsible for your flocks ". *(Tradition.)*

Islam recognised the evil propensities of mankind and the ceaseless efforts on their part to satisfy their passions and desires, thus missing the good life and depriving themselves of blessedness and salvation.

It has transcended in this respect, the knowledge of the greatest pedagogues that ever existed. It warned you against thine own self as against your most inexorable enemy, for the wiles and guiles of the soul are the most pernicious and farthest removed from the sphere of consciousness. To succumb therefore to temptation and follow the precipitous path of passion, will inevitably lead to aberration and perdition.

The Tradition saith in this connection :

« أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك »

meaning : " Thy most bitter enemy is thine own soul that lies concealed within thy breast"; and « إن النفس لأمارة بالسوء »

meaning : " Verily the soul inciteth to evil ".

English Supplement of

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي

ISLAM

HE IDEAL RELIGION[1].

(Continued).

Islam enjoined the love of one another so much so that true belief was made conditional thereupon for thus saith the Tradition:

« لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا »

meaning: " Ye shall not enter heaven until ye believe, and ye shall not believe until ye love one another ".

It ordained good counsel and made it to cover the whole religion as signified by the Tradition:

« الدين النصيحة »

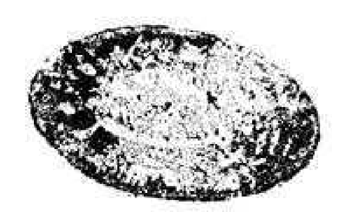
meaning: " Religion is good counsel ".

It enjoined the believers to refrain from inflicting harm on others and made such desistence the very gist of Islam for thus it saith:

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »

meaning: " The true Moslem is he who spares his fellow-Moslems the evil of his hand and tongue ". *(Tradition.)*

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book: "Messages of Peace".



قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم •

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الخامس	جمادى الاولى سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى } سابقا

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الازهر



الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : بستان ٣٥٠٧

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م



بسم الله الرحمن الرحيم

ضلالة فصل الدين عن السياسة

ما زال الرسل عليهم السلام يرمون فى الدعوة الى أصول الايمان بالله عن قوس واحدة ، ولكل رسول بعد هذا شريعة يُراعَى فى أمرها ونهيها حال من يرسل اليهم خاصة ، حتى حضر الوقت الذى تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام فى شريعة واحدة ، فبعث الله المصطفى صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، وجعله خاتم النبيين ، وقضى بأن تكون شريعته خاتمة الشرائع ، ولعموم رسالته ، سواء الشاهد فيها والغائب والعربى والعجمى ، أقام على صدقه آيات باقيات ما نظر فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافذة إلا أسلم وجهه لله قانتا (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا ٱلْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) ولخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع حكمة ، وأوفاها أصولا ، وأوسعها للمصالح رعاية .

ثلاث حقائق كل واحدة منها شطر من الاسلام : عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، واشتمال شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع ، وكون هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم ، وأصلح ما يقضى به عند التباس المصالح أو التنازع فى الحقوق .

أجمع علماء المسلمين على هـذه الحقائق وعرفها عامتهم ، فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى فى غير هداية الاسلام سبيلا ، ومثل من يمارى فى شىء منها ، ثم يدعى أنه لا يزال مخلصا للإسلام مثل من يضرب بمعوله فى أساس صرح شامخ ، ثم يزعم أنه حريص على سلامته ، عامل على رفع قواعده .

فتنت مدنية الشهوات أشخاصا ينتمون الى الإسلام فانحرفت بهم عن المحجة ، وأدركوا أن مجاهرتهم بإنكار رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم تسقطهم من حساب المسلمين دفعة ، فلا يبلغون من فتنة الأمة مأربا ، فبيتوا أن يبقوا ثوب الاسلام على أكتافهم ، ويحركوا بمدحه فى بعض المجالس ألسنتهم ، أو فى بعض الصحف أقلامهم لكى يركن الغافلون من المسلمين الى أقوالهم ، فيقذفوا من وراء ريائهم وثقة بعض الناس بهم ما شاءوا من آراء خاسرة ، ويزعموا أن هذه الآراء من هداية الإسلام أو أن الإسلام لا ينكرها .

والواقع أن هذا الصنف من المنحرفين قد أحدث فى بعض البلاد الإسلامية آثار فساد لم يحدث معشارها النابذون الى الدين على سواء ، وكم أرتنا الأيام فى هذا الصنف من عجائب : دلتنا على أن هناك مغارات يأتمرون بالدين بين حيطانها ، ولغة اذا حضرهم بعض المسلمين يجنحون الى التخاطب بها ، وضروب من الإغواء يجهدون أنفسهم فى تمويهها .

منذ عهد قريب أخذ بعض الكاتبين يتشبهون بمن يؤلف على طريق البحث العلمى ، فقالوا ما شاءوا أن يقولوا ، وخرجوا بغير مناسبة منطقية الى إنكار أن يكون للإسلام مدخل فى الشئون القضائية والمعاملات المدنية .

جال هذا الصوت جولة الباطل ثم ذهب كصيحة فى واد ، ولم يبق له صدى إلا فى آذان رهط لا يسمعون رشدا ، ولا يفقهون حجة ، وإن شئت فقل : صادف ذلك الصوت أفئدة هواء ، فجعلوا يحاكونه فى بعض ما يكتبون ، ويوقظون فتناً لو أقبل كل على ما يحسن أن يتحدث فيه لكانوا عنها فى شغل .

ما كدنا ننتهى من إماطة أذى ذلك الذى ادعى أنه يفسر القرآن بالقرآن ، حتى خرجت إحدى المجلات تحمل مقالا تحت عنوان « داء الشرق ودواؤه » وفى هذا المقال

دعاية الى فصل الدين عن السياسة ، وبلغ بكاتبه الحال أن زعم أن سبب تأخر المسلمين عدم فصلهم للدين عن السياسة .

ونحن نود والله يعلم أن يقبل كل من بيده قلم على ما فيه خير للناس ، والموضوعات العلمية والأدبية والسياسية مترامية الأطراف ، وانصراف نفس الكاتب عن البحث فى أمثال هـذه الموضوعات ليس بعذر يبيح له أن يخوض بقلمه فى الحديث عن الدين خوض من يقولون ما لا يتدبرون .

ونود والله يعلم أن نقبل على شأننا ، ونمضى فى سبيلنا ، وليس فى فطرتنا الولوع بأن نفند لكاتب رأيا ، أو نبطل لباحث قولا ، ولكن القوم أصبحوا يتساقطون على طمس معالم الحقيقة والفضيلة تساقط الفراش على السراج ، والسكوت عنهم تفريط فى جنب الله ، ومن فرط فى جنب الله خسر الدنيا قبل الآخرة .

قال صاحب المقال فى ذكر أهم النقط الجوهرية التى ترجع اليها أسباب ضعف الشرق: « الثانية عدم التفريق بنظام قاض بين السلطتين الدينية والدنيوية ، فكان هذا من جملة المسببات لتأخر المسلمين إذ أن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أبعد [1] الأمور الى اختلال النظام واذا كان هـذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الاسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا ، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين الى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم ، وقد عاد اجتماع هاتين السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن » .

نعرف من قبل أن يظهر هذا المقال أن الذين يدعون الى فصل الدين عن السياسة فريقان : فريق يعترفون بأن للدين أحكاما وأصولا تتصل بالقضاء والسياسة ، ولكنهم

(١) كذا فى الأصل ولعلها محرفة عن كلمة « أدعى » .

ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح آخذة بالسياسة الى أحسن العواقب، ولم يبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن فى أحكام الدين وأصوله وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة، لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن.

ورأى فريق أن الاعتراف بأن فى الدين أصولا قضائية وأخرى سياسية، ثم الطعن فى صلاحها، إيذان بالانفصال عن الدين، واذا دعا المنفصل عن الدين الى فصل الدين عن السياسة كان قصده مفضوحا وسعيه خائبا، فاخترع هؤلاء طريقا حسبوه أقرب الى نجاحهم وهو أن يدعوا أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون فى حقائقه ما له مدخل فى القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه لعلهم يجدون فى الناس جهالة أو غباوة، فيتم لهم ما بيتوا.

هذان مسلكان لمن ينادى بفصل الدين عن السياسة، وكلاهما يبتغى من أصحاب السلطان أن يضعوا للأمة الاسلامية قوانين تناقض شريعتها، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق ما ارتضاه الله فى إصلاحها، وكلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات، وقصور النظر عما لشريعة الإسلام من حكم بالغات.

أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية، ووضع فى فم السياسة لجاما من الحكمة، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين إذ كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة، ويرجعون عند الاختلاف الى كتاب الله أو سنة رسول الله.

فى القرآن شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية، وتتولى إرشاد السلطة السياسية قال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية، وفى قوله تعالى: (لقوم يوقنون) إيماء الى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية، وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل أحكام الجاهلية، ذلك لأنهم فى غطاء من تقليد

قوم كبروا فى أعينهم ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم ، وقال تعالى : (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) فرض فى هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله ، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم ، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أسرى الشهوات عن بعض ما أنزل الله ، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم ، ويضع مكان حكم الله حكما يلائم بغيتهم ، قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وفى آية : (فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) وفى آية ثالثة : (فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) .

وفى القرآن أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات ، كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد ، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث ، وأحكام القصاص والدية وقطع السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات ، وجزاء الساعى فى الأرض فسادا ، بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد الى وسائل الانتصار كقوله تعالى مرشدا إلى القوة المادية : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) وقوله تعالى مرشدا إلى القوة المعنوية : (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) وقوله تعالى منبها على خطة هى من أنفع الخطط الحربية : (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) والكفار هنا المحاربون ، ففى الآية إرشاد الى أن يكون ما بينهم وبين ديارهم أمنا ، ولا يدعوا من ورائهم من يخشون منه أن ينهض الى أموالهم وأهليهم من بعدهم ، أو يجلب عليهم بخيله ورجله ليطعن فى ظهورهم وقد أقبلوا على العدو الذى تجاوزوا اليه بوجوههم ، وفى الآيات الحربية ما يتعلق بالصلح كقوله تعالى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا) وقوله تعالى : (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وفيها ما يتعلق بالمعاهدات كقوله : (فَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ) .

وفى السنة الصحيحة أحكام مفصلة فى أبواب من المعاملات والجنايات الى نحو هذا مما يدلك على أن من يدعو الى فصل الدين عن السياسة إنما تصور دينا آخر وسماه الإسلام .

وفى سيرة أصحاب رسول الله — وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة — ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطانا على السياسة ، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله .

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة ، وفى صحيح البخارى « كانت الأئمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فاذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه الى غيره اقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم » .

ومن شواهد هذا محاورة أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فى قتال مانعى الزكاة ، فإنها كانت تدور على التفقه فى حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بقوله فى الحديث : « فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » وأبو بكر الصديق يحتج بقوله فى الحديث « إلا بحقها » ويقول الزكاة من حق الأموال ، ولولم يكونوا على يقين من أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها ، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث ، أو لوجد أبو بكر عند ما احتج عمر بالحديث فسحة فى أن يقول له : ذلك حديث رسول الله ، وقتال مانعى الزكاة من شئون السياسة .

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم ، قصة عمر بن الخطاب إذ بدا له أن يضع لمهور النساء حدا ، فتلت عليه امرأة قوله تعالى :

(وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً) فما زاد على أن قال : رجل أخطأ وامرأة أصابت ، ونبذ رأيه وراء ظهره ، ولم يقل لها : ذلك دين وهذه السياسة .

وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد ، ولم يوجد حتى فى الأمراء المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية وإن جروا فى كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله ، جهالة منهم أو طغيانا ، أراد الحجاج أن يأخذ رجلا بجريمة بعض أقاربه ، فذكره الرجل بقوله تعالى : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) فتركه ولم يخطر على باله وهو ذلك الطاغية أن يقول له : ما تلوته دين وما سأفعله سياسة .

وأما قيام أحكام الشريعة على أساس العدل ، ورسمها للسياسة خططا محكمة الوضع فسيحة ما بين الجوانب ، فذلك ما لا أستطيع تفصيل الحديث عنه فى هذا المقال ، وفيما كتبناه ونكتبه إن شاء الله تعالى تحت عنوان « الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان » ما يساعد على الإلمام بأصول الشريعة ومعرفة اتساعها لكل ما يحدث من الوقائع ، والذى نقوله فى هذا المقام أن السياسة لا تجد فى الدين ما يقف دون مصلحة ، ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة ، لا تجد فيه هذا ولا ذاك متى وزنت المصالح والمفاسد بميزان العقل الراجح ، وكان القابضون على زمامها من حصافة الرأى فى منعة من أن يطيش بهم التقليد أو إرضاء طائفة خاصة الى أن يروا الفساد صلاحا فيشرعوه ، أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه ، وليس من شأن الدين أن يراعى فيما يشرع الأهواء الجامحة وإن كانت أهواء الملأ الذين استكبروا ، أو أهواء من فى الأرض جميعا .

والرؤساء الذين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها ، فوضعوا لهم قوانين جائرة ، وأذنوا بمظاهر غير صالحة ، إنما أتوا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده ، واذا كان على غير هؤلاء

الرؤساء تبعة فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها اذا أهملوا علاجهم، ولم يبذلوا فى دعوتهم الى الاستقامة جهدهم.

أما الأحداث وأشباه الأحداث الذين لا يهدأ لهم بال ما داموا يسمعون اسم الدين يجرى فى لسان بعض الدول باحترام، فإن من نشأ فى غير جد، وأسرف فى حب اللهو، لا يألف شريعة تأمر بالعدل، وتضع دون الأهواء الجامحة حاجزا، فلا عجب أن يتآمروا بها، ويشيروا على السياسة بأن تبتعد منها، واذا بلغ هؤلاء مأربهم فى سياسة وقع زمامها فى يد زائغ عن سبيل الرشد، فستذهب آمالهم خائبة فى كل قطر يسوسه رئيس يقدر الإسلام قدره، ويجد من حوله علماء درسوا الشريعة بنباهة، ولا يخفى عليهم قصد من يتغنون بمدح الإسلام، وقبل أن تستريح حناجرهم يطعنونه فى الصميم.

يقول الكاتب: «إن جمع السلطتين فى شخص واحد بدون تحديد لهما كان من أدعى الأمور الى اختلال النظام».

ليس فى الإسلام سلطة دينية إلا على معنى أن الأمير ينفذ أحكام الشريعة المفصلة فى الكتاب والسنة، أو المندرجة فى الأصول المأخوذة منهما. وقاعدة الشورى التى قررها القرآن الكريم، وجرى عليها الخلفاء الراشدون كافلة بصحة الاجتهاد فى الأحكام المستنبطة من الأصول، أما النظم التى تقوم بها الشورى على وجهها الصحيح فموكولة الى الآراء الراجحة وما تقتضيه مصالح الأمم أو العصور، فالإسلام لم يترك السلطة التى وضعها فى أيدى الأمراء مطلقة عن التقيد، واذا استهان بعض الأمراء بقاعدة الشورى فإن التشريع تام، والوزر على من لم يأخذ نفسه بما قرره الشرع العزيز.

واذا كان بعض الأمراء هم الذين خرجوا عما حده الإسلام لسلطتهم الدينية، فحكمة الكاتب متى كان مسلما أن يقرر الحد الذى رسمه الإسلام، ويبين للناس

كيف تعداه أولو الأمر، ليطالبوهم بالوقوف عنده، لا أن يقول كلاما مبهما، ويبنى عليه المناداة الى شهوة هى فصل الدين عن السياسة.

ويقول صاحب المقال: «وقد عاد اجتماع السلطتين بلاء عليهم إذ أصبحت الرياسة الدينية والدنيوية فى الواقع فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم كما هو مشاهد الآن».

لسقوط الشعوب الإسلامية فى قبضة تلك الدول التى نازعتهم أسباب ليس الجمع بين السلطتين منها فى شىء، ومن طبيعة سيطرة تلك الدول عليهم أن تتصرف فى شئونهم على طرق لا تحفظ حقوقهم ولا تراعى فيها مصالحهم، وهل ينقص هذا البلاء لو أن المسلمين أعلنوا فصل سياستهم عن الدين قبل أن يسقطوا فى أيدى هذه الدول المنازعة لهم؟!

حرص الكاتب على شهوة فصل الدين عن السياسة جعله يورد فى معرض التشويق اليها ما ليس بحق ولا يشبه أن يكون حقا، بأى طريق عرف الكاتب أن تلك الدول اذا وجدت السياسة فى يد والدين فى يد أخرى، سلبت ما فى اليد الأولى من سياسة وتركت اليد الأخرى تعمل فى حدود سلطتها بحرية!

ويقول الكاتب: «واذا كان هذا أفاد المسلمين فى صدر التاريخ الإسلامى وأمر العالم لهم كما قدمنا، إلا أنه كان بلاء بعد انقسام المسلمين الى ممالك وفرق وشيع ومذاهب وأحزاب، ووجود دول أخرى تنازعهم السيادة على العالم».

قد عرفت أن الأمير المسلم ليس عنده فى الواقع سوى سلطة واحدة هي تدبير شئون الأمة على مقتضى القوانين الشرعية والنظم التى لا تخالف شيئا من أصولها، فتجريد الأمير من السلطة الدينية هو عزل له عن الإمارة فى نظر الشريعة، ومن لم يكن أميرا فى نظر شارع الإسلام، فليس بأمير فى نظر المسلمين، فالمسلمون لا يستطيعون أن يتصوروا أميرا مجردا من السلطة الدينية فضلا عن أن يجردوه منها

بالفعل ويرضوا بعد تجريده منها بالاستماع اليه والطاعة له . ولم تكن السلطة الدينية بيد الأمراء فى يوم من الأيام بلاء على المسلمين ، وإنما بلاء المسلمين فى عدم قيام بعض أمرائهم بما توجبه هذه السلطة من نحو العدل والشورى والمساواة وإعداد القوة لتقرير الأمن وكف العدو الذى يبسط اليهم يده بالسوء .

قال صاحب المقال : « فكل مملكة احتضنت مذهبا فى العقائد والفروع لتبق وحدها منفصلة عن الممالك الأخرى ، فبعد الانقسام أصبح كل أمير منهم إماماً دينيا وحاكما سياسيا لقطره ، فكانت النتيجة من هذا الجمع الإخلال بالنظام العام وزالت الوحدة المقصودة من روح التشريع الإسلامى فتعددت الخلافة واختلت أحكامها ، بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت الى حكمة الفصل بين السلطتين فصار ذلك الفصل مصدرا لفائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار فلم يضرها اختلاف الدول فيها لوجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها وتخصصها ، ولذلك بقيت وحدتها خالدة فى عصمة من الانشقاق والتدهور اللذين أصابا الوحدة الإسلامية » .

وقع تفرق فى الممالك الإسلامية ، وأصبح كل أمير مستقلا بالنظر فى أمور قطره فكانت النتيجة من استقلال كل أمير بمملكة مع تقاطع هذه الممالك وتدابرها انحلال الرابطة الإسلامية وزوال الوحدة المقصودة من التشريع الإسلامى .

فسبب اختلال النظام العام أو أحكام الخلافة انقسام الأمم الإسلامية الى دول انقساما غير مصحوب بشئ من التحالف والتعاطف ، أما أن كل أمير يرجع اليه النظر فى شئون رعيته الدينية فذلك من لوازم الإمارة فى الإسلام ، فلم يكن لعد الأمير المستقل نفسه حارسا للدين فى مملكته الخاصة دخل فى اختلال النظام ، فوهن المسلمين جاء من جهة استقلال كل أمير بطائفة من المسلمين استقلالا يقطع بينها وبين الدولة العظمى صلة التناصر والتعاون ، لا من جهة أن رعاية الدين داخلة فى سياسة كل دولة .

ويقول الكاتب : « بعكس الأمم الأخرى التى تنبهت الى حكمة الفصل بين السلطتين ، فصار ذلك الفصل مصدرا لفائدة الأمة وحمايتها الخ » وهذا صريح فى أن الكاتب يريد من الدول الإسلامية أن تفعل ما فعلته الدول الغربية من تجريد السياسة من الدين ، وهو رأى لا يصدر إلا ممن يكنّ فى صدره أن ليس للدين من سلطان على السياسة ، وهذا ما بيته فئة يريدون أن ينقصوا حقيقة الإسلام من أطرافها حتى تكون بمقدار الديانة المسيحية ، ثم يصبغوا هذا المقدار من بعد بأى صبغة أرادوا ، فيذهب الإسلام ، فلا القرآن نزل ولا محمد صلى الله عليه وسلم بعث ، ولا الخلفاء الراشدون جاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا الراسخون فى العلم سهروا فى تعرف الأصول من مواردها وانتزاع الأحكام من أصولها .

يضرب الكاتب المثل بالأمم الأخرى ويزعم أن فصلها الدين عن السياسة كان مصدر فائدة الأمة وحمايتها من التلاشى والانهيار ، ومن أجل فصلها الدين عن السياسة ووجود الرياسة الدينية قائمة فى حدود سلطتها لم يضرها اختلاف الدول فيها .

وضربُ المثل على هذا الوجه أثرُ نظرة متسرعة ، إذ ليس للرياسة الدينية فى الإسلام حد تنتهى اليه ثم يكون للأفراد أو الجماعات أن تفعل بعده ما تشاء ، ولو كان فى دين تلك الدول قوانين مدنية ونظم سياسية ، وقامت كل دولة على تنفيذ تلك القوانين والنظم داخل حدودها ، أفيكون مجرد رعايتها لما جاء به دينها سببا لانتشار مرض التقاطع بينها ؟ .

ليس فى طبيعة ربط السياسة بالدين التقهقر والتنازع إلا أن يكون فى تعاليم الدين ما يسير بالناس الى وراء ، أو ما يغرى بينهم العداوة والبغضاء ، وليس فى دين الإسلام إلا ما يصعد بالأمم متى شاءت الصعود الى السماء ، وليس فيه إلا ما يدعو الى الائتلاف والتعاون على أن تكون كلمة الحق هى العليا .

قال صاحب المقال : « ولنضرب لذلك مثلا وحدة الكنيسة الكاثوليكية فإنها على الرغم من اختلاف الدول الكاثوليكية بقيت لها زعامتها وشعورها بقوة فكرتها

وقد رأينا أثرها فى الحروب الصليبية المستمرة بل وفى كل الحوادث التى تلتها والتى تألبت فيها أوربا على الأمم الإسلامية ، فإن للكنيسة والجمعيات الدينية المختلفة التى تستمد سلطتها منها أثرها الفعال فى بقاء وانتشار المسيحية وتأثيرها فى سياسة العالم » .

ليس فى الإسلام سلطة دينية تشبه السلطة الكاثوليكية ، والسلطة الدينية فى الإسلام لكتاب الله وسنة رسول الله (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

وعلى العلماء البيان وعلى الأمراء التنفيذ ، فإن أراد الكاتب من السلطة البيان ، فالبيان حق لكل عالم تفقه فى أصول الشريعة ومقاصدها ، فلا يختص به عالم دون آخر ، ولا يعد بيان العالم الذى تعينه الأمة للبيان أرجح من بيان غيره إلا أن تكون حجته أقوى ، واذا كان الأمر للحجة ، فما معنى تعيين شخص ليكون مصدر البيان فى كل حال ، فإن أراد من السلطة التنفيذ فليس له معنى سوى أن تكل الأمة الى شخص القيام بتنفيذ أحكام الدين على أن تكون هى يده التى ينفذ بها ، وسلاحه الذى يدافع به من يعارض فى التنفيذ ، وذلك معنى الخلافة المعروفة فى الإسلام .

قال صاحب المقال : « ولو رزق المسلمون رجالا ينظرون بعين الناقد البصير — من قبل قرنين — وفصلوا الدين عن السياسة لكان للإسلام اليوم من الشأن والسيادة فى الممالك التى اغتصبتها الدول الأوربية ما لا يقل عما للفاتيكان ، وما كان خطر الاستيلاء الأجنبى عليهم عظيما » .

كلام يروج ولكن فى غير هذا الوادى ، ويتقبل ولكن بعقول لم تستنر بهداية ، يأسف صاحب المقال على الشأن والسيادة اللذين فاتا المسلمين لعدم فصلهم الدين عن السياسة من قبل قرنين ، ويرى أن إبقاءهم الدين فى جانب السياسة كان سببا فى أن صار خطر الأجنبى عليهم عظيما .

فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ، ولا يقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين ، وليست هذه الجناية بأقل مما يعتدى به الأجنبي على الدين اذا جاس خلال الديار ، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علنا كيف صاروا أشد الناس عداوة لهداية القرآن ، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاستعمار الأجنبي أقرب الى الحرية فى الدين ممن أصيبوا بسلطانهم ، ونحن على ثقة من أن الفئة التى ترتاح لمثل مقال الكاتب لو ملكت قوة لألغت محاكم يقضى فيها بأصول الإسلام ، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شريعته الغراء الى معاهد لهو ومجون ، بل لم يجدوا فى أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف فى مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجو لله وقارا .

يقول الكاتب : « لو فصلوا الدين عن السياسة ما كان خطر الاستيلاء الأجنبي عليهم عظيما ، يقول هذا كأنه لا يدرى أن السياسة الطاغية لا تهاب إلا حديدا أشد بأسا من حديدها ، ونارا أشد حرا من نارها ، فليس من المعقول أن تردها عن قصدها سلطة دينية ليس فى كنانتها سهم ، ولا فى كفها حسام ، أما قياسه حال السلطة الدينية الإسلامية — على فرض صحة إقامتها — بحال السلطة الكاثوليكية فى احترام مؤسساتها وإطلاق يدها فى عمل يرفع أهل ملتها فمغالطة أو غفلة عن الفرق بين سلطة دينية يجد فيها الاستعمار مؤازرة أو موافقة على أى حال ، وسلطة دينية قد يكون فى بعض أصولها ما لا يلائم طبيعة الاستعمار .

ولو ربط المسلمون سياستهم بالدين من قبل قرنين ربطا محكما ، لم تجد يد الغاصب للعبث بحقوقهم مدخلا ، ولو أعلنوا فصل الدين عن السياسة لظلوا بغير دين ، ولوجد فيهم الغاصب من الفشل أكثر مما وجد ، فليست مصيبة المسلمين فى تركهم السياسة مربوطة بالدين كما زعم الكاتب ، وإنما هى ذهولهم عن تعاليم دين لم يدع وسيلة من وسائل النجاة إلا وصفها ، ولا قاعدة من قواعد العدل إلا رفعها .

قال صاحب المقال : «فإن أعظم ما أصاب المسلمين من المصائب إنما هو فقد الرياسة الدينية بعـد أن فقد منهم الاستقلال وحرمانهم من بقائها درعا حاميا وسدا منيعا من تسرب المستعمرين باسم السياسة الى السيطرة على شعور وضمائر الأمم الاسلامية حتى كاد يختل بناء الدين ، ويتنكر المسلمون تعاليمه الحقة » .

حقيقة فقد الرياسة الدينية من أعظم ما أصاب المسلمين ، وهى الرياسـة التى فى إحدى يديها هداية ، وفى أخراهما قوة ، أما الرياسة التى لا يتعدى صاحبها أن يكون واعظا عاما ، يدعو الناس الى الصلاة والصيام والحج إن استطاعوا اليه سبيلا ، فلم تفقد بعد ولم يحرم المسـلمون منها ، ولا تزال باقيـة ولـكن فى أشخاص متفرقين فى البلاد لا فى شخص واحد كما يرغب صاحب المقال ، ولم نذكر الزكاة فى قبيل ما يدخل فى الوعظ مخافة أن يكون الـكاتب قد انتزعها من أحضان الدين وجعلها فى قسمة السياسة .

يربط الـكاتب الوقائع ولكن بغير أسبابها ، ويصل النتائج ولـكن بغير مقدماتها ، لنفرض أن المسـلمين اتفقوا على ضلالة فصل الدين عن السياسة ، وأقاموا رياسـة دينية لا جند لهـا ولا سلاح ، أمن المعقول أن تكون هذه الرياسة درعا حاميا ، وسدا يمنع من تسرب المستعمرين الى السيطرة على شعور الأمم الإسلامية وضمائرها .

اذا سيطر المستعمر على الشعور والضمائر فإن أكبر مساعد له على هذه السيطرة قبضه على زمام التعليم العام حيث يسير به على منهج يخرج به الناشىء مزلزل العقيـدة غائبا عن سماحة الدين وحكمة التشريع ، ومعظم النشء مأخوذون بحاجات أو دواع الى أن يترددوا على مدارس الحكومة .

فإن أراد الـكاتب أن يكون لتلك السلطة الدينيـة فضـل إقامة مؤسسات تغنى عن مدارس التبشير ومستشفياتهم التى يتخذونها وسائل للسيطرة على شعور المسلمين وضمائرهم ، قلنا : فى يد المسلمين أن يقيموا مؤسسات تحاكى تلك المؤسسات ، فينقذوا أبناءهم من شر مؤسسات الأجنبى ، ولا شيء يضطرهم الى موبقة فصل الدين عن السياسة ، وابتداع رياسة دينية لم ينزل الله بها من سلطان .

بسط صاحب المقال لسانه فى « الفقهاء المسلمين » كما يبسطه فيهم من لم يطالع كتبهم، فغلا فى وصفهم بالجمود، حتى زعم أنهم « لم يقولوا لنا كيف يجتهد الفقيه » وتمادى فى هذه المزاعم الى أن قال «ووجد من الفقهاء المزيفين من جوز إمامة المغتصب الذى يتولى ولاية الأمة بغير رغبتها وإرادتها » .

يقول الفقهاء : تنعقد الإمامة ببيعة أهل الحل والعقد من العلماء والرؤساء ووجوه الناس، وهذا هو الأصل الذى ينبغى أن تكون عليه الإمامة فى كل حال، وأجازوا للإمام متى خشى التنازع فى الإمامة من بعده ورأى فى أحد رجاله الكفاية أن يعهد اليه بها قطعا للفتنة، ولم يجيزوا لأحد أن يتولى أمرها دون أن يبايعه أهل الحل والعقد، أو يعهد اليه بها الإمام، وإن قام مسلم ذو قوة فتولاها بالقهر والغلبة، فإن كان جامعا لشروط الولاية من نحو العلم والعدل والاستقامة كان إقراره أسلم عاقبة من منازعته، وليس فى إقراره من بأس ما تحققت فيه شروط الولاية، فالفقهاء يجيزون ولاية المتغلب على معنى أنه بعد القهر والغلبة يعد إماما لتحقق شروط الإمامة فيه، ولأن منازعته تفضى الى فتنة ليسوا فى حاجة الى إثارتها .

فإن فقد منه بعض شروط الولاية منتخبا كان أو معهودا اليه، أو متغلبا، فمن الشروط ما يكون فقده مسقطا للولاية بنفسه كالارتداد عن الدين، واختلال العقل، ومنها ما يستحق به العزل بإجماع كالفسق، ومن الفقهاء غير المزيفين من يعد الفسق فى الشروط التى تسقط ولايته بنفسها، ولا تحتاج الى إعلان أهل الحل والعقد بخلعه، أما القيام على الفاسق وإبعاده من مقر الولاية باليد، فموكول الى اجتهاد أهل الحل والعقد، وهم الذين يسلكون ما تقتضيه الحكمة وتستدعيه مصلحة الأمة .

هذا ما يقوله الفقهاء أخذا من أصول الشريعة ورعايةً لمقاصدها فى الاستنباط، وليس فيه تفريط فى المصلحة العامة، ولا ما يمس مقام الولاية العظمى بسوء .





بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

التفسير

قدمنا لك أن القرآن العظيم قد نص على أن السموات متعددة ، وأن عددها سبع سموات ، وأن هذا الخبر القرآنى الصادق فى نفسه قد جاء مطابقا تمام المطابقة لما عهدته الأمم واستفاض بينهم قديما وحديثا من أن السموات متعددة وأن عددها سبع سموات .

فنقول : إن علم الأمم بذلك كان نتيجة صحيحة لازمة لما قاموا به من البحث والتفكر فى خلق السموات ، ولما استعانوا به من الوسائل المتنوعة الكثيرة التى توسلوا بها فى الرصد والكشف عن عجائب ملكوت هذا العالم العلوى العظيم عالم السموات .

تكشف كل أمة ما تكشف من بدائع عالم السموات بقدر ما استطاعت من النظر والتنقيب ، وبقدر ما اخترعت من آلات الرصد والكشف ، ثم تخلفها

أمةٌ بعدها فتستدرك ما فات الأولى ، وتُصلِحُ ما عسى أن تكون قد أخطأت فيه ، وتزيد عليها ما لم يكن قد وصل اليه علمها ، واستمر العمل على هذا المنوال الى يومنا هذا . تكميل لنقص تركته الأوائل ، وإصلاح خطأ غفلوا عنه ، وإظهار لشئ جديد خَفِيَ على المتقدمين ، ومن ذلك عثور المتأخرين على سيّارين زائدين على السبع وهما (نبتون وأورانوس) كما قدمناه لك فى العدد الرابع .

هذه السموات السبع التى اقتصر القرآن الكريم عليها لشهرتها وانتشار العلم بها بين الأمم قديمها وحديثها هى الكواكب [1] السيارات السبع ، وأقربها إلينا القمر ، وفوقه عُطارِد ثم الزُّهَرَة ثم الشمس ثم المرّيخ ثم المُشْتَرِى ثم زُحَل ، وقد جمعها بعضهم مرتبة من أعلى الى أسفل فى قوله :

زُحَل شرى مرّيخه من شمسه فتزاهرت لعُطارد الأقمار

ثم إن هذه الكواكب السبعة كُرَاتٌ [2] أى أجرام مستديرة سطوحها منحنية كسطح الكرة المعروفة ليست مُنكَسِرَةً ولا أفقيةً ، ولكل كوكب منها كواكب أخرى كثيرة جدا لا يحصيها العدّ تابعة له تسير بسيره ، لا تُسرِعُ فتتقدمَ عليه ، ولا تُبطِئ فتتأخرَ عنه . فلما كان سيرها مرتبطا بسيره سميت توابعَ له ، ولما كانت ملازمة له لا تنفك فى سيرها عنه كأنها مقيدة قارة سميتْ ثوابتَ .

أى أن كل كوكب من السبعة تتألف منه ومن توابعه مجموعةٌ عظيمةٌ من الكواكب لا يحيط بها الحصر ، قد وضع الله القدير الحكيم كل كوكب منها وضعا محكما بمقدار اقتضته حكمته لا يتعداه فى أثناء سيره ، ولا ينحرف عنه يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً . لا يعترِى ذلك خللٌ ولا يَلحَقُه بِلًى على مَرِّ الغداةِ وكَرِّ العشِيِّ ، وذلك هو معنى

(١) راجع تفسير الفخر وغيره لقوله تعالى : (فسواهن سبع سموات) .

(٢) راجع كتاب تهافت الفلاسفة لحجة الاسلام الغزالى وكتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير فيما نقله عن ابن حزم وابن المنير وابن الجوزى وغيرهم من إجماع العلماء على أن السموات كرات مستديرة .

البناء[1] فى قول الله تعالى : (وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) وقوله : (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) .

قلنا إن كل كوكب من الكواكب السبعة السيارة يؤلّف مع توابعه مجموعةً عظيمة من الكواكب ، فتلك سبعُ مجموعاتٍ هُنّ السموات السبع .

هذه السموات السبع منفصل بعضُها عن بعض ، بين كل واحدة والأخرى بُعْدٌ شاسع تجرى فيه جريَها الذى قدّره الله تعالى لها ، لكن جريها هذا هو على خط منحن دائر كالحلْقة ، ولهذا سُمّى مدارا لأنه دائر ، كما سمى فلَكا لأنه مثل فَلْكة المِغزَل كما قاله سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما . والفَلْكة هى رأس المِغْزَل الأعلى المستديرُ .

ومما يُقرّبُ لك تصورَ هذا البعد الشاسع الذى يَفصِلُ السمواتِ بعضَها عن بعض أن بعضها يقطع مدارَه ويُتمُّ دورتَه فى شهر مع جريه السريع وهو القمر ، وبعضَها يقطعه فى سنة وهو الشمس ، وبعضها غير ذلك . فانظر الى هذا الجرى السريع فى ذلك الزمان الطويل ماذا يستلزم من البعد الشاسع والخلاء الواسع حتى لا تصطدم سماء بسماء أو كوكب بكوكب ؛ ولكن الله على كل شئ قدير .

قدمنا لك فى العدد قبل هذا أن الطريقة تطلق على معنيين : أحدهما الطريق الذى يُسلَكُ ويُسارُ فيه ، وبهذا فسر بعض العلماء قولَه تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) أى سبعةَ طُرُقٍ ومداراتٍ وأفلاكٍ . ومن الواضح أنه لا تكون المداراتُ إلا اذا كان هنالك ما يدور فيها وهو الكواكب الدائرة التى هى السموات السبع.

فعلى تفسير الطرائق بهذا المعنى وهو الأفلاك يكون معنى مجموع هاتين الآيتين وهما : (ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ) و (وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ) هكذا : خلقنا سبع سموات وخلقنا لكل سماء فلكا خاصا بها تجرى فيه بحُسْبانٍ[2]

---

(١) فان البناء هو وضع شىء فوق شىء ليتكون من المجموع شىء آخر على حالة معينة قارة ثابتة .

(٢) بحساب وتقدير معين فى فلكها تنتظم به امور الكائنات .

كذلك قدمنا لك أن المعنى الثانى للطريقة هو الطبقة[1] . وعلى ذلك يكون قوله تعالى: (طَرَائِقَ) وقولُه فى الآية التى نحن بصددها: (طِبَاقًا) بمعنًى واحد، وهو أن الله جلت قدرته جعل هذه العوالم العليا التى هى السموات السبع طبقاتٍ بعضُها فوق بعض، يَفْصِلُ كلا منها عن الأخرى مسافةٌ ممتدةٌ وفضاءٌ مترامى الأطرافِ والأرْجاء. وفى هذا الفضاء المتسع أفلاكُها التى تَسْبَحُ فيها. وقد ذكرنا لك ترتيبَ هذه الطبقات من أعلى الى أسفلَ وبالعكس، فارجع اليه إن شئت.

ثم نقول: إن جميع أهلِ الأرض لا يَرَوْنَ فوقهم شيئا غيرَ السموات أينما كانوا وحيثما حَلُّوا فى أى بقعة من بقاع الأرض.

فاذا كان معنى الطبقة كما ذكرنا، وكان أهل الأرض على ما وصفنا، لزم من ذلك أن السمواتِ السبعَ كُرَاتٌ[2]، وأن كل سماء موضوعة فى جوف التى فوقها، وأن الأرض فى مركز جوف السماء الدنيا، وأن كل سماء تحيط بما تحتها إحاطةَ قشرةِ البيضة بالبيضة. أى أن السماء الدنيا تُحيط بالأرض من جميع جهاتها والأرض فى مركزها، كما أن السماء الثانية تحيط بالسماء الدنيا هذه الاحاطةَ، وهكذا الى السماء السابعة (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ) إذ يقول: (وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ) (وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) (وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا. وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِ. إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا). فسبحان الذى خلق السمواتِ والأرضَ ولم يَعْيَ بخلقهن وهو على ما يشاء قدير.

---

(١) قدمنا لك أن الطبقة هى كل شىء وضع فوق غيره وضعا جعل جميع أجزاء كل واحد منهما مسامتة ومقابلة لجميع أجزاء الآخر لم يخرج جزء من أحدهما عن الآخر. (٢) راجع تفسير البقاعى وما نقلناه لك عن الحافظ ابن كثير قريبا.

إن هذا الذى ذكرناه لك مع إجماله واختصاره يُريك صورة فائقة لبعض صُنْع الله البديع، ويُطلعُك على عظم عالِمَ السموات واتساعه وعجيب تكوينه وغريب تركيبه وتأليفه، ويَهدى المتفكرين المتبصرين الى أن هذا الملكوتَ ملكوتَ السموات إنما هو أثر من آثار خلاّق عليم حكيم، لا قدرة لمخلوق مع قدرته، وليس معه من إله ولا شريك، واليه ينتهى القهر والجبروت، وبه يختص الغنى المطلق والنعمة والرحموتُ، وأنه (هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ).

ثم إن الله جل اسمه عَرَّفَ عبادَه القانونَ الإلهى الأعظم الذى هو أساس خَلْقه لكل الموجودات، سواءٌ عالَمُ السموات وسائرُ العوالم الأخرى، فقال: (مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَاوُتٍ [1]) فعَرَّفهم بذلك أنه سبحانه منزّه عن أن يكون بين مخلوقاته اختلاف وتنافر، وعدمُ توافُقٍ وتناسب، بأن يتجاوز شئٌ منها القدرَ الذى ينبغى له فيزيدَ على الحد الذى تقتضيه الحكمةُ أو ينقصَ عنه، زيادةً أو نقصا يؤدّى الى اعوجاج وخلل فى أصل الخلق والإيجاد.

لهذا استحال أن يفوت من أحد الشيئين بعضٌ مما فى الآخر فواتا يُشعِرُ بعدم النظام والحكمة فى الإيجاد والتكوين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. بل كلُّ ما يراه الراءون فى هذا العالِمَ أجْمَعَ علويّه وسُفليّه، إنما هى موجودات أنشأها من العدم المحض مُوجِدٌ قدير غنى كلَّ الغنى، ومخلوقاتٌ خلقها خلاق عليم على أساس الحكمة البالغة، وأبدَعها غاية الإبداع وقوَّمها نهاية التقويم والانتظام على ما تقتضيه المصلحة والمنفعة، فلم يَفْقِدْ هذا الخلق شيئا من مقوّمات تكوينه وإيجاده، ولم يَعْدَمْ ركنا من الأركان التى هى عِمادُ بقائه، ولا أساسا من أساس المنافع والنظام، بل إنه عز وجل خلق المخلوقات فأتقنها، وأمدَّ كلاًّ منها بما يَقُومُ به وجوده وتستدعيه مصالح

---

(١) راجع معنى التفاوت فى العدد الرابع.

الكائنات ، كلٌّ له نصيبه الذى يناسبه ، وحظُّه الذى هو أهل له ، كما قال جلت حكمته : (ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ) وقال حكاية عن محاجة سيدنا موسى عليه السلام لفرعون والمصريين : (رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ) .

ثم انظر بعد هذا الى ما فى الآية الكريمة من التعبير الذى اليه ينتهى الإبداع المُعْجِزُ ، ألم تر الى قوله تعالى : (فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ) دون أن يقال : (فى خلقها) أى السموات السبع التى سياق الكلام فيها .

إن الذين يقرءون القرآن قراءةَ التدبر والتفقه فيه يدركون من أسرار هذا التعبير البليغ معانىَ جليلةً تفوتُ بفواته ، فمنها أَنّ وَضْعَ (خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ) موضعَ (فيها) يدل على أن السمواتِ السبعَ من خلق الرحمن الذى لا تفاوت فيه ، فلزم من ذلك أن السمواتِ السبعَ لا تفاوت فيها ، على طريقة الاستدلال[1] والبرهان .

وإنما كان خَلْقُ الرحمن سبحانه لا تفاوت فيه ، لأن وصف الرحمة مانع من التفاوت كلَّ المنع ، لِمَا أن الرحمة الإلهية التى هى الإحسان والإنعام والتفضل الواسع ، بينها وبين التفاوت كلُّ المباينة والمنافرة ، لأن التفاوت مستلزم للاضطراب وفساد نظام الكائنات واختلال أمور الموجودات .

ومن هنا نعلم أن ذكر الرحمة وإضافةَ الخلقِ اليها فى قوله تعالى : (خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ) هو بيان للسبب فى عدم رؤية تفاوت مّا فى السموات السبع ، لأنها من جملة خَلْقِ اللهِ الرحمنِ (ٱلَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ) ، وهو وحده مصدر كل إحسان وفضل عظيم . ومن البيّن أن هذا كلَّه كان يفوت اذا عُبِّرَ بكلمة (فيها) بدل عبارة (خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ)

---

(١) أى أنه يؤخذ من الآية الكريمة قياس من الشكل الأول ذكرت كبراه وحذفت صغراه ونتيجته ونظمه هكذا : السموات السبع خلق الرحمن ، وكل خلق الرحمن ما ترى فيه من تفاوت ، فالسموات السبع ما ترى فيها من تفاوت .

ومنها أن خلق الله تعالى للسموات السبع إنما كان بقدرته الباهرة وإرادته المطلقة النافذة، وبرحمته وإحسانه وتفضله، لا يَعُوقُهُ سبحانه عن خلقها عائق، ولا يصد إرادته لإيجادها صادٌّ، ولا حاجة تضطره تعالى الى خلقها، فإنه عز وجل غنى عن أن يَجْلِبَ لنفسه بها نفعا أو يدفعَ بها ضرا. لا مُجْبِرَ يجبره، ولا قاهر يَقْهَرَه، بل هو الغالب على أمره، وهو القاهر فوق عباده، سخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون علوا كبيرا.

ومنها تنبيه العباد على أن إبداع الرحمن جل ثناؤه للسموات السبع فيه خير عظيم ومنافع جَمَّةٌ كثيرة لهم، لأن الذى أبدعها إنما هو الرحمن الذى لا رحمة إلا رحمته، ولا تستطيع العقول أن تحيط بعظمها وقدرها، ولا ينتهى العادُّون فى عَدِّهم لها الى كثرتها وحصرها، كما قال جلت آلاؤه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) فكان ذكر وصف الرحمة دليلا على ما فى السموات السبع من الفوائد الجليلة الكثيرة للعباد.

ومنها أن إضافة خلقها الى الرحمن تبارك وتعالى هى نهاية التشريف والتعظيم لها والرفع من قدرها والتنويه بعلو منزلتها، لأنها من آثار رحمة الله الذى له ملك السموات والأرض وما فيهن و(لَهُ ٱلْكِبْرِيَاءُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ).

هذه بعضٌ من أسرار البلاغة القرآنية، عَقَلَهَا الذى اذا قُرِئَ القرآن ٱسْتَمَعُوا له وأَنصتُوا، و (إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ) (وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا).

خاطب الله عز وجل جميعَ عباده الصالحين للخطاب فأخبرهم ذلك الخبرَ الصادقَ أنّه ما يرى أحدٌ منهم فى خلق الرحمن من تفاوت ولا عيب مّا، فآمَنَ بذلك الخبر الإلهى الصادق المؤمنون الذين (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)،

وتفكروا فى خلق السموات والأرض وما بينهما وكانوا من الموقنين ، (وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) .

ثم إنه تعالى بعد أن أخبر عبادَه هذا الخبرَ الصادقَ المفيدَ للعلم بأنه لا تفاوت فى خلقه وهو قوله : (مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) أردفه بما يفيدهم العلم بذلك أيضا ولكن من طريق الحس والمشاهدة الذى هو أَجْلَى وأظهرُ طرق العلم فقال : (فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ) أى إن كنت تريد أيها العبد زيادةَ اليقين واطمئنانَ القلب لهذا الخبر الصادق ، أو التحققَ والتثبتَ منه إن لم تقتنع بالنظرة الأولى ولم تعتمد عليها بسبب أنه ربما وقع الخطأ فيها ، فاردد البصر وكرِّر النظر مرة ثانية وأَدِمِ التأمل والاستقصاء فى نواحى السماء وفى سائر أجناس الخلق ليتبين لك صدق خبرنا وتعلمَ علمَ اليقين والاطمئنان جواب هذا الاستفهام اذا قيل لك : (هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ) وشقوقٍ وصدوعٍ وخلل وعيوب وعدمِ اتّفاق واتّساق ونظام فى خلق الرحمن ، خلقِ السموات السبع وغيرِها مما أبدعه الله وأحسن خَلْقَه . لا شك أن جوابك عن هذا السؤال إنما يكون نفيا محضا ، أى لم أرَ فطورا ولم أَعْثُرْ بعيبٍ ما (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ) .

إن هذا الأسلوب القرآنى الفائق فى جزالته وبلاغته ، وهو قوله عز شأنه : (فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ) لا يقوم مقامَه ولا يؤدِّى مُؤَدّاه أَن يقالَ (فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ لترى أنه لا فطور) مثلا ، وذلك أن ذكر صيغة الاستفهام فى مثل هذا الموطن ، موطنِ الاحتجاج والإلزام ، يدل دلالة ظاهرة على شدة عناية المنقّبين وعظيم اهتمامهم بالبحث والوقوف على حقيقة الأمر المسئول عنه الذى سيق له الكلام ، وهو هنا التفاوت فى خلق الرحمن . ولا ريب أن الأمر هنا كذلك ، فإن ذلك الخلق البديع هو الشغل الشاغل لعقول العقلاء فى كل أمة وعصر ، وهو الذى حارت البرية

فيه وعنت له وجوهها ، وكلما أمعنت في النظر والاستقصاء وأوغلت في البحث في عجائبه وأسراره زاد عجبها ، وتضاعفت دهشتها وحيرتها ، وتضاءل حولها وقوتها ، وتجلت لها قدرة الله الكبير المتعال ، وقامت عليها حجة الله عز وجل إذ يقول : (هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) .

أما الذين في قلوبهم زيغ ، فقد طبع الله على قلوبهم بكفرهم (وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا) وليزيدنهم ما أنزل إليهم من ربهم طغيانا وكفرا ، (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) واتبع قول الله تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

ثم إنه سبحانه بعد أن أمر برجع البصر مرة ثانية بعد الأولى عاد فأمر برجعه وتكريره مرارا كثيرة في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع عسى أن يجد الرائي فيه عيبا . ثم بيّن تعالى أنه لن يجد شيئا من ذلك ، بل إنه سيرجع بعد إدامة التأمل والبحث وإطالة التنقيب والإمعان ، متجهما متقبضا تقبض الذلة والمهانة ، متراجعا مُبْعَدًا عما كان يرجوه وهو حسير كليل تَعِبٌ عَيِيٌّ قد انقطعت آماله عما كان يؤمله من استمرار النظر وتقليبه في أرجاء السموات ، وقد حيل بينه وبين ما كان يشتهيه من العثور على تفاوت وعيب في خلق الرحمن جل وعلا .

وإنما قلنا إن النظرة الثانية كان وقتها طويلا وكانت بتريُّث وتمهُّل ، أخذا من التعبير بثم في قوله تعالى : (ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ [1]) لأنها كلمة تدل على تراخي ما بعدها عما قبلها وتباعده عنه .

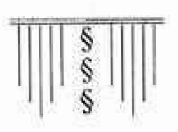
---

(١) المراد من هذه التثنية التكثير كما في قولهم لبيك وسعديك وحنانيك . كما ذكرناه في العدد الرابع .

وخلاصة المعنى أن الله تبارك وتعالى قد دلّ عبادَه على قدرته القاهرة وحكمته البالغة وسائر كمالاته الربانية بخلقه سبعَ سموات طباقا منزهةً عن التفاوت بريئة من كل عيب، لا يستطيع أحد من ذوى الألباب السليمة أن يقول: كان الأحسن كذا، أو لو كان كذا لكان كذا.

ثم إنه تعالى أقام دليل الرؤية بالبصر شاهدا بصدق سلامة هذه السموات مما ذُكِرَ، فذَكَرَ أن الرؤية الأولى لا يَرَى معها الرائى شيئا مّا من التفاوت، ولهذا أمر سبحانه بإعادة الرؤية مرة ثانية مع التأنى والبطء وطول الوقت، تفاديا من غفلة أو خطأ ربما كان قد وقع فى المرة الأولى. ولكن حظّ الرائى فى هذه المرة الثانية كان كحظه فى المرة الأولى. ولذلك أمر الله تعالى بإعادة الرؤية مرة ثالثة إعادة مكررة كما يشاء الرائى غير محصورة فى عدد محدود، علما منه سبحانه أن سمواتِه السبعَ بَرَاءٌ من التفاوت، وأن العباد لا يَرَون فيها إلا غاية الإتقان والإبداع، وأن آياتها التى نصبها الله تعالى فيها ناطقة بأن الرحمن جل ثناؤه قد خلقها سبعَ سموات طباقا لا تفاوت فيها، وأنه تبارك وتعالى ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم سابقاً



التوسل والاستغاثة

جاءنا خطاب مطول بامضاء (مسلم بمكة) أطال فيه صاحبه وأعاد وأبدى وأكثر وكرر ظنا منه أنه أتى بالقواصم وقد ألح فى طلب الاجابة حتى قال فى آخره (يافضيلة الشيخ أرجوك وأناشدك الله الذى لا إله إلا هو إلا ماحققت هذا الموضوع وأنصفت فيه) ونحن نلخص ماجاء فيه من الأسئلة معرضين عما فيها من غمز مشوب بأدب وتعريض نسامحه فيه فنقول وبالله التوفيق :

س : — هل جاء فى السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم علم الناس أن يسألوا الصالحين من الأموات ويطلبوا منهم الدعاء ؟ أرجو أن تذكر ولو حديثا واحداً .

الجواب : — ونحن نقلب عليه السؤال أولا — فنقول : هل جاء فى السنة أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى الناس عن أن يسألوا الصالحين ويطلبوا منهم الدعاء ؟ أرجوا أن تذكر لنا شيئا من ذلك ولو حديثا واحدا . ثم نقول له ثانيا : إن جواز الأشياء لايتوقف على ورود الأمر بها بل على عدم النهى عنها كما هو مقرر فى علم الأصول ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الى آخره ، فكل مالم يرد فيه نص بالحظر فهو مباح على ماتقتضيه الآية ، وعلمنا صلى الله عليه وسلم فى السنة الصحيحة أن ما أمرنا به فعلناه ولم نتركه وما نهى عنه اجتنبناه ولم نفعله وما سكت عنه فهو عفو ، فهذه هى قواعد العلم الذى يعرفه العلماء . وأما شبهة الموت فهى شبهة واهية لأنكم بين أمرين : إما أن تنكروا إدراك الأموات وعلمهم ودعاءهم وسماعهم ، وإما أن تقروا بذلك ، فإن أنكرتموه ملأنا لكم الدنيا أدلة وبراهين على ثبوت ذلك لهم مثل دعاء آدم وابراهيم وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام لنبينا صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج كما فى حديث البخارى ومسلم وغيرهما ، وكما فى حديث « تعرض علىّ أعمالكم فإن رأيت خيرا حمدت الله وإن وجدت غير ذلك استغفرت لكم » وكما فى حديث عرض أعمال

الأحياء على الأموات ودعائهم لهم ، وقد ذكره ابن تيمية نفسه فى فتاويه واعترف به ابن القيم كل الاعتراف وقرره أتم التقرير .

ومن محاسن المصادفات فى هذا ما يقرره الأوربيون الآن مما يوافق ذلك ، وقد قرره قبلهم بعشرات القرون الفلاسفة الأقدمون مثل أفلاطون وغيره من الفلاسفة ، فالمسألة متفق عليها بين علماء الدين وعلماء الدنيا ، أو نقول بين المسلمين وغير المسلمين ، أو نقول بين أهل الأثر والنقل وبين أهل الفلسفة والعقل ، أما اذا اعترف الوهابيون بأن للأموات إدراكا وعلما وسماعا وأنهم يدعون ويردون السلام الى غير ذلك كما ورد فى السنة ثم منعوا طلب ذلك منهم كانوا متناقضين ، أو نقول كانوا ممن يسلم المقدمات وينازع فى النتيجة ، أو ممن يقطع اللوازم عن ملزوماتها وهو مما لا يقول به عاقل فضلا عن فاضل ، على أننا ذكرنا فى ذلك ما يقطع الشغب من أصله ، والمراء من أُسه ، وذلك هو الحديث الصحيح الذى رويناه عن عثمان بن حنيف فى التوسل به فى حياته صلى الله عليه وسلم وبعد مماته ، وقد قال فيه : يا محمد اشفع لى عند ربك ، ولا معنى للشفاعة إلا الدعاء الذى يكون منه صلى الله عليه وسلم ، وفى الحديث الصحيح اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وفى حديث آخر بحق نبيك والأنبياء قبله .

فالتوسل بالصالحين والدعاء ثابت وواقع ، وقد قلنا فى بعض ما كتبناه لا معنى لكون هذا شركا كما يقوله الوهابيون ، فإن الحى اذا طلب من الميت الذى هو حى بروحه متمتع بلوازم الحياة وخصائصها فإنما يطلب منه على سبيل التسبب والاكتساب لا على سبيل الخلق والإيجاد ، لأنه ليس من المعقول أن يرفعه عن رتبة الحى ، وهو اذا طلب من الحى فإنما يطلب منه على هذا الوجه لا على جهة الخلق والإيجاد ، والطلب من المخلوق على سبيل التسبب ليس شركا ولا كفراً ، فلا معنى لتكفير المسلمين بذلك ، ولو فرضنا أن الميت لا عمل له ، فإن خطأ المنادى أو المستغيث على هذا الفرض

إنما هو فى اعتقاد السببية لا الإلهية، واعتقاد السببية فى غير الله ليس هو اعتقاد الإلهية كما يظنه الجاهلون، وقد عرفت مما قدمناه أنه ليس غلطا أيضا، وإنما الغالطون هم الوهابيون، وإن كان التوسل بمنزلته عند الله فالأمر واضح، لأن الموت لا يغير المنزلة عند الله تعالى.

س : — هل الرسول صلى الله عليه وسلم أهمل نوعا من التوسل الى الله تعالى أو ترك شيئا مما يقرب إلى الله تعالى ؟.

ج : — لم يهمل الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا مما يقرب الى الله، ولا ترك نوعا من أنواع التوسل، وقد علمنا التوسل فى حديث عثمان بن حنيف المتقدم، بل توسل هو بحقه وحق الأنبياء قبله، وعرفنا أن آدم عليه السلام توسل به قبل وجوده، وقد بين ذلك كله فى الأعداد السابقة.

وبعد فماذا عسى أن يدل ذلك للسائل : فلو فرضنا أن الرسول لم يتوسل بالصالحين لأمكن أن يقال إن مقامه أرفع من كل مقام، على أنه صلى الله عليه وسلم كان غريقا فى العبودية، وكان أعلم خلق الله بإطلاق الربوبية وسعتها، وبأن الكل عبيدها وتحت قهرها وليس هناك إلا فضلها الواسع وكرمها الشامل، وأنه لا بد من ظهور ذل العبودية على كل أحد، وذلك من تعظيم الربوبية، ويعلم صلى الله عليه وسلم أن عبيد السيد المطلق لهم منازل عنده، وأن لكل منهم مزية لديه، وأن المقتضى لعطائه تعالى إنما هو العبودية له عز وجل، فلا بد أن يكون بينهم ارتباط العبيد وتبادل المنافع، وعلى هذا قام بناء الكون.

كان صلى الله عليه وسلم أعرف الناس بذلك كله، فطلب الدعاء من عمر وابن عمر من رسول الله وأمر عمر أن يطلب الدعاء من أويس القرنى وابن أويس من عمر، وسأل الله تعالى بحق الأنبياء قبله كما فى حديث فاطمة بنت أسد، وأمرنا أن

نتوســل به اذا عرضت لنا حاجة الى الله ، فقال لذاك الأعمى: « فإن كان لك حاجة فمثل ذلك » وقد فعلها الرجل الذى كان يتردد على عثمان بن عفان فى خلافته ، وقد بيّنا ذلك أتم البيان، على أننا نريد منكم أن لا تكفروا المسلمين بمثل هذا العمل الذى لا شىء فيه، ونكتفى منكم أن تقولوا إنه مباح أو خلاف الأولى أو مكروه (اذا أردتم) ولو قلتم ذلك لاحتملناه منكم وإن كان غير صحيح ، ولكن قومك ياحضرة الســائل الذى يظن أنه مُنصف وغير متعصب يعملون على خلاف ذلك .

س : — هل ثبت ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم : ما تركت شيئا يقربكم الى الله إلا بينته لكم ؟ واذا كان ثابتا فهل الطلب من الأموات أن يدعوا للأحياء مما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر به وفعله أم لا ؟ .

ج : — نعم ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك ، ودعاء الأموات داخل فى دعاء الأخ لأخيه الذى لا يمكنكم أن تمنعوه ، وقد عرفتنا السنة الصحيحة أنه لا فرق بين الحى والميت فى ذلك ، وأن الميت يدعو كما يدعو الحى على ما سبق ، فإن الموت ليس فناء أو عدما كما يظنه الجاهلون ، وإنما هو انتقال من دار الى دار .

لا تظنوا الموت موتا إنه   لحياة وهو غايات المنى

لا ترعكم هجمة الموت فما   هو إلا نقلة من هاهنا

ولا نزال نكرر أنه قد دعا آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى يدعو لأمته فى البرزخ ، بل آباؤنا يدعون لنا على ما عرفت وتعرف ، على أننا نكتفى منكم أن تقولوا إنه مباح لا قربة أو على الأقل لا تكفروا به مسلمين كما فعل إمامكم محمد بن عبد الوهاب على ما فى الهدية السنية وغيرها ، وقد قلنا فى ما كتبناه فى العدد الثالث من هذه السنة إنه لا وجه لذلك ، ولو قلنا إن الميت لا يمكنه أن يدعوا ولا أن يفعل شيئا فإن الغلط على هذا الفرض يكون غلطا فى اعتقاد التسبب لا الإلهية ،

ولا نزال نكرر أن معتقد السببية فى المخلوقات لا وجه لتكفيره ولا معنى له، فإن من يجعل غير السبب سببا يكون جاهلا لا كافراً ، ويكفى هذا .

س : — هل بين الرسول صلى الله عليه وسلم ما أمر به من الوسيلة فى آية المائدة عملا بقوله تعالى : (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ) الآية أم لا ؟ .

ج : — نعم بين لنا صلى الله عليه وسلم كل ما نحتاج إليه ، على أن الوسيلة واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، والقرآن عربى نزل بلغة العرب ، ولا وجه لقصركم إياها على نوع خاص فإنه قول بلا دليل ، على أنه لا داعى لذلك كله فقد ثبت التوسل مصرحا به فى حديث عثمان بن حنيف وغيره مما قدمناه ، وقد جاء فى آخر الحديث المذكور (فإن كان لك حاجة فمثل ذلك) وقد عمل به فى زمن عثمان بن عفان كما بيناه فيما سبق من الأعداد .

س : — هل يلزم من عدم دعاء الأموات ومخاطبتهم بغير المشروع إنكار كرامتهم ؟ واذا قلتم بالتلازم فبينوا لنا وجهه بالبرهان ، واذكروا لنا من الصحابة والتابعين والأئمة المتبوعين من قال بجواز هذا النوع من التوسل .

ج : — نعم من كان مثلكم ينكر التوسل والاستغاثة يجب أن ينكر كرامات الأموات ، فإنه اذا لم يصح أن نتوسل الى الله بالميت ولا يمكنه هو أن يدعو لنا ولا تستطيع روحه أن تفعل شيئا كما هو اعتقادكم ، فأى كرامة تكون له بعد ذلك ؟ وما معنى إثباتكم إياها وقد نفيتم عنه كل عمل وكل قدرة ، ومنعتم أن نتوسل به لله تعالى ليفعل لنا ما نريد لأجله ؟ فأى شىء يبقى بعد ذلك ؟ وأما طلبكم منا ذكر من جوز ذلك من التابعين أو الأئمة المتبوعين فنحن نقول إن الأمة كلها قبل ظهور ابن تيميه على هذا الجواز ، ونتحداكم فنقلب السؤال عليكم فنقول : هل يمكنكم أن تذكروا لنا من التابعين

أو الأئمة المتبوعين من منع ذلك النوع من التوسل ؟ أليست المذاهب كلها مجمعة على توسل الزائرين للحجرة النبوية به صلى الله عليه وسلم ؟ وقد ذكرنا لكم نص الحنابلة فى ذلك وكذلك جميع الأئمة ، ولا نرى لكم سلفا فيما تقولون بل جميع العلماء يصرحون بأن ذلك مطلوب من كل زائر لا جائز فقط ، فهذا هو الإجماع ، وقد مر من الأدلة العقلية والنقلية ما يكفى ويشفى . ثم نقول لكم ألم يعترف ابن القيم بأن الروح القوية لها من الأعمال بعد الموت ما لا تستطيعه حالة الحياة ، وقد وصل الأمر الى أئمتكم أنفسهم ؟ فأنتم فى إثبات كرامات الأولياء وغيرها متناقضون تارة مع الهوى وتارة مع الحق ، ويرحم الله من قال : المبطل لا بد أن يتناقض شاء أم أبى .

وأما تضليلنا إياكم فإنما هو لتكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم الى آخر ما كان يفعله الخوارج وكان ينقمه عليهم الإمام علىٌّ ومن معه من الصحابة ، ولو قلتم إن الأولى أن يرجع الناس فى كل أمورهم الى الله تعالى بلا واسطة ، أو قلتم إن هناك مقاما تسقط فيه الأسباب والوسائط كما قال ابراهيم عليه السلام لجبريل عليه السلام : « أما إليك فلا » عند ما قال له : « ألك حاجة ؟ » لو قلتم ذلك وسلكتم هذا المسلك لم ننكر عليكم ولم نشتد فى مناقشتكم ، ولو كان لكم رأى فى المسألة غير التكفير لقلنا مجتهدون ظنوا ظنا والى الله أمرهم وكم مجتهد أخطأ ، ولكن أولئك الذين أخطأوا لم يقدسوا أنفسهم هذا التقديس ولم يحملوا الناس على مذاهبهم بالسيف لأنهم يجوزون أن يكون الحق فى جانب غيرهم ويعلمون ما جاء عن الرسول أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ، وأن من رمى أخاه بالكفر فقد كفر أو كاد ، ولم يرض الإمام مالك من الخليفة المنصور العباسى أن يحمل الناس على الموطأ وهو هو عند مالك ، ولا من الرشيد أيضا أن يلزم الناس بما فيه احتراما للأمة وعلمائها واتهاما لنفسه ، شأن أئمة الهدى وورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والجاهل لا يعرف غير تعظيم

نفسه، والعالم لايعرف غير تعظيم ربه، ومن تعظيم الله تعظيم من عظم الله، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

ثم قال السائل : لا يمكننا أن نسيغ توجه المسلم العارف بربه الآنس بذكره الى عبد من عباده انتقل من عالم الى آخر لا يعلم حاله فيه إلا الله، يسأله ويخاطبه بعد أن كان متلذذا بخطاب الله تعالى ومناجاته ، ولا يخفى عليكم حديث أم العلاء من صحيح البخارى ، وفيه أنها شهدت لمهاجر — وهو أبو السائب — توفى عندها فقالت : أما شهادتى فيك لقد أكرمك الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لها : وما يدريك أن الله أكرمه [1] الى غير ذلك من الأحاديث من أمثاله .

وكلها تدل على أن الأموات قد أفضوا الى ما قدموا ، وأنه لا يجوز لنا أن نحكم لأحد حكما جازما بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا ماورد النص بأنهم من أهل الجنة أو من أهل النار كما ورد فى أهل بدر وبعض الصحابة كعكاشة بن محصن ، ونحن نقول إن حضرة السائل أدمج فى هذا الكلام الخطابى أشياء لا نتركها له بل نناقشه الحساب فيها ، أما التمويه بذكر توجه المسلم الى ربه وتلذذه بذكره فهو لذيذ فى الأسماع يكاد يأخذ بمجامع النفوس ، ولكن هذا مقام تحقيق علمى لا ينفع فيه التمويه ولا تفيد فيه الخطابة، وقد قلنا فيما سبق لو كان رأى الوهابيون أن هذا هو مقام الكمال لم نتعرض له، ولكنهم بدّعوا وَفَسّقُوا وَكَفَّرُوا الى آخره، فأين هذا مما يقوله السائل: فإن كان يريد أن

(١) هذا نص الحديث الذى أشار اليه :

عن أم العلاء امرأة من الأنصار رضى الله عنها وهى ممن بايع النبى صلى الله عليه وسلم قالت : إنه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا فوجع وجعه الذى توفى فيه فلما توفى وغسل وكفن فى أثوابه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ قلت بأبى أنت يارسول الله فمن يكرمه الله ؟ فقال : أما هو فقد جاءه اليقين والله إنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ؟ قالت فوالله لا أزكى أحداً بعده أبداً .

الاشتغال بذكر الله ومناجاته أولى فليس الخلاف بيننا وبينه فى الأولوية، ولكن الناس درجات بعضها فوق بعض، ولا حرج على من يلتفت للأسباب والوسائط عالما أن الله هو الأول والآخر، فهو ممد كل شيء والمفيض على كل شيء، واليه يرجع الأمر كله، ولا بين من ترك الأسباب ثقة بالمسبب فكان هذا غريقا فى قدرته كما كان ذاك ناظرا الى حكمته عاملا بسنته فلا حرج على هذا ولا ذاك وإن صح أن تقول إن بعضهم أفضل من بعض، وهل ما ذكره السائل من حديث التلذذ والأنس الذى قطعه خطاب الأموات صحيح أم هو تمويه وخيال؟ ولماذا لا يقول مثل ذلك فى الطلب من الأحياء؟ أليس الأنس بالله ومناجاته خيرا من الطلب من الأحياء أيضا (ولو كان وزيرا أو أميرا) أم التفضيل الذى ذكره لا يتحقق إلا بين الطلب من الله والطلب من الأموات؟ وقد أدمج فى كلامه ما يلهج به كثير من الجهلة من أن الميت لا ندرى حاله ولا ما مات عليه، وهو سوء ظن كبير بالمسلمين بل بالله تعالى، فنلفت نظر السائل الى أن من عاش على شيء مات عليه كما فى الحديث الشريف، فهذه هى سنة الله الغالبة، وما عدا ذلك فشاذ لا يقاس عليه لحكمة يعلمها هو.

ثم نقول إن الأمور فى هذا العالم مبنية على الظن، حتى الأمور الشرعية والأحكام الفقهية، وعلى هذا يجب أن نعامل أمواتنا فنغسلهم ونكفنهم وندفنهم فى مقابر المسلمين ونورث أموالهم الى غير ذلك، ولسنا على اليقين الذى يريده السائل من أمرهم (ولكن ذلك اليقين لم يشترطه أحد) فعلينا أن نعد من عاش فى حياته على خير وصلاح من أهل الخير والصلاح بعد موته، ولا يجوز لنا غير ذلك اتباعا لتلك الوساوس التى ما أنزل الله بها من سلطان.

وليت شعرى هل اذا رمينا أحدهم بأن أباه لا ندرى حاله أمسلم هو أم كافر أفيغضب أم لا؟! وهل يريد أن لا نعمل شيئا إلا بناء على جزم ويقين: اذا يختل أمر

هذا الوجود وتبطل أحكامه، أما حديث عثمان بن مظعون الذى أشار اليه السائل فالمراد منه أنه ينبغى الخوف من سعة التصريف الإلهى، وأن مرتبة العبودية لا تتخطى مقام الرجاء والضراعة، وأم العلاء قد قطعت على الله أنه مُكْرِمه على سبيل الجزم فأخرجت ذلك مخرج الشهادة، وأظن أنها لو شهدت له بالدين والصلاح لتغير جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال فى آخر الحديث: وإنى لأرجو له الخير. فهل يفرق السائل بين رجاء الخير وظن الخير؟ ولماذا لا يذكر لنا ما أخرجه البخارى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه — قال: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبى صلى الله عليه وسلم: وجبت. ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال: وجبت. فقال عمر بن الخطاب ما وجبت؟ قال: هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار، أنتم شهداء الله فى الأرض. أو ما أخرجه عن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة» فقلنا وثلاثة؟ قال: وثلاثة، فقلنا واثنان؟ قال واثنان، ثم لم نسأله عن الواحد. أوما أخرجه البخارى أيضا من قوله صلى الله عليه وسلم فى شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء» ثم نقول للوهابية جميعا لماذا لا تذكرون أو لا تعملون، ولا نقول لا تصدقون بما أخرجه البخارى أيضا من قوله صلى الله عليه وسلم: «والله ما أخشى عليكم الشرك ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها» الى آخره، بل سارعتم الى القول بالشرك الذى لا يخافه صلى الله عليه وسلم على أمته فأوسعتموهم ذبحا وقتلا معتقدين أنهم مشركون خارجون عن الملة، وكأن السائل قد أحس بذلك كله فقال: «على سبيل الجزم».

ونحن نقول له يكفينا الظن، وحسن الظن بالمسلمين مطلوب خصوصا الصالحين، وأما الجزم الذى تريده فلم يشترطه أحد كما قلنا. ثم قال السائل: وإن من المجازفة أن نزيد على حسن الظن فيمن لم يرد لهم شهادة من المعصوم، ونحن نقول له إن من المجازفة أن تسىء الظن بمن لم يرد فيهم نص عن المعصوم خصوصا من ظهرت عليه

علامات الخير وأمارات الصلاح أو ظهرت له كرامات فى حياته وبعد مماته ، وتجويز أن يكون قد تغير حاله هو من سوء الظن بالمسلمين بل بالله تعالى ، كما أنه عقوق للآباء والأجداد ، وما معنى الزيادة التى زِدْتها حضرتك : وليس ذلك كله إلا أثرا لحسن الظن ومبنيا عليه . ثم قال السائل : وكم أكون مسرورا جداً اذا عثرت لنا على نص صريح فى هذا النوع من الوسيلة ، وأقول ذكرنا من الأدلة العقلية والنقلية الشىء الكثير ، وقد كان يكفيه حديث واحد على ما يقول ، وقد قلنا إن من يثبت الحياة والإدراك والعلم للأرواح والقربة والمنزلة للصالحين ثم يمنع التوسل والاستغاثة بهم متناقض غاية التناقض قاطع الملزوم عن لوازمه ، وقد ذكرنا إجماع الأئمة على التوسل به صلى الله عليه وسلم عند زيارته ، ولو لم يكن فى الموضوع إلا حديث عثمان بن حنيف لكان كافيا شافيا .

وعلى الجملة فقد أجمعت الشرائع كلها والفلاسفة الأقدمون والفلاسفة العصريون ، أو نقول المسلمون والأوربيون والإمريكيون والهندوس على إثبات الحياة ولوازمها للأرواح ، وعلى أن لها من الإطلاق وسعة التصرف ما لم يكن لها حال حياتها فى هذا العالم ، وهو عين ما قرره ابن القيم أحد أئمتهم فى كتاب الأرواح . أسأل الله أن يزيل عنا حجاب المادة وكثافة الطبيعة وظلمة الأشباح بمنه وكرمه .

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

الربا

الربا فى الجاهلية والاسلام — الربا فى نظر الشرع وفى نظر القانون

الربا فى نظر الأمم وفى نظر الأفراد

قال الله تعالى : (ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ) .

وما لنا لا نتكلم فى الربا وقد ضج ضجيجه فى مشارق الأرض ومغاربها ، وعلا صياح الاستغاثة من آثاره وعواقبه الوخيمة حتى صم الآذان ، وما لنا لا نتكلم فى الربا وها هى ذى نتائج الإقدام على محاربة الله ورسوله قد بدت للعيان ، واصطلى نارها كل إنسان : انظر الى بلدك واستمع لما يلقيه عليك جيرانك من مر الشكوى ، فسواء أكنت من أهل المدن أم من سكان القرى فإنك لا تكاد تقابل رجلا تعرفه إلا وهو يبادرك إن لم تبادره بالشكوى التى تذرف الدموع وتستدر الرحمات ولكن ليست رحمة

مالك السموات ، وكيف تستدر الرحمة ممن آذنك بحرب ونهاك فلم تنته : يتقابل الرجلان أو الفئتان ثم يفترقان ولا حديث لهما إلا أمر الأزمة وما تعانيه الأمة من أمرها وما تتوقعه من لحظة الى أخرى من خراب البيوت وافتضاح الأسر والإشراف على المجاعة وقد ملك الذعر عليهم جوانبهم حتى كاد بعضهم يأخذ بتلابيب بعض يحاولون أن يحتمى بعضهم ببعض ، ومن ذا يحميهم من الفزع الأكبر فزع غضب الجبار المنتقم القهار : وليغلبن مغالب الغلاب .

تتناول الصحيفة من الصحف اليومية أو غير اليومية وتقلبها بين يديك فلا تكاد تجتاز خبرا من أخبار الأزمة حتى تصادفك شكوى من الضيق وانسداد باب الرزق ، فتنتقل منها الى خبر البيوع الجبرية فتنفلت الى أنباء العمل على مكافحة الضائقة المالية وهكذا اذا قطعنا علما بدا علم ، ومرجع الكل الى أمر واحد وهو الضائقة الآخذة بتلابيب الأمة . ثم ارجع البصر الى البلدان الأخرى والأمم الأجنبية واذا بها تعانى فى سبيل العيش أكثر مما نعانى ، وتقاسى من صنوف المجاعة أشد مما نقاسى ، وتحاذر من عموم المجاعات أكبر مما نحاذر ، بالله أليست هذه الأمم هى التى ملكت وسائل العيش وتبسطت فى استنباط سبل الارتزاق التى لم يسبقها اليه أحد من الأمم ، وعد نجاحها فى امتلاك ناصية شئون الحياة الدنيا دليلا على سمو قدرها وعلو كعبها وأصالة رأيها وصحة مذاهبها حتى فى شئون الدين وفى الحياة الآخرة عند من أضلهم الله على علم وغرتهم الحياة الدنيا وزخرفها ؟ أليست هذه الأمم هى التى سميت ملوك المال واتخذت سيرتها فى إحراز الحياة الدنيا ومتاعها مثلا يضرب وقلبت على الكثير منا أفكاره حتى صار ينادى بأعلى صوته أن اتبعوا الأمم الأجنبية فى كل شئ فقد نجحوا فى إحراز المال حتى صاروا ملوكه ، والمال أساس كل شئ ، فمن نجح فيه فقد نجح فى كل شئ ، ومن أصاب طريقه فهو مصيب فى كل شئ ، حتى خدعوا الناس عن دينهم

وجميـل أخلاقهم ومحاسن عاداتهم فاندفعوا متدهورين يتردون بعضهم فوق بعض في هاوية عميقة من الرذائل لا يعلم مقدارها إلا الله ، وما ذلك إلا بفتنة المـال ونجاح تلك الأمم فى إحراز المـال ، فما لهم وقد شاركونا فى الضجيج والصراخ والعـويل ، يشكون كما نشكو ، ويبكون كما نبكى ويجأرون بصياحهم أن أغيثوا العاطلين وأنقذوا المفلسين وأطعموا الجائعين وإلا قامت الثورات وانتقضت الجماعة وعمت الفوضى كل الطبقات ؟ ما لأساطين المـال وملوك الاقتصاد ومديرى المصارف المـالية يتجمعون من مختلف الدول يتآمرون ويتشاورون على إنقاذ دولة بعد دولة من فقر مدقع ومجاعة طاحنة قاتلة وحرب من الله مستعرة تدمر كل شىء بأمر ربها ، ثم ينفضون معترفين بالخيبة والفشل مقرين بالعجز واليأس ؟ أين نظريات الاقتصاد ، وأين القواعد المـالية المبرهنة ، وأين العلم وما أثبته العلم وما نفاه العلم وما أيده العلم وما نقضه العلم ؟ مسكين أيها العلم لقد ظلموك ظلما كبيرا ، وقرعوا باسمك أجراسا صمت لها الآذان وصدأت منها الأذهان ، وما أنت منهم وما هم منك فى شىء ! .

من كان يظن أن أمريكا تشكو الأزمة وهى مالكة الذهب بل منجمه ومعدنه ؟ ! من كان يصـدق أن انجلترا تئن من كثرة العـاطلين وهى التى لا تغيب الشمس عن أملاكها ؟ من كان يقول إن ألمـانيا تنادى على نفسها بالإفلاس وهى التى عرفت بالإباء والكد والمكافحة وصدق التصميم وقوة الشكيمة فى مناهضة كل نازلة ؟ ! من كان يقول إن الروسيا تحارب النظام الإلهى والنظام البشرى وتصرف كل جهودها فى محاربة المـالية العالمية تخلصا من القيود المـالية بأجمعها ، تلك القيود التى ضغطت على عنقها حتى كادت تفقدها الحياة ؟ فهى الآن تحاول تحطيم تلك القيود صالحها وطالحها لتفسد على العالم نظام معيشته وتتركه يتناهب ويتطاحن ، فتحرم العامل من ثمرة عمله ، والموفق من نتائج توفيقه ، حتى تزهـد الناس فى العمل والسعى لتحصيل العيش تحصـيلا صادقا ،

تلك الروسيا المترامية الأطراف التى أتى عليها حين من الدهر وهى المثل الأقصى فى الخضوع لفرد واحد لا يسألونه على ما قال برهانا ، فما بين غمضة عين وانتباهتها تتغير حتى تصير وحشا مفترسا وسبعا ضاريا أو كلبا مكلوبا تتحصن منها الأمم وتحذر شرها الدول وهى تغير بمختلف الوسائل لتسطو على النظم فتنثرها ، وعلى القيود المشروعة فتحطمها ، وعلى صرح العدالة فتهدمه ، وما كان ذلك منها إلا أثرا من آثار التمرد على حالة فى المعاملات جرّت عليها غضب الجبار وعرضتها لحرب القهار ، ومن يحارب الله فما له من نصير .

لا أطيل عليك القول ، ولا أتطوح بك بين الدول والأمم شرقيها وغربيها ، بعيدها وقريبها ، فقد لا يتيسر بين يدينا من تفاصيل أحوالهم وتصاريف أموالهم ما به تقتنع أنهم ما أصابهم ما أصابهم إلا من جراء ذلك النظام الربوى الممقوت الذى عرضهم لذلك الوباء والشر المستطير ، وما علموا نبأه إلا بعد حين . ليس من السهل علينا أن نستعرض من أحوال أمة بعيدة عنا ما به نحكم حكما واضحا يقنعك بأن هذا نتيجة ذاك وإن كنا فى أنفسنا مقتنعين ومتيقنين ، ولكن الاقتناع شىء والإقناع شىء آخر ، فحسبنا أن نستعرض أحوال أمتنا ، وها هى ذى مجلوة أمامنا وأخبارها متلوة علينا صباح مساء ففيها المقنع وكفى .

هذه مصرنا العزيزة وقد اختصها الله بهبات قل أن يشاركها فيها بلد آخر ، ففيها نيلها المبارك الغدوات والروحات ، يجرى بالخير العميم ، ويقبل بالفضل الجسيم ، وتتلقاه كل عام بالوجه الوسيم والثغر البسيم ، وفيها تربتها الخصبة التى تعطيك ما لا تنتظره من أبيك ولا أخيك ، فهى كما قال فيها عمرو بن العاص فيما روى عنه : ترابها ذهب ، ونيلها عجب . وفيها أهلها وفلاحوها ذوو الصحة الوفيرة ، والسواعد المفتولة ، والنفس القنوعة ، والعزيمة الماضية ، والهمة القوية ، ذوو الكد والجد والفرح والمرح ، المسرورون دائما ، المستبشرون الراضون المرضيون ، الطائعون المسالمون ، كل هذه هبات من الله من حقها — وهكذا كانت — أن تجعل المعيشة هانئة والحياة هادئة والنفوس مطمئنة ،

وأن تباعد بين النفوس وبين الذعر والفزع من انقطاع العيش ومداهمة البؤس والضيق وتفشى التذمر والضجر والشكوى والأنين .

ولقد كانت مصر ولا نظام ولا عدالة فى الأحكام ولا قيام على المرافق العامة بهذا النظام والإحكام ، وكان معظم أرضها قفرا ، وجل نيلها يضيع فى البحر هدرا ، ومع ذلك ما كانت تئن ولا تضج ، وما كان لها هـذا العويل وهذا الصراخ ، فما لها وقد نظم نيلها ، وأصلحت أراضيها ، وتنوعت أفانين استغلالها ، وأخذت العدالة بينها أوفر قسـط ، قد علا صراخها وتوالى سـقوط البيوت فى حلبتها ، وأصبحت تلك النفوس الهادئة المطمئنة هلعة مذعورة ! .

ألا فاعلم أن أساس ذلك ومنشأه وسـببه القريب والبعيد هو فتح باب الربا ، وإليك البيـان :

مصر — كما قدمنا وكما تعرفها ويعرفها غيرك — بلد خير بأصل خلقتها ، وأهلوها أولو قناعة وأخلاق هادئة ونفوس راضية مطمئنة ، فكانت فى الأزمنة الماضية لا هم لأهلها إلا العمل على ما يقوم بأود معيشتهم كل على حسب ما قدر الله له من رزق ، إن واسعا وإن ضيقا ، ولم يكن لهم من أمل أكثر من أن يوفقوا فى استغلال أرضهم التى يحتازونها فيرتبون معيشتهم عليها ، ومن كان منهم فى صناعة فقد عرف ما يفيده من صناعته وعليها رتب حياته ، والتاجر قدر بالتقريب ما تدره عليه تجارته المحصورة المملوكة له بالحقيقة والاسم ، فرتب معيشته على حسبها ، فكان القليل منهم من يخطئ ، ومن يخطئ فليس مدى خطئه ببعيد حتى يأتى خطؤه على الأخضر واليابس ، بل كانت عثرة لا تلبث أن تقال ، وغلطة عما قليل أثرها يزال .

عاشت مصر على ذلك حقبا حتى تغيرت الشئون وجاءت هـذه العصور فدهمتنا الجاليات الأجنبية تحمل الذهب النضار اللاعب بالألباب والخاطف للبصائر والأبصار ،

فعرضوه علينا ولعبت الأمانى والآمال برءوسنا ، ورتبنا فى نفوسنا مشروعات كبرى ستدر علينا الخير الوفير والذهب الكثير ، وسنعمر الأرض ونملأ الحواصل بالحاصلات ، وما لنا لا نقترض المال بفائدة معقولة معتدلة ١٠ فى المائة أو ١٥ فى المائة أو ٢٠ فى المائة على الأكثر ، وافرض أنه أكثر من ذلك ، أليس هذا يمكننى من أن أشترى أرضا بألف وأدوات بمائة ومواشى بمائتين وأستغل ذلك فينتج فى السنة على الأقل مائتين أدفع القسط مائة وخمسين ، وأستفيد خمسين وهذا أقل تقدير ، وربما أفدت مائة أو مائتين ؟ وانظر فلانا فقد اشترى أرضا فكانت غلة أول زرعة منها كفيلة بسداد ثمنها ، وهنا تملك الرءوس حمى الأمانى فتهذى النفوس بالأكاذيب ويتخيل ثم يخال ، فيند عنه النوم الى أن يصبح مبكرا الى المرابى وكل أمانيه أن يحوز المبلغ المطلوب فى يده فيرى ذاك المرابى حرصه وإلحافه فى الطلب فيشتط عليه ويشترط ما يشاء وهذا يسلم له بكل ما يريد ، وما هى إلا لمحة حتى يوقع الصك ، وفى قفزة وصل الى بلده وصار بين أهله وولده فتنفتح يداه عن الذهب وتنفتح الشفاه عن المطالب ، هذا فتى بلغ أوان الزواج ، وهذه فتاة تحتاج الى الجهاز ، وهذه دار قد أكل الدهر عليها وشرب وليس طرازها مما يوافق منزلتنا ، وها هو المال معنا والأسرة بكمالها بحاجة الى الكسوة ، وهكذا دواليك .

والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

فلا يمضى شهر حتى يكون معظم الذهب قد ذهب ، وما لنا لا نزيده ونجدد الكرة والباب مفتوح والمالى مستعد بل يود ، وهل له صناعة غير هذا ؟ ولا جميل علينا لأحد فى الاقتراض فإنا ننفعه وننتفع منه (وتأمل كلمة : لا جميل علينا فى الاقتراض) فقد كانت هذه الكلمة الوجيزة حاجزا حصينا بين الناس والاقتراض فلم يكن أحد يقترض إلا للضرورة القاسية ، وكان فى النفوس سلطان الحياء قوى العمل والنفوذ ، أما وقد ذهب الحياء لأنه لا جميل عليه لأحد فى القرض فقد اتسع مجال الأمانى الكاذبة بلا رادع ولا وازع ، وهل أنت بحاجة الى تفصيل باقى القصة وتكميل الرواية بعد أن

شرحت لك فاتحتها ؟ ما أظنك إلا قد لمحت خاتمتها وتبينت عاقبتها واستعذت بالله من شرها ، فإن لم يكفك هـذا فاعمد الى أى شاك لك من الأزمة وعملها — وما أكثر الشاكين والباكين — واسأله كيف كانت قصـته فيجد فى شرحه لك ما ينفس عن صدره بعض الهم ، ويقول لك كما قال الأول :

ولا بد من شكوى الى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع

وستعلم من أحواله وأقواله ما به تصـدق إن لم تكن صدقت أن الربا هو أصل بلوانا وعـلة شكوانا لا فرق بين زارع وتاجر وصانع ، فالكل فى ذلك غارقون وإن تنوعت الأسباب وأحاديث الآمال بتنوع الأعمال ، فعلى الجملة قد تعددت الأسباب والموت واحـد .

احضر مجالس القـوم واغش أنديتهم فى بيوتهم إن كانوا قد بقى لهم بيـوت ، وفى المقاهى والنوادى العامة إن كانت بيوتهم قد أقفلت وقد تهدمت أسسها ، تجد النغمة واحدة فى أشكال شتى ، والله يلطف بعباده ، فان لم يتيسر لك مخالطتهم والتحدث اليهم فما أيسر أن تطلع على صحيفة يومية فترى أخبار البيوع الجبرية ، وتأمل فيما وراء البيع الجبرى من البؤس والشقاء يحل بالأسرة بعد الأسرة والبلد بعد البلد والمدينة بعد المدينة وتخيل تلك العيون الدامعة والنفوس الخاشعة واللوعات اللاذعة ، وما من أحد بيننا بحاجة الى أن يعرف مبلغ ما آلت اليه مالية البلاد ، فكلنا عارفون ، والعارف لا يعرف ، وإنما الذى نريد أن نقوله هو أننا استؤجرنا لأصحاب الأموال وكانت أجرتنا بمقدار ما يملأ بطوننا أو ينيلنا بعض مشتهياتنا ، فأصلحنا لهم الأرض وهم يوهموننا أننا مالكوها حتى إذا تم لهم الملك طردونا شر طردة ، ويا ليتنا كنا نملك تلك القوة الماضية قوة التقشف والقدرة على العمل ، وتلك السواعد المفتولة المضروب بها المثل ؛ لا بل أكل منا الرفه ونخرنا سوس الترف حتى صرنا كأننا جزوع نخل خاوية ، بل فقدنا عزة النفس من حيث توهمنا أنا نجرى وراءها ، والحرية من حيث حسبنا أنا نملك تصريف أعنتها .

لقد طال بنا المقال بما عساه يجر الى الملال ولما نبلغ كل ما فى نفوسنا، ولكنها نفثة مصدور قد تفرج بعض الهم ، وربما عدنا الى هذا الموضوع فى فرصة أخرى، ولكن بعد أن نفى العنوان الذى ترجمنا له حقه وإن كنا قد ألممنا بشىء منه فى هذه الكلمة .

الربا فى الجاهلية والاسلام — ذكر علماء التفسير أن آية الربا من آخر الآى نزولا ، وروى الامام أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص فى تفسيره أحكام القرآن عن عمر رضى الله عنه « إن آية الربا من آخر ما نزل من القرآن وإن النبى صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يبينه لنا فدعوا الربا والريبة » وروى عنه أيضا قوله : «إن من الربا أبوابا لا تخفى منها السلم فى السن » يعنى الحيوان ، ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع : « تركت لكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى : كتاب الله وسنتى» فيكون الربا فى أصله من الأمور المعلومة لهم غير محتاج فى أصله الى بيان وإن كان قد جاء فى الخبر زيادة على ما كان معروفا لهم ألحقت بالربا المعروف لهم وأخذت حكمه وهى الأشياء الستة المعروفة فى الفقه : الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح ، أما ما كان معروفا لهم فهو ربا النسيئة أى التأخير ، وذلك أنهم كانوا يقرضون الدراهم أو الدنانير الى أجل بزيادة على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به، هذا الربا الذى هو كان متعارفا عندهم وعليه جاء النهى فى الآية التى هى من آخر الآى نزولا واتفقوا جميعا على تحريمه ولم يكن الربا المتعارف فى كلام الفقهاء وهو البيع نقدا فى الأثمان والطعوم مع زيادة أحد العوضين ، لم يكن ذلك معروفا عندهم ، ولذلك كان ابن عباس رضى الله عنهما ينكر تحريم هذا النوع أى بيع الذهب بالذهب نقدا مع زيادة أحدهما أو بيع الطعام بالطعام نقدا مع زيادة أحدهما ، وكان يقول : لا ربا إلا فى النسيئة ، حتى قال له أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : أشهدت ما لم نشهد أسمعت ما لم نسمع؟ وروى له الحديث المشهور فى هذا الباب : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى : الآخذ والمعطى

فيه سواء » ثم قال له أبو سعيد لا أرانى وإياك فى ظل بيت ما دمت على هذا ، فيروى عنه أنه رجع عن هذا ، وقال كنت استحللت الصرف برأيي ثم بلغنى أنه صلى الله عليه وسلم حرمه ، فاشهدوا على أنى حرمته . وحجته فى ذلك أن بيع النقد بالنقد والطعام بالطعام حالا بزيادة لم يكن معروفا عند العرب ولم يكن اسم الربا دالا عليه لغة فلم يفهمه من الآية ، فلما بلغه الحديث ممن يثق به رجع عنه وأفتى بتحريمه ، وعلى كل حال فربا الفضل الذى لا نسيئة فيه والذى كان يقول ابن عباس بحله ثم قال بتحريمه ليس من غرضنا التكلم عنه فى هذا المقال وإن أخذ فى كتب الفقهاء مجالا واسعا تبعا لاختلافهم فى علته ، وقياس بعض الأنواع على بعضها فيه ، وإنما كلامنا فى النوع المتفق على تحريمه وهو ربا النسيئة أى قرض الدراهم أو الدنانير لأجل بزيادة فى نظير الأجل ، فهذا حرمته مجمع عليها من الصحابة ومن بعدهم ، وهذا الذى كان متعارفا بينهم فى الجاهلية ، وجاءت الآية الكريمة بتحريمه .

والآن فلنتكلم على الآية الكريمة وما فيها من الإشارات المؤكدة للنهى عن الربا ثم نتبعها بالكلام على آية (لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) ، وآية (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ) ثم نعرض لشبه المتمسكين به العاضين عليه بالنواجز يحاولون إحلال شئ منه شرعا أو تبرير ما يقع منه بين الناس للضرورة الاجتماعية ، فنفند كل ذلك من الوجهة الشرعية والوجهة الاجتماعية ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، ومن يضلل الله فما له من هاد :

يقول الله تعالى : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) وقد جاءت هذه الآية بعد آية الصدقات قوله تعالى : (الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ليتبين باجتماع الآيتين الفرق بين الفريقين : قوم

يرضون ربهم بنقص أموالهم فيزيدونها بالبركة والنماء الإلهى ودفع الكوارث وتهيئة أبواب الانتفاع بها غير منغصة ولا مكدرة ، وقد وعدهم الله بأجرهم فضلا منه وإن كان هو المنعم فى الأصل عليهم ، وقال قبل ذلك : (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) وقال : (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) فهذا أجرهم عند ربهم يوفى اليهم ، لا يخافون حدوث أمر متوقع فى المستقبل ، ولا يحزنون على فوت أمر حصل فى الماضى ، وحسن جميل أن يردف بيان أمرهم ببيان أمر أضدادهم ، وهم قوم يسخطون ربهم ويغضبون المنعم عليهم فيتلمسون الزيادة من غير بابها ويحاربون النعمة بمحاربة ربهم المنعم عليهم بها ، أولئك الذين تمسكوا بالزيادة الحسية معرضين عن الزيادة المعنوية بل غافلين عن أن زيادتهم باب للمحق والدمار (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ) فأشبهوا بستانيا ترك السرطانات فى أشجاره تمتص عصارتها فتعوقها عن النمو والإثمار ، فقد عرض الشجر للمحق بأن لم يمنع عنه تلك الزيادة الماحقة ، فرب نقص أفضى الى زيادة وزيادة أدت الى نقص .

وبعد أن عرفنا موضع الآية من حسن المناسبة لما قبلها نقول : إن قوله جل شأنه : (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ) معناه يتعاملون به ويأخذونه وينتفعون به بأى وجه من وجوه الانتفاع ، وتخصيص الأكل من بينها لأن المأكول يلابس بدن الآكل ويختلط بكل أجزائه ، فاذا كان ذلك سحتا خبيثا كان تجنبه آكد عند الآكل ، فكل امرئ حريص على أن يسلم بدنه ، ولا يعرض بدنه للسحت والمحق إلا مأفون مجنون لا يزن أخص منافعه بميزان ، فهو كالذى يتخبطه الشيطان من المس .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية طريقان نعرض لهما بإيجاز ، لأن للكلام عليهما موضعا آخر سنعرض له فى فرصة أخرى إن شاء الله : فبعضهم يرى أن هذا تصوير

جار على ما كان يزعمه العرب من أن الشياطين تمس الناس فتؤذيهم ، فجاءت الآية في التنفير والتخويف على هذا الزعم ، والطرق البلاغية لا تأبى ذلك ، كما يقول القائل :

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وكما قال تعالى : (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي) فلو كان في قدرة الشيطان أن يمس شخصا فيجنه لكان له عليه سلطان ، والمحققون لا يرون في هذا دليلا ، لأن نفي السلطان معناه نفي الإلجاء وسلب الاختيار ، فإن الشيطان مهما وسوس للإنسان وزين له العصيان لم يسلب عنه اختياره ولم يلجئه للمعصية قهرا عنه ، وإنما غاية أمره أن دعاه فاستجاب له باختياره وزين له سوء عمله فرآه حسناً ، وهذا لا ينفي أنه يمكن أن يتسلط عليه بالأذى من حيث لا يشعر ، ألا ترى الى اللص يرى كل الناس أن لا سلطان له على أحد منهم وأنه أحط من أن يؤبه له ، وأحقر من أن يظهر بمظهره أمام أي شخص ، وهذا لم يمنعه من أن يتسلط بالأذى على بعض الناس من ناحية أخرى غير امتلاك إرادتهم وسلب اختيارهم ، وعلى ذلك قالوا إن الشيطان يمس الإنسان فيتخبطه ، وهؤلاء منهم من قال إن قيامه يتخبط يكون يوم القيامة ، مستندين الى ما رواه الطبراني عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله عليه وسلم : « إياك والذنوب التي لا تغفر : الغلول (وهو إخفاء بعض الغنيمة) فمن غل شيئا أتى به يوم القيامة ، وآكل الربا ، فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونا يتخبط » وعلى هذا يكون معنى لا يقومون : أي من قبورهم ، ومنهم من قال : بل ذلك تصوير لنهوضهم في الدنيا وتقلبهم على غير هدى ودورانهم كالمصروع أو كالمكلوب الذي يشمل أذاه كل من صادفه ، كما يقال للمسرع في حركاته العديم التأني قد جن ، وعلى كلا الرأيين فالتشبيه في قوله كما يقوم إلى آخر ما مر حقيقي ، وقد استفاض عند الكثير من الناس أنه

يصرع بالمس من الشيطان ، وحوادث ذلك وعلاجاته الناجعة أكثر من أن تحصر ، ولا يلزم من عدم معرفة الكيفية تفصيلا الإنكار جملة ، فكم من شىء يعترف به وإن لم يعرف كنهه ولا وجهه ، ولا يلزم من عدم اعتراف العلم الحديث به عدم ثبوته ، فقد اعترف العلم على ألسنة حملته بأنه قاصر عن أن يحيط بكل شىء وإن ظلمه المتحككون به بدعوى أن ما لم يقل به فليس بشىء ، جهالة وسخفا وعدم تفريق بين عدم العلم بالشىء والعلم بعدم الشىء ، ولقد صور بعض المفسرين هذا المعنى بصورة إن لم يقم الدليل على ثبوتها فلا سبيل لإقامة الدليل على نفيها فتبقى جائزة يحتملها العقل ، وورد بها الخبر الصادق ولا داعى لصرفها عن الظاهر .

قالوا : قد يدخل فى بعض الأجساد هواء متعفن على بعض الكيفيات تتعلق به روح خبيثة ضارة مؤذية تناسب ذلك الهواء فيحدث الجنون أو المرض عند المستعد لهما ، وما أقرب هذا التصوير من أمر الجراثيم والمكروبات ، وقد يستولى ذلك البخار على حواسه فتختل ، وعلى جوارحه فتضطرب أو تتحرك حركات مؤذية ضارة تحت سلطان ذلك الروح المستولى عليها من غير شعور للشخص بشىء من ذلك ما دام تحت سلطان ذلك الروح ، وتكاد حوادثه تلتحق بالضروريات ، وإنكاره يلتحق بالمكابرات ، وإذا صح حديث الطاعون من وخز الجن فهو على هذا النمط تتعلق الأحياء الخفية أو الأرواح الخبيثة المستجنة أو الجراثيم والمكروبات بالهواء المتعفن فتمس الجسد المستعد لها فيعرض له من الأذى ما تظهر عليه أماراته .

نعم لا ننكر أن الكثير من فاسدى الأخلاق ومنحطى النفوس قد اتخذوا هذا المظهر مظهر الصرع ذريعة لنيل مآرب وحاجات فى نفوسهم فيظهرون بهذا المظهر الكاذب ويتخبطون تصنعا حتى يشفق عليهم ذووهم فينيلوهم ما يبتغون وهم فى مأمن من أن تنكشف أباطيلهم وتفتضح أكاذيبهم أو كانوا لا يستندون إلا الى أعراض خفية وأمراض أخفى منها . نعم قد نشأ ذلك فى الطبقات المنحطة وخصوصا فى النساء

مما دعا رجال الإصلاح الى أن ينكروه بتاتا ويحاربوه حربا اجتماعية خلقية فصوب رأيهم فى ذلك باعتبارهم معالجين لأمراض الأخلاق ، ولا حرج على الطبيب أن يسلك من العلاج ما يراه ناجعاً ، ولكن هذا شىء وتحقيق الحقائق العلمية شىء آخر ، فكأن لسان حال أولئك المصلحين يقول : إنا نعلم ذلك ونقر به ولكن لا نعلمه ولا نقرره فما كل ما يعلم يقال ، ولأن يجهل العوام هذه الحقيقة حتى ينكروها بالمرة أنفع لهم من أن يتعلموها فتجر عليهم الأكاذيب المخزية التى تجعلهم فريسة للدجالين والمحتالين التى جعلت الشرقيين أضحوكة فى أفواه الغرباء الغربيين ، وما أسرع انهزامك يا شرقى وتركك التمسك بعقائدك الحقة بينما الذين تحاذرهم لهم من الخرافات ما يضحك الثكلى ، فياعجبا كل العجب من تمسكهم بباطلهم وفشلنا عن حقنا ! .

(ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا)

لقد رأيت ذلك الوعيد الشديد الذى توعد الله به آكل الربا وهو قيامهم يتخبطون كالمجانين المصروعين الممسوسين ، وأن ذلك يكون شأنهم يوم القيامة على ما هو مختار الجمهور من المفسرين ، أو أن ذلك يكون شعارهم وسيماهم فى تقلبهم فى دنياهم كما يرى ذلك بعضهم ، أو أن يجمع لهم بين الأمرين ، ونعلم أن ترتيب الوعيد على جريمة معناه أن الجريمة سبب ذلك الوعيد ، ومع هذا فقد جاءت هذه الآية التالية تعيد هذا المعنى بوجه أشد هولا وأعظم تأثيرا فى النفوس الحية ، فقد شرحت ما يجول فى نفس العاكف على هذه المعاملة السيئة التى اتخذها ديدنا له واطمأنت نفسه لها ورضيها لنفسه مرتزقا ثابتا ، فهذا شأنه ألا يبقى فى نفسه شعور بأسف أو ندم أو استياء من محاربته لربه بل لا يزال يران على قلبه حتى تهدأ نفسه إن كانت قد اضطربت أول الأمر ويلعب الشيطان معه دوره حتى يغلبه على إيمانه فيقول فى نفسه ولماذا كان هذا حراما والبيع حلالا أليسا سواء منفعة تتبادل بالرضا بين الطرفين ؟ فهل قسرته على الاقتراض

أو أخذت منه الزيادة بدون أن ينتفع بمالى ، ولماذا لا نحجر على من يشترى بعشرة أن يبيع بخمسة عشر ؟ فالبيع مثل الربا والربا مثل البيع فهما سواء فلا معنى لتحريم واحد وتحليل واحد .

هذه خواطر لا يمكن أن تفارق نفس المرابى ، وقلما يشعر بأنه بعمله ظالم لنفسه وغيره عاص لربه ، ولو كان عنده هذا الشعور لا يلبث أن يزول ، وإذاً فهو مستحل أو آيل الى الاستحلال ، ومن أعظم جرما ممن أحل ما حرم الله وبرر عمله بما يندرج فى سلك الاعتراض على الله ! فلا عجب أن كان من الذنوب التى لا تغفر كما جاء فى الحديث المورد آنفا ، ولا عجب أن جاء لعن خمسة فى سبيله على لسان محمد خاتم الرسل وهم آكله ومؤكله وشاهداه وكاتبه .

وإنك لتلمح فى أسلوب الآية الكريمة من ضروب التهويل ما لا تفيه حقه عبارتنا ، فإن الاكتفاء بسرد مقالتهم فى مقابلة حكم الحق جل جلاله تنذر بخطر تلك المقالة وشديد فظاعتها كما نقول فى مخاطباتنا : « ماذا تريد من فلان يكفيك منه أنه يقول كذا وقد قال الملك كذا » وتسكت واثقا بأنك قد بلغت فى وصفه بالشناعة كل ما تريد ، فهذا قوله تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا) وفى الآية نكتة أخرى فى التشنيع عليهم وهى أنهم جعلوا الربا كأنه الأصل فى الحل يقاس عليه البيع فقالوا إنما البيع مثل الربا ، وكان حق التعبير إنما الربا مثل البيع إذ كان حل البيع لا مرية فيه ، ولكن طغيانهم فى تفكيرهم قلب عليهم حكمهم فجعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا ، وقد جاء الجزء الأخير من الآية كابحا لجماحهم ملجما لهم بما لا قبل لهم بدفعه وهو قوله : (وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا) كأنه من باب إرخاء العنان لهم فى الجدل فيقال هب أنهما من واد واحد ولكن الله الحكيم العليم فوق عباده أحل البيع وحرم الربا فماذا أنتم فاعلون ، على أنك

قد تبينت بما شرحناه لك فى أول الكلام مقدار المفاسد والمضار الاجتماعية المترتبة على هذه المعاملة المشئومة التى تعانى الأمم والأفراد منها ما تعانيه .

يقول الله تعالى : (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أغلظ الوعيد فى معاملة الربا إذ صور أصحابه بصورة المجانين المتخبطين ، وجعل ذلك علامتهم يوم القيامة يعرفون بها فيفتضحون بين الخلائق بتلك الصورة الشنعاء ، ثم بين ما يجرى فى نفوسهم من الافتيات والاجتراء على الله بتبرير استحلالهم لما حرمه ، وقولهم إنما البيع مثل الربا ، وحصرهم الصفات التى يدور عليها حل أحد النوعين فى المماثلة لصفة الآخر ، وكأنهم يقولون لا فرق بينهما مطلقا فلا معنى لتحليل أحدهما وتحريم الآخر ، وفى هذا من شنيع الاعتراض على الشارع الحكيم ما يكفى فى تكفير صاحبه ويربو فى الجرم على استعمال الربا أضعافا مضاعفة ، وما كان طرد إبليس من الجنة لمجرد عصيانه بترك السجود لآدم وقد أمر به ، فما كانت المعصية سببا للخلود فى النار وتأبيد اللعنة والطرد من الجنة والإبعاد عن الرحمة ، وإنما جريمته الكبرى فى الاعتراض على التشريع المتضمن تسفيه الحكم والاستعلاء بالرأى القاصر على حكم الحكيم العليم ، ذلك فى قوله : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) ففى الاعتراض من الإصرار على نبذ الطاعة وتسفيه الحكم ما ليس فى مجرد المعصية ، فكان فى قوله : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) وقوله : (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) تصويرهم بصورة المعترض على الله الخارج قصدا وإصرارا على أحكامه وطاعته .

ولما كان أثر مثل هذا الوعيد فى نفوس المؤمنين أثرا عظيما ، ومن شأنه أن يلفت أنظارهم الى التفكر فى سالف أمرهم ، وهل يجب عليهم أن يطهروا أنفسهم وأموالهم مما سلف لهم الوقوع فيه ، وفى ذلك من الحرج وارتباك المال واضطراب الحال شىء كبير

تداركهم الله برحمته فقال : (فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ) يعنى جل ذكره أن الأمر وإن كان شنيعا على ما رأيتم فقد من الله عليكم فسامحكم فيما سبق لكم قبضه قبل التحريم وأصبح فى حوزتكم وجزءا من أموالكم فلا تضطربوا ولا ترتبكوا ، وأما ما لم يقبض وإن كان قد استحق فلا يدلكم عليه كما ذكر فى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وأما قوله جل شأنه : (وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ) فمن المفسرين من يقول أمر من كان يستعمل الربا الى الله إن شاء عصمه وإن شاء أوقعه فيما تورط فيه وهو القاهر فوق عباده وبيده تصريف القلوب .

ومنهم من قال أمر المنتهى الى الله إن شاء أثابه على انتهائه لأن الانتهاء امتثالا للشرع طاعة له ثوابها ، وإن شاء عامله بما يستحق وهو العالم بنيات العباد ، وقيل غير ذلك ، وعلى كل حال لا يبعد أن يكون فى الآية إشارة الى أنه جل شأنه وإن كان قد عفا لآكل الربا عما سلف له قبل تحريمه وانتهائه حتى لا يضطرب حاله ما زال يرضيه منه أن يكون رحيما بالضعفاء ، فهو عبد من عباده الذين ينبغى أن يسارعوا الى مرضاته، وكل امرىء عارف بتصرفاته وبما نهب وما استغل ارهاقا للضعفاء وإعناتا للفقراء، فمن حق مقابلة نعمة العفو من الله بالشكر من العبد أن يعود الى نفسه ويحاسبها على تصرفاتها الماضية القاسية فيرد ما تطيب به نفسه مما يكون قد غلا فى تحصيله ويكون صاحبه فى حاجة شديدة اليه ، وهذا من الورع فى الدين ، ويقويه أن أمر المؤمن ومرجعه الى الله ، فمن حقه أن يسعى جهده فى بلوغ مرضاته والزلفى اليه .

(وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) تكاد تكون نتيجة لازمة لهذا الوعيد والبيان السابق ، فإن من لم تفد معه تلك الزواجر يكون ممن تحجر قلبه وعميت بصيرته واستحب العمى على الهدى وارتكس فى الضلال ارتكاسا لا مخرج

له منه ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، وعلى هذا فمعنى ومن عاد : أى لما سبق من أكل الربا واستحلاله ، وإن شأن أكل الربا أن يجر الى استحلاله على ما سبق بيانه ، ولذلك جعل من الذنوب التى لا تغفر ، كما ورد فى الحديث السابق ، وهـذا لا ينفى أن أكل الربا وحده معصية ، والمعاصى غير الكفر يجوز أن يغفرها الله لمن يشاء (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) .

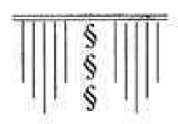
(يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) المحق النقص حتى المحو والاستئصال ، ومنه محاق القمر ذهاب نوره آخر الشهر ، وقد عاد البيان الى زجرهم عن الربا من وجه آخر وهو تسفيههم فيما يؤملون من ورائه من زيادة الأموال، فيقول الله : إن تلك الزيادة التى تلوح لكم فتدعوكم الى مخالفة أمر ربكم وعصيان المنعم عليكم هى زيادة ممحوقة ذاهبة البركة آيلة الى الضياع فى الدنيا ذاهبة المنفعة فى الآخرة معرض صاحبها غالبا لصنوف الأذى والمقت وذهاب البركات وتسلط الآفات ، والله وحده هو المعطى المانع الضار النافع ، وقد أرشدكم الى ما فيه خيركم وابتلاكم بتهيئة منافع موهومة أخبركم بأن الفائدة منها معدومة ليمتحنكم وهو أعلم بكم ليتبين من صدّق كلام ربه ووقف عند حده ومن غرته الأمانى حتى وقع فى شرك الوهم وغره زخرف الضلال، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فتكرير الزجر وتنويعه لتبلغ حجة الحق مبلغها ولا يكون للناس عذر فى الخروج عليها ، وهذا المحق إن تأخر الى حين فلابد أن يكون ، فالله يمهل ولا يهمل .

وارجع البصر الى ما وقعت فيه الأمة المصرية من عظيم الشقاء تجد الأمر بينا ، وأما قوله تعالى : (وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ) فمقابلته لسابقه كمقابلة الضوء للظلام والنهار لليل والهدى للضلال والحياة للموت والوجود للعدم ، فذاك زيادة مآلها الى النقص وهذا نقص عاقبته الزيادة (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ) .

(وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) من أبلغ أنواع الزجر أن يصور مرتكب الجريمة المعاود لها المصر عليها المتمسك بها بصورة المكرر للكفر المتردد عليه المتردى فيه، فكلما عنّ له هذا الطريق فتح عليه باب الشر إذ يتردى فى هاوية الاعتراض على الشرع الحكيم ويكرر فى نفسه (إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا) فما أشنعه شرا يجر دائما الى شر منه، ومعصية توقع دائما فى كفر ؛ وقوله (أَثِيمٍ) أى متورط فى الإثم منغمس فيه حتى صار الإثم كالملكة الراسخة عنده لا يفارقها ولا تفارقه كما هو مفاد صيغة (فعيل) فى اللغة .

انظر الى هذه الأساليب المتنوعة المروعة وتفهم مغزاها وحكم عقلك فى موضوعها هل مثل هذا الإطناب والإسهاب وتنويع الأساليب فى الزجر يأتى من الحكيم العليم إلا فى أمر خطره عظيم وضرره جسيم ؟ أفبعد هذا يجترئ مؤمن على أن يزعم أن من الربا ما أحله الله بعد أن يسمع ما أنزل الله فيه ؟! ومن ذا يقاوم هذه النصوص الصريحة بتمحلات يلصقها ببعض الآيات ليحلوا ما حرم الله ؛ وسنعود فى المقال التالى الى الموضوع نستوفى أجزاءه ونكتفى الآن بهذا المقدار وبالله التوفيق

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالأزهر





الترغيب فى طلب السلامة
من الافات النفسية والجسمية

بسم الله الرحمن الرحيم

عن قُطْبَةَ بنِ مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اَللَّهُمَّ جَنِّبْنِي مُنْكَرَاتِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْأَعْمَالِ وَٱلْأَهْوَاءِ وَٱلْأَدْوَاءِ [1] » .

الشرح

إننا نحن المسلمين كسائر أهل الأديان الإلهية الصحيحة نعلمُ جميعا أن الله جل شأنُه أرسل الرسلَ الكرامَ ليكونوا أئمةً لأممهم وقدوةً حسنةً لهم، يقتدُون بهم فيما يأتون وفيما يَذَرُون من العقائد والأخلاق وسائر الأعمال الصالحة وأبوابِ الخير والطاعات . فمن ذلك قولُ الله تعالى لنا بالنسبة الى رسولنا صلى الله عليه وسلم : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ) وقولُه تعالى لنا أيضا بالنسبة الى سيدنا إبراهيمَ عليه السلام : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ) .

(١) أخرجه الترمذى وصححه الحاكم .

بل إنه سبحانه قد جعل الرسلَ بعضَهم قدوةً لبعض ، كما قال تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام بعد ذكره طائفةً من الرسل الكرام : (أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ) .

هذا التمهيد يدلك على نوعين من عبادته صلى الله عليه وسلم لربه جلت نعمته : الأول عبادته له بالدعاء والاستزادة من فضله ، والثانى عبادته له بإرشاد أمته الى أن يقولوا كما كان يقول ، وأن يفعلوا كما كان يفعل ، ليكون عليه الصلاة والسلام أسوتَهم الحَسَنَةَ ، يتقربون الى الله زُلْفَى بمثل ما كان يَتقرب به ، ويتوسلون لنَيْل رحمته سبحانه بنظير ما كان يَتوسل به صلى الله عليه وسلم اليه .

أما الأمر الأول فهو افتتاحه بنداء ربه السميع العليم بقوله : (اللهم) زيادةً فى خضوعه وعبوديته له والاعتراف له بافتقاره اليه ، واستعانتِه به على تحقيق ما يَزيدُه قربا لديه سبحانه .

وأما الأمر الثانى فهو طلبه عليه الصلاة والسلام الى الله تعالى أن يُجَنِّبَهُ تلك الصفاتِ التى جاءت فى الحديث الشريف . هذا .

دعا صلى الله عليه وسلم ربَّه السميعَ لدعائه أن يُباعدَ بينه وبين أربع صفات ، الثلاثُ الأولى منها قد نَزَّهه الله تعالى عنها وعَصَمه بالنبوة منها ، ولكنه عليه الصلاة والسلام طلب ذلك استبقاءً لنعمة السلامة منها ، وتنويها برفعة قدر هذه السلامة ، حثًّا للأمة على طلب النجاة من هذه الصفات ، وتنفيرا لهم من شرورها .

أما الصفة الرابعة فإنها من الصفات البشرية التى يجوز عُروضُها للأنبياء لأنها لا تقدح فى مراتبهم العلية ، فهم عليهم الصلاة والسلام فى هذه الصفات كسائر الناس : يَعْتَرِيهم ما يَعْترِى غيرَهم ، يأكلون ويشربون ، وينامون ويسهُون وينسَوْن ، فيما

لا علاقةَ له بتبليغ الأحكام، وكذلك يَمْرَضُون وتمتد اليهم أيدى الأعداء والظلمة، وينالُهم الاضطهادُ، وقد يُقتلون.

ولكن جواز عروضِ هذه الصفات البشرية للأنبياء لا يمنع طلبَ السلامة من بعضها، ولهذا دعا صلى الله عليه وسلم ربه أن يُجَنِّبَه الأدواءَ وهى الأمراض. وسيأتى الكلام فى ذلك بعد.

الصفة الأولى من الصفات الأربع التى دعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يُجَنِّبَه الله إياها هى مُنكَراتُ الأخلاقِ.

فأما المنكرات على الإطلاق فهى التى تَحْكُمُ الشريعةُ الإلهيةُ والعقولُ السليمةُ والعادةُ الصحيحةُ بقبحها وفُحْشها، أو تتوقفُ العقولُ فى استقباحها وحُسْنِها فتحكمُ الشريعةُ بقبحها ومَقْتِها، سواء أكانت تلك المنكَراتُ أخلاقا أم أقوالا أم أعمالا أم عاداتٍ. وأما الأخلاق فهى القُوَى والسجايا التى تدركُها البصائر والعقول فى الإنسان، فهى الصفات المعنوية المودَعةُ فى الفِطَرِ الإنسانية، وهى المَصْدَرُ الذى تَصْدُرُ عنه معاملتُه لغيره، وهى نوعان: محمودة ومذمومة. فالمحمودة هى التى تَحْمِلُك على إسْداء البر الى غيرك؛ ولها مراتب متفاوتة تختلف باختلاف الفِطَرِ والطِّباعِ، حتى تجعلَ صاحبها مُؤْثِرًا لغيره على نفسه ومنتَصِفا له منها، وغيرَ مُنتَصِفٍ منه لها — فمنها العفو والحلم والجود والصبر وتَحَمُّلُ الأذى والرحمةُ والشفقةُ وقضاءُ الحوائج والتوددُ ولينُ الجانب والصدقُ وقوةُ العزيمة والإخلاصُ فى القول والعمل.

والمذمومة هى نقيض ذلك، وهى مُنكَراتُ الأخلاق التى سأل النبيُّ صلى الله عليه وسلم ربَّهُ أن يُجَنِّبَه إياها فى هذا الحديث وفى قوله[1]: «اللَّهُمَّ كما حَسَّنْتَ خَلْقى

---

(١) أخرجه الامام أحمد وصححه ابن حبان.

تحَسِّنْ خُلُقِي» وفي دعائه صلى الله عليه وسلم في الافتتاح: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا سِوَاكَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا غَيْرُكَ».

الصفة الثانية: منكراتُ الأعمال. فأما المنكراتُ فقد عرفتها فيما سبق، وأما الأعمال فهي قسمان: أعمال القلب، وأعمال الأعضاء الظاهرة. وكل منهما ينقسم الى معروف ومُنكرٍ.

فأما المعروف فهو الأعمال التي يعرفها الشرع والعقل القويم ويعهَدانها، لأنها تلائمهما وتأتلف معهما ولا تنافيهما، فكانت معروفة لهما، كما تقول: فلان لا يعرف الوشايةَ. أي أنه بعيد منها وليستْ معهودةً له.

وأما المنكرُ (وقد بينا حقيقته فيما مضى) فهو المَهْلَكَةُ الواسعةُ المترامية الأطرافِ، التي سارَعَ الى الهلاك فيها أممٌ قد خلتْ من قبلها أممٌ، حتى اذا وَلِجُوها وادَّاركُوا فيها جميعا لم تتعظْ أُخراهم بما أصاب أُولاهم من الدّمار والفناء وخسران الدنيا والآخرة، فحقَّتْ عليهم كلمةُ ربِّك إذ يقول: (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ. فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ. لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ. قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَمَازَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) (وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ).

قد كان من العدل الإلهي الذي لا مُعقِّبَ له، أنْ يعاقبهم اللهُ تعالى ذلك العقابَ الذي ليس له دافع من الله، جزاءً بما كسبوا (نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

كان ذلك من العدل الإلهي، فإنهم فسقُوا وارتكبوا حُوبًا كبيرا، واحتملوا بُهتانا وإثما مبينا، فاحتقَروا أوامرَ الله وانتهكوا حُرُماته وخاضوا مَنْهِيّاته، واقتحمَ كلُّ فريقٍ ما زينته له نفسُه، وأطاع ما أوحاه اليه شيطانُه.

جَنَوا جنايةً فاحشةً على الحقوق ولم يَرْقُبُوا فيها إِلاً [١] ولا ذمةً [٢]، واستهانوا بما يَنْجُمُ عن جنايتهم عليها من المفاسد الدينية والدنيوية، وافْتَنُّوا فيها وتوسّعوا حتى اعتدوا على حقوق الله عز وجل، وحقوقِ أنفسِهم على أنفسهم، وحقوقِ غيرهم عليهم.

هاكَ مثالا لمنكَرات الأعمال: إِلْحادَ الذين اعتَدَوْا على الحقوق الالهية الثابتة بالعقل والنقل، أَلْحَدُوا فأنكروا اللهَ تعالى الذى خلقهم وخلق عالَمهم الذى يتقلبون فيه ورزَقَهم من السماء والأرض، وجحدوا بآياته التى نَصَبَها لهم فى أنفسهم وفى الآفاق لعلهم يتفكرون، ولكنهم عَمُوا عنها فتراهم ينظرون اليها وهم لا يُبصرون.

طعنوا فى شرائع الله عز وجل وفى كتبه السماوية وفى رسله الذين اصطفاهم لهداية العباد، ووصفوهم بما أوجب اللهُ تعالى بَراءَتَهم منه، بل أنكروا وجودهم وسَخرُوا من الذين آمنوا بكل ذلك عن بينة من ربهم، وسَمَّوْهم القدماءَ الجامدين الذين عَطَّلُوا عقولَهم ولم ينتفعوا بثمرات بحثها وتفكيرها واستنباطها. حقًا لقد مُسِخَتْ عقولُ هؤلاء الملحدين وَعَمِيَتْ بصائرُهم فكان هذا الإلحاد القبيحُ من أعمالها المنكَرة.

عَقَدُوا المجَامِعَ بعد ذلك وحَفَّلُوا المحَافِلَ، وقاموا يخطبون فى أشياعهم ويَلْبِسُونَ الحق بالباطل، ويُذيعون إلحادَهم بأفواههم، ويَجْهَرون بطعنهم وقدحهم فى الله وفى دينه وفى رسله على الملأ، ويَبْذُرون أباطيلَهم فى رءوس قد حُرِمَتْ من العلم بحقائقَ أَوَّليةٍ وأحكامٍ دينيةٍ ودنيويةٍ صحيحة، فانخَدَعَ أصحابُ تلك الرءوس الخاوية بِشَبَحِ ضلالهم وتمويههم، ومَحَتْ ظلمتُه نورَ بصائرهم (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ).

لم يكتفوا فى ارتكابهم هذا المنكَرَ بنشر إلحادهم وضلالاتهم وجناياتهم بأقوالهم على حقوق الله العلى الكبير، بل عَمَدُوا مع ذلك الى حشر هذه الموبقات فى صحف

---

(١) يمينا على صيانتها. (٢) عهدا بحفظها.

نشروها ، وفى كتب سوّدوها ، ثم بعثروها بين أيدى القارئين ، ورفعوها على أعين الناظرين ، ليطلع على نحلتهم وبهتانهم وافترائهم من لم يكن قد سمعها من قبلُ ، وليبقى الحادثم هذا — كما زعموا — مستمرا على وجه الدهر . زعموا هذا وهم فى غمْرة ساهون عن قول الله المنتقم الجبار . (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [1] فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ . وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) . (فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) .

هذا مثال من أمثلة مُنكَرات الأعمال التى اعتدى بها الناسُ على حقوق الله القوى المتين ، ونَدَّخِر الإفاضة فى بَسْط هذا الموضوع الى فرصة أخرى إن شاء الله تعالى .

الصفة الثالثة : مُنكَراتُ الأَهْواء . الهوى هنا هو ميل النفس الى ما تشتهيه من غير نظر الى مَقْصِدٍ صحيح محمود شرعا وعقلا . فإن كان ما تشتهيه رذيلة مضادّة للفضيلة كالكذب والبخل فهو من مُنكَرات الأخلاق ، وإن كان أمرا مستقبحا شرعا وعقلا كالإلحاد وضروب الفجور فهو من مُنكَرات الأعمال .

وهذا يُعَرِّفك أن منكرات الأهواء عامّةٌ تشمل مُنكَراتِ الأخلاق ومنكراتِ الأعمال ، كذلك يُعَرِّفك أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن خص كلا منهما بدعاء على حدَةٍ دعا الله تعالى أن يُجَنِّبَه مُنكَراتِ الأهواء التى تعمُّهما ، مبالغة فى الضراعة والّلجأ إليه سبحانه لِيَزِيدَ فى رفعة قدره وعصمته وقربه اليه زُلْفَى ، وقصدا الى المَزيد فى تنزيهه عليه الصلاة والسلام وتزكيته بالمباعدة بينه وبين الهوى ، فإنه جُرْثُومَةُ آفات النفوس ومُنكَراتِ الأخلاق والأعمال .

---

(١) يمحقه ويستأصله .

الصفة الرابعة: مُنكَرات الأَدْواء. المُنكَر هنا هو الأمر الصعب الشديد القاسى الذى لا يُدْرَى ما هو لصعوبته وشدته؛ وبه سمى مَلَكُ سؤال القبر عليه السلام، ومثله النُّكر[1] أيضا. ومنه فى وصف يوم القيامة (يَوْمَ يَدْعُ[2] ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ) وفى وصف عذاب القرية التى عَتَتْ عن أمر ربها ورسله (وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا). وأما الأدواء فهى الأمراض والأعراض التى تطرأ على الصحة فتخرجها عن الاعتدال المألوف.

دعا صلى الله عليه وسلم ربَّه عز وجل أَوَّلًا أن يَزِيدَ نفسَه الشريفةَ طهارةً وزكاةً من الهوى الذى هو مَنْبِتُ كلِّ المنكرات، ثم ثَنَّى بدعائه تعالى أن يُجَنِّبَهُ مُنكَراتِ الأدواء والأمراض التى هى عوارضُ الأبدان الانسانية وآفاتُها، فكان ذلك الدعاء الأخير تعليما منه للأمة أنَّ سلامة النفوس وصحتَها إنما تكون إذا سَلِمَتْ الأبدانُ من صِعاب الأدواء، وصَحَّتْ من العاهات والعوارض البشرية التى تُفسِدُ أمزجتَها وتُوهِنُ قواها، وقد أخذ متقدمو الحكماء من هذا الحديث الشريف قولهم: «العقلُ الصحيحُ فى الجسم السليم».

دعا صلى الله عليه وسلم أَنْ يَقِيَه الله تعالى منكراتِ الأمراض، ويَهَبَه كمالَ القوة الجسمية وتمامَ العافية البدنية، لا ليتمتع بزخرف الحياة الدنيا وزينتها، فإنه عليه صلوات الله وسلامه كان أزهدَ الخلق فيها، عملا بقول الله تعالى له: (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ). بل إنما كان دعاؤُه هذا ليستعين على أداء ما كلَّفه الله تعالى من أداء عبادته له على القدر الذى يكافئ رتبةَ النبوة والرسالة، ومن القيام بأعباء التبليغ ونشر الشريعة وتعليم الأمة أحكامَ الدين الحنيف.

---

(١) بضم الكاف وسكونها. (٢) هكذا رسم المصحف الامام.

لا جدال أن هذه تكاليفُ وأعمالٌ كثيرةٌ شاقةٌ لا يَقْوَى على القيام بها إلا من وهب الله عز وجل له أكمل قوة روحية وأتمَّ صحة بدنية . وقد استجاب الله السميع المنعم دعاءَ رسوله عليه الصلاة والسلام ، فله الحمد فى الأولى والآخرة وهو ذو الفضل العظيم .

وقد ذكر الله سبحانه فى مواضع من القرآن العظيم هذه التكاليف من العبادات والأعمال التى يقتضيها تبليغُ الرسالة ، فمن ذلك قوله جل ثناؤه : (يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱللَّيْلَ (٢) إِلَّا قَلِيلاً (٣) . نِصْفَهُ (٤) أَوِ ٱنْقُصْ (٥) مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ (٦) وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً . إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً . (٧) إِنَّ نَاشِئَةَ (٨) ٱللَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئاً (٩) وَأَقْوَمُ قِيلاً (١٠) . إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهارِ سَبْحًا (١١) طَوِيلًا . وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ (١٢) إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) وقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنْزِيلاً . فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً أَوْ كَفُوراً . وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (١٣) . وَمِنَ (١٤) ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ (١٥) لَيْلاً طَوِيلاً) .

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم سابقاً

---

(١) يأيها النبي المتلفف بثيابه حين مجيء الوحى له خوفا منه لهيبته . (٢) صل فيه .
(٣) الآية بعد تفسر المراد من القليل . (٤) تفسير للمراد من الليل . فيقوم النصف الثانى وينام النصف الاول . فالنصف الذى ينام فيه هو من معانى القليل فى قوله تعالى : (إلا قليلا) . (٥) أى من النصف نقصا تدريجيا حتى ينتهى الى الثلث . فيقوم الثلث وينام الثلثين . وهما من معانى القليل فى الاستثناء السابق .
(٦) أى على النصف زيادة تدريجية حتى ينتهى الى الثلثين . فيقوم الثلثين وينام الثلث . فيكون الثلث من معانى القليل أيضا فى الاستثناء المذكور . وسيأتى كل ذلك فى قوله تعالى بعد : (إن ربك يعلم أنك تقوم ادنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه) . (٧) شديدا لما فيه من التكاليف . (٨) القيام بعد النوم .
(٩) مواطأة وموافقة فان السمع حينئذ تعظم موافقته للقلب على تفهم القرآن . (١٠) أبين وأوضح قولا وأداء للقراءة . (١١) عملا كثيرا لتبليغ الرسالة لا تفرغ معه لتلاوة القرآن .
(١٢) انقطع اليه وتفرغ له فى العبادة . (١٣) يعنى الفجر والظهر والعصر . (١٤) يعنى المغرب والعشاء . (١٥) صل صلاة التطوع والتهجد كما تقدم من ثلثى الليل او نصفه او ثلثه .

علم الكهرباء

لما كان من أغراض المجلة التى أنشئت لها نشر المباحث العلمية ، وكان كثير من قرائها فى حاجة الى الاطلاع على بعض العلوم العصرية التى لها آثار عملية فى معيشتهم اليومية كان حقا عليها أن تقدم لهم نبذا من هذه العلوم بين آونة وأخرى ، حرصا على الاستفادة منها ، ونفيا للجهالة بها ، ودونهم فيما يلى نبذة من علم الكهرباء منقولة عن الانجليزية من كتاب لمؤلف امريكى وبالله التوفيق :

فى الجاذبية [1]

قد علم منذ عدة قرون أن بعض أصناف من الحجر المعدنى المعروف بالمغنيس فيه خاصة جذب القطع الصغيرة من الحديد والصلب ؛ وربما كان سبب تسميته بالمغنيس راجعا الى كثرة وجوده فى اقليم مغنيسيا من أعمال ولاية تساليا (ببلاد اليونان بآسية الصغرى) ولو أن الكاتب اللاتينى بلينى يقول إن كلمة مغنيت (جاذب) مشتقة من اسم الراعى اليونانى مغنيس ، وهو الذى لاحظ أثناء وجوده على جبل إيدا أن حجرا كبيرا جذب خطافه الحديدى . وقطع الحجر المعدنى التى تبدو فيها خاصة الجذب هذه للحديد والصلب تسمى بالجواذب الفطرية .

استعمال الجاذب فى تعيين الجهات الأربع :

وقد علم القدماء أيضا أن الجواذب الصناعية يمكن عملها بحك قطع من الصلب بالجواذب الفطرية . على أنه لم يكشف أن الجاذب اذا علق بخيط يتخذ له وضعا شماليا

---

(١) الجاذبية قوة من القوى الكونية لا تعرف ماهيتها بل تدرك آثارها . وإنما ابتدأ المؤلف بها لأن العلم بها يعتبر مقدمة لعلم الكهرباء ولان بينها وبين الكهرباء علاقة وثيقة ونسبا لاصقا .

وجنوبيا إلا فى القرن الثانى عشر (الميلاد المسيحى) وبسبب هذه الخاصة صارت الجواذب الفطرية معروفة بالأدلة الحجرية (Lodestones) كلمتان محرفتان عن (Leadingstones) وهما كلمتان انجليزيتان معناهما الحجارة الدالة . وأنشأت الجواذب سواء أكانت فطرية أم صناعية تستعمل فى تعيين الجهات ، وكان أول ذكر لاستعمال معين الجهات (بيت الابرة) فى أوربة سنة ١١٩٠ ميلادية ويظن أنها جلبت اليها من الصين .

الجواذب التى تحفظ خاصة الجذب زمنا طويلا يقال لها الجواذب المستمرة ، وتزداد مدة بقاء خاصة الجذب فى الجاذب الصناعى زيادة عظيمة بوضع قطعة من الحديد اللاين تسمى وقاية بين طرفيه السائبين .

عمل الجواذب الصناعية — طريقة المس المفرد :

يوجد عدة وسائل يمكن بها إيجاد الجواذب الصناعية — منها طريقة المس المفرد ، وهى عبارة عن دلك قطعة من الصلب من أحد طرفيها الى الطرف الآخر بقطب جاذب صناعى أو فطرى .

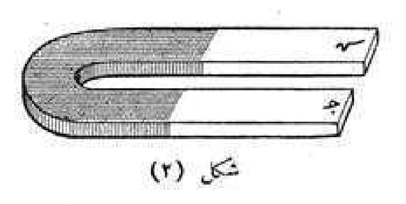
طريقة المس المقسم :

هذه الطريقة هى دلك قطعة من الصلب من وسطها الى أحد طرفيها بقطب أحد الجواذب الصناعية أو الفطرية ثم دلكها من الوسط الى طرفها الآخر بالقطب الثانى للجاذب كما فى الشكل رقم (١) .

شكل (١)

طريقة المس المزدوج :

يكون المس المزدوج بتطبيق قطبى جاذب على شكل نعل الفرس كليهما على قطعة من الصلب ، ثم تحريك الجاذب عدة مرات على طول هذه القطعة فى جهة واحدة أولا ثم فى الجهة الأخرى ثانيا كما فى الشكل رقم (٢).



شكل (٢)

ويمكن عمل الجواذب الصناعية أيضا بإمرار تيارات كهربائية حول قطعة من الحديد أو الصلب بكيفية ستشرح فيما بعد.

الصورة المبينة فى الشكل رقم (١) تسمى بالجاذب القضيبى ، والمبينة فى الشكل رقم (٢) تسمى بالجاذب النعلى .

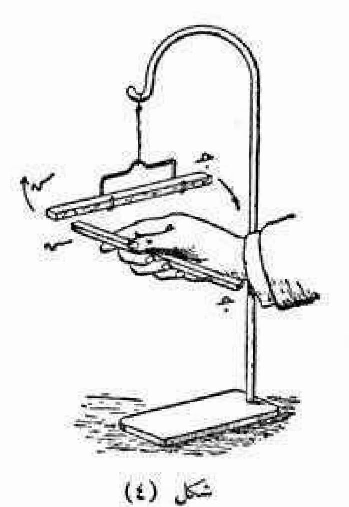
قطبا الجاذب — اذا غمر جاذب فى برادة الحديد لوحظ أن طوائف منها تتعلق بطرفيه ، ولا يكاد يوجد شىء منها قريبا من وسطه كما فى الشكل رقم (٣) .

شكل (٣)

فهذه الأماكن المجاورة لطرفى الجاذب التى يظهر أن قوته مستقرة فيها تسمى قطبيه ، وقد اصطلح على تسمية طرف الجاذب السائب المعلق المتجه نحو الشمال متطلب الشمال أو القطب الشمالى ويرمز له عادة بحرف ش ؛ وتسمية طرفه الآخر متطلب الجنوب أو القطب الجنوبى ويرمز له بحرف ج ، والجهة التى تتجه اليها إبرة الجاذب تسمى خط الطول الجذبى .

قوانين الجذب — اختلاف القطبين :

لم يلاحظ فى التجربة التى عملت على برادة الحديد فرق خاص بين عملى القطبين كليهما ؛ على أن بينهما فرقا يمكن إظهاره بتجربة تعمل على جاذبين يمكن تعليق أى واحد منهما كما فى الشكل رقم (٤) .



شكل (٤)

فاذا قرب قطبان شماليان أحدهما من

الآخر وجد أنهما يتدافعان ، وكذلك القطبان الجنوبيان يتدافعان اذا قرب أحدهما من الآخر ، ولكن اذا قرب القطب الشمالى لأحدهما من القطب الجنوبى للآخر ظهر أنه يجذبه ، ويمكن اختصار هاتين التجربتين فى قانون عام وهو أن أقطاب الجواذب التى من نوع واحد تتدافع ، والتى من نوعين مختلفين تتجاذب .

قوة الجذب أو الدفع :

ظهر من التجارب أن قوة الجذب مثل الثقل تختلف على عكس مربع البعد الذى بين القطبين ، أعنى أننا اذا فرقنا بينهما بمقدار ضعف البعد الذى كان بينهما نقصت القوة العاملة بينهما الى ربع مقدارها الأصلى ، فاذا فرقنا بينهما بمقدار ثلاثة أمثال البعد الأصلى نقصت القوة الى تُسع مقدارها الأصلى وهلم جرا .

واحد القوة فى قطب الجاذب :

واحد القوة فى قطب الجاذب هو مقدار من القوة بالغ حدا يكون فيه اذا وضع على بعد سنتيمتر واحد ($\frac{١٣}{٣٢}$ من الابهام) من قطب مماثل له ومساو له فى القوة دفعه بقوة داين[1] واحد ($\frac{١}{٢٧٨٠٠}$ من الأوقية) .

المواد الجاذبة :

المادتان الجاذبتان الشائعتان الوحيدتان هما الحديد والصلب ، وفى النيكل شىء قليل من الجذب اذا قرب منه جاذب قوى ، وثمة بعض مواد أخرى كالبزموت والانتيمون فيها خاصة التباعد بدلا من خاصة الانجذاب ، ولكن أثر هذه الخاصة قليل ، وهذه المواد نادرة الوجود ، وغالية الثمن وهى غير مستعملة غالبا .

---

(١) الداين فى اصطلاح علماء الطبيعة هو واحد القوة يعنى المقدار من القوة اللازمة لتحريك وزن جرام واحد مقدار سنتيمتر واحد فى ثانية واحدة .

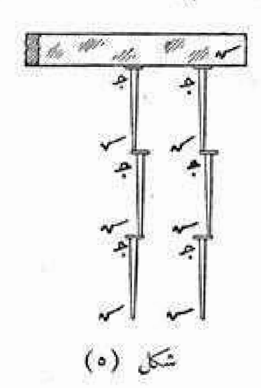
وقد يمكن اعتبار جميع المعادن الأخرى تقريبا فى عداد المعادن غير الجاذبة ، لأنها لا تعمل عمل الحديد والصلب اذا قربت من أحد الجواذب ، وأهم هـذه المعادن غير الجاذبة هى النحاس الأحمر والألومينيوم والنحاس الأصفر .

وكثير من المواد الأخرى كالهـواء والخشب والورق وكذا السوائل معـدودة ضمن المواد غير الجاذبة ، لأنها لا تتأثر بالجواذب ولا تنجذب بها ، على أن كثيرا من هذه المواد يستعمل عند الحاجة الى مادة غير جاذبة تكون غير معدنية .

التوصيل الجذبى

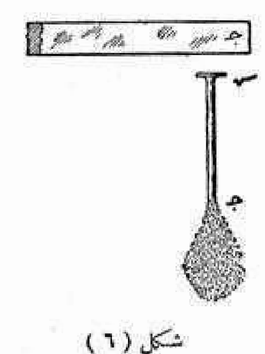
نقل الجاذبية بالتوصيل :

اذا علقت مسمارا خاليا من خاصة الجذب فى طرف جاذب قضيبي ظهر لك أنه يمكن أن يعلق به مسمار آخر لأنه يعمل عمل الجاذب ، ويمكن أن يعلق بالمسمار الثانى مسمار ثالث وهلم جرا كما هو مبين فى الشكل رقم (٥) فاذا نحى الجاذب القضيبي باحتراس عن المسمار الأول سقطت فى الحال جميع المسامير وانفصل بعضها عن بعض دالة بذلك على أنها إنما كانت جواذب قوية أثناء اتصالها بالجاذب القضيبي . وبهـذه الطريقة يمكن إيصال الجاذبية الوقتية الى أية قطعة من الحديد اللين بجعلها على اتصال بجاذب مستمر .



شكل (٥)

نعم إنه ليس من الضرورى أن يكون بينهما اتصال فعلى ، فانه اذا قرب مسمار من جاذب مستمر مجرد تقريب ظهر أنه يصير جاذبا ، ويمكن إثبات هذا بإمساك مسمار من أحد طرفيه ثم تعريض بعض برادة الحـديد لطرفه الآخر كما هو ظاهر فى الشكل رقم (٦) فاذا أبعد الجاذب



شكل (٦)

المستمر عن المسمار سقط معظم برادة الحديد فورا من طرفه، ودلك ذلك على أن اتصال خاصة الجذب به لم يكن إلا مؤقتا، وأنه ناشىء من مقاربته للجاذب المستمر . والجاذبية الحاصلة بهـذه الوسيلة من وجود جواذب مجاورة غير مماسة تسمى بالجاذبية الموصلة . فاذا اختبرت هذه الجاذبية التى فى المسمار المبين فى الشكل رقم (٦) بجاذب معين الجهات لوجد أن الطرف البعيد لقطبه الجنوبى الموصل له خاصة الجذب من نوع القطب الجنوبى الموصل لهذه الخاصة، على حين أن الطرف القريب لقطبه الشمالى يكون من نوع آخر، وهذا هو القانون العام لتوصيل الجاذبية .

وتوصيل الجاذبية يوضح لنا سبب كون الجاذب يجذب قطعة من الحـديد خالية من خاصة الجذب ، فانه يوجد الجذب أولا فى قطعة الحديد بالتوصيل ، وبذلك يوجد بالقرب من طرفيها قطبين، فطرفها القريب من قطب الجاذب يكون من طبيعة مخالفة لطبيعة القطب ، ولذلك ينجذب اليه ، وطرفها الآخر يكون من طبيعة مماثلة لطبيعة القطب الموصل للجاذب ، ولذلك ينبو عنه . وبما أن هذا القطب بعيد عن الجاذب يكون نبوه عنه معادلا للجذب الحاصل بين قطب الجاذب وبين القطب المجاور له الذى ليس من نوعه والذى يوصله للحديد، ومن أجل ذلك تكون نتيجة هذا التعادل أن ينجذب الحديد نحو الجاذب . وتوصيل الجاذبية يوضح لنا أيضا سبب تكون طوائف برادة الحديد حول طرف الجاذب القضيبى كما فى الشكل رقم (٣) فان كل قطعة صغيرة من البرادة تصير جاذبا وقتيا، لأن طرف كل منها المتجه نحو القطب الموصل للجاذب يكون من طبيعة مخالفة لطبيعة هذا القطب ، والطرف المتجه الى جهة مضادة له يكون من طبيعة مشابهة لقطب الجاذب الموصل ، ويرجع سبب ظهور البرادة فى شكل شجيرة العوسج الى الفعل الدفعى الذى يحدثه أقطابها السائبة الخارجية بعضها فى بعض .

قابلية تشرب القوة الجاذبة وقابلية امساكها :

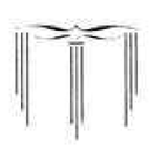
بعض المواد يصير أكثر جاذبية من البعض الآخر بتأثير قطب جاذب ذى قوة

معلومة ، فمثلا — اذا عرضت قطعة من الحديد اللين لقطب موصل لجاذب فانها تظهر من الجاذبية أكثر مما تظهره قطعة من الصلب اذا عرضت لنفس هذا القطب ، فدرجة انتقال الجاذبية الى مادة من المواد الناتج من قوة معلومة لقطب موصل تسمى قابلية التشرب .

والقطعة من الحديد اللين تصير بغاية السهولة جاذبا قويا ، ولكنها اذا نحيت عن تأثير الجاذب الموصل فقدت فعلا كل جاذبيتها . وأما القطعة من الصلب فانها لا تصير جاذبا بهذا المقدار من السهولة كقطعة الحديد اللين ، ولكنها تمسك من جاذبيته أكثر مما تمسكه هذه القطعة بعد تنحيتها عن تأثير الجاذب المستمر ، فقوة المقاومة لانتقال الجاذبية وللتخلى منها تسمى قابلية الإمساك .

وتقدر قابلية التشرب بمقدار انتقال الجاذبية الذى تستطيع مادة من المواد أن تتشربه بفعل قطب موصل لجاذب ذى قوة معلومة ، وأما قابلية الإمساك فتقدر بمقدار الحفظ الذى به تمسك الجاذبية الموصلة اذا نحى عمل القطب الجاذب ؟

عبد العزيز محمد



طريقـة حديثـة

لحفظ البيض من الفساد [1]

توصل الكيماويون فى مصلحة الزراعة بالولايات المتحدة الأمريكية الى طريقـة فنية جـديدة لحفظ البيض لمدد طويلة دون أن يتسرب اليه الفساد أو يفقد شيئا من قيمته ، إذ أنه قد ثبت أن الطريقة التى كانت تتبع فى حفظ البيض داخل مخازن باردة تفقده كثيرا من رطوبته كما أنه يتسرب منه جزء غير يسير من ثانى اكسيد الكربون وبذا تقـل قيمته ، فلوحظ فى المقاطعات الغربيـة أنه يمكن تلافى هـذه الخسائر بغمر البيض فى الزيت حتى تسد مسام القشرة .

وقد أدخل الكيماويون على هذه الطريقة تحسينا بأن جعلوا غمر البيض فى الزيت بداخل أوعية تحت تأثير ضغط بسيط ، فاذا ما أعيـد الى الضغط الجوى العـادى مع وجود ثانى اكسيد الكربون الذى يحاول أن ينفذ الى مسام القشرة فيفصل غشاء رقيقا جدا من طبقة الزيت تتكون منطقة مانعة جدا ضد الهواء تماما .

ولوحظ أنه اذا عولج البيض بهذه الطريقة لا يفقـد من وزنه أكثر من $\frac{١}{١٠٠٠}$ فى عشرة أشهر ، بينما يفقـد $\frac{١٦}{١٠٠٠}$ من وزنه اذا غمر فى الزيت دون مراعاة تخفيف الضغط ، ويفقد ما لا يقـل عن $\frac{٢٧}{١٠٠٠}$ من وزنه اذا لم يغمر فى الزيت بتاتا .

ولا يختلف طعم البيض فى هذه الحالة أى بعد مضى عشرة أشهر عن طعمه بعد يوم أو يومين من وضعه .

وأما الزيوت التى تستعمل فى هذه الطريقة فهى الزيوت المعدنية .

(١) نقلا عن مجلة « Umschau » الالمـانية .

الخطب المنبرية

بمسجد الامام الحسين

هى مجموعة الخطب التى ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السيد محمد على الببلاوى نقيب السادة الأشراف بالديار المصرية فى المسجد الحسينى ، وهى خطب قيمة نسج بها فضيلة الاستاذ على منوال الصدر الأول ، فتجافى فيها عن الاغراب ، وتوخى فيها السهولة ، وأخذ فيها بالألفاظ المألوفة ، والمعانى التى تصل الى قلوب السامعين من أقرب الطرق ، متحاميا الايجاز المخل ، والاسهاب الممل . طبعت هذه الخطب فى مطبعة دار الكتب المصرية على ورق جيد طبعا متقنا .

فنشكر فضيلته على هذا العمل النافع الجليل ، ونحث القراء على اقتناء هذه الخطب البايغة ، ولا سيما الوعاظ وخطباء المساجد . وهذه المجموعة تباع فى مكتبة الشيخ مصطفى الحلبى بشارع التبليطه ؟

المرجو من القارىء الكريم تصحيح الأخطاء الآتية :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٠	١٨	مطلقة عن التقيد	مطلقة عن التقييد
٣٥٤	١٥	لو كان رأى الوهابيون	لو كان رأى الوهابيين
٣٥٩	١٣	بالله أليست	يا لله أليست
٣٥٩	١٤	التى لم يسبقها إليه أحد	التى لم يسبقها إليها أحد
٣٦٥	١٤	هذا الربا الذى هو كان	هذا هو الربا الذى كان
٣٦٦	١٥	بالنواجز	بالنواجذ
٣٦٩	٧	يحتملها الفعل	يحتملها العقل
٣٦٩	٢١	أو كانوا لا يستندون	إذ كانوا لا يستندون
٣٧٠	١	فصوب	فنصوب
٣٧١	٢١	العليم فوق عباده	العليم القاهر فوق عباده

Islam forbids the betrayal of trusts, overeating to one's own discomfort and keeping up a quarrel among Moslems for more than three days after which they are to come to peace.

Contention, dissension and the neglect of one's own children and dependents are also forbidden.

Forbidden also is to strike anyone without lawful justification or to frighten him with arms; nay but Islam goes further still and forbids abuse or infliction of harm on any one until his guilt is definitely established.

It forbids the acceptance of government should the ruler know of his own incompetency to bear such a responsibility. It also forbids the appointment of the oppressor and the dissolute to any post in the state dealing with any of the Moslems' affairs, the deposition of the good and efficient and the non-attendance of the ruler to the exigent needs of his people either personally or through his viceregent.

Islam forbids the acceptance of any present profferred to the judge in charge of dispensing justice from any one except those who were in the habit of offring such before his appointment to the judgeship; also the acceptance of private hospitality.

Forbidden is the receiving of bribery from any one whether in the right or in the wrong, the payment of bribery by a wrong-doer, the intermediation in effecting bribery and the withholding of justice when able to establish it.

Forbidden also is the looking for the defects of people, the viewing of another's home without his permission even though by peeping through a hole, and eavesdropping to the discourse of people unknown to them.

It forbids intentional lying in order to thwart or spite one's enemy, association with the dissolute, disregard of penitence for sins committed or wrongs done to people.

It would be impossible to consider all the features of Islam and the corroboration thereof in the Koran and Tradition.

We trust however, that what we have pointed out of its salient features will suffice to give an idea of that glorious Religion and should it lead to the guidance of only a few, our trouble would not indeed have been taken in vain and our effort would be more than amply repaid.

It forbids the non-fulfilment of covenant, breach of promise and betrayal of trust, artifice and deceit, and tale bearing which incites people to contention.

It forbids misconduct which result in utter confusion and complete loss to trace the true lineage of families, and deception of others as to the descent of the illigitimate issue, inheriting wealth to those who have no right to it and lastly the inevitable perdition of the natural child through the lack of care and affection.

Not only has Islam forbidden misconduct, but it goes further still and forbids the mere contact with a strange woman and retirement into seclusion with her for such is conducive thereto.

Islam forbids the imitation by one sex of the other. Man and woman should remain true to their respective sexes; the former retaining his manliness and the latter her femininity.

It forbids celibacy unto those who have no justifiable reason to remain unmarried as such abstention is subversive to the divine order of things.

Forbidden also is the repression of woman marrying her equal, the divulgation by man or wife of each other's secrets and the abstinence from intoxicants for he who comes under the influence of drink, will readily commit any sin or perpetrate any heinous crime. Should there be, as is maintained, any advantage accruing from drink, it is by no means equal to its pernicious effect. Medical men have now fully expounded the great harm and distressing afflictions with which it affects the human race. The Tradition « الخمر أم الخبائث »

Meaning: "Wine is the mother of evil" is thus fully born out.

Islam forbids gambling which is conducive to the loss of wealth and ruination of man's home and happiness. Among other inhibitions, the Moslem religion forbids cheating people of the just measure or weight, procrastination on the part of the rich to settle his debts when such are due and the expending of money in unlawful pursuits

It forbids the infliction of any harm on the neighbour, larceny, usurpation and usury.

Forbidden also is the betryal of one's partner, the employment of a lent article for a purpose other than that is was lent for without the owner's permission.

It forbids the deferment of the labourer's wage or withholding thereof after his work is done, the prevention of people from the exercise of their civic rights be it public or private, using a private road without the owner's permission or a public road to the danger of others.

Rashness, levity, obstinacy, pertinacious contention of truth and denial thereof after learning of it are also forbidden.

It further forbids violence, greediness, sluggishness, persistence in sin, supporting falsehood and zeal for a religion other than God's. It forbids despair in God's mercy, the love of oppressors and dissolute people and rancour against the pious, as well as inclemency which keeps one from rendering succour to those in hardships.

It forbids calumny and aspersion, vain talk and gossip, the divulgation of secrets and the ridicule, derision and slight of people.

Forbidden also are cursing, defamation and reviling of others and the use of plain words in the expression of offensive and coarse matters, as well as disparaging people's descent and lineage.

Islam forbids constant dispute and pertinacious hostility, the discussion of falsehood and hypocrisy. Also mendicancy to any one not reduced thereto.

It further forbids abuse, rudeness, violence, inquisitiveness and looking for the defects of people.

Forbidden is the offering of prayers for the oppressor soliciting the continuation of his rule, to address people in nicknames distasteful to them, to swear by none except God and to use frequently His hallowed name even though in statement of truth.

Islam forbids the interpretation of the Koran by none other than trustworthy masters of erudition, the interruption of other people's discourse unnecessarily, the directing of people to thé ways of sin and exorbitant joking which culminates in evil.

It forbides the discussion of other people's affairs, the alienation of the wife from her husband, the withholding of evidence and declining to bear witness to the truth.

Forbidden also is perjury, slander of unsuspecting chaste women, defamation of the dead, witholding of knowledge, intentional imputation of falsehood to God and His Apostle and the utterance of such words as may cause dissension and engender ill-feeling in the hearts of men.

Islam forbids insolence and profanity, ostentanious vaunting in granting charity, thanklessness for favours done by others and the ommission, on the part of the sick, to acknowledge his debts.

Forbidden also is the defilement of people's honour and reputation, the relation of one's self to an ancestry other than his own and the neglect of enjoining good and forbidding evil.

Islam forbids slander *i.e.* to speak detrimentally of your fellow-beings, which lapse is of frequent occurrence and is most conducive to harm.

Nor was the acquirement of knowledge left out of Islam. It ordained that man should acquaint himself with a measure of knowledge requisite for the amendment of beliefs, manners and conduct and amelioration of life's conditions.

It enjoins piety which constitutes the refrainment from any pernicious act prejudicing one's chances in this world or the hereafter, loyalty and fidelity unto God and the good performance of worship as signified by the Tradition :

« اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك »

meaning : " Worship God as if you were to behold Him, for if thou canst behold Him, He doth. "

It enjoins good counsel to mankind and the practice of patience and resignation to the will of God.

It enjoins propriety of conduct, forbearance and satisfaction in the doing of good, as well as liberality, magnanimity, courage, zeal and manliness.

It enjoins prudence, judiciousness in judgment, thankfulness and fear of the almighty God and faith and resignation unto Him. It further enjoins mercy and compassion on mankind, honesty and integrity, fulfilment of covenant and promise, good faith and labour for one's living, toleration, hastening to the doing of good and unwavering determination in upholding the tenets of Religion. It enjoins the love of God, the courting of His favour and reliance upon Him. Modesty, piety, uprightness, magninamity, urbanity and probity which constitutes the earning of one's livelihood in an unimpeachable way, are all also enjoined as well as the suppression of passion, awe and humility unto God. Lastly to shake off the human soul the dire influence of desire and bring it to account for the wrongs perpetrated thereby thus purging it of all defects and imperfections from which it suffers.



We proceed now to consider some of the inhibitions of Islam.

The Moslem Religion forbids disbelief and theocrasy, dissoluteness and disobedience of God's commandments, passion and hypocrisy, malice and arrogance, vanity and envy, gloating over people's misfortunes and recklessness or assailing what one is not equal to.

It forbids unjustifiable pessimism, greed and nigardliness, prodigality and extravagance, indolence and inactivity and precipitancy in resolving matter.

It forbids harshness and ruthlessness, impudence and insolence, discontent and ingratitude, rancour against learned people and blasphemy of God, as well as disregard of his wrath and punishment, regret over lost opportunities and wavering in worldly and spiritual affairs.

The creed ordained by Islam has thus rendered man great and self-respecting and caused his heart to feel pride and exaltation. And no wonder it should be so when man realises that such attributes as greatness, majesty and grandeur could only pertain to the one omnipotent and all-pervading Lord, and that all others are mere subordinate creatures seeking His pleasures.

One of the great injunctions of Islam, is to shield the failings of your fellow-Moslems and to keep away from the places of suspicions lest they be tempted unto evil thought and slander.

Islam requires you to do favours unto your fellow-Moslems even by mere intercession or recommendation.

Another significant commandment of Islam, is to hasten to greet and shake hands with any Moslem so that the credit of a good act will be yours.

Another commandment is to stand up for your friend in his absence and to defend, by word and deed, his honour and property.

Yet another commandment is to commiserate with your fellow-Moslems in their afflictions; to call on their patients, attend their funerals, visit their graves and offer prayers for the salvation of their souls.

Islam enjoins justice unto all people and to wish them the same as you wish for your own self; high position, security, health, good reputation and prosperity.

It ordained prayers in gratitude and thankfulness to the beneficent bestower, fasting which leads to the elevation of minds and purification of souls and alms-giving which constitutes the allotment to the poor of one fortieth or two and half per cent of the capital per year in courting of God's favour and people's devotion.

Nor were the other forms of charity left out in Islam. The giving unto the kindred what they stand in need of, benevolence unto the parents and help unto the poor were all equally ordained. On the whole Islam enjoined good manners and noble conduct and to labour in this world wherby you may seek the hereafter.

It is for this reason that Islam enjoined to resist our own inclinations so that we may be of the elect abiding in the Kingdom of Heaven and that we may attain blessedness in this world and the hereafter. It points out that our worst enemies are misguidance, injustice, oppression and dissoluteness in any form they may assume, even in our own selves.

Islam enjoins mercy and benevolence unto mankind and kindly treatment thereof, to seek their benefit and afford them opportunities of gain and prosperity; and above all to ward off any evil befalling them.

In short it enjoined kindness, charity, faithfulness, kindly treatment of the neighbour, wayfarer, and guest and lastly kindness to animals.

The sense of justice and fair play would perhaps, have moved you by now to appreciate the saying of the Prophet of Islam:

« بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

meaning: " I have been sent unto mankind to perfect the traits of noble conduct";

and the Lord's saying in reference to the Koran :

« وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

" It is an incomparable book which yield to no abrogation or distortion and unto which no falsehood could find a way from whatever side, be it of the past or future events mentioned therein. It is a missive from the Wise Lord to whom praise is due for the bounties He bestowed upon mankind. "

(Baidawy's Commentary.)

***

We will now proceed to consider some of the injunctions of Islam.

Islam requires you to be self-respecting enough not to degrade yourself into imitation of the beasts below you; to be great enough not to be a slave to your passion and desires; and to be proud enough not to glorify anyone save thy Lord.

Islam enjoins you to seek the pleasure of God and the approval of the pure and pious in all your actions, so that you may become the viceregent of thy Lord and acknowledge no favours except those bestowed by Him.

It requires you to feel that you are an active and benificent member of society who disdains to imitate or be dependent on others or be outrivalled by them in any virtue.

It enjoins you to seek exaltation in God and humility unto Him. It requires you to use your mind and senses in whatever useful avocation that has fallen to your lot, and to fear none but God as long as you practice what He ordained.

Islam enjoins the belief in monotheism for which the mind accept no other substitute and without which the hearts of men will find no comfort or peace.

All are humble unto God, mere subordinate creatures and the most favoured unto Him are the pious who adhere to His commandments.

It would take a very long discourse indeed should we continue to discuss all the moral and material features which Islam embraced. We may, however recount later some of the excellent features of prayer and other rites of Islam. Suffice it to say that ablution is now admitted on all hands to be beneficial for many diseases particularly those of the nose. The thrice rinsing of the mouth and the constant use of the tooth brush requisite for the health and good care of the teeth and sweetening of breath was strongly insisted upon, particularly after sleep, so much so that the Prophet well nigh made it a religious injunction.

No less healthy and clean is the practice of frequently washing the feet for the prevention of any odour emanating therefrom should they be left a long time without being washed.

As such and other features of Islam become known to the world, many have taken up the cudgels for Islam in complete satisfaction and admiration thereof. They were convinced that the true Moslem Religion utterly renounces many of the obnoxious practices of the so-called Moslems of to-day.

Were it for those radical reforms alone which were introduced within a short period and which non-Moslems failed to discover for centuries, the Moslem Religion should be accorded the highest honours by the just and discerning critic.

It should be remembered that this field of discussion is far too wide to be covered with any tolerable measure of detail and that I could only express very little of what I feel which in turn, is but an iota of those comprehensive and all-pervading tenets of Islam.

The following verse is significant in this connection:

» قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا «

"Were men and Djinn, those supernatural beings who have the power to perform wonders, assemble to produce something equal to the Koran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it though they may include in their numbers the purest Arabs of the progeny of Ishmael who are masters of rhetoric and oratory. Nay but they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can."

(Alucy's Commentary.)

ENGLISH SUPPLEMENT OF

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوى

ISLAM

THE IDEAL RELIGION.[1]

(Continued).

Islam directed mankind to the path of goodliness and pointed out the worldly advantages accruing therefrom as signified by the Tradition :

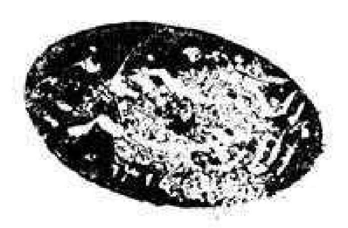
« من وصل رحمه زيد له فى عمره ووسع عليه فى رزقه »

meaning: "Whoso giveth unto his kindred, will his life be blest and his prosperity augmented."

One of the most excellent tenets enjoined by Islam, is to feel, in the performance of worship, entire submission to the sublime majesty of God and complete awe and veneration to His grandeur and glory, for such will act as a deterrent against committing sin and cause the soul to revert to its initial purity. Also to impress upon you that you have a spiritual entity apart from your worldly one, and that you should not seek the world so eagearly to the exclusion of all else for by so doing you will engage in protracted contention with people and will only earn their hatred and animosity.

The material world should have as little fascination as possible for you and should not exercise more than a cursory influence over your heart; for only thus will you relish the taste of happiness and content and enjoy the love and good-will of people.

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh YOUSSEF EL-DIGWY's Book: "*Messages of Peace.*"



قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم •



نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء السادس	جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة



المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقا
ومن أعضاء مجلس الازهر الاعلى (

رئيس التحرير

السيد



من علماء الازهر



الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : بستان ٣٥٠٧

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصرى	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصرى	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

التعليم الديني
في مدارس الحكومة

يشعر كل من يطلع على ما ينشر في الصحف ، أو يشهد مجالس طوائف من الناس مختلفة أن انحرافا غريبا طرأ على الأخلاق ، وأخذ يدب في نفوس النشء دبيب السم الناقع في جسم السليم ، ويمتاز هذا الانحراف بأنه ناشئ عن زيغ العقيدة ، لا عن مجرد الأهواء الغالبة ، وزيغ العقيدة مصدر الأخلاق المرذولة في كل حين ، إلا أن الدعاية الى القبائح لم تبلغ في علانيتها ما بلغته اليوم ، ألم يبلغ الحال أن ينادي المنادي مثلا — الى ما يمزق رداء العفاف والكرامة مخادعا الشباب باسم الحرية أو الفن الجميل ، ولا جمال إلا مع الفضيلة ، ولا حرية إلا لمن يلقى الناس بعرض سليم ! .

والانحراف الناشئ عن زيغ العقيدة أصعب علاجا من الانحراف الناشئ عن طغيان الشهوات ، فإن زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب ، بزعم أنها ليست من الحسن في شيء ، ويخرج عن حدود المكارم بدعوى أن هذه الحدود رسمت على غير حكمة .

والمغلوب للشهوة وحدها قد ينصرف عن الحسنة معترفا بأنه أقبل على سيئة ، وينتهك حرمة الحق غير منازع في أنه ارتكب جرما ، واذا احتجت في تهذيب أخلاق الأول الى إصلاح عقيدته بالحجة ، فإنه يكفيك في تقويم أخلاق هذا شيء من الموعظة ،

وتأثير الموعظة فى زجر من يعرف الحق حقا، والباطل باطلا، أيسر من تأثير الحجة فيمن يبصر الباطل حقا، أو الحق باطلا .

وقد يندى جبين المغلوب لأهوائه اذا أنّبته، ويعرف لك فضل النصيحة اذا ذكَّرته، أما زائغ العقيدة فإنه يحمل بين حاجبيه وناصيته ما هو أشد قسوة من الحجارة ويرى إرشادك له لغوا فى القول، فلا يعيرك فؤادا صاغيا إلا أن تبقى فيه للإنصاف وحرية النظر بقية .

ولا مرية فى أن انحراف الزائغين أظهر فسادا وأشد فتنة من انحراف الشاعرين بقبح ما يفعلون، فإن الزائغ يندفع فيما لا يليق إلا أن يرهب قانونا حازما، ولا يبالى أن يبصر به من لا يملك للقانون نفاذا، أما الشاعر بقبح ما سيفعل فشأنه أن يجتهد فى التستر عن أعين الناس حتى فى حال أمنه من أن يناله القانون بأذى، فاذا قست الجاحد بأمثاله فى التعلم أو الأمية، وجدت لخروجه عن مكارم الأخلاق مواطن أكثر، ومشاهد أظهر، فتكون جنايته فى الناس أكبر وأفظع، فلا شبهة فى أن إصلاح العقائد أساس لتهذيب الأخلاق، وأن الأخلاق الكريمة لا تستقيم إلا على العقيدة السليمة .

لم يتفش زيغ العقيدة فيما سلف تفشيه اليوم، لأن وسائل ساعدت على سريان وبائه لم توجد قبل، وأمهات هذه الوسائل ثلاثة أمور :

(أحدها) هذه المدارس التى يفتحها الأجانب فى أوطاننا باسم العلم، ويغفل بعض المسلمين عن سريرتها، فتأخذهم بظاهرها، حتى يسلموا أطفالهم وهم على الفطرة الى من يصبغ هذه الفطر بسواد، وينزع منها روح الأدب الذى يجعلهم أولياء لعشيرتهم نصحاء لأمتهم .

(ثانيها) تهاون بعض الآباء بواجب أبنائهم، إذ يرسلون الناشئ الى معاهد العلم بأوربا قبل أن يتلقن من علوم الدين ما يجعل عقيدته مطمئنة، فيلاقى فى أثناء الدراسة

هنالك أو فى بعض الحادثات شُبها لا يجد فى نفسه من الحجج ما يدفعها ، واذا تواردت الشبه على الناشئ رانت على قلبه ، وأصبح يبصر وجه الحق أسود قاتما ، فيعود الى وطنه وهو يحمل لأبويه عقيدة أنهما فى ضلال قديم ، وذلك جزاء من يستهين بهدى الله ولا يهمه إلا أن يكون لابنه مورد رزق واسع ، أو منصب فى أحد الدواوين وجيه .

(ثالثها) أن كثيرا من الحكومات الاسلامية ضعف فيها روح الاعتزاز بالدين الحنيف ، فاستباح واضعو برامج التعليم العام فى مدارسها أن لا يضربوا لعلوم الدين بسهم ، ومن يضرب لها ، فبسهم لا يغنى من جهل ، والتعليم الذى يهضم فيه جانب العلوم الدينية ، لا يرجى منه تهيئة نشء تتساقط عليهم الشبه فيطردونها ، أو توسوس اليهم الشياطين فيستعيذون منها .

واذا كان سوء الأخلاق الذى هو علة اختلال النظام ، ينشأ من زيغ العقيدة تارة ، ومن طغيان الشهوات تارة أخرى ، فإن الاسلام دين ينير العقول بالحجة ، ويهذب النفوس بالحكمة ، وكم أخرجت مدارسه أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها ، ويجارون الرياح فيسبقونها ، يخفضون أجنحتهم تواضعا للمستضعفين ، ويرفعون رءوسهم عزة على الجبارين ، تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها ، وتعتل قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها ، عدل كأنه القسطاس المستقيم ، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم ، وجدّ فى طلب العلم وإن كان بمناط الثريا ، وطموح الى المعالى وإن انتبذت وراء الفلك الدوار مكانا قصيا ، الى ما يشا كل هذا من الخصال التى ترفع بعض الأمم على بعضٍ درجات .

والأمة فى حاجة الى نشء ترتبط قلوبهم بالتعاطف ، وتمتلىء صدورهم بالغيرة على حقوق الوطن ، والإخلاص فى كفاح من يروم اغتصابها ، والدين يفجّر ينبوع التعاطف ، ويجعل الغيرة على الحقوق حامية ، ويبعث فى النفوس إخلاصا تسقط أمامه المنافع الخاصة جملة .

والتاريخ يملأ آذاننا بأسماء رجال أحرزوا بعلمهم الزاخر مكانة تكفيهم لأن يعيشوا بين الناس فى هناءة وإجلال ، ولكن ما يبذره الدين فى نفوسهم من غيرة وإخلاص يأبى لهم أن يقضوا حياتهم بين جدران المدارس أو المساجد دون أن ينفقوا منها فى تعرف الشئون العامة والجهاد فى نجاة الأمة قسطا وافرا ، ولو أخذنا نضرب الأمثال على أن التعليم الدينى يطبع النفوس على خصال الشرف ، ويملؤها هما لا تقف عند حد ، وغيرة لا تلهو عن حق ، لملأنا صحفا كثيرة أو أسفارا ، ولكن المقام للتذكرة ، ومن مقامات التذكرة ما يغنى فيه الإيجاز عن الإسهاب .

واذا رأينا فى بعض المتلقين لعلوم الدين عوجا ، فتلك سنة الله فى الخليقة أن لا تخلص الطوائف الكثيرة من أفراد يشربون بكأسها ، ويظهرون فى زيها ، ثم هم يشذون عنها ، ويسيرون فى غير وجهتها ، لعوارض تجد فى نفوسهم من الاستعداد للهو أكثر من الاستعداد للجد ، ويكفى شاهدا على استقامة الطريق أن يبلغ أكثر سالكيه غاية الفلاح ، فإن قعد فى منتصفه ذو همة خامدة ، أو التوى عنه ذو هوى غالب ، فالطريق لا يزال طريق رشد وفلاح ، والوزر على رقبة من قعد فى منتصفه لاهيا ، أو التوى عنه قبل أن يدرك من الاهتداء به حظا كافيا .

فسماحة الدين وما له من الأثر الخطير فى إعداد أمة روحها البطولة ، وزينتها التقوى ، وغايتها السيادة ، من أشد ما يبعث أولى الأمر منا على أن يضعوا علوم الدين بالمكانة العليا ، ويقرروا لها فى جميع المدارس وفى كل سنى الدراسة ما فيه الكفاية .

ومما يقضى عليهم بأن يعنوا بها عناية ضافية أن الأمة مسلمة ، والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبناؤها مطمئنين بحجج الدين الحنيف ، سائرين فى ضوء حكمته الغراء ، فمن سلك فى تعليم أبنائها طريقا لا يأتى بهم على هذه الحجج ، ولا يدخل بهم فى نهار من ضوء هذه الحكمة ، فقد تصرف فى شئونها تصرف من لا يرعى ذمتها ،

ولا يحترم وكالته على أمرها ، واذا وجد فى الناس من لا يؤلمه أن يكون ولده فى ظلام من الغى ، فأمثال هؤلاء على قلتهم طائفة استهواهم زخرف الحياة غرورا ، ولم يهتدوا الى خير أبنائهم سبيلا ، وما كان للحكومة الرشيدة إلا أن تقيم سياستها على رعاية ما فيه خير النشء ، وما يرتضيه أهل العلم والعقل ، ويكون قسط تلك الطائفة من هذه السياسة تقويم عوجهم ، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، وإذ أهملت التعليم الدينى حكومة باض الإلحاد فى أدمغة رؤسائها وفرّخ ، فأعلنوا فسوقهم عن الدين فى غير استحياء ، فإن حكومة يكون على رأسها ملك يعتز عرشه الرفيع بعزة الدين الحنيف ، وينص فى دستورها على أن دينها الرسمى الاسلام ، لجديرة بأن يكون للتعليم الدينى فى مدارسها شأن لا يقل عن شأن غيره من العلوم النافعة فى الحياة .

ولا يكفى فى تعليم الدين أن تكون له جامعة كالأزهر وما يتصل به من معاهد ، فإن قصره على الأزهر والمعاهد الدينية يجعل تربيته العالية فى طائفة من الناس خاصة ، والخير فى أن تكون روح الدين سارية فى نفوس الأمة قاطبة ، وبثُّها فى جميع الأفراد مدعاة الى الائتلاف والاتحاد الذى هو أساس كل نهضة ، وكل عمل اجتماعى يقام على غير هذا الأساس ، فمنقلب الى فساد .

ولو كان التعليم الدينى آخذا حقه فى جميع مدارسنا ، لم ير الناس ما يرونه من التجافى بين أفراد نشئوا فى مدارس دينية ، وآخرين نشئوا فى مدارس ليس للدين فيها من نصيب ، ولا منشأ لهذا التجافى إلا بُعد مابين النشأتين ، وإدخال العلوم الحديثة فى المعاهد الدينية يذهب بجانب من هذا التجافى ، فاذا عنيت وزارة المعارف بدراسة علوم الدين درسا جديًا ، اتحد أبناؤنا فى أصل التربية ، فيكون فضل المعاهد الدينية والمدارس الرسمية على الشرق فى إخراجهما نشئا يتقارب شعورهم وتتدانى عواطفهم ، فيتسابقون إلى أعباء الحياة بكواهل ملتئمة ، ويرمون فى وجوه العظائم عن قوس واحدة .

لا يغيب عنا أن فى بعض الأمم التى لا تعنى وزارات معارفها بدرس علوم الدين شيئا من خصال الكمال ، ونقول مع هذا : إن الأمم التى يقوم تعليمها على روح دينية قوية تبلغ من العظمة ما لا تبلغه أمة تساويها فى غير هذه الروح من وسائل الحياة .

فاذا تقدمت فرنسا — مثلا — على بعض الشعوب الشرقية ، وكانت أبسط منه سلطانا وأنعم بالا ، فإنما فضلته بالقوة المادية ، ثم بجانب من الأخلاق التى ينتظم بها شأن الاجتماع فى بلادها ، ويجعلها قوية أمام خصومها ، ولو جاراها ذلك الشعب الشرقى فى وسائل الحياة المادية ، واستنار فى تقويم أخلاقه بحكمة الدين ، لكان أسعد منها حالا ، وأرسخ فى السيادة قدما ، وأعلى يوم ينادى المنادى علما .

وليس فى إعطاء علوم الدين بمدارس الحكومة حقها ما يجحف بحق دراسة العلوم الأخرى ، لأنا لا نرجو من وزارة المعارف أن تغذى التلاميذ من علوم الدين بمقدار ما يتغذى به طلاب العلم بالمعاهد الدينية ، وإنما نرجو منها أن تقرر من هذه العلوم ما يستنير به التلميذ فى كل سنة من سنى الدراسة ، وتجعله مادة أساسية فى امتحانى النقل والشهادة ، وأن تسن لهذه العلوم مناهج حكيمة ، ولا تغمض فى كفاية من يعهد اليهم بتدريسها .

وقد دلنا التاريخ والمشاهدات على أن وزارات المعارف فى بعض الشعوب الاسلامية ، قد تستخف بالتعليم الدينى متى ألقى أمرها الى من نشأ فى غفلة عن آداب الدين ، وقصر فى السياسة شأوه ، فليس له بصيرة يحس بها فضل الدين ومحاسنه ، ولا بُعد نظر فى السياسة يفقه به أن خير ما تُتأالف به الأمم الاسلامية رعاية دينها ، وجعلُه روحا فى تربية أبنائها ، ومن أشد ما تبلى به المصالح العامة أن يصرّفها من لا يدرى كنهها ولا يتدبر العواقب فى تصريفها ، واذا انتهز أولئك الخاطئون غفلة الأمة فرصة لاهتضام حق الدين فى التعليم والتربية ، فإنها اليوم فى يقظة تميز بها المهوّشين من المصلحين ،

فتقابل المهوش بامتعاض وتنديد ، وتلاقى المصلح بإقبال وتأييد ، ورجاؤنا فى حضرة صاحب المعالى وزير المعارف أن يكون الرجل الذى يؤثر إقبال الأمة على امتعاضها ، وتأييدها على تنديدها ، بل صلاحها على فسادها ، وسعادتها على شقوتها ، فيوفى للتعليم الدينى حقه ، حتى تصبح مدارسنا منبع العلم ومطلع الهداية .

ومن فائدة الشرق أن تكون له عاصمة تلتقى فيها آراء المصلحين ، ويتدفق منها الشعور السامى الى سائر الأقطار ، وموقع مصر فى البلاد يستدعى أن تكون مصر هى ماتتق تلك الآراء ، ومصدر ذلك الشعور ، ولا يكفيها لهذه الزعامة أنهارها التى تجرى من تحتها ، والعلوم والفنون المائلة ما بين جوانبها ، وإنما تحن لها القلوب ، وتمتلىء بمهابتها العيون اذا أضافت الى هذه الأنهار والمدارس تربية دينية عامة ، حتى يقول كل زائر لها فاضل — مثل ما قال العلامة أبو عبد الله المقرى — حين زارها وعاد الى المغرب فى أثناء المائة الثامنة « من لم ير مصر لم ير عز الإسلام » ؟

محمد الخضر حسين

الطرف والملح

وقف أعرابىّ على رجل يستجديه فقال : إنى امتطيتُ إليك الرَّجاء ، وسرتُ على الأمل ، ووفدتُ بالشكر ، وتوسلتُ بحسن الظن ، فحقِّقِ الأملَ ، وأحسنِ المَثُوبَةَ وأَقِمِ الأَوَدَ ، وعجِّل السَّراح .



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

مقدمة

قد ثبت بالدليل القاطع حكمة الخالق عز وجل ، ودلتنا أسراره التى أودعها فى مخلوقاته على علمه الذى لايتناهى وحكمته التى لا تحيط بها العقول ، ويمكنك أن تتعرف ذلك من نفسك بما أودع فيك من رئتين للتنفس وأسنان للطحن ومعدة للهضم وكبد لإفراز الصفراء وكليتين لإفراز البول ومسام جلدية لإفراز العرق ومخ للإدراك ، وما نظمه فيك من شرايين وأوردة وعصب وعضل وعظم وكرات بيضاء وكرات حمراء ، ومن أعين تبصر بها وآذان تسمع بها ، الى آخر الحواس الخمس ، الى غير ذلك مما لا يأتى عليه العد ولا يفى به البيان ، وكل ذلك لغايات جليلة أدهشت العلماء وحيرت الباحثين . ثم انظر بعد ذلك ما أودعه فى العالم من نبات وحيوان وهواء وماء وأرض وسماء وما فى ذلك من أسرار باهرة وحكم عالية ، كل ذلك يدلنا دلالة قطعية على أنه العليم الحكيم والقادر العظيم فضلا عما يمليه علينا الإيمان بماجاءت به الرسل الإلهية والكتب السماوية من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فاذا رأيت مثلا — عالما محروما وجاهلا مرزوقا أو فاجرا معافى يمرح كما يشاء وصالحا قد أحاطت به أنواع البلاء الى آخره الى آخره ولم ينفذ نظرك المقصور على الظواهر الى إدراك سر ذلك ولم تعرف الحكمة فيه أوجب

عليك الدليل القاطع أن تثبت العجز عن معرفة الحكمة الى نفسك لا أن تشك فى حكمة الحكيم عز وجل .

وإنى ألفت نظرك الى أن طلب لمية الأفعال والبحث عن علتها موجب للشرك والكفر، لأن العقول البشرية قاصرة عن إدراك حكمة الله فى مخلوقاته (وما كفر المانوية والثانوية إلا بخوضهم فى مثل ذلك) فلما حكموا عقولهم الضعيفة وآراءهم الفاسدة قالوا إن للعالم إلهين إلهاً للخير وإلهاً للشر لأن إله الخير لا يكون مصدرا للشر وإله الشر لا يكون محلا للخير ، وقد غفلوا عن أن الحكمة الإلهية لا يحيط بها محيط وأن الشر قد يستتبع الخير ، وقد يكون وجود الشر الجزءى واجبا فى نظر الحكمة ، وأن المراعى فى ذلك هو النظام العام لا خصوص الأشخاص وأعيان الجزئيات ، ولم يفطنوا الى كون الشر فى الخير ولا إلى أن الشر قد يكون شراً فى نظرهم لا فى الواقع (وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) هذا .

واعلم أن تفسير العلماء خصوصا الأشاعرة فى هذه الآية يرجع الى أن المالك يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، ولا بد أن يدور بنفسك عند ما تسمع ذلك حديث طويل وإن كنت لا تجرؤ على إظهاره فتسكت أمامهم مقتنعاً بما حدثوك به فيما يظهر منك ، وأما باطنك فيكون فيه من المحاورات والمنازعات ما لا تطمئن معه نفسك ولا يسكن له جأشك ، وقد قال لى بعض العصريين : هذا يمكن أن يكون جوابا عن الملوك المستبدين وما يفعلونه مع رعاياهم ، فأرشدته الى ما اقتنع به واستحسنه جدا ، وإنه لحسن فيما أراه والفضل لله ، وإنى أعلم أنك تارة يشرق قلبك بما يفاض عليه من نور سماء روحك فتعجب به كل الإعجاب ، وتارة تنزل الى أرض طبيعتك الكثيفة التى لا يمكن دوائرها أن تمسك تلك المعانى السيالة ولا يتأتى أن تنتقش تلك العلوم اللطيفة فى تلك

الأرض الكثيفة ، ولا أن يزن ميزان أحجارها تلك الأسرار لمزيد رقتها ، وعند ذلك يلزمك أن لا تذهب الى تلك الأرض إلا وبيدك معول البراهين الكثيفة حتى تستطيع أن تؤثر فى أحجارها — أيدك الله .

ذكر احتمالات قريبة فى الآية

أقدم لك ههنا فى بيان المراد من الآية مايقرب تناوله ويطيب جناه ثم نتبعه بشرح ذلك السر الذى نوهنا عنه إن شاء الله :

يمكنك أن تقول إن المراد تقرير كونه تعالى حكيما بالغ الحكمة فلا يسأل عما يفعل ، ثقة بحكمته بحيث لا يصح أن يرتاب فيما يفعل ولا يتهم فيما يحكم ، فإن قولك لم فعلت يشعر بتهمة وريبة ، فيريد الحق تعالى أن يكون عبده ممتلئ القلب بالعلم بحكمته ، فائض النفس باعتقاد رحمته ، فيكون غارقا فى التسليم له والتفويض اليه ، فلا تتحرك نفسه مع تلك العقيدة بسؤال ولا يلم بها أدنى خيال .

ياحاكمى وحكيمى أفعالك الكل حكمة

وكان كثيراً ما يقول بعض العارفين : « إذا كنت لا تعرف الحكمة فقلد من يعرف الحكمة » .

وكم رمت أمراً خِرْتَ لى فى انصرافه فلا زلت بى منى أبر وأرحما

أو تقول إن المراد تقرير العظمة ، وأن الالهية بحيث يجب لنعوتها العليا أن لا يَجْرُؤ على سؤالها أحد لا من حيث إنها تعمل عمل المستبدين من السفهاء وأرباب الأهواء ، بل من حيث إنه يجب لعظمتها التلاشى والاضمحلال والقيام بأجل آداب العبودية ، أما تراك — أيدك الله — تستقبح من عبدك بل خادمك أن يسألك عن وجه ما فعلت وسر ما قضيت ، وتعتبر ذلك من سمات عدم الوثوق بك أو الجراءة عليك أو الريبة فيك أو عدم الحياء منك ، وأن واجب العبودية الانقياد والامتثال ، ثقة بحكمتك

وبعد نظرك وقياما بما يجب لعظمتك وسيادتك وأنه أقل من أن يفتش على ما تنويه أو يراقب ما تقضيه، بل يجب عليه بعد هذا الامتثال الظاهرى أن يكون خاضع القلب مطمئن النفس هادئ السر، علما بما لك من صفات الكمال التى لا يبلغ نظره مداها ويحسر بصره دون غايتها؟ وقد قيل فى (عُيينة بن حصن الفزارى) : إنه اذا فزع بسيفه فزع معه مائة ألف سيف لا يسألونه عما دعاه الى ذلك. أفترى هذا إلا قياما بواجب عظمته أو ثقة برأيه وبعد نظره؟ ولا تزال العرب تمدح بمثل ذلك، وقد قال الفرزدق فى زين العابدين رضى الله عنه مادحاً له :

يغضى حياء ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

وقال بعض المدنيين فى مالك رضى الله عنه :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة والحاضرون نواكس الأذقان

الى غير ذلك. فما بالك برب الأرباب ومالك الرقاب كيف يختلج فى نفس عبده خاطر وقد علم أنه أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين!

ورب العالمين يستحيل عليه العبث والخطأ ويتنزه عن كل نقص ويجب له كل كمال. قال بعض الأجلاء: «كيف يستغرب ذلك وفى القوانين الحربية أنه لا يباح للمأمور أن يتباطأ فى امتثال الآمر، وأنه لو قال له لم؟ لكان جوابه إطلال دمه» وليس معنى ذلك أن القائد يفعل ما يشاء على ما يقتضيه العبث أو تشير به الأهواء بل لمعان أخرى ووجوه يجب أن تعتبر فى الحكمة وواجبات المقام.

ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى: إن هذا يراد به تعليمنا حسن الأدب مع الله تعالى حتى نقلده فى كل شيء، فنطمئن فى كل مايأمر ونذعن لكل ما يريد فنعمل الأعمال كلها بالإذعان والاطمئنان، واذا تربت فينا تلك الملكة فسارعنا الى الامتثال ولم نتباطأ فيما يأمرنا به من الأعمال، سعدنا سعادة كبرى وكنا كالأطفال الذين وثقوا

بأبيهم الحكيم وعلموا أنه لا يريد بهم إلا الخير ، وقد عمل هو على تمكين ذلك من نفوسهم فأصبحوا لا يبحثون وراءه عن شيء ، عالمين حسن نيته وبعد حكمته ومزيد رحمته ، فليس هناك شك يعوقهم عما يريد منهم ولا بحث يؤخرهم عن استفراغ هممهم وأوقاتهم فيما ينويه من سعادتهم ، ولو أنه أرجعهم الى البحث عن أسرار الأمور وخفايا المقاصد ودخائل الأشياء لكان قد أعدهم لقلق النفوس وحرج الصدور والتباطؤ فى بعض الأعمال تارة والامتناع عنها تارة أخرى ، فكان من مصلحتهم وموجبات سعادتهم أن يُربّيَهُمْ على أن لا يراجعوه فيما يأمر ولا يسألوه عما يريد إلا اذ تبرع هو — وله النظر الأعلى — ببيان الحكمة ، وإلا فهو أعلم منهم وأرحم بهم عالما أن فى هذا قضاء حقه وحقهم معاً ، وليس يغيب عنك سبب الخذلان الأبدى لإبليس وأنه ليس إلا ما كان من اتهامه لحكمة الحكيم وجراءته على ربه العظيم ورجوعه الى استحسانه لا إلى إيمانه وإيقانه وتعويله على قياسه الفاسد ونظره الكاسد .

ويمكنك أن تقول إن المراد بالسؤال المنفى سؤال التسلط والاستيلاء ، فلا يسأله تعالى أحد بطريق الاستيلاء عليه ، بخلافهم فإنهم يسألون عن كل ما يفعلون من قبله تعالى ، فإنه الحاكم عليهم والمتصرف فيهم تصرف السيد فى عبده والمالك فى ملكه ، فكأنه يقول : إن له العزة ولكم الذلة . فهذه احتمالات قريبة فى الآية يمكنك أن تكتفى بها وتطمئن اليها .

ولا بأس أن نلفت نظرك بعد ذلك الى أمر بديع وهو أن من الحكمة أن تنظر فى حال السائل الذى يطلب منك الجواب قبل أن تجيبه حتى اذا كان يناسبه الجواب ولا يعلو عن استعداده أقررته على السؤال وشفيت غلته بما يريد من الجواب ، واذا كان لا يمكنه أن يفهمه وكان من علوم طبقة أخرى غير طبقته كان ذكره عبثا ، وربما كان ضررا كبيرا عليه .

وقد عرفنا صلى الله عليه وسلم أنه « ما من رجل يحدث قوما بغير ما تصل اليه عقولهم إلا كان فتنة عليهم » وقد قال الإمام مالك رضى الله عنه فى حق من سأله عن قوله تعالى: (ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) : «أخرجوا عنى هذا المبتدع فإنه شيطان» ولو سألك ابنك الصغير عن مسألة عالية فى العلم تتعلق بفروع كثيرة ولو ذكرتها له أضر ذلك بعقله أو عقيدته وكان كالمريض الذى يأكل الأطعمة الدسمة التى لا يستطيع هضمها فليس من الحكمة أن تذكر له جواب تلك المسألة بل من الحكمة أن لا تدعه يقرع باب السؤال فى مثل ما سأل فيه ، ومن المعلوم أن فعل كل أحد يصدر منه على قدر علمه حتى إننا نستدل بإتقان الصنعة وحسن تنميقها على مزيد علم الصانع فإذاً فعله تعالى على قدر علمه وعلمه على قدر ذاته وذاته لا تحيط بها العقول فكذلك علمه فكذلك فعله . فنحن فى حجاب عن الكل ، ونزيدك ههنا أن الوجود كله سلسلة واحدة تتجاذب أجزاؤها وترتبط حكمها وأسرارها على وجه لا يحيط به إلا الله الذى لا تتناهى كمالاته ولا تنحصر معلوماته ولا تفهم أسراره فى مخلوقاته ، لأنها مترابطة وغير متناهية فلم يمكن إدراكها على التحقيق إلا له تعالى ، والفعل الإلهى الذى أتقن بالعلم الإلهى كيف يمكن أن يصل اليه علم البشر القاصر الضعيف .

واذا رأيت صنعة متقنة فلا يمكن أن تعرف كل ما فيها من الأسرار والدقائق حتى يصير علمك مثل علم صانعها وإلا فهناك ما لم تعلمه ، وعلمك إنما خلق على قدر أفعالك التى تراد منك لا على قدر أفعاله تعالى ، فإن ذلك يعلو عن استعدادك ولا يناسب درجة علمك ، ولكون أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض وهى غير متناهية كانت العلوم لا تقف عند حد أصلا ولا تزال تخرج من شىء الى شىء ويزداد الأول بالثانى وضوحا لما بينهما من المناسبة والثانى بالثالث انكشافا ، وهكذا حتى يلوح للناظر فى بعض الأوقات ذلك السر البديع وهو أن الأشياء مدبرة معا وأنها ترجع الى قانون واحد سار فى كل المخلوقات .

يلوح له ذلك البرق فيجده قد قذف به فى بحر لا ساحل له وعلوم لا نهاية لها ، يتشابه موجها وتتوالى بروقها ثم تشرق عليه كواكبها فيعشى بصره وسط تلك الأضواء ويدهش لبه من مظاهر تلك الحضرة القعساء ، فبينما هو مبهوت فى ذلك الملكوت إذ سمع صوتا كأنه سلسلة على صفوان واذا بمناد ينادى من وراء حجب الجبروت (قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) فلما تجلت له تلك العظمة صار جبل عقله دكًّا وخر كل شىء فيه صعقا ، فاذا أفاق من غشيته وتنبه من دهشته (قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) ثم أنشد :

دع الإعتراض فما الأمر لك ولا الحكم فى دوران الفلك

فلا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

فعلم إذ ذاك أنه وصل الى سدرة المنتهى وأنه لو تقدم أنملة لغرق فى بحار الأنوار واحترق بسبحات الواحد القهار فقال لنفسه : « ليس وراء عبادان قرية » فههنا ينتهى علم الملائكة المقربين وأرواح الصالحين من المؤمنين فرجع أدراجه يطوى السماء طيا ، وقد عزم أن ينتبذ من أهل بيئته مكانا شرقيا ، وعلم أنهم إنما ينظرون الى الحلقة الأخيرة من سلسلة الوجود وإن تخطوها فإلى حد محدود ، ثم يقف بصرهم الكليل وعقلهم الضئيل فينقطعون أثناء الطريق لا محالة (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) ثم لا يزال ذلك الروحانى الكريم ينزل من سماء الى سماء ويشاهد من عوالم الملك والملكوت ما يعرف وما لا يعرف حتى اذا صار بين الروح والجسد يريد أن يقرع باب الفؤاد من ذلك العالم إذ لاحت منه التفاتة وهو فى ذلك المقام الى ما بين سماء المعانى وأرض المحسوسات فوجد تلك الآية مكتوبة وسط الهواء بحروف من نور تمتد صاعدة الى السماء ونازلة الى قرار الماء : (ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا

أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) فأدهشه ما رآه وعرف أن الأمر كله لله ، ثم وجد نفسه تشتاق الى عالم الكثافة عند ما كاد يقضى عليها جمال عالم اللطافة ، فاشتد فى قرع باب الفؤاد ودخل فى سجن عالم الأجساد وقد اضمحل وتلاشى ، ثم رجع الى حده من العلم ومركزه من الفهم فوقف عند الظواهر وما تعداها ، بل اقتنع بما وصل اليه من رشاش ذلك البحر وقد نقش على صفحات قلبه ذلك الخطاب الإلهى : (وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) .

الخلاصة

فالخلاصة أن الآية مسوقة لبيان عظمة الألوهية فى سعة علمها وعدم تناهى أسرارها ، وأن ذلك يعلو عن حد الإدراك ويرتفع عن متناول الطاقة البشرية ، فإن للألهية شأنا آخر لا تدركه العقول ولا تصل اليه الأفهام ، فإنها مقصورة على إدراك شؤون الحوادث التى تماثلها ولا تتعداها الى شؤون الربوبية ، فذلك يتوقف على تناسب فى الصفات وتماثل فى الكمالات ، وإن نسبة علمك الى علمه كنسبة قدرتك الى قدرته ونسبة ذاتك الى ذاته ، فله فى كل شئ من باطن العلم وسر السر ما ليس لنبى مرسل ولا ملك مقرب مما يناسبه ويكون على قدره وهو الكبير المتعال ، فليس لك من العلم بالأشياء إلا درجة تناسبك وتقف بك عند ظاهرها ، وفوق درجتك درجة من فوقك من الخواص الى أن تصل إلى درجة فى العلم مختصة به تعالى تناسب الإلهية لا يشاركه فيها أحد (وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) وهو من لوازم الإلهية التى تجب لها الوحدانية فى كل شىء ، وقد نهينا عن الخوض فى سر القدر علما منه صلى الله عليه وسلم بأن النفوس لا تقف عند الظاهر بالنسبة اليه ، ولا تزال تتطلع للوقوف على باطن الأمر فيه ، وهى لا تطيقه لأنه فوق رتبتها ، فوقفها عليه السلام عند حدها وحظر عليها أن تسير فى تلك الغياهب لئلا تضل ضلالا مبينا ، وقد خلقت العقول على حد محدود كالحواس ، فكما

لا يصح أن تجهد بصرك كى يرى الهواء الذى يدق ويلطف عن رؤية الأبصار ، كذلك لا يصح أن تطمع فى أن تكتنه أسرار الأفعال الإلهيــة كما هى لدى الحضرة العلية ، فسرُّه فيما يقضيه وحكمته فيما يفعله على الوجه التام مما يختص بالألوهية ، فلا بد أن تعرف قدرك ولا تتعدى طورك .

من أنت يا رسـطو ومن أفـلاط قبلك قد تفـرد
ومن ابن سينا حيث هذ م ب ما أتيت به وشـــيد
ما أنتـمو إلا الفـــرا ش رأى السراج وقد توقد
فـدنا فأحـرق نفســه ولو اهتدى رشدا لأبعد

وقد قيل لإياس — وهو الذى تضرب بذكائه الأمثال : « ما رأيك فى القدر » ؟ فقال : « رأيى رأى ابنتى » وإنك لتلمس من كلمته هذه كلمة الرجل الساذج الذى لا يزيد علمه على علم ابنته برهانا ساطعا على ذكائه حيث لم يتعد طوره ، ورحم الله امرأ عرف قدره .

هذا مع العلم بأن الفعل فى حجاب عن العقول كالذات والصفة ، فكما لا تعرف كنه ذاته لا يمكن أن تعرف كنه صفاته ولا كنه أفعاله وهى لوازم مرتبة ، ومع العلم بأن أسرار الوجود يرتبط بعضها ببعض على تدبير عجيب وأسلوب غريب وأنها لا تتناهى ، فاذاً لا يمكنك أن تعرف ما هو الفعل ولا كيف يكون الفعل لأن ذلك من الخفاء بمكان الصفات ورتبة الذات على ما حققناه ، ولا أن تعرف سر الفعل على التحقيق لما عرفت من أن درجتك لا تسمح لك بذلك ، وأن اكتناه الأشياء بما لا غاية وراءه من خصائص الالوهية ، ولما علمت أيضا من أن أسرار الوجود متجاذبة وغير متناهية ، ولا قدرة لك على ما لا يتناهى . هذا .

ولك أن تجعل الآية واردة فى خصوص سر القضاء والقدر الذى سبق لك ذكره ، فهو لا يسأل عما يفعل لا لمزيد القهر والاستيلاء ولا لوجود العبث وعدم الحكمة ،

(تَعَالَى ٱللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيراً) بل لرحمته بك كى تقف عند حدك حيث لم تكن مستعدا لفهم الجواب والوصول الى ما تتوق اليه نفسك التى تريد أن تتجاوز درجتها وتتعدى غايتها ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

الطُرف والمُلح

قال بعض الحكماء : لا تفارقِ الصبرَ فتَعْظِمَ عليك البَلْوَى ، ولا المروءةَ فتُشْمِتَ بك الأعداءَ . قال الشاعر :

من فارق الصبرَ والمروّهْ أمْكَنَ من نفسه عدوّهْ

***

رأى إياسُ بنُ قَتادةَ شيبةً فى لحيته فقال : أُرَى الموتَ يطلبُنى وأُرانى لا أَفُوتُه ، اللهم إنى أعوذ بك من فَجْأَةِ الأمور وبَغَتاتِ الحوادث . يا بَنى سعدٍ قد وَهَبْتُ لكم شبابى فهَبُوا لى شَيْبَتِى . ولزِم بيتَه صائمًا قائمًا . فقال له أهله : تموتُ هُزالاً . فقال : لأن أموتَ مؤمنا مهزولا ، أحبُّ الىَّ من أن أموت منافقا سمينا .



التفسير

سورة الملك

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تباركت أسماؤه : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا [1] بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً [2] لِّلشَّيَاطِينِ . وَأَعْتَدْنَا [3] لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ . وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) .

قد أقام الله عز وجل لعباده فى الآية السابقة الدليلَ القاطعَ الناطقَ بقدرته التامة وعلمه المحيط ، فإن السمواتِ السبعَ تدل على ذلك دلالةً يتعامى عنها المتشككون الملحدون ، ويُبصرها الموقنون الذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض ويقولون : (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ) .

دلّت السمواتُ السبعُ على ذلك دلالةً بينةً من عدّة جهات : من جهة أنها بَقِيَتْ فى جوّ الهواء معلّقةً بلا عمادٍ تقوم عليه وترتكز ، ولا سلاسلَ تستمسكُ بها وترتبط ، ومن جهة أن كل سماء منها قد اختصت بمقدار معين لا تزيد عليه ولا تنقص ،

---

(١) أى القربى إلينا . اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب . (٢) جمع رجم بفتح الجيم وهو الحجارة ونحوها مما يرجم به . (٣) أعددنا وهيانا .

ولا يعتريها خلل ولا وهن على مرّ الدهور والعصور ، ومن جهة أن كل واحدة منها قد اختصت أيضا بحركة خاصة مقدّرة بقدر معين من السرعة والبطء الى جهة معينة لا تتعداها ولا تنحرف عنها ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ومن جهة براءتها من كل تفاوت فى خلقها، وسلامتها من كل فُطور وعيب ونقص وسائرِ ما ينافى العلم الأكملَ والحكمةَ البالغةَ .

ثم إنه تعالى أردف دليل القدرة والعلم وبراءةِ السموات من كل عيب بدليل ثان مثبت لها أيضا، وبشاهد شهادةَ صدقٍ بأن السماء مع براءتها من العيوب قد خُلقتْ خلقا هو نهاية الحسن والبهاء ، وذلك من جهة أن هذه الكواكبَ لكونها مُحْدثةً ومختصةً بمقاديرَ خاصةٍ ومواضعَ معيَّنةٍ وسيرٍ معينٍ، تدل على أن مَنْ أَحْدَثَهَا وَصَنعها هذا الصُّنعَ قادر غايةَ القدرة لا يُعجزُه شىء ، ومن جهة كونها محكَمَةً متقَنة موافقةً لمصالح العباد وزينةً لأهل الدار الدنيا وسببا لانتفاعهم بها ، تدل على أن صانعها قد أبدعها وأحسنها على مقتضى العلم الشامل الصحيح .

ثم إنه بهذين الدليلين اللذين أقامهما الله جل ثناؤه على قدرته التامة وعلمه المحيط وحكمته البالغة قد ثبت استحقاقه سبحانه للتبارك، وأن بيده الملكَ منفردا به لا يزاحمه فيه مزاحم ، وأنه على ما يشاء قدير . ومن هذا يتضح لك أن الكلام لا يزال متصلا تمام الاتصال بفاتحة السورة ، وهى قوله تعالى : (تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) . هذا .

قد ظهر لك مما قدمناه أن الله تعالى بعد أن نفى عن السموات كلَّ تفاوت وأثبتَ سلامتها من كل خلل ونقص ، أَتْبَعَ ذلك بأنه خلقها خلقا هو غاية الزينة والحسن والرُّوَاء ، فكأن تقدير الكلام هكذا (وللقرآن الكريم المثل الأعلى) : لقد خلقنا السموات منزهةً عن كل عيب ، (وَلَقَدْ[1] زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) .

---

(١) فتكون الواو فى الآية للعطف على معنى الآية السابقة .

ثم نقول : السماء الدنيا من الدنوّ وهو القرب ، فهى أقرب السموات الينا بالنسبة الى ما فوقها من السموات . ثم إن تزيين الله تعالى لها هو خَلْقهُ لها على هذا المنظَر الرائع ، وإيجادُها على هذا الإحكام البديع . تفضل الله الكريم على عباده فخلق لهم هذه الأرض مستَقَرًّا ومتاعا الى حين ، ثم جعل لها السماء سقفا محفوظا وأمسكهما بقدرته أَنْ تَزُولا إلا بإذنه ، ثم أتم فضله عليهم ونَعَّمَهم فجمَّل هذا السقف وزيّنه بتلك المصابيح ، وهى الكواكب المضيئة المتلألئة التى نثرها على سطح السماء وأرجائها على ما اقتضته الحكمة الإلهية ووافق مصالح العباد ومرافق الحياة .

وقد اقتفى الناس هذه السنة الإلهية ، وهى تزيين الله لهم سقفَ الدار الدنيا التى جعلها مسكنا لهم ، فزيّنوا سقوفَ بيوتهم بأنواع السُّرُج وأصنافِ المصابيح ، وتنافسوا فى اختراع أشكالها والتفنن فى أوضاعها وزخرفتها وفيما يتخذونها منه ، بل إنهم زينوها بصور الكواكب السماوية صغيرها وكبيرها ، وبصورة منطقة فلك البروج ، بل وبالسحاب المسخر بين السماء والأرض ، ولكنهم طَوَّح بهم الإسراف والبَذَخُ وحب الفخر والمباهاة الى اتخاذها من الفضة والذهب وغيرهما من النفائس ، وأنفقوا فى سبيل ذلك من أموالهم وأموال أممهم ما كان يجب إنفاقه فى الوجوه النافعة من المصالح الخاصة والعامة ، فخرجوا عن سنة الله الحكيم التى زعموا الاقتداء بها ، وكانوا بذلك من المبذّرين ، و (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) .

قد اشتملت هذه الآية الكريمة صراحةً على حكمتين عظيمتين فى خلق كواكب السماء الدنيا ، كما اشتملت آياتٌ أخرى صراحةً على حكمة ثالثة وهى الاهتداء بتلك الكواكب كقول الله تعالى : (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) وقوله : (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) .

وإنما قلنا إن هذه الآية الكريمة قد اشتملت صراحة على حكمتين ، لأنها أيضا قد اشتملت على الحكمة الثالثة المذكورة صراحة فى الآيات الأخرى ، وهى الاهتداء بها ، ولكن على سبيل التلويح لا التصريح .

وبيان ذلك أن الله تعالى قد عبر هنا عن النجوم بالمصابيح وهى مأخوذة من الصَّبَاح الذى يَنْسَلِخُ ظلامَ الليل وسوادَه عن ضوء النهار وبياضه . وعلى ذلك تكون هذه الآية قد اشتملت على الحِكَمِ الثلاث ، ثنتين تصريحا وواحدةٍ تلويحا .

ولهذا قال قَتادةُ رضى الله عنه فى تفسيرها : إن الله جل ثناؤه إنما خلق هذه النجومَ لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء الدنيا ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يُهْتَدَى بها ، فمن يتأول منها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظَّه وأضاع نصيبَه وتَكَلَّفَ ما لا علم له به .

قلنا : وقد أراد قَتَادةُ رضى الله عنه بالمتأولين هؤلاء الذين جَهِلوا أو تجاهلوا الله الذى صَنَعَ النجومَ وخلقها زينة ورجوما وهداية ، واتخذوا صنعَه هذا وهو النجوم شركاء معه ، فعبدوها وجعلوا لها بزعمهم نصيبا من التصرف والتأثير والمحو والإثبات فى الكون مع الله الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

قد ذكَّرتْنى هذه الحكمةُ الإلهيةُ ، وهى خلق الله سبحانه لكواكب السماء الدنيا زينة لها وبهجة للناظرين ، حادثةً حدثتْ بمَرْأًى ومَسْمَعٍ منى — سافرتُ مرة الى الاسكندرية وكان بجانبى أُسرةٌ مسافرة أيضا اليها ، فلما أشرفْنا عليها فى الليل وكان الظلام حالكا والجوُّ صَحْوًا ، وأبْصَرَ القومُ مصابيح المدينة منتثرة فى بيوتها وطرقها ، تَنادَوْا وتَصايَحُوا أَنِ انظروا الى هذه المصابيح المنثورة والأضواء المتألِّقة ، ما أعْجَبَهَا وما أحْسَنَهَا زينةً تسر الناظرين ، إلى غير ذلك من كلمات الإعجاب والاستحسان .

أما أنا فقد عَجِبْتُ من القوم إذ رأيتُهم قد ألهاهم صنعُ المخلوق الحقير عن أن يتدبروا صُنْعَ الله العلي الكبير . ولو رفعوا رءوسهم الى ما فوقهم من السماء ، وقلّبوا أبصارهم وأجالوا بصائرهم فيما حوَتْه أقطارُها من الكواكب المتلألئة الأنوار المختلفة المقادير والأضواء والأوضاع وكلٌّ في فلك يَسْبَحُون ، لو فعلوا ذلك لرأَوا العَجَبَ العُجابَ مما حارت في صنعه وإبداعه بصائر أولى الألباب ، ثم قلتُ : لقد صدق الله بديع السموات والأرض إذ يقول : (قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ . وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) ويقول : (وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) .

ثم اعلم أن هذه المصابيح التي هي الكواكب النيرة التي زيّن الله تعالى بها السماء الدنيا ، بعضُها في السماء المذكورة وبعضها في السموات التي فوقها كما ثبت ذلك للباحثين بالنظر والرصْد ، ولكن وجود بعضِها في السماء الدنيا وبعضِها فيما فوقها لا يمنع أن تكون كلُّها زينةً للسماء الدنيا ، فإن كونها زينةً لها مراعًى فيه ما يَتراءى للناظرين ، لأنهم يَرَوْنها كلَّها كأنها جواهرُ قد سطعت أنوارُها وتألّقتْ أضواؤُها ثم رُصِّعتْ في سطح السماء الدنيا بكيفية بديعة محكمَة ووضْع رائق رائع (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ) .

على أن مَنْظَرَ الكواكب المذكورة بهذه الصورة كأنها في سطح واحد ، قد عهِدْنا مثلَه كثيرا ، فإن المرئيّاتِ كالأشجار مثلا اذا كانت بعيدة من الرائي وكان بعضها خلْفَ بعض فإنه يُخَيَّلُ الى العين من بُعْدِهَا أنها موضوعة في صف واحد .

ثم إنه سبحانه بعد أن بين ما في هذه الكواكب من المنافع ، وهي تزيين السماء الدنيا ليتمتع العباد بحسن منظَرها وبهجة مَرْآها ، وكونُها مصابيحَ لامعةً مشرقةً

يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر ، قفّى على ذلك ببيان ما فيها من دفع المضار والمفاسد المترتبة على استراق الشياطين للسمع فقال : (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) أى جعلنا هذه المصابيح مع كونها زينةً وأعلاما للهداية رجوما للشياطين الذين يسترقون السمع .

قد يُفهَمُ من ظاهر هذه الآية أن الشياطين يُرْجَمون بنفس أجرام هذه الكواكب ، وذلك يستلزم انتقالها وخلوَّ مواضعها منها ، فاذا فُرِضَ ذلك فماذا يكون من أمرها بعد تمام الرجم ؟ أتعود كما كانت أم تصيرُ مواضعها خالية ؟ .

نقول : إن هذه الآية قد فسَّرَ المرادَ منها آياتٌ أخرى ، كقوله تعالى : (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ . وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ) وقوله : (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وحِفظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا [1] وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ [2] إِلَّا مَنْ [3] خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) وقوله حكايةً لقول الجن بعضهم لبعض : (وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ . فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا) .

وتوضيح ذلك أن معنى الشهاب فى الأصل هو الشُّعْلَةُ المقتَبَسةُ من النار مع بقاء النار ثابتة فى مكانها . ومنه قول سيدنا موسى عليه السلام لأهله : (ٱمْكُثُوا إِنِّى ءَانَسْتُ [4] نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [5]) أى بشعلة مقتبَسة من النار التى آنسها ، وعلى هذا فالشهاب المرجوم به

(١) طردا وإبعادا . (٢) دائم . (٣) أى لا يسمع إلا الشيطان الذى سمع الكلمة من الملائكة فأخذها بسرعة . (٤) أبصرت . (٥) تستدفئون .

منفصل من نار الكوكب وهو قارٌّ فى فَلَكِه على حاله ، كقبس النار يؤخذ منها وهى باقية لا تنقص ولا تنفصل عن مكانها ، وذلك مسوغ لتسمية الكواكب بالرجوم .

ثم إنه ليس فى الآيات ولا فى الأخبار ما هو نص فى أن الشهب لا تكون إلا لرجم الشياطين المسترقين للسمع ، فيجوز حينئذ أن يكون منها ما هو ناشئ عن الحوادث الجوية ، وما أُوتى الناسُ من العلم إلا قليلا .

ثم اعلم أن هذه الشهب المنقضَّةَ من الكواكب ، كانت موجودةً قبل بَعْثةِ النبى صلى الله عليه وسلم زَمَنَ الجاهليةِ وقبلَه كزمن سيدنا عيسى عليه السلام . ويدل على ذلك جملة أمور — منها قوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) أَلاَ تَرَى أنه سبحانه ذكر فى بدء خلق الكواكب فائدتين ، وهما التزيين ورجمُ الشياطين . ومنها أَن الناظرين فى أحوال الكواكب من المتقدمين قد تكلموا فى انقضاض الشهب وأسبابِه . ومنها أَنّ وصفَ هذا الانقضاض قد جاء فى شعر أهل الجاهلية قبل البعْثةِ .

فدلَّ ذلك على أن الشهب كانت موجودة قبل المَبْعَثِ ، لكنها زِيدتْ بعدَه وجُعِلتْ أكملَ وأكثر وأَقْوَى . وهذا هو الذى يدلّ عليه لفظ القرآن العظيم ، لأنه حَكَى عن الجن فى شأن الشهب قولَهم : (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا) وهذا كما ترى يدل على أن الذى حدث بعد المَبْعَثِ المحمّدى إنما هو المَلْءُ والكثرة والقوة ، وأما أصل الحراسة والرجم فإنه كان قبل ذلك . وكذلك حكى عنهم فى شأنها قولَهم : (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ) أى كنا نجد فيها بعضَ المقاعد خاليةً من الحرس والشهب صالحةً للاستراق والاستماع ، ولكن الآن أى بعد المَبْعَثِ قد مُلِئَت المقاعد كلها .

قلنا لك فيما سبق : إن قول الله جل ذكره : (وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) بيان لما فى مصابيح الزينة من دفع المضار والمفاسد المترتبة على استراق الشياطين للسمع ولتوضيح ذلك نقول : إن مَثَلَ الشياطينِ الذين يسترقون السمعَ ، كَمَثَلِ الخبيث المفسدِ من الإنس ، الذى يتسمَّع الى حديث الناس ويتسقَّطُ أخبارهم وأسرارهم وهو على تخوُّفٍ وحَذَرٍ من أن يشعروا به ، فهو إن سَمِعَ كلمةً فاتته كلماتٌ ، وإن سَمِع جملةً سَمِعها ناقصةً فاسدةَ المعنى أو معكوسةَ المراد منها ، ولهذا عبر الله تعالى عن هذا العمل الشيطانى الناقص بالاستراق فى قوله : (إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ) وبالخطف فى قوله : (إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ) . ثم إنه بعد ذلك لخبثه وسوء قصده ينقل ما سمعه على هذا الوجه المشوَّه الباطل ويذيعه بين الناس بعد أن يضيف اليه فنونا من الأكاذيب وضروبا من الأباطيل ، وكل ذلك قصدا إلى تضليل الناس وصرفهم عن سبل الرشاد ، وغراما بانتشار الفساد .

على أن استراق الشياطين للسمع أشدُّ من ذلك ضررا وأنكى أثرا وأسوأ تأويلا ، وذلك أن من ينجو منهم من رجم الشهب بفراره يتسلط بوسوسته على ضِعاف العقول الذين فسدتْ فطرتهم فيوهمهم أن ما يقذفه فى قلوبهم من الأكاذيب والتُّرَّهاتِ هو من علوم الغيب السماوية التى تلقاها عن الملإ الأعلى بزعمه ، ولكن الله تعالى قد أخبرنا أن الشياطين كاذبون فى كل ذلك ، كما قال فى إثبات صدق القرآن العظيم : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِين . وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ. إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) وقال: (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ ٱلشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ[1] ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) .

(١) أى يلقى الشياطين ما سمعوه من الملائكة الى الكهنة وأكثر هؤلاء الشياطين كاذبون . والآية تحتمل غير ذلك أيضا .

تتنزل هؤلاء الشياطينُ المسترقون للسمع على أُولئك الأفّاكين الآثمين الذين هم أئمة الضلال من الناس، فيوسوسون اليهم بما يفترون، وَيَؤُزُّونَهم أزًّا بما يخترعون، فيتلقّوْن عنهم هذه الضلالاتِ، ويتقبلون منهم تلك الأكاذيبَ، ثم يبلّغونها الى جنودهم وأتباعهم الجهلة الذين اتخذوهم أئمةً يشرعون لهم فى دينهم ما لم يأذن به الله، فضلوا بذلك فى أنفسهم وأضلوا كثيرا ممن أغوَوْهم وضلّوا عن سواء السبيل.

كل هذا من آثار استراق كَذَبَةِ الشياطين للسمع، وهو كما ترى إخراج للناس من الهدى الى الضلال، كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ[1] يُخرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)، وحَشْرٌ لهم فى مواطن الجهل وبُؤَرِ الفساد، وسَوْقٌ لهم الى التردّى فى مهاوى الخبائث وغشيانِ ما يستوجب غضب الله عليهم فى الدنيا والآخرة، وتمويهٌ عليهم وغِشٌّ قبيح لهم، وتلبيسٌ عليهم فى أمر دينهم، وتخليطٌ على الرسول فى تبليغ رسالة ربه، وتعطيلٌ لسيرها ونشرها بين الأمة، وصدٌّ للناس عن صراط الله العزيز الحميد.

قد أخبرنا الله تباركتْ أسماؤه بجنايات أولئك الشياطين فى كتابه العزيز، وحذّرنا أن نغترَّ بما يزخرفونه من الأقوال المموّهة، وأن نطيعهم فيما يَنْزَغون ويَخْدَعون به ضُعفاءَ النفوسِ من الناس، كما أَخْبرَنا أيضا بأن أولئك الشياطينَ قد اتخذوا لهم جنودا وأعوانا من الإنس يروّجون ما يوسوسون لهم به، وينشرونه بين أتباعهم ومرءوسيهم من جهلة الإنس، فَيُحِلون لهم ما حَرَّمَ الله، ويُحَرِّمون عليهم ما أَحلَّه لهم، ويَشْرَعون لهم ما يوافق الأهواءَ والمطامعَ، لا يَخْشَوْن لله حسابا ولا عقابا، ولا للحق والعقل نقدا ولا عتابا، ولا يُقيمون للنصائح الخالصة والمواعظ الصادقة والعِبَرِ وسوءِ العواقب وزْنا.

(١) مأخوذ من الطغيان. يطلق على الواحد وغيره. وهو كل رئيس فى الضلال.

أخبرنا الله تعالى بذلك فى كثير من الآيات، فمنها قوله: (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) وقوله: (وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ) وقوله: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ).

هذا بعض من كلام الله جل ذكره يَنْعَى فيه على الشياطين وأوليائهم من الإنس، ويُحذِّر به عبادَه المؤمنين أن يجعلوا للشياطين عليهم سبيلا يتسلَّلون منه الى قلوبهم لينزَغوا بينهم ويُفسِدوا عليهم دينَهم الذى ارتَضَى لهم. فبعد كلام الله تعالى وما جاء فيه من بيان وأخبار، وتبشير وإنذار وإعذار (فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) و (مَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) ومن شاء اتخذ الشيطانَ قرينا (وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا).

إن الذين يسمعون كلامَ الله ثم لا يُحرِّفونه من بعد ما عَقَلوه وهم يعلمون، والذين يتدبرون ما أسلفناه وله يتذكرون، والذين يَعرِفون نعمةَ الله عليهم بالفطرة الزكية الإنسانية والعقولِ التى جعلها ميزانَ الحق والباطل، هؤلاء هم الذين يَهديهم ربُّهم بإيمانهم فيميزون الخبيثَ من الطيب، ويَعرِفون أولياءَ الله المتقين بِسِيماهم، كما يَعرِفون أولياءَ الشيطانِ بِطَغْوَاهم.

عَيْناكَ قد حَكَتا مَبِيـــتَكَ أَيْنَ كنتَ وكيف كانا
ولَرُبَّ عينٍ قد أَرَتْـــك مَبِيتَ صاحِبِها عِيانا

هؤلاء هم الذين يعرفون مقدار جُرْأةِ أولياء الشيطان وادّعائهم معرفةَ الغيوب التى استأثر الله عز وجل بها، كما قال: (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

وقال : (عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ) وقال : (وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ) .

يَدَّعِي أولياءُ الشيطان معرفةَ الغيوب وما تُكِنُّه الصدور ، وهم فى ذلك فريقان. فأما الفريق الأول فإنه يوهم الناسَ أَن علمه بذلك فيض أفاضه الله تعالى عليه لتقواه وقربه منه ، وهو فى دعواه من الكاذبين ، فإن التقوى قد بيَّنها الله تعالى ، وهو منها بَراءٌ ، كما بَيَّن أَنه لا يُقرَّب اليه إلا أولياءه الذين ذكرهم فى قوله : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

فهؤلاء هم الجديرون بأن يكرمَهم الله تعالى بكرامات من عنده ، وأَنْ يُعلِّمهم من غيبه علما ، لا أولئك الجاهلون الذين ابتدعوا تلك البدع المنكَرة الفاسقة ولقَّنوها أَتْباعَهم ، وأوهموا الناس أنها من تعاليم الدين وشاراته[1] ، فأَخْفَوْا بذلك فضائله وراء رذائل مبتدَعاتهم ، وشوَّهوا محاسنَه ومثَّلوا به شرَّ تمثيل ، وأَضْعَفُوا ثقةَ كثير من المسلمين به ، وصيّروه سُبَّةً ومُضغةً مَعِيفةً[2] فى أفواه من لا يدينون به (وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) .

وأما الفريق الثانى فإنهم اتَّبَعُوا طريقَ من كانوا قبلهم من كُهَّان الجاهلية وغيرهم ، فزعموا أنهم يعلمون علوم الغيب يتلقَّونها عمن يسمونهم بالجن أو السادة أو الأرواح أو الخُدَّام الذين يتلقفون تلك العلوم من السماء فى زعمهم ثم يهبِطون بها على قلوب أولئك المَشْعُوذين المخادعين .

لهذا الفريق طوائف وشُعَبٌ مختلفة ، ولهم جميعا طرق وحيل وتمويهات وفِراسات فى الذين يقصدونهم لاستطلاع الغيب كما يزعمون ، وقد بلغ من أمرهم أنهم سحروا

(١) علاماته وأماراته . (٢) مكروهة .

أعينَ الناس واسترهبوهم، وغَشَّوْا عقولَهم وغَشَّوهم بما ادَّعوه من تَلَقِّي أخبارِ السماء عن الشياطين، وبما أحكموه كلَّ الإحكام من زُخرف القول وأساليب الخداع والمكر، حتى قصدهم الناس من كل فج، لا فرق بين نساء ورجال، ولا بين عالم وجاهل، فأصبحوا لذلك في عزٍّ بعد مَهانة، وفي نباهة بعد خمول، وفي ثروة بعد فقر. والعجب أننا لا نزال نرى الناس يتسابقون ويتدافعون في الترامي على أبوابهم وأقدامهم، ويتبارَوْن في التقرب والتزلُّف إليهم ببذل المال والسخاء بما يستطيعون، مع ظهور كذب هؤلاء المحتالين واشتغال المحاكم بكثير من قضايا غشهم وخداعهم!.

وما أوقع هؤلاء الناسَ في هذه المهالك واستحقاقِهم سخَطَ الله وغضبَه إلا انتحالُهُم التقوى ودعواهم علمَ الغيب، وأنّ الشياطين قد تنزلت به عليهم من السماء، مع أن الله تعالى قد جعل كواكبها رجوما للشياطين، وبين حكمة الرجم بها في قوله: (لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا [1]) وقوله: (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ) فحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون من استراق السمع ومعرفةِ شيء من علم الغيب، وكانوا هم وأشياعهم من شياطين الإنس من الجاهلين المفترين.

ثم إن الله عز وجل بعد أن بين عقاب الشياطين المسترقين للسمع في الدنيا، أردفه ببيان عقابهم في الآخرة فقال: (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) أي جعلنا هذه الكواكب رجوما للشياطين المسترقين للسمع ورجمناهم بها في الدنيا بالفعل، وأعْدَدْنا وهَيَّأنا لهم في الآخرة بعد إحراقهم بتلك الشهب عذابَ النار المتسعِّرةِ الملتهبة التي هي في غاية الاتّقاد والإحراق الشديد.

(١) طردا وإبعادا.

ثم إنه سبحانه بعد أن أخبر بما أعدّه لهؤلاء الشياطين من عذاب الآخرة إخبارا خاصا بهم عاد فذكر أنهم بفعلهم هذا صاروا كافرين ، وأخبر إخبارا عامّا بما أعدّه لهم ولغيرهم ممن كفر كفرهم وعمل عملهم فقال : (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) . أما جهنم فهى تلك الدار التى هيأها الله بعدله لعقاب العصاة من عباده فى الآخرة ، وقانا الله منها بفضله ، وهى فى اللغة المكان العميق بعيد الغَوْرِ . ومن ذلك قول العرب : بِئْرٌ جَهَنَّمٌ[1] أى عميقة غائرة . فالعذاب فى هذه الدار البشعة المُوحِشةِ هو الجزاء العدل المدّخر فى الآخرة للشياطين والإنس الذين كفروا بالله الذى ربّى أرواحهم بأحكام دينه القويم ، كما ربّى أبدانهم بما تفضل به من الصحة والأمن والطيبات من الرزق .

ثم انظر بعد ذلك الى ما فى نظم الآية الكريمة من نهاية البلاغة والإبداع ، ألا ترى أنه قدّم فيها أوّلا بيانَ الذنب القبيح الذى جناه الشياطين والإنس وهو الكفر بالله الذى رباهم ، ليكون ذلك التقديم إشعارا للسامع من أول الأمر بجنس الجزاء المعدّ لهم ، بل وليكون أيضا مَدْعاةً للسامع أن يَحْكُمَ عليهم من تلقاء نفسه بالجزاء المكافئ لجريمة كفرهم بربهم سبحانه . فلهذا كان تقدير الكلام كأنه قيل : إن كفرهم بربهم قد أوقعهم فى عذاب جهنم ، وكانت جهنم مصيرا لهم ، وبئس المصير والمآل جهنمُ (لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ) .

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم سابقا

(١) مصروف لأنه هنا غير علم .

الربا

الربا فى الجاهلية والاسلام — الربا فى نظر الشرع وفى نظر القانون الربا فى نظر الأمم وفى نظر الأفراد

أسلفنا فى العدد الماضى كلمة فى الربا، ومضى بنا القول الى تفسير آية الربا فى سورة البقرة، وإنا بعون الله تعالى متمو الكلام فيها ثم منتقلون الى تفسير آيتى الربا فى سورتى آل عمران والروم، ثم راجعون الى ما يقوله المتمسكون بهذه المعاملة القاسية على البشر أجمع، نفند شبههم بعد بسط كلامهم الذى يقولون واستيفاء كل ما يحكم عليهم من شبه وترهات، ثم نرجع الى شرح مضاره بعون الله والله المستعان:

قال تعالى: (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ).

تأمل فى هذا التنويع العجيب فى التنفير من هذه المعاملة المقوتة، وذلك لما علقت بنفوس الناس واشتد تمسكهم بها على ما فيها من ضرر بهم، وذلك أن دواعيها متوافرة من الطرفين: فمن جانب المقترض شدة تطلعه لإحراز المال فى يده، وسعة أمانيه فيما يجره عليه من منفعة أو لذة عاجلة، وفيما يدره عليه المستقبل من وسائل السداد التى لا تلبث أن تنكشف عن أوهام وخيالات يتبعها ارتباكات واضطرابات ثم ندم وغيظ ينقلب الى حقد وكراهية وعداوة دونها كل عداوة. ذُكر لى وأنا بأسيوط أن رجلا من المرابين بها بلغه أن أحد عملائه السابقين الذين خربت بيوتهم بالربا — وقد كان ذا ثروة عظيمة — يفكر فى قتله انتقاما منه لثروته التى ضاعت وبيته الذى أقفل وركنه الذى انهد، فقال له بلغنى يا فلان أنك مغتاظ منى وتفكر فى قتلى، ولكن هل أنا أخذت منك شيئا قهرا عنك؟ أليس كل ما أخذته منك طبق الشروط

التى ارتضيتها وأمضيت عليها بعد ما فهمت معناها ؟ فقال من خرب بيته بعد أن ضحك تلك الضحكة التى تعترى من أكل الغيظ والحقد قلبه : وهل أنا طفل حتى أقتلك ؟ أنا اذا قتلتك أرحتك فلا تشعر بما نقاسيه من آلام الخراب والعدم ، ولكنى اذا أردت أن أقتل فإنما أقتل ابنك الوحيد لتعرف أن أموالنا التى نهبتها ودماءنا التى استنزفتها ضائعة من يدك لا محالة الى أشد الناس عداوة لك وهم أقاربك هؤلاء الذين تصارحهم ويصارحونك العداوة والبغضاء وتبادلهم الخصومة والمقاضاة دائما أبدا . وكم كان اتعاظ الناس يوم مات وحيد ذلك المرابى : وذكرت هذه المحاورة بمناسبة وفاته ولكنها عظة وقتية ، وكم من عظات بالغات تهتز لها الأعصاب كما تهتز أوراق الأشجار وأغصانها لهبوب الرياح ثم تعود لسكونها .

ومن جانب المقرض شرهه على جمع المال والاستزادة منه مع خلوده الى السكينة وعدم نفعه المجتمع بالمضاربة فيما ينفع الناس ، وجلب ما تدعو اليه الحاجة مما ينتفع به ذاته لا ما يكون وسيلة الى النفع ؛ نعم قد أراح المرابى نفسه من التفكير فيما يحتاجه الناس وما يروج عندهم وانتقاء ما يروق لهم ويوافق أذواقهم والتعرض للتقلبات التجارية التابعة للمهارة فى انتقاء الأصلح وإن كانت خاضعة أيضا لأسباب إلهية ، فهى بهذا الاعتبار قرينة الزراعة والصناعة وأمثالها مما فيه خدمة للناس حقيقية ، ومما يعتمد على إجادة العمل فيما يقدر عليه ، ثم الرجوع الى الواحد القادر فيما يخرج عن طوق قدرته ، فهى فى طى قوله تعالى : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) على ما سبق لنا فى تفسيرها فى عدد ماض من أنها تنبيه للناس على ما ينبغى أن يسلكوه فى طلب الرزق من اللجأ الى إجادة الأعمال دون التعلق بالأمانى والآمال ، ثم الرجوع الى الله فى المآل وابتغاء فضله بصادق السؤال .

هذا هو قانون الارتزاق حقا وهو الذى يطابق قولهم :

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

هذه هى خدمة الناس بتحصيل مرافقهم وتيسير منافعهم وجلب حوائجهم ، وهى التى يستحق صاحبها أن يأخذ من الناس فى مقابلتها ما يحتاج اليه وما ينتفع به ، أما مجرد أن يختزن المال ويقعد به بالمرصاد لمن تمسه الحاجة أو يدفعه الطمع فيبرز له الذهب الوهاج البراق فيخطف بصره وبصيرته حتى يوقعه فى الشرك شرك الخراب والدمار ، ثم يفقره من حيث لوح له بالغنى ويجيعه من حيث خيل له الشبع ، فهو خادع مغرر محتال يستغل الحاجة الحاضرة والطمع بالمستقبل وهما عاملان قويان على النفس الضعيفة الإرادة ، فلا يزال بها حتى يرديها ، ثم يلهو بآلامها ويبحث عن فريسة غيرها ، فهو بعمله هذا عدو المجتمع الإنسانى باذر بذور الشقاق والبغضاء بين الناس ، هادم صروح السعادة فى الأسر ، مستحق المقت والسخط ، كل واحد يدعو عليه أن يمحقه الله ويمحق ماله الذى قعد به للناس على الطرقات وأعده شركا لاصطيادهم فسلبهم نعمة الله التى خولهم إياها ، فلا عجب أن يقول الله فى شأنه : (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا) نعم يمحقه ويزيله ويذهب بركته ويضيع الانتفاع به .

أولا يكفى فى ذهاب الانتفاع به حق الانتفاع أن المرابى يشعر بأنه بغيض لعملائه المحيطين به ، يتصورونه ظالما لهم ناهبا لأموالهم فى ظلام غفلتهم كسارق المال فى ظلام الليل ، وأنهم أحق بما فى يده منه ، وأنه ما نما إلا باستنزاف حقوقهم ، فكيف يهنأ بما أوتى وكيف يطيب له الانتفاع بما خول ؟ ! بل يمحق الله الربا حسا أيضا ، ويعرضه للتلف والضياع والدمار . وكثيرا ما جرى هذا لأناس بعد أناس ، ولكن حب المال يدفع الانسان للنسيان ، فلا يذكر إلا ما وافق هواه .

وقد ذكرنا فى العدد الماضى شيئا مما حاق بالأمم وبخاصة الأمم المصرية من تلك الأزمة الآخذة بالخناق ، الحابسة للأرزاق ، وأن ذلك نتيجة قريبة أو بعيدة للمعاملات

الربوية ، فلو أنك خالطت الناس طبقات طبقات لعرفت أن أشدهم ضيقا وأجأرهم بالشكوى هم أصحاب الأقساط ، هم المدينون للبنوك ، هم أصحاب البيوع الجبرية ، وأما غيرهم فيقولون فى شكواهم على كل حال : « الحمد لله لسنا مطالبين لأحد بدين ففى مقدورنا أن نسوى أمورنا على حسب الحالة » نعم لقد صدقوا ، فلو أن كلهم كذلك لارتاحت نفوسهم وما أحاط بهم الهلع كل هذه الإحاطة ، ولكن صدق فيهم قول الله : (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا) وقوله : (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) ولقد شملهم قوله جل شأنه : (يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) أجل : فقد غرتهم الأمانى ففرضوا التقديرات ورتبوا شئونهم حسب تقديرهم ، ولم يحسبوا حسابا لتجارب مرت أمام عيونهم وشاهدوها فى جيرانهم ومعارفهم ، فكيف يظن بهم أن يحسبوا حسابا للنصوص الشرعية والتهديدات الإلهية وما يعقلها إلا العالمون .

من أجل تأصل حب هذه المعاملة الفاسدة فى نفوس الناس جاء القرآن الكريم مبالغا فى النهى لهم والنعى عليهم ، وتلوين الخطاب تارة بتمثيلهم بصورة الممسوس المجنون المتخبط ، وتارة بإفساد قياسهم ما حرم الله على ما أحل الله ، وتارة بمخاطبة وجدانهم وردهم لحظة الى عقولهم ، ليتعظوا بموعظة جاءتهم من ربهم ، وترتيب الحكم عليها ببيان ما لهم وما ليس لهم فلا يظلمون ولا يظلمون . ثم جاء فى هذه الآية يكشف لهم القناع ويبرز لهم الأمر ظاهرا فيقول لهم : إن طلبكم النمو من غير وجهه المشروع سيؤول بكم الى النقص بل الى الدمار والمحق (يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا) وهو كلام العليم الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأردفه بالترياق الواقى من فعل السم ، وذلك قوله تعالى : (وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ) فمن كان مؤمنا بالله وكتبه ورسله فليأخذ بالدواء الذى وصفه له الحكيم العليم ، ومن لم يكن من أهل الإيمان فقد استحق غضب الرحمن وصار عدوا لله ، فالله لا يحب كل كفار أثيم ، وهل بعد أن بين لك الحكيم الرحيم ما فيه منفعتك الصحيحة تعرض عنه وأنت فى سبيل ابتغاء منفعتك إلا لأن قلبك

لم يطمئن لكلامه ولم يثق بصدقه ؟ : وهل الكفر إلا هذا ؟ : إن المتعامل بالربا لا يدفعه اليه إلا حرصه على مصلحته المالية ، فبعد أن يقول له حكيمه إن هذا ضد مصلحتك ومفسد لأمرك ، لا يقدم عليه إلا لشكه أو إنكاره صدقه فى نصحه ، وذلك الكفر الصراح ؛ فليست معاملة الربا من الشهويات التى تندفع النفس اليها فى حال غفلتها عن نهى ربها ، ولا من مستلزمات ثورة الغضب التى تقع فيها النفس وهى فى ذهولها وجنونها ، ولكنها معاملة البصيرة والتأنى وارتياد المصلحة يقدم عليها صاحبها (وهو بأتم وأكمل الأوصاف المعتبرة) كما يقولون، فمن البدهى أن إقدامه لأنه وثق بأحلامه وترهاته وأمانيه أكثر من ثقته بربه الحكيم العليم ، فإن بقى فى نفسه بقية إيمان تحرك منه وجدانه يتلمس لنفسه المعاذير وهو ضيق الصدر كاره التفكير فيه ، كاره أن يتحدث به الناس ، وذلك هو الإثم ، فالإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه غيرك . وصاحب هذه المعاملة دائم التردى فى هاتين الهوتين حتى يحيق به سوء عمله ، ولا عجب أن يلعن من أجله خمسة : آكل الربا ومؤكله وشاهداه وكاتبه . وصيغة (كفار) و (أثيم) فيهما من الإشارة الى أن الانغماس فيه يوجب تكريره ودوام الإصرار عليه ما لا يخفى على من عرف طرفا من العربية .

يقول الله تبارك وتعالى عقب ذلك : (إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وهذه عادة الكتاب العزيز فى نهيه وأمره وزجره ووعظه : يبالغ فى الزجر عن الكبائر الخطيرة والتنديد بمرتكبيها والتشديد عليهم حتى يضيق ذرعهم بما وقعوا فيه ، فإن كانوا من أهل الخطاب اشرأبت أعناقهم الى تلمس المخلص مما تورطوا فيه ، وتطلعوا اليه أيما تطلع ، فيسعفهم بما انتظروا أو بما حقهم أن ينتظروا ، فيردف آيات الوعيد بآيات الوعد .

وإنك اذا اعتبرت ما يجرى بين الناس فى مخاطباتهم ومناصحاتهم تجدهم اذا بلغ القول بالزاجر والناهى مبلغه من التقبيح والتشهير حتى وصل الكفاية قيل له قولة حق : « قد عرفناهذا فما المخلص » ؟ فاذا كان حكيما انتهز هذه الفرصة وأسعفهم وهم متطلعون للمخلص من الورطة التى تردوا فيها . بهذا تعرف حسن موقع قوله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) وأريد هنا أن أترك لك فرصة لتتأمل فيها هذه الصفات العظمى : الإيمان المنير للقلوب، المصرف للجوارح فى طريق الهدى . عمل الصالحات — وهو ثمرة الإيمان الدالة عليه التى يمتحن هو بها ، فإن أثمرها كان إيمانا قابيا وإن لم يثمرها كان إيمانا لسانيا أقصى مداه لا يجاوز الحلقوم . إقام الصلاة ، التى هى عماد الدين مذكرة بالله وجلاله تذكيرا متكررا ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . إيتاء الزكاة ، وذلك أمارة أن النفس قد طهرت بحق وأسلمت أمرها لربها وطابت عن مرضاتها فى سبيل مرضاته . هذه أعمال البر المترابطة المتماسكة لا ينفرد واحد منها عن أصحابه ، فاذا شذ منها شىء كانت البقايا دعاوى .

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

تأمل فى هذه الصفات النفسية والثمرات العملية التى وضعها لك ربك ليرشدك الى الخير ، واقرأ قوله : (لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) فما وصل اليه فهمك من تدبرك لهذه الكواكب النيرة فهو أفيد لك مما أشرحه وما يجرى به قلمى الضعيف ، والله يتولى هدانا أجمعين .

يقول الله تبارك وتعالى بعد هذه الآيات البينات والعظات البالغات قولة جازمة حاسمة صارمة : (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

أى صراحة أوضح وأبين فى مراد الشارع الحكيم من هذا الأمر الصارم يمهد له بالأمر بتقوي الله، أى أن يقى المرء نفسه شر غضب الله وعذابه، ثم يردف بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ومعنى ذلك لا تتمحلوا دعوى الإيمان وأنتم مصرون على هذا الذى بين لكم أتم بيان، فلا تسمع دعوى يكذبها حال مدعيها، فلا إيمان لمن عاند ربه القوى القاهر، فإن لم تسمعوا هذا ولم ينفعكم ما بين لكم فأذنوا بحرب من الله ورسوله. وقانا الله. ومن له يدان بمحاربة الله ورسوله: إن من حاربهما لمحروب، ومن غالبهما لمغلوب. إياك أيها الإنسان أن تغرك قوتك الوهمية وعزتك الكاذبة فتكون كمن قيل فيه: «غرك عزك فصار قصار ذلك ذُلّك» ويروى أن قبيلة ثقيف كانت تستعمل الربا فلما نزلت هذه الآية قالوا: «لا يدين لنا بحرب الله ورسوله».

وأما قوله تعالى: (وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فمعانيها واضحة بينة تدعو الى العدالة أولا، والى الفضيلة بالإنظار وعدم إعنات المدين الذى ما أقدم على الدين إلا بدافع الحاجة ثانيا، والى ما هو الأفضل ثالثا، وهو قوله: (وَأَنْ تَصَدَّقُوا) أى بالإبراء من كل الدين أو بعضه خير لكم إن كنتم تعلمون.

وهنا يحق التذكير بيوم الله وتوجيه الحساب الصحيح، وذلك فى قوله: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) وقد ورد أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «اجعلوها بين آية الربا وآية الدين» وذلك من أكبر الدلائل على عظيم عناية الشارع الحكيم بتطهير النفوس من هذا الرجس أتم تطهير، وبذلك تعرف أمر الربا وحكمه فى نظر الشارع الذى ما أرسل رسوله إلا رحمة للعالمين.

«يتبع»

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص بالأزهر



الترغيب فى البكور فى طلب الرزق وغيره

بسم الله الرحمن الرحيم

عن صَخْرِ بن وَدَاعَةَ الغامدِىّ الصحابى رضى الله عنه أن رسـول الله صلى عليه وسلم قال : « اَللَّهُمَّ بَارِكْ لأمَّتِى فِى بُـكُورِهَا . وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ . وَكَانَ صَخْرٌ تَاجِرًا فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ » .

الشرح

(بارك) من البركة التى هى العظم والزيادة والنماء والـكثرة . ومن البروك أيضا وهو الثبات والاستمرار والدوام . (البكور) هو الخروج الى العمل والتوجه الى مباشرة الأمور فى أول النهار . (السرية) بعض من الجيش تحت إمارة بعض الصحابة .

خلق الله عز وجل الناس وجعلهم فى هذه الدنيا عاملين كادحين ، لِيبلوَهم أيُّهم أحسن عمـلا ، فيتبين العامل من الخامل ، ويتميز الطيب من الخبيث ، ثم يوفى كلاً

جزاء ما عمل من خير أو شر ، فى العاجلة والآجلة ، جزاء وفاقا ، عدلا وفضلا ، كما قال سبحانه : (وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ) وقال : (نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

ثم كان من تمام رحمته تعالى بهم وحكمته فى تصرفه فيهم أن جعل زمان حياتهم فى الدنيا زمانين : زمانا يعملون فيه عمل الكد والنصب ، وهو النهار . وزمانا يسكنون فيه ليستريحوا مما لحقهم من العناء والتعب ، وهو الليل .

وقد امتن الله المنعم على عباده بهذه النعمة فى عدة آيات من كتابه العزيز ليذكرهم بها وليشكروه تعالى على الإنعام بها ، فلا يضيعوا شيئا منها فى غير منفعة ، ولا يغيروا خلق الله وحكمته فى تخصيصه كل زمان منهما بمزايا وفوائد على حدته . فمن ذلك قوله عز وجل : (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا) وقوله : (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا . وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا) وقوله : (وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) .

هذه الآيات الكريمة ونظائرها ، وكذلك السنة الشريفة كما سيأتى ، قد ذكرت الناس بنعمة الله تعالى عليهم فى خلقه لهم الليل والنهار ، كما ذكرتهم بحكمته سبحانه فى خلقه لهما على هذا الوضع والسنن القويم فيهما .

بين جلت حكمته أنه خلق الليل لعباده وجعله لباسا لهم ، فكما أن اللباس من الثياب يقيهم الحر والبرد ، ويستر منهم أبدانهم ، ويتزينون به ويتجملون ، كما قال : (يَا بَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا [1]) كذلك الليل

(١) لباس التجمل والزينة .

يستر الانسان بظلمته عن العيون اذا أراد الفرار من العدو ، أو أراد هو مهاجمة عدوه ومباغتته فى حرب اتقاءً لضرره ، أو أراد الاختفاء من حيوان مفترس مُطاردٍ له ، أو إخفاء ما لا يحب أن يطلع غيره عليه . وفى ذلك يقول المتنبى :

وكم لظلام الليل عندك من يد[1] تخبّر أن المانوية[2] تكذب
وقاك ردى[3] الأعداء تسرى اليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأيضا كما أن الانسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل قوته ويندفع عنه أذى الحر والبرد ، كذلك الليل بسبب ما يحصل فيه من النوم يزيد فى جمال الانسان وفى لين أعضائه وتكامُل قواه الحسية ، ويزول عنه أذى التعب الجسمى وضررُ الأفكار النفسية المُوحشةِ ، فإن المريض والمكروب ومضطرب البال اذا ناموا بالليل وجدوا الخفة العظيمة والراحة والسكون والطُمأنينة .

كذلك بيّن لهم سبحانه أنه جعل لهم النوم سُباتا أى موتا . والعرب تسمى الميت مسبوتا ، من السبْت وهو القطع ، فإن كلا من الميت والنائم مقطوع مكفوف عن كل ما كان يزاوله وقت حياته ويقظته . لذلك كان كل منهما مسبوتا وميتا ، وكان النوم أحد الموتين . وكما سمّى الله تعالى النوم سُباتا أى موتا فى الآيات التى تلوناها عليك ، سماه وفاةً وسمى اليقظةَ منه بعثا فى آية أخرى وهى قوله : (وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) .

أما تسمية النوم سباتا ووفاة ، واليقظةِ منه بعثا فهى تسمية واضحة جلية السبب ، لما يَعقُبهما من تجدد القوى الحسية والمعنوية ، وعودة النائم الى ما كان عليه من قبل أن يمسه الاعياء والفتور وقت العمل . فلهذا التجدد كان النوم موتا واليقظةُ منه بعثا

(١) خير ومنفعة . (٢) نسبة الى مانى وهم زنادقة يعتقدون أن النهار إله الخير والليل إله الشر (قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا) . (٣) شرهم وسوء تدبيرهم ومكرهم .

وخلقا جديدا ، وكانت نعمة الله سبحانه فى النوم كبيرة ، ومنته به على عباده جليلة ، وكان نوم الإنسان بضع ساعات فى الليل موتا له يحييه ويعيد اليه ما فقده من قواه وبريحها ، ويزيح عنها ما أصابها من التعب والخمول وقت اليقظة والعمل ، وينشطها من الفتور والكسل ، والسآمة والملل .

كذلك بيّن لهم جلت نعمته أنه جعل لهم النهار معاشا أى وقت حياة لهم من نومهم ، ومن البين أن حياتهم من نومهم هى يقظتهم منه . فكما سَمَّى نومهم موتا سَمَّى يقظتهم حياة ، وسماها أيضا نشورا وبعثا فى آيات أخرى . وقد عرفت سر هذه التسمية فيما تقدم قريبا .

والمعنى أن الله جل ثناؤه جعل لهم النهار وقتا يَحْيَوْن فيه من موت النوم ، ويستيقظون فيه ويتقلبون فى مزاولة أعمالهم ومباشرة شئونهم وقضاء مآربهم والقيام بما يصلحهم دينا ودنيا .

وصفوة القول أن الله تبارك وتعالى جعل الليل والنهار نعمتين عظيمتين أنعم بهما على الناس ، وكان من بالغ حكمته أنه جعل لكل منهما خصائص ومزايا يعود جميعها عليهم بالخير العظيم والبر الكثير ، إن قَدَرُوهما حَقَّ قدرهما ، وشكروهما حق شكرهما ، لكن هل دَرَى الناسُ ما قَدْرُهما حتى يقدروهما ؟ وهل دَرَوْا أيضا ما شكرُهما حتى يشكروهما ؟ ندع الآن درايتهم بهذا وذاك جانبا ثم نقول :

أما قدرهما وعظم آثارهما وكثرة منافعهما وكونهما عِمَادَ الحياة الطيبة وقوامَها فقد ذكرنا لك منها فيما سبق ما فيه غَنَاء وكفاية .

وأما شكرهما فهو ألَّا يهملَهما الناس ولا يعطّلوهما عما أراده الله تعالى من خلقه لهما وإنعامه بهما عليهم ، بأن يتركوا العمل كلاًّ أو بعضا فى النهار ، والنومَ والراحةَ كذلك

فى الليل، فإنهم إن فعلوا ذلك يكونوا قد غيروا خَلْقَ الله، وحوّلوا نعمة الله الى غير وجهها، ولم يضعوها حيث أوجب أن توضع، ولم يصلوها حيث أمر أن توصل، فحرموا أنفسهم بسوء تصرفهم أن ينتفعوا بنعمة هم اليها فقراء، وعَصَوْا مَنْ أنعم بها مع غناه عنهم وعلمهم أنه على سَلْبِهِمْ إياها اذا يشاء قدير. فكان عليهم إن كانوا من الشاكرين أن يضعوا نعمة النهار حيث وضعها الله، وقد جعلها حياة للعمل ومباشرة المصالح، وأن يضعوا نعمة الليل كما وضعها الله، وقد جعلها وقت الراحة واسترجاع ما فقدوه من القوى والنشاط.

هذا هو الذى نزله الله تعالى بحكمته الى الناس فى كتابه الكريم، وأمَرَ رسولَه صلى الله عليه وسلم أن يبلغه ويبينه لهم، كما قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

لقد بَلَّغَ صلى الله عليه وسلم رسالةَ ربه كما أُمِرَ، وبيَّنها للناس أعظمَ البيان وأكمله، تارة بالقول وتارة بالعمل، ليكون العمل مثبِّتا ومقرِّرا للقول، وشاهدا عدلا بصدقه، وَمَظْهَرًا واضحا لآثاره الحميدة التى هي سر التشريع وحِكَمُه الإلهية.

فمن ذلك قوله وعمله صلوات الله عليه وسلامه الواردان فى هذا الحديث الذى نشرحه، وهو (اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا. وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ).

فأما تبليغه القولى فهو فى قوله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا). وهو يدل على أمور: (الأول) مزيد رأفته ورحمته بأمته، وعظيمُ حبِّه لخيرهم واستقامةِ أمورهم وصلاح أحوالهم، إذ دعا الله تعالى أن يبارك لهم فى بكورهم، فيجعله عملا سديدا يعود عليهم بالخير العظيم والنجاح والفلاح الدائم.

(الثانى) مدحه للبكور وثناؤه عليه ورضاه عنه، إذ كان هو مَنشأَ دعائه لأمته بأن يجعل الله تعالى بكورهَا مَنْبِتاً خِصباً تجْنِي منه الخيراتِ والبركاتِ وكلَّ ما يكسبها الفوز والصلاح والتوفيق للسَّداد .

(الثالث) أمره عليه الصلاة والسلام لأمته بالبكور، فإن مدحه له ورضاه عنه ودعاءه بأن يجعله الله تعالى سببا فى بركة أمته، كل ذلك قد تضمن أَمْرَ الأُمةِ بالبكور وحثَّهم على العمل به والحرصِ عليه، حتى يكونوا أهلا لعناية الرسول صلى الله عليه وسلم بهم فى دعائه لهم، وحتى يستحقوا أن يتفضل الله جل ثناؤه فيستجيبَ دعاءَ النبى عليه الصلاة والسلام لهم بالبركة .

ثم انظر بعد هذا الى تعبيره صلى الله عليه وسلم بالبكور، تَرَ أنه ليس ببِدْعٍ ولا بغريب أن يَصْدُرَ مثلُه عن مقام النبوة العليا التى أُوتِىَ صاحبها جوامع الكَلِمِ، وعَلَّمه ربُّه من لَدُنْه علما، وجعله مبلِّغا عنه لعباده ما أنزله اليه من الآيات والذكر الحكيم، تَرَ أنه صلوات الله وسلامه عليه قد أخذ بأيدى الأمة ووقفها على رأس الطريق الأعظم، الذى تتفرع منه السبل المسلوكة الآمنة، وتتشعب منه جميع الشُّعَبِ الموصلة الى الغايات الحميدة، ذلك هو البكور الذى دعا الله تعالى أن يبارك لهم فيه .

ذلك أن البكور إنما يكون أولَ النهار وفاتحتَه . ومما لا مراء فيه أن ذلك يتوقف على تحقق أمرين لا بد منهما معا : أولهما أن يكون المبكِّرُ قد نال نصيبا من النوم المشروع يستطيع معه التبكير، ويُسَهِّل عليه المسارعة الى مزاولة العمل مع النشاط والجد فيه والإتقان له . أما إذا لم ينل هذا النصيبَ من النوم فإنه لا يمكنه التبكير، وإذا حاوله فإن عمله حينئذ لا يكون عمل النشاط والرغبة الخالصة والإحكام، بل يكون عمل الكسل والكراهية والسآمة والخلل، وكل ذلك أثر سيِّئ لعدم استيفائه قسطه من النوم المشروع الواجب .

ثانيهما أن يبادر المبكّر فينامَ فى أول الليل الى الوقت الذى تكون فيه القوى الحسية والمعنوية قد تكاملت وعادت سيرتَها الأولى . وقد بيَّن الدين والطب كلاهما الوقتَ الكافىَ الذى جعله الله تعالى للناس لباسا ، وجعل نومهم فيه سباتا .

قد تبين لك من هذا أن البكور لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان كل من الليل والنهار قد وضعه الناس حيث وضعه الله الحكيم ، فحافظوا على أن يكون الليل وقتَ النومِ والراحة واستجمامِ القوى ، وعلى أن يكون النهار وقتَ العمل والكدّ وقضاء مصالح الدين والدنيا .

إن الناس اذا فعلوا ذلك واتبعوا ما أرشدهم اليه الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا جديرين بعنايته أن يدعو لهم بالبركة ، كما يكونون أيضا حقيقين باستجابة الله سبحانه دعاء نبيه لهم فيبارك لهم ويزيدهم من فضله ، (وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) .

وبعد فقد ظهر لك أن هذه الكلمة النبوية وهى (البكور) قد تضمنت فى جملتها أَمْرَ الأمة بأن تحرص كلَّ الحرص على حكمة الله تعالى فى خلقه الليلَ والنهارَ لعباده ، وأن تقدرهما حقَّ قدرهما ، وأن تؤدّىَ ما وجب عليها من شكرهما ، وذلك كله إنما يكون بالبكور المستلزم لوضع كل من الليل والنهار فى الموضع الذى قضت به حكمة الله العليم الحكيم . وقد بينا ذلك فيما سبق .

هذا تعليم من تعاليم الإسلام التى بيَّن بها النبي صلى الله عليه وسلم للناس من نحو أربعةَ عشَرَ قرنا ما نُزّلَ اليهم من ربهم فى مثل قوله تعالى : (أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ[1] ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ[2] ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ[3] ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)

(١) من وقت زوالها . (٢) مجىء ظلمته . ومن وقت الزوال الى مجىء ظلمة الليل أربعة أوقات : الظهر والعصر والمغرب والعشاء . (٣) صلاة الصبح .

وقوله : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ [١] الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [٢] . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ [٣] وَأَدْبَارَ [٤] السُّجُودِ) .

عَمِلَ صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بما عاهدوا اللهَ عليه من الإيمان الصحيح والعمل الخالص فظَفِروا بثمراتها الطيبة الدينية والدنيوية وما بدّلوا تبديلا ، ثم استمر المسلمون على هذا المنهج القويم قائمين على أمر الله حافظين لحدوده حتى خَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ (اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) وعَكَسُوا آيتي الليل والنهار وَعَدَلوا بهما عن حكمتهما ، حتى كادوا يَمْحُون آيةَ النهار ويجعلون آية الليل مُبْصِرَةً .

فلقد اتخذوا من الليل أوقاتا أضاعوها فيما لم يأذن به الله ولا يرضى به من له مُسْكَةٌ من دين أو عقل . نبذوا أوامر الله تعالى استهانة بها ، وعكفوا على منهياته استحسانا لها ، وأعرضوا عما بلَّغهم الرسول صلى الله عليه وسلم وعلّمهم إياه من علوم الدين والدنيا .

أَفْنَوا الليلَ فى فنون من المعاصى والفجور وسماع الْهُجْرِ من القول البذىء الذى تَسْتَكُّ منه الأسماع ، وفى رؤية ما تُغْمِض عنه أعين ذوى المُرُوءات . أَفْنَوْا ليلهم فى هذا وأمثاله وهم يعلمون أن فناءه على هذا الوجه القبيح فناء لدينهم ودنياهم وأعمارهم وأخلاقهم وأموالهم وعقولهم وصحتهم ، ولكن الشيطان سَوَّلَ لهم وأملى لهم فأصمَّهم عن سماع النصائح والمواعظ ، وأعمى أبصارهم أن ترى قبح ما يظنونه سلوة وتمتعا ، كما أعمى بصائرهم أن تتعظ بمن كان قبلهم وافتتن كما افتتنوا وخاض كما خاضوا و (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) .

---

(١) صل حامدا لربك صلاة الصبح قبل طلوع الشمس . (٢) أى صل كذلك صلاة الظهر والعصر قبل الغروب . (٣) أى صل كذلك المغرب والعشاء . (٤) أى صل كذلك النوافل المسنونة عقب الفرائض .

أتظن أن أحدا يَقضِي ليلَه كله أو جُله لاهيا لاعبا غافلا ثم يستطيع أن يبكِّر مسارعا الى شيء من أعماله دينية أو دنيوية فى رغبة وجد ونشاط ؟ ! إن الواقع يشهد بغير ذلك ، فإننا كثيرا ما رأينا الذين أُغرِمُوا بتضييع أعمارهم وأموالهم فى السهر والسمر وفنون اللهو واللعب يُصبحون شاحِبِي الألوان منهوكِي القُوَى مَرْضَى الأعين ضعاف الأبدان .

فإن انقطع بعضهم عن عمله مرة ، سواء أكان مستقلا فى عمله أم مرءوسا ، فسوف ينقطع عنه مرارا ويؤول أمره الى البطالة ويعيش عالة متكففا ، وإن تكلف الذهاب الى عمله ذهب بعد فوات وقت الذهاب وكان عرضة للخسران وللتعنيف والعقاب إن كان مرءوسا ، وكان عمله عرضة أيضا للإهمال والخطأ والتأخير وتعطيل المصالح وضَياعها على أربابها ، ثم تكون عاقبةُ أمرِه الطردَ والحرمانَ ، ولا ينفعه ندمه إن ندم ، ولا شياطينه الذين أغْوَوْه وزيَّنوا له سوءَ عمله .

لا بِدعَ إذا كانت عاقبة هؤلاء الغاوين اللاهين هذه العاقبة الذميمة ، فإنهم قد حرَمُوا أنفسَهم أن تنالَهم دعوةُ النبي صلى الله عليه وسلم بالبركة لأمته الذين عملوا بوصيته وحافظوا على البكور وانتفعوا بنعمة الله تعالى عليهم بالليل الذى جعله لباسا ، وبالنوم الذى جعله سُباتا ، وبالنهار الذى جعله معاشا ونُشورا ، فكان جزاء أولئك المفرطين المستهترين أن يُحرَموا من البركة فى أعمارهم وأعمالهم وأموالهم وعافيتهم (وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وإن تَعجَبْ من انتهاك هؤلاء اللاعبين الذين نُشِرُوا [١] فى ليلهم وسُبِتُوا [٢] فى نهارهم ، ومن امتهانهم لأحكام الاسلام الذى ينتحلون الانتماء اليه ، فاعْجَبْ أشدَّ العجب من عمل أولئك القوم الآخرين واعتصامهم بذلك التعليم النبوى الذى جاء

(١) تيقظوا وسهروا . (٢) ناموا .

فى الحديث الذى نشرحه ، وهو الحث على البكور لنيل ما فيه من البركة والخير الكثير ، مع أن أولئك القوم ليسوا بمسلمين ولم يدَّعُوا الانتسابَ الى الاسلام !.

ذلك أن بعض [1] الدول الغربية غير المسلمة قد أبطلتْ فى هذه الأيام المحافل الرسمية التى جرَتْ بها عادتُها من قبلُ ليلا ، وحظَرتْ على مرءوسيها وعمّالها أن يضيعوا شيئا من لياهم فى سهر أو سمر . والذى دعاها الى ذلك أن تضييع الليل فى شىء من هذا يستوجب تضييع البكورِ والمبادرةِ الى مزاولة الأعمال ، ويستلزم تأخيرَها وتراكمَها وتطرق الخلل والخطأ اليها ، زد على ذلك أنواعَ الضرر والفساد الكثير الذى يستلزمه السهر والسمر ، وقد عرفت منه الشىء الكثير .

عَلِمَ الناسُ فى هذه الأيام بذلك الخبر فتحدثوا به فى المجالس واستحسنوه وأَثْنَوْا على الآمرين به وأطالوا وأطنبوا ، وتلقَّوه بالقبول والإذعان ، وتمنوا أن يقتدى المسلمون بتلك الدولة غير المسلمة ، قائلين إنها ما أمرتْ بذلك إلا وهى على بينة من أمرها ، شأن كل الدول الغربية الأوربية التى لا تدين بالإسلام .

أما نحن فلنا كلمتان تتصلان بهذا الخبر :

الأولى : هى أنك قد علمت أن الأمر بالبكور لما فيه من المنافع العامة والخاصة دينية ودنيوية ، هو من جملة التعاليم الاسلامية التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية من قبلِ أن يَصدُرَ أمرُ هذه الدولة بنحو أربعةَ عَشَرَ قرنا ، فأين كان أولئك الذين جهلوا هذا الحكم ولم يعلموا أنه من تعاليم الاسلام الذى يُعَدُّون من أهله ، حتى إذا بلغهم عن غير المسلمين أَثْنَوْا عليه الثناءَ الجميلَ وتقبلوه وسلَّموا تسليما !.

الثانية : قد ذكَرنا هذا الخبرُ بحديث كثيراً ما كان الامامُ الزاهد الحكيم أستاذُنا الشيخُ حسن الطويل رحمه الله يَذْكُرُه : سمعناه لأول مرة يقول : « والله

(١) هى الدولة الايطالية .

لن يفلحوا » فلم نفهم من أراد وما أراد ، فاستفهمْنا فقال : أريد هؤلاء الذين التحفوا بالاسلام وتسمَّوا بأسماء أهله ، ولكن (إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ) . اشمأزّتْ قلوبهم ، و (لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) . أمّا إذا قيل لهم : « قال فلان العالم الأوربى كذا » فإنك تراهم قد استخذَوْا وخضعوا وأذعنوا ، كأن هؤلاء الناسَ لا يؤمنون إلا إذا جاءهم الإيمان من أوربا ، أما إذا جاءهم عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يكونون فى شك مريب [(١)] .

نقول : لو عاش رحمه الله الى زماننا هذا لا نقطع رجاؤه فى إيمانهم حتى ولو جاءهم الإيمان من أوربا ، فإن غرامهم بالإباحة وإطلاقهم من كل قيد فيما يأتون وما يذرون قد حملهم على الإلحاد ورفض الشرائع والأحكام الإلهية (وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ) .

وأما تبليغه صلى الله عليه وسلم ما أمره الله تعالى به تبليغا عمليا فهو فى قوله فى الحديث : (وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشًا بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ ٱلنَّهَارِ) . وقد قدمنا لك أَن الحكمة فى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرن القول بالعمل فى كثير من الأمور هى مزيد التثبيت والتقرير للقول وإظهار صدقه وحسن نتائجه . ومن ذلك خاتمة هذا الحديث الشريف ، وهى ما ناله صخرُ بنُ وَدَاعَةَ راوى ذلك الحديث من الثروة وكثرة المال . وهذه العاقبة الطيبة هى البركة التى دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته فى بكورها ، وقد حققها الله تعالى لصخر بن وداعة جزاء له على صدق إيمانه وحسن امتثاله وتسليمه (وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم سابقا

(١) انتهى كلامه رحمه الله .

الفتاوى والأحكام

ورد إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع ما يأتي : —

هل كل منكر لربوبيته تعالى من ذرية آدم عليه السلام، أو عابد لغيره، أومشرك به مأخوذ يوم القيامة بإقراره على نفسه يوم أن قال له ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ؟

وهل هـذه الشهادة خاصة ببنى اسرائيل إلحاقا بالآيات السابقة أو عامة لكافة البشر لقوله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ؟

وفى الختام أسأل الله أن يقوى بكم محجة الاسلام آمين ؟ محمود العلوانى
يوزباشى بالمعاش بعزبته بايتاى البارود

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

لقد كان من مزيد نعمة الله تعالى على بنى آدم أنْ جَعَلَ لهم الأرض مستقرًّا ومتاعا الى حين، ثم إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون، ولكن لما كان ذلك لا يتم إلا اذا

كانوا عالمين بوجود المنافع التى تصلح بها حياتهم فى الدنيا والآخرة، قضت حكمته الإلهية أن يُتِمَّ نعمتَه عليهم بأن يَهديَهم الى ما ينفعهم فيفعلوه، والى ما يضرهم فيجتنبوه.

ثم إن تلك الهداية الإلهية نوعان: هداية تشريعية، وهداية فِطْرية. فأما الهداية التشريعية فإنها تكون بالوحى وإرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية فيها تِبْيان كلّ شىء من مصالح الدين والدنيا.

وأما الهداية الفطرية فإنها تكون بما أَوْدَعَه الله تعالى فى فطرة بنى آدم، وبما جَبَلَهم عليه من العقول والمدارك، حتى صاروا مستعدّين بأصل جِبِلَّتهم للإيمان به والإقرار بربوبيته وتوحيده والاعتراف بأنه هو الذى يُرْجَى ثوابُه ويُرْهَبُ عقابُه.

ثم إنه سبحانه قد بدأ هذه السورة (سورة الأعراف) بذكر الهداية التشريعية التى أنزلها على عبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لينذرَ بها الناسَ كافة ويذكّرهم بما ينفعهم ويأمرَهم باتباع ما أُنزل اليهم من ربهم، وذلك قوله تعالى: (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) الآيات. ثم ذكر سبحانه بعد ذلك ما شاء أن يذكره مما يتصل بهذه الهداية المحمدية. ثم قَفَّى عليها بذكر الهداية التشريعية التى أوحاها الى بعض رسله الكرام، فذكر من قَصَصهم مع أممهم ما فيه عِبرةٌ وعِظةٌ لقوم يتفكرون. ثم ختم سبحانه ذلك القَصَصَ بقَصَص سيدنا موسى عليه السلام مع بنى اسرائيل والمصريين، مبيّنا ما كان من تلك الأمم جميعها من إيمان وكفر وطاعة ومعصية، وما جازَى به كل فريق منهم جزاء وِفاقاً.

بعد أن أتمّ سبحانه الكلامَ فى الهداية التنزيلية التشريعية أَتْبَعَها بذكر الهداية الفطرية فى قوله عز وجل: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) الآيات، فبيّن أنه تعالى شأنُه كما هدى بنى آدم كافةً بما أوحاه إليهم على لسان رسله الصادقين، كذلك هداهم عامةً هداية فطرية بما رَكَّب تكوينَهم عليه من العقول

والمدارك والمشاعر والوجدان، حتى صاروا جميعا أمة واحدة فى أصل الخلقة مستعدّين غاية الاستعداد بحسب تركيبهم الآدمى لمعرفة ربهم وأنه وحده إلههم الذى لا تصرّفَ فيهم لغيره بخير ولا شر، ولا بثواب ولا عقاب.

لهذا لم يكن لبنى آدم مَناصٌ من أن يشهدوا على أنفسهم بلسان مقالهم أو حالهم أن الله جل ذكره هو ربهم لا إله لهم غيرُه، بيده نواصيهم واليه مآبهم وعليه حسابُهم. كل ذلك لئلا يكونَ لهم حجةٌ على الله يوم القيامة، كما حكى الله سبحانه ذلك بقوله: (أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ. أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ).

بهذا يتّضح لك غايةَ الاتضاح أنّ قول الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) الآيات بيان للهداية الفطرية التى فطر اللهُ الناسَ عليها شاملةً لبنى إسرائيل وغيرهم، وأما الخاصة بهم فإنما هى الآيات من قوله تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى) الآيةَ الثالثةَ بعد المائة الى آخر قوله تعالى: (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ) الآيةَ الحاديةَ والسبعين بعد المائة.

ثم اعلم أن الثواب والعقاب جزاءان قضى الله تعالى بهما فضلا وعدلا على عباده بعد أن تتحقق الهدايتان التشريعية والفطرية معا، فكان من تمام رحمة الله تعالى وعظيم رأفته بعباده أنه لم يجعل الفطرةَ الآدمية والعقولَ الإنسانية وحدهاَ مناطاً للجزاء والمؤاخذة، بل حاط الفطرةَ وصان العقولَ بما يحفظها من الزغل والخطأ واتّباع الشهوات، وكان ذلك بالهداية التشريعية بالوحى وإنزال الكتب السماوية وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، كما قال سبحانه: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) أى لم يكن من سنتنا وبالغ حكمتنا أن نعذب أحدا تعذيبا دنيويا مستأصلا، ولا أخرويا إلا بعد أن نبين لهم سبل السعادة والشقاء، وحينئذ تَكملُ لبنى آدم الهدايتان: هداية الفطرة وهداية التشريع، ولا يكون إذ ذاك لأحد عذر ولا حجة.

وكما قال تعالى أيضا مبينا للهدايتين المذكورتين : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ). فقوله تعالى : (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) بيان للهداية الفطرية. أى كانوا جميعا متساوين فى أصل فطرتهم وخلقتهم وما أودعناه فيهم من القوى والعقول. وقوله سبحانه : (فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ) الآية بيان للهداية التشريعية التنزيلية.

وصفوة القول : أن مَنَاطَ الثواب والعقاب والرضا والمؤاخذة الواردةِ فى دين الله تعالى ، إنما هو الهدايتان المذكورتان معا كما جاء فى الآيات التى تلوناها عليك.

وأما أهل الفترة والصبيانُ ونحوُهم فلهم مبحث آخر. وكلام العلماء فيهم مشهور. والله هو الهادى الى سواء السبيل ؟

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم سابقا

الظُّرف والمُلح

قال محمد بن واسع لقُتَيْبَةَ بن مُسلِم : إنى أتيتك فى حاجة رفعتُها إلى الله قَبْلَكَ. فإن يأذنِ اللهُ فيها قضيتَها وحَمِدناك، وإن لم يأذَنِ اللهُ فيها لم تَقْضِها وعذَرناك.

خطبة

فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان

عند افتتاح كلية أصول الدين

في صبيحة يوم السبت ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠ الموافق ٣ أكتوبر سنة ١٩٣١

بدأت الدراسة في كلية أصول الدين فأقبل اليها حضرات العلماء والطلاب مستبشرين مبتهجين لهذا العهد الجديد ، وقبل الشروع في الدروس اجتمع حضرات الأساتذة والطلاب بالمعهد ، فافتتحت الحفلة بقراءة آيات من الذكر الحكيم ، ثم قام حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ المعهد ، وألقى خطبة ذكر فيها الغاية التي أنشئت من أجلها هذه الكلية ، وأودعها نصائح لحضرات الأساتذة والطلاب ، فكانت خطبة بليغة عامرة ، ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي بنى صرح الإصلاح على قواعد الحق ، فحرر الفكر ونقل العالم من وحشية الى مدنية ، وعلى آله وصحبه الذين جاهدوا وصابروا وصبروا حتى كانت كلمة الله هي العليا .

إخواني الأجلاء وأبنائي الأعزاء .

أحييكم أطيب تحية ، وأعاهدكم على الإخلاص وأرجوه منكم لعملكم وأنفسكم ، وأسأل الله لنا جميعا التوفيق في مهمتنا .

بسم الله نفتتح هـذه الـكلية المباركة ، كلية أصول الدين التى أسأل الله تعالى أن يجعل لها نصيبا وافراً من اسمها ، حتى تكون معقلا للدين الحنيف ، تخرج للعالم الاسلامى علماء عاملين ، ودعاة للحق كفاة موفقين ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة حامى حمى الدين ملك مصر المعظم مولانا **أحمد فؤاد الاول** الذى انفرد من بين ملوك الاسلام فى هذا العصر بشدة الغيرة على دينه والذود عن حياضه .

وإنى أحب منـذ الساعة الأولى أن أصـور لحضراتكم الغاية التى من أجلها أنشئت هذه الـكلية ، لتجعلوها نصب أعينكم ، وتتخذوها دليلا لكم فى سيركم نحو غرضها الأسمى :

قضى قانون الأزهر الجديد أن يوجه الى هـذه الـكلية مهمة القيام على أصـول الدين وآدابه ، وهى مهمة خطيرة ، بل شرف عظيم يجب أن تتقـدم لحمله وآدائه بقلوب تملؤها العزيمة على إبراء ذممنا ، والرغبـة الى الله تعالى أن يسدد خطانا ويكلل مجهودنا بالفوز والنجاح .

إن عقائد الاســلام هى دعائم الحق التى لا قوام للعدل بدونها ، ولا بقاء لسعادة الأمم إلا ببقائها حية فى قلوب المسلمين ، مسـلمة لا شـية فيها من شوائب الشكوك والأضاليل ، ومنذ أقدم عصور الاسلام انقطع عدد كبير من العلماء لدراستها واستنباطها من أدلتها ، ثم قاموا عليها حفظة أمناء ، وحماة أقوياء ، ودعاة ينشرونها بين المسلمين ، ويذودون عنها شبهات المضلين . لسنا بصدد البحث فى ذلك النضال الطويل الذى قام به أولئك الأسلاف الأمجاد . وإنما نريد أن نلقى نظرة عامة عجلى على ذلك العمل الجليل لنتعرف منها طبيعة العمل الذى خلفناهم فيه ، وأصبحت ذممنا رهينة بأدائه :

إن هذا العمل الطيب يجمعه كلمتـان : (الأولى) الدعوة . و (الثانية) الدفاع . ففى سبيل الدعوة عقد علماؤنا رضوان الله عليهم الدروس ، حية لا ميتة ، خضرة ناضرة ،

لاجافة ذابلة، ونصبوا على هذا الوجه أنفسهم لتعليم شبان المسلمين وشيبتهم، ذكورهم وأناثهم، واتخذوا من المنابر والمساجد وسيلة لنشر الدين وغرس آدابه فى نفوس طهرت به وزكت، وكانت مثلا أعلى للأمم الحية ومفخرة للاسلام.

وقد صرفوا من وقتهم زمناً طويلا فى تأليف الكتب مبسوطة وموجزة لخدمة هذا الغرض الأسمى. أما تاريخ دفاعهم المجيد عن الدين الحنيف فحافل الصفحات بكبار الأعمال التى خلدت مجدهم، فقد هبت على الاسلام منذ أيامه الأولى أعاصير نزغات، وأوهام شكوك وأضاليل، أثارها عليه المتزندقون والملاحدة ممن يدعون العلم، وساعدهم بعض الذين أترفوا، فغرتهم زهرة الحياة الدنيا وأضلتهم الشياطين. كان شر هذه الدعوة مستطيرا، فانبرى لهؤلاء وهؤلاء من اصطفاهم الله من علماء الاسلام الأعلام، وأخذوا يفندون أضاليلهم، ويردون كيدهم فى نحورهم، حتى خفتت أصواتهم، وركد ريح باطلهم، وفشلت دعايتهم، وظهر أمر الله وهم له كارهون. ولا تزال مواقف جهاد السلف من العلماء مسجلة فى بطون مؤلفاتهم التى ندرسها، والتى لم ندرسها إلى يومنا هذا، وهى شاهدة لهم بالفضل والبلاء فى جهادهم.

أيها الاخوان :

اليوم وقد ذهب هذا السلف الصالح الى ربه راضيا مرضيا، وانتقل هذا الواجب إلينا، فقد أصبح أداؤه حقا علينا، ولعلكم تعلمون أن الاسلام لم يكن فى عصر من العصور أحوج الى البحث والدرس والنشر والذود عن حياضه منه فى عصرنا الحاضر، فقد شغل جمهورَ المسلمين عن دينهم انصرافُهم الى زخرف التقاليد الفاسدة الخلابة، والميل الى الأوهام والأضاليل الكاذبة الواردة اليه من العالم الغربى الذى يظنونه مهبط الرقى، فاعتنقوا مدنيته الشبيهة بالوحشية بما زينه الشيطان، وكفى به للانسان عدوا مبينا.

ها هى ذى حركة اللادينية التى نبتت بذورها وسقى زرعها فى أرض أوربا بشهوات الهوى حتى نما وترعرع قد نقلت عدواها الى هذا البلد الأمين، ووجدت لها فيه دعاة

وأنصارا يرددونها ، ويحاولون حمل الناس عليها بأساليب مختلفة ، وطرق متنوعة ، ما بين كتب وصحف ، وخطابات ومحاضرات تركت أثرا فى نفوس البسطاء ، ساعد على قبوله الجهل بالدين .

إن هذا الجهل وتلك الدعاية الى الخروج على الدين هما أصل لما ترون من انتشار الفساد وشيوع ضروب الرذيلة التى لم تكد تكون معروفة بين المسلمين ، فإن عقيدتهم الحقة الراسخة فى نفوسهم هى أساس الفضيلة ، وقد كانت لديهم هى القضاء الأكبر على الرذيلة التى ما فشت فى عصر إلا تدهور أهله ، وما ظهرت فى أمة إلا انساقت وراء وضيع الشهوات النفسية ، وصارت الى قرار الخراب والدمار ، والتاريخ أصدق شاهد بذلك .

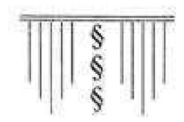
هذه حالة تستثير أحر زفرات الأسى من قلب كل مسلم مخلص ، وعلاجها فرض واجب علينا معشر العلماء ، وهو مقصودنا والغاية التى أنشئت لها هذه الكلية المباركة إن شاء الله تعالى ، فليست مهمتنا مقصورة على أداء عملنا بين جدرانها فحسب ، بل هى أوسع من ذلك نطاقا وأبعد مدى . هذه الكلية أعدت لتخريج العلماء المربين والدعاة الى دين الله من المرشدين بالقول الحق والعمل الطيب ، الذادة عن الاسلام الناشرين له بين طوائف المسلمين بكل الوسائل ، وبأقرب طرق الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأختتم كلمتى بارشادكم علماء وطلابا الى واجبكم ، أما أنتم أيها العلماء فعليكم أن تكونوا مثال سلفكم الصالح دينا وعملا ، وذكاء وفطنة ، وإخلاصا للعمل الذى فرضه الله عليكم ، وجعله أمانة فى أعناقكم ، تؤدونه الى أمتكم بالوجه الذى بينته لكم ، وعلى الطريق الذى يثمر إنقاذ المسلمين من كبوتهم ، وأن تدعوا كل ما يوجب انتقاداً عليكم أو حطاً من كرامتكم ، بذلك تكونون قد أديتم لله واجبه وللأمة حقها . وأما أنتم أيها الطلاب

فأنتم غرس اليوم وأمل المستقبل ، تهيئون اليوم لما يكون عليكم غدا من حقوق للدين والأمة ، ولا تكونون كذلك إلا اذا كنتم جادين غير هازلين ، أمثلة لطلاب العلم الديني فى صدر الاسلام ، أهل دين وتقى ونشاط واستقامة ، قائمين بما يرضى الله ورسوله ، فكونوا كذلك ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . اليكم جميعا أوجه النصيحة وأسألكم العمل بها ، وأسأل الله تعالى لى ولكم التوفيق ، واعلموا أنكم إن نصرتم الله نُصِرتم ، وإن حدتم عن الحق خذلتم ، أذكركم جميعا علماء وطلابا بآية من كتاب الله تعالى :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) .

أسأله تعالى أن يؤيدنا بالحق ، وأن يحفظ لنا حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المحبوب « **الملك فؤاد الأول** » ، مؤيدا منصورا ، وأن يقر عينه بحضرة صاحب السمو الملكى ولى عهد المملكة المصرية المحبوب « **الأمير فاروق** » وباقى حضرات أصحاب السمو الأنجال الكرام ؟



المسلمون فى أوربا الغربية (١)

لم يبق فى أوربا الغربية جاليات إسلامية تقيم بها إقامة مستديمة منذ القرن السابع عشر ، حيث كانت تُحمَل أسر العرب البربر إما على مهاجرة البلاد أو اعتناق المسيحية ، وقد استوطنت تلك الأسر فى بلاد الأسبان والبرتغال من سنة ٧١٢ الى سنة ١٦٠٩ ، وفى جزر الباليارى من سنة ٧٢٠ الى سنة ١٢٥٩ ، وفى مالطة من سنة ٨٧٠ الى سنة ١١٢٢ حيث لا يزال فيها من يتكلمون الى الآن العربية ويكتبونها بأحرف لاتينية ، كما يوجد بها جريدتان بأسماء عربية ، ويبلغ عدد سكانها ٢٢٨٥٣٤ نفسا و ٥٠٠٠٠ من المهاجرين ، وفى ايطاليا (فى ساردينيا من سنة ٧٥٠ الى سنة ١٠٢٢ وفى صقلية من سنة ٨٢٧ الى سنة ١٠٥٨ وفى لوشيرا من سنة ١٢٢٥ الى سنة ١٣١٠) وفى فرنسه (فى لانجادوك من سنة ٧٢٠ الى سنة ٧٥٩ وفى بروفانس من سنة ٨٨٩ الى سنة ٩٧٥) أما حصر جميع الآثار الاسلامية الباقية فى تلك البلاد (مثل أسماء الأماكن وأسماء الأسر والعادات المحلية) فقد تقدم بقدر كاف فى اسبانيا وصقلية ، لكنه لم تعمل له قائمة عن البرتغال وفرنسه .

ويوجد بفرنسا منذ حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ عدد كبير من أسر العمال من العرب والبربر الذين نزحوا اليها من شمال افريقيا من الجزائريين وكذلك من المراكشيين وأقاموا حول المصانع فى مقاطعات نهر السين (المقاطعات الثالثة عشر والخامسة عشر والتاسعة عشر والعشرين) بالقرب من مصبات نهر الرون ، ومقاطعة (پا ـ ده ـ كاليه)

---

(١) مترجم عن الفرنسية من دليل العالم الاسلامى .

Pas-de Calais ومقاطعة مرت ـ و ـ موزيل Meurthe - et - Moselle وكان عددهم ثمانين ألفا ذهب منهم ٥٠٠٠ الى بلجيكا ولوكسومبورج ، ولا تزال هـذه الهجرة الى فرنسا مستمرة رغم ما حاوله منشور ١٠ سبتمبر سـنة ١٩٢٤ ومرسـوم ٤ أبريل سنة ١٩٢٨ من منع المهاجرة من الجزائر Algérie .

وهـذا مجمل إحصاء رسمى للعمال الوطنيين الافريقيين فى فرنسا (ويلاحظ أنهم من الرجال فقط) وهذا الإحصاء عمل لغاية أول يناير سنة ١٩٢٨ وهو كما يلى :

الجزائريون : يوجد منهم فى مقاطعة الأردن Ardennes ١٣٢٧ نفسا ، وفى مقاطعة بوش دو رون Bouches - du - Rhône ١٠٠٠٠ عامل ، وفى مقاطعة جار Gard ١٢٤٢ وفى مقاطعـة هيرولت Hérault ٤٨٧٥ وفى مقاطعـة المرت — والموزيل ١١٥٤ ، وفى مقاطعة الشمال Nord ٣٦٥٤ ، وفى مقاطعة الرون Rhône ١٢٠٠ ، وفى مقاطعة السين Seine ٣٢٠٠ ، وفى مقاطعة السين — وواز Seine - et - Oise ١٨٧٥ ، فيكون مجموعهم مع بقية المقاطعات التى لم نأت على ذكر عددها هو ٦٤٢٨٦ نفسا .

التونسيون : يوجد منهم فى مقـاطعة الألب ماريتيم Alpes - Maritimes ١٠٥ أنفس ، وفى مقاطعة بوش ـ دو ـ رون Bouches - du - Rhône ٢٦٦ ، وفى مقاطعة هيرولت ٣٠٠ نفس ، وفى مقاطعة الرون ٢٠٠ ، وفى مقاطعة السين ١٠٠٠ ، وفى مقاطعة السين الأدنى Seine Inférieure ١١٠ فيكون مجموعهم مع المقاطعات التى لم يذكر عدد سكانها هو ٢٣٩٠ نفسا .

المراكشيون : يوجد منهم بمقاطعة الأردن ٢٤٠ نفسا ، وفى مقاطعة « كالفادوس » Calvados ١٩٢ وفى مقاطعة جيروند Gironde ٣٩٢ ، وفى مقاطعة « ايزير » Isère ٢١٦ ، وفى مقاطعة « لوار » Loire ٢٦٢٠ ، وفى مقاطعـة « مرت ـ و ـ موزيل » ٣٤٣ وفى مقاطعـة « نيفر » Nièvre ١٨٣ وفى مقاطعة الشمال ١٠٤٨ ، وفى مقاطعـة

الرون ١١٠٠ ، وفى مقاطعة « السافو » Savoie ١٨٦ ، وفى مقاطعة « السين » ٤٥٠٠ ، وفى مقاطعة السين الأدنى ٥٤٧ ، وفى مقاطعة السين - و - واز ١١٥٣ ، فيكون المجموع مع بقية المقاطعات هو ١٤٣٨٧ نفسا ، والمجموع الكلى هو ٨١٠٧٣ نفسا .

هـذا وكتب المسيو جستنار يقول : إنه يوجد فى فرنسا نحو ١٥٠٠٠٠ مسلم من شمال افريقا فى فرنسا .

أما ملخص التعداد الرسمى للعمال المسلمين من شمال افريقيا الموجودين فى باجيكا ولوكسومبورج Loxembourg فى سنة ١٩٢٨ فهو :

الجزائريون : فيوجد منهم ٣٠٣٣ فى مقاطعتى شارل روا Charleroi ومونس Mons فى باجيكا ، و ١٩٠ نفسا فى لوكسومبورج ، فيكون المجموع ٣٢٢٣ نفسا .

التونسيون : فيوجد منهم ٥٦٠ نفسا فى مونس (بلجيكا) .

المراكشيون : فيوجد منهم ١٢٩١ نفسا فى ليبج Liège فى باجيكا ، و ٧٠ فى لوكسومبورج ، فيكون المجموع ١٣٦١ ، ويكون المجموع الكلى هو ٥٢٤٤ نفسا .

فى انجلترا : يوجد بها منذ سنة ١٩١٣ طائفة مكونة من عشرات الأسر الانجليزية السكسونية اعتنقت الدين الاسلامى ، وتلتف حول مسجد أحمدى معتدل يسمى «جاهجهان» Shâhdjahân فى مدينة ووكنج Woking فى مقاطعة «صرى» Surrey وحول مسجد آخر أحمدى متطرف فى سوثفيلدس South fields فى لوندرة حيث ينشرون مذهب « النظامية » (فرع متطرف من الأحمدية) .

ويوجد عدا هذه الطائفة الوليدة بعض أحوال فردية اعتنق فيها بعضهم الاسلام فى ألمانيا ، حيث يوجد مسجد فى فيلمر سدورف ، وكذا فى النمسا وايطاليا واسبانيا وفرنسا ، حيث يوجد كذلك مسجد المعهد الاسلامى فى باريس ، ولكن تلك الأحوال

الفردية التى اعتنق فيها الاسلام لم تتعد أشخاص المعتنقين الى أسرهم أو تنتقل الى سلالتهم .

هذا وتوجد بعض الجرائد والمجلات الاسلامية التى تصدر فى بعض البلدان الأوربية ، ففى برلين (عاصمة ألمانيا) جريدة صدى الاسلام Islam Echo وتصدر باللغة الألمانية ، ومجلة «ناشريشتن» Nachrichten التى تصدرها شهريا جمعية نشر العلوم الاسلامية باللغة الألمانية ، ومجلة «ايران شار» Iranschahe الشهرية ، وتصدرها جمعية كاويانى الفارسية منذ سنة ١٩٢٢ ويقوم بتحريرها باللغة الفارسية هـ . قاسم زاده و «المجلة الاسلامية» Moslemische Revue ويحررها منذ سنة ١٩٢٤ باللغة الالمانية مولاى صدر الدين الأحمدى المذهب ، وتصدر شهريا .

وفى جنيف (بسويسرا) «مجلة الأمم» Revue des Nations ويصدرها بالفرنسية ف.والى ، و«منبر الشرق» Tribune d'Orient ويصدرها بالفرنسية والعربية منذ سنة ١٩٢١ الشيخ على الغاياتى ، وهى نصف شهرية .

وفى لندرة : «مجلة الأديان» Review of Religions وهى لسان حال القضيائية فى لندرة ، ويصدرها باللغة الانجليزية منذ سنة ١٩٠٢ الأستاذ ا . م : دارد Dard وهى شهرية ، ومجلة «المنارة» Minaret ويصدرها منذ سنة ١٩٢٦ باللغة الانجليزية الأستاذ خ . شلدريك Sheldrake

وفى باريس : مجلة «المجاهدة» Mudjâhédé وكانت تصدر باللغة التركية سنة ١٩٢٤ ثم ألغيت ، ومجلة «الشرق الأدنى» ويصدرها بالعربية والفرنسية منذ سنة ١٩٢٥ الأستاذ ا . ت . هويك ، وهى نصف شهرية ، ومجلة «رسائل الشرق» Correspondance d'Orient وتصدر بالفرنسية ، وكانت تصدر كذلك جريدة «المستقبل» باللغة العربية ، ومجلة «الشرق والغرب» بالفرنسية ، ومجلة «فرنسا والاسلام»

بالفرنسية ، ثم وقفت تلك الجرائد عن الصدور ، ومجلة « فرنسا والشرق » France Orient ومجلة « العالم الإسلامى » وكانت تصدر بهذا الاسم منذ سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٢٦ ، ثم باسم « مجلة المباحث الاسلامية » Revue des Etudes Islamiques منذ سنة ١٩٢٦ ، و « الدليل السنوى للعالم الإسلامى » Annuaiare du Monde Musulman منذ سنة ١٩٢٣ .

وفى سان جال (بسويسرا) : مجلة « الاصلاح » ويصدرها باللغة العربية الأستاذ بركات الله منذ سنة ١٩٢٥ .

وفى مدينة زيوريخ (بسويسرا) : مجلة « فانجارد » (الطليعة — Vanguard) ويصدرها باللغة الانجليزيه والجوجارتية (إحدى لغات الهند) الاستاذ م . ن . روى ؟

الطُرف والمُلح

كان أُميّةُ بن عبد الله بن خالد وُجّهَ إلى محاربة أبى فُدَيك ، فانهزم أمية وأُتِىَ الحجاجُ بدوابٍّ من دوابِّ أمية قد وُسِمَ على أفخاذها «عُدّةٌ» فأمَرَ الحجاج فكُتب تحت ذلك « للفرار » .

صناعة الورق

كيف يصنع الورق [1]

هل تساءلت مرة اذا رأيت رجلا يطوف بالبيوت يجمع منها الخرق البالية ، أو رأيت عجلته التى يدفعها بيده محملة بكوم من الأطمار القذرة عما يريد أن يصنع بها ؟ المرجح لدينا أنها نافعة وإلا لما تجشم مشقة جمعها . إنما يجمعها ليبيعها لتاجر الخرق ، وهذا التاجر يفرزها طوائف مختلفة ثم يبيعها هو أيضا الى أصحاب المعامل ، وهؤلاء ينتفعون بها بكيفيات مختلفة ، فبعضها يقطع إربا ويمزج بالصوف ويستعمل فى صناعة المنسوجات الخسيسة ، ومقادير وافرة منها خصوصا التيلية تستعمل فى صناعة الورق .

واذا أريد استعمال الخرق فى هذه الصناعة فانه ينبغى البداءة بالعناية بجعلها أقساما وتسليمها للنساء لقصها قصاصات صغيرة ، وأجود الخرق التيلية هى التى تُقدّم ، لأنه لا يستعمل غيرها فى صناعة أحسن ورق الكتابة . وأما خرق التيل الواطى والقطن فتوضع فى أكوام أخرى على حسب درجة الورق المراد صنعه منها وصنفه ، ثم تغسل الخرق بالماء الساخن أو البخار وتبيض بمواد كيمائية [2] ثم توضع فى آلة تمزق فيها قطعا دقيقة تبلغ من الصغر حدا تصير فيه كالعجين الطرى الذى لا يرى فيه أدنى أثر للنسج . وهذه الآلة هي نوع جابية (حوض كبير) مملوءة ماء فيها دن جوانبه مغطاة بالمسامير

---

(١) مترجمة عن الانكليزية من الكتاب المعنون « كيف تصنع الاشياء الشائع استعمالها بين الناس » لمؤلفه أتكنسن .　　(٢) من هذه المواد كلوريد الجير .

المحددة يدور على نفسه دورانا مستمرا ، وفى قاع الجابية مسامير أخرى أو قواطع مثبتة فيه تمر بينها المسامير المثبتة فى الدن أثناء دورانه ، فتمزق هاتان الطائفتان من المسامير الخرق قطعا تبقى فى هذه الآلة عدة ساعات تصير فى نهايتها كثيرة الشبه جداً بالردغة [1] البيضاء الممزوجة بالماء ، وينقل هذا العجين الى جابية أخرى كبيرة تحفظ حرارتها عادة بالبخار .

وفى الوقت الحاضر يصنع معظم الورق بواسطة الآلات ، ولكن أجود أصنافا لا يزال يصنع باليد . ولما كان صنع الورق باليد أيسر فهما رأيت أن أبدأ بوصفه ثم أقول بعض كلمات عن الآلات التى تقوم الآن مقام اليد فى عملها :

يقف صانع الورق الذى يسمى أحيانا بالغراف بجانب الجابية المملوءة بعجين الورق أو ردغة الورق كما يصح لنا أن نسميه بذلك وبيده قالب ليس هو إلا منخل سلك مربعا منسوجا سلكه كالنسيج العادى ، وقالب آخر يسمى معيارا يستطيع أن يطبقه على رأس القالب الأول تطبيقا تبرز فيه منه حافة صغيرة ، قريبة الشبه جداً بالحافة التى تبرز من إطار الصورة الشمسية ، مرتفعة عنه ، فاذا ركب المعيار على القالب غمسهما الغراف — كما يغمس الطبق — فى عجين الورق واغترف بهما من الجابية قدر ملء طبق من هذا العجين ، وحرك القالب يمنة ويسرة ليبسط العجين فى جميع نواحيه، فيسيل الماء من ثقوب السلك الذى فى قاعه ويتخلف عليه قشرة من العجين شبيهة بطبقة صغيرة من الردغة البيضاء ، فيضع صانع الورق القالب ناحية ويأخذ قالبا آخر ليغترف به من الجابية كما فعل أولا مستعملا القالب العلوى أيضا كما سبق، فاذا مكث القالب الأول بعض ثوان ليصفى عنه الماء تناوله عامل آخر يسمى الرقّاد وقلبه وهز ورقة العجين المتماسكة فأخرجها منه ووضعها على قطعة من نسيج الصوف وغطاها بقطعة أخرى منه وأعاد

(١) الوحل .

القالب الفارغ للغراف ليغترف به من العجين، ثم يخرج منه الرقاد الورقة الأخرى بهذه الطريقة عينها، ثم توضع هذه الأوراق واحدة فواحدة بعضها فوق بعض مفصولا كل منها عن الأخرى بقطعة من نسيج الصوف حتى تصير كوما مؤلفا من عدة أوراق، ثم يوضع هذا الكوم تحت مكبس قوى يكبس فيه كبسا شديدا حتى يطرد ما يكون باقيا فيه من الرطوبة، وتضغط طبقات الورق فى آن واحد، ثم تكبس عدة مرات بدون أن يتخللها قطع النسيج، ثم تنشر على أحبال لتجف.

فاذا جفت الأوراق صارت فى غاية التماسك والقوة، غير أنها لا تكون صقيلة لامعة كورق الكتابة بل كابية متخلخلة أقرب بالورق النشاف شبها، واذا حاولنا الكتابة عليها وهى فى هذه الحالة انتشر فوقها المداد وبقعها حتى إنه ليستحيل قراءة ما يكتب فيها، ولإصلاح هذا العيب ينبغى تغريتها أى غمس كل جملة منها معا فى غراء رقيق ضعيف يصنع من قطع الجلد المدبوغ وغير المدبوغ والحوافر ممزوجة بمقدار من الشب، فهذا الغراء يملأ مسامها الصغيرة ويستقر على وجهها فيصيره ناعما صالحا للكتابة، ثم تجفف الأوراق مرة أخرى منه وتكبس عدة مرات، ثم تطبق أو تقطع حسب الطلب.

وأما اذا أريد صنع الورق بالآلات فيصب العجين من الجابية على نسيج واسع من السلك كالذى يصنع منه قالب الورق الذى يصنع باليد يكون طوله عدة أقدام، وهو ما يسميه صناع الآلات باللانهائى، عانين به اتصال طرفيه بحيث لا يدرى أين ينتهى كما فى السيور المستعملة فى إدارة المخايط (آلات الخياطة) والمدارس (آلات درس الحبوب) ومحركات الدراجات وغيرها من أنواع الآلات الكثيرة الأخرى، ويوضع النسيج اللانهائى لآلة صنع الورق مستويا وضعا محكما على اسطوانتين تكون إحداهما قريبة من الجابية والثانية على بعد عدة أقدام منها، ويجرى النسيج على هاتين الاسطوانتين

فإذا أديرتا جعل النسيج يدور حولهما من جهة الاسطوانة القريبة للجابية الى جهة الاسطوانة الأخرى ، ويكر منها راجعا مارا بأسفل الأولى لافا حولها أيضا، وفى نفس هذا الوقت يتزحزح قليلا بتدبير آخر فى الآلة من أحد جانبى الاسطوانتين الى الجانب الآخر ، فاذا سال العجين المائى عليه من الجابية نشرته حركة التزحزح هذه بالتساوى فوقه ، ومنعه من السقوط منه شريطان من الجلد مقامان على جانبيه ، وسال الماء من ثقوبه كما كان يسيل من خلال قعر قالب الغراف ، وخلف طبقة رقيقة متماسكة من العجين مبسوطة بالتساوى على النسيج .

ولما كان هذا النسيج مستمرا فى حركته من الاسطوانة القريبة من الجابية الى الاسطوانة الأخرى ، فإنه يحمل معه هذه الطبقة ، فاذا جرت معه الى بُعدٍ معين مرت تحت اسطوانة أخرى مغطاة بنسيج ، فضغطها وامتص بعض رطوبتها ، فاذا بلغ النسيج فى دورانه الى الاسطوانة الثانية وأنشأ ينقلب راجعا أمسكت طبقةَ الورق بعضُ اسطوانات أخرى فى الآلة ونقلتها الى نسيج لانهائى آخر مصنوع من نسيج خيطى لا من سلك ، فيمر بها هذا النسيج بين اسطوانتين أخريين تجففانها وتضغطانها ضغطا أقوى مما مر ، فهى بهذه الوسيلة تتحرك روحة وجيئة ، وتمر بين عدد من الاسطوانات بعضها مسخن بالبخار فيجففها بغاية السرعة ، وبعضها فى غاية النعومة فيكسبها صقالة جميلة . والعجين الذى ينصب على النسيج اللانهائى يستحيل ورقا قبل أن يغادر الآلة . والعمل الذى يستغرق بضعة أيام فى صناعة الورق باليد تعمله الآلة فى بضع دقائق ، وبما أن العجين لا ينقطع سيلانه فى الآلة فالورق الخارج منها يكون متصلا لا انقطاع له ، فيلف على ملف طويل قد يحتوى على ما طوله نحو ميل أو ميلين منه ، وبعض المطابع تستعمل هذه الأوراق كما هى ، ولكن معظم الأغراض التى يصنع الورق من أجلها تقتضى أن يقطع على أحجام مختلفة ؟

عبد العزيز محمد

المملكة الحيوانية وتعدد أنواعها (١)

جاء فى كتاب «نظام الطبيعة» للأستاذ «لينيه» الذى ظهر سنة ١٧٥٨ أنه يوجد بالعالم ٤٢٠٨ نوعا مختلفا من الحيوانات الكثيرة الخلايا، وفى عام ١٨٩٨ تمكن الأستاذ «موبيوس» من إحصاء ٤١٢٦٠٠ نوعا مختلفا منها.

وأحدث تعداد لأنواع المملكة الحيوانية يرجع الى الأستاذ «هسه» الذى استعان بكثير من العلماء المحققين وبالمراجع العلمية الحديثة، فتوصل الى إحصائها بثلاثة أرباع المليون اذا اعتبرنا عدد الحشرات وحدها نصف مليون، وأما اذا اعتبرنا عددها ثلاثة أرباع مليون فان عدد الأنواع المختلفة بالمملكة الحيوانية لا يقل عن المليون.

وبديهى أن هذا الإحصاء هو على وجه التقريب، خصوصا وأن الآراء تختلف اختلافا كبيرا فى تحديد النوع، وكثيرا ما يطرأ على النوع الواحد تغييرات ظاهرية كثيرة بسبب اختلاف البيئة والاقليم أو فصول السنة، وأوضح ما تكون هذه التغييرات فى الحشرات والزواحف الصغيرة ؟

[مترجمة من مجلة (Kosmos) الألمانية]

الطرف والملح

قال حكيم: أَربعٌ يَذْهَبْنَ ضَياعاً: الأكلُ مع الشِّبَع، والسراج فى القمر، والزرع فى السَّبِخَةِ، والصنيعة الى غير أهلها.

اقبـــــال
العالم الاسلامى على هذه المجلة

أخذت هذه المجلة فى العالم الاسلامى مكانة، وحازت فى جميع الشعوب الاسلامية قبولا، ومنذ صدرت والرسائل ترد فى الثناء على خطتها شعراً ونثراً، ومن هذه الرسائل خطاب ورد من حضرة الفاضل الدكتور عبد الله محمد شريف مدير جريدة صوت الحق ببومباى وهو :

اطلعت على هذه المجلة الفريدة العزيزه التى صدرت حديثا من لدن مشيخة الجامع الأزهر الشريف . ولعمر الحق إنها قد سدت فراغا مهما فى عالم الصحافة الذى كان قبل صدورها هائما فى ظلمات الدس والإلحاد والزندقة وسرت عدواه الى عامة الناس . فكان بزوغ نور الاسلام من الأزهر الشريف صدور الشىء من معدنه . وأى مركز فى الاسلام قاطبة هو أولى من مشيخة الأزهر بالتصدى لقمع دابر المفسدين فى الدين، ولإظهار الدين الاسلامى للملأ بمظهره الحقيقى الذى كادت تطمس معالمه أيدى دعاة الفسق والسوء والفساد . وكانت مجلة « نور الاسلام » نورا وضاء أزاح عن كثير من شبه المضابين حجب الضلالة والتمويه، وكان هذا النور يشع من بطن الأزهر الشريف، مضيئا للناس طريقا تعمدت إظلامه أيدى المفسدين الذين باءوا بالخسران والفشل، وسيلحقهم الدمار، وعن قريب سيحقق الله وعده (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) الذين قيل ويقال فى حقهم : (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) .

هنيئا لمصر التى جعلها الله فى كل شىء كنزاً . فيها كنوز الفراعنة الغابرين، وفيها حالا كنوز شريعة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . ولا أدرى هل أهنئ

مصر بهذه المفخرة ، أم أهنئ كل مسلم ، أم أهنئ العالمين جميعا بطول عمر الشريعة الحنيفية السمحة بعد أن كادت تنتحر — لولا مبادرة مصر وعلى رأسها جلالة مليكها أحمد فؤاد الأول المؤيد ، ومن ورائه رجال الدين وحملة شريعة سيد المرسلين الذين قاموا بالحق وبه يعدلون ، وفقهم الله .

بارك الله فى مصر وفى مليكها وآله ، وبارك الله فى الأزهر ورجاله ، وبارك الله لمشيخة الأزهر الشريف الذين قاموا بتحرير مجلة « نور الاسلام » اللطيف . ووفقهم جميعا لما يحب ويرضى آمين ؟

عبد الله محمد شريف
وزير مينشن — بهندى بازار — بومباى

الطرف والملح

قال برهان الدين الوَطْواطُ : لقد أحسن ابنُ شهيد كلَّ الإحسان فى قوله يصف من صان وجهَه عن السؤال بقِناع قناعتِه وَكفَّ ، وصبرَ على مَضَض الاحتياج بقدر استطاعته فَعَفَّ :

إن الكريم اذا نالتْه مَخْمَصَةٌ ... أبْدَى إلى الناس رِيًّا وهو ظمئان
يَطوِى الضلوعَ على مثل اللّظى حرَقًا ... والوجه طَلْقٌ بماء البِشْرِ ريان

المؤتمر الاسلامى بفلسطين و الخلافة

دعا حضرة صاحب الفضيلة السيد محمد أمين الحسينى رئيس المجلس الاسلامى الأعلى الى مؤتمر ينعقد فى القدس فى يوم ٢٦ رجب سنة ١٣٥٠ وجاء فى الدعوة أن الغرض من المؤتمر النظر فى أمور تهم المسلمين ، وأشيع مع هذا أن المؤتمر سينظر فى مسئلة الخلافة ، وكان ما فى الدعوة من غموض مدعاة لكثرة الأقاويل وذيوع الاشاعات حول تعرضه لمسئلة الخلافة .

ولما كانت الخلافة أمرا خطيرا فى الاسلام ، لا يجوز طرحها فى أى مؤتمر إلا بعد روية ، ويجب أن تكون الدعوة إليها صريحة ، لكى يتمكن مندوبو الاقطار الاسلامية من درسها واستطلاع آراء الشعوب التى ينتمون اليها ، وحتى لا تمثل الحادثة التى كانت قد جرت فى عمان من قبل ، فنحن نرجو أن لا يكون شئ من تلك الأقاويل صحيحا ، فان الخوض فى مسئلة الخلافة لم يحن بعد .

ففى سنة ١٣٤٢ اجتمعت فى القاهرة هيأة علمية دينية كبرى ودعت الى عقد مؤتمر للنظر فى الخلافة ، وانعقد المؤتمر فى القاهرة وشهده مندوبون من أقطار اسلامية مختلفة ومن بينهم مندوبون من فلسطين وغيرها .

وبعد تبادل الآراء رأى المؤتمر أن الوقت غير صالح للفصل فى الخلافة على وجه يرتضيه الشرع ، وقرر ارجاء ذلك الى وقت مناسب .

ولم يتجدد بعد ذلك الارجاء شىء يجعل الوقت الحاضر مناسبا للفصل فى هذه المسئلة الخطيرة ، وانا نخشى أن تكون إثارة مسئلة الخلافة فى هذا المؤتمر سببا لاضاعة الغرض الذى عقد من أجله .

فليس من مصلحة المؤتمر ولا من مصلحة المسلمين التعرض لهذه المسئلة التى لا يأتى البحث فيها اليوم بفائدة ولا يمكن تقريرها على وجه ترتضيه الشريعة الغراء ؟

" Greivest thou not too much over the unbelievers who deviated from the truth and did not believe in the Koran, for haply you may kill thyself out of grief over them "

(Alucy's Commentary.)

So great indeed was his faith that he made light of all threats and persecutions. It was beyond human endurance to have suffered unflinchingly what Mohammad has suffered in the course of anouncing his divine message.

A cursory perusal of his early history would suffice to convince the reader of his integrity and truth.

It would not be irrelevant to mention in this connection that once when preaching to the people of Al-Taif to call them unto the Lord Mohammad was so roughly handled and maltreated that he bled profusely, yet in the midst of his afflictions he turned to God in earnest prayer "O Lord, I appeal to thee in complaint of my weakness, the meagerness of my resources and the contempt and abuse of men, but would I merit thy favour, verily little would I care for what beseteth me of misfortune."

Would not such magnificent display of faith and fortitude be considered ample evidence of his truth ?

The impartial inquirer gifted with wide vision and fair sense of justice who analyses the character of Mohammad and puts his actions to the searching test of criticism will readily recognise the veracity of his claims and be convinced of his truth and integrity.

The signs of the true as well as that of the imposter not only show in their actions and utterances, but also in their very gestures. The discerning critic or psychologist could not mistake them for indeed the states of man's mind and conscience show on his face, though little or nothing thereof could be detected in word or action. Of such the Lord saith :

« فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"They will be recognised by the peculiar signs whereby the Lord hath marked them and by the erroneous perversion of words".

(Baidawy's Commentary.)

ERRATUM :— Page 39 Line 17, *abstinence from* should read *taking of*.

A thorough analysis of the precepts of Islam and a careful consideration of the divine source from whence issued forth those springs of good and well being, will leave no room for doubt to rankle in the minds of inquirers regarding its truth and authenticity. For whoso contemplates the fortitude of Mohammad in the face of great odds and the toleration with which he suffered all sorts of insults and persecutions, will scarce doubt his truth and conviction. Had this not been the case, it would indeed, have been easy to detect flaws of falsehood and indecision in his career.

Should you, in course of consideration, come to the conclusion that Mohammad has distinguished himself by such noble conduct and unimpeachable character so much so that he was called "The Faithful" long before his prophetic mission, and that his own people had never imputed a single lapse or a vile action to him despite the fact that he never ceased disparaging their mentalities and fearlessly reviling their so-called gods, you would realise that such a man could never be an imposter, for lying is most degrading not only in the eyes of men but also in one's own estimation.

A man like Mohammad could not possibly lie and he who proclaimed the greatness of God in such unprecedented manner and relentlessly striven against those who imputed falsehood unto Him.

Again had he been an imposter, he could not, try as he could, have helped lapsing into confusion and contradiction and would have thereby been exposed to his detriment and disgrace.

He could never, have been a source of perfection or a guide unto good and righteousness.

The position of Christians in denying the prophethood of Mohammad is identical with that of the Jews in denying the prophethood of Jesus.

Why then should the Christian subject them to such persecution when they are guilty of the very same thing.

Would not the spread of Islam to the furthest corner of the globe within less than a single century constitute a mighty evidence of its truth? Would not the welcome and eagerness with which it was received and the support extended thereto all point out that it is a religion which pleased the Lord to give unto mankind?

Would not the zeal and self-sacrifice shown by Mohammad in the guidance of mankind constitute an irrefragable proof of that divine reality which filled his heart and soul, so much so that the Lord addressed him thus:

« فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

It would seem as if some of God's creatures lack the faculty of truth and are deprived of the sense whereby to appreciate it, for try as you can, they would still remain insensible to its clarion call and would never despite your endeavour, find their way thereto.

Futile indeed is your endeavour for it would be as if you were to expect the deaf to hear the sound of big guns, or the blind to behold the brilliance of the radiant sun.

Little wonder, therefore, that they were bound to remain under the dire influence of doubt and disbelief and that the Lord saith concerning them:

«وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن ابن كثير

"Were the Lord to send down the Angels to announce unto them the truth of the apostles, were He to quicken the dead to bear witness thereto and were He to cause all things to confront them face to face and testify to such truth, they still would not believe."

(Ibn Katheir's Commentary.)

« وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا . وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » .

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

"Even if they hear the revelations recited or see the miracles performed, they would not, out of pertinacity and mental derangement, believe therein; and if they see the path of truth and righteousness, they would not take it; and if they see the path of error and misguidance, they would choose to take it for the satisfaction of their passion."

(Alucy's Commentary.)

So much then for those hopeless few; to resume our main discussion, we would like to point out that it would have been easy to recount many of Mohammad's miracles which were established beyond all doubts through authentic successive corroboration of facts pertaining thereto. It would have been just as easy to dispel all suspicions and banish all doubts regarding his truth. But we decline to enter with you on such lengthy discussion and prefer to choose a short cut leading thereto; and thus in making our appeal to your mind and conscience, we are only meeting the demands of the present era which is definitely one of reason and research.

---

water is all a dream. He would protest that the sleeper could see even more than that in his sleep and so vividly indeed does he see it that he doubts not it is actually true. He may even dream that he has had a dream, had awaken and had recounted it to an interpreter and other such like dreams which sleepers have and yet never as much as suspect or doubt for a single moment the reality thereof.

"Why" argues the sophist, "should'nt you be in such a state believing as the dreamer does that what he beholds is the stark reality and not a dream"?

And in such a brazen and unabashed way, he continues his sophistic argument.

What would your answer be in the face of these conjectures and untruths.

Would it not be very hard to convince him though you are absolutely sure that these assumptions are utterly unfounded?

And if the mind admit of their likelihood to happen, intuition positively renounces them as non-existent.

Should men rely on these assumptions in the disposal of their affairs, they would be reduced to a most deplorable state of chaos and confusion and beasts would, in such a case, be more amenable to reason than they are.

It is significant in this connection to quote the Koranic Verse in reference to such people:

« وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"God saith concerning those pertinacious unvelievers that even were He to throw open above them a gateway unto Heaven through which they mount to behold its marvels all day long, inquiring concerning the mystries that surround them, they would still declare out of sheer pertinacity and scepticism, that their sights were obstructed from beholding the real, that what they saw was a mere vision and that Mohammad had them bewitched at the time when the miracles were performed."

(Baidawy's Commentary.)

The Lord explained that they feigned to rebut that marvel which they have witnessed on the ground of the likelihood of defective sights or bewitched minds.

object and many other such hypotheses which are the outcome of mere conjecture nurtured by speculation and scepticism.

It is tragi-comical indeed to see such divergence of opinion. It seems to rob the mind of its inherent faculty and the human nature of its initial clearness and purity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that "Scepticism is responsible for the demoralisation of many a good man." And as such he will lack that pure instinct and that clean conscience to which he may turn for judicious judgement.

Suppose for the sake of argument that someone declared that he gives little or no credence to all news and he regards them as positively unreliable on the grounds that it is possible that his informant may be telling a lie, or that he may have believed something contrary to what actually had taken place, or that he may have, inadverently, told something else or that he may have in speaking figuratively, told something other than the truth. There could, indeed, be no confidence or trust in view of all these contingencies which the mind admits as liable but not certain to occur.

Should he declare that he has no faith in any of the scientific principles such as those of grammar, etymology and declension and the like on the grounds that those who compiled them from the original authors, are a few numbered persons who are liable to error and forgetfulness. And so he goes on applying the same argument in the ascription of every statement to the speaker and every opinion to the exponent thereof.

What answer could you give to such sophistry? and what argument could you advance? Could you hope for the guidance or expect the reform of one who argues thus?

And what would the state of affairs be should we apply those assumptions to military, commercial, administrative and social matters?

The answer is a foregone conclusion but let me put one more question to establish the truth we seek.

Suppose you were wide awake and in your normal state of health, the sun was shining bright and resplendent in the sky and you fully behold it with your own very eyes unable to gaze long at it on account of its glaring brilliancy, but there comes a sophist that would ask you to prove that the sun is shining! You will simply exclaim that you see it and he sees it as well as other people do and that its very presence is clearer than any proof that could be offered in confirmation thereof. But he would say to you that you may probably be asleep and that what you see is no more than a vision or a dream! that your meeting and discussion and all what you behold of trees and stones, light and

ing on the one and the same thing thus rendering it, through consistent and successive corroboration, positively irrefutable !

If we doubt the authenticity of Mohammad's prophethood, then how can we establish the prophethood of Moses or Jesus or the other prophets, lacking as they did, that consistent corroboration which was the lot of Mohammad ? What argument would the Christians have against the Jews for not believing in Christ and the Bible ?

It would be detrimental to entertain all possible contingencies and to let loose the forces of scepticism to run riot in the mind, for that would scarce lead to reality or truth.

The atheists deny the existence of God as a result of such sceptical conjectures ; God who is the very source of existence ! whose existence is the most obvious of all facts and without whom nothing has a reasonable existence !

Others doubt even in perceptible objects and declare that they do not denote knowledge of the object as perception is often liable to err. They cite such errors of perception as may be witnessed in the apparent rushing past of the shore while on board a steamship or the apparent bigness of a single grape seen through water.

Others absolutely deny the existence of all objects and declare that objects are not real, that they are mere forms or shadows.

Yet another school, the agnostics, were so hopelessly steeped in scepticism that they completely lost their way and had to confess their failure to comprehend the reality of things.

You will find through the study of the different doctrines and opinions expounded by the different schools of thoughts that the controversy raged fierce regarding knowledge, which is known in itself and by means of which other things are known.

But as assumption and speculation found their way into knowledge, scepticism began to show itself in the doctrines of its exponents and the door was thus flung wide open for all sorts of unfounded conjectures.

Contradictory opinions were held by opposing schools. Some declare knowledge to be axiomatic and requires no definition. Others declare that it is indefinable owing to the intrinsic difficulty involved in comprehending its reality. While others declare that it is, *per se*, the known thing for knowledge of fire is fire itself and knowledge of water is water itself. But when knowledge is conceived by the mind, it assumes another form and would become subject to different rules. Another raging controversy is that regarding existence and the existing

that are distasteful ; he who mitigated the rigours of their rituals and tempered the severe stringency of their injunctions.

Those who believed in his mission and prophethood, reverred and supported him against his enemies, and followed the Koran revealed unto him will those merit favour and prosperity."

(Alucy's Commentary.)

« رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا. فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسي

"The mercy and knowledge of God are unbounded, they embrace everything. Forgiveness is solicited for those of whom He knoweth true penitence and desistence from sin, those who have followed the ordained path of righteousness; the Lord is implored to save them from the severe torment of Hell."

(Alucy's Commentary.)

The truth and authenticity of the prophethood of Mohammad could be easily proven by citing his many miracles which though may be singly open to criticism, could not possibly be gainsaid in their entirety.

Should we, however, entertain dogmatic assumptions it would be very hard indeed to believe the records of any past king or prophet or any historical event. History would be rendered unreliable and laws and conventions would have been thrown into utter confusion should these assumptions be taken into consideration.

The authenticity of Mohammad's prophethood is so consistently sanctioned by successive traditions and generations to admit of any falsehood or untruth. It would have been impossible for all those millions of people from East and West to concur as they did, on such a question, despite the difference of their races and the vast distances which separate their countries.

Assuming, therefore, that everyone would cite a single miracle of the Prophet's, there comes out a general fact unanimously admitted by all, that on the whole and, irrespective of single instances, miracles were performed by him.

Nor is that all. It should be borne in mind that many of these miracles were cited by trustworthy and impartial chroniclers from others whose accuracy and integrity are warranated on all hands.

Should the event be cited from one of these reliable sources, it would be incumbent on us to accept it as authentic; what with all the sources concurr-

ENGLISH SUPPLEMENT OF

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

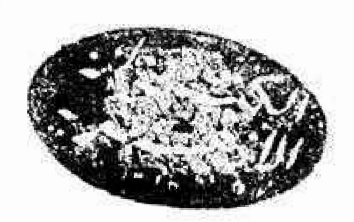
THE PROPHET MOHAMMAD[1]

«وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسى

"The Mercy of God is so great and comprehensive that it embraceth everything; no believer is there or unbeliever, righteous or sinner but he enjoyeth the bounties of the Lord in this world. The mercy of God will, therefore, be particularly accorded to those who refrain from sin and disbelief, those who give the ordained alms out of their wealth and those who implicitly believe in all His signs. Those who follow the Apostle sent by God to announce His Dispensation, the illiterate Prophet who told mankind of their Lord; and whose name and qualities are clearly given in the Scriptures, the Torah and the Evangel. The Prophet who enjoineth true belief and forbiddeth all evil; he who makes lawful unto the jews the things that are rightly relished and forbiddeth those things

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh YOUSSEF EL-DIGWY's Book: "*Messages of Peace.*"



قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء السابع	رجب سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى } سابقا

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

العزة – والتواضع

سهل على الانسان أن يدرك معنى الفضيلة فى صورة مجملة ، بل سهل عليه أن يتعرف ما هى الفضائل بتفصيل ، وإنما العسر فى أخذ النفس بها ، والسير فى معاملة الناس على قانونها ، وعُسرُ العمل على الفضيلة مع تصورمفهومها ، والشعور بحسن أثرها يجيء من ناحية الشهوات التى قد تطغى فتطمس على البصائر ، وتكاد تحول معرفتها للخير الى جهالة عمياء . وقد يؤخذ الدارس للأخلاق من ناحية ضعفه فى تطبيق الأعمال على ما تقتضيه أصول المكارم ، ذلك لأن علم الأخلاق يشرح الفضيلة ، ويبين ما بينها وبين الأخلاق الأخرى من صلة ، وينبه على ما لها من آثار حميدة ، ولا يتعرض لمظاهر الفضيلة مظهرا فمظهرا ، ولا لمواضع الأخذ بها موضعا فموضعا ، بل يكل ذلك الى اجتهاد الشخص ونباهته .

وحدود الفضائل تقع بمقربة من أخلاق مكروهة ، وهذه الحدود فى نفسها واضحة جلية – إلا أن تمييز ما يدخل فيها مما هو خارج عنها ، يحتاج الى صفاء فطرة أو تربية تساس بها النفس شيئا فشيئا .

وكثيرا ما يتشابه على الرجل لأول النظر أمور، فلا يدرى أهى داخلة فى الفضيلة أم هى خارجة عن حدودها ، وربما سبق ظنه الى غير صواب ، فيخال ما هومن قبيل الفضيلة مكروها ، فيدعه أو يعيب غيره به ، أو يخال ما هو من قبيل المكروه فضيلة فيرتكبه أو يمدح غيره عليه . وهذا الشأن يجرى فى خلق العزة والتواضع .

فعزة النفس تمتاز فى الأذهان عن الكبرياء امتياز الصبح من الدجى ، إذ العزة ارتفاع النفس عن مواضع المهانة ، والكبرياء استنكاف النفس أن تأتى صالحا ، بتخيل أن ذلك العمل لا يليق بمنزلتها ، أو تعظمها عن أن تجامل ذا نفس زاكية بزعم أنه غير كفء لها .

ويقابل العزة الضعة ، وهى انحدار النفس فى هوة المهانة ، ويقابل الكبرياء التواضع ، وهو إذعانها للحق ونظرها الى ذى النفس الزاكية أو المستعدة لأن تكون زاكية ، نظر احترام أو عطف وإشفاق .

والفرق بين حقائق هذه الأخلاق سهل المأخذ ، ولا يكاد يخفى أمره على عامة الناس فضلا عن خواصهم ، ولكن أحوالا تعرض للرجل فيخفى فيها الوجه الذى يدعو الى مظهر الرفعة فيُعدّ مستكبرا ، أو يخفى فيها الوجه الذى يدعو الى مظهر التواضع ، فيعد صاغرا .

وفى الناس من عد التواضع ذلة وعد اعتزاز النفس من جهله كبرا

وقال رجل للحسن بن على : إن الناس يزعمون أن فيك تيها ، فقال : ليس بتيه ولكنه عزة ، وتلا قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموى بالأندلس لابنه المنذر : إن فيك لتيها مفرطا ، وإن العيون تمج التيّاه ، والقلوب تنفر عنه ، فقال المنذر : «إن لهذا السلطان رونقا يريقه التبذل ، وعلوا يخفضه الانبساط ، ولا يصونه إلا التيه والانقباض » ، ثم ذكر أناسا يعدون تواضع الرجل صغرا ، وتخفّضه خسة ، فقال له عبد الرحمن : ابق وما رأيت .

فوزن المعاملات الخاصة وإلحاقها بإحدى خصلتى العزة أو التواضع ، أو طرحها الى الكبرياء أو المهانة ، يرجع الى اجتهاد الشخص نفسه ، وهذا لا يمنع غيره الذى

عرف من سر المعاملة ما عرف من علانيتها أن ينقدها ، ويصف صاحبها بأنه عزيز النفس أو متواضع ، أو يحكم عليه بأنه متكبر أو متصاغر .

في عزة النفس فوائد تعود على الشخص نفسه ، منها ارتياح ضميره وسلامته من ألم الهوان الذي يلاقيه من لا يحتفظ بكرامته ، ثم ما يلقيه هذا الخلق على صاحبه من مهابة ووقار ، وإحراز مكانة احترام في النفوس مما تنشرح له صدور العظماء ، وإنما عيب الرجل في أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة ، أو يتخذها حبالة لاصطياد مآرب لا يتعداه نفعها .

ولهذه الخصلة آثار صالحة في الاجتماع ، فإن الأمة التي تُشرَب في نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشئونها ، غنية عن أمم من غيرها ، وتبالغ في الحذر من أن تقع في يد من يطعن في نحر كرامتها ، ولا يستحي الانسانية أن تراه مهتضما لحقوقها .

ومن عناية الاسلام بأدب العزة أنه بنى كثيرا من أحكامه العملية على رعايتها ، كما منع القادر على الكسب من بسط كفه للاستجداء ، إذ كان في استجدائه إراقة لماء وجهه بين يدي من تكون يده هي العليا ، قال صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه » وسن الهجرة من بلد لا يرفع فيها الاسلام لواءه الى بلد تخفق عليه رايته وتقام فيه أحكام شريعته ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ وشرع الذود عن الأوطان وحمايتها من أن يكون للخصوم عليها سيطرة إذ لا نصيب لجماعة المسلمين من سيطرة غير المسلم إلا العسف والإرهاق .

ومن الأحكام القائمة على رعاية العزة أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المتبرع له ، فلو وهب شخص لآخر مالا ، لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له ، إذ قد يربأ به

خلق العزة عن قبولها ، كراهة احتمال منتها ، والمنة تصدع قناة العزة ، فلا يحتملها ذوو المروآت إلا فى حال ضرورة ، ولا سيما منة تجيء من غير ذى طبع كريم أو قدر رفيع ، والعلماء الذين كانوا لا يقبلون عطايا ولاة الأمور ، يريدون الاحتفاظ بكامل عزتهم حتى يكون موقفهم فى وعظ أولئك الولاة اذا حادوا عن الرشد موقف الناصح الأمين .

ومن هذه الأحكام شرط الكفاءة فى النكاح ، ذلك لأن فى تزوج الرفيعة بمن هو دونها امتهانا لقدرها ، وغضا من كرامة أوليائها ، فجعل للمرأة وأوليائها الحق فى الممانعة من تزوجها بمن لا يكافئها ، وإنما اختلف الفقهاء فى تحديد الكفاءة كما هو مقرر فى كتب الأحكام .

وقد عرف الفقهاء أن الشريعة تراعى فى أحكامها حق العزة فقالوا : إن المسافر يقبل هبة الماء للوضوء ولا يتيمم ، إذ لا يمتن بمقدار ما يتوضأ به من الماء عادة ، ولم يلزموه قبول هبة ثمن الماء ، وأجازوا له التيمم ، إذ كان فى هبة الثمن منة ، والمنة تورث شيئا من الذلة ، وعلى هذا النحو جرى الامام الغزالى إذ جعل خشية الإهانة مسقطة لوجوب النهى عن المنكر ، وموضع هذا أن يعرف العالم أن نهيه لا يجدى نفعا ، ويزيد على عدم جدواه بأن يسومه أولئك المبطلون أو الفاسقون خسفا ، أما اذا كان يرجو مما يقوله أو يكتبه فائدة ، فاحتمال الأذى فى سبيل العمل الصالح عزة لا تطاولها عزة .

ومدح الانسان نفسه رعونة ، فاذا مسه أحد بازدراء ، فإن علم الأخلاق يسمح له بأن يذود عن عزته ، ويقول كلمة ينبه بها على مكانته ، وفد أبو الفضل بن شرف الى المعتصم أحد أمراء الأندلس فى زى تظهر عليه البداوة ، وأنشده قصيدته التى يقول فى طالعها :

مطل الليل بوعد الفلق وتشكّى النجم طول الأرق

فاهتز المعتصم لسماعها طربا ، فحسد أبا الفضل من الحاضرين ابن أخت غانم ، وقال له : من أى البوادى أنت ؟ فقال أبو الفضل : أنا من الشرف فى الدرجة العالية وإن كانت البادية علىّ بادية ، ولا أنكر خالى ، ولا أعرف بحالى ، فانقبض ابن أخت غانم خجلا .

وأما التواضع وهو بذل الاحترام أو العطف والمجاملة لمن يستحقه ، فهو خلق يكسب صاحبه رضا أهل الفضل من الناس ومودّتهم ، وهو الطريق الذى يدخل بالشخص فى المجتمع ويكون به عضوا ملتئما مع سائر الأعضاء التى يتألف منها جسد نسميه الأمة ، فالتواضع أنجح وسيلة الى الائتلاف والاتحاد اللذين هما أساس التعاون على مرافق الحياة وجلائل الأعمال ، قال الله تعالى يدعو رسوله الكريم الى هذا الخلق العظيم : (وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ) وقال تعالى : (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا) .

يستكبر الأغبياء ظنا منهم أن فى الاستكبار رفعة ، والحقيقة أن ابتغاء الرفعة من طريق التواضع أنجح من التوسل اليها بطريق التجبر والغطرسة ، فالتواضع الحكيم يورث المودة ، ومن عمر فؤاده بمودتك ، امتلأت عينه بمهابتك .

وأحسن مقرونين فى عين ناظر جلالة قدر فى خمول تواضع

قد يراك الرجل وأنت تقضى حق الاحترام رجلا عرفت من كماله ما لم يعرفه ، فيعد عملك تصاغرا ، ويرى أمامك أو وراءك بسهم الإنكار ، ولو اطلع على ما بطن من هذه المعاملة كما اطلع على ما ظهر منها ، لأقام لك بدل الإنكار عذرا ، قدّم أبو الفضل ابن العميد لأبى بكر بن الخياط نعله ، فعده بعض الحاضرين إفراطا فى التنازل ، فقال

أبو الفضل : أؤلام على تعظيم رجل ما قرأت عليه شيئا من الطبائع للجاحظ إلا عرف ديوانه ، وقرأ القصيدة من أولها الى آخرها حتى ينتهى اليه ! .

وكان أبو العباس المبرد عند ما يرى أبا بكر الأبهرى مقبلا ينهض قائما حفاوة به وإجلالا ، فخطر على بال بعض أصحابه أنه تجاوز حد التواضع وأن أبا بكر لا يستحق هذا القدر من الاجلال وشافه المبرد بهذا الخاطر ، فقال المبرد :

اذا ما رأيناه مقتبلا حللنا الحبا وابتدرنا القياما
فلا تنكرنّ قيامى له فإن الكريم يجل الكراما

يتواضع الرجل لأقرانه فلا يصاعر لهم خدا وإن أبى الدهر إسعافهم ، ولايخرج فى معاملتهم عن حدود المساواة وإن رزق من المال أو الجاه ما لم يرزقوا ، قال البحترى

واذاما الشريف لم يتواضع للأخلاء فهو عين الوضيع

ويتواضع الرجل لمن هو دونه فى ظاهر هذه الحياة أو فيما يجرى به عرف الناس كالأستاذ يجامل طالب العلم ، والرئيس يجامل المرءوس ، وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقوال الذين أوتوا الحكمة ، وسيرة الذين استقاموا على الفضيلة ما فيه عظة حسنة وقدوة صالحة .

أما الأستاذ لا يتعاظم على طالب العلم فمن مظاهره الإصغاء اليه عند المناقشة ، وإجابته عما سأل فى رفق ، وتلقى ما يبديه من الفهم بإنصاف ، فإن أخطأ نبهه لوجه الخطأ ، وإن قال صوابا تقبله منه بارتياح ، وارتياح الأستاذ لآثار نجابة الطلاب مما يزيدهم جدا فى الطلب ، ويشعرهم باستعدادهم لأن يكونوا فى النوابغ ، وإنما ينبغ الناشئ فى العلم متى تألق فى نفسه مثل هذا الشعور ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : «تعلموا العلم وعلموه الناس ، وتعلموا له الوقار والسكينة ، وتواضعوا لمن تعلمتم منه ولمن علمتموه» ومن حكم الامام على كرم الله وجهه : « وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولمن تعلمونه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء » .

وأما الرئيس لا يتعظَّم على المرءوس فمن مظاهره لين القول فى مخاطبته ، والعناية بقضاء ما يستطيع من حاجته ، والسعى فى دفع الأذى عن جانبه ؛ والرئيس المتواضع يتحامى أن تشهد منه أثرا يدل على أن نفسه تحدثه بأنه أفضل منك ، إلا مظاهر يسيغها عرف أصبح مألوفا بين الناس ، روى الامام مالك : أن عمر بن الخطاب « كان فى فضله وقدمه ينفخ عام الرمادة [1] النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته » ذكر هذا مالك لهارون الرشيد ، وقال له : إن الناس يرضون منكم بما دون هذا .

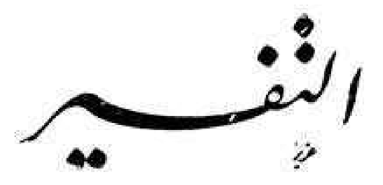
ونقرأ فى سيرة مظفر الدين صاحب أربل أنه بنى أربعة ملاجىء للزمنى والعميان ، وقرر لهم ما يحتاجون اليه فى كل يوم ، وكان يأتيهم بنفسه فى عصر كل اثنين وخميس ، ويدخل الى كل واحد فى نزله ، ويسأله عن حاجته ؛ فإحسان مظفر الدين الى هؤلاء رحمة ، ودخوله على كل واحد فى نزله ، وسؤاله عن حاله ، تواضع .

وصفوة المقال أن العزة ترجع الى أن يقدر الانسان قيمة نفسه ، فلا يوردها إلا الموارد التى تليق بها ؛ والكبر يرجع الى أن يرى نفسه فى منزلة فوق منزلتها ، فيتراءى فى مظاهر يعدها العارفون بكنه حاله اغترارا وإسرافا فى التقدير ، والضعة ترجع الى أن يغمط نفسه حقها ، ويضعها فى مواضع أدنى مما تستحق أن يضعها ، والمتواضع من يعرف قدره ، ولا يأبى أن يرسل نفسه فى وجوه الخير وما يقتضيه حسن المعاشرة .

واذا كان من يحتفظ بالعزة ، ولا يصرف وجهه عن التواضع ، هو الرجل الذى يرجى لنفع الأمة ، ويستطيع أن يخوض فى كل مجتمع ، ضافى الكرامة ، أنيس الملتقَى شديد الثقة بنفسه ، كان حقا على من يتولى تربية الناشىء أن يتفقده فى كل طور ، حتى اذا رأى فيه خمولا وقلة احتراس من مواقع المهانة ، أيقظ فيه الشعور بالعزة والطموح الى المقامات العلا ، واذا رأى فيه كبرا عاتيا وتيها مسرفا ، خفف من غلوائه ، وساسه بالحكمة حتى يتعلم أن المجد المؤثل لا يقوم إلا على دعائم العزة والتواضع .

محمد الخضر حسين

(١) الرمادة : الهلكة سمى به عام جدب وقحط وقع فى زمن ابن الخطاب لهلاك الناس فيه والاموال .



سورة الملك

٧

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله عز وجل : (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ) .

كلمة مُوجَزة تُذَكِّرك بخُلاصة ما سبق :

قد بيّن الله جل ثناؤه فى أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات قدرة كاملة شاملة لها . ثم بيّن أن هذه القدرة العظمى إنما تتعلق بمصالح العباد ومنافعهم وإعدادهم للمسابقة فى الخيرات ، حتى يظهر حينئذ أيُّهم أحسنُ عملا . ثم ذكر سبحانه بعد ذلك أنه عزيز يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ ، فيسيء الى المسيء بإساءته ، وأنه غفور يعفو ويصفح ، فيُحسِن الى المحسن ويتجاوز عنه بإحسانه ، كما قال : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ). ثم أقام بعد ذلك ما شاء من الأدلة على مَا لَهُ عز وجل من القدرة الكاملة والإرادة النافذة والعلم المحيط والحكمة البالغة وسائر الكمالات الالهية : فذَكَرَ خَلْقَه سبحانه للسموات السبع وما فيهن من عجائب التكوين وبدائع الصُّنع ، لِيعلمَ الناسُ أنّ من كان قادرا على ذلك فهو بلا ريب قادر على معاقبة العاصى وعلى إثابة الطائع . ثم أَتْبَعَ هذا بيانَ ما أَعَدَّه بعدله للعاصين من العقاب فى الآية السابقة ، وهى قوله تعالى :

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ . وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وقد تقدم الكلام فيها فى العدد السادس . وسيأتى بيان ما أعدّه بفضله للطائعين فى قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الآية .

ثم نقول الآن : الإلقاء هنا هو الطرح والرمى على سبيل الإهانة والازدراء . والشهيق هو إدخال النَّفَسِ فى الجوف بشدة حتى يُسمع له صوت قبيح وأنين مرتفع . والزفير هو إخراج النَّفَسِ من الجوف بقوة أيضا حتى يُسمع له مثلُ هذا الصوت المنكَر المكروه ، وكلاهما من أصوات المصائب والكروب . والفور شدة الغليان والاضطراب .

بيّن الله الحَكَمُ العدل فى الآية المتقدمة وهى قوله تعالى : (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) الجزاءَ العدلَ الذى استحقه الذين كفروا بربهم ، وهو عذاب جهنم ، ثم ذمّ جهنم هذه التى أعدَّها مِهادا وقرارا لهم بِمَجْمَعِ المَذامّ فى قوله : (وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) أى الذى يصير اليه أمرهم ، ثم بعد أن ذمّها هذا الذم الجامع العام أخذ يفصّله بعضَ التفصيل بقوله سبحانه : (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِىَ تَفُورُ) .

فبيّن فى هذه الآية أن دخولهم فيها ليس [1] باختيارهم ، بل بإلجائهم وقهرهم عليه فلا يجدون لهم يومئذ وليّا ولا نصيرا ، ولذلك عبّر بالإلقاء الذى هو القذف والنَّبذ مع الاحتقار والامتهان .

---

(١) فهم فى الآخرة التى هى دار الجزاء على الاعمال مسلوبو الاختيار مجبرون على ذوق العذاب . أما فى الدنيا التى هى دار التكليف والامتحان فهم مريدون مختارون مطلقو التصرف مع بيان الله تعالى لهم ما ينفعهم وما يضرهم .

وقد جاء وصفُ إدخالهم فى جهنم داخرين[١] مَدْحورين مَقْسورين فى عدة آيات من القرآن العظيم — فمنها قوله تعالى : (يَوْمَ يُدَعُّونَ[٢] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ) وقوله : (يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ[٣] فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَاصِي[٤] وَٱلْأَقْدَامِ) وقوله : (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا[٥] وَصُمًّا) وقوله : (وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا[٦]) وقوله (وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا[٧]) وقوله : (وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ) وقوله : (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ) .

ثم نبّه عز وجل على أن إدخالهم فى هذه الدار الذميمة يوم القيامة أمر محتم لا مُعقِّبَ له ، ولهذا عبر بكلمة اذا المفيدة للتحقيق والتقرير وأنَّ ما يُذكَرُ بعدها أمر لا محيصَ منه .

ثم شرع سبحانه يُفَصّلُ شيئا من أحوال جهنم وصفاتها الذميمة البشعة فقال مبينا الصفة الأولى : (سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا) أى صوتا منكرا فظيعا صادرا منها يُشْبِه ذلك الصوتَ المزعج القبيح الذى عهدوه فى الدنيا وهو الشهيق الذى هو صوت الكوارث والنوائب ، بل شهيق جهنم أَنْكَرُ وأَدْهَى وأَمَرُّ .

(١) أذلاء مطرودين من الرحمة مقهورين على دخول جهنم . (٢) يدفعون دفعا عنيفا .
(٣) علاماتهم كسواد الوجوه وزرقة العيون . (٤) جمع ناصية وهى الشعر الذى فى مقدم الرأس . أى يسحبون من شعورهم وأرجلهم الى جهنم . (٥) للكفار يوم القيامة فى المحشر وبعد دخولهم جهنم جملة اطوار واحوال : فتارة يكونون عميا وبكما وصما ، وتارة يكونون غير ذلك ، فلا تنافى بين النصوص القرآنية فى ذلك . (٦) أى أن عيونهم زرق من العمى ، فان الحدقة العمياء تكون زرقاء . (٧) ماشين عطاشا .

قد اقتصر سبحانه هنا فى ذكر أصوات جهنم على الشهيق، ولكنه ذكر زفيرها فى آية أخرى وهى قوله تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ[1] مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا[2] وَزَفِيرًا).

ثم إن سماعهم لصوت جهنم حينما يُلقَوْن فيها كما دلت عليه الآية التى معنا، لا ينافى أنهم يسمعون صوتها قبل الإلقاء أيضا وهم فى المحشر بعيدون منها كما دلت عليه الآية الثانية، فهم فى كلتا الحالين: سَوْقِهم الى جهنم وإلقائهم فيها، قد لاقتهم جهنم شرَّ لقاء، وحَيَّتْهُمْ أسوأ تحية. قد بدت البغضاء من أفواهها، وما تخفيه صدورها أكبر، ولهم فيها بعد ذلك عذاب مقيم.

ثم إن هذين الصوتين المنكرين وهما الشهيق والزفير، إنما يكونان للنار إذا تسعَّرتْ وتوهَّجتْ واشتد تلهبها واضطرابها، وهما وصفان يعرفهما الناس لنار الدنيا، ولكنهما لنار جهنم أقبح وأبشع.

فوصْفُ الله تعالى لها بهما إنما هو من قبيل بيان جنس فظاعة جهنم وشناعتها، وتقريبِ أوصافها الى الأفهام بما هو معهود لها فى الدنيا، وقياسِ الغائب على الشاهد فى الجملة وعلى الوجه الأعم.

ومثلُ وصفِهِ سبحانه لجهنم على هذا النحو، وصفُه للجنة كذلك، وتقريبُه لنعيمها الى العقول بما هو مألوف لها. وقد نبه عز وجل على هذا التفاوت العظيم بين ما فى الآخرة وما هو مألوف فى الدنيا فى مثل قوله فى عقاب أهل النار: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ. يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ). وقولِهِ فى ثواب أهل الجنة: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

---

(١) أى السعير وهى نار جهنم. (٢) اى صوتا ناشئا عن تغيظها.

ثم إنه جل اسمه بعد أن بين ما يزعجهم ويذهب بألبابهم حين إلقائهم فى جهنم من طريق السمع ، بين ما تنخلع له قلوبهم ويجعل أفئدتهم هواء حينئذ من طريق البصر وغيره ، فقال مبينا الصفة الثانية : (وَهِىَ تَفُورُ) أى تغلى بهم بعد إلقائهم فيها كما يغلى المِرْجَلُ بما فيه من شدة التلهُّب والتسعُّر ، فهم لا يزالون فيها صاعدين هابطين كالحب حينما يغلى به الماء ، لا قرار لهم فيها (وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . كَذَلِكَ يُجْزَى[1] كُلُّ كَفُورٍ) .

ثم إنه جل وعلا ذكر سبب فوران جهنم وغليانها بهم مبينا الصفة الثالثة فقال : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ) . اذا قلتَ : تكاد الشمس تغرب ، فمعناه أنها قاربت الغروب ولكنها لم تغرب . وتَمَيُّزُ الشىء تفرُّقُ أجزائه وانفصالُ بعضها من بعض . والغيظ أشد الغضب . والغضب أَلَمٌ يصيب النفس فيثور له دم القلب إرادة الانتقام . والتميز ناشئ من الحرارة التى يثيرها فوران الدم ، فإن الدم عند الفوران يصير أعظم حجما ، فيمدِّدُ الأوعيةَ حتى تكاد تنشق وتنخرق .

وصف الله سبحانه جهنم بالغيظ ، وهو كما علمت من أوصاف المخلوقات المدركة كالانسان ، فدل ذلك على أن وصف جهنم به إنما هو على سبيل التمثيل وتشبيه شدة اشتعال نارها وعظم توهجها وفورانها ، فى قوة تأثيرها فيهم وإيلامها لهم وإيصال الضرر العظيم اليهم ، بغيظ المغتاظ الحانق على غيره ، المجدّ فى الانتقام منه ، المبالغ فى النكاية به وإيصال الضرر الجسيم اليه[2] .

والمعنى أن جهنم تقرب أن تتفكك أجزاؤها وتتقطع أوصالها من شدة فورانها وغليانها وقوة تسعرها وتلظّيها . فما أَشْبَهَ حالَها حينئذ بحال الإنسان إذا ملكه

(١) قراءة أبى عمرو . (٢) فتكون كلمة الغيظ على هذا استعارة تصريحية أصلية ويجوز غير ذلك .

الغضب حتى كاد يتميز ويتفطر من الغيظ، كما قيل: يكاد فلان ينشق من غيظه، وحَنِق فلان فطارت شُقَّةٌ منه فى الأرض وشقة فى السماء.

هذا كله كما ترى إذا فُرِضَ أن جهنم لا حياة لها ولا إدراك، أما إذا كانت من قبيل المخلوقات الحية [1] المدركة التى تغضب وتَحْنَقُ حتى تكاد تتميز وتتمزق، فإن وصف تميزها من الغيظ يكون وصفا حقيقيا لا مجازيا، ويكون معنى الآية الكريمة حينئذ أَجْلَى وأوضح. هذا.

ربما كان فرض الحياة والإدراك لجهنم مَثَارًا لِوُجوم [2] بعضٍ وإنكار بعض آخر مستبعدين أومنكرين أن يكون للجماد حياة وإدراك، زاعمين أن ذلك هدم للقواعد وخرق للقوانين وإبطال للأحكام التى قضى بها النظر.

هكذا زعموا، مع أنهم معترفون بأن هذه القواعد وتلك القوانين إنما هى آثار قدرة باهرة، وصُنْعُ خالق جليل فى نعوته حكيم فى أفعاله، فإن كانوا صادقين فى هذا الاعتراف قلنا لهم: إن هذا الخالق كما وضع تلك القواعد والقوانين بقدرته وحكمته لوقت وسبب معينين، له أن يبطلها ويستبدل بها غيرها اذا اقتضت حكمته ذلك، مع بقاء النظام والسلامة من الفساد، وما ذلك عليه بعزيز.

لا نظن أنهم يحجرون عليه ويقولون: إن يده مغلولة فلا يقدر أن يَنْقُضَ ما أَبْرَمَ، فإن قالوا ذلك قلنا لهم أولا. إن هذا منهم نقض لما أبرموه فى اعترافهم من كمال هذا الخالق القادر الحكيم، ثم قلنا لهم ثانيا: إن هذا الذى حجرتم عليه وغللتم يده، ليس هو الخالق الأعظم الحكيم الغالب على أمره الذى نَعْنِيه نحن ونَدِين له كما شهِدتْ به الحجج العقلية الصادقة، لأننا إنما نعنى خالقا قادرا قام الدليل القاطع على أنه وحده مصدر

(١) قد جوز ذلك بعض العلماء وقد ورد فى بعض الأخبار ما يؤيد ذلك. راجع تفسير الألوسى والفخر.

(٢) وجم من الامر أمسك عنه وهو كاره له.

جميع الآثار من الإيجاد والإعدام والتكوين على طبق علمه المحيط وحكمته البالغة ، فهو ينقُضُ ما أَبْرَمَ ، ويَمحو ما أثبتَ ، ويُبْرِمُ ما نَقَضَ ، ويُثْبِتُ ما مَحا . كل ذلك منه اذا دعت اليه المصلحة واقتضته حكمته ، فإذا أبطل شيئا من القواعد والقوانين الأولى التي كان قد وضعها مطابقة لحال سابقة ، فإنه يكون قد وضع بدلا منها قواعد وقوانين أخرى وَفقًا لحال لاحقة ، وَنُظُمُ الموجوداتِ واستقامةُ أمورِها سائرةٌ سِيرَتَها الأولى .

كل ذلك يصدر عن ذلك الخالق الأعظم بمقتضى قدرته وعلمه وحكمته وسائر كمالاته العليا ، والمخلوقاتُ في جميع أطوارها التي يُصرِّفها فيها قائمةٌ في وجودها على أثبت القواعد وأحكم القوانين وأدق النظم والبراءةِ من كل عيب وفساد .

ذلكم هو الخلاق الأكبر الذي نعنيه ونقيم وجوهنا اليه ، وهو الذي يجعل جهنم يوم القيامة من قبيل المخلوقات الحية المدركة ، حتى اذا أُلقِيَ فيها الذين كفروا به اشتد غضبها عليهم و (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ) عليهم بسوء كفرهم به .

أما هذا الخالق الآخر الذي زعموه ، فإننا لا نَعْنيه في كلامنا ، بل نَدَعُه لهم ، فإن شاءوا أَبقَوْه محجورا عليه مغلولَ اليدين ، وإن شاءوا أطلقوا يديه ووضعوا الأغلال التي كانت عليه . (يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ . إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ . وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ . مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) .

كيف يُكبِرون الحياةَ على جهنم وينكرونها عليها وقد علموا أن الحياة قدر مشترك بين مخلوقات كثيرة ، ولكل جنس منها نصيب مفروض من الحياة وحظ

محدود منها يناسبه ، فلجنس الحيوان حياة جنسية تناسبه ، ولكل نوع من أنواعه حياة نوعية كذلك ، وعلى هذا القانون جنس النبات وأنواعُه ، حتى إنك لترى أن بعض النبات إذا لَمَسَهُ لامسٌ تأثر تأثر الحيوان بل الإنسان ، فتراه قد ذَبَلَ وتَقَبَّض حتى صار فى صورة الخَجِل المستحى .

أفبعد أن يعلموا هذه الحياة فى غير الحيوان والإنسان من المخلوقات ، ويروا آثارها والانفعالات الناشئةَ عنها فيها ، يستكبرون على جهنم الحياة والغيظ من الذين كفروا بربهم ؛ ولكن لا عَجَبَ ، فإن إنكار الحياة والإدراك على جهنم ليس بِدْعاً من الذين عَصَوْا فطرتَهم وعَفُّوا عقولَهم فأنكروا ما هو أجلى وأظهر من ذلك ، وهو البعث وما بعده من الحساب والثواب والعقاب ودخول الجنة والإلقاء فى جهنم .

ثم ماذا يقولون إذا سمعوا قول الله عز وجل فى شأن جهنم يوم القيامة : (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ) أو قوله فى شأن خلق السماء والأرض : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ) ؟ إنهم سيقولون فى هذا مثلَ ما قالوه فى غيظ جهنم ، ويَدَّعون هنا ما ادَّعَوْه هناك ، ويقولون إن القول خاصةٌ من خواص الأحياء المدركين ، وأين منهم الأرض والسماء ! .

ونحن نقول لهم : إن القول وسائر ما اتصف به الأحياء المدركون ، هو من الأمور الممكنة التى لا تَستعصِى على قدرة الخلاق العزيز الذى نحن نعنيه ، فجميعها فى قبضة عزته يُصَرِّفها كيفما شاء ، ويضعُها حيثما اقتضت حكمته .

قد يَزْهَد بل يتمعض من هذا الاستدلال العقلى السليم فريق من الناس لا تنساغ الى مداركهم المقدمات البرهانية ، ولا تنفذ الى قلوبهم الأدلة العقلية ، فتراهم لا يتمرَّفون ما سمّوه علما إلا من المادة التى يبصرونها ، ولا يَستَخْذُون إلا لأحكامها التى يزعمونها ،

ويرفضون ما يرون أنه مخالف أو مبطل لها ، مع أنهم طالما اعترفوا بأن كثيرا مما قرروه من أحكامها وقوانينها وقواعدها كان نتيجة استقراء ناقص أو مبنيا على خطأ محض .

فهل بعد أن يعترفوا هذا الاعتراف يَجْمُدون على المادة وصفاتها ، ويَنْبِذون العقل وبراهينه ظِهْرِيًّا ؟!

على أننا سنشايعهم ونسايرهم قليلا جنبا لجنب فنقول : كان الناس إذا قال قائل منهم : لقد سمعت من آلة [1] مستحدثة من جماد صوتا ذا مقاطع قد اشتملت على حروف كُوِّنَتْ منها كلماتٌ ، ثم أُلِّفَتْ منها جُمَلٌ واضحة مفيدة نطقتْ بها تلك الآلة نطقا محكما ، فكان منها ما هو جِدٌّ ، ومنها ما هو هزل ، ومنها ما هو أغانٍ منظومة ومنثورة قد جاءت على طبق قوانين التوقيع والتلحين — اذا قيل لهم ذلك أوسعوا قائلَه تعجبا وسخرية وتسفيها وتكذيبا .

فما بالهم الآن بعد أن سمعوا كما سمع قائلُهم قد اطمأنت قلوبهم الى خبره ، وتبين لهم أنه لم يكن من السفهاء الكاذبين ، وعلموا أن للعقول الإنسانية مجالا متسعا يتفكرون فيما حواه من الكائنات التى خلقها الله تعالى فيه ، ثم يُرَكِّبُون ويُحَلِّلون ، ويخترعون ويتصرفون فيها على وجوه شَتَّى ، ليصلوا الى معرفة ما أودعه الله تعالى فيها من الخصائص والمزايا ويتمتعوا بها ؟ .

فإذا كانت قدرة الإنسان محدودة قاصرة لاتتعدى دائرة قَدَّرَها لها الخلاق العليم كما نشعر به من أنفسنا ، ولو نُسِبَتْ المقدورات التى استطاعت القدرة الانسانية أن تتناولها ، الى غيرها مما عجزتْ عنه ، لم تكن شيئا مذكورا — اذا كانت هذه القدرة

(١) هى حاكى الاصوات (فونجراف) .

فى عجزها وقصورها على ما وصفنا وقد استطاعت أن تحتال وتتصرف حتى اخترعت وأنطقت الجماد، فنطق بما بهر العقول واسترعى الأسماع، فسوّت بذلك بين الجماد الأخرس الصامت والإنسان المتكلم الناطق، أفيعجب الإنسان بعد هذا أو ينكر اذا قال الله الخلاق القدير: إن جهنم يوم القيامة إذا أُلقى فيها الذين كفروا (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ). أو قال فى شأن السماء والأرض: (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) أو نحوَ ذلك مما ورد فى القرآن الكريم، مدعيا فى اشمئزاز وتبجح أن الغيظ والقول إنما هما من شأن الأحياء وخصائصهم لا يشاركهم الجماد فيهما، غافلا عن أن الخلاق الغالب على أمره لا يُعجزُه شىء فى الأرض ولا فى السماء، بل إنه على كل شىء قدير؟! فأين هذه القدرة الانسانية القاصرة التى سوّت بين الجماد والحى، من هذه القدرة العظمى التى وجبت للإله الخالق الأكبر واهب القُوَى والقُدَرِ !.

ألا فليعلم الناس أجمعون، أن الله الذى ليس كمثله شىء، قادر على أن يخلق من العدم موجودا، وأن يجعل من الجماد حيا مدركا، وأن ينشئ من الحى جمادا صامتا، وأنه سبحانه على كل شىء من الممكنات قدير.

كذلك فليعلموا أن ما ورد فى القرآن العزيز من نسبة القول الى السماء والأرض، وما ورد فى الأخبار من نسبة الحياة والإدراك الى جهنم تفسيرا لقوله تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ)، هذا وذاك صحيح مقبول شرعا وعقلا، لأنه من الممكنات المقدورة لله عز وجل، واللفظ القرآنى الكريم يحتملهما.

ولعل فى هذه الكلمة بلاغا لقوم عابدين. (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ. إِنَّا عَامِلُونَ. وَٱنْتَظِرُوا. إِنَّا مُنْتَظِرُونَ) (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ).

حسنه منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم العليا سابقا

رحم الله امرءا عرف قدره

تعلم رعاك الله أن بعض الناس الذين رق دينهم وغلظ حجابهم يتكلمون فيما نسب الى الأنبياء مما لم يدروا له تأويلا ولم يعرفوا له معنى، فتراهم ينكرون ماجاء فى الدين من الروحانيات وأمور الآخرة ، لأن طبعهم الخبيث لا يقبله ، واستعدادهم الضعيف قاصر عنه . وكثيرا مايؤثر ذلك فى قراء الصحف والمجلات ، فنريد أن نحذرهم من تقليد أولئك الجهلاء فى مقالنا هذا ، فعسى أن نرجع ذوى الثرثرة الذين يريدون أن يطيروا بأجسامهم الثقيلة فى جو سماء الأرواح ، الى خطة الإنصاف ، حتى يعرفوا أن لهم درجة من العلم والاستعداد يجب عليهم أن يقفوا عندها ويدعوا ماوراء ذلك ولايخوضوا فيه ، حتى اذا سمعوه عن الأنبياء لم ينكروه ، فيكونون من الذين يؤمنون بالغيب وهو نوع من الهداية .

إن التفاوت الذى بين أفراد الإنسان لم يتفق مثله لأفراد نوع آخر ، فليس هناك فرد يساوى ألف فرد أو أكثر من أفراد نوعه غير الانسان ، وإنه باعتبار أفراده لأرفع الأنواع على الإطلاق وأحطها على الإطلاق ، وليس لكل فرد من تلك الأفراد علم إلا عن نفسه ، ولا خبر لديه عن معلومات الفرد الآخر وما هو عليه .

إن كل إنسان لايعرف إلا ما يناسب استعداده الخاص ، ولا يمكنه أن يعرف ما يناسب ما فوقه من ضروب الاستعداد وما لذلك من الأحكام الخاصة التى تعلو عن درجته ، فذلك عالم آخر بالنسبة اليه محجور عليه دخوله بمقتضى استعداده السافل ، حتى إنه لايكاد يصدق بأوضحها عند أربابها ؛ وربما كان البعد فيما بين ذلك وبين

استعداده شاسعاً فلا ينفع فيه البرهان ، ولا يمكنه أن يدركه ، وكان كالذى يكلف أن يرى ما بعد عن متناول بصره وقوة نظره من المرئيات لغيره ؛ ولو ذكرت الكهرباء وآثارها للمصرى الساذج منذ مائة سنة لم يصدقك ولو أقمت له على ذلك ألف برهان ، بل ذلك يجده الانسان من نفسه إذا تأمل فى أحواله وتنقلاته فى أدوار حياته المختلفة يعرف أنه كان فى دور السذاجة ينكر ما يعتقد الآن فى دور العلم ، ولا يزال هكذا يترقى فى معرفة الحقائق (يعتقد اليوم ما كان ينكره بالأمس) .

وقد استبانت تلك الحقيقة لأساطين الفلسفة فى أوربا فاعترفوا بأن ما يجهلون أكثر مما يعلمون ، وأن فوق استعدادهم ما لم يصلوا اليه حتى الآن ، وقد قال الفيلسوف (سيزار لومبروزو) فى كتاب ألفه فى إثبات الأسيرتزم (استحضار الأرواح) : « لنحذر من ادعاء دقة العقل واعتقاد أن كل من سوانا مخرفون واهمون ولنحترس من الزعم بأننا وحدنا العلماء دون غيرنا فإن ذلك يوقعنا ولا شك فى الضلال » ولو ذكر لأرسطو وأفلاطون وسقراط أن الماء مركب وأن الذهب غير مركب لأنكروا ذلك كل الإنكار ، كما أنك تعد الآن انحصار العناصر فى الأربعة التى يذكرها القدماء الذين يجعلون الماء بسيطاً والهواء كذلك جهلاً عظيماً أو خرافة لا تسمع ، فليس من العقل أن نحكم فى كل شىء بالأحكام الجازمة ، بل يلزمنا أن نعتقد أن وراء استعدادنا ما لا يدخل تحت مداركنا . ولو فرضنا أن حاسة الشم مثلاً كانت مفقودة من العالم كله لأنكروا نوع المشمومات بأسرها لفقد آلة إدراكها فيهم ، ولعل هناك من الأشياء ما لا يدرك إلا بحاسة سادسة لم تخلق فينا أو فى بعضنا ، فكانت تلك الأشياء عنده داخلة فى عالم العدم لا فى عالم الوجود (وقد ذكر بعض علماء الحيوان أن للنحل حاسة ليست فينا) فكل إنسان محصور فى سجن استعداده المحيط به من كل جهاته لا يمكنه أن يرفع رأسه إلى ما فوق سقف ذلك السجن

ولا أن يجاوز ببصره ما وراء حيطانه وإن كان فى وسط ذلك العالم الفسيح ، والأشياء موجودة فى أنفسها لا يؤثر فيها جهل الجاهلين بها ، وكل يرى منها على قدر بصر عقله ، فليست الأشياء كلها موجودة فى حقك ، أو لست أنت موجودا إلا فى بعض يسير منها وإن كان يخيل لك أنك فى الكون كله .

وبهذا تعلم أن حكم الطبقة الدنيا على الطبقة العليا لا يكاد يقرب من محل الصواب إلا بالمصادفة والاتفاق ، أو بالقرب من درجة تلك الطبقة العالية ، بل اذا رأينا شخصين من طبقة واحدة وقد صدر منهما فعل واحد لم يمكننا أن نحكم عليهما حكما واحدا حتى نعرف مبدأ الفعل وباعثه وغايته التى تراد منه عند كل منهما ، فقد تكون صورة الفعل واحدة وهو حسنة كبرى بالنسبة الى شخص ، وسيئة عظمى بالنسبة الى آخر ، ودرجات الأفعال فى ذلك وجزاؤها على ما يقتضيه وزنها الحقيقى لا يتضح فى هذا العالم إلا نوعا من الاتضاح ، ولا يقوم بالجزاء الحق إلا من علم كنه الأشياء على ما هى عليه فى الواقع ، وليس إلا الله تعالى كما قال : (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) .

ولا بد أن تكون قد علمت بعد هذا أن كل إنسان إنما يحكم حسب ما يريه بصره الضعيف أو القوى (المحدود على كل حال) وأما ما بعد عما يتناوله إدراكه فهو بالنسبة إليه فى عالم العدم ، وإن من الجهل أن يعتقد الانسان أن كل شىء يدخل تحت علمه ويمكنه أن يصل إليه ، فكما خلقت على حد محدود فى القوة الجثمانية فلا تستطيع أن تنقل الصخر ولا أن تحرك الجبل ولا أن تسمع من الأصوات أو ترى من المبصرات إلا على مسافة مخصوصة ، ولا يمكنك أن تصل إلى ما وراء ذلك ولو أجهدت سمعك وأتعبت بصرك ، كذلك خلقت على حد محدود فى عقلك وإدراكك ، فأنت محدود فى جميع أمرك ، مقيد فى استعدادك الباطنى تقييدك فى استعدادك الظاهرى ، وإن كان يمكنك أن تترقى

ولكن إلى حد محدود أيضا . ولكل من الدرجتين علوم تخصها لا يمكنك فى كلتا الحالتين أن تتجاوزها الى ما وراءها ، وليس ذلك الإطلاق الذى نتخيل والقوة غير المحدودة فى كل شىء والعلم غير المتناهى إلا لله تعالى ، وتعلم أن من الحكمة بعد ذلك إلزام كل حده ، حتى لا يحكم الصغير العقل الضعيف الاستعداد القليل المعلومات النازل الدرجة على العظيم فى كل ذلك .

وإذا أبينا على السوقى الساذج أن يتكلم فى السياسة ويحكم على قادة الأمم وكبرائها بأحكامه الجائرة التى لا يشك هو فى عدالتها ، ويخطئهم فى آرائهم التى لا يعرف أسرارها ودخائلها ، فكيف لا نأبى على هؤلاء الزعانف الذين لم يعرفوا من العالم المحسوس إلا ظواهره فضلا عن العالم الروحانى الذى لم يشموا له رائحة أن يتكلموا فى الأنبياء والمرسلين ، ويحكموا عليهم بجهلهم حكم من فى الأرض على من فى السماء : فأمر الدين وما فيه من الأسرار أدق وأغمض من أمر السياسة ، وأرفع من أن يصل اليه أولئك الجثمانيون ، وبينهم وبين الأنبياء أبعد مما بين الملوك والسوقة ، وأرفع مما بين الفرش والعرش . وإن العلم أشبه شىء بالبحر ، ومن نزل البحر ولم يحسن السباحة أدركه الغرق لا محالة . وليست كل سفينة تصلح لكل بحر ، ولا ربانها يسير بها مع كل عاصفة .

فعليك أيها الراغب فى سعادتك ، المحتاط لأمر دينك ، الخائف على نفسك ، أن تنتقى لأمراض قلبك من العلماء كما تنتقى لأمراض بدنك من الحكماء ، وأن تحتاط فى تحصيل مزاياك ، كما تحتاط فى اكتساب قضاياك ، فوراء ذلك شقاء ما له غاية ، أو سعادة ليس لها نهاية ؟

يوسف الدجوى

من هيئة كبار العلماء بالازهر

الربا

الربا فى الجاهلية والاسلام — الربا فى نظر الشرع وفى نظر القانون

الربا فى نظر الأمم وفى نظر الأفراد

٢

بعد أن انتهينا من تفسير هذه الآية الكريمة وعرفنا من أسرارها وتعبيرها ما فيه مقنع ، يصح أن نعرض لآية آل عمران لنكشف القناع عن شبهة تعلق بأذيالها من يبحث لنفسه عن منفذ ينيلها به مبتغاها ، ضاربا الصفح عن كل هذه الآيات والنذر :

قال تعالى فى سورة آل عمران : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) .

لقد فهم بعض من لا خلاق لهم ومن يحاولون أن يجذبوا الدين الى أهوائهم وينزلوه على حكم شهواتهم بدل أن ينزلوا أنفسهم على حكمه من قوله تعالى فى النهى عن أكل الربا : (أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً) أن هذا قيد فى النهى ، وأن النهى عن الربا إنما يكون اذا كان أضعافا مضاعفة ، فإن لم يكن كذلك فهو حلال ، وقالوا على ذلك يكون المنهى عنه إنما هو الربا الفاحش المتضاعف ، أما الربا ذو الفائدة المعتدلة فلا حرمة فيه ولا نهى عنه . وما أشد ما فرحوا بهذا التخريج وملأوا الدنيا صياحا أن قد وجدوا فى القرآن

ما يحل لهم أكل الربا غير الفاحش ، فقد قيد النهى بقيد المضاعفة ، فحيث لم يحصل القيد لم يتحقق النهى . هكذا قالوا ، وهكذا فهموا ، أو حاولوا أن يفهموا ، جريا وراء غاية نفوسهم ، وسعيا لتحقيق ما حرصوا عليه وهو ابتغاء الوسيلة لاستحلاله ولو من أضيق الطرق . وسنبين لك فساد مزاعمهم بما لا يدع مجالا للشك فضلا عن المكابرة والإنكار .

ويحتاج الأمر قبل ذلك الى كلمة وجيزة فى أنواع الدلالة اللفظية التى هى عماد فهم النصوص الشرعية : لقد قسم علماء الأصول دلالة اللفظ الى دلالة منطوق ودلالة مفهوم ، وقسموا المفهوم الى مفهوم موافقة ومفهوم مخالفة ، ولا يرو عنك التعبير الاصطلاحى وإسناده الى علماء الأصول فتظن أنا تعمقنا فى القول بما يخرج عن فهم الجمهور ويعلو على مستوى فكر عامة الناس ، فليس فى الأمر ما يدعو الى ذلك ، وإن كنا لو صرنا اليه فى موضوع أخذ الأحكام من القرآن لم يكن فى ذلك من بأس ، فباب الاستنباط من القرآن باب عال لا ينبغى أن يحاول اقتحامه إلا من أعد له عدته ، ولكن الأمر فى هذه المسألة ليس من الصعوبة على ما تظن ، فدلالة المنطوق دلالة اللفظ على معناه الذى استعمل فيه ، ودلالة المفهوم دلالته على معنى خارج عنه ، فالأول كدلالة « أحل الله البيع وحرم الربا » على حل البيع وحرمة الربا ، والثانى كدلالة هذا النص على حل الانتفاع بالثمن وبالمبيع وحل الشهادة على ذلك ، وكدلالته على أن الفائدة فى الربا لا تملك ، وأن المقر له وهو قادر على تغييره مرتكب إثما ، وأن المساعد عليه بالشهادة أو الكتابة شريك فى الإثم ، مستحق للعنة الواردة فى الحديث .

وأوضح من هذا فى تمثيل دلالة المفهوم دلالة قوله تعالى فى شأن البر بالوالدين : (وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا) دلالة على حرمة ضربهما وابتذالهما وتعذيبهما بالجوع أو الحبس أو ما ماثلهما ، فإن ذلك ليس مدلولا لكلمة لا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، ولكنه مفهوم بالبداهة أن النهى عما يجرح عزة نفوسهما

ويوجب تغيرهما واشمئزازهما، نهى بالأولى عما يؤذيهما ويحقرهما ويؤلمهما . هذا مفهوم الموافقة ، وهو دلالة اللفظ على حكم مماثل للحكم المنطوق به وموافق له ، أما مفهوم المخالفة فهو دلالة اللفظ على حكم مخالف للحكم الذى دل عليه النص ، وذلك كما فى قوله عليه السلام : « مطل الغنى ظلم » فإنه يفيد أن مطل المدين الفقير أى تأخير أدائه الدين الذى عليه ليس بظلم ، وكما فى قوله تعالى : (وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ) مفهومه أن غير ذات الحمل لا يجب الإنفاق عليها إلا مدة العدة المقررة ، وقوله تعالى : (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ) ، مفهومه أنها إن تزوجت غيره حلت لزوجها الأول ، وهذا النوع من الدلالة وهو مفهوم المخالفة مختلف فيه بين الفقهاء : أنكره أبو حنيفة وأثبته الشافعى ، وفصل آخرون فيه تفصيلا لا يسع المقام بسطه ، والمثبتون له اعترفوا بأن دلالته ضعيفة ، فشرطوا فيها ألا يظهر للقيد فائدة ما غير مخالفة حكم ما خرج به لحكم ما اشتمل عليه ، أما اذا ظهرت له فائدة فلامفهوم مخالفة ، وذلك كما فى قوله تعالى فى تحريم النساء : (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ) فليس معناه أن ربيبة الرجل لا تحرم عليه إلا اذا كانت فى حجره أى تربى معه فى بيت واحد ، بل حرمة الربيبة شاملة لمن كانت معه ومن كانت بعيدة عنه ، وإنما ذكر قيد اللاتى فى حجوركم ، لأنه الغالب من جهة ، وتنبيها على حكمة التحريم من جهة أخرى ، ببيان أن هذه الربيبة ستدفعها الحالة الى أن تكون معك فى بيت واحد ، إن لم يكن دائما ففى بعض الأحيان ، فمن حقها أن تنظر اليها كما تنظر الى ابنتك المتربية فى حجرك ، فيجب أن تنقطع طماعيتك عنها بالمرة ، وذلك بتحريمها ، وكما فى قوله تعالى : (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) فليس معناه أن الإماء اذا لم يردن التحصن جاز دفعهن الى البغاء أو جاز تمكينهن منه ولو بدون إكراه ، وإنما القيد مسوق للتأنيب والتبكيت وتفظيع ما كانوا يفعلونه مع إمائهم من إكراههن على البغاء يتكسبن به

ويعطينه لسادتهن ، فجاءت الآية نعيا عليهم وتقبيحا لشنيع فعلهم ، وكأنه يقال لهم : اذا كان هؤلاء نساء مملوكات لا يعرفن ما هو العفاف والشرف والصيانة كما تعرفون ويردن التحصن ، فكيف بكم أيها الرجال العقلاء تدفعونهن إكراها مع أنه لا ينالكم من مقارفة هذه القبائح إلا دراهم معدودة ، بينما قد ينلن هن من اللذة البهيمية ما عساه يدفعهن لذلك القبيح ؛ فالآية بالغة فى التشنيع عليهم والتشهير بسوء فعلهم مبلغا عظيما ، وذلك بذكر هذا القيد خصوصا مع لفظ الإكراه .

اذا تمهد هذا رجعنا الى متمسك أولئك الطغام فى أمر الربا بهذه الآية ، وذكر قيد أضعافا مضاعفة ، وأستحلفك أن تطرد السآمة عن نفسك ، فالأمر جلل والبلوى عامة والنفوس متطلعة الى ما ينير لها الطريق :

إن من يريد أن يفهم آى القرآن الكريم حق فهمها يجب أن ينظر فى الآية مع سابقها ولاحقها ، حتى يتجلى له من غامض أسرارها ما لا يتبينه لو اقتطعها من بين صواحبها .

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة هى وما بعدها من آيات الترغيب فى الإنفاق وفعل الخيرات متوسطة بين آيات الجهاد ، فقبلها قوله تعالى : (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الآيات الى قوله تعالى : (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ثم هذه الآية وآيات الترغيب فى الإنفاق وفعل الخيرات ، ثم العودة الى أحكام الجهاد فى قوله تعالى : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآيات ، فالآية متوسطة بين آيات القتال . وقد علم أن المال من أقوى عدد القتال ، حتى لقد قدم على الأنفس فى قوله تعالى:

(ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) (وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) وقوله تعالى: (ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ) فاذا لعبت بالنفوس الضعيفة تلك القاعدة السخيفة، قاعدة « الغاية تبرر الوسيلة » أفليس يتبادر الى أذهان المؤمنين الالتفات الى جمع المال من أى طريق كما كان يفعل خصومهم المشركون، ومن أيسر طرقه وأسرعها فى الجمع طريق الربا ؟ : فجاءت الآية للتحذير من أن يتطرق الى نفوسهم ذلك الخاطر السوء، فنهتهم عن أكل الربا، مشنعة عليه بما هو الغالب فى شأنه من أنه يؤول الى أن يكون أضعافا مضاعفة، فالقيد مسوق للتشنيع وتقبيح أمر الربا بإبرازه فى أشنع صورة، صورة الظلم البين واستغلال الغنى القوى حاجة الضعيف الفقير، فيبتز ماله ويحرمه هناءته ولا ذنب له إلا حاجته الدافعة، فكيف يكون القيد مسوقا للتنفير والتشنيع وإبراز المنهى عنه فى أقبح صورة تبعيدا منه ومبالغة فى الزجر ثم يتخذونه سبيلا لإباحة شىء منه ؟ : سبحانك هذا بهتان عظيم.

لقد ظلم نفسه من يتمسك بدلالة ضعيفة مختلف فيها، واحتاط لها القائل بها بشروط إن لم تتوافر زالت كلية، فى مقابلة ما ذكر فى آية البقرة، بل فى مقابلة ما يشير اليه وضع الآية فى هذا الموضع بقصد أخذ الطريق عليهم، كيلا يندفعوا وراء الخواطر الكاذبة المبنية على ضخامة أمر الجهاد وعظم خطر المال فيه، فقد بادر باغتنام الفرصة وسد الطريق عليهم فقال لهم : حذار أن تفكروا وأنتم فى طريق الاستعداد للقتال، أن تجمعوا المال من طريق الربا، لا لا، اجتنبوا هذا وأنفقوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) وأول ما بدأ به من صفات المتقين قوله : (ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّاءِ) فمجيئها بين آيات الجهاد والاستطراق منها الى الترغيب فى الإنفاق محل للتنبيه والتحذير، لكيلا

يفكروا فى تلك المعاملة السيئة التى غالب شأنها أن تصير أضعافا مضاعفة على حساب الفقر والمسكنة فاحذروه احذروه . وحسبك إردافها بقوله : (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) أى فما كان الفلاح فى محاربة الله ورسوله ، ثم قوله : (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) أفليس معناه أن متعاطى هذه المعاملة إن لم يكن كافرا فهو على شفا حفرة الكفر ؟ وإلا فما معنى قوله عقبها : (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) ثم قال تأكيدا وتثبيتا : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

لا أظن أن قد بقى للمخالف متمسك ولو بشبهة واهية بعد هذا الذى بيناه ، اللهم إلا رجلا يريد أن يقول هذا رأيى وكفى ، فأولئك (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

بقيت كلمة فى تفسير قوله تعالى فى سورة الروم : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) والأمر فيها ظاهر ، فقد سيقت الآيات السابقة للتدليل على التوحيد بدلائله العقلية فى قوله جل شأنه : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) وما بعده ، ثم أردفت بقوله : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) ثم بين أن التوحيد متأصل فى فطر الناس يلجئون اليه بنفوسهم ، خصوصا اذا مسهم الضر على ما بيناه فى مقالاتنا المتتالية فى المجلة (الاسلام دين الفطرة) فقال : (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ) ثم ذكر أن ما يصيب الناس من ضر هو بما قدمت أيديهم ، فكان جديرا أن يبين لهم ما ينبغى أن يفعلوا وما ينبغى أن يدعوا فقال : (فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ

وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ) فذلك من بيان ما يجلب الخير وما يجلب الشر وما يدور عليه بسط الرزق وقبضه ، ومرد كل شئ الى الله ، فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما كان حربكم لله وعصيانكم إياه وخروجكم على أمره بالذى يعود عليكم بالخير وبالبسط ، فما آتيتم من ربا تستزيدون به أموالكم لينهب فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما توهمتموه نقصا من أداء الزكاة تريدون وجه الله فهو الزيادة الحقيقية ، بل هو الإضعاف المطرد ، إما بالنماء والبركة ، وإما بكثرة الثواب الذى هو المقصود الأعظم فى الدار الآخرة ، (وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ) .

ومن المفسرين من حمل هذه الآية على محمل آخر وقال إنها وردت فى الرجل يقدم لآخر هدية ينتظر من ورائها أن يجزل له الآخذ ثوابها ويضاعف له قيمتها كما يفعل مع الأغنياء والعظماء ، فبين الشارع أن هذا مما لا ينبغى وإن لم يكن محرما ، فإنه غالبا يعمل فيه سيف الحياء ، وعلى ذلك تكون الآية من واد آخر وإن كنا نميل الى الوجه الأول ، خصوصا أنها سيقت عقب ابتلاء الناس بالمصائب ، فكان حقا أن يرشدوا الى أن الشفقة على عباد الله مما تستدر به رحمة الله ، الراحمون يرحمهم الرحمن . وليس فى استنزاف القوى مال الضعيف واستغلاله حاجته شىء من الرحمة تستنزل به رحمة الرءوف الرحيم .

وقبل أن نختم هذه الكلمة يجب أن نعرض الى كلمة يقولها علماء الاجتماع والقانون كما يسمون أنفسهم ، وهى أولا — أن هذه المعاملة مما تدعو اليه الضرورة وتقوم به المشروعات العامة ، وقد رأيت فى كلامنا فى تفسير آية آل عمران ما يسد هذا الباب سدا محكما ، فالضرورة مهما بالغت فى تصويرها محال أن تصل الى ضرورة الحروب التى يدور عليها سعادة وشقاء الأمم والشعوب ، والتى يقال فيها ويل المغلوب ، خصوصا

اذا كانت بين فئة قليلة ضعيفة تتخطف من كل جانب ، وتحمل أعظم أمانة تدور عليها سعادة الأمم أجمع ، كما فى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته للمشركين وأشياعهم؛ وقد رأيت كيف جىء بآية الربا بين آى القتال لرد ما عساه أن يخطر ببال أحد منهم من أن يستبيح طريق جمع المال بأية وسيلة ، عملا بكلمة : الغاية تبرر الوسيلة . فتأمل هذا فضل تأمل . على أننا قد بينا فى إحدى مقالاتنا السابقة أن فى المضاربة والقراض مندوحة عن الربا ، وأنها أقرب للعدالة ، إذ يكون الركنان المتساعدان فى المشروع الذى يراد إنشاؤه وهما المال واليد العاملة مقتسمين للفائدة اقتساما عادلا ربحا وخسارة زيادة ونقصا ، أما أن أحد الركنين وهو المال يبقى دائما فائزا رابحا بينما اليد تكد والذهن يجد والعقل يدبر والجسم يجهد ثم يعود الفشل والخسران على اليد العاملة وحدها ، فهذه قسمة ضيزى تبذر من بذور الشقاق والأحقاد فى النفوس على توالى الأزمان ما يعجز عن علاجه كل إنسان؛ وهاك أمراض الإنسانية التى ضج بالشكوى منها كل الأمم وأخصها الشيوعية والبلشفية .

وقالوا ثانيا : — إن أمر الربا لم يخرج عن كونه من باب الإجارة ، فالمقترض أخذ الدينار لينتفع به ثم يرده وعليه أجره أى قيمة الانتفاع به، كما تستأجر الدابة لتركبها ثم تردها لصاحبها ومعها أجرتها ، وما أشبه هذا بما حكاه القرآن الكريم عن الأولين فى قولهم: إنما البيع مثل الربا ، بل أمر الاجارة أبعد شبها عن الربا من أمر البيع ، فإن المستأجر شىء ينتفع به مع بقاء عينه ، وهل يمكنك أن تنتفع بالدينار إلا اذا ضاع من يدك كما قال الحريرى فى وصفه : « وشر ما فيه من الخلائق ، أن ليس يغنى عنك فى المضايق ، إلا اذا فر فرار الآبق » وهل سمعت بمن يستأجر رغيفا ليأكله ثم يرده وأجرته ، أو جرة ماء ليشربها ثم يردها؟ : إن هى إلا تمحلات كلما سد فى وجههم باب حاولوا فتح غيره ، وكل هذا مما يلقيه الشيطان فى نفوسهم (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي

ٱلشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ابراهيم الجبالى
مدرس بقسم التخصص

الطُّرف والمُلح

قال شيخ لابنه يشكو عقوقه :

غذوتُكَ مولوداً ومنتُكَ يافعا تَعِلُّ[1] بما أُجنِى[2] عليك وتَنهَلُ[3]

اذا ليلة ضافتكَ بالسُّقْمِ لم أَبِتْ لِسُقمك إلا ساهرا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى طُرِقْتَ به دونى فعينىَ تَهْمُل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها لتَعلم أَن الموت وقت مؤجَّل

فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التى اليها مدَى ما كنت فيها أؤمّل

جعلتَ جزائى غلظةً وفظاظةً كأنك أنت المنعمُ المتفضل

فليتك إذ لم تَرْعَ حقّ أُبوّتى فعلتَ كما الجارُ المجاورِ يفعل

(١) عل شرب مرة بعد مرة . (٢) أجلبه واحضره إليك . (٣) نهل شرب المرة الاولى حتى روى . والمراد تتغذى بما أجلبه إليك من المأكول والمشروب بقدر ما تحتاج وتشتهى .

السُّنَّة

الترغيب فى تأديب الاولاد

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نُحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ [1]) .

الشرح

نَحَلَ الوالد ولدَه شيئا أعطاه إياه من غير عِوَضٍ بِطِيبِ نفْس . والنُّحلُ (بضم النون) هو ذلك الشيء المُعْطَى .

والأدب هو رياضة النفس وكثرة توجيهها وشغْلِها فى وجوه المحامد ، واستمرار تدريبها وتمرينها على محاسن الأخلاق والأعمال حتى تَسْلَسَ و تَمْهَرَ فى الفضائل والخصال والأعمال المحمودة .

والمأدُبة (بضم الدال) هى الطعام الذى يُصْنَعُ فى الوليمة ثم يُدْعَى الناس اليه .

---

(١) رواه الترمذى .

والمأدَبة (بفتح الدال) مأخَذُ الآداب ومصدرها ومنشؤها ، كالكتب السماوية والشرائع الإلهية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء والحكماء والمربّين العارفين وسِيَرِهم .

وفى كلام سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قولُه : « إن هذا القرآنَ مأدبة الله فى الأرض فتعلَّموا من مأدبته » .

فإن كانت الدال فى المأدبة (فى كلام ابن مسعود هذا) مضمومةً ، فإنه يكون قد شبه القرآنَ العظيمَ بِصُنْع جليل من الأطعمة صنعه الله تعالى ، جمع فيه من أنواع المآكل والألوان واللذائذ والمشتَهيات المفيدة ما فيه خير ومنافع للعباد ثم دعاهم اليه لينالَ كل منهم قِسْطَه بقدر استعداده وجِدّه وتوفيق الله تعالى له فيما تتوق اليه نفسه وتسمو اليه همته [1] .

وإن كانت مفتوحة فالمعنى أن القرآن العظيم هو ينبوع الآداب ومَشْرِق الحِكَم ومَوْطنُها وكنزُ مصالِح الدنيا والآخرة .

إن المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن عن بينة يؤمنون بأن كلا من هذين المعنيين صحيح منطبق على القرآن الكريم كل الانطباق ، أما تلك البينة التى كان عنها إيمانهم فهى شهادتان :

الشهادة الأولى : شهادة الله تعالى للقرآن بذلك فى عدة آيات من آياته — فمنها قوله عز وجل : (إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ) وقولُه : (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) وقولُه : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) .

الشهادة الثانية : شهادة آثاره الحَسَنة فى حياة المسلمين حينما كانوا يعلمون ما اشتمل عليه من الحِكَمِ والأحكام وكانوا بها عاملين ، فلما هجروه ونبذوه كما نبذ مَنْ قبلَهم

(١) قال أبو عبيد : وهذا التفسير أعجب إلى .

من أهل الكتاب كتابَهم ظِهْرِياً، جهلوا المنافعَ وحُرِموا الخيراتِ وتفرّقتْ بهم السبلُ وشَتّتَتْهُم المَنازِعُ والأهواء أَيْدِى سَبَا، وضُرِبتْ عليهم الذلةُ والمسكنة وباءوا بغضب من الله و (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) .

وجُمّاعُ [1] الأدب الحسن الذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف حثا للآباء على تأديب أولادهم به أدبان : الأدب الأول العلم الصحيح . وهو نوعان : فالنوع الأول هو العلم بالمعلومات الدينية المتعلقة بما يجب لله تعالى من نعوته الجليلة الإلهية ، وبما يجب لأنبيائه ورسله وملائكته عليهم الصلاة والسلام ، وبما يجب الإيمان به من الكتب السماوية الصحيحة وما تضمنته من الشرائع والأحكام والحِكَمِ الإلهية وسائر الفضائل والعقائد .

والنوع الثانى هو العلم بالمعلومات الدنيوية التى هى قِوَامُ هذه الحياة الدنيا ، وعليها يدور صلاح أحوال البشر وتستقيم أمورهم وشئونهم ومعايشهم وينتظم بها مجتمَعُهم .

الأدب الثانى العمل السديد المحكم الذى هو على طِبْقِ هذا العلم الصحيح . وهو دينى ودنيوى . فأما الأعمال الدينية فقد بينتْها الشريعة السَّمْحَةُ وفصلتها تفصيلا . وأما الأعمال الدنيوية فقد جعلها الله القدير الحكيم بقَدَرٍ معلوم يوصل الى المنافع التى رتبها بحكمته عليها ، ثم ألهمها العبادَ وهداهم الى سلوك طرقها والأخذ بأسبابها ، كما قال سبحانه : (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ . وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ) وكما قال حكاية لما قاله سيدنا موسى عليه السلام لفرعونَ والمصريين : (رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ) وكما قال : (إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ) (وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ) .

---

(١) أى ما يجمع معناه إجمالا .

ثم اعلم أن العمل الدنيوى أصناف عِدَّة، فنها الصناعة . والذين يعلمونها ويحيطون بفروعها وشُعَبِها الآن إنما هم غير المسلمين ومن نَهَجُوا مَنهَجَهم فى الجهل والخمول . عَلِموا منها ما ينفع وقت الأَمْنِ والسِّلْم ، كما علموا ما يفيدهم زمن الخوف والحرب ، على اختلاف أجناس هذه الصناعات وتباين فنونها وكثرتها ، مع الجد فى الاستكثار منها والسعى الحثيث فى الاختراع والتفنن فيها ، حتى صاروا وحدهم مُلاَّكها بل ملوكها ، يعملون لأنفسهم ما يشاءون من مَرافق الحياة ، كما يصنعون لغيرهم من الأمم الجاهلة ما يحتاجون اليه حقيرا كان أو جليلا ، فأصبحوا وهم القابضون على زمام كل حرفة ، وبأيديهم مقاليد كل صناعة ، يُصَرِّفونها فى بلادهم منتفعين بها وبأثمانها وبأرباحها ، كما يجوبون بها الآفاق وأقطار الأمم الجاهلة التى أعجَزَها الكسلُ وأقعَدَها الخمول عن أن تستيقظ من سُباتها وتَشعُرَ بتعطيلها المواهب التى وهبها الله ، فلم تفكر أن تعمل عملا من الأعمال ، ولا أن تمارس صناعة شيء مما تحتاج اليه ، بل رضيتْ أن تعيش عَالَةً على كواهل غيرها من الأمم العاملة ، أسيرةً لها فى كل ما تفتقر اليه من مقوِّمات الحياة وعناصرها ، وإن ترتب على ذلك فقرها وانتزاع ما بأيديها من مال أو ثروة وإفرَاغُه فى خزائن هذه الأممِ العاملةِ الصنَّاعِ [1] .

لم يكن موت الصناعات فى الأقطار الاسلامية ناشئا عن أن المسلمين ليس عندهم من المؤهِّلات العقلية والفكرية، ولا من الوسائل المالية ، ما يُمَكِّنُهُمْ من السير فى طريق الأعمال ، ومن التفكير فى الاختراع والإبداع والإحكام فى أبواب الصناعات، ومن إنفاق الأموال التى يستطيعون بها أن يؤسسوا المعامل وينشئوا المصانع ثم يُرَقُّوها ويتقنوها ويحسنوها .

لم يكن موت الصناعات عندهم ناشئا عن شىء من هذا ، فإن جميع ذلك ميسور لهم وهو فى قبضة أيديهم ، وإنما منشأ ذلك هو الدَّعَةُ والجمود والركون الى الراحة والاستنامة

(١) الحاذقة الماهرة المتفننة فى الأعمال .

الى البَطالة والتَّرَف الكاذب ، وكل ذلك نتيجة الجهل والتفريط فيما أمرهم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من تربية أولادهم التربية النافعة ، وتأديبهم التأديب الحسن الذى من ضمنه العمل الذى تصلح به حياتهم الدنيوية ، وتتوافر به أسباب المعايش فيما بينهم ، حتى لا يكونوا كلاًّ على سواهم من الأمم ، وحتى لا يكونوا مَرْعًى خِصْبًا ضائعا يرعاه أولئك الذين جَدُّوا واخترعوا وأحسنوا صنعا فيما عملوا .

أعرض الوالدون عن أوامر الله عز شأنه فى تربية الأولاد ، وفرطوا فى تأديبهم بالآداب الحسنة دينية ودنيوية ، فكانت عاقبة ذلك أن نشأ الأولاد نَشْأَةَ الجاهلين ، ليس عندهم من علوم الدين ولا من علوم الدنيا ما تصلح به حياتهم الأخروية ، ولا ما تستقيم به حياتهم الدنيوية ، حتى إذا ما كَبِرُوا وزُجَّ بهم فى جوف المستقبل لم يجدوا فى أنفسهم ولا فى أمتهم القدرةَ على القيام بما يحتاجون اليه من المطالب ، فتكففوا الأممَ التى سبقتهم الى ميدان الأعمال ، وبذلوا لها أموالهم فى سبيل الحصول على ما يشتهون .

وياليتهم وهم كذلك اشْتَهَوْا ما يُحْمَدون عليه ولا يلومُهم الناصحون المخلصون على إنفاق أموالهم فيه ، ولا تحتقرهم الأمم التى تجلب اليهم مشتهياتِهم هذه ، لِمَا تراه فيهم من السفه والسخاء فيما هو فى الواقع من السفاسف وفضول المدنية الباطلة .

لا نطيل الكلام فيما أنفق فيه أولادُ أولئك الآباء حياتَهم وأموالَهم ، فإن ذلك ليس مما يسعُه شرحُ هذا الحديث الشريف . وفيما ذكرناه من تنشئة آبائهم لهم وسلوكِهم غيرَ سبيلِ الأدب الحسن الذى فى هذا الحديث تَبْصِرَةٌ وذكرَى لقوم يعقلون .

قد شرحنا لك فيما سبق معنى الأدب الحَسَنِ الذى حَثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمتَه أن يؤدّبوا به أولادَهم ، وبيّنّا لك عناصرَه الصحيحةَ التى هى قِوامُه وعمادُه .

فاجْعَلْ هـذا الأدبَ الحَسنَ نُصْبَ العينين ، واصْبِرْ نَفْسَكَ على تذكر عناصره التي بيناها ، ووفِّها حقّها من التدبر والعناية ، ثم أَقِمِ القسطاسَ المستقيمَ ، وضَعْ فى إحدى كِفَّتيه ذلك الأدب الحسن ، ثم ضَعْ فى الأخرى ما يتعلمه المسلمون الآن فى أغلب دُورِ العلمِ فى مشارق أقطارهم ومغاربها ، فهل تظن أن الكِفَّتين تتعادلان ؟ أم هل ترى أنهما تتفاوتان فَتَرْجَحُ إحداهما الأخرى ؟.

نحن هنا نترك تعيينَ تلك الكِفَّة الراجحة للقارئ المتدبر فيما شرحناه من معنى الأدب الحسن ، فإنّ فِقْهَهَ له وإنصافَهُ وصَدْعَهَ بالحق وبُغْضَه لِكتمانه كلّ ذلك يجعله يَجْهَرُ بالحق ويأتى بالشهادة على وجهها ، فيحكم بالرجحان لكِفَّة الأدب الحسن الذى أَمَرَ اللهُ ورسولهُ المسلمين به ، وبأنه هو الذى ذكره النبي عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث مبينا به قولَ الله عز وجل فى نحو : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ. ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

وأما الكِفَّة الثانية المرجوحة فإنها إنما صارت مرجوحةً طائشةً ، لأن ما وُضِعَ فيها هو السبل التى نهى الله تعالى العبادَ أن يَتَّبِعُوها ، وأنذرهم أنهم إذا اتَّبَعُوها فَرَّقَتْهم وَجهلَتْهم ومزقتْ أوصالَهم وأضلَّتْهم عن سبيله المستقيم الذى يوصل الى خيرى الدنيا والآخرة ضلالا بعيدا .

يقولون : إن أهل هذا العصر قد أُوتُوا الحظَّ الأوفر من العلم ، حتى كان عصرُهم عصر النور والعرفان ، فلقد تثقَّفتْ عقولُهم واستنارت أفكارُهم حتى سَمَتْ مداركُهم وأخذتْ بنواصى العلم فى كل نواحيه ، واتسع أمامَها مجَالُ البحث والتنقيب ، وأكثرتْ من الاختراع والابداع مع التجديد والترقى والتحسين فيما تبرزه للناس من عجائب الأعمال والمُحْدَثات . وبهذا استطاع الانسان أن يجُوبَ الأقطارَ ويشق البحار ويَصْعَدَ الى السماء ويغوصَ فى الماء ، ويكلّمَ أهلُ المغرب أهلَ المشرق وكلٌّ

فى مجلسه من بلده، الى غير ذلك مما وصلوا اليه بفضل ما علموه من آثار الكهرباء والبخار وغيرهما مما هداهم اليه جدُّهم فى التفكير والبحث والتمحيص .

أما نحن فإنه ليس موضوع كلامنا الآن تفضيلَ هذا العصر على ذلك العصر ، وإنما هو بيان الطريق السوىّ الموصل الى خيرى الدنيا والآخرة ، وهو الأدب الحسن الذى أرشد النبى صلى الله عليه وسلم الأمةَ اليه فى هذا الحديث ، وقد عرفتَ معناه مما فصلناه لك تفصيلا .

ولكننا مع هذا التفصيل نحتمل التَّبِعَةَ فنُجْمِلُ لك ذلك المعنى إجمالا فى كلمة موجزة فنقول : إن خيرى الدنيا والآخرة لا ينالهما أحد معا إلا بالأدب الحسن ، وهو — كما سبق — علم صحيح ، دينى ودنيوى ، وعمل كذلك دينى ودنيوى مؤسَّس على ذلك العلم الصحيح . أى أنه علم يتعلق بأمور معنوية وأمور مادية ، وعمل يتعلق كذلك بأمور معنوية وأمور مادية . فعلى قدر ما يناله الانسان أو الأمة من ذلك الأدب الحسن يكون حظه من الخير والنفع ، فمن ناله كلَّه كان له الخيرُ كلُّه ، ومن نال بعضَه كان له بعضُه ، دينيا كان ذلك البعض أو دنيويا .

ثم نقول : هل الذى ناله أهلُ عصرنا هذا الذى سَمَّوه عصرَ النور والمعرفة هو كل ما تضمنه الأدب الحسن الوارد فى هذا الحديث الشريف وهو العلم والعمل بقسميهما ، أو الذى نالوه إنما هو بعضه ، وهو العلم المتعلق بالمادة وخواصها وآثارها ؟ .

إن الذى نعلمه بالمشاهدة ومن أقوال أهل هذا العصر أنفسِهِم هو أن الذى نالوه إنما هو بعضه المادّى ، وما سواه وهو المتعلق بالدين علما وعملا فهو مطروح منبوذ ، لم يفكروا فيه تفكيرهم فى الماديات ولم يقيموا له وزنا ، بل عابوه وانتقصوه وجدُّوا فى محوه وتحويل من ينتسبون اليه عنه .

وإن كنتم فى ريب مما قلنا فالمدارس ومناهج ما يدرس فيها وما يلقنه المعلمون وما نسمعه من المتعلمين — إلا من عصم الله — وما يكتب فى الكتب والمجلات وغيرها، وما يخطب فيه الخطباء وما يتحدثون به فى الأندية العامة والخاصة ، كل ذلك شهودُ عدلٍ وصدقٍ على ما نقول .

فأى العصرين حينئذ يكون هو الجديرَ بأن يسمّى (عصرَ العلم والنور والمعرفة) : عصر تكون فيه شمس الأدب الحسن سراجا وهّاجا فى كَبِد السماء ، قد أنار ضوءها أقطارَ السموات والأرض ، أم عصرٌ تكون فيه شمسُه مكسوفةً قد أظلم وجهُها إلا قليلا ؟ .

إن مثل هذا السؤال لا يحتاج إلى جواب منا ، فنترك الإجابة عنه لأهل هذا العصر ولا سيما المسلمين منهم ، فإن هذا الحديث حديث نبيهم الذى أُرسِلَ اليهم ليعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

هل يظن أحد من الذين تدبروا ما بسطناه وعَقَلُوه حق تعقله أن المسلمين الآن قد نَحَلُوا أولادهم هذا النُّحْلَ ، وهو الأدب الحسن الذى جاءهم عن ربهم على لسان رسولهم عليه الصلاة والسلام ؟ إن الجواب عن هذا السؤال أيضا يعلمه عامةُ الناس وفى مقدمتهم الوالدون . فعسى أن يرحموا أولادهم ويُوَفَّقُوا لأن يَنْحَلُوهم هذا النُّحْلَ النافعَ ، (وَٱللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وبعد فإنا قد اكتفينا بالكلام فى الصناعة عن التعرض لبقية أصناف الأعمال الدنيوية كالتجارة والزراعة ، فإن حظ المسلمين بتفريطهم فيها وحظَّ غيرهم بجدهم فيها ، كحظهم جميعا فى الصناعة : جهلٌ وخمولٌ وحرمانٌ للأولين ، وعلم واجتهاد وثروة للآخرين .

لـكننا بعد هـذا كله لا نزال نرجو أن المسـلمين يُفيقون مما هم فيه ، فإن هذه الكوارث والقوارع التي تنتابُهم آناً فآناً في دينهم ودنياهم كافية كلَّ الكفاية في زجرهم واتعاظهم وإقلاعهم عن الإعراض عن أوامر الله ورسوله ، حتى يؤهلوا أنفسهم لأن يبدِّلَ الله تعالى سيئاتِ ما هم فيه حسناتٍ (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ . وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ) (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا) .

حسن منصور
وكيل مدرستي القضاء الشرعي
ودار العلوم العليا سابقا

الظرف والملح

قال اسحقُ بن ابراهيمَ المَوْصِليّ :

يَبْقَى الثناءُ وتَذهب الأموال	ولـكل دهرٍ دَولةٌ ورجال
ما نال مَحْمَدةَ الرجالِ وشكرَهم	إلا الجَـوادُ بماله المِفضالُ
لا تَرْضَ من رجل حلاوةَ قوله	حتى يُصدِّقَ ما يقول فَعالُهُ[1]

(١) فعله الحسن .

الفتاوى والأحكام

ورد إدارة المجلة من حضرة صاحب التوقيع ما يأتى :

جاء فى صحيفة ١٥ عدد ١ مجلد ٢ ضمن التفسير للعلامة المحبوب المجيد الاستاذ الشيخ حسن منصور أن المصحف قد كتبه الصحابة فى خلافة أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضى الله عنه بإشرافه عليهم الخ، مع أن المعروف أن المصحف قد كتب فى خلافة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه حينما أرسل الى سيدنا عمر فى ذلك وقال له أولا : كيف تفعل أمراً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ ، الى أن شرح الله لذلك أيضا صدر عمر ورآه حقا فكتبوه . فهل مراد الاستاذ الشيخ حسن منصور أن سيدنا عثمان قد نسخ فى خلافته نسخا عن المصحف المكتوب فى خلافة سيدنا الصديق وأرسلها الى أقطار الاسلام أم مراده غير ذلك ؟ فإن وجدتم من المناسب الجواب عن ذلك على صفحات المجلة لينتبه المطلعون عليها، أو فى كتاب خاص لهذا الداعى إن ساعدكم الوقت، ولا تنسونى من صالح دعواتكم ؟

محمد هاشم رشيد الخطيب
الحسنى القادرى

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قد اشتمل السؤال على أربعة أمور : (الأول) أن الذى فكر أولا فى كتابة

القرآن الكريم هو سيدنا أبو بكر . (الثانى) أنه أرسل الى سيدنا عمر فى ذلك . (الثالث) أن سيدنا عمر لم يوافقه أولا على كتابة القرآن . (الرابع) أن الله تعالى شرح صدر سيدنا عمر لها آخرا بعد نفوره منها . ولكنك ستعلم مما سنذكره لك بتوفيق الله تعالى أن الواقع بخلاف ذلك فى جميع ما ذكر فنقول :

إعلم أن الدَّفَّ والدَّفَّةَ ، الجانبُ من كل شىء . فدفتا الكتابِ هما جانباه . أى غِلافُه الذى توضع فيه أوراقُه .

ودفتا المصحفِ هما أيضا كذلك . ويرادِ فُهما المصحفُ ، فهما بمعنى واحد . وإضافة الدفتين الى المصحف من إضافة الجزء إلى كله .

والصحائف والصحف هى تلك الأوراق التى كتب فيها القرآن المجيد وحُفظتْ بين الدفتين . ومنه ما يُروَى : (ما بين دَفَّتَيِ المصحفِ كلامُ الله تعالى) .

ثم شاع إطلاق المصحف على ما يعم الدفتين والصحائفَ جميعا حتى صار حقيقة عرفية عامّة فيهما ، ولهذا عبرنا فى مقالنا بالمصحف دون الصحائف ، اعتمادا على هذا العُرف الشائع . هذا .

ثم نقول : قد كتبنا فى الصفحة الخامسةَ عَشْرةَ من العدد الثانى للسنة الثانية أن المصحف قد كتب فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه ، فمعنى ذلك أنه أمر بكتابة القرآن العظيم فى صحائف ، وجَعَلَ تلك الصحائف فى مصحف ، أى غِلاف يحفظها ويجعلها صالحة لأن تتداولها أيدى المسلمين ويقرءوها ، ولذلك كَتَبَ منها خمسة مصاحفَ ثم أرسلها إلى الأقطار .

هذا الذى قلناه من عمل سيدنا عثمان لاينافى أن سيدنا أبا بكر قد سبقه الى بعضه، فكَتَبَ القرآنَ الكريمَ فى صحائف حفظها عنده ، ثم انتقلت بوفاته إلى سيدنا عمر ، ثم من بعده الى بنته حفصة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنهم .

فما كتبه سيدنا أبو بكر هو صحائف كَتَبَ منها نسخةً واحدة ولم توضع فى مصحف ولم تُرسَلْ الى الأقطار، بل حفِظتْ عنده. وأما ما كتبه سيدنا عثمان فهو صحائف أخرى، كَتَبَ منها خمسَ نسخٍ، وجُعِلتْ كلٌ واحدة منها فى مصحف، ثم أُرسلتْ الى الأمصار التى فشا فيها الاسلام.

وبعد، فقد يَحْسُنُ أَن نُلِمَّ بصفوة من تاريخ كتابة القرآن الكريم، ليتعرّف منها المسلمون تاريخ كتابة القرآن، ويَعْرِفوا مقدار عناية سلفهم الصالح بكتاب الله عز وجل، وعظيمَ حرصهم على حفظه وصيانته من التغيير والتحريف، مع علمهم أن الله جل ثناؤه قد تولى حفظه بنفسه إذ يقول: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فلم يَجْعَلْ حِفْظَه موكولا إلى أحد من المؤمنين به، بخلاف ما قبله من الكتب السماوية، فإنه سبحانه وَكَلَ حفظَها الى من آمنوا بها ولكنهم لم يحفظوها، بل حرّفوا وكتَمُوا وجعلوها قراطيس يُبْدونها ويُخفُون كثيرا، كما قال تعالى فى شأن التوراة: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ) وقال: (قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا).

كتابة القرآن الكريم

قد أَجْمَع المسلمون على أنه عليه الصلاة والسلام كان يَقِفُ أصحابَه عند الكتابة أو الحفظ على ترتيب السور وآياتها، ويعلِّمُهم مواضعَ الآيات من السور، وكان يقرأ السورَ الطِّوال وغيرَها فى الصلوات وفى خارجها جهراً فيَسْمعونه، وكانوا يقرءون أمامه على ما رَتَّبَ وَعَلَّمَ.

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم عَرَضَ القرآن بعد تمامه عرضتين على جبريل ، ثم قرأه عليه أصحابُه بعد ذلك على الترتيب الذى نعرفه ، فلم ينتقل عليه الصلاة والسلام الى جِوار ربه حتى كان القرآن كلُّه مكتوبا يحفظه العدد الكثير من أصحابه ، لكن الصحائف والألواح التى كتب عليها لم تكن مجموعة بين دَفَّتين فى مصحف واحد ، وإنما كان ذلك فيما بعد .

جمع القرآن وتدوينه

قدَّمْنا أن القرآن كان يحفظه العدد الكثير من الصحابة ، وكان مكتوبا فى الرِّقاع وغيرها فى حياته صلى الله عليه وسلم ، لكنه كان مفرَّقا غير مجموع فى مصحف واحد ولا مكان واحد ، حتى لَحِقَ عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى ، وإنما جُمِع فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

وذلك أن عمر رضى الله عنه دخل عليه بعد سنتين من ولايته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهافتون على القتال تَهافُتَ الفَراشِ على النار ، وإنى أخشى ألاَّ يَشْهَدُوا مَوطِنا إلاَّ فعلوا ذلك حتى يُقْتَلُوا وهم حَمَلة القرآن فيَضِيع ويُنْسَى ، ولو جَمَعْتَهُ : فنفر أبو بكر وقال : أَفْعَلُ ما لم يَفْعَلْه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ! فتَراجَعَا فى ذلك . ثم أَرسَلَ أبو بكر الى زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنهما (من كُتَّابِ الوحى ومن الحَفَظَة المُتْقِنِين) فعَرَضَ عليه قولَ عمر ، وعمرُ ساكت ، فنفر زيد كما نفر أبو بكر وقال : نَفْعَلُ ما لم يفعلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ! فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ؟ ! إنه وَاللهِ خيرٌ . وما زال بهما حتى وافقاه .

فجَمَعَ أبو بكر الحَفَظَةَ المشهودَ لهم بالإتقان ، وكان منهم زيدُ بن ثابت وأُبَيُّ بنُ كَعْب وعليُّ بنُ أبى طالب وعُثمانُ بنُ عفّانَ رضى الله عنهم ، وأخذوا يوالون الاجتماع وأحضروا

كلَّ ما كانوا كتبوه بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخذوا يقرءون فيقابلون حتى وصلوا إلى قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ). وهو آخر سورة التوبة، فلم يجدوه مكتوبا مع أنه محفوظ. فما زالوا يبحثون حتى وجدوه مكتوبا عند أَبِي خُزَيْمَةَ بْنِ أَوْسٍ الأنصارى، وكذلك آية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) من سورة الأحزاب، فإنهم وجدوها عند خُزَيْمَةَ بْنِ ثابتٍ، فكتبوا القرآنَ آياتِه وسُوَرَه على الترتيب والضبط اللَّذَيْن تَلَقَّوْهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَوُضِع عند سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه. فلما تُوُفِّى كان عند سيدنا عمر، وبعده وُضِع عند أمِّ المؤمنين السيدةِ حَفْصَةَ بِنْتِهِ رضى الله تعالى عنهما.

المصحف الامام أو مصحف سيدنا عثمان

قلنا إن الصحف التى كُتِبَ فيها القرآن العظيم كانت عند أمِّ المؤمنين حفصةَ بعد وفاة أبيها، فلم يكن قد كُتِبَ منه مصاحفُ يتداولها الناس ويقرءون فيها، فلما كان عثمانُ رضى الله تعالى عنه أشار عليه بعضُ الصحابة أن يكتب للناس مصاحفَ، ويرسلَها الى الآفاق التى انتشر فيها الاسلام، ليجتمع الناس المسلمون على مصحف واحد، وحتى لايقع فى القرآن زيادة ولا نقص ولا تبديل فى آياته وكلماته، ولا تغيير فى ترتيبه، فأرسل سيدنا عثمان الى حَفْصَةَ أُمِّ المؤمنين: أَنْ أَرْسِلِي الينا الصحفَ ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك، فأَرسَلتْ بها إليه.

فأمر (١) سيدُنا عثمانُ زيدَ بنَ ثابت (وهو أحد الجامعين للقرآن فى عهد سيدنا أبى بكر كما قدمنا) وعبدَ الله بنَ الزبير وسعيدَ بنَ العاص وعبدَ الرحمن بنَ الحرث بنِ هشام فنسخوها فى المصاحف، ثم ردّ سيدُنا عثمانُ الصحفَ الى السيدة حفصةَ، وأرسل الى كل مِصْرٍ مصحفا: فأرسل الى مكةَ والكُوفةِ والبَصْرةِ ودِمَشْقَ، وأبقَى بالمدينة مصحفا، وأمر بما سواه من الصحف أو المصاحف أن يُحْرَقَ، وصار الناس يقرءون على مصاحفه ويكتبون منها مصاحفهم وتتابعوا على ذلك، وقد اشتهر ما كُتِبَ بأمر سيدِنا عثمانَ بالمصحف الإمام أو مصحف عثمان، وهو المعروف فى كلامنا الآنَ بالمصحف العثمانىّ، نسبة الى سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه.

والفرق بين جَمْعِ أبى بكر وجمع عثمانَ رضى الله تعالى عنهما أن الأول كان خشيةَ أن يَذْهَبَ من القرآن شىء بذهاب حفظته، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد، فَجَمَعَه فى صحائف مرتّبا لها على ما وَقَفَهُم عليه النبىُّ صلى الله عليه وسلم. وأنّ الثانىَ كان خشيةَ أن يُقْرَأَ كتابُ الله على غير ما سُمِعَ من رسوله بعد العَرْضَة الأخيرة، فَنَسَخَ الصحف التى جَمَعَها سيدُنا أبو بكر فى مصحف واحد، وكَتَبَ من ذلك عِدّةَ مصاحفَ كما سبق.

راجع هذا الموضوع فى الجزء الأول من كتابنا (الدين الاسلامى).

حسنه منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم العليا سابقا

(١) جاء فى بعض الروايات أن زيدا كتب فى المصحف هو ومن معه من الصحابة أولا، ثم أرسل سيدنا عثمان الى أم المؤمنين حفصة لتبعث بالصحف التى عندها، فعرض زيد عليها ما كتب فلم يختلفا فى شىء، ثم ردت الصحف بعد ذلك الى أم المؤمنين حفصة رضى الله تعالى عنها.

ليلة النصف من شعبان

وورد أيضا إدارة المجلة السؤال الآتي :

س : (١) لماذا يحتفل المسلمون فى المساجد بإحياء ليلة النصف من شعبان من سائر ليالى العام ؟

(٢) وهل ما يتلى من الدعوات ، ويصلى من الركعات بين المغرب والعشاء من هذه الليلة بنية طول العمر ودفع البلاء والاستغناء عن الناس ، ورد فيه نص شرعى ؟

صالح محمد عماشه
مأذون ميت غمر دقهلية

س : ما السبب فى إحياء ليلة النصف من شعبان وصوم يومه ، والتهليل فيها بالقراءة والأدعية والذكر ، وجعلها فى مصاف ليالى العيدين ؟

بسيونى ابراهيم شقور
المدرس بمدرسة ميت حلفا الالزامية

س : ماهى الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، ويبرم ، هل هى ليلة القدر أو ليلة النصف من شعبان ؟

طه شلقامى
عمدة ريده

الجواب

احتفال المسلمين فى المساجد بإحياء ليلة النصف من شعبان، لم يكن فى عهدالنبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عهد الصحابة رضى الله عنهم، والوارد أن خالد بن معدان، ومكحولا الشامىّ من التابعين، كانا يجتهدان ليلة النصف من شعبان فى العبادة، ولما اشتهر ذلك عنهما اختلف الناس فى تعظيم هذه الليلة وإحيائها بالعبادة: فمنهم من أقره ومنهم من أنكره، والمقرون له على طائفتين: طائفة تذهب الى استحباب إحيائها جماعة فى المسجد، وممن وافق على هذا اسحاق بن راهويه، وطائفة تكره الاجتماع لها فى المسجد، ولا يكرهون للرجل أن يحيى تلك الليلة فى الصلاة وحده، وهذا ما اختاره الاوزاعى إمام أهل الشام.

والمنكرون لتخصيص هذه الليلة بتعظيم هم طائفة من علماء الحجاز كعطاء بن أبى رباح وابن أبى مليكة، وفقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم.

أما القائلون بإحياء هذه الليلة بالعبادة فإنهم يستندون الى أحاديث وردت فى فضلها، كحديث (إن الله[1] عز وجل ينزل إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لأكثر من شعر غنم «كلب») وحديث (إن الله[2] عز وجل يطلع الى عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمؤمنين ويملى للكافرين، ويدع أهل الحقد لحقدهم حتى يدعوه) وهذه الأحاديث قد صرح علماء الحديث بضعفها، فمن يستند اليها فى فضل ليلة النصف من شعبان فلأنه لايعترف بضعفها، أو لأن الأحاديث الضعيفة تكفى لأن يستند اليها فى فضائل الأعمال.

ثم إن من أجاز إحياءها جماعة فى المساجد يبنى على أن لا بأس بصلاة النوافل فى جماعة، وقد نص الامام الشافعى رضى الله عنه فى مختصر البويطى والربيع على

(١) أخرجه الدارقطنى والامام احمد فى مسنديهما. (٢) رواه الدار قطنى فى كتاب السنن.

أن لا بأس بالجماعة فى النافلة ، وقد ورد فى هـذا أحاديث صحيحة كحديث عتبان بن مالك وغيره .

وأما من أجاز إحياءها للناس فرادى دون اجتماع لها فى المساجد ، فلعله يرى رأى الامام مالك رضى الله عنه فى أن لا تصلى النوافل جماعة حيث تشتهر أو أن يجمع لها الناس ، روى ابن وهب عن مالك أنه لا بأس بأن يؤم النفر فى النافلة ، فأما أن يكون مشتهرا و يجمع له الناس فلا . قال الحافظ ابن حجر : وهذا بناء منه على قاعدة سـد الذرائع ، كراهة أن يظن من لا علم عنده أن ذلك فريضة ، ويستثنى قيام رمضان لاشتهار ذلك من فعل الصحابة .

أما المنكرون لأن يكون لهذه الليلة فضـل على غيرها فلأنه لم يثبت عندهم فى فضلها حديث ، قال القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب الأحكام : « وليس فى ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه ، لا فى فضلها ، ولا فى نسخ الآجال فيها ، فلا تلتفتوا اليه » وقال فى كتاب العارضة : « وليس فى ليـلة النصف من شعبان حديث يساوى سماعه » .

هذه مذاهب أهل العلم فى تعظيم ليلة النصف من شعبان ، وأما الصلاة المخصوصة التى يعمد اليها بعض الناس فى هذه الليلة فقد ورد حديثها فى الإحياء لأبى حامد الغزالى وقوت القـلوب لأبى طالب المكى ، ولـكن جماعة من الحفاظ صرحوا بأن حـديثها موضوع ، قال الحافظ ابن الجزرى فى الحصن : « وأما صلاة الرغائب أول خميس من رجب ، وصلاة ليلة النصف من شعبان ، وصلاة ليلة القدر من رمضان ، فلا تصح ، وسندها موضوع باطل » وقال الامام النووى فى كتاب المجموع : « الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب ، وهى ثنتا عشرة ركعة بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجب ، وصلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة ، وهاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ولا يغتر

بذكرهما فى كتاب قوت القلوب وإحياء علوم الدين، ولا بالحديث المذكور فيهما، فإن كل ذلك باطل، ولا يغتر ببعض من اشتبه عليه حكمهما من الأئمة، فصنف ورقات فى استحبابهما، فإنه غالط فى ذلك، وقد صنف الشيخ الامام أبو محمد عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسى كتابا نفيسا فى إبطالها فأحسن فيه وأجاد».

والليلة المباركة الواردة فى قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) هى ليلة القدر، وتفسيرها بليلة النصف من شعبان ينسبه بعض المفسرين الى عكرمة، قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: «ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان كما روى عن عكرمة، فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن فى أنها فى رمضان» وقال القاضى أبو بكر بن العربى: «وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر، ومنهم من قال: إنها ليلة النصف من شعبان، وهو باطل، لأن الله تعالى قال فى كتابه الصادق القاطع: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) فنص على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عبر عن وقتية الليل هنا فقال: (فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ).

ويتلخص الجواب فى أن ليلة النصف من شعبان ليست هى الليلة المرادة بالليلة المباركة الواردة فى قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) وأن الصلاة المخصوصة التى يفعلها بعض الناس، قد طعن كثير من الحفاظ فى صحة حديثها، وأدخلوها فى قبيل البدعة التى هى طريقة فى الدين تخترع ليضاهى بها الطريقة الشرعية.

أما إحياء الرجل لها بالعبادة فى جملة ما يتيسر له إحياؤه من الليالى رجاء أن يكون لها فى استجابة الدعاء وقبول العبادة المزية التى وردت فى أحاديث فضلها، فليس فيه من بأس، وهذه الأحاديث تكفى داعيا للإقبال فيها على العبادة، وتنفى أن يكون قيام الرجل فيها بشىء من العبادة المطلقة عن التقييد بعدد معين، أو هيئة مخصوصة، بدعة، وإن لم تبلغ هذه الأحاديث درجة الصحيح ؟

محمد الخضر حسين

الآلام ومظافتها [1]

تنشأ عادة عن الأمراض أو التأثيرات الخارجية التى تقع على جسم الانسان آلام يمكن وصفها بنعوت مختلفة لتمييزها ، ولكن لا يمكن تعريفها على وجه عام ، كما يتعذر علينا إدراك كنه وماهية الألم من حيث هو ، بل تقتصر معرفتنا له على الشعور والإحساس به .

والشعور الانسان بالألم حكمة غالية ، إذ بدونه قلما أدرك الانسان خطر الأمراض أو اقتراب الأخطار ، فهو خير نذير وأصدق منبه ، وربما كانت سعادة المرء ومنفعته فى قوة حسه للآلام ، وشقاوته فى ضعف شعوره بها أو عدم إدراكه لها بالمرة .

وقد تصاب المجموعة العصبية — واليها يرجع الفضل فى إدراك الآلام الجسمانية والإحساس بها — بتغيير يعطل فيها وظيفتها الحسية ، فلا يشعر الإنسان حتى بأثر الحرارة أو الرطوبة وتضيع بعض أعضاء هؤلاء التعساء فريسة للأمراض المهلكة ، وذلك لعدم تنبههم لها واستئصالها قبل استفحال أمرها .

كما أن هناك بعض أمراض خبيثة تصيب أعضاء الجسم الداخلية دون أن يكون لها تأثير على المجموعة العصبية فلا يدركها حس الإنسان أو يتنبه لها شعوره ، حتى اذا ما ادلهم الخطب ذهب المريض غالبا ضحية عدم تنبه حسه الذى ينذر بسريان سموم الداء الى جوف الجسم .

---

(١) نقلا عن مقال للدكتور « أدولف اورست » من مجلة « Kosmos » الألمانية .

وهكذا فإن الآلام على شدة وقعها فهى فى جميع الأحوال نذير طيب لتلافى أخطار تهدد الحياة ، وقد أراد الله سبحانه وتعالى بها خيرا بالانسان .

على أننا نلاحظ فى بعض الأحيان أن أشد الآلام تنشأ عن أقل الأمراض خطرا ، وهذا مما يدعو الى البحث عن سبب نشأة هذه الآلام وطرق تنبيهها للمجموعة العصبية التى تدرك بدورها نوع ومكان الألم ، فالأوجاع التى تنشأ عن مرض الأسنان — وخصوصا اذا وصل الالتهاب الى غشاء الجذور — شديدة جدا ، بيد أن أمراضا أخرى كثيرة الخطورة مثل السرطان — فى بدايته — أو الالتهابات الرئوية أو الزهرية قلما ينشأ عنها آلام ذات بال ، كما أن هناك بعضا من أعضاء الجسم الباطنية لا يشعر الانسان بالتوجع منها اذا أصابتها الأمراض .

وقد يتعذر الوصول الى معرفة ما اذا كانت الآلام الجسمانية تحدث عرضا دون قانون أو قاعدة ، أو هى تنشأ فى بعض أعضاء وجهات من الجسم دون البعض الآخر بطريق المصادفة ، أو أنه كان الأصل أن جميع أجزاء الجسم تشعر بالألم على السواء ، غير أن بعضها تعطلت فيه أداة الحس دون الآخر .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإنه أصبح من الأمور المقطوع بها أن المركز الحسى للآلام إنما هو فى المخ ، وليس فى المكان الذى نشأ فيه الألم كما يسبق الى ذهن البعض .

وأما كيفية وصول هذه الإشارة المنبهة الى المخ فهى كما يلى :

يدرك الانسان فعل المؤثرات الخارجية التى تقع على أعضاء الجسم بواسطة أعضاء حسها ، ويوجد مركز حاسة الجلد فى سطحه الخارجى الذى يحتوى على عدد كبير من الأعصاب الدقيقة المختلفة التركيب والوضع ، وهذه تتأثر بكل ما يقع على الجلد من العوامل الخارجية ، ويين هذه الأعصاب ما هو خاص بحاسة اللمس وما هو خاص بالإحساس بالدفء والبرودة ، أو بالألم ، وهذه الأعصاب الدقيقة موزعة على مناطق

سطح الجلد المختلفة وتقل فى جهة وتكثر فى أخرى ، كما يختلف توزيعها بالنسبة لنوع إدراكها ودرجته ، فتكثر فى أطراف الأصابع خصوصا ما كان منها للتعرف باللمس ، وفى الشفتين خصوصا ما كان منها لتمييز الساخن من البارد ، ولذا فإنا نجد أن شعور الإنسان بفعل المؤثرات والعوامل الخارجية فى مثل هذه المناطق أشد وأقوى ، وذلك لسرعة تنبهها ودقة إدراكها وتأثرها .

فاذا ما لمسنا الجلد الخارجى تأثر بذلك عصب الحس الخاص به وانتقل الشعور باللمس بواسطته الى النخاع الشوكى ثم الى المخ ، وهنا يتنبه الانسان بما وقع على الجلد ، فاذا ما زيد اللمس الى درجة الضغط ازدادت تبعا له درجة التنبه فى المخ ، وذلك لتأثر عدد أكبر من أعصاب الحس ، خصوصا وأن التأثير يصل فى هذه الحالة الى الأعصاب الأبعد موضعا فى العضلات أو فى العظام ، وهكذا كلما اشتد العامل الخارجى قوى تبعا له تأثير الأعصاب الحسية لدرجة التهيج وازداد معه تنبه وإدراك المخ ، ومثل هذا ما يحصل عادة عند إصابة الجلد الخارجى بجروح أو التهابات بالغة .

ويصحب الشعور بالألم حركة غريزية يقوم بها العضو المتأثر بما سبب الألم ، ويكون القصد من هذه الحركات الجسمانية فى الغالب الدفاع ووقاية العضو المصاب ، كما أنه كثيرا ما تسبب الآلام الجسمانية آلاما أخرى نفسانية تنشأ عن اشتراك القوى المفكرة فى المخ قد تصل الى تهيج شديد وثورة جنونية لا يمكن تأويلها بأنه قصد بها الدفاع والوقاية ، وإنما المقصود منها فى الواقع تخفيف شدة وقع الألم على النفس ، ولا علاقة لها بالجسم من هذه الوجهة بالمرة .

أما أعضاء الجسم الباطنة فما كان منها متصلا بالخارج بواسطة فتحات الجلد الخارجى كالفم مثلا فهى قليلة التأثر بالآلام ، وذلك لصيانتها بمثل هذه الفتحات التى تدفع عنها كل المؤثرات الخارجية والعوامل المؤذية فلا تصلها السوائل الشديدة السخونة

أو البرودة ، كما أنها تمنع ولوج المواد الحريفـة أو القطع الحادة والأجزاء القاطعة وما شاكلها ، وذلك لسرعة ودقة تنبه الفتحات ، فتكون هـذه الأعضاء فى مأمن من فعل المؤثرات والعوامل الخارجية التى قد يتعرض لها الجلد مثلا ، ولذا فإنها فى مثل هذه الأحوال لا تتأثر بمفعول هذه العوامل لعدم حاجتها الى أعصاب الحس بها .

وأما الأعضاء الباطنة التى لا يوصلها بالخارج فتحات فهى لوقوعها بعيدة عن التأثير الخارجى قليلة أعصاب الحس ، فلا تشعر بالعوامل التى لو تعرض لهـا الجلد الخارجى لتنبه بها شعور الانسان وسببت الألم ، وهذه الأعضاء مثل الرئتين والقلب والأمعاء والكبد والطحال والكلى وأعضاء باطنة أخرى كثيرة .

إلا أن هناك أعضاء باطنة أخرى شديدة التأثر بالعوامل الخارجية قوية الحس بها ، أهمها الأغشية المحيطة بالبطن وبالضلوع ، وربما زاد شعورها بالألم عن درجة حس الجلد الخارجى ، فهى تحتـوى على عدد وافر من أعصاب الحس التى تخلو منها الأعضاء الباطنة عادة .

وللأعضاء الباطنـة جهاز عصبى خاص بها يختلف فى تكوينه عن الجهاز العصبى الخاص بالجلود الخارجية ، ولـكنه متصل به ، ويسمى بالجهاز العصبى النباتى ، وتتوقف عليه حركات الأعضاء الباطنة مثل نبض القلب وحركة الأمعاء دون أن تكون للإرادة الانسانية أى سيطرة عليها .

وقد يكون من الخطل فى الرأى أن يعزو الانسان الآلام التى تصاب بها الأعضاء الباطنة التى سبق أن نوهنا عن جمودها بالنسبة الى الحس بالألم وإدراكه مثل الأمعاء والمصران والحويصلة المرارية أو الكلى الى نفس الأسباب التى تثير تهيج الجلد الخارجى وما شاكله ، فإن نشأة آلام الأعضاء الباطنة تختلف اختلافا تاما عن الخارجية ، وذلك لعدم حاجتها الى أعصاب الحس الخاصة بإدراك تأثير العوامل الخارجية لوقوعها بعيدة

عنها، فلا تتأثر بالجرح أو الحرق، لاختلاف تكوينها وتركيبها عن الجلود الخارجية حيث إنه يصعب أن تتعرض هذه الأعضاء الباطنة لتأثير هذه العوامل فى الأحوال العادية.

أما الأعضاء الباطنة ذات المجارى — مثل الأمعاء والمصران وقنوات الحويصلة المرارية وحوض الكلى والمجارى البولية — فإنها دائما معرضة لتأثير التفاعلات المختلفة التى تقع محتوياتها، وتنتقل هذه التأثيرات بواسطة ألياف أعصاب الجهاز العصبى النباتى الى حزمة الأعصاب فى الجذع، ومنها تصل الى المخ بواسطة النخاع الشوكى.

وتتصل أعصاب الجهاز العصبى النباتى بالأعصاب النباتية للأعضاء الباطنة المختلفة بواسطة الحزمة العصبية التى فى الجذع، بل وتكوّن هذه حلقة الاتصال بين الجهاز العصبى النباتى وبين أعصاب الجلد الحساسة، ولذا فان كثيرا ما يشعر الانسان بالألم فى مناطق الأعصاب المجاورة — وفى بعض الأحيان البعيدة أيضا — اذا ما أصيب أى عضو فى هذه الحلقة بعارض قوى، فنجد أنه قلما يقتصر الألم الناشىء عن مرض قنوات الحويصلة المرارية على المنطقة المحلية أى فى مجموعة الكبد والأمعاء، بل كثيرا ما يتأثر به الكتف الأيمن والذراع الأيمن، بل يصل أثره الى الوجه ومؤخر الرأس.

يتضح مما تقدم أن أعضاء الجسم الباطنة تختلف اختلافا كبيرا بالنسبة لدرجة ونوع حسها بالآلام والمؤثرات الأخرى؛ فنها ما لا يتأثر بالألم من جراء جرح أو قطع، بل ولا يتنبه بفعل الأمراض أو الالتهابات، وأخرى يقتصر حسها على تقلصات العضلات دون الجروح وما شاكلها، كما أن بالجسم أعضاء باطنة سريعة التأثر شديدة الانفعال قوية الحس اذا أصابها هذا أو ذاك مثل غشاء البطن أو غشاء الضلوع، وكذلك أغشية العظام، بخلاف العظم ذاته الخالى من الإحساس بالمرة، وأما العضلات فلا يؤثر فيها سوى التقلصات الشديدة أو الإجهاد الكبير.

ونحن أمام هذا التباين الواسع فى درجة شعور أعضاء الجسم المختلفة لا يسعنا إلا الاعتراف جملة بأن هذا الاختلاف إنما تقتضيه ضرورة الحاجة، إذ يتضح للانسان

لأول وهلة أن الأعضاء الباطنة المجردة عن الحس بالنسبة لبعض العوارض إنما جردت من أعصاب الحس لاستغنائها عنها ، إما لاحتجابها وبعدها عن هذه العوارض ، وإما لصيانتها بواسطة الأغشية والاعضاء ذات القنوات والفتحات والجلود الخارجية التى هى فى العادة سريعة التنبه قوية الحس والإدراك بحيث تكون إنذارا كافيا .

إلا أن هناك أعضاء باطنة — وهى غالبا المصمتة — قد تصاب بالتورم والتقيح أو الالتهابات دون أن يكون للانسان منها أى نذير ، بخلاف الأعضاء الجوفاء فيسبق إصابتها آلام مبرحة ، فاذا كانت الآلام الناشئة عن خدش الجلد الخارجى أو عن أدواء الأعضاء الأخرى من مقتضيات الضرورة للوقاية ، فإن تجرد مثل هذه الأعضاء من الحس ليس من مصلحة الانسان فى شىء .

والواقع أن الآلام لا تنشأ إلا اذا انبعثت من الأجزاء الكثيرة أعصاب الحس السابق ذكرها ، وهى غير متوفرة ، وتكاد تنعدم فى بعض الأعضاء الباطنة لإمكان الاستغناء عنها بأعراض أخرى للأمراض ، فالمخ مثلا وهو المركز الرئيسى الذى ينبه شعور الانسان بالآلام على اختلاف أنواعها ومصادر انبعاثها خلو من أعصاب الألم الحسية ، فلا يشعر الانسان بما قد يعتريه من الأدواء .

وتكون الآلام عادة مصحوبة بحركات جسمانية عنيفة فى بعض الأحيان ، وهى إما غريزية وإما مصطنعة ، فالأولى للدفاع والوقاية ، وتنشأ عادة من اشتراك القوى المفكرة فى الإنسان . وأما الثانية فهى لتخفيف شدة وطأة الألم نفسانيا على الأقل كما أسلفنا ، وقد تكون هذه الحركات الجسمانية على اختلاف أنواعها مما يساعد على الشفاء من الأدواء ، إلا أنها فى بعض الأحيان تكون سببا بعيدا فى زيادة الضرر . وأشد الآلام التى يعرفها الانسان هى الناشئة عن الأمغاص المعوية والكلوية ، وهذه تستلزم الراحة والسكينة التامة ، وعلى كل حال يمكن اعتبار الحركات الجسمانية العنيفة

والثورات العصبية التى تنتاب المرضى فى هذه الأحوال نذيرا لاستدعاء الخبراء الطبيين لمكافحة الألم واستئصال الداء قبل أن يستفحل أمره ويستعصى شفاؤه ، فلا يمكن أن يستغنى الانسان عن الآلام وما تحدثه من فزع وثورة عصبية ، بل لا بد أن نتقبلها على ما فيها من مضض .

اقتصر الحديث فيما تقدم على الآلام الجثمانية وهى ما يحس ويشعر بها الانسان فى أعضائه ظاهرة أو باطنة دون غيرها من الآلام التى تعترى الانسان من يأس يتسرب الى النفس بسبب إخفاق فى مقتضيات الحياة المادية أو المعنوية ، فهذه الانفعالات النفسانية قد تصل الى حد بعيد من الألم عند أصحاب الأمزجة العصبية الدقيقة ، ويظهر أثر هذه الآلام فى الإنسان بالبكاء وعبوس الوجه ، أو قلة التمتع بالمأكل والمشرب.

ولو أن هذه الآلام النفسانية غالبا تنشأ عن مجرد توهمات لا أصل ولا أثر لها بأعضاء الجسم بتاتا — إلا أننا لا نريد أن نغفل ذكرها خصوصا وأنها قد تبلغ حد المرض الذى يستلزم العناية والعلاج مثل النيروستانيا والهيستريا ، وكثيرا ما تنشأ هذه الآلام عن أوهام وخيالات بسبب الذعر والخوف .

أما المصابون بها فهم عادة ذوو الأعصاب الدقيقة جدا ، حتى إن التأثيرات العادية تسبب فى حياتهم الوجدانية أثرا عميقا يبعث الآلام والشقاء أو الاكتئاب الدائم .

هذا ما يمكن أن يقال عن الآلام ونشأتها فى أعضاء جسم الانسان الباطنة أو الظاهرة فى مقال محدود ، وها نحن أولاء نبحث فى الطرق التى اهتدى اليها العقل البشرى لمكافحة هذه الآلام ودفعها ، أو لتخفيف وطأتها على الأقل :

رأينا فيما تقدم أن الآلام النفسانية لا علاقة لها بالجسم بالمرة ، وإنما هى ناشئة مما يسمونه (الايحاء الذاتى) فالسبيل الى مقاومتها ودفعها يستلزم (إيحاء خارجيا) مضادا لها من قوتها على الأقل .

أما فى حالة الآلام الجسمانية فإننا نجتهد على قدر الطاقة فى إزالة أسبابها ، وبذلك نقضى عليها . وللعلم الحديث فى ذلك طريقان : فإما أن توجه العناية الى العضو الذى ينبعث الألم منه مثل ربط الجرح أو جبر كسر العظم الى آخره ، وإما أن نلتجئ الى تخدير الأعصاب الحسية .

على أن وسائل تسكين الآلام وتخديرها كثيرة ومختلفة بقدر اختلاف نوع الألم ومنشئه ، وذلك بفضل العلوم والتجارب والأبحاث الحديثة ، وقد لا يمر يوم لا تحدثنا فيه صناعة الصيدلة عن مستحضرات كيمائية جديدة لمعاونة الاخصائيين فى عملهم من هذه الوجهة . هذا الى أن أمام الطبيب طرقا ووسائل أخرى أقوى مفعولا وأكبر أثرا ، علاوة على المستحضرات المذكورة التى تكون غالبا على شكل حبوب أو أقراص ، ولا يلتجئ الطبيب الى المواد المخدرة القوية إلا فى الأحوال غير العادية التى لا يمكن لإنسان أن يقاوم آلامها وهو فى حالته الطبيعية مستحوذا على جميع شعوره وإحساسه مثل العمليات الجراحية وما شاكلها ، وأشهر المواد المستخدمة فى مثل هذه الأحوال وأهمها المورفين .

والمورفين وما شاكله من المواد البنجية التى تخدر المجموعة العصبية وأعضاء الحس فى الانسان من السموم القتالة ، فلا يلجأ الطبيب الى الاستعانة بها إلا فى الأحوال الحرجة الكبيرة الخطر ، على أنه فى مثل هذه الأحوال لا ينبغى أن يستعملها إلا بمقادير طفيفة جدا لا تتجاوز المليجرامات أو السنتيجرامات المكعبة على الأكثر ، فيسكن بها الألم بسرعة وتبعث على النوم .

وهذه المواد وإن كانت كافية فى أغلب الأحيان فى مقاومة الألم والتخدير المؤقت ، إلا أنها بهذه النسب الصغيرة قد لا تكفى غالبا فى أحوال العمليات الجراحية الكبيرة الشأن التى تحتاج الى أوقات طويلة وغيبوبة المريض التامة ، وهنا — ولئلا يلجأ الطبيب

اضطرارا الى استعمال مقادير كبيرة من هذه المواد السامة قد تودى بحياة المريض — كانت صناعة الطب ولا زالت مهتمة لإيجاد مواد أقل خطورة مع تأديتها للغرض لسد هذا النقص الخطير .

كان الدكتور مورتون طبيب الأسنان بمدينة بوستون فى الولايات المتحدة الأمريكية أول من استخدم الأثير المخدر فى عملياته فى عام ١٨٤٦ ، والدكتور سمسون فى مدينة ادنبرج باسكوتلاندا أول من استعمل الكلوروفورم فى سنة ١٨٤٧ ، وكانا بذا أول من مهد هذا الطريق الوعر ، فسهلت للأطباء إجراء العمليات الجراحية على اختلافها المرضى وهم فى سبات عميق وغيبوبة تامة .

وطريقة استخدام هاتين المادتين هى أن تمزج بالهواء ويستنشق المريض هذا الخليط فيمتزج مع الأكسجين فى الدم فيحمل الى المخ ويخدر المجموعة العصبية ومعها جميع أعصاب الحس فى الانسان ، فيفقد المريض إحساسه ويتلاشى شعوره تدريجيا .

على أن اكتشاف هاتين المادتين لم يف تماما بالغرض المطلوب إذ لا زال ثمة خطر على المرضى بالرئة باستنشاق الأثير، وعلى المرضى بالقلب باستنشاق الكلوروفورم . هذا علاوة على ضيق التنفس الذى ينشأ عن مزج هذه المواد مع الهواء .

ولذا قد نشط العلماء فى السنوات الأخيرة للبحث عن مواد أخرى أقل خطرا وأقرب الى الغاية المنشودة ، وقد ظهرت أخيرا أنواع كثيرة من الغازات الأخرى التى يمكن حقنها تحت الجلد للتخلص من صعوبة التنفس مع تأديتها عملية التخدير التام .

كما أن هناك طرقا أخرى للتخدير الموضعى ، فلا يؤثر إلا فى أعضاء الحس المحلية من جسم الانسان ، وفى هذه الحالة لا يشعر المريض بألم إجراء العملية بالرغم من صحوه التام وتمتعه بكل شعوره وامتلاكه لكامل حواسه الأخرى وقدرته على الكلام والنظر والسمع الى آخره .

وأول من استخدم طريقة التخدير الموضعي هما شلايش وريكاوس ، وتقدمت طريقتهما منذ ذلك الحين تقدما سريعا حتى إنه يمكن الالتجاء اليها الآن فى العمليات الجراحية الكبيرة ، ولا يقتصر فيها على الجراحة الصغرى دون أن تنجم عنها أخطار .

وكان لاستخدام طريقة التخدير الموضعي فضل كبير فى إثبات تجرد بعض أعضاء الجسم الباطنة من الشعور اذا ما عرضت لمثل المؤثرات الآلية كالقطع والجرح .

وتؤخذ هذه المخدرات الموضعية على شكل أمصال تحقن تحت الجلد فى المناطق المصابة أو فى مواطن أعصاب حسها ، وهكذا تتعطل كل وظائفها الحسية ، وكثيرا ما تعطى بواسطة حقنها داخل قناة النخاع الشوكى لتخدير النصف الأسفل من الجسم ، ولا يمكن استخدامها لتخدير النصف الأعلى للأخطار التى قد تنجم عنها فى أعضاء الجسم الحيوية الهامة الموجودة به مثل القلب وجهازات التنفس ؟

الطرف والملح

لما قَدِمَ حاتمٌ الأصمُّ الى الامام أحمدَ بنِ حنبلٍ قال له أحمد بعد بشاشته به : أَخبِرْنى كيف التخلص الى السلامة من الناس ؟ فقال له حاتم : بثلاثة أشياء . فقال له أحمد : ماهى ؟ قال : تعطيهم مالَكَ ولا تأخذ مالَهم ، وتَقْضِى حقوقَهم ولا تطالبُهم بقضاء حقوقك ، وتصبرُ على أذاهم ولا تؤذيهم . فقال أحمد : إنها لَصعبةٌ . قال له حاتم : وليتك تَسْلَم .

المسلمون فى أوربا الشرقية[1]

البانيا

موقعها الجغرافى : — تحد ألبانيا شمالا بمملكة يوغوسلافيا ، وشرقا وشمالا ببلاد اليونان بين الدرجة °٤٠ والدرجة ٣٠ َ٤٢° من خطوط العرض الشمالية ، وبين الدرجة ٣٠ َ١٩° والدرجة °٢١ من خطوط الطول الشرقية . ويغمر حدها الغربى بحر الأدرياتيك .

هذا وقد قام مؤتمر السفراء المنعقد بباريس فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٢١ بتعديل حدود البانيا .

أما مساحتها فتبلغ ٤٠٫٠٠٠ كيلو مترا مربعا ، وبها سلسلة جبال موازية لشاطىء البحر مختلفة الارتفاع ، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة لها ٢٫٣٠٦ متراً فى جبل طومور (Tomor) بالقرب من مدينة بيرا (Bérat) وترتفع المملكة عن سطح البحر أكثر من الف متر فى ثلثى أنحائها .

وأنهارها غزيرة المياه إلا أنها سريعة الاندفاق ، وتصب من الشمال للجنوب ، وهى دران (Drin) وأسكومبي (Skumbi) ، وديفولى سيمينى (Devoli — Semeni) وفويوسا (Voyousa) ، وتتصل البانيا شرقا ببحيرة أشريدا (Ochrida) وشمالا ببحيرة شقودره (Scukari) .

ويبلغ تعداد سكانها ٨٣٣٫٦١٨ نسمة — منهم ٥٦٣٫٧٢٩ نفسا من المسلمين أى بنسبة ٦٨ فى المائة ، و ١٨١٫٠٥١ نفسا من المسيحيين الأرثوذكس أى بنسبة ٢١ فى المائة

---

(١) مترجم عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

و ٨٨،٧٣٩ من الكاثوليك أى بنسبة ١١ فى المـاية من مجموع السكان، ولا يوجد غير ٣٥ شخصا من اليهود، وذلك حسب إحصاء سنة ١٩٢٧ . وكان عـدد المسلمين سنة ١٩٢١ موزعا حسب الجهات كما يأتى :

٥٧٣ و ١٦٠ فى الشمال (يقابلهم ٠٩٨ و ٨٥ من الكاثوليك و ٧٠٥ و ٢ من الأرثوذكس) و٨٨٤ و٢٥٤ فى البانيا الوسطى (يقابلهم ٣،٨٥٧ من الكاثوليك و٣٦،٣١٦ من الأرثوذكس) و٢١٨ و ١٦٩ فى الجنـوب (يقابلهم ١٩٤ و ١١٩ من الارثوذكس و٣٢ فقط من الكاثوليك) .

ويخيل الينا أن هذا الإحصاء الرسمى أقل قليلا من الحقيقة، لأن تعداد البانيا يبلغ نحو ٠٠٠ و ٩٣٠ نسمة غير المهاجرين منهم، عددهم ٠٠٠ و ٤٠ فى أمريكا، و ٤١٠ و ٢٠٨ فى جنوب ايطاليا فى سنة ١٩٠١ هذا عدا السبعين قرية الألبانية الداخلة فى حدود مملكة يوغوسلافية والتى يبلغ عدد سكانها ٠٠٠ و ٣٥٠ نسمة فى بلاد "أنتيفارى" (Antivari) و « هوتى » (Hotti) و « جرودا » (Gruda) كما يوجد ١٧٣٧ نسمه فى بعض بلدان متفرقة . وفى بلاد اليونان القديمة والجزر اليونانية وفى غرب «كاستوريا» (Kastoria) والجنوب الغربى «ليانينا» (Janina) يوجد كذلك ٢٠٠،٠٠٠ نسمة من المسلمين .

وفى تعدادات سنة ١٩١٧ الجزئية بلغ مجموع عدد السكان فى مناطق نفوذ النمسا وايطاليا وفرنسا ٩١٣ و٤٩٨ نسمة من المسلمين، و٦٤٠ و ١٧٢ من الأرثوذكس، و٨٩،٤٧٠ من الكاثوليك، أى يبلغ مجموعهم الكلى ٧٤١،٠٢٣ نسمة عدا سبع مديريات « اسكابارى » و « مالشيا » و « ميتوهيا » و « دوكاجين » و « ليوما » و « ديبرا » و « جولوبردا » فيكون عدد المسلمين بنسبة ٦٧ فى المـائة من مجموع السكان .

ويبلغ متوسط كثافة السكان ٦٧ نفسا فى الكيلو متر المربع .

أما تعداد سكان المدن فيبلغ ٢٨،٠٠٠ فى مدينة أشقودرة (وكان ٠٠٠ و٢٣ حسب تعداد سنة ١٩١٧) و٠٠٠ و٢٣ فى غورتزا (١٧،٧٧٩ من الارثوذكس و ٥،٤٦٤ من المسلمين كما جاء باحصائية سنة ١٩١٧) و ١٢،٠٠٠ فى مدينة « الباسان » و١١،٧٣٣

فى « أرجير وكاستروا » منهم ١٠٬٣٠٠ من المسلمين . وفى « تيرانا » العاصمة ١٠٬٠٠٠ نفس ، منها ٨٬٠٠٠ مسلم ، وفى « بيرات » ٩٬٠٠٠ و « كافايا » ٥٬٤٣٣ نسمة و « فالونا » ٤٬٩١٤ (منها ٣٬١١٧ مسلما) وفى « دورازو » ٤٬١٧٥ و « كورائيا » ٣٬٨٦١ ، وفى « السيو » ٣٬٠٠٠ ، وفى « لوشفيا » ٢٬٠٠٠ نسمة .

وجميع سكانها من محبى الاقامة فى موطنهم إلا نفرا قليلا من الرعاة الذين يأوون الى الجبال بمواشيهم فى زمن الصيف .

الاسلام فى البانيا :— توجد هناك أسطورة محلية تنسب دخول الاسلام فى البانيا الى سارى سلطيق أحد دراويش التاتار المبشرين الذين يقال إنهم أدخلوا كذلك الانجيل فى دوبروجا ثم فى طراقيا ومقدونيا حتى بحيرة أو رشيدا فيما بين سنتى ١٢٦٠ و ١٢٨٠ من الميلاد ، ولا تزال ذكرى ذلك الدرويش التى ترتبط ارتباطاً مدهشا بذكرى بعض القديسين المسيحيين محافظا عليها فى شرق البانيا .

وإن الفتح التركى لالبانيا الذى بدأه السلطان مراد الثانى قد عاقته وقتا مقاومة اسكندر برج (جورج كاستريو) فى سنة ١٤٢٣ قد تم فى سنة ١٤٦٧ . وقد شكل السلطان محمد الثانى فى سنة ١٤٦٦ هيئة حربية إسلامية كبرى فى الباسان .

ولما دخلت البانيا فى الاسلام لم تقبل حكومة الترك ، ولا الضرائب التى قررت على الأراضى ، ولا تجنيد الجيوش — إلا أنها قدمت للترك ضباطا عظاما وكثيراً من كبار رجال السياسة (الأرناؤط : ثمانية عشر صدرا أعظم مثل كيبرولو ، وعددا عظيما من الباشوات منهم محمد على والى مصر . ولقد قامت البانيا بمحاولتين للحصول على الاستقلال الذاتى المحلى للمسلمين فى القرن الثامن عشر ، وقد قام بهما رجال البوشتالى فى شقودرة ، وعلى فى تيبيليني والباشا حاكم يانينا .

وأهم المراكز التى انتشر فيها الاسلام هى الشاطىء الايمن من نهر الدران الاسود وتيرانا والباسان والقوروبليش (تيبلينى وجانو كاسترى) والمذهب السنى المتبع هناك هو مذهب الحنفية .

ومن الكتاب الالبانيين الحديثين يمكننا أن نذكر منهم ولدى « فراسهير » (سامى ونعيم) وفائق بك كونيقا .

ويوجد بألبانيا :

(١) خمسون قبيلة من الألبانيين أو من الفيس ، وأشهرها من الشمال الى الجنوب ست قبائل : الماليسور وهى النيكاج والشالا والشوشى والسالكا والطو بلانه والدوشامى .

واثنتا عشرة قبيلة من قبائل المرديت — منها قبيلة الدوكاجين (دوق جان) وقبائل الجيج ، وقبائل التوسك فى الجنوب ، وقبائل الديفول (فى شرق كورسا) وقبيلة السولى فى شمال يانينا .

(٢) المهاجرون من أهالى البوسنة (الصرب المسلمون) فى منطقة الشجاك (درئيس وتيرانا) .

(٣) المهاجرون من أهالى رومانيا (الكوتزو الفالاك والزنجار والأرمون) وهم من الرعاة ، ويقيمون فى غرب البند (pinde) فى (موكوفو — Mocovo) وفى جابلونيكا (فى غرب أو رشيدا) وهم من المسيحيين الأرثوذكس إلا قليلا منهم اعتنقوا الاسلام فى جنوب دبرا .

(٤) جماعات النَّوَر (الغجر) من المسلمين والارثوذكس مشتتة بين هنا وهناك .

وإن نظام القبائل الذى كان يسود فى شمال البانيا فى الزمن الغابر (مع جماعات الشيوخ والشبيبة من « الزلميجا » (Zhelmija) قد تطور الى النظام الإقطاعى فى البانيا

الوسطى (الموالى أو مايسمونهم بالكولا " Kula " الذين كان يحكمهم حاكم يحمل لقب « بك ») .

أما القرى التى كانت تتمتع بنوع من السيادة الذاتية فى البانيا الشرقية فكانت تخول سلطتها الى حاكم يطلقون عليه اسم ميفتار (Myfter) أو العمدة ، وهذا هو نظام الحكومة الشعبية الذى تحاول الحكومة أن تعممه .

اللغة : — أما لغة ألبانيا فهى لغة « شكيب » (Chkipe) وهى تتفرع من اللغة الليرية (Illyrien) القديمة ، ويقال إنها لغة هندية أوربية ، ويطلق على لهجاتها المختلفة اسم « جيج » (Gnégue) فى شمال أسكومبى (Skumbi) واسم « توسك » (Tosque) فى جنوب اسكومبى حيث ينقلب حرف الراء نونا كما فى فالورا ، فيقال : فالونا . وفى « شكيبريجا » (Shkiperija) فيقال شكيبنيجا (Shkipenija) ومنذ سنة ١٨٧٩ تكتب اللغة الألبانية بحروف لاتينية بالرغم من الفتوى التى أذاعها شيخ الاسلام بالاستانة عن تكفير هذا العمل .

حكومة البانيا

إن النهضة الأدبية اللغوية التى قام بها الأديبان سامى ونسيم فراسهيرى ، وتأسيس الجماعة المسماة باسم « العصبة الألبانية » فيما بين سنتى ١٨٧٩ و ١٨٨١ ، والحركات الثورية التى قامت على أثرها فى سنتى ١٨٩٣ و ١٩٠٣ كل ذلك انتهى بتشكيل الحكومة الوقتية فى فلورا سنة ١٩١٢ برياسة اسماعيل كمال بك .

وبعد محاولة أسعد باشا طوبتانى لتأسيس حكومة أخرى فى الباسان اعترف المؤتمر المنعقد فى لندره بالحكومة الجديدة ، وبيّن حدودها بمقتضى المعاهدة المبرمة فى ديسمبر سنة ١٩١٣ ، وعين حاكما عليها غايوم دى فيد فى ٣ ديسمبر من هذه السنة ، ثم طرد فى ٣ سبتمبر سنة ١٩١٤ وأقيم مكانه أسعد باشا الذى قتل بباريس فى ١٣ يونيو

سنة ١٩٢٠ — إلا أن الواقع هو أنه من سنة ١٩١٦ — سنة ١٩١٨ كانت النمسا تحتل شمال البانيا، وإيطاليا كانت تحتل جنوبها الغربى، وفرنسا كانت تحتل كورسا (Korsa) فى جنوبها الشرقى .

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٨ عين مندوبو الجمعية العمومية الثمانية والأربعون المنعقدة فى دورئيس (Durrés) طورخان باشا رئيسا للحكومة الوقتية لألبانيا الوسطى . هذا وقد تقرر فى اتفاق ٢٠ أغسطس سنة ١٩١٩ وضع البانيا تحت الانتداب الايطالى .

وقد دعا هذا الاتفاق الى نشوب حركة وطنية أدت الى فوز حكومة جديدة أسستها الجمعية العمومية المنعقدة فى لوشنيا (Lushnija) فى ٢ فبراير سنة ١٩٢٠ فشكلت مجلسا أعلى مكونا من أربعة أعضاء، وهم عاكف باشا الباسانى بكتاشى وعضو مسلم آخر وعضو أرثوذكسى ورابع كاثوليكى، ووزارة تحت رياسة عاكف بك دلوينو ومجلسا نيابيا مكونا من ٣٦ عضوا منتخبا .

وقد قرر اتفاق أليوتى (Alliotti) فى ٣ أغسطس سنة ١٩٢٠ جلاء ايطاليا عن البانيا عدا جزيرة سازينو (Saseno) أما مجلس النواب الذى انتخب فى ابريل سنة ١٩٢١ فقد كان مكونا من ٧٨ نائبا على اعتبار نائب واحد عن كل ١٢٠٠٠ نسمة انتخبوا على درجتين، ونائب إضافى عن المهاجرين فى أمريكا، وكان من بين أولئك النواب الثمانية والسبعين ٢٩ نائبا من حزب الشعب و ٤١ من المحافظين ، هذا وقد ألغيت ألقاب الاقطاعيات . أما ايطاليا التى عهد اليها وحدها حق المحافظة على كيان ألبانيا الجغرافى فقد وقعت على التوالى مع أحمد زوغو على « عهد تيرانا » (فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٦) ثم على محالفة دفاعية فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٧ تأيدت بسلفة من ايطاليا قدرها خمسونا مليونا ليرا . (يتبع)

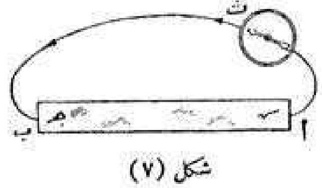
علم الكهرباء

٢

بيان المناطق الجذبية

خطوط قوة الجذب :

لو اننا استطعنا فصل القطب الشمالى لجاذب صغير من قطبه الجنوبى فصلا يوجد لنا قطبا شماليا مستقلا ، ووضعنا هذا القطب على مقربة من القطب الشمالى لجاذب قضيبي ، لتحرك القطب الشمالى المنفصل متجها الى القطب الجنوبى للجاذب القضيبي متبعا فى سيره طريقا منحنيا شبيها بالطريق المبين فى الشكل رقم ٧ ووجه أن حركته تكون على خط منحن لا على خط مستقيم هو أن ذلك القطب المنفصل يكون فى آن واحد مدفوعا من القطب الشمالى للجاذب القضيبي ومجذوبا من القطب الجنوبى له . ودرجة الشدة النسبية لهاتين القوتين تتغير على الدوام بتغير الأبعاد النسبية للقطب المتحرك عن هذين القطبين. وليس من الصعب عليك أن تختبر هذه النتيجة بالتجربة، فإنك إذا وضعت جاذبا قضيبيا أو جاذبا نعليا [1] تحت طبق مفرطح محتو على ماء كما فى الشكل رقم (٨) ووضعت قطعة فلين غرز فيها إبرة مكتسبة خاصة الجذب على مقربة من قطبه الشمالى بالكيفية المبينة فى الشكل



شكل (٧)
طريقة رسم خطوط القوة فى منطقة جذبية

---

[1] على شكل نعل الفرس .

لرأيت أن قطعة الفلين تتحرك على طريق منحن من القطب الشمالى نحو القطب الجنوبى ، ففى هذه تتحرك قطعة الفلين والابرة كما لو كانتا قطبا منفصلا ، بما أن القطب العلوى للابرة يكون من زيادته فى البعد عن القطب السفلى بحيث يصير تأثير أولهما قليلا جدا

وكل طريق يسلكه قطب مستقل فى سيره من الشمال الى الجنوب يسمى بخط القوة الجذبية . وأبسط طريقة لإيجاد وجهة هذا الطريق فى أية نقطة قريبة من جاذب هى أن تمسك إبرة معين الجهات (بيت الابرة) فى هذه النقطة، لأن الابرة ينبغى أن تستقر — كما هو ظاهر — محاذية للخط الذى يتحرك فيه قطباها لو كانا مستقلين ، أعنى حذاء خط القوة المار بالنقطة المعلومة التى نرمز لها بحرف ث كما فى الشكل رقم (٧) .

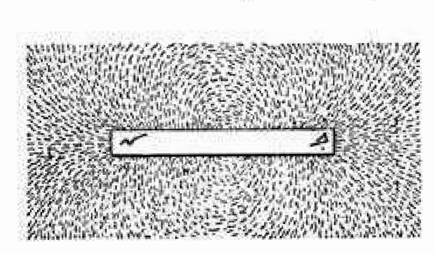
شكل (٨)
دليل تجريبى على وجود التأثير الجذبى على طول خطوط القوة

المناطق الجذبية للقوة :

المنطقة الجذبية المحيطة بجاذب والتى يمكن أن تكشف فيها قواه الجذبية تسمى منطقته الجذبية للقوة . وأبسط طريقة لإدراك الكيفية التى عليها تكون خطوط القوة منظمة فى المنطقة الجذبية حول أى جاذب هى أن تنخل برادة الحديد فوق قطعة من الورق توضع مباشرة فوق جاذب ، فكل حبة من البرادة تصير جاذبا مؤقتا بالتوصيل ، وتستقر من أجل ذلك كإبرة معين الجهات فى وجهة خط القوة .

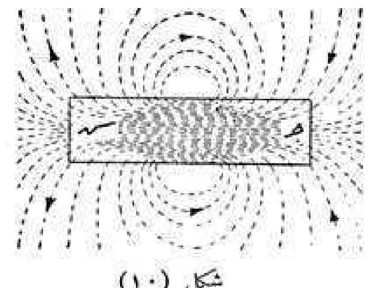
فالشكل رقم (٩) يريك هيئة المنطقة الجذبية حول جاذب قضيبى .

والشكل رقم (١٠) هو الرسم التصورى المقابل للشكل رقم (٩) ويريك خطوط القوة

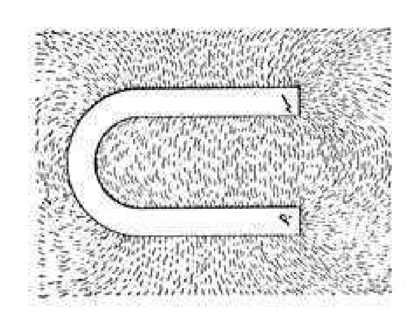


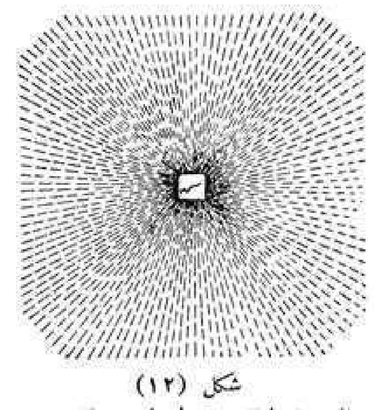
شكل (٩) : المنطقة الجذبية لجاذب قضيبى

منبعثة من القطب الشمالى ومارة حوله فى خطوط منحنية الى القطب الجنوبى . وهذه الطريقة فى تصور خطوط القوة منحنيات مقفلة ، مارة خارج الجاذب من الشمال لافة حوله الى الجنوب وداخله ، راجعة من الجنوب الى الشمال لم تدخل فى العلم إلا حوالى سنة ١٨٣٠ ميلادية ، أدخلها فيه العالم فراداى ووجد أنها قد ساعدت مساعدة كبرى فى ربط حقائق الجاذبية بعضها ببعض .

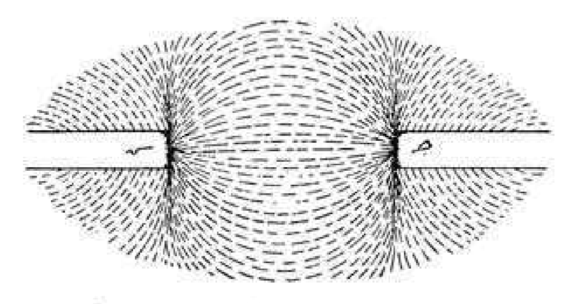


شكل (١٠)
المنطقة الجذبية التصورية لجاذب قضيبي


شكل (١١)
المنطقة الجذبية لجاذب نعلى


شكل (١٢)
نظام خطوط القوة حول طرف جاذب قضيبي

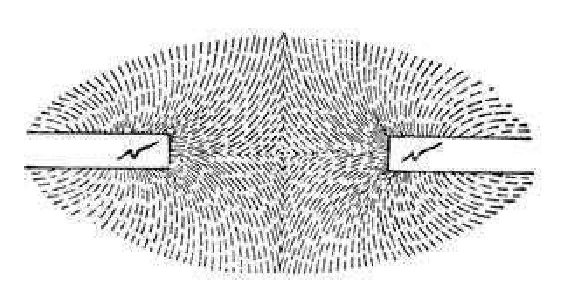
والشكل رقم (١١) يريك وجهات خطوط القوة حول جاذب نعلى . ورقم (١٢) يمثل لك المنطقة الجذبية حول القطب الشمالى لجاذب القضيبي ، ففيه تكون الخطوط الجذبية شعاعية فقط .



شكل (١٣) : نظام خطوط القوة حول قطبين متغايرين لجاذبين قضيبيين

والمنطقة الجذبية التى تحصل من تقارب قطبين متغايرين شمالى وجنوبى لجاذبين قضيبيين مبينة فى الشكل رقم (١٣) .

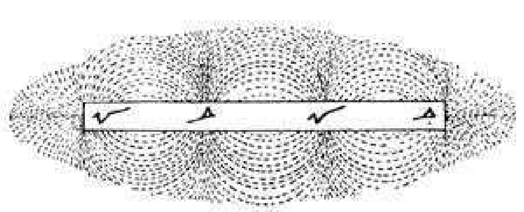
والمنطقة الجذبية التى تحصل من تقريب قطبين متماثلين شمالى وشمالى، أو جنوبى وجنوبى لجاذب قضيبي أحدهما من الآخر يمثلها الشكل رقم (١٤) .



شكل (١٤)
نظام خطوط القوة حول قطبين متماثلين لجاذبين قضيبيين

الأقطاب التبعية :

يتأتى إيصال خاصة الجذب الى قطعة من الصلب بكيفية غير منتظمة ، وذلك بدلكها بجاذب قوى فى مواضع مختلفة منها على طولها ، فالجاذب الذى يحصل على هذا النحو يسمى جاذباشاذا، والأقطاب التى تكون فى هذه الحالة واقعة فى طرفى الجاذب تسمى الأقطاب البارزة ، وأما التى تقع فى وسطه فتسمى بالأقطاب التبعية ، فقطعة الصلب التى توصل اليها خاصة الجذب بهذه الطريقة تشبه أن تكون مؤلفة من عدة جواذب قضيبية متواصلة الأطراف ، ولكن على ترتيب معكوس تكون فيه الأقطاب المتماثلة متجاورة . والمنطقة الجذبية للجاذب الشاذ مبينة فى الشكل رقم (١٥) .



شكل (١٥)
القطبان البارزان « الشمالى والجنوبى » والقطبان التبعيان الشمالى والجنوبى

(يتبع) عبد العزيز محمد

كتاب المبسوط

للإمام شمس الدين أبى بكر محمد بن أبى سهل السرخسى

فى مذهب الامام أبى حنيفة

قام بطبعه حضرة الفاضل الحاج محمدافندى الساسى المغربى . فى ثلاثين جزءا ويطلب من مكتبته فى سوق الفحامين ؟

الأسرار الإلهية فى الحكم التشريعية

تأليف حضرة صاحب الفضيله الاستاذ الشيخ عبد الرحمن راضى القاضى بالمحاكم الشرعية . وهو كتاب بحث فيه عن الحكم المودعة فى التشريع الاسلامى بعبارة سهلة وأسلوب متين ، فجاء حافلا بالمباحث المفيدة ، والآراء السديدة ، مع حسن الترتيب ، وقد تم طبعة للمرة الثانية طبعا متقنا مع زيادات على الأصل المطبوع للمرة الأولى . فنشكر لفضيلة المؤلف على هذا العمل الجليل ، ونحث أهل العلم على اقتنائه ولا سيما المقبلين على درس الشريعة وتعرف أسرارها ؟

الرابطة الاسلامية

مجلة دينية خلقية تاريخية ، تصـدر فى دمشق كل خمسة عشر يوما مرة ، انشئت لتدعو الاقطار الاسلامية لتأييد الوحدة الدينية لصاحبيها الفاضلين السيد محمد أديب عبـد العزيز والسيد محمد على الجم ، وقد اطلعنا على جزأيها الأول والثانى فألفيناها حافلة بالمقالات النافعة فنرجو لها الاقبال والنجاح .

Mohammad had severely taxed them with the distortion of the Scriptures and the withholding of many truths contained therein, and yet he used to make known these truths as singnified by the following verses,

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

"The Koran declareth unto the Jews and Christians the truths of many points concerning which they are continually at variance; and which should they fairly consider, will lead them unto Islam, but they did not and persisted in their contumacy and disbelief" (1)

(*Alucy's Commentary*)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

"The Lord addresseth the Jews and Christians who follow the Scriptures that His Apostle Mohammad had come unto them making manifest many of what they have concealed of the Torah and the Evangel" (2)

(*Alucy's Commentary*)

Yet another sign of his truth is the giving in full detail, on being questioned by the Jews, the stories of Zul-Karnein (3), Moses, Jesus, the dwellers of the Cave and Lokman and his son as well as what hath been forbidden and made lawful unto the Jews.

---

1 Such points as they disagree upon are the conception of Jesus as a God or that he is the son of God or that he is one of a trinity or that he is a mere prophet like all other prophets or that he is an imposter and many such other erroneous conceptions.

2 Such as the description of Mohammad and the verse of stoning adulterers in the Law; and Christ's prophecy of Mohammad by the name of Ahmed in the Gospel.

3 A great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a true believer.

scientist or philosopher of any attainment while Islam could boast of thousands of distinguished men within a few years of its revelation"

Would such soul which well nigh spent itself with anxiety for the salvation of others be capable of falsehood and deceit?

Would not his mercy and tolerance which he displayed at Ohod speak for themselves when with his face cut and eye-tooth broken he turns unto the Lord in earnest prayer "O Lord, forgive my people, for they know not what they do".

Thus in the midst of his afflictions he would find an excuse for his people and pray for their forgiveness.

Such tolerance and magnanimity could only proceed from a complete disregard of the material world and an implicit faith in the Almighty God and the divine reality of truth.

Would not his telepathic accomplishments and the accuracy with which he used to tell the instincts and inner workings of the human soul, all point out to a supernatural attainment in the sphere of the unknown? But no wonder for the Lord saith in this connection;

أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Shall not God who hath created all things in accordance with His judicious decrees know what men conceal or declare and he whose omniscience encompasseth all that is hidden or exposed of the affairs of his creatures".

(*Baidawy's Commentary*)

Yet Mohammad was illiterate and never travelled in search of knowledge nor held converse with any of the contemporary men of learning as testified by his history, for he was brought up an orphan among an ignorant people. Nor was trade a vocation of his that he could be assumed to have come into contact, in course of his journeys, with the sons of advnaced nations as those of Persia and Rome, and other such assumptions which lack the corroboration of history and tradition. For Mohammad had neither the means nor the desire for the material world that would induce him to take any trouble on that account.

Would it not be a sign of his truth to have told of past people and remote generations such events as were only known to the high priests of the Suriptures, with whom he never came into contact or ever cared to meet, and such as were so guardedly kept from even their most intimate adherents.

The faith of men in Mohammad would have, undoubtedly, been shaken and they wonld have deserted him had it transpired that these hidden thoughts were unfounded and that such detection was mere conjecture on his part.

It is incredible that Mohammad should prejudice his chances of maintaining his cause by claiming other than the truth· He would, consequently, have been exposed to his detriment and utter disgrace.

Would not the fervent zeal and anxiety which he displayed in calling the people unto their salvation in this world and the hereafter, be considered a sign of perfection and great attachment to the Almighty ?

So great, indeed, was his anxiety to guide the people unto the path of righteousness that the Lord addressed him thus :

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Spend thou not thyself out of sorrow and grief over the unbelievers and their persistence in disbelief"

(*Baidawy's Commentary*)

His sole objective was to guide them unto a higher sphere of conduct and give them that great system of laws which had raised the Arab nation from the abysmal depths of humiliation, into which it had sunk, to the very zenith of might and glory.

He had, thereby, made them masters after being the abject creatures that they were, and rendered them, through those glorious teachings, the mightiest nation on earth after having categorically been the most despicable of all.

Erudition and learning flourished, and many great philosophers and thinkers distinguished themselves and lead the world unto the untrodden paths of inquiry and research. So thorough, indeed, was the treatment of their subjects that many of the scientific and philosophical theories of to-day still bear the unmistakable stamp of their peculiar systems of thought of which they were the world's pioneers.

"Christianity", remarks Draper, (1) the celebrated American scientist "continued for one thousand years without the apperance of a single

---

(1) Draper, John William (1811-1882) American scientist, who wrote among other treatises " The History of the Conflict between Religion and Science (1875).

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

«When the Lord shall cause thee to prevail over thy enemies, and reduce Mecca and other places to submission and the people betake themselves in multitudes to the Religion of Allah» [1]

(*Baidawy's Commentary*).

All these prophecies and many others were fulfilled, one by one, and their entire significance was fully unfolded to the world. The enemies of Islam would, otherwise, have gloated over its failure, and its followers would have forsaken it instead of multiplying in numbers as had been the Case.

Would not the detection of the innermost secrets and workings of the soul, as testified in the following verses bear ample evidence to his truth?

وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ

ترجمه تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

«The hypocrites who feigned belief would say amongst themselves if Mohammad were a prophet would he not invoke the Lord to punish us because of our disbelief and hostility to him» [2]

(*Alucy's Commentary.*)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا

ترجمة تفسر هذه الآيه نقلا عن الالوسى

«When two companies of the Moslems were about to weaken and fall off in battle» [3]

(*Alucy's Commentary.*)

---

(1) This took place in the ninth year of the Hejra when Mecca was reduced and its inhabitants submitted to Islam as well as the people of Al-Taif, Yemen, Hawzan and other tribes who came willingly to Mohammad and professed his faith.

(2) The Jews and hypocritical Moslems plotted secretly against Mohammad and derided him in their private discourse.

(3) The two companies referred to in the verse were Banu Salama of the tribe of Al-Khazraj and Banu'l Harith of the tribe of Al-aws who formed the two flanks of Mohammad's army in the battle of Ohod. Abdullah Ibn Abi Soloul, the infidel, warned them against the great risks they were taking, they being much inferior to their enemy in number, and intimated the advisability of a retreat but he could only previal on a few and the others held the field by th divine support of God.

cause it to triumph over disbelief, and cause them to succeed the unbelievers and make them His viceregents on earth, as he caused the Israelites before to succeed the infidels in Egypt and Syria; and that He would establish Islam which He pleased to give unto them». [1]

(Kashaf's Commentary)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى . وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ

ترجمة تفسير هذه الاية نقلا عن البيضاوى

«The unbelievers shall inflict no grievious harm on you except for slight injuries and threats and if they engage in battle against you, they will only be defeated and none would afford them victory over you».

(Baidawy's Commentary).

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

«God hath, by His omnipotence, sent down the Koran whos revelation the unbelievers deny; and He shall preserve it from distortion and corruption and render it inimitable and distinct from the discourse of men».

(Alucy's Commentary).

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

«God hath promised you victory over the unbelievers but you aimed at the spoils and the avoidance of danger and God willed to exalt His Religion and make manifest the truth by giving you the promised victory over the host of the unbelievers». [2]

---

[1] In fulfilment of this promise, the Moslem conquests extended from China in the east to Morocco and the Atlantic in the west, a mighty evidence of the far-flung dominion and exaltation of Islam.

[2] At the Battle of Bedr the unbelievers were encamped in two parties, one a caravan under Abu Sufian and guarded by only forty horsemen and the other was the mass of their fighting force under Abu Jahl which latter was defeated by the Moslems in fulfilment of God's promise.

evidence of his truth and the authenticity of his prophethood? The following verses would serve to testify thereto:

سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الالوسى

«The host of unbelievers shall be utterly routed and shall take to their heels in the battle of Bedr».

(*Alucy's Commentary.*)

غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

«The Persians defeated the Greeks in the nearest boundary town to them. The unbelievers of Mecca rejoiced at their victory as the Persians were followers of the Scriptures like the Moslems The verse was thus revealed foretelling a victory of the Greeks over the Persians which was fulfilled a few years later». [1]

(*Baidawy's Commentary*).

لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

ترجمة تفسير هذه الآيه نقلا عن الالوسى

«The Moslems were promised to enter Mecca in full security and the verse was revealed to the effect that they will enter the Sacred Mosque in Mecca, which entry was materialised soon after».

(*Alucy's Commentary*)

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

ترجمة تفسير هذه الآيه نقلا عن الكشاف

«God hath promised Mohammad and his people to exalt Islam and

---

[1] The victory of the Greeks referred to in the verse took place about the third year of the Hejra.

When he ate, he used to say "Praise be to the Lord who hath provided us with food and pleased to make us Moslems;" and when he drank, "Praise be to the Lord by whose mercy water is made fresh and sweet and not salt and bitter because of our sins."

When he broke his fast, he was wont to say "Praise be to God who hath aided me to fast and hath given me of His bounties to feed"

On turning in bed during the night, he would say "There is no God but God, the one, the Almighty, the Lord of heavens and earth and what lieth betwixt them, the Almighty, the forgiving."

Should he wake up during the night, he would say "O Lord, forgive us our trespasses, grant us thy mercy and guide us unto the right path."

Should he feel apprehension of certain people, he was wont to say, "O Lord, be thou our shield against them and grant us thy protection from their evils."

On comming out of his house, he would say "In the name of the Lord do I plight my troth, for the mighty and strong is He; and seek His protection from misguidance, error and oppression or being lead by others thereto."

When beholding the crescent moon, he would say "May it be an auspicious augury of guidance and well-being unto my people, Glory be to thy creator."

Should he raise his eyes towards heavens he would say "O thou wielder of hearts confirm thou my heart in thy obedience;" and if he had occasion to swear by the Lord he would say "By Him in whose hands the soul of Mohammad lieth."

If the wind blew he would say "O Lord, grant us the good it bringeth and preserve us from the evil thereof."

Such was Mohammad in all his actions, completely given to the thought of the Almighty and ever seeking His aid and support in whatever project he may set to do. No might nor power, indeed, did he ever attribute to himself or others where God and His cause were concerned. He pledged his faith in God to the exclusion of all others, thus he was wont to say "Suffice unto me the Creator apart from the created, the Provider apart from the provided for; suffice unto me who sufficeth me; suffice the Lord and the most excellent Patron is He."

To resume our analysis, would not the prophecies of future events which abound in the miraculous Koran constitute a mighty

English Supplement of

NOUR - EL - ISLAM REVIEW

Published by AL - AZHAR.

مترجمه عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيله الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

THE PROPHET MOHAMMAD [1]

(Continued.)

As already pointed out, Mohammad was wholly given to the meditation of the Almighty. God was all in all to him and the awe and reverence due unto the Lord seemed to run in his very blood.

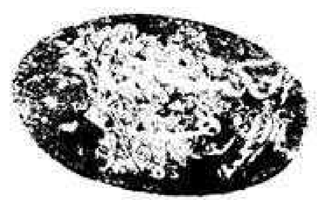
Like all other prophets and apostles, he used to attribute everything to the Lord. Should any good come his way, he was wont to say " Praise be to God by whose grace our blessings are rendered complete" and should a misfortune befall him, he would say "Praise be to the Lord in prosperity and adversity."

Should he contemplate an action, he would solicit God's aid" O Lord, grant me the good and guide me unto the right;" and should he set on a journey he would pray unto Him " O Lord, of thee do I ask strength and seek support."

On going to sleep, he was wont to say "In thy hallowed name do I lay my side to rest; and on rising " Praise be to the Lord who quickeneth us after death and unto Him shall be the return."

On putting on a new garment, he would say " Praise be to the Lord who gave me the wherewithal to adorn myself in life."

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book *"Messages of Peace."*



قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ •

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء الثامن	شعبان سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة



المستشار بمحكمة الاستئناف ، سابقا
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى ،

رئيس التحرير
السيد



من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة


الاشتراك

داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة ـ والبدعة

شرع الله الدين الحنيف في سماحة وحكمة ، فلم يأت بما فيه حرج ، أو بما ينبو العقل السليم عن قبوله ، وكانت هذه السماحة والحكمة من أسباب انتشاره في المعمورة وظهوره على الأديان كلها في أعوام معدودة ، وحيث بلى بعض الشرائع من قبل فدخلها فساد التبديل والتأويل ، اشتدت عناية الشارع بتحذير الناس من أن يحدثوا في الاسلام ما ليس منه ، قال صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد[1] » وقال : « كل محدثة[1] بدعة وكل بدعة ضلالة » .

ولم يخلص الدين مع هذه الزواجر من طوائف يلصقون به ما ينافي سماحته ، أو ما يشوه وجه حكمته ، وقد كثرت هذه البدع حتى حجبت جانبا من محاسنه ، وكان لها أثر في تنكر بعض القلوب لهدايته . وهذا ما حمل كثيرا من أهل العلم على أن يتناولوا البدع بالتأليف خاصة ، كما فعل أبو بكر الطرطوشي وأبو اسحاق الشاطبي وغيرهما من رجال الدين . وللبحث في البدع مجال واسع ، ونحن نلم في هذا المقال بالقدر الكافي لإجابة رسائل اقترح أصحابها على المجلة بيان ما هو سنة وما هو بدعة . وفي الفرق بين السنة والبدعة ، وتمييز البدعي من السني إصلاح كبير .

السنة

معنى السنة في أصل اللغة الطريقة ، حسنة كانت أم سيئة ، وقد تطلق على

---

(١) صحيح الامام البخاري .

ما يقابل القرآن ، فيراد بها قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله وتقريره ؛ ويطلقها الفقهاء على ما يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه مما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وواظب عليه ؛ وتطلق على ما يقابل البدعة ، فيراد بها ما وافق القرآن أو حديث النبي عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير ، وسواء كانت دلالة القرآن أو الحديث على طلب الفعل ، مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منهما ، وينتظم فى هذا السلك عمل الخلفاء الراشدين والصحابة الأكرمين ، للثقة بأنهم لا يعملون إلا على بينة من أمر دينهم ، قال عمر بن عبد العزيز : « سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمور بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله ، واستكمال لطاعة الله ، وقوة على دين الله ، من عمل بها مهتد ، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين » .

أما دلالة القرآن أو قول الرسول صلى الله عليه وسلم على أن الأمر مشروع فواضحة ، ولا شأن للمجتهد فى صيغ الأوامر إلا أن يتفقه فيها حتى يحملها على الوجوب أو الندب ، ويتدبر أمرها فيما اذا عارضها دليل آخر ، ليقضى بترجيح أحدهما على الآخر ، أو يفصل فى أن هذا ناسخ لذاك ؛ وطرق الترجيح أو الحكم بالنسخ مقررة فى كتب الأحكام .

والذى يستدعيه البحث فى هذا المقال أن نحدثك عن فعله عليه الصلاة والسلام وإقراره ، حتى تعلم الضرب الذى كان لنا فيه أسوة حسنة وسنة قائمة .

من أفعاله عليه الصلاة والسلام ما يصدر عن وجه الجبلة أو العادة ، كالقيام والقعود والاضطجاع والأكل والشرب واللبس ، وهذا الضرب غير داخل فيما يطلب فيه التأسى ، وغاية ما يفيده فعله عليه الصلاة والسلام لمثل هذه الأشياء الإباحة ، فاذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قام فى مكان أو زمان ، أو ركب نوعا من الدواب ، أو تناول لونا من الأطعمة ، أو لبس صنفا من الثياب ، فلا يقال فيمن لم يفعل شيئا من ذلك : إنه تارك للسنة .

ومن أفعاله عليه الصلاة والسلام ما علم اختصاصه به كالوصال فى الصوم والزيادة فى النكاح على أربع ، ولا نزاع فى أن مثل هذا ليس محلا للتأسى ، وما كان لأحد أن يقتدى به فيما هو من خصائصه .

ومنها ما عرف كونه بيانا للقرآن كقطعه يد السارق من الكوع بيانا لقوله تعالى : (فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) وحكم الاقتداء به فى هذا حكم المبيَّن من وجوب أو استحباب .

ومنها ما لم يكن جبليا ، ولا خصوصية ، ولا بيانا ، وهذا اذا علمت صفته فى حقه عليه الصلاة والسلام من وجوب أو ندب أو إباحة ، فأمته تابعة له فى الحكم ، إذ الأصل تساوى المكلفين فى الأحكام .

فإن فعل صلى الله عليه وسلم أمرا ولم يقم دليل خاص على أنه فعله على سبيل الوجوب أو الندب أو الإباحة ، فهذا إما أن يظهر فيه معنى القربة ، كافتتاحه الرسائل بكلمة : « بسم الله الرحمن الرحيم » فيحمل على أقل مراتب القرب وهو الندب ، وإما أن لا يظهر فيه معنى القربة فيدل على أنه مأذون فيه ؛ ومن أهل العلم من يذهب به مذهب المندوب اليه نظرا الى أنه عليه السلام مشرع ، فالأصل فى أفعاله التشريع ، ومثال هذا إرساله عليه الصلاة والسلام شعر رأسه الشريف الى شحمة الأذن ، وهو عمل لا يظهر فيه معنى القربة ؛ ولكن بعض أهل العلم كالقاضى أبى بكر بن العربى وأبى بكر الطرطوشى جعلوه من مواضع الاقتداء ، ورأى آخرون أن هذا محمول على العادة ، فاذا جرت عادة قوم بنحو الحلق ، فلا يوصفون بأنهم تركوا ما هو سنة .

ومما يشبه إرسال الشعر الى الأذن إرساله عليه الصلاة والسلام ذؤابة من العمامة وهى المسماة « العذبة » وقد ورد فى حديث عمرو بن حريث فى فتح مكة « كأنى أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين

كتفيه[١] » وحديث ابن عمر : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه[٢] » .

واذا كان إرسال ذؤابة من العمامة مما لا يظهر فيه معنى القربة ، يكون موضعا لاختلاف أهل العلم : فمنهم من يجعله من قبيل ما يتأسى به ، والى هذا يجنح أبو بكر ابن العربى ، وقد روى الترمذى عن ابن عمر وسالم والقاسم أنهم كانوا يفعلونه ، ومنهم من يراه من قبيل العادة فلا يعد المتعمم من غير عذبة تاركا لسنة ، وهـذه وجهة نظر من لم يكن يرسل العذبة من السلف ، قال الامام مالك : إنه لم ير أحدا يفعله إلا عامر ابن عبد الله بن الزبير[٣] .

وقد يتقارب الحال فى بعض الأفعال ، فلا يظهر جليا أهو عادة أم شريعـة ، فتتردد فيه أنظار المجتهدين ، نحو جلسة الاستراحة عند قيامه للثانية أو الرابعة ، فذهب بعضهم الى أنه لم يفعلها على وجه القربة فلا تدخل فى قبيل السنة ، وعدها طائفة فيما يستحب من أعمال الصلاة .

ومما لم يظهر فيه معنى القربة تقديم اسمه عليه الصلاة والسلام فى الرسائل على اسم المرسل اليه ، ولهـذا لم يحافظ عليه بعض السلف محافظتهم على ما يفهمون فيـه معنى القربة ، فأجازوا تأخير اسم المرسل على اسم المرسل اليه ، وسئل الامام مالك عن ذلك فقال : لا بأس به ، بل روى أن ابن عمر وهو من أشـد الناس محافظة على السنة ، قد كتب الى معاوية ، ثم الى عبد الملك بن مروان ، وقدم اسميهما على اسمه[٤] .

تركه

وكذلك يفصل القول فى تركه عليه الصلاة والسلام لبعض الأشياء ، فما يتركه من

---

(١) أخرجه مسلم . (٢) أخرجه الترمذى والنسائى . (٣) باب العمائم من فتح البارى .
(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد بسند صحيح .

أجل كراهته له جبلّة، كما امتنع من أكل الضب، ولما قال له خالد بن الوليد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: «لا ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه» وليس تركه صلى الله عليه وسلم للشيء على هذا الوجه من مواضع التأسى، وشاهده أن خالدا رضى الله عنه سمع هذا الجواب، وما ابث أن جر اليه الضب فأكله.

ويجرى على هذا النحو ما يتركه صلى الله عليه وسلم لتحريم يختص به، كتركه أكل الثوم وما شاكله من كل ذى رائحة كريهة، فلغيره من المسلمين تناوله، ولا يكون بتناوله هذا خارجا عن حدود قوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ).

فان لم يكن تركه عليه الصلاة والسلام من ناحية الجبلة، ولم يثبت أنه كان لمنع يختص به، فإن علم حكم هذا الترك فى حقه من حرمة أو كراهة، كانت الحرمة أو الكراهة شاملة لأمته بحجة أن الأصل عدم الخصوصية، فإن ترك عليه الصلاة والسلام أمرا ولم يعلم حكم هذا الترك، دل على عدم الإذن فى الفعل، وأقل مراتب عدم الإذن الكراهة، فيحمل عليها حتى يقوم الدليل على ما فوقها وهو التحريم.

واذا ترك صلى الله عليه وسلم الأمر لمانع من الفعل يصرح به أو يفهمه المجتهد بطريق الاستنباط، ثم يزول هذا المانع، فإنه يصح النظر بعدُ فى أمر المتروك، ويجرى حكمه على ما تقتضيه أصول الشريعة، كما ترك صلى الله عليه وسلم صلاة القيام فى رمضان جماعة، وذكر أن المانع من استمراره عليها خوف افتراضها عليهم، ولما انقطع الوحى بانتقاله صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ارتفع المانع من صلاة التراويح جماعة، وهو خوف الافتراض، فلم يبق فى تركها موضع للتأسى، ولذلك رجع بها عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى الأصل الذى هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها فى جماعة.

ومن هذا الباب تركه صلى الله عليه وسلم لقتل حاطب بن أبى بلتعة حين اطلع له على كتاب أرسله الى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وقال ردا على عمر بن الخطاب إذ قال له : دعنى أضرب عنق هـذا المنافق : « إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لـكم [1] » ففى ظاهر الحديث تعليل عدم قتله بشهوده واقعة بدر ، فمن لم تتحقق فيه هذه المزية ممن يتجسسون على المسلمين ويبلغون أخبارهم للمحاربين يبقى أمره موكولا لاجتهاد الامام ، ليجازيه بما تقتضيه المصلحة ولو بالإعدام ، وهذا ما يقوله إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله .

وإذا ترك صلى الله عليه وسلم أمرا لم يظهر فى عهده ما يقتضى فعله ، ثم طرأ حال يجعل المصلحة فى الفعل ، ارتفع طلب التأسى فى الترك ، وأصبح ذلك الأمر مجالا لنظر المجتهد ، حتى يفصل له حكما على قدر المصلحة الداعية الى فعله ؛ ومثال هذا أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يجمع القرآن فى مصحف ، إذ لم يظهر فى عهده ما يدعو الى هذا الجمع ، ولـكن كثرة من قتل فى حرب أهل الردة من القراء أثارت الخوف على القرآن من الضياع ، ورأى الخليفة الأول صحة الجمع لهـذا المقتضى الذى لم يكن فى عهد الوحى قائما .

ولا يدخل فى الترك الذى نتحدث عنه عدم فعله صلى الله عليه وسلم لأمور لم تكن وسائلها قد تهيأت ، ولا الفنون التى يتوقف عليها إنشاؤها قد ظهرت ، فلا يخطر على البال أن نمنع من وضع آلات تعرف بها الأوقات فى المساجد ، ونستند فى هذا المنع الى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفعل هذا فى مسجده الشريف ، وليس من الفقه أن نرد الخبر بثبوت شهر رمضان يأتى على طريق البرق أو المسرة ، بدعوى أن الأخذ به مخالف للسنة إذ لم يأخذ النبى صلى الله عليه وسلم فى إثبات الشهر إلا بشهادة يؤديها من فى حضرته ، وإنما يعد مثل هذا من قبيل المسكوت عنه ، فلأهل العلم أن يتناولوه بالاجتهاد ، ويلحقوه بالأصل الذى يصح تطبيقه عليه .

(١) صحيح الامام البخارى .

والترك الذى يدل على عدم الإذن هو ما يروى فى لفظ صريح ، كتركه عليه الصلاة والسلام الأذان والإقامة ليوم العيد ، وتركه غسل شهداء أحد والصلاة عليهم ؛ ويلحق بهذا تركه الذى لم ينقل بلفظ صريح ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذى شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله لو وقع . فيصح لنا أن نقول : من السنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة ، ويكفى فى الاستشهاد على أن السنة ترك هذا الرفع عدمُ نقلهم لفعله ، وهو من الأمور التى لو فعلت لتوفرت الدواعى على نقلها .

وقد وردت أحاديث دلت على أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يتركون الأمر لمجرد ترك النبى صلى الله عليه وسلم له ، كما ورد أنه عليه الصلاة والسلام خلع نعله فى صلاة فخلعوا نعالهم حتى أخبرهم بعد بأنه علم من طريق الوحى أن بالنعل نجاسة [١] .

ومن شواهده أنه كان عليه الصلاة والسلام اتخذ خاتما من ذهب ، فاتخذوا خواتيم من ذهب ، ثم نبذه ، وقال : « إنى لن ألبسه أبدا » فنبذوا خواتيمهم [٢] .

ومن عرف مسابقة الصحابة رضى الله عنهم الى الاقتداء برسول الله حتى فى ترك المكروه ، لم يجد فى أمثال هذا الحديث دليلا كافيا على أن تركه عليه الصلاة والسلام للشىء ، يحمل على أشد مراتب النهى وهو التحريم . وحرمة استعمال خاتم الذهب مأخوذة من الأحاديث الدالة على حرمة استعمال الذهب زينة للرجال .

تقريره

من مقتضى ما تقرر من عصمته صلى الله عليه وسلم — وأمانته فى التبليغ أن لا يقر أحدا على أمر غير مأذون فيه شرعا ، فيكون إقراره للأمر دليلا على أنه لا حرج

(١) رواه الامام أحمد وأبو داود .   (٢) صحيح الامام البخارى .

فى فعله، سواء شاهده بنفسه فسكت أو بلغه فلم ينكره، وما لا حرج فيه يشمل الواجب والمندوب والمباح، فيحمل على أقل مراتبه وهو الجواز حتى يقوم الدليل على الندب أو الوجوب، ولا يدل الإقرار على جواز الفعل فى حق من أقره النبى صلى الله عليه وسلم وحده، بل يكون الجواز حكما شاملا لجميع المكلفين، أخذا بالأصل الذى هو استواء الناس فى أحكام الشريعة، فليس لأحد أن يعد اللعب فى المسجد بالسلاح تمرينا على الحرب أمراً مخالفا للسنة، بعد أن ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر الحبشة على اللعب فى مسجده بالحراب، وليس لأحد أن ينكر على المعتدة عدة وفاة اذا خرجت للاستفتاء، بعد أن ثبت أن فريعة بنت مالك خرجت بعد وفاة زوجها تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موضع العدة، فقال لها: « امكثى حتى تنقضى عدتك » ولم يتعرض لخروجها بإنكار.

«يتبع» محمد الخضر حسين

الطرف والملح

قال حكيم: الإخوان ثلاثة: أخٌ يُخْلِصُ لك ودّه، ويَبْلغ فى مُهِمّك جُهْدَه. وأخٌ ذو نيّةٍ يقتصر بك على حُسْن نيتِه، دون رِفْدِه ومعونته. وأخٌ يحاملك بلسانه، ويتشاغل عنك بشأنِه، ويوسِعُك من كذبه وأيْمانِه.



سورة الملك

٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله جل ثناؤه : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

الفوج : الجماعة المسرعة فى سيرها . وخزنة جهنم هم الملائكة التسعةَ [1] عشرَ الذين يتولّون أمرَ جهنم ويتسلطون على أهلها ويدبّرون أمر تعذيبهم فيها . بلى : كلمة يُقصد بها إبطالُ [2] النفى المذكور قبلها ، فاذا قيل : ليس فى مصرَ معادن ، كان الجواب بلى ، أى فيها معادن ؛ واذا قيل : ألم يُفرِّط المسلمون فى دينهم ودنياهم ؟ كان الجواب بلى ، أى أنهم فرّطوا . والضلال هو العدول عن المنهج القويم ، والانحراف عن الصواب ، سواء أكان ذلك عمدا أم سهوا ، يسيرا أم كثيرا ، مع العلم بالحقيقة أم لا ؛ وضده الهداية . وسيأتى بسط الكلام فى ذلك .

لما شرح الله عز وجل لعباده حال جهنم التى أعدّها للذين كفروا بربهم ، وبين ما خلقها عليه من الصفات المزعجة البشعة ، أردف ذلك الشرحَ بحال أهلها ، وبين

---

(١) أى ملكا أو صنفا او صفا . (٢) أما نعم فانها تبقى ما قبلها على حاله من إثبات أو نفى

المقاولات بينهم وبين خزنتها وبينهم وبين أنفسهم فقال : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) الآية .

قدّمنا لك أن الفوج هم الجماعة المسرعون فى سيرهم ؛ وقد جاء التصريح بذلك الوصف وصف إسراع الكفار فى سيرهم الى جهنم فى آيات أخرى — منها قوله تعالى : (يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ [١] سِرَاعًا [٢] كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ [٣] يُوفِضُونَ [٤]) وقوله : (مُهْطِعِينَ [٥] إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) وقوله : (مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي [٦] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ [٧] إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ [٨] هَوَاءٌ) .

دلت تلك الآيات الصادقة على بعض من سوء المقابلة التى يصطدمون بها عقب خروجهم من قبورهم وقبل دخولهم جهنم دارِ قرارهم ، حتى إذا وردوها أُلْقُوا فيها فوجا بعد فوج ، وقُذِفُوا فى جوفها أمة بعد أمة ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا (سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) ؟ وقد جاء ذلك بشرح أوفى فى قوله تعالى فى آية أخرى : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا . حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا . فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) .

---

(١) القبور . (٢) مسرعين إلى المحشر . (٣) ما ينصبه المتسابقون ويرفعونه فى ميدان المسابقة . (٤) يسرعون . (٥) مسرعين مادين أعناقهم فى سيرهم إلى المنادى إلى المحشر . (٦) رافعين لها . (٧) لا تطرف أعينهم من الفزع . (٨) أى أن قلوبهم لشدة الهول والجزع كأنها نزعت منهم وذهبت فى الجو كأنها هواء . ونظير هذا قول القائل : طار لب فلان من الهلع ، وذهبت نفسه شعاعا أى موزعة متفرقة .

لعلك فطنت الى ما يؤخذ من هاتين الآيتين الكريمتين ، وهما قوله تعالى : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا) الآية ، وقوله : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا) الآية ، من أن الكفار يُسألون فى الآخرة هذا السؤالَ مرتين ، مرة قبل دخولهم جهنم كما فى الآية الثانية ، ومرة بعد دخولهم فيها كما فى الآية الأولى التى نفسرها .

والحكمة البالغة فى توجيه هذا السؤال اليهم وفى تكريره لهم ، هى مضاعفة الإيلام وزيادتُهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون . فكما تألمت أجسامهم بالنار التى نَضِجتْ منها جلودُهم ، وغَشِيَتْ وجوهَهم ، وكانت عليهم لَظًى [1] نَزَّاعةً [2] للشوى ، كذلك أريد إيلام أرواحهم ، وإيجاع نفوسهم ، بتوجيه هذا السؤال الذى لا يحيرُونَ [3] الإجابةَ عنه إلا بالإقرار والاعتراف ، كما سيأتى فى هذه الآية ، ليضاف الى إيلام أبدانهم بالنار إيلامُ أرواحهم بالتوبيخ ، وليزدادوا بالتعنيف والتقريع حسرة بعد حسرة ، وندامة على ندامة (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

سُئِلوا هذا السؤالَ الجامعَ لِلَّوم والتوبيخ ، الملجىء الى الإقرار بالحق الواقع ، فلم يجدوا من دون الاعتراف به موئلا [4] ، و (قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ) أى قالوا مقرين بأن الله اللطيف بعباده قد أَعْذَرَ [5] اليهم وأرسل النذير ، وأزاح عنهم ما عسى أن يتعللوا ويحتجوا به ، كما قال سبحانه : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقال : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ [6] لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) .

كان يكفيهم فى الجواب أن يقتصروا على قولهم (بَلَى) كما بيناه لك فيما سبق ، ولكنهم جمعوا بين كلمة الجواب وهى (بَلَى) والعبارة المجاب بها وهى : (قَدْ جَاءَنَا

(١) نارا ملتهبة . (٤) كثيرة النزع والقطع لاطرافهم وجلود رءوسهم . (٣) لا يستطيعون .
(٤) ملجأ . (٥) نفى أعذارهم وأبطلها . (٦) اى قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .

نَذِيرٌ) مع انفهامها من كلمة الجواب ، وذلك مبالغةٌ منهم فى الاعتراف بمجىء النذير ، وتحزُّنٌ مما جَنَوه من تكذيبهم له ، وتندُّمٌ على ما حرموا أنفسهم منه وهو السعادة التى هى جزاء المصدِّقين . كذلك هو تمهيد قصدوا به التوسل الى بيان ما ارتكبوه من الإهمال والتفريط فى جنب الله تعالى ، طمعا منهم أن ذلك قد ينجيهم أو يخفف عنهم ، ولكن أنَّى ذلك لهم (وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ(١) مَجْنُونٌ) .

أقرّوا جميعا بما عاملوا به النذير لما جاءهم ، فقال كل فوج منهم قد جاءنا نذير ، أى نذير واحد حقيقة فى بعض الأمم ، كسيدنا نوح عليه السلام ؛ أو حكما فى بعض آخر ، كأنْ تعدَّد النُّذُر ولكنهم مع تعددهم كانوا بمنزلة نذير واحد كأنبياء بنى إسرائيل ، فإنهم إنما كانوا خلفاء عن سيدنا موسى عليه السلام منذرين بشريعته ، أى جاءنا نذير فأنذرنا بما أعدّه الله تعالى للمكذبين ، وتلا علينا ما أنزله عليه من الآيات (فَكَذَّبْنَا) ذلك النذير ، وجحدنا أن يكون نذيرا من عند الله تعالى . ثم إننا أفرطنا فى التكذيب وتمادينا فى الإنكار (وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ) على أحد من البشر (مِنْ شَيْءٍ) من الأشياء التى يدّعى النذير أنها آيات منزلة عليه من عند الله سبحانه ، مستدلّين بهذا القول على أنه ليس نذيرا من عند الله تعالى . وقد جاء هذا فى آية أخرى وهى قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) . ثم أغرقنا فى التكذيب وتجاوزنا الحدّ فى الإنكار ، فرمينا النذير بالضلال والسَّفَه والجهل ، فقلنا له ولكل من يُفرَضُ أنه يقول مقالته : (إِنْ أَنْتُمْ) أيها المنذرون (إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) .

(١) أى علمه بعض الناس هذه الاباطيل ولم يعلمه الله شيئا كما يزعم .

هكذا غلبت على القوم شقوتهم فى الدنيا فاجترءوا أن يصفوا النذر الكرام بما عصمهم الله تعالى منه ، ولكنهم فى الآخرة قد (بَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) .

وقد يحسن أن نذكر هنا كلمة موجزة دعا إليها ما افتراه أولئك المكذبون على النذر من وصفهم لهم بالضلال فنقول : قد شرحنا لك معنى الضلال فيما سبق ، ومنه تعلم أنه أنواع كثيرة : فمنه ما هو مذموم ممقوت عند الله تعالى يستحق صاحبه العقاب ، كضلال الكفر والمعاصى ، ومنه ما ليس كذلك كالضلال الصادر عن عدم العلم بالحقيقة أو عن النسيان .

فمن الصادر عن عدم العلم بحقيقة ما ينبغى اتباعه ما جاء فى قول الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وسلم : (وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ) أى كنتَ غيرَ عالم فعلَّمك ، وكنت غيرَ عارف بما يُصْلِحُ به فسادُ البشر فعرَّفك ، وكنتَ غيرَ مهتد الى الطريقة المُثْلَى التى يكون فى اتباعها سعادة الدين والدنيا والآخرة فهداك .

وهذا كما قال عز وجل فى آية أخرى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا . وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ . أَلَا إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

ومن الصادر عن السهو وغَيْبَةِ الأمر عن الخاطر قولُ سيدنا موسى لفرعون فى شأن قتل القبطى : (فَعَلْتُهَا [1] إِذاً وَأَنَا مِنَ ٱلضَّالِّينَ) وقولُ أولاد سيدنا يعقوب له عليه السلام : (إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ)

---

(١) أى الفعلة وهى قتل القبطى المتعدى على الاسرائيلى .

وقوله تعالى فى آية كتابة الدَّين والاستشهاد عليه : (وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ [١] . فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ) .

ومن الصادر عن الإنكار والخطأ العمد ضلالُ الكفر والكذب فى قول الله تعالى : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) . ومنه ما حكاه أهل جهنم عن أنفسهم أَنَّهُمْ كانوا فى الدنيا يقولون بحسب زعمهم الباطل لرسلهم : (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) . على أنهم لم يكتفوا برمى رسلهم بالضلال فقط ، بل وصفوه بأنه ضلال كبير فاحش ذميم . زعموا هذا وهم فى الدنيا دارِ أَمْنِهِمْ وسلامتهم ، وغفلوا عن أن الله تعالى سيسألهم فى الآخرة ويقول لهم : (يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) .

ثم اعلم أن الله جل ثناؤه قد كرَّم بنى آدم وفضَّلهم على كثير ممن خلق تفضيلا ، فوهب لهم هبة عظمى خصهم بها ، وهى نعمة العقل الذى به يعقلون ويميزون الحق من الباطل ، والطيب من الخبيث ، والخير من الشر ، ثم أَتمَّ عليهم تلك النعمة فجعل لها آلاتٍ ووسائلَ تُوَصِّل إليها المعلوماتِ ، وناط بكل آلة منها معلوماتٍ معينةً تؤدِّيها الى العقل — تلك هى السمع والبصر وسائر الحواس .

ثم إن بنى آدم الذين فطرهم الله تعالى على هذه الفطرة الزكية قد اختلفوا شِيَعاً : فمنهم من أدى حق الله تعالى عليه فى هذه النعم الجليلة فشكرها ، وشكرُها إنما يكون

(١) أى من المسلمين .

بإحسان التصرف فيها : بأن يوجه الإنسان كل نعمة منها الى ما خلقت له ، ويستعملها على الوجه الصحيح المشروع ؛ وحينئذ يكون قد قام بشكر الله سبحانه على نعمة العقل والحواس، ويكون قد انتفع حقيقة بما فضّله الله تعالى به، ويكون هو الجدير بأن يوصف بالعقل والسمع وغيرهما .

أما من لم يؤدّ حق الله تعالى عليه فى هذه النعم فلم يشكرها على الوجه الذى عرفتَ فإنه يكون معطِّلا لحكمة الله تعالى فى خلقها ، مضيِّعا لها محروما من ثمراتها غير منتفع بآثارها الطيبة التى امتاز بها عن سائر أنواع الحيوان ، بَلْهَ غيرَها [1] بل يكون هو والحيوان الأعجم سواءً ، بل أسوأ منه ، وكان ممن قال الله تعالى فيهم : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) وكما قال : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ) .

اذا عرفتَ هذا فكن على ذُكْرٍ منه لنعودَ بك الى تفسير بقية مقال أهل جهنم أخزاهم الله ، فنقول : بعد أن اعترف أهل جهنم للخزنة بأنهم قد جاءهم النذير ، وتحسروا ما شاءوا أن يتحسروا على ما جَنَوْهُ على أنفسهم ، عادوا فكرروا التحسر على وجه أبلغ ، مبينين أن سبب تكذيبهم للنذير هو تفريطهم وعدم شكرهم لنعمة العقل والسمع ، ولو حرَصُوا عليها فاستمعوا لقوله سماع القبول والامتثال ، وعقَلوا عنه ما تلاه عليهم من آيات الله وشرائعه ، لكانوا إذ ذاك قد أحسنوا التصرف فى تلك النعمة ووضعوها حيث أمرَ اللهُ تعالى أن تُوضَعَ ، ولكانوا من الذين قال الله سبحانه فيهم : (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) ولكانوا فى زمرة الشاكرين الذين وعدهم الله سبحانه بقوله : (وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) .

---

(١) دع غيرها .

لكنهم عتوا عن أمر ربهم ورسله، واستجهلوا النذير واستخفوا به، وغمطوا نعمة الإدراك كفروا بها، فكانوا ممن بدل نعمة الله كفرا، وحرموا أنفسهم من الانتفاع بها، وكانوا ممن قال الله عز اسمه فى شأنهم: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ (١) عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ (٢) الْبُكْمُ (٣) الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا (٤) لَأَسْمَعَهُمْ (٥). وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ (٦) لَتَوَلَّوْا (٧) وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٨)).

هذا هو ما حكاه الله جل شأنه هنا إذ يقول: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى لو كنا نسمع سماعا يفضى بنا الى قبول الحق ورد الباطل بعد أن يتبين الأمر، ولو كنا نعقل حقائق الأشياء عقلا نصل به الى العلم بظواهرها وبواطنها على ما هى عليه ونفقه به الحكم الإلهية فى خلقها ولو لم (٩) يكن لنا سمع، لو كنا كذلك ما كنا فى جملة الذين أعد الله تعالى لهم نار السعير، ولم نحشر فى زمرة أولئك المكذبين المجرمين، و (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لَا يُفَتَّرُ (١٠) عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (١١). وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ. وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ. لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ).

لقد صدق أهل جهنم فيما أقروا به على أنفسهم، وشهدوا عليها شهادة صدق سجلت عليهم أنهم كانوا مكذبين، وبالغوا فى التحزن على أنفسهم والتندم على سوء ما صنعوا من استجهالهم النذير واستخفافهم به، ونبذهم ما جاءهم به من آيات الله والحكمة ظهريا.

(١) جمع دابة اسم لكل حيوان مميز وغير مميز. (٢) عن سماع الحق. (٣) عن النطق به. (٤) صلاحا لسماع الحق. (٥) سماع تفهم وقبول. (٦) اى على سبيل الفرض مع علمه انه لاخير فيهم. (٧) انصرفوا عن الحق. (٨) كارهون عنادا وجحدا. (٩) هذا مأخوذ من التعبير بأو فى الاية لانها لأحد الشيئين. (١٠) لا يخفف (١١) ساكتون سكوت يأس وقنوط.

فعلوا ذلك طامعين أنه ينجيهم من سوء العذاب الذى أركسوا[1] فيه أنفسهم ولا قِبَلَ لهم به[2] وكان ذلك منهم قياسا على ما عهدوه فى الدنيا من أن المذنب إذا تاب وأخلص فإنه قد يرجى أن تقبل توبته، ولكن فاتهم أن ذلك إنما كان فى الدنيا لأنها دار التكليف والامتحان والمنافسة فى أعمال البر والطاعات، ليتميز الخبيث من الطيب والمطيع من العاصى، أما الآخرة فإنها دار الحساب والجزاء ومكافأة كل عامل بما عمل من تصديق وتكذيب، وإيمان وكفر، وخير وشر، فهى يوم ﴿لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا. وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ[3] وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ. وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

ظنوا أن إقرارهم هذا ينفعهم فخاب ظنهم، وكان إقرارهم حجة لله تعالى عليهم، وشهادةً منهم جعلت ذنب تكذيبهم وكفرهم لِزَامًا فى أعناقهم لا يجدون عنه مَحِيصًا، ولهذا بين الله تعالى نتيجة ما دار بينهم وبين الخزنة من السؤال والجواب بقوله ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ الذى هو تكذيبهم للرسول وإنكارهم التنزيل، أى أقروا إقرارا صادرا منهم عن معرفة[4] بما جنوه على أنفسهم من تكذيبهم النذير وكفرهم بما تلا عليهم من آيات الله البينات التى أعذر بها إليهم حتى دَحَضَتْ حججهم وَزَهَقَتْ أباطيلهم، فكان اعترافهم بذنبهم تسجيلا له عليهم، وتثبيتا لتفريطهم فى جنب الله تعالى، وسببه عدلا لسحقهم وحشرهم فى أصحاب السعير.

---

(١) أوقعوا فيه أنفسهم منكوسين مقلوبين عاليهم سافلهم. (٢) لا طاقة. (٣) فدية.

(٤) إشارة إلى أن معنى الاعتراف هو الاقرار بالشىء عن معرفة له.

لهذا أردف الله عز وجل اعترافهم هذا بقوله : (فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) وهو دعاء عليهم من الله تعالى مستجاب حتما لن يتخلف ، واستنزال للسحق أى البعد والطرد والحرمان من كل رحمة ومغفرة . ومن هذا نعلم أن أهل جهنم قد صُبَّ عليهم المقت وتعذيب أرواحهم بالنعى والتوبيخ والحسرة والندم من ثلاثة جوانب : من جانب الملائكة خزنة جهنم ، ومن جانب أنفسهم ، ومن جانب الله المنتقم شديد العقاب .

ثم إن الدعاء على إنسان هو الاستعانة عليه بالقوى القادر على أن يُنزِلَ به المكروهَ ، وهذا كما ترى مستحيل على الله القدير على كل شيء ، فيكون معنى قول الله تعالى : (فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) هو ما يستلزمه الدعاء ، وهو شدة مقت الله تعالى لهم وسخطهِ عليهم ، وأنهم قد سَحَقَهم [1] اللهُ سحقا وغضب عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاب السعير .

لم يكن التعبير عنهم فى هذه الجملة الدعائية بضميرهم بأن يقال : (فسحقا لهم) بل عبر عنهم بأصحاب السعير لإفادة أمرين : أولهما بيان بشاعة هذا السحق الذى سُحِقُوه وأنه الإحراق بالنار المتأججة المضطربة كأن بها سُعُرًا أى جنونا . ثانيهما الدلالة على أنهم فى عذاب جهنم خالدون ، وأنهم فى مقاساة لظاها وتسعرها مقيمون ، فإن صحبة الشىء للشىء ملازمته له وطول مكثه ولبثه معه .

بقى أنه تعالى لما عبر عما اعترفوا به عبر عنه بالذنب بلفظ الإفراد دون أن يقول : بذنوبهم ، مع أن لهم ذنوبا كثيرة . فحكمة هذا التعبير شيئان : الأول : أن المذكور فى الآية ذنب واحد وهو سوء ما قابلوا به النذير . والثانى : أن هذا الذنب كفر صُرَاحٌ . ولا ريب أن الكفر بالله هو أعظم الذنوب وأفحشها ، بل هو الجرثومة الخبيثة التى تتفرع عنها جميع الذنوب والموبقات على كثرتها واختلافها ، فكان الكفر حينئذ أجدر

(١) إشارة إلى أن سحقا فى الآية مفعول مطلق لفعل ثلاثى متعد محذوف .

شيء بأن يسمى ذنبا؛ وقد اقتصر عليه في هذه الآية لتحذير العباد منه ليتقوا الوقوع فيه، فإن الوقوع فيه وقوع في كل المعاصي، والنجاة منه نعمة عظمى لا تُنالُ إلا بالإيمان الذي هو صراط الله المستقيم الموصل الى رضاه جلّ ثناؤه.

وهذا لا ينافي مجيءَ الذنب مجموعا في اعترافهم في آية أخرى وهي قوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ. قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ[1] وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ[2] فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ).

لأن التعبير بالذنب مجموعا في هذه الآية الثانية إنما هو من تعبيرهم أنفسهم لا من تعبير الله تعالى عنهم كما في الآية الأولى التي علمتَ حكمةَ الإفراد فيها؛ فلما كانوا هم المعبِّرين عن أنفسهم في هذا الموطن موطنِ الاستغفار والاسترحام والاستعطاف، ظنوا قياسا على ما أَلِفُوهُ في الدنيا أن المبالغة في الاعتراف بالذنوب كلها أَنجعُ وسيلةٍ تشفع لهم وتخلّصهم من الورطة التي أَقْحَمُوا أنفسَهم فيها.

ولكنهم غفلوا عن أن الآخرة إنما هي دار ثواب أو عقاب، لا دارُ تكليف وابتلاء، وتوبة وإنابةٍ، وفديةٍ واستعتاب[3] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ. أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

حسن منصور
وكيل مدرستي القضاء الشرعي
ودار العلوم العليا سابقا

(١) اى إماتتين اثنتين: الاولى وهم نطف. والثانية عند انقضاء آجالهم. (٢) أى إحياءتين اثنتين: الاولى بنفخ الروح فيهم في بطون أمهاتهم والثانية بالبعث يوم القيامة. (٣) استرضاء.

الشريعة منبع السعادة

سر معي على ما أحب عسى أن تجد ما تحب ، وإياك والرعونة فطالما حرمت أهلها من خيرات وحجبت عقولهم عن حقائق ، فحرك معي الفكر أيدك الله وتجرد عن كل ما تملك نفسك وانطبع فى مرآة قلبك عن تقليد واستحسان لا عن دليل وبرهان .

اذا غلب عليك الإنصاف وصادفك الرشد وفعلت ما اتفقنا عليه، وجدت الشريعة قد جاءت بسعادة الروح والبدن جميعا ، والانسان — كما تعلم — مركب من جزء علوى سماوى وجزء مادى أرضى ، وإنك لا تسعى وراء مطالب الأبدان وما تحتاج اليه إلا من حيث إنك حيوان لا من حيث إنك إنسان ، وتعلم أن كل حيوان يطلب المطاعم والمشارب وما يقيه من الحر والبرد الى غير ذلك ، وأنه لا قيمة لما يشاركك فيه الحيوانات وإن كنت فى طلبه أوسع تدبيرا وأتقن صنعا وأعظم تفننا ، واستحققت بذلك أن تكون سيد الحيوانات ، ولكن الوصف الذى صيرك إنسانا وألحقك بالملائكة هو أنك أعطيت نفسا شريفة تشاكل بها الملائكة وتستعد لأن تعرف من جلال الله تعالى وجماله ما لا يعرفه غيرك ، ويمكنك أن تترقى فى الكمالات دائما وتنخرط فى سلك العالم الأعلى الذى لا يلحقه ألم ولا يشوبه نقص ، وأن تفارق عالم الحيوان الذى تؤذيك فيه البعوضة ، ويسقمك فيه الحر والبرد ، وتزعجك الأحلام ، وتخيفك الأوهام .

وبمقتضى ذلك الجزء الروحانى الذى ليس له حد محدود فى الترقى فى الكمالات (وعلى قدرها تكون اللذة والنعيم) كانت هذه الحياة الحيوانية غير كافية لروحك ولا موفية حق استعدادك ، فكان لك بمقتضى حكمة الحكيم حياة أخرى لا تنفد حتى يتأتى لك فيها أن تأخذ كل ما يقتضيه استعدادك وتوجبه حقيقة ذاتك مما لم يخلق له الحيوان ولا يمكنه أن يصل اليه ، ولولا ذلك لكان غيرك من المخلوقات أسعد منك حالا

وأنعم منك بالا ، ولكان إيجادك على هذا الوجه من السفه بمكان — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) .

إن لذة هذا الجزء الروحانى إنما هى بالعلوم والمعارف والأنوار والأسرار ؛ وإنه قد يصل الى حد تنفعل عنه الأشياء كلها ويكون فى نعيم بلا كدر وصفاء بلا تشويش[1] وقد جاءت الشريعة تعالجك من الأمراض التى أحاطت بك ، وتحاول أن توصلك الى هذا الحد ، وتظهر فيك خاصة الانسانية . ولا تعجل علىّ — يرحمك الله — فإنى معترف معك بأنها جاءت تحث على مصالح الأبدان وسعادتها أيضا ، فاذاً قد جاءت الشريعة بسعادة الأبدان والأرواح ، وإن شئت فقل بسعادة الدنيا والآخرة ، فشرعت العبادات البدنية عسى أن تدخل الى قلبك من الأنوار وتذكرك من العظمة الإلهية ما توفى به قسط الروح وما يجلو مرآة القلب مما تراكم عليها من ظلمة وعلا عليها من صدأ ، وما تنتفع به فى مصالح البدن أيضا ، فإنه اذا انجلت مرآة قلبك تجلى فيه الحق حقا والباطل باطلا ، وظهر لك قبح الصفات الذميمة من الحقد والحسد والطمع والشره ، وحسن العفة والسخاء والشجاعة والاقتصاد وسلامة الصدر الى آخر الفضائل والرذائل ، وتقوى عقلك بذلك المدد النورانى ، فاجتنبت ما يشينك وتحليت بما يزينك ، فطاب عيشك وتم سرورك ، وإلا حقت عليك الكلمة وأحاطت بك الشقوة ، ولم تنفعك أموالك ولا أولادك ، متى كنت فيها على غير تأييد إلهى ونور ربانى (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا) فيضيع منك طيب الحياتين ويفوتك تحصيل السعادتين (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) بصرك الله فى أمرك ، وهداك الى رشدك ، ولا جعلك ممن نسوا الله فأنساهم أنفسهم بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالأزهر

(١) قد جاء التشويش والتهويش جميعا خلافا للحريرى الذى جعل التشويش لحنا .

روابط الأسرة

النكاح ومشروعيته — أحكامه — تعدد الزوجات

الطلاق وسر مشروعيته — العدة — النسب

قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

لقد ربط الله دوام العمران لهذا الكون بالتناسل ، واقتضت حكمته أن يكون النسل بحاجة شديدة إلى التعهد والعناية بالتربية والتكميل حتى يبلغ أشده ، وجعله من الضعف عن أى شيء والاحتياج الى كل شيء بحيث ينبغي أن يقوم عليه عدد عديد حتى يستوفى ما يلزم له ، فهو بحاجة الى مرضع ومنظف لبدنه وثوبه ، ومتعهد له فى نومه ويقظته ، وجالب له غذاء ، ولباسا وفراشا ممهدا وهلم جرا ؛ ثم إلى من يلقنه متعارفات الناس ويفهمه لغة قومه ويدربه على النطق بها ، ثم من يأخذه بالتأديب وتربيه الخلق الفاضل ، ويجنبه قبائح الأعمال مما تدعوه اليه رغباته ، ثم من يأخذ بيده ليعوده الأعمال النافعة له ولغيره من أبناء أمته حتى يكون منه عضو عامل فى الأمة يفيدها ويستفيد منها ، فيتم به وبأمثاله التعاون الذى لا بد منه لكل واحد منهم .

وإن كل ذلك ليحتاج إلى صبر وإيثار لمصلحة ذلك النبت الناشئ على مصلحة من يقوم له بكل هذا . والنفوس التى فطرت على محبة ذاتها ولا تحب غيرها إلا حبا مستمدا من حب ذاتها ، لا يمكن أن تقوم بكل هذا إلا إذا شعرت بأمتن الصلات تربطها بهذا

الذى تؤثره على نفسها ، وتضحى من أجل رغبته أجلّ رغائبها . فما هى تلك الصلة التى قلبت النفوس العميقة فى الأثرة الى نفوس متغلغلة فى الإيثار ، وجعلتها تضحى عن طيب خاطر مصلحتها ومشتهياتها فى سبيل إنالة الغير بعض مايبتغيه ، بل تجد من اللذة فى ذلك أضعاف ما تجده لونالت ذلك لنفسها ؟ تلك هى صلة الأبوة والبنوة ، هي صلة التناسل ، هى صلة الأصلية والفرعية ، هى الصلة التى تجعل النفس تشعر بأن وجود تلك النفس الجديدة وجود لها هى ، وتشعر بأنها إذ فاتها طول البقاء بشخصها فما فاتها طول البقاء بهذا النبت الذى تتمثل فيه بجديد الوجود ، حتى يكاد يشبه الخلود .

غرس الله هذه العاطفة فى نفوس الآباء نحو أبنائهم ، فكانوا لهم نعم العون فى هذه الحياة ، وهم أشد مايكونون ضعفاً واحتياجا الى المعونة ، فهم ينشئونهم ويربونهم ويؤدبونهم ويعودونهم أعمال الحياة النافعة ، ويسهرون على راحتهم وحراستهم مما يضرهم من أخلاق ذميمة أومخلوقات شريرة ، فاذا مانجح الأب فى مهمته نحو ابنه ورأى عمله كلل بنجاح طارت نفسه فرحا ، وطابت بكل ما بذل ، وشعر بغبطة ومسرة تجعله يهتز فرحا وجذلا ويقول ما قال الأول :

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابة الأولاد

وقبلا كانت عنايته واهتمامه يدفعانه الى أن يقول :

وإنمـــا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض

وإنك لتجد الرجل يكره أن يكون غيره أعلى منـه ، ويحب أن يكون هو أعلى من كل من يعرف ما استطاع الى ذلك سبيلا — إلا ابنه ، فإن نفسه تطيب ويفرح بأن يرى ابنه قد أربى عليه فى العزة والمجد وسبل السعادة ، وكأنه يفسر ذلك بأن وجوده الثانى صار أعلى من وجوده الأول ، فهو كقولهم : جعل الله يومك خيرا من أمسك ، وغدك خيرا من يومك .

وإذا كان العرف درج على تسمية صفات النفس التى هى من قبيل الميل والنفرة عواطف ، فإن أولاها باسم العاطفة هى هـذه الصفة التى تعطف نفس الأبوين على أولادهما عطفا وحنوا لا يعدله عطف وحنو .

وإذا كانت العاطفة خاضعة فى قوتها وضعفها لقوة اليقين فى النفس بتحقق أسبابها وترتب نتائجها عليها ، فإن هـذه العاطفة أقواها ارتباطا بهـذا اليقين وأشـدها قبولا للتأثر بالشك والارتياب ؛ فتحقق الارتباط بين النفسين وأن هذا من ذاك ، واستكمال اليقين فيه أمر عويص وعزيز لدرجة بعيدة ، ولـكنه لا بد منه لتطيب النفس بإيثار غيرها عليها ، وبأن تفنى هى لتبقى تلك النفس الجديدة ، وتتعب فى سبيل راحتها ، وتشقى لتحصيل سعادتها ، وتستمرئ كل هـذا التعب والنصب ، بل تستعذب التعذيب فى سبيلها .

وجدان يجـده من نفسه كل من (ذاق حلواء البنين) ومهما بسطت العبارة فى شرحه وتوضيحه فالوجدان شئ والشرح شيء آخر ، ومن ذا الذى يستطيع أن يشرح لغيره طعم فاكهة لم يذقها حتى يغنيه شرحه عن ذوقها ويقوم مقام وجدانه ؟ هـذا فى الحسيات ، فما بالك بالمعنويات ؟ .

أجل : لابد أن تستيقن النفس بأن هـذه الصلة محققة لتطيب نفسا بكل تلك التضحيات العظمى ، وحتى لا يكون الجهد ضائعا فى غير محله ، ولا البناء على غير أساس صحيح . ومتى تم هذا اليقين كانت الأسرة فى أعظم مسرة ، وباتت قريرة العين فى عيشة راضية هانئة ، وقلوب مستريحة هادئة ، فترفرف عليها السعادة وتحوطها الغبطة من كل جانب ، ويعمر العالم عمرانا منتظما .

من أجل كل هذا منعت الشرائع كلها أن تكون الأبضاع والأرحام أمراً مشاعا تتبادلها ضروب الاختلاط التى لا تضبطها ضابطة ؛ من أجل هذا كله أجمعت الشرائع

على حرمة الزنى ، وحظرت اختلاط الجنسين إلا بسياج موثوق به يجعل المزرعة قاصرة على تلقى بذرة واحدة ، فيعلم أن هـذا الفرع من ذاك الأصل جزما ، فيرتبط أحدهما بالآخر أوثق ارتباط ، ويبادله أقدس الحقوق وأعظم الواجبات ؛ من أجل هذا شرع النكاح ، وشرعت الأحكام التابعة له .

لم يحصل فى الشرائع التى وصـل الينا علمها — ونظن أن جميع الشرائع كذلك — لم يحصل أن أباحت شريعة تعدد الرجال للمرأة الواحدة . هذا أمر لم يختلف فيه ، وإنما الذى تخالفت فيه الشرائع حسب مقتضيات الأحوال هو تعدد النساء للرجل الواحد ، وذلك أن هذا التعدد لا يخل بيقين الاتصال الذى شرحنا آنفا أنه أمر لابد منه فى قيام الوالدين بشـئون الولد ليكمل نظام العـمران ، فمن الشرائع ما أباحت التعدد بلا قيـد ولا حد ، ومنها ما منعته بتاتا ، ومنها ما توسطت فى الأمر فأباحت التعـدد الى حد مخصوص ، وشرطته بشروط وقيود لا بد من توافرها .

وقد ذكر العلماء فى بيان حكمة ذلك وجوها يقبلها العقل : فقالوا : أباحت الشريعة الموسـوية التعدد لا إلى حد ، لأن شعب بنى إسرائيل كانوا قد وقعوا تحت عسف الحكم الفرعونى ، ورسخ فى نفس فرعون موسى أن هلاكه وزوال ملكه سيكون على يد فتى من بنى إسرائيل ، فأخذ يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، فقل عدد الرجال عن عدد النساء قلة عظمى ، ولابد للمرأة ممن يعولها ، فأبيح التعدد لينهض الرجل الواحد بجملة نساء قدر استطاعته ، ولكى يكون التعدد معوانا على كثرة النسل بسرعة ، وكان الشعب بحاجة الى ذلك لما عاناه من إرهاق ، سـواء من الملك لاعتقاده السابق ، أو من الرعية لأنهم كانوا يعتبرون الاسرائيليين أجانب لا يصح أن يشاركوا أهل البلاد شركة المساواة ، فكانوا لذلك بحاجة الى الاعتزاز بقوميتهم وكثرتهم ، فأبيح لهم التعدد لذلك لا إلى حد محدود . وحظرت الشريعة المسيحية التعدد بتاتا ، لتستأصل من النفوس عادة

رسخت بمضى الزمن وقد انتهى ما يوجبها وهو الأحـوال التى شرحناها ، إذ كانت أعراضا وقتية لاحالة دائمية تستدعيها طبيعة العمران أو طبيعة التكوين فى الرجل والمرأة وواجباتهما فى الحياة ، فلما اقتلعت تلك العادة من نفوس الناس ومضى عليها الوقت الذى بمضيه تصبح نسيا منسيا ، جاءتنا الشريعـة الوسطى التى هى خير الأمور ، وهى التى اختارها الحـق جل جلاله للأمة التى قال فيها : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

جاءهذا التشريع متضمنا أعظم حكمة وأعدل حكم يناسب طبائع العمران ومقتضيات كل زمان ومكان : روعى فيه أن الرجل من شأنه أن يتعرض لأخطار الحياة ومشاق الأسفار ، وهو القائم بشئون الجهاد والقتال ، الأمر الذى مهما عمل على تفاديه فلا بد من الوقوع فيه ، ثم هو الذى يكلف مهام المعيشـة والقيام بأعباء الحيـاة ، بينما المرأة بأصل تـكوينها ينبغى أن تـكون وادعة هادئة ، ذات عمل محدود ، ليس فى نصب العمل الرجالى ولا مشقته ، فـكان الرجل للسببين الأولين عرضة لأن يكون عدده أقل من عدد النساء فى كثير من الأحيان ، وللسبب الثالث تكون تكاليف الحياة حاجزا له عن الاسـترسال فى المزيد إلا بقدر يطيقه ؛ ومن جهـة أخرى فالغرض من مشروعية النكاح هو تنمية عدد الأمة وكثرة النسل . وإن التناسل وما يتبعه يستدعى من المرأة زمنا مديدا فى الحمل والرضاع والقيام على الطفل بحالة يستحيل معها أن تؤدى عمل الحمل مكررا فى وقت واحد ، بينما الرجل من هذه الجهة لايزال مستعدا لتأدية عمله التناسلى فى حرث آخر ، فاقتضت الحـكمة الإلهية ألا يعطل فريق لفريق فى هذا المقصد العظيم . ولـكن لما كان للشهوات ونزعات النفوس تطوح وميل للاستقصاء قد يؤدى الى مفاسد فى هذه الرابطة المقدسة التى عليها مدار نظام المعيشة ، قيدت الشريعة الغراء

هذا الحكم بقيود تصفيها وتخلصها من وجوه الضرر التى قد تعرض عليها، فقيدت العدد بحيث يخلص المرأة من حكم قاس وهو أن تختزن المدة الطويلة فى وحشة الوحدة ويأس الانفراد ، فتتقلب على فراش التعاسة والنسيان والإهمال حتى تصير حياتها جحيما ، فأنقذت المرأة من هذا بجعل العدد أمراً متناولا لا يؤدى الى طول نوبة الغياب عنها، وأوجبت العدل فى القسم فى المبيت والمعاملة حتى لا يطفأ سراج السعادة المنزلية .

ولما كانت المعاملة التى تنتظرها المرأة من الرجل منها ما هو واقع تحت اختياره كالمبيت وحسن العشرة والإنفاق ، ومنها ما لا اختيار له فيه كالمحبة والاشتهاء ، وكان مناط التكليف هو الاختيار، أوجب الله العدل فى القسم الأول وعافى من القسم الثانى ، ولذلك ورد « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك » وعلى هذا جاء حكم الشريعة الاسلامية الغراء فى أمر التعدد وافيا بالحكمة المقصودة من النكاح وهو التناسل ، وقيام الجانب القوى وهو الرجل بشئون الجانب الضعيف المحتاج وهو المرأة ، وسليما من الأعراض المرضية التى تسوء معها العشرة وتقلب السعادة تعاسة وشقاء، فكانت من مظاهر رحمة الله بعباده .

يقول أناس : إن فى هذا ظلما للمرأة، وإجابة لكل رغائب الرجل، ومتابعة للغريزة الشهوية التى ينبغى العمل على تشذيبها . ونحن نقول بأى امرأة تريد أن تهتم ؟ أبجنس المرأة مطلقا أية امرأة كانت ، فذلك هو ما ينبغى أن يراعى فى التشريع العام والبحث العام ؟ فهل اذا أكرمنا اثنتين من النساء كل واحدة نصف إكرام نكون قد أجحفنا بحق المرأة المطلقة ؟ أو اذا خصصنا واحدة بالنعيم والتكريم وحرمنا الثانية من ذلك وخصصناها بالحرمان والإهمال يكون الإجحاف ؟ أم تريد أن تهتم بالمرأة التى سبق التزوج منها، فقد كانت ممتعة بكل كلاءة ورعاية الرجل فأصبحت تزاحمها امرأة أخرى؟ ونقول نعم هذا صحيح ، ولكن هل إشراك امرأة كانت عرضة للإهمال فى جزء من نعيم

غرقت فيه واحدة سابقة واستأثرت به يكون ماحيا للعدل وموجبا للإجحاف ؟ لانظن مفكرا منصفا مسلما نفسه للحجة والدليل يصلان به الى الغاية الصحيحة يتأخر عن الحكم معنا بأن الحق هو أن نعنى بجنس المرأة من حيث هى امرأة لا بامرأة مخصوصة. وإن مشاركة امرأة لامرأة فى حظها أقرب الى وفاء حق المرأة العامة من غمس واحدة فى النعيم كله وحرمان الأخرى من كل حظ فلا أحد يقول : إن السابقة امرأة واللاحقة امرأة. نعم لو قال قائل : إننا بالتعدد أرهقنا الرجل بالتكاليف لكان له وجه، فكلما حصل تعدد الزوجات لرجل ازدادت تكاليف الحياة وثقلت أعباؤها ، ولكن هذا لا يسمى ظلما ، فما ألزمه أحد بالتعدد ولا بأصل الزواج ، فمن أنس من نفسه المقدرة على القيام بحقوق زوجات متعددات فله ذلك ، ومن لم يقدر فلا عليه فى ألا يعدد ، بل ولا فى ألا يتزوج ؛ ثم له من كمال الاستمتاع وزيادة النسل عوض مما لزمه من تلك الكلف.

لقد عنيت الشريعة المطهرة بتفظيع أمر الزنى والمبالغة فى حظره وتحريمه والنهى عنه بأسلوب لم نره فى أشد المنكرات غيره ، فبينما نرى النهى عن المنكرات منصبا على ذواتها كقوله تعالى : (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ) (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ) بل كقوله تعالى : (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) اذا بنا نرى النهى فى الزنى منصبا على قربانه ، قال جل شأنه : (وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى) ثم أردفه ببيان الحكمة التى تكفل تنفيذ النهى فقال : (إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) والفاحشة الأمر المعيب الذى يشتد قبحه فتبرأ النفوس الطاهرة أن توصم به ، وتنظر الى من وصم به نظر الازدراء والاحتقار ، وكلمة (ساء سبيلا) جلية فى تقبيح طريقه وكل ما أدى اليه. فهل ترى بعد

هـذا غاية فى التقبيح والتنفير ؟ ! ثم رتب على الوقوع فيه أشد ما يرتب من العقوبة فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشـد وأبقى : فجعل حد الزانى المحصن القتل مع المهانة والاحتقار والنبذ كما ينبذ أدنس الأشياء وأنجسها ، جعله قتلا بالرجم بالحجارة كما ترمى الحشرات المؤذية من العقارب والثعابين والهـوام التى تعاف النفس ملامستها ، فكأنه قتل يتحرز فيه القاتل أن ينجس سـيفه بدم ذلك القتيل النجس ، أو أن يقترب منه ، ذلك الى الافتضاح والتشهير الذى لايقدر قدره . هذا فى المحصن .

ولقـد راعت الشريعة شيئا من العـذر لمن لم يحصن ، فأبقت عليه عساه يصلح حاله ، وكأن عذره أن هـذا شىء لم يذقه على وجه مشروع ، فهو عرضة لأن يلعب به الشـيطان ويخيل له الوهم أمرا فوق ما يحسه الإنسان ، فكان الحكم عقوبة تجمع الى الإيلام والإيذاء معنى الحقارة والإلحاق بالبهائم التى إنما تؤدب بالضرب الوجيـع ، فكأنه التحق بمن لاعقل له ينتفع به ، إذ لم يمتنع بكل ذلك الزجر والمنع ، وضم الى ذلك فضيحته والتشهير به كما فى قوله تعالى : (وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

ومن مظاهر النهى عن قربانه فوق النهى عن ذاته أن حرم فى سبيل تحريمه أشياء عديدة : فحرمت خلوة الرجل بالمرأة الأجنبية ، وحرمت الملامسة والقبلة ، وحرم النظر المثير للشهوة بل غير المثير اذا لم يكن له حاجة تدعو اليه ، وجعل جميع بدن المرأة عورة على الرجل لا يحل النظر اليها — إلا ما تدعو اليـه الحاجة من وجه وكفين ينظر اليهما لغرض صحيح ، كخطبة حقة ، أو مخاطبة فى معاملة ، أو تحمل شهادة ، أو تقضى به ضرورة علاج ، كنظر الطبيب لجسم المريضة فى أى عضو دعت اليه مصلحة العلاج .

هذا شأن الزنى فى نظر الشارع الحكيم ، وما أحقه بأن ينظر اليه هذا النظر من الشارع الحكيم : فدواعيه من أقوى الدواعى التى تغلب المرء على أمره ، حتى ورد « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ومن

المأثور « ماخلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » ونتائجه من أسوأ النتائج وأخطرها وأشدها فى الظلم وأعرقها ، ففيه ظلم للجنين إذ يخرج ضائعا منبوذا لا كفيل له ولا عائل ، وهو أحوج ما يكون للكفيل والعائل ، ثم يعيش اذا عاش حاملا للعار والاحتقار بلا جناية اقترفها ولا ذنب ارتكبه ، فيتبرأ منه كل أحد حتى من يعلم أنه قذفه فى بطن أمه ، فما أحقه بترديد قول الشاعر :

غيرى جنى وأنا المعذب فيكمو فكأننى سبابة المتندم

وظلم للمزنى بها إذ يحملها ما لا قبل لها باحتماله ، من عار ينبذها ، وخزى يطردها عن رحمة الرحماء بها من أهلها وذوى قرباها أو زوجها وأبنائها وهى لا قوة لها على الحياة إلا مستظلة بتلك الرحمات ، ولكنها شريكة الرجل فى تلك المظالم ، فهى أصل البلاء والركن الأعظم فى الجريمة ؛ وظلم لذوى قرباها ، من الخزى والعار والمذلة والاحتقار ؛ ثم ظلم أعظم لزوجها إن كانت ذات بعل ، إذ يلحق به على فراشه من لا يربطه به سبب ولا نسب ، فيلزمه نفقته وإعالته ويرثه بلا حق ؛ وظلم لأبناء ذلك البعل ، بمشاركتهم فيما جعل الله لهم من رزق ، أو إلزامهم به وهو لا يلزمهم فى قليل ولا كثير . هذا قليل من كثير من نتائجه السيئة وآثاره الخبيثة ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا .

وإذ كان على هذا الوجه الذى شرحناه وأكثر مما شرحناه ، وكان تعرض النفوس للوقوع فيه أمراً قريبا شديدا لا يكاد من يتعرض له يخلص منه إلا بالجهد والمجاهدة مع التوفيق الإلهى ، اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يشرع له من أنواع العلاج ما يكفى لسد بابه الخبيث ، ويكفل الإنقاذ من شره الوبيل . وإن فى إباحة التعدد لمنجاة من خطره ، إذ فيه بالنسبة للرجل التمكين مما تشتد اليه رغبته ويتمكن منه التوق اليه ، وفى ذلك قطع للأعذار ، وفيه بالنسبة الى المرأة تزويج أكبر عدد ممكن تسعه قدرة الرجال ، ففيه تضييق لباب العزوبة بالقدر المستطاع للناس ، وفى ذلك من سد باب ذلك الشر

العظيم ما يهون بعض المضار التى تصيب بعض الأشخاص الذين لم يوفقوا لمراعاة الشرائط الشرعية تمام التوفيق ، فأخلوا بالعدل الذى كلفوه ؛ ولا شك أن الضرر القليل يغتفر لتحصيل الخير الكثير ، وهل يعاب نزول الغيث الذى يحيا به الزرع والضرع من أجل أنه هدم كوخا لعجوز فقيرة ، أو أنه عرض للبرد مسافرا وابن سبيل ؟! .

أنشدك الله إلا ما أعدت النظر فيما قلنا بإنصاف ، متأملا فيه مع تخلية نفسك من حكم يحكم عليك ويقيدك عن التفكير ، ويجذبك الى ناحية معينة : إنى واثق بأنك اذا استجمعت فكرك وأخلصت النية فى تأملك تجلى لك من حسن هذا التشريع ما به تقول : ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وتكرر قوله جل شأنه فى خطاب أشرف المرسلين : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) أضف الى هذا ما يعترض بعض النساء من عقم أو مرض يخل بالاستمتاع بها أو يقلل الرغبة فيها .

وإن من أكبر مظاهر السخف العقلى ما يتشدق به بعض ممن زعموا لأنفسهم حق استنباط الأحكام من القرآن الكريم والأدلة الشرعية من قولهم : « ناط القرآن الكريم حل التعدد بأمن العدل فقال جل من قائل : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) ونفى استطاعة العدل بين النساء ولو مع الحرص فى قوله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) فينتج بمجموع الآيتين أن التعدد غير جائز فى الشريعة الاسلامية مطلقا » : سبحانك هذا بهتان عظيم ، وجرأة على الله فى تبديل أحكامه ، وما أحقهم بأن يقال لهم : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) : .

وإن أصل الداء فى هذا أن يتغلب الهوى على النفوس فيعقد قلوبها على حكم بعينه ، وترتكب التعاسيف لتصل اليه بأية طريقة كانت ، لا أنها تسلم نفسها للدليل راضية بما ينتجه كائنا ما كان كما هو شأن المستدل الحقيقى .

والحاصل أن من الناس من يستدل ثم يعتقد ، ومنهم من يعتقد ثم يستدل .
فالأول يطلق العنان للدليل يمشى حرا كما يقتضيه اقتضاء صحيحا . والثانى يحور
فى الدليل ويبدل ويعدل حتى يجذبه الى هواه الذى رسخ فى قلبه ، فذلك ممن اتخذ إلهه
هواه ومعبوده مشتهاه .

أما أن الشرع أوجب على الأزواج العدل بين الزوجات المتعددات فصحيح ،
ولكنه العدل فيما يقع تحت الاختيار ، وهو القسم فى المبيت ، والتسوية فى حسن المعاشرة .
وأما العدل فيما لا يقع تحت الاختيار والإرادة من الحب والبغض وما يتبعه من الإقبال
على الاستمتاع ونحوه ، فليس بمراد من العدل الذى أوجبه الشارع ، وإنما هو المراد بالعدل
الذى نفى عنهم استطاعته والقدرة عليه ، فكأن الآية الثانية للتمهيد لشرح العدل المطلوب
منهم بتخليصه مما يشتبه به مما لا يقدرون عليه ، ليتبين لهم جليا ما طلب منهم وما أعفوا
منه ، حتى يكون الحلال بينا والحرام بينا ، وحتى لا يتلكأ أحد يخلط أحدهما بالآخر
ثم يقول : لم أستطع أن أعدل فوقعت فى الميل قهراً عنى فلى العذر لا يكلف الله نفسا إلا
وسعها ، فجاءت الآية لتخليص المتشابهين حتى لا يؤثر حكم أحدهما فى الآخر ، فكأنه
تعالى يقول لنا : قد علمنا أن هناك عدلا خارجا عن طاقتكم واستطاعتكم فلم نكلفكموه
وهو العدل فى ميل النفوس وركونها الى إحدى الجهتين ، فلن تستطيعوا أن تعدلوا بين
النساء ولو حرصتم ، وإنما كلفناكم ما تقدرون عليه وهو عدم الاسترسال فى متابعة
هوى نفوسكم ، فتتخذوا الميل القلبى ذريعة للميل فى المعاملة ، فتكونوا قد ملتم كل الميل ،
هذا هو ما نهاكم عنه ، فلا تميلوا كل الميل . ويقرب من هذا قول الناس فى مخاطباتهم :
الميسور لا يسقط بالمعسور ، وقولهم : ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ولو أن الأمر على ما يقول أولئك المتبجحون لضاع معنى الآيتين جميعا ، أما الآية
الأولى فلأنها مسوقة لزجرهم عن عادة كانت متفشية فيهم ، كان الرجل يعهد اليه

بتربية اليتيمة ذات المال ويكون وصيا عليها ولها مال ، فتطمع نفسه فى مالها فيتزوج منها توصلا لإحراز مالها وليس لها فى نفسه منزلة ولا له بها حاجة ، فنهوا عن ذلك نهيا مصحوبا بداعية الإقلاع ، وهو أن باب التزوج أمامكم واسع فسيح ، فلكم أن تتزوجوا من اثنتين أو ثلاث أو أربع ممن تستطيبونها وتميل اليها نفسكم . وهذا كما تقول لصاحبك : مالك ولهذا الذى قد يجر عليك ما لا تحب وقد أفسح لك المجال فى سواه ؟ ! فهو من التلطف فى معالجة حال قد استقرت فى نفوسهم ، فتنتزع منها بألطف أسلوب . فلو أن التعدد مراد حظره فى الآية الثانية كيف تؤدى هذه الآية الغرض الذى سيقت له ؟ وقوله جل شأنه بعد ذلك : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) علاج لما قد يطرأ على هذه التوسعة من محظور آخر ، وذلك فى الرجل يعلم من نفسه أنها لم تروض على إجراء العدل فى نصابه ، ويعهد فى نفسه أن ميوله تؤثر فى معاملاته وأحكامه ، فجاءت الآية لتحذرهم من أن يكون نقلهم من ممقوت وهو تزوج اليتيمات طمعا فى مالهن موقعا لهم فى مقت آخر وهو الجور بين الزوجات ، فمن أنس من نفسه ذلك فعليه أن يتوقاه ولا يوقع نفسه فى محذور جديد وهو بسبيل النجاة من المحذور الأول . وأما ضياع معنى الآية الثانية فلأنها لو كانت لمنع التعدد فما معنى النهى عن أن يميلوا كل الميل ؛ وهل هناك تعدد متصور بعد ذلك الحظر المطلق حتى يكون محل للميل كل الميل أو بعض الميل فينهى عنه ؟ ! وكفى بالعمل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلا وشاهدا على تعين ما ذكرنا فى تفسير الآيتين .

هذا نموذج من تدخل أناس فى تفسير كلام الله واستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بدون أن يعدوا لها عدتها ، فيسيئون الى أنفسهم ، والى العامة من قومهم ، والى دينهم وملتهم ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فاللهم اهدنا صراطك المستقيم .

ومعلوم أن أصل هذه البلية وأمثالها راجع الى شىء واحد ملك على الناس عقولهم وطرق تفكيرهم ، بل وجدانهم وإحساسهم ، ألا وهو ولوعهم بتقليد الأمم الغربية

بهرتهم بحضارتها وقوة استنباطها للشئون الصناعية وعظم ملكتها فى استخدام القوى الكونية فى مصلحة الحضارة البشرية ، فأخذوا من نجاح تلك الأمم فى العلوم المادية نجاحها فى كل شىء ، من علوم دينية ، أو مناحى خلقية ، أو عادات قومية ، أو مستحسنات ومستهجنات ذوقية ، فأصبحوا يدينون بما يدينون ، فإن لم يطاوعهم صريح دينهم أخذوا يتعسفون فى جذب ما يدينون به الى تلك الناحية التى بهرتهم ، فإن أعيتهم الحيل قالوا إن الدين قاصر على محض علاقة المرء بربه من طقوس العبادات أو راسخ الاعتقادات ؛ وما سواه مما يمس علاقات الإنسان بالإنسان فتشريع يجب أن يتطور بتطور الزمان والمكان، ومعنى هذا الانسلاخ عن حكم الدين والخضوع له وتسخيره للشهوات تلعب به كيفما سنح لها الهوى ، فانقلبت عليهم الآية ، وأصبح الذى يجب أن يكون حاكما مهيمنا مصلحا مقوما أصبح فى نظرهم محكوما خاضعا لأهوائهم ، فيقولون لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام .

وإن الولوع بتقليد الغالب أمر فطرى بل مستحسن اذا كان تقليده فيما به غلب ونجح ، بشرط ألا يترك محاسن عاداته وواجب دينه ومقومات أخلاقه ومميزاته القومية ، أما اذا انسلخ عن هذا كله وخلع ما خصه الله به من ميزة وذاب فى أمة أخرى ، فهذا هو الفناء القومى ، فما كان انقراض الأقوام بالفناء وانقطاع النسل ، وإنما هو بانقراض أخلاق الأمة واندماجها فى غيرها فتفنى أمة وتتضخم أمة .

ولقد صادف دعاة السوء أولئك فى هذه المسألة بعينها (المسألة النسائية) صادفت هوى من نفوس الكثير منهم ، فأخذوا يحتذون سنن الأمم الغربية ذراعا بذراع وشبرا بشبر ، فهجموا على المرأة يزينون لها طرق الوقوع فريسة فى أيديهم ينشبون فيها براثن شرورهم وفسادهم، ليصلوا الى أغراضهم الدنيئة ، فأقاموا عليها حربا عوانا وأعلنوا أنه حرب لها . قالوا : كيف تستترين وتتحجبين وفى هذا قيد لحريتك واستعباد لك

وإطفاء لنورك ؟ هيا ابرزى الينا نجتلى محاسنك ونستمتع بالخلطة بك وتستمتعين بالخلطة بنا ، ومعنى ذلك اتركى صونك واعتزازك بخدرك وتمتعك بأن يقوم الرجل الذى يؤويك بما يجب لك من أب أو أخ أو بعل ، وابرزى لنا لنكون كتفا لكتف ، ووضعوا على هذه الدعوة السيئة غشاء براقا يبهر الأعين ويعشى الأنظار ، حتى استطاعوا أن يصوروا حسنا ما ليس بالحسن ، وهذه هى المحنة وقضاؤها ، ولقد تم لهم ذلك على كثير من أفراد الأمة ، فاستطاعوا أن ينزعوا الحجاب الشرعى عن كثير من المخدرات المصونات ، وحسنوا لهن السفور الذى وافق هوى من نفوس الكثيرات منهن .

وها نحن أولاء نعانى من السفور وأنصار السفور ما تنفر منه الشريعة كل النفور ، ثم حولوا الحرب الى ميدان آخر مستعينين بأهواء النساء وبانفعال نفوس بعضهن بعامل الغيرة الشديد التأثير ، فأخذوا يقبحون أمر تعدد الزوجات انتصارا للمرأة ؛ وهل التعدد يجىء إلا من إشراك امرأة فى بعض ما تستأثر به امرأة أخرى ؟ وهل منعه إلا حرمان بات لبعضهن وإغراق فى النعيم لبعض آخر ؟ فأى الحالتين أحق باسم الرحمة والشفقة ؟ وهل اذا قلت مئونة جيش حتى ضاقت بأن ينعم الجميع بكل ما يريد يكون الأحق باسم الرحمة والشفقة أن تغرق بعض أفراد الجيش فى النعيم وتحرم بعضه الآخر تماما ، أو أن توزع ما لديك توزيعا متساويا فيأخذ كل بعض ما يريد ويكف عن بعض ؟ إن الأمر جلى ، ولكن التقليد هو الذى أعمى البصائر والأبصار ، وميل النفوس الى مشتهياتها يصور النهار بصورة الليل والليل بصورة النهار .

أليس فى إبقاء شطر كبير من النساء أرامل مع إباحة السفور والخلطة إمتاع للنفوس المنحطة يدعوها الى استعمال سلاطة اللسان وسلطة السفسطة ذريعة لنيل تلك المبتغيات الدنيئة ضاربة بالفضيلة ومقومات الحياة الصحيحة عرض الحائط ؟ ثم ماذا كانت النتيجة ؟ كانت ما ينفطر له قلب كل غيور على دينه وعرضه ، إذ يرى الاحتشام

انقلب ابتذالا ، والصيانة أصبحت استهتارا ، والمخدرات ؛ لأن الطرقات متسكعات معروضات مبتذلات تعافهن النفوس الطاهرة بل كل النفوس ، وتنفر منهن الطباع السليمة بل كل الطباع ، وتبع ذلك إعراض الرجال وخصوصا الشبان عن الزواج بعد أن كان أشهى إليهم من كل شئ ، فكسدت سوقهن وأصبحن يندبن سوء حظهن ولا شفيع لهن ولا نصير ، وتخلى عن رحمتهن والعطف عليهن كل أحد حتى من كانوا يدعون أنهم نصراؤهن ، فأصبح مثلهم ومثلهن كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . هذا هو إصلاحهم المزعوم ، ومبلغ رحمتهم الموهومة .

زعموا أنهم حريصون على مصلحتهن وما حرصهم فى الحقيقة إلا على نيل أغراضهم منهن ، فوجدوا أقرب طريق لذلك خداعهن والتغرير بهن ، وما أسرع انخداع الغوانى (فالغوانى قلوبهن هواء) ؛ وهكذا كانت نتيجة خروجهم على أحكام الدين الحنيف وإبائهم قبول الرحمة المهداة ، فأصبحوا يشهدون سوء حالهم ولا يعتبرون ، ويتجرعون غصصه وهم فى غيهم يعمهون .

معذرة الى القارئ الكريم : فقد تطوح بنا القلم الى حديث السفور ونحن بصدد الكلام فى تعدد الزوجات ، ولكن الأمرين : السفور ومنع التعدد — قد استعملا سلاحا لنصرة المرأة وما هما إلا سلاح للانتصار عليها وإيذائها وامتهانها وتجريدها مما منحها الشارع الكريم من عز وكرامة . وإنك لترى من ابتلى فى أسرته بالعدد العديد من النساء العوانس أكبر أمنية له أن يجد لهن أو لإحداهن بعلا أو نصف بعل أو ربع بعل بمشاركتها لزوجة أخرى أو لزوجات ، فتى بدا له ذلك بادر بانتهاز فرصته مفضلا له على مكثهن عنده هكذا معطلات ، وإلا فماذا يدفع المرأة وولى المرأة الى قبول التزوج من متزوج بأخرى سوى قولهم : « شىء خير من لا شىء » . ولقد يزيد فى آلام ذلك

المبتلى فى أسرته بوفرة عدد النساء ما هجم على آداب المجتمع من شيوع السفور، وتغلغل عادته المستقبحة فى كل الطبقات ؛ فإن حافظ المرء على محاسن عاداته فى بيته هجم عليه من جيرانه ومعارفه وأقاربه، حتى صارت حياطة المرأة وردها الى خدر يصونها أشد من القبض على الجمر، وترتب على ذلك أسوأ الآثار وهو الإعراض عن الزواج والخوف منه ومقت الرجل للنساء.

مسكينة أيتها المرأة : أحسنت الظن بهم بسذاجتك واستسلمت لتمويهاتهم بسلامة نيتك، فخدعوك بوسوستهم، وزينوا لك السوء بترهاتهم، ثم انقلبوا يشكون منك وهم أصل البلية ومنشأ العلة. فليتك امتثلت أمر ربك فيما وصى به نبيه الكريم فى شأنك : فقد قال عز من قائل : ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ رزقنا الله التوبة والفلاح، ووفقنا الى طريق النجاح إنه سميع مجيب ؟

« للكلام بقية »

إبراهيم الجبالى

مدرس بقسم التخصص بالازهر

الفتاوى والأحكام

هل السموات هى الكواكب ؟

س : ورد إدارة المجلة هذا السؤال من حضرة صاحب الإمضاء، وعبارته بعد الديباجة : وبعد فنرجو نشر ما يأتى مع جواب فضيلتكم عليه فى مجلة نور الاسلام الغراء ليكون النفع عاما والفائدة شاملة — يقول بعض الناس : إن السموات السبع هى الكواكب السبعة السيارة ، ونظن ذلك بعيداً لما يأتى :

معلوم أن هذه الكواكب بينها فروج ، والقرآن الكريم يقول : (وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ) القرآن الكريم يقول : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) أى بالكواكب ، وما به الزينة غير ما له الزينة قطعا ، وإلا كانا شيئا واحداً . وقال تعالى : (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا) ومن المعلوم أن المجعول غير المجعول فيه .

نرجو من فضيلتكم تحقيق المقام بأوسع ما يمكن ، والإجابة على ما تقدم بما يعارض ذلك الرأى ، ونسأل فضيلتكم : هل تعتقدون ما يعتقد هؤلاء ؟

وما مقصودنا من ذلك كله إلا معرفة ما يجب أن ندين الله به معرفة تامة لا تشوبها شائبة ، وفقكم الله وحفظكم ؟

عبد السلام أحمد

الجواب

مقدمة

ينبغى أن يعلم قبل كل شىء أن هؤلاء الناس كثيرا ما يسارعون الى الأحكام الجازمة من غير دليل ولا برهان ، ولهـذا تراهم ينقضون اليوم ما أبرموه بالأمس ، حتى قال بعض علمائهم : إن هـذه العلوم التى نتبجح بها الآن قد يظهر بطلانها بعد مائة سنة ، فيرموننا بالتخريف كما رمينا من قبلنا بالتخريف ، وقد صرح رئيس وزراء انجلترا سابقا المسيو بلفور حين رأس مجمع ترقى العلوم البريطانية بجامعة كمبرج فى أغسطس سنة ١٩٠٤ بما يفيد قصور علمهم وكثرة ما يرد عليه من الخطأ والاشتباه . فلا يحسن بالعاقل أن يغتر بكل ما يسمعه عنهم (وإن روّجوا وبهرجوا وقعقعوا وجمجموا) فإن غالب كلامهم خصوصا فى العلويات غير مبرهن ، وللظنون والتخيلات فيه مجال كبير ، ومنهم من يأتى على نظرياته بحجج على سبيل الجدل فيظن أنها براهين لجهله بطريق البرهان ومقدماته .

ومما يزيد الأمر خطورة ويملأ القلوب أسفا أن كثيرا من أبنائنا أصبحوا يقلدون الغربيين فى كل ما ينقل عنهم من غير بحث ولا نظر ولا تحليل ولا تمحيص ، ويكفيهم برهانا على صحته أنهم قالوه ، مع أنه عند قائليه ربما كان فى محل الظن والتخمين ، وربما كان فرضا وجدوه أقرب من غيره من الفروض فقالوا به حتى يتبين لهم خلافه فيرجعـون عنه ، ولـكن المفتونين بهم عندنا جعلوهم فى محل التقديس ، فلا يبحثون فيما جاء عنهم كائنا ما كان ، وليس هذا شأن المنطق ولا الفلسفة ولا الدين ، فهى على رأى بعض علمائنا كلمات قالها قائل ، فنقلها ناقل ، فقبلها قابل ، فاغتر بها جاهل لا قدرة له على النظر .

وبعد ، فالسموات جاءت بها الديانات كلها ، وعندنا من الأدلة على وجودها ما لا يحصى : فمن ذلك ما ذكره السائل ، ونزيد على ما ذكره قوله تعالى : (إِذَا ٱلسَّمَآءُ

انفطرت وإذا الكواكب انتثرت) فجعل الكواكب غير السماء ، ويقول : (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت) ثم يقول بعد ذلك : (وإذا السماء كشطت) الى غير ذلك من الأدلة الكثيرة . ومن يقرأ مثل قوله تعالى : (فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح) وقوله تعالى : (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وقوله سبحانه : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب) (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر) لم يشك فى أن السموات غير الشمس والقمر والكواكب . وفى السنة من ذلك شيء كثير أيضا لا داعى للإطالة به ؛ وليعلم قبل كل شيء أننا نثبت السماء كما أثبتها القرآن والتوراة والانجيل والزبور ، ولكن لا نتعرض لبيان جواهرها وتحليل عناصرها وشرح ما يكتنفها . فإن النصوص عندنا لم تتعرض لذلك ، وأما ما يذكره بعض (الأخباريين) من أن السماء الأولى من فضة والثانية من ذهب الى آخره ، فهى أخبار اسرائيلية لا يعول عليها ولا يلتفت اليها ، ولا غرو فالديانات لم تجيء لشرح الأكوان شرحا طبيعيا ، ولم تتعرض لبيان ما فيها من الجواهر والأعراض والعناصر والظواهر ، وإنما تتعرض لها من حيث ما فيها من الدلائل على قدرة الله وعظمته ، وما تشتمل عليه من إتقان تدبيره وجميل صنعه ، وما ترشد اليه من آثار رحمته وعظيم نعمته ومزيد حكمته ، أما الأبحاث الطبيعية فقد تركتها للعقول ولم تمنع منها ، بل ندبت اليها وحثت عليها .

ثم لتعلم أن المقرر عندنا أنه اذا عارض العقل النقل ، أوّلنا النقل ، لأن الطعن فى العقل طعن فى النقل كما هو مبين فى محله (والتأويل عندنا أوسع من السموات) فلننظر بعد هذا فيما عند هؤلاء المتفيهقين الذين ينفون السموات نفيا باتا تقديسا لشيء سمعوه عن أوربا ولم يتريثوا قليلا تقديسا للقرآن والسنة ، ولو ثبت ذلك ببرهان

صحيح لكننا أول المؤولين لما جاء فى الشريعة من ذلك ، ولغة العرب أوسع اللغات تصرفا فى باب المجاز والكناية وأكثرها ألفاظا مشتركة ، حتى إن اللفظ فيها قد يوضع لعشرات المعانى كما ذكروه فى العين والخال ، ولكننا لا نطرق باب التأويل أو نلجأ الى القول بالمجاز أو الكناية أو نبحث فى معاجم اللغة عن وضع المشتركات إلا اذا اضطررنا لذلك ، وقد نظرنا فلم نجد عند القوم على نفى السموات دليلا ولا شبه دليل ، فإنه ليس عندهم أكثر من أنهم لم يروها بأنظارهم ولا منظارهم أو بقية آلاتهم ، وليس فى ذلك متمسك لمن يعرف المنطق الصحيح ، فإننا لا نعرف العناصر التى خلقت منها السموات ، وما يذكر فى ذلك فهو كذب لا أصل له كما قلنا ، فيجوز أن تكون السموات شفافة ، بل هذا هو الذى يقرره الأقدمون فيقولون : إننا نرى كواكب الفلك الثامن (وهو فلك الثوابت عندهم) فيصلنا ضوء تلك الكواكب لكون السموات شفافة ، فاذاً يصح أن نقول : إنه يرى ما وراءها ولا ترى هى ، شأن كل شفاف مع غيره ، ويجوز أن تكون بعيدة عنا بعدا يمنع من رؤيتها ، مع ملاحظة أن السماء تطلق بإطلاقات كثيرة على معان عديدة : فتطلق على الأفلاك ، وتطلق على السحاب ، كما قال تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ) على رأى كثير من المفسرين ، وتطلق على كل ما علاك كما هو معروف .

وقد قال كثير من العلماء : إن الكواكب ليست مغروزة فى السماء ولا مماسة لها ، وإنما هى بين السماء والأرض ، فتكون السماء من البعد بمنزلة ما لا يرونه من النجوم ، وقد قال الامام أبو بكر بن العربى من أئمة المالكية : إن السماء التى هى إحدى الأفلاك غير مرئية لنا . (وهى مشتركة كما قلنا) وهؤلاء النافون لا يستطيعون أن يقولوا إنهم رأوا كل ما فى العالم العلوى ، بل هم معترفون بالقصور عن ذلك تمام الاعتراف ، وقد بين عظمة العالم السماوى اللانهائى اللورد أفيرى الانجليزى أتم البيان

فى كتابه محاسن الطبيعة فانظره إن شئت ، ويجوز أن يكون لديهم اشتباه كثير فى ذلك العالم الذى لا يعلمه إلا الله ، وكم اختلطت عليهم الأمور والتبست لديهم الحقائق واشتبهت عليهم الأحكام فى العالم الأرضى فضلا عن العالم السماوى ، وكم بين المتقدمين والمتأخرين من علماء الهيئة من خلاف ، وكم للفريقين من خبط وخلط !

وبعد هذا كله فمن يستطيع أن يقول إن عدم رؤية الأشياء دليل على عدمها فى الواقع ؟ ! أما كانوا ينكرون المكروبات لعدم رؤيتهم إياها ! فهل كان ذلك دليلا على عدمها فى نفس الأمر ! والمؤمنون من الأمم كلها وأرباب الديانات جمعاء يثبتون العرش ولم يروه استنادا لما جاءت به الأنبياء وقررته الشرائع التى تقول لنا : إنكم ما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وتقول : (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ) وتقول فى الانسان : (إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) وتنعى على قوم سوء حالهم فتقول : (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) وتقول فى حق المتظننين الذين يسارعون لتصديق ما يلقيه الخيال وتمليه الأهواء والجهالات : (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) .

ومن العجيب أن هؤلاء ينفون السموات التى هى الأفلاك ، والأقدمون من الفلاسفة يثبتون الأفلاك ويقولون إنها أمتن من كل شىء ، حتى قالوا إنه يستحيل عليها الخرق والالتئام . فانظر الى تنافى الرأيين وتباعد ما بين المذهبين لتعلم أن طوائف البشر قد يصلون من الخبط والخلط الى حد أنهما يكونان على طرفى نقيض ، وكل منهما يظن أنه الفيلسوف المحقق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فرحم الله امرأ عرف قدره فلم يتبجح تبجح الجهال وأرباب الخيال . ولو شئنا لتوسعنا أكثر من هذا ، ولعل فيه مقنعا وكفاية ، ولا نزال نكرر أنه لا مانع عندنا من التأويل واتباع

الدليل ، ولكن القوم لم يقيموا على ما يزعمون برهانا ولا شبه برهان ، ولا يمكننا أن نعدل عن تلك الظواهر لأجل قول يقال أو مجرد وهم أو خيال ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

الطُّرف والمُلح

خطب يوسف بنُ عمر فقال : اتقوا الله عباد الله ، فكم من مؤمِّلٍ أملاً لا يَبْلُغُه ، وجامعٍ مالاً لايأ كلُه ، ومانعٍ ما سوف يتركُه ، ولعله من باطلٍ جَمَعَه ، ومن حقٍّ مَنَعَه . أصابه حراما ، وورَّثه عدُوّا ، واحتَمَلَ إصْرَه ، وباء بوِزْره ، وورد على ربه آسفاً لاهفاً (خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ ذَٰلِكَ هوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ) .

*
* *

قال عبد الملك بن عُمَيْر : قدِم علينا الأحنفُ الكُوفةَ مع مُصْعَبِ بنِ الزُّبَيْرِ ، فما رأيت خَصلةً تُذَمُّ إلا وقد رأيتُها فى الأحنف : كان صَعْلَ [1] الرأس ، متراكب الأسنان ، أشْدَقَ [2] مائلَ الذقَنِ ، ناتِئَ الوجهِ ، غائِرَ العين ، خفيفَ العارض ، أَحْنَفَ [3] الرِّجْلِ ، ولكنه اذا تكلم جلَّا عن نفسه .

(١) صغير الرأس . (٢) مائل الخد . (٣) الاحنف هو من تقبل إحدى إبهامى رجليه على الابهام الأخرى . وهو أيضا من يمشى على ظهر قدميه من شق الخنصر . ثم يلاحظ أن الاحنف هذا تابعى كبير جليل رضى الله عنه .

العرش

س : قرأنا فى العدد الثانى من المجلد الثانى لسنة ١٣٥٠ هـ فى المقالة الثانية المبتدئة من صفحة ٩٧ والمنتهية الى صفحة ١٠٣ فى الكلام عن (بيده الملك) ما يفيد أن العرش أى عرش الرحمن كناية عن نفس الملك ، وصرح بذلك القفال فى العبارة التى نقلها الكاتب عنه ولم يتعرض للتعليق عليها بشىء ، ومعنى ذلك أن الذى يرتضيه الكاتب أيضا أن العرش كناية عن نفس الملك الخ ؛ وقد يتسرب للذهن بادئ ذى بدء أن ليس هناك عرش حقيقة للرحمن ، وذلك ما لا نعتقده بالنسبة للكاتب بعد أن صرح القرآن فقال : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) وما جاء فى السنة من حديث الشفاعة على ما فيه فيما رواه ابن عباس من جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرش كما ذكر ذلك بعض المفسرين عند الكلام عن الآية (عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) .

وأيضا صرح الغزالى بالصحيفة ٧٩ بالفصل الأول فى ترجمة عقيدة أهل السنة فى كلمتى الشهادة بما يفيد أن العرش حقيقة وليس كناية فقال : « وأنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش ، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون فى قبضته » .

فهل لنا أن نرجو إدارة المجلة أن تتكرم فتأتى على هذه العقيدة بالشرح الوافى حتى لا يبقى هناك مجال لشك الشاكين ، فإن الذى عهدناه فى طريقة المجلة الصراحة التامة وهذا ما يجب عليها ، فهى للمسلمين خاصتهم وعامتهم ؛ ونسأل الله التوفيق والهداية ؟

حسين المسلمى
واعظ الاسماعيلية

الجواب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

العرش فى اللغة يكون مصدرا كالتعريش ، ومعناه البناء ، أى وضع شىء فوق شىء على وجه الثبات والاستمرار ؛ ويكون غير مصدر ، ومن معانيه السرير الذى يُجلَسُ عليه ، والمُلكُ ، والعزة والسلطان ونحوهما ، ومنه قولهم — كما فى أساس البلاغة للزمخشرى : استوى على عرشه اذا مَلَكَ ، وثُلَّ عرشُه اذا هلك .

والاستواء هو استقامة الشىء واعتداله ، واذا قُرِن بعلى اقتضى معنى الاستيلاء ، كما فى قوله تعالى : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ[1]) .

ثم إن العرش[2] قد جاء فى القرآن الحكيم مع وصف الاستواء فى سبع سور ، وهى سور الأعراف ويونس والرعد وطه والفرقان والسجدة والحديد ؛ وجاء بدونه فى إحدى عشرة سورة ، وهى سور التوبة وهود والاسراء والمؤمنين والنمل وتنزيل وغافر والزخرف والحاقة والتكوير والبروج .

قد رأيت من هذا أن بعض المعانى التى ذكرناها للعرش مستحيل على الله تعالى ، وهو السرير المألوف الذى يُجْلَسُ عليه ، ولكننا قدمنا لك فى الصفحة المائة من العدد الثانى للسنة الثانية أن كل وصف ورد فى القرآن العظيم أو السنة النبوية وكان ظاهره مستحيلا على الله سبحانه ، فإنه يجب تأويله أى صرفه عن ذلك الظاهر المُحال ، وحملُه على

(١) قاله الراغب الأصفهانى . (٢) أى عرش الرحمن .

ما يوافق جلالَ الله وعظمتَه ، لأن الدلائل النقلية والعقلية قد نطقت بتلك الاستحالة ، وأرشدتْ الى المعنى الذى يوجبه الكمال الإلهى ، ويقضى به تنزه الله العلى الكبير عن كل ما لا يليق بمقام الإلهية العظمى .

ثم ذكرنا هناك عدة أمثلة لتلك الأوصاف المستحيلة ، وكان منها وصف استوائه سبحانه على العرش ، ثم نقلنا عن الامام القفَّال تأويلَ هـذا الوصف وغيرِه ، كما نقلنا عن الامام فخر الدين الرازى ونظام الدين النيسابورى موافقتَهما فى تفسيريهما للامام القفال فيما أوَّلَ به الاستواءَ على العرش .

وحاصل ذلك التأويل أن العرش المذكور مع الاستواء هو المُلْك ، وأن استواء الله تعالى عليه هو استقامة شأن ذلك المُلْكِ ، واعتدالُ أمرِ الله سبحانه واطرادُه فيه ، واستعلاؤُه تعالى عليه استعلاءَ عزة وسلطان وقهر .

على أن هـذا التأويل لم ينفرد به القفال ، بل ذكره غيره أيضا ، ومنهم البَغَوىّ والبِقاعىّ وأبو السعود والآلوسىّ وغيرُهم ، بل زاد الامام الفخر تأويلا آخر ذكره فى تفسير قوله تعالى : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) فقال : وكل ذلك (أى تشبيه الله سبحانه بخلقه وجعله محمولا على العرش كما زعمه المشبِّهون) كفر صريح . فعلمنا أنه لا بد فيه من التأويل ، فنقول : السبب فى هذا الكلام هو أنه تعالى خاطبهم بما يتعارفونه ، فخلق لنفسه بيتا يزورونه وليس لأنه يسكنه ، تعالى الله عنه ، وجعل فى ركن البيت حَجَرًا هو يمينه فى الأرض ، إذ كان من شأنهم أن يعظموا رؤساءهم بتقبيل أيمانهم ، وجعل على العباد حَفَظةً ، ليس لأن النسيان يجوز عليه سبحانه ، لكن لأن هـذا هو المتعارف ، فكذلك لما كان من شأن المَلِكِ اذا أراد محاسبةَ عُمَّاله جلس اليهم على سرير ووقف الأعوان حوله ، أحضر الله يوم القيامة عرشا

وحضرت الملائكة وحَفَّتْ به ، لا لأنه يقعد عليه أو يحتاج اليه ، بل لمثل ما قلناه فى البيت والطواف . اهـ

فأنت ترى أن الامام فخر الدين قد أوّل العرش فى هذه الآية بغير ما أوّل به القفال ، وجَعَلَه عرشا فى الآخرة لا فى الدنيا ، وأيا مَّا كان من التأويلين فإنهما قاضيان بتنزيه الله تعالى عما لا يليق به .

كذلك ننقل لك ما قاله الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ) فى سورة يونس عليه السلام — قال : اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسما عظيما هو العرش . اذا ثبت هذا فنقول : العرش المذكور فى هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره ؟ ثم ذكر الفخر أقوالا ثلاثة (أولها) أن العرش هو البناء ، أى بناء السموات والأرض وتكوينهما ، وأن الاستواء هو الاستعلاء عليهما بالقهر والعزة الربانية ، وهذا القول لأبى مسلم الاصفهانى .

(ثانيها) أن العرش فى آية يونس هو الجسم العظيم الذى فوق السموات .

(ثالثها) أن المراد به المُلْكُ ، الى آخر ما بسطه فراجعه .

ثم إن جَعْلَ الامام القفال وغيرِه العرش كناية عن المُلْكِ ، ليس معناه إنكارَ العرش بمعنى الجسم العظيم الذى فوق السموات ، بل هو مثبت مقرر لوجوده ، لأنه جزء من الملك ، فإن ملك الله تعالى كُلٌّ له أجزاء تركب منها ، فهو شامل لجميع ما خلقه الله فى الدار الدنيا ، ومن جملته العرش العظيم المحيط بالأكوان .

ثم نقول : قد تحصَّلَ مما ذكرناه أن عرش الرحمن صالح لأن يفسر بأحد معان أربعة بحسب مساق الآيات القرآنية ، وهى ذلك الجسم العظيم المحيط ، والمُلْكُ ، وبناء السموات والأرض أى خلقهما وتسويتهما ، وهذه الثلاثة فى الدار الدنيا ، والمعنى الرابع عرش يحضره الله القدير فى الآخرة .

فكل هذه التأويلات صحيحة وحق ، لأن لفظ العرش لا يأباها ، لا من جهة اللغة ولا من جهة العقيدة الصحيحة ولا من جهة العقل السليم ، لأن مبناها كلها على تنزيه الله تعالى وتقديسه عن مشابهته خلقه فى أن يكون له عرش يستوى عليه استواء بالكيفية المعلومة المعهودة فينا .

كل هذا جَرْىٌ على طريقة الخلف الذين يؤوّلون ما قام دليل النقل والعقل على استحالة ظاهره ، وعلى وجوب حمله على ما يوافق الدليلين المذكورين . أما اذا جرينا على طريقة السلف فإننا نَدَعُ التأويل جانبا ، ثم نؤمن بما ورد إيمانا جازما موافقا لما أراده الله تعالى من اللفظ الكريم ، ونَدَعُ تعيينَ المراد منه الى علمه عز وجل ، لأنه لم يكلّفنا أن نعلمه علمَ التعيين ، ولو أراد ذلك لعيّنه لنا ، لأن تعيينه لا يُعلم إلا منه سبحانه .

فكل من السلف والخلف قد رفض المعنى المستحيل على الله تعالى ، ولكن بعد اتفاقهما على ذلك لم يتعرض السلف للمعنى المراد بتعيين مّا ، بل وَكَلُوا علمَه وتعيينَه الى الله جل شأنه . وأما الخلف فإنهم تعرضوا له ببيان مّا ، متبعين فى ذلك استعمال العرب وأساليبهم فى لغتهم التى جاء القرآن الكريم على طبق قوانينها . فأنت ترى أن كلا من طريقتى السلف والخلف قد أُسِّسَ على تنزيه الله عز وجل وتقديسه عما لا يليق بمقامه الأسمى سبحانه .

بقى بعد هذا كله كلمات : الكلمة الأولى — قد عرفت من صدر كلامنا المعنى المستحيلَ على الله تعالى لكلمتى الاستواء والعرش ، فاذا فُسِّرَ العرش بأحد معانيه الصحيحة ، أى بالجسم الأعظم المحيط بالعالم فى الدنيا ، أو بالعرش الذى يكون فى الآخرة ، فإن ذلك التفسير يكون تأويلا أى صرفا لكلمتى الاستواء والعرش عن ظاهرهما المستحيل ، وانتقالا الى معنى آخر خَفِىٍّ بالنسبة الى ذلك المعنى الظاهر ،

وذلك المعنى الآخر الخفى الجائز المنتقل اليه هو الجسم الأعظم أو عرش الآخرة ، الذى هو تحت استيلاء الله تعالى عليه بالقهر والسلطان والعزة الإلهية .

فثبت بهذا أن تفسير العرش بما ذكر هو تأويل له بلاريب ، وحينئذ يكون أصحاب هذه المعانى الأربعة التى ذكرناها للعرش جميعهم مؤولون ، أى أنهم قد جَرَوْا على طريقة الخلف الذين يؤولون المتشابه بما يوافق تنزيه الله العزيز .

الكلمة الثانية — قد علمت أن التأويل هو انتقال من المعنى الظاهر الى المعنى الخفى بالنسبة الى ذلك الظاهر ، فلأجل هذا الانتقال من الظاهر الى الخفى ترى المؤوِّلين يقولون حينما يؤوِّلون : إن العرش مثلا كناية عن كذا ، لا يريدون أن المعنى المؤول به المنتقل اليه هو معنى وهمى خيالى لا حقيقة له كما لو أوّلوا العرش بالملك مثلا ، بل يريدون أنه معنى مدلول عليه بلفظ العرش مثلا دلالة كنائية ، أى دلالة خفية بالنسبة الى الظاهر ، بواسطة القرينة الدالة على ذلك المعنى الجائز على الله تعالى ، كما هو شأن الكناية المقررُ فى علم البيان .

وقد أرشد الامام فخر الدين الرازى الى ذلك فيما نقلناه عنه فى الصفحة الثالثة بعد المائة من العدد الثانى للسنة الثانية إذ يقول : ونظيره قولهم للرجل الطويل : فلان طويل النجاد . الى آخر كلامه .

فعلى هذا لا يكون قول الامام القفال وصاحب الكشاف وغيرهما : إن العرش مثلا كناية عن كذا ، معناه أنه ليس للرحمن سبحانه عرش حقيقة ، بل معناه أن لفظ العرش لفظ عبر الله تعالى به تعبيرا كنائيا عن معنى حقيقى ثابت فى نفسه موافق للواقع . والحكمة فى التعبير به أنه هو المتعارف المألوف فى تخاطب الناس ، لأنهم عَهِدوا فى ملوكهم أن لهم عروشا يستوون عليها ، أى أَسِرَّةً يجلسون عليها حينما ينظرون فى تدبير الملك .

الكلمة الثالثة — ننقل لك ما ذكره الامام الفخر الرازى فى تفسيره لقوله تعالى: (عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً) عن الامام الواحدى، وعبارته: قال الواحدى: روى عن ابن مسعود أنه قال: يُقعِدُ اللهُ محمدا على العرش. وعن مجاهد أنه قال: يُجْلِسه معه على العرش. ثم قال الواحدى: وهذا قول رَذْلٌ مُوحِشٌ فظيع. ونص الكتاب ينادى بفساد هذا التفسير، ويدل عليه وجوه: (الأول) أن البعث ضد الإجلاس، يقال بعثت النازل والقاعد فانبعث. ويقال: بعث الله الميت أى أقامه من قبره، فتفسير البعث بالإجلاس تفسير للضد بالضد وهو فاسد.

(الثانى) أنه تعالى قال: (مَقَاماً مَحْمُوداً) ولم يقل مقعدا، والمقام موضع القيام لا موضع القعود.

(الثالث) لو كان تعالى جالسا على العرش بحيث يُجْلِس عنده محمدا عليه الصلاة والسلام، لكان محدودا متناهيا، ومن كان كذلك فهو محدث.

(الرابع) يقال: إن جلوسه مع الله على العرش ليس فيه كثير إعزاز، لأن هؤلاء الجهلة الحَمْقَى يقولون فى كل أهل الجنة: إنهم يزورون الله تعالى، وإنهم يجلسون معه وإنه تعالى يسألهم عن أحوالهم التى كانوا فيها فى الدنيا. واذا كانت هذه الحالة حاصلة عندهم لكل المؤمنين لم يكن لتخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بها مزيد شرف ورتبة.

(الخامس) أنه إذ قيل: السلطان بعث فلانا فُهِم منه أنه أرسله إلى قوم لإصلاح مهماتهم، ولا يفهم منه أنه أجلسه مع نفسه. فثبت أن هذا القول رَذْلٌ سقَطٌ لا يميل اليه إلا إنسان قليل العقل عديم الدين. اه

قلنا: قد صرحت هذه العبارة التى نقلناها عن هذين الامامين بإنكار أمرين: إنكار صلاحية هذه الرواية أن تكون دليلا على أن للرحمن عرشا يوم القيامة، وإنكارِ إجلاس النبي صلى الله عليه وسلم على العرش فى ذلك اليوم. ودليل هذين الإنكارين هو الوجوه الخمسة المذكورة.

لكن هذا الإنكار من هذه الجهة الباطلة لا ينافى أن الامامين المذكورين وسائرَ المسلمين يؤمنون بأن للرحمن عز وجل عرشا يوم القيامة ، كما هو تأويل قوله تعالى : (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) كما سبق عن الامام الرازى .

ولعل هذا النقد الذى نقلناه عن الواحدى والفخر هو الذى أُشيرَ اليه فى السؤال بعبارة (على ما فيه) ولهذا كان يحسن حذف هذه الرواية كلها من السؤال .

ثم إننا قد بينا لك فيما سبق معنى الكناية التى عبر بها الامام القفال وغيره من الخلف ، ومنه تعلم أن عرش الرحمن جل ثناؤه ليس شيئا مزعوما وهميا ، بل هو حقيقة ثابتة بنص الكتاب العزيز ، سواء أُوِّلَ العرشُ بالمُلْكِ أم بغيره من المعانى الأربعة المتقدمة .

فعلى ذلك يكون ما قاله القفال وغيره هو عين ما قاله حجة الاسلام الغزالى . وغاية الأمر أن ما قاله القفال وغيره هو طريقة الخلف ، وما قاله الغزالى هو طريقة السلف ، وكلا الفريقين قد نزه الله العلى الكبير عما لا يليق به سبحانه .

ومن هذا نعلم أنه كان يحسن أيضا عدم ذكر عبارة الغزالى ، لأنها لا تناقض كلام القفال . ولعل فيما قلناه شرحا وافيا لهذه العقيدة الاسلامية ، حتى لا يبق هناك مجال لشك الشاكِّينَ ، كما جاء فى السؤال ؛ والله ولى التوفيق ؟

حسن منصور
وكيل مدرستى القضاء الشرعى
ودار العلوم العليا سابقا

قرار
الهيئة العلمية الدينية بالديار المصرية
فى شأن الخلافة سنة ١٣٤٢

نشرت بعض الصحف حديثا لمولانا شوكت على ، ومما قال فى هذا الحديث « إن المؤتمر فى القدس لا يبحث فى مسألة الخلافة ، وهو يرى أنها قائمة ، لأن الخليفة موجود الآن ولو أنه فى بلد أجنبى غير إسلامى » .

وهذا الذى ادعاه حضرة شوكت على من أن الخلافة قائمة غير صحيح ، فان الهيئة العلمية الكبرى التى تألفت فى القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٤م قررت أن خلافة الامير عبد المجيد كانت غير شرعية ، بل هى بدعة فى الاسلام ، فليس له فى أعناق المسلمين بيعة . ونص هذا القرار :

فى يوم الثلاثاء ١٩ شعبان سنة ١٣٤٢ (٢٥ مارس سنة ١٩٢٤) اجتمعت بالادارة العامة للمعاهد الدينية هيئة علمية دينية كبرى تحت رياسة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشريف ورئيس المعاهد الدينية العلمية الاسلامية (الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى) وبعضوية أصحاب الفضيلة رئيس المحكمة العليا الشرعية (الشيخ محمد مصطفى المراغى) ومفتى الديار المصرية (الشيخ عبد الرحمن قراعة) ووكيل الجامع الازهر ومدير المعاهد الدينية (الشيخ أحمد هارون) والسكرتير العام لمجلس الازهر الأعلى والمعاهد الدينية (الشيخ حسين والى) وشيوخ المعاهد الدينية الكبرى (الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى والشيخ محمد عبد اللطيف الفحام والشيخ عبد الغنى محمود والشيخ ابراهيم الجبالى) ومشايخ الاقسام بالجامع الازهر والكثير

من هيئة كبار العلماء (منهم الشيخ بخيت والشيخ محمد شاكر والشيخ النجدى شيخ الشافعية والشيخ أحمد نصر وكيل المالكية والشيخ سبيع الذهبي شيخ الحنابلة والشيخ عبد المعطى الشرشيمى) وغيرهم من العلماء والمفتشين بالمعاهد الدينية للمداولة فى شئون الخلافة الاسلامية وقر قرارهم بعد بحث طويل على ما يأتى :

١ — كثر تحدث الناس فى أمر الخلافة بعد خروج الامير عبد المجيد من الاستانة، واهتم المسلمون بالبحث والتفكير فيما يجب عليهم عمله قياما بما يفرضه عليهم دينهم الحنيف. لذلك رأينا أن نعلن رأينا فى خلافة الامير عبد المجيد وفيما يجب على المسلمين اتباعه الآن وفيما بعد.

٢ — الخلافة — وتسمى الامامة — رياسة عامة فى الدين والدنيا قوامها النظر فى مصالح الملة وتدبير الأمة. والإمام نائب عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فى حياطة الدين وتنفيذ أحكامه، وفى تدبير شئون الخلق الدنيوية على مقتضى النظر الشرعى.

٣ — الإمام يصير إماما بالبيعة من أهل الحل والعقد أو استخلاف إمام قبله ولا بد مع هذا من نفاذ حكمه فى رعيته خوفا من قهره وسلطانه، فإن بايع الناس الإمام ولم ينفذ حكمه فيهم لعجزه عن قهرهم، أو استخلفه إمام قبله ولم ينفذ حكمه فى الرعية لعجزه، لا يصير إماما بالبيعة أو الاستخلاف.

وتستفاد الإمامة أيضا بطريق التغلب وحده، فاذا تغلب شخص على الخليفة واغتصب مكانه انعزل الأول. وقد يوجد التغلب مع البيعة أو الاستخلاف كما حصل لأكثر الخلفاء فى العصور الماضية، وهذا كله مستفاد صراحة من نصوص السادة الحنفية.

٤ — ولما كان الإمام صاحب التصرف التام فى شئون الرعية وجب أن تكون جميع الولايات مستمدة منه وصادرة عنه، كولاية الوزراء، وكولاية أمراء الأقاليم، وولاية القضاة، وولاية نقباء الجيوش وحماة الثغور.

٥ — وينحل عقد الإمامة بما يزول به المقصود منها كأسره بحيث لا يرجى خلاصه، وعجزه عن تدبير مصالح الملة والأمة . ومتى وجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين وانتكاس أمور الدين، جاز للأمة خلعه ما لم يؤد ذلك الى فتنة . فإن أدى اليها احتمل أخف الضررين .

٦ — رضى المسلمون الذين كانوا يدينون لخلافة الأمير وحيد الدين عن خلعه للأسباب التى علموها عنه واعتقدوا أنها مبررة للخلع، ثم قدم الأتراك للخلافة الأمير عبد المجيد معلنين فصل السلطة جميعها عن الخليفة، ووكلوا أمرها الى مجلسهم الوطنى وجعلوا الأمير عبد المجيد خليفة روحيا فقط .

٧ — وقد أحدث الأتراك بعملهم هذا بدعة ما كان يعرفها المسلمون من قبل، ثم أضافوا اليها بدعة أخرى وهى إلغاء مقام الخلافة .

٨ — لم تكن خلافة الأمير عبد المجيد والحالة هذه خلافة شرعية، فإن الدين الإسلامى لا يعرف الخليفة بهذا المعنى الذى حدد له ورضيه، ولم تكن بيعة المسلمين له بيعة صحيحة شرعا .

٩ — واذا غضضنا النظر عن هذا وقلنا إن البيعة صحت له، فإنه لم يتم له نفوذ الحكم الذى هو شرط شرعى لتحقيق معنى الخلافة .

١٠ — واذا فرض أنه تم له وصف الخلافة بمعناها الشرعى فقد انحل عنه ذلك الوصف بعجزه حقيقة عن القيام بتدبير أمور الدين والدنيا، وعجزه عن الإقامة فى بلده ومملكته، وعن حماية نفسه وأسرته بعد أن تم للأتراك تغلبهم عليه .

١١ — والنتيجة لهذا كله أنه ليس للأمير عبد المجيد بيعة فى أعناق المسلمين لزوال المقصود من الإمامة شرعا، وأنه ليس من الحكمة ولا مما يلائم شرف الإسلام

والمسلمين أن ينادوا ببقاء بيعة فى أعناقهم لشخص لا يملك الإقامة فى بلده ولا يملكون هم تمكينه منها .

١٢ — ولما كان مركز الخلافة فى نظر الدين الإسلامى ونظر جميع المسلمين له من الأهمية ما لا يعدله شىء آخر ، لما يترتب عليه من إعلاء شأن الدين وأهله ، ومن توحيد جامعة المسلمين وربطهم برباط قوى متين ، وجب على المسلمين أن يفكروا فى نظام الخلافة ، وفى وضع أسسه على قواعد تتفق مع أحكام الدين الإسلامى ، ولا تتجافى مع النظم الاسلامية التى رضيها المسلمون نظاما لحكمهم .

١٣ — غير أن الضجة العنيفة التى أحدثها الأتراك بإلغاء مقام الخلافة والتغلب على الأمير عبد المجيد جعلت العالم الاسلامى فى اضطراب لا يتمكن المسلمون معه من البت فى هذه النظم ، وتكوين رأى ناضج فيها ، وفيمن يصح أن يختار خليفة لهم إلا بعد الهدوء وبعد الإمعان والروية ، وبعد معرفة وجهات النظر فى مختلف الجهات .

١٤ — لهذه الأسباب نرى أنه لا بد من عقد مؤتمر دينى إسلامى يدعى اليه ممثلو جميع الأمم الاسلامية للبت فيمن يجب أن تسند اليه الخلافة الاسلامية ، ويكون بمدينة القاهرة تحت رياسة شيخ الاسلام بالديار المصرية ، وذلك نظرا لمكانة مصر الممتازة بين الأمم الاسلامية ، وأن يكون عقد المؤتمر فى شهر شعبان سنة ١٣٤٣هـ (مارس سنة ١٩٢٥ م) .

١٥ — ولا بد لنا من إعلان الشكر لكل من أبدى غيرة دينية إسلامية فى أمر الخلافة ، وأظهر اهتماما بهذا الواجب .

١٦ — ونعلن أيضا شكرنا للأمم التى تدين بأديان أخرى غير الدين الاسلامى ولدول تلك الأمم على ما أظهروه الى الآن من ابتعادهم عن التدخل فى شئون الخلافة

الاسلامية، ونرجو منهم أن يلاحظوا أن مسألة الخلافة مسألة إسلامية محضة لا يجوز أن تتعدى دائرتها، ولا أن يهتم بها أحد من غير أهلها . والعالم الاسلامى جميعه يريد أن يعيش بسلام مع الأمم الأخرى ، وأن يحافظ على قواعد دينه الحقة ونظمه البريئة بطبعها من روح العدوان .

١٧ — هذا ما رأينا من الواجب الدينى علينا إذاعته الى العالم الاسلامى فى مختلف البقاع ، والى الأمم الأخرى ليكون الجميع على بينة من الأمر ؟

القاهرة فى { ١٩ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ .
٢٥ مارس سنة ١٩٢٣ م .

ويلى ذلك الامضاءات .

الطُّرف والمُلَح

قال بعض الحكماء : المَنْظَرَ محتاج الى القبول ، والحَسَبَ محتاج الى الأدب ، والسرور محتاج الى الأَمْن ، والقرابة محتاجة الى المودّة ، والمعرفة محتاجة الى التجارِب ، والشرف محتاج الى التواضع ، والنَّجدة محتاجة الى الجِدّ .

***

قال عمرُ بن عبدِ العزيز رضى الله عنه : ماطاوعنى الناسُ على شىء أردته من الحق حتى بَسَطْتُ لهم طَرَفاً من الدنيا .

المسلمون فى أوربا الشرقية[1]

ألبانيــا

٢

مجلس الوصاية الاعلى (١٩٢٠ — ١٩٢٥).

لقد كان هذا المجلس مكونا فى سنة ١٩٢٠ من عاكف باشا الباسانى وعابدى بك الطوبتانى والدكتور تورتللى (Turtulli) ونيافة القس لوى بومشى (Louis Bumci) ثم تبدل هؤلاء الأعضاء فى سنة ١٩٢١ وتكون المجلس من عمر باشا فريونى (Vrioni) ورفيق بك طوبتانى وسوتير بيشى (Sotir peci) وانطوان بستولى (Antoine pistuli) ولم يبق فى المجلس سنة ١٩٢٤ سوى سوتير بيشى .

الوزارات : — وزارة سليمان بك ديلفينو (مسلم) فى سنة ١٩٢٠ ، ووزارة الياس بك فريونى (أرثوذكسى) فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ ، ووزارة بانديلى ايوانغيلى (Pandeli Evangheli) (أرثوذكسى) فى أكتوبر سنة ١٩٢١ ، ووزارة جعفر يبى (Ypi) (مسلم) فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، ووزارة أحمد ماتى زوغو (مسلم) فى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ ، ووزارة شوكت فيرلاشى (Verlaci) (مسلم) فى ٥ مارس سنة ١٩٢٤ ، ووزارة نيافة المطران فان نولى (أرثوذكسى) فى يوليو سنة ١٩٢٤ ، ووزارة ا . م . زوغو فى ٨ يناير سنة ١٩٢٥ ، ثم وزارة كوستا كوتا (Kosta Kotta) فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٨ ويناير سنة ١٩٢٩ ، وعينت ألبانيا مندوبا عنها فى جمعية الأمم .

---

(١) مترجم عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

هذا وقد أدت حركة الانقلاب السياسى التى قامت فى سنة ١٩٢٥ الى إعلان الجمهورية ، وانتخب ا . م . زوغو رئيسا لها فى أول فبراير سنة ١٩٢٥ إلا أنه أعلن نفسه ملكا فى أول سبتمبر سنة ١٩٢٨ باسم زوغو الأول .

الادارة فى الاقاليم : — كانت ألبانيا فى سنة ١٩٢٤ مقسمة الى ثمان مديريات أو إيالات ، وهذه كانت مقسمة فى سنة ١٩٢١ الى عدة أقضية (كازاس) (Cazas) كالآتى :

١ — مديرية شقودرة : (ليش) (Lesh) وكوبليك ، وبوكا ، وميرديتى ، وبريكالى ، وبونياى .

٢ — مديرية دورئيس : كافايا ، وتيرانا ، وشياك ، وكروجا ، وماتى .

٣ — مديرية الباسان : بيجان ، وقوكسى ، وجرامشى .

٤ — مديرية بيرات : لوشنيا ، وفييرى ، ومالا كاسترا ، وسكراپارى .

٥ — مديرية فاورا : هيمارا .

٦ — مديرية جينو كاسترئى : دلفينا ، وبيرميتى ، وطيبيلينى ، وليبوهوفا وليسكوفيك .

٧ — مديرية كورسا : پوجراديك ، وبيكليشتى ، وكولونيا .

٨ — مديرية دربنى : هاسى ، وهوميشى ، ولوما .

ثم أنشئت مديريتان فى سنة ١٩٢٨ وهما مديريتا تيرانا وديبرا .

ويوجد بألبانيا خمسة وسبعون قراهين " Krahins " (مركز) وقرى ينتخب رجال إدارتها بطريق الانتخاب العام .

وقد بقى قضاء (مقاطعة) « ميرديتى » مستقلا استقلالا داخليا إداريا تحت إدارة « قبطان » من أسرة « بيب دودا » (Bib Doda) .

الادارة الدينية : — إن «جماعة الرابطة الاسلامية الأهلية» قد استقلت عن شيخ إسلام الاستانة فى سنة ١٩١١ ، أما من حيث الخطبة فإن اسم الخليفة قد حذف فى الصلوات العمومية التى كانت تقام باللغة الالبانية ، ولم يبق إلا فى الصيغة العربية فى الجهات التى استمر فيها استعمال الصيغة العربية من التقاليد المعمول بها (طبقا لما تقرر بمؤتمر تيرانا فى سنة ١٩٢٣) .

وليس الاسلام فى ألبانيا هو دين الحكومة الرسمى — إلا أن الحكومة هى التى تعين القضاة ورجال الإفتاء وتدفع لهم مرتباتهم . هذا وتوجد مدرسة فى بيرات لإعداد رجال الدين ، وكان بها ثلاثون طالبا سنة ١٩٢١ ، ولا تزال توجد بعض الأوقاف تابعة للآن للأوقاف العامة بالاستانة .

وبألبانيا مساجد عديدة ، منها أربعة وثلاثون مسجدا بالباسان .

وقد تقرر الزواج من زوجة واحدة فقط وألغى لبس نقاب (يشمق) النساء طبقا لما جاء بمؤتمر تيرانا فى ابريل سنة ١٩٢٣ ، وأصبح الوضوء حسب الطقوس الدينية غير إجبارى (كذا) .

وجماعة الإخاء البكتاشية هى أكثر الجمعيات انتشارا ، ولها ثلاثة وأربعون فرعا لكل منها سرادق خاص يقال له تكية (Tekkè) ففى ألبانيا الجنوبية تتجه الأميال كثيرا لمذهب الشيعة .

وقد تأسست جماعات البكتاشيين فى القرن الثالث عشر من الميلاد ، وجاء بعضهم الى ألبانيا فى القرن الرابع عشر بين رجال الانكشارية الذين نزحوا اليها من أورخان (Orkhan) فى القرن الخامس عشر ، وتفقهوا فى التصوف على أساس التوحيد طبقا لمذهب الشيعة الاسماعيلية الحروفية (Horoûfis) ومركزهم التركى فى أنقرة . أما بكتاشيو ألبانيا الذين هم قوام النظم الاسلامية المحلية فى ألبانيا فقد أعلنوا فى جمعية

عمومية مكونة من ٥٠٠ مندوب انعقدت فى يناير سنة ١٩٢٢ الاستقلال الذاتى للبكتاشية الألبانية ، وجعلوها تحت إدارة سبعة باباوات (Babas) برياسة بابا « تكية » (Tekké) اقتشى — حيصار (Aqtché Hissâr) ويرأسها الآن بابا سليمان ؛ وتكية اقتشى حيصار لا تضم الآن سوى اثنى عشر درويشا . وتوجد بعض تكايا لرجال الطرق الجلشانية والخلوتية والرفاعية .

أما مسيحيو ألبانيا الأرثوذكس فإنهم مهددون بالسياسة التى ترمى اليها اليونان ، ويميلون الى تأسيس كنيسة تكون مستقلة عن الكنيسة الاغريقية (وقد تحقق لهم هـذا الأمر فى الولايات المتحدة ورومانيا حيث تلقى المواعظ باللغة الألبانية) ويقال إن لهم أربعة مراكز أسقفية فى كورسا وبيرات وجيروكاسترئى ودورئيس .

وأما كاثوليك ألبانيا فهم تابعون للمندوب الرسولى لأسقفية شقودرة المكونة من رئيس مطران ، وخمسة أساقفة ، وبعض الفرنسيسكانيين الألبانيين ، وقس أوروشى المتوج .

التعليم : — توجد مدرسة للمعلمين فى « بيرات » تخرج منها ثلاثون معلما فى سنة ١٩٢٠ ، ويوجد ستون مدرسة ابتدائية راقية ، و٤٧٢ مدرسة أولية ، ومدرستان تجهيزيتان فرنسيتان ألبانيتان ، فى مدينتى كورسا وجينو كاسترئى ، وبعض مدارس خصوصية للآباء اليسوعيين الايطاليين والفرنسيسكان النمسويين الألبانيين فى أشقودرة ، ومدارس أخرى تابعة لجمعية الصليب الأحمر الأمريكى فى تيرانا والباسان وأشقودرة ، ومدرسة صناعية أمريكية فى تيرانا .

الصحافة : — توجد عدة صحف ألبانية بعضها ينشر فى ألبانيا نفسها ، وبعضها ينشر خارجها ، مثل صحيفة « كومبى » (Kombi) وقد أنشئت سنة ١٩٠٦ فى مدينة بوستون (Boston) بالولايات المتحدة الأمريكية ، ثم « مجلة الادرياتيك » (Adriatic Review)

وجريدة « ديللى » (Dielli) ومعناها « الشمس » وأنشئت كذلك فى مدينة بوستون سنة ١٩٠٩ وهى يومية ، « والناسيونى البانيزى » (Nation Albanese) ومعناه « الشعب الألبانى » وتصدر فى « كالابر » (Calabre) فى الجنوب الغربى من ايطاليا ، وجريدة « ألبانيا » (L' Albania) وتصدر فى مدينة بروكسيل (ببلجيكا) وجريدة « الديفانس ناسيونال » (La Défense Nationale) ومعناها « الدفاع الوطنى » وجريدة « الليبر بارول » (La Libre Parole) ومعناها « القول الحر » وتصدر فى مدينة فلورا (Vlora) بألبانيا ، وتطبع ٢٠٠٠ نسخة ، ثم جريدتا « جيتار » (Jetare) و « كوها » (Koha) ومجلة « سكنديا » (Skenda) فى مدينة « كورسا » ؛ وأنشئت فى سنة ١٩٢٧ بمدينة بارى (Bari) بايطاليا جريدة « غازيتا أشقيبتارى » (Gazetta Shqiptare) وتصدر يوميا باللغة الألبانية ، وجريدة « شيقوللى — ى — رى » (Shekulli — I — Ri) وتصدر باللغة الألبانية فى مدينة دوراتزو (Durazzo) بألبانيا ، وتصدر بمدينة جينوكاسترئى جريدة « ديموكراسيا » (Demokracia) و « فيروج » (Virog) ويحررها باللغة الألبانية ج . خورشيد ، وتصدر بمدينة كورسا (بألبانيا) جريدة جيتارى (Jetarié) باللغة الألبانية و « غازيتا إ كورسيس » (Gazita e Corcés) باللغة الألبانية أيضا .

أما فى مدينة « تيرانا » فتصدر فيها عدة جرائد ، مثل « غازتا إريه » (Gazeta e Ré) وأنشئت فى سنة ١٩٢٨ وهى لسان حال وزارة الخارجية وتصدر باللغة الالبانية ، وجريدة « أشقيبنيا » (Shqypnia) وأنشئت سنة ١٩٢٧ وتصدر باللغة الألبانية ، وجريدة « فليتويا زيرتارى » (Fletooja Zyrtare) وهى الجريدة الرسمية وتصدر كذلك بالألبانية ، وجريدة « التلغراف » (Telegraf) وتصدر بالألبانية .

القضاء :— إن القانون العثمانى هو الذى يفصل فى الأحكام النهائية فهناك محاكم مركزية : محكمة فى كل قضاء من أقضية ألبانيا ، وهناك محكمة نقض وإبرام بمدينة أشقودرة .

وفى قضاء (مقاطعة) « ميرديتى » يسود حكم العرف الذى كان متبعا فى القرن الخامس عشر الميلادى الذى يرجع أصله الى الأمير « نكول ليك دوكا جان » (Nkol lek Dukagjin) الذى اعتنق الاسلام وتسمى باسم « دوكاجان زاده محمد بك » فى سنة ١٤٦٩ وتشمل « ميرديتى » خمس دوائر قضائية مركزية تسمى بيارق (Baïraqs) .

أما الضرائب فعامة ومقررة على جميع الأهالى على قدم المساواة . وتحصل ضريبة العشور على المحصولات التى تباع بالمزاد العلنى فى كل قرية ، كما أن هناك ضريبة مقررة على المواشى ، إذ يحصل على كل رأس منها فرنك ذهبا (نحو أربعة غروش) وكذلك تحصل رسوم الجمارك ؛ أما القبائل الجبلية التى كانت تمتنع عن دفع الضرائب للاتراك فقد دفعتها فى سنة ١٩٢٠ ، وبلغ مجموع الضرائب ١٨,٧٩٧,٠٠٠ (ثمانية عشر مليونا وسبعمائة وسبعة وتسعين ألفا) فرنكا ذهبا .

العادات القديمة :— قلنا إن حكم العرف كان يسود قديما لاسيما فى القرن الخامس عشر ، فمن ضمن القوانين التى كان مرجعها العرف قانون أطلق عليه اسم « البسّا » (La Bessa) ومعناه « عهد الصلح » وقد وضع هذا القانون حدا لمسألة الأخذ بالثأر الذى كان يقوم به «الجيا كسور» (Gjaksur) ولى الدم ، أو « البوبراتيم »(Pobratim) أخو الدم ، أو « الكومبار » (Kompar) ومعناه «الأخ المختار »الذى كان يقص خصلة من شعر رأس أصغر أبناء أخيه فيتخذه أخا له ؛ وقد ألغيت كذلك فى القرن التاسع عشر عادة اختطاف فتاة مسلمة من أشراف الميرديتيين وتعميدها فى الحال للزواج منها ؛ وقد أشار المسيو بيكار (Picard) فى سنة ١٩٢٠ الى أن عدد البالغين الذين قتلوا بسبب الأخذ بالثأر من بين الميرديتيين كان يتراوح بين ١٩ و ٤٢ فى المائة حسب القبائل سنويا .

الجيش : — أما الخدمة العسكرية فهى نظريا عامة ، ومدة الخدمة ثمانية عشر شهراً ، ويوجد بالجيش الألبانى مائة معلم من الايطاليين ، وعدد رجاله ٤,٥٠٠ جندى

مقسمين على ثلاث فصائل تكون فى أشقودرة وتيرانا وكورسا ، كما يوجد ٣،٥٠٠ شرطى ، وعدة فرق حرة من المسلمين فى الشمال ، وليس لألبانيا بحرية .

الأعمال والمحصولات

الزراعة : — يبلغ الجزء المزرع من الأراضى عشرها ، أما متوسط المحصول فيبلغ ٤،٥٠٠ طونولاته من القمح و ٦،٠٠٠ من الذرة و ١٥،٠٠٠ من الشعير و ٥،٠٠٠ من القرطم ، ويزرع بها الدخان ، وبها كثير من أشجار الفواكه ، ويوجد شجر التين فى الجزء الشرقى منها .

وتوجد الغابات فى المناطق العليا شمالا وشرقا ، أما شجر الرمان والكستل (أبو فروة) والزيتون فيوجد على الشاطىء وفى الباسان ، ويبلغ محصوله ١٥،٠٠٠ طنا ، وقد قضى قطع الأشجار فى الجنوب على أشجار السماق والسنديان .

الصناعة : — يستغل الفحم الحجرى فى «بوجراديك» (Pogradec) و « كورسا » وديريا (Derria) وتوجد بعض مناجم للنحاس والأسفلت ، وقد أنشىء فى القرن الثامن عشر مصنع للقيشانى الفنيقى فى مدينة ريسنا (Resna) .

وقد بقى نظام الجمعيات والشركات كما كان عليه فى العهد التركى ، فيوجد ٩٥٠ حانوتا فى سوق الباسان و ١،٠٠٠ فى سوق أشقودرة و ٦٠٠ فى سوق تيرانا .

الشركات : — جماعة « فاترا » (Vatra) وقد أسسها فائق بك قونيكا فى سنة ١٩١٢ وهى عبارة عن اتحاد ثمانين جمعية تعاون أخوى ، وتوجد أيضا جمعية باسم « جمعية التربية » فى مدينة كورسا ، وكذا الجمعية النسوية باسم « إحياء العلوم » فى مدينة كورسا أيضا ومكونة من مسلمات وأرثوذكسيات ، كما توجد عدة أندية مماثلة فى « بريميتى » (Premeti) وأشقودرة .

الحركة الاقتصادية العامة

الواردات : — بلغت قيمة الواردات ٧٠ مليونا ليرة ، والصادرات ستة ملايين ليرة فى سنة ١٩٢٠ .

وتستورد ألبانيا السكر والأرز والدقيق والبن والمشروبات الروحية والمنسوجات القطنية والحريرية والصابون والمواد الكيمائية والحديد والأوانى النحاسية .

وتصدر ألبانيا القرطم والشعير والفواكه والخضروات والغنم ولحم الخنزير والسمك المملح والجلود . أما مصرف (بنك) الحكومة فمركزه بمدينة بارى (Bari) فى إيطاليا .

التجارة الداخلية : — لا توجد سكك حديدية كبيرة ، ولم يبق من السكك الحديدية التى أنشئت إبان الحرب سوى خط واحد موصل بين دورئيس وتيرانا وكافايا (Cavaja) وقد دعت الحرب الى إنشاء خطوط — منها خط بين سانتى كارانتا وموناستر ، وآخر بين فالونا وسانتى كارانتا ، وثالث بين فلونا وجينوكاسترئى ، ورابع بين فالونا وبيرات ، وخامس بين كورسا وفلورينا ، وسادس بين أشقودره وتيرانا (ودرئيس) وكلها غير معتنى بها .

وتوجد ميناء فلورا (فالونا) وثغور لشنجين (Shëngjin) (جنوب جيوفانى ده مدوا) ودرئيس (دوراتزو) . أما البريد الجوى فايطالى .

السياحة : — إن مناظر الجبال فى ألبانيا والملابس الأهلية ترغب منذ عدة سنين عددا عظيما من السياح لزيارة ألبانيا بالرغم من صعوبة السفر .

النقود : — الك (الفرنك الذهب) بقى وحدة العملة الألبانية تذكارا لمصغر اسم اسكندر بك (Scanderbeg) وكثيرا ما يبلغ سعر الربح حد الربا ؟

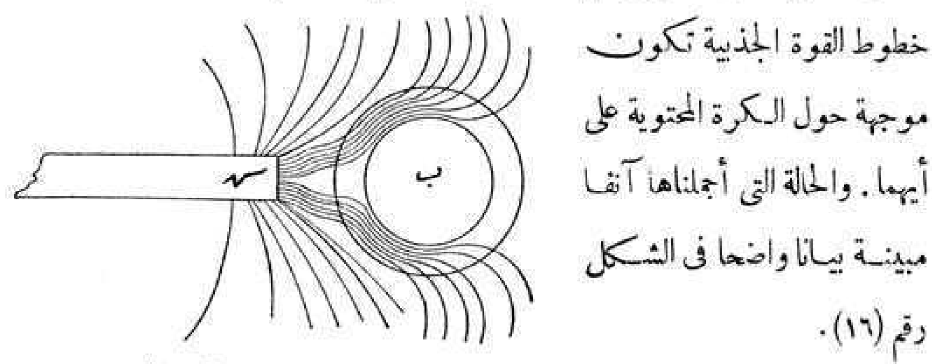
علم الكهرباء

٣

الجذب من خلال الاجسام :

اذا وضعت قطعة من الزجاج أو الخشب أو الورق أو أية مادة أخرى غير جاذبة بين جاذب وبين قطعة من الحديد أو غيره من المواد الجاذبة، ظهر لك أن الجذب يحصل بين الجاذب والمادة الجاذبة كما لو لم يكن توسطهما شيء .

على أنه اذا وضع جاذب صغير أو قطعة من الحديد أو الصلب داخل كرة جوفاء مصنوعة من الحديد فلا يؤثر فيها أي جاذب خارجي . وسبب هذه الظاهرة هو أن خطوط القوة الجذبية تكون موجهة حول الكرة المحتوية على أيهما . والحالة التي أجملناها آنفا مبينة بيانا واضحا في الشكل رقم (١٦) .



شكل (١٦) : اثر الحاجز الجذبي

في طبيعة الجاذبية

الأدلة على أن الجاذبية من طبيعتها ذات أجزاء دقيقة .

أثر الحرارة :

اذا سخنت إبرة فيها خاصة الجذب على النار حتى بلغت درجة الاحمرار فإنها تفقد هذه الخاصة فقدا كليا، وكذلك اذا هز جاذب أو طرق بالمطرقة أو لوى، فإن قوة قطبيه المقدرة باستعداده لالتقاط المسامير الصغيرة وبرادة الحديد تنقص نقصا كبيرا .

فهذان الأمران يشيران الى استنتاج أن الجاذبية لها ارتباط بنظام الأجزاء الدقيقة بما أن الأسباب التي تشوش هذا النظام تشويشا شديدا في الجاذب تضعف جاذبيته.

شكل (١٧) : الطبيعة الجذبية لقطع جاذب قضيبي

كسر الجاذب :

وكذلك اذا كسرت إبرة فيها خاصة الجذب فكل جزء منها يرى أنه صار جاذبا كاملا، ومعنى هذا أنه يبدو في محل الكسر قطبان جديدان أي قطب شمالي جديد في الجزء الذي كان فيه القطب الجنوبي الأصلي، وقطب جنوبي جديد في الجزء الذي كان فيه القطب الشمالي الأصلي؛ ويمكن الاستمرار في هذا التكسير والتجزئة الثانوية الى غير نهاية، ولكن بنتيجة واحدة وهي المبينة في الشكل رقم (١٧) وهذا الأمر يشير الى استنتاج أن الأجزاء الدقيقة للقطب المكتسب لخاصة الجذب هي في ذاتها جواذب صغيرة منظمة على شكل صفوف تكون فيها أقطابها المتقابلة متماسة كما في الشكل رقم (١٩).

شكل (١٨)
شكل الاجزاء الدقيقة في طبيعة الجاذبية
وحالة هذه الاجزاء في القضيب المجرد من خاصة الجذب

أثر هز الجاذب :

اذا سحقت قطعة من الصلب غير المكتسب لخاصة الجذب سحقا شديدا وهي بين قطبي جاذب أو سخنت الى درجة الاحمرار وتركت تبرد وهي في هذ الوضع، ظهر أنها اكتسبت تلك الخاصة. وهذا الأمر يدل على أن القضيب من الحديد أو الصلب الذي لم يكتسب خاصة الجذب من المحتمل أن تكون أجزاؤه الدقيقة جواذب صغيرة منظمة، إما تنظيما حيثما اتفق، أو على هيئة طوائف صغيرة متقاربة، أو على شكل سلاسل كالمبين في الشكل رقم (١٨) بحيث إن الاقطاب المتقابلة في جميعها يبطل بعضها عمل بعض في كل القضيب، فأما إن قرب القطب من جاذب فان أجزاءه الدقيقة تتذبذب

حوله بقوة الجذب الخارجية حتى تنتظم صفوفا بكيفية ما كما فى الشكل رقم (١٩) .

وبناء على هذا الرأى يكون السبب فى أن التسخين والهز يضعفان الجاذب هو أن ضروب الاختلال والتشوش التى من هذا النوع من شأنها أن تهز الأجزاء الدقيقة فتخرجها عن نظامها.

ثم إن التسخين والهز يسهلان

شكل (١٩) : الترتيب النظرى للاجزاء الدقيقة فى جاذب قضيبى مشبع

اكتساب خاصة الجذب اذا كان القضيب الخالى منها موضوعا بين قطبى جاذب ، لأنهما يعينان القوة المكسبة لهذه الخاصة على فصل الأجزاء الدقيقة أو السلاسل وردها الى نظامها.

ويمكنك أن تضع نموذجا عمليا مفيدا للتدليل على هذه النظرية بأن تملأ أنبوبة اختبار ببرادة الحديد ، فاذا دلكت هذه الأنبوبة من أحد طرفيها الى الطرف الآخر بجاذب ، رأيت أنها تعمل عمل إبرة معين الجهات ، كما لو كانت هى نفسها جاذبا قضيبيا ، ولكنها تفقد خاصة الجذب بمجرد هز البرادة ، فبرادة الحديد تمثل الأجزاء الدقيقة فى الجاذب ، فاذا عرضت لعمل جاذب صارت قطعها الصغيرة مكتسبة لخاصة الجذب واتجهت أقطابها المتماثلة اتجاها واحدا ، فالأنبوبة من حيث هى كل تعمل عمل الجاذب ، ولكن اذا هززت البرادة بحيث لا يبقى أفراد أقطابها متجهة اتجاها واحدا ، وأبطل من أجل ذلك بعضها عمل بعض ، فقد زال عن الأنبوبة وصف الجاذب .

الحديد اللين أعلى قابلية للتشرب من الصلب الشديد ، ولا سبب لذلك إلا أن الأجزاء الدقيقة فى أولها لا تبدى من المقاومة للقوة التى تميل الى هزها وإعادتها الى نظامها ما تبديه أجزاء الثانية . وأما الصلب ففيه من قابلية حفظ خاصة الجذب أكثر مما فى الحديد اللين ، لأن أجزاءه الدقيقة ليست من سهولة التحريك والإخراج من أوضاعها متى استقرت فيها بالمقدار الذى فى أجزاء الحديد اللين .

الجواذب المتبعة :

من الأدلة القوية على صحة الرأى السالف ذكره ما يشاهد فى أن القطعة من الحديد

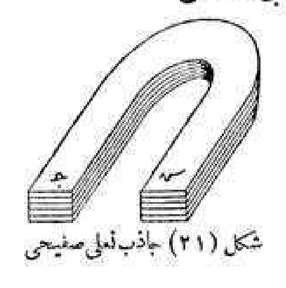
أو الصلب لا يتأتى إكسابها من خاصة الجذب فوق حد معين مهما بلغ مقدار القوة المكسبة لهذه الخاصة . وربما كان هذا الحد مقابلا للحالة التى تكون فيها محاور جميع الاجزاء الدقيقة متوازية كما فى الشكل رقم (١٩) فالجاذب الذى يكون فى هذه الحالة يسمى مشبعا لأنه أقوى ما يستطاع عمله .

الجواذب المركبة :

قد ظهر أن الجواذب الطويلة الرقيقة التى تكون فى شكلها كقطع الصفيح أو الأسلاك تكون أقوى بالنسبة لوزنها من الجواذب المصنوعة من المواد الصلبة . ومن الميسور عمل جاذب شديد القوة بتسمير جواذب صفيحية مشبعة معا . وأقوى الجواذب المستمرة يصنع بوضع عدد من الجواذب السلكية الصلبية المشبعة المتماثلة المكتسبة لخاصة الجذب متجاورة متلاحمة الأقطاب ، ويريك الشكلان رقما ٢٠ و ٢١ مثالين للجواذب المركبة التى من نموذجى الجاذب القضيبى والنعلى .



شكل (٢٠)
جاذب قضيبى صفيحى



شكل (٢١) جاذب نعلى صفيحى

الجاذبية الأرضية :

إن فى اتجاه إبرة معين الجهات دائما نحو الشمال والجنوب أو قريبا منهما لدليلا على أن الأرض نفسها جاذب عظيم له قطب جنوبى جذبى بالقرب من قطبها الشمالى ، وقطب شمالى جذبى بالقرب من قطبها الجنوبى ، لأن قطبها الجذبى القريب من القطب الشمالى ينبغى بالضرورة أن يكون مغايرا لقطب الجاذب المعلق الذى يتجه نحوه ، وقطب الجاذب المعلق الذى يتجه نحو الشمال هو الذى قضى الاصطلاح بتسميته القطب الشمالى ، وفيما سلف كان هذا القطب من إبرة معين الجهات (بيت الابرة) يسمى بالقطب المتطلب .

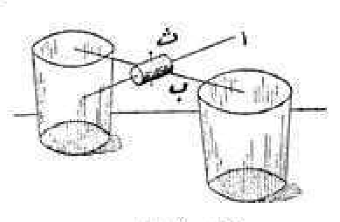
وقد كشف قطب الأرض الجذبى الذى هو قريب من قطبها الشمالى سنة ١٨٣١ ، كشفه السير جيمس روس فى مدينة بوتيا فيليكس من أعمال كندا عند ٣٠َ و ٧٠ْ من خط العرض شمالا و ٩٥ْ من خط الطول غربا ، ثم عثر عليه ثانية فى سنة ١٩٠٥ القبودان أموند سين فى جهة تبعد قليلا عن النقطة الأولى غربا ، ومستقره التقريبى بين ٥َ و ٧٠ْ شمالا ٦ ٤َ و ٩٦ْ غربا ، ومن المحتمل أن يغير وضعه تغيرا بطيئا .

وعدم تطابق القطب الجذبى للأرض وقطبها الاصطلاحى تطابقا كليا هو السبب بالضرورة فى عدم اتجاه إبرة معين الجهات نحو الشمال بالضبط ، وفى أن اتجاهها يتغير اذا حركت على سطح الأرض .

وأول من كشف هذا الأمر الأخير هو كولمبس فى سفره الى أمريكة ، وأحدث كشفه فزعا شديدا بين بحارته . على أن ثمة أسبابا محلية أخرى كوجود رواسب كثيرة من الحجر الحديدى تسبب انحراف إبرة معين الجهات انحرافا موضعيا عن جهة الشمال الحقيقية ، وعدد الدرجات التى بها تنحرف الابرة عن خط الشمال والجنوب فى نقطة معينة يسمى انحراف هذه النقطة .

الميل أو الهوىّ :

إغرز إبرة تطريز خالية من خاصة الجذب فى قطعة من القلين كما فى الشكل (٢٢) وهى المرموز لها فيه بحرف «ا» واغرز فيها إبرة أخرى وهى المرموز لها بحرف «ب» بحيث تكوّن مع الابرة الأولى زوايا قائمة ، وأحكم هذا التركيب بقطعة من الشمع أو بدبوس وهو المرموز له بحرف «ث» حتى يصير فى توازن لا ميل فيه ، وتكون النقطة المرموز لها بحرف «ب» كمحور اذا اتجهت الابرة «ا» الى الشرق والغرب .



شكل (٢٢)

اذا تم ذلك فاكسب الابرة «ا» خاصة الجذب القوى بدلك أحد طرفيها من الوسط الى النهاية بالقطب الشمالى لجاذب قوى، ودلك طرفها الثانى من الوسط الى نهايته بالقطب الجنوبى لهذا الجاذب نفسه، فاذا أعدت الابرة الى حاملها وأدرتها فى خط شمالى جنوبى جاعلا قطبها الشمالى نحو الشمال، لوجد أنها فى المنطقة المعتدلة الشمالية تهوى هويا يجعلها تكوّن زاوية مع الأفق سعتها من ٦٠° درجة الى ٧٥° درجة. وهذا يدل على أن الخطوط الجذبية للأرض فى العروض المذكورة ليست موازية لسطح الأرض مطلقا. والزاوية الواقعة بين هذه الخطوط وسطح الأرض تسمى بهُوِىّ الابرة أو ميلها. ومقدار هذه الزاوية فى مدينة واشنجتون ٥َ و٧١° ومقدارها فى مدينة شيكاكو ٥٠َ و٧٢° وفى القطبين الجذبيين يكون مقدارها بالضرورة ٩٠° درجة، وفيما يسمى خط الاستواء الجذبى وهو خط منحن غير منتظم مار بالمنطقتين الحارتين يكون الهوى صفرا.

الأرض جاذب عظيم :

من الطرق التعليمية الكثيرة الفائدة جدا الدالة على أن الأرض تعمل عمل الجاذب العظيم، أن تمسك أى قضيب عادى من الحديد أو الصلب إمسا كا يكون فيه موازيا للخطوط الجذبية للأرض، أعنى أنه يكون موازيا لخط من خطوط الطول المعروفة فى علم تقويم البلدان، ولكن مع جعل طرفه الشمالى مائلا على هيئة زاوية افرضها ٧٠° درجة ثم اطرق أحد طرفيه بمطرقة بعض طرقات تر أن القضيب قد صار جاذبا طرفه العلوى قطب جنوبى مثل القطب الشمالى للأرض، وطرفه السفلى قطب شمالى، فاذا عكست القضيب وطرقته مرة أخرى بالمطرقة انعكست جاذبيته أيضا، فاذا أمسك فى وضع جعل فيه طرفاه من الشرق الى الغرب وطرق صار مجردا من خاصة الجذب لما يرى من كون كلا طرفيه يجذبان أى طرف من إبرة معين الجهات ؟

And :

« يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

"They will find his name and qualities clearly given in the Torah and Evangel".

(*Alucy's Commentary*).

And :

« تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

"The Lord directed His Prophet to call together his people and their people and make imprecations on those who lied concerning Christ".

(*Alucy's Commentary*).

As already alluded in the beginning of this chapter, the Christians who came to dispute with Mohammad, were dumbfounded and never as much as utter a single word.

To the just and fair-minded among them this was proof positive of his truth and not a few of the eminent men and learned rabbis, such as Abdullah Ibn Sallam and Mocharich, believed in him.

It is incredible that such a man as Abdullah Ibn Sallam, one of the most learned rabbis who made a study of the Law would have believed in Mohammad had he been an imposter. Nor would the Christians of Najran have ignominiously withdrawn from making imprecations after accusing him of falsehood and deceit.

Moreover, it is highly improbable that Mohammad would, had he been an imposter, address them in such a way and upbraid them with the fact that he is known to them "even as they know their own children".

Nor is it imaginable that he would dare to maintain such an assertion for it would have driven them away from him and made him and object of scorn and ridicule.

Had Mohammad not been a prophet as it is alleged, he was undeniably the most prudent of all men. Should he profess to be what he was not, he would have been the most imprudent and ignorant of them all. His enemies would have found in him an easy prey and the great edifice which he had, erstwhile, succeeded in raising would have long crumbled to earth.

"There will come after me false prophets" saith Jesus Christ, and on being asked what will their sign be, he answered "Their sign will be that the Lord shall not support them".

The support extended by God to the prophet Mohammad exceeds, by far, such as was rendered to any of the prophets before him. The great change which took place after his mission is unprecedented in the annals of anterior religions. Any one, who deems it possible that the Lord have supported and made him to prevail whereas he was a lying imposter, would be guilty of gross ignorance of the proper attributes due to the Lord and of the divine laws governing His creatures as well as of His justice and wisdom.

Moreover a lying imposter could not hide his false attitude all his lifetime particularly from his most intimate friends.

It would be impossible that such hypocrisy and deceit should remain unexposed for any length of time. For truth has a distinctive quality which vanity completely lacks, and deception is but a false mask which the lapse of time is bound to tear off some day.

This is more so in the case of someone who has a host of inexorable enemies as Mohammad had.

Yet the history of his companions such as that of Abu-Bekr and Omar bear a glowing testimony to his integrity and moral perfection. For mutual harmony could be achieved only in proportion to the affinity that exists between kindred souls. Character is affected by character and is ultimately tinged with the peculiar traits thereof and this is particularly so in the case of master and disciples where deep and true affection obtains.

Nor is that all, the material phenomena alone performed by Mohammad, more than substantiate his claims. They were cited from the most reliable sources and never, in a single instance, lacked the corroboration of history or tradition. Had those pertinacious cavillers been endowed with a sense of justice and were they only seekers of truth, they would have, unhesitatingly, believed in the authenticity of the Koran which never failed to iterate such verses as :

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The rabbis of the Scripture know Mohammad even as they know their own children whom they confuse not with others, for his name and qualities were clearly given in their books".

(*Baidawy's Commentary*).

To those of deep insight and penetration, there could be no greater proof of truth than the actions of the claimant to prophethood, his spiritual and moral worth and the influence he exercises for the advancement and well-being of men, rendering them thereby, foremost in Heaven as well as on earth.

For such was the state of the Moslem people at the time when they adhered strictly to their faith and the tenets thereof. It would, indeed, be impossible that such far-reaching and important results could be achieved without divine support. The history of the failure of philosophers and others who wielded earthly power fully bears out such a conclusion. Moreover, it should be remembered that Mohammad was brought up among the savage and ignorant tribes of the Arabs which fact constitutes a proof in itself.

It is not our intention to discuss in detail the characteristics and miracles of Mohammad. Nor is it our desire to dwell long on the fact that falsehood becomes not such a perfect soul. "I have been sent to perfect the traits of noble conduct" such was Mohammad's mission unto mankind.

Such a great soul from whence issued forth the springs of good unto the whole world could hardly be an evil one. For deceit is a characteristic which has a most pernicious and detrimental effect on the souls and is positively a sign of utter depravity and degradation.

It is an established fact that he who lacks something, cannot but fail to give it, that the true character of a person will, in course of time, be revealed whether he willed it or not and that the soul of man will be laid bare not only through his words and actions but also through his very gestures.

It is recorded of some Arabs that on beholding the divine light of truth which radiated from Mohammad's face, they exclaimed: "Verily this is not the face of an imposter" and consequently believed in him. (1)

Suffice it to say in this connection that Mohammad was so noted for his noble conduct and unimpeachable character that the people of Koreish called him "The Faithful".

Moreover, it has never been the divine rule to give support to imposters claiming prophethood for that would be incompatible with the wisdom and justice of the Lord.

---

1) The same is recorded of Abdullah Ibn Sallam a learned Jewish rabbi.

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

"Would the unbelievers not peruse the Koran and meditate the exhortations and admonitions contained therein that, haply, they may avoid such sins as they have committed; Nay but their hearts are so completely sealead against meditation that no word or truth could find a way thereto".

(Alusy's Commentary).

Much more could be written on this point, but we must present the case from other points of view.

On further consideration, it would be readily recognized that the elevation of the Arab people from the lowest depths of ignorance to the highest attainments of knowledge, from servile humiliation to exaltation, their inculcation of a most efficient culture and guidance to the most noble conduct in every sphere of life, had so transformed them that everyone of them had become a power by himself after having been akin to the beasts of prey. They were guilty of oppression of the weak and burying their daughters alive, an atrocity which even animals recoil from. Yet in less than no time, they achieved distinction as the greatest statesmen and leaders of their time and the light that was theirs, was henceforth, shed all over the earth.

To those of sound judgement and clear insight, this proves beyond all doubt, that the source of such a great faith, is the very incarnation of all good and perfection. For the virtues imbued from one person by others must, of necessity, be commensurate with his moral worth and attainments.

The object of all divine dispensations is but to deliver mankind from the pernicious evils that beset them and to implant noble conduct deep in their hearts as well as the fear of God in secret and public. For this is the bedrock of all good and prosperity. The Prophet Mohammad is, in this respect, the greatest of all prophets and this in itself affords ample evidence of his truth to those who set a value on moral proofs. As to the others, we would refer them to the more tangible proofs and natural phenomena for they fail to appreciate the fundamental truth on which hinges the salvation of mankind and their elevation to the highest possible standard of moral and spiritual excellence.

They fail to comprehend the reality of things and lack the experience of those finer feelings which afford the souls the blessedness of the Kingdom of Heaven to which they aspire.

For in no other wise could man achieve material and spiritual refinement.

Should we fairly consider the book revealed to Mohammad, we would readily recognize the divine source from whence it issued. The reader who studies the Koran carefully would find that it enjoins no more than the worship of God, noble conduct and kindly treatment of men, thus leading to the path of salvation and urging to mercy and benevolence towards God's creatures. It maintains the unity and infallibility of God and points out the love and reverence due unto Him. It further enjoins to entertain no awe except of Him and to seek no refuge save in Him, for He considereth aught of men's outward appearances but looketh deep into their hearts, so that they may attain through faith and integrity, the highest of all virtues and the acme of perfection.

Had this book been faked for some ulterior motive or other, we would have found it altogether different and it would have been a medley of confusion and contradictions instead of being the model of sublime wisdom and perfection that it is.

No wonder, therefore, that the Lord saith in this connection :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الألوسي

"Were men and Djinn, those supernatural beings who have the power to perform wonders, assemble to produce something equal to the Koran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it though they may include amongst them the purest Arabs of the progeny of Ishmael who are masters of rhetoric and oratory. Nay but they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can".

(*Alucy's Commentary*).

Could such an extraordinary utterance be made by a wavering imposter? For imposters are known, the world over, to be a cowardly lot who feel apprehension on the least possible provocation.

What great faith and conviction must have filled that heart from whence issued at the Lord's behest this significant verse :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Should the allegation of the unbelievers that the Koran is a discourse of men, be true, let them summon all they command of their men, djinn and deities apart from the Lord for He alone can produce the like of it; but, when their attempt to emulate the Koran will fail to produce anything approaching it, and it is bound to fail, it would be manifest that the Koran is the word of God and belief therein would be incumbent on all, so let them fear hell whose fuel shall be men and the hewn idols they worshipped, and is made to receive those who disbelieved".

(*Baidawy's Commentary*).

It should be observed that a prophecy is included in this verse foretelling the inevitability of their failure which was duly fulfilled. We have already alluded to the many prophecies foretold in the Koran; a similar one is the prophecy concerning the Jews which runs:

«وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The Jews claimed that Paradise is exclusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims, they were challenged to wish for death if they were so sure of going to Heaven, but never will they wish for it because of the sins they have committed which rendered them liable to hell-fire".

(*Baidawy's Commentary*).

But they dared not wish for it, even perfunctorily, despite their eagerness to refute his claims.

So much for this digression; to resume the main subject, the failure of the Arabs to emulate the Koran was proof positive, against them as well as all others, of the divine origin thereof even as the healing of the blind and the leper by Jesus was considered a proof against medical practitioners, and the turning of his staff into a serpent by Moses a proof against magicians. Yet the successive corroboration sustained by authentic traditions and versions of the miracles performed by Mohammad, have never fallen to the lot of Moses, Jesus or any other prophet. In fact such corroboration is completely lacking in their case, and it was only through the Koran that their miracles were confirmed.

But they declined to do it knowing of his truth and their chief spokesman, Al-Akeb, by name said "Ye have witnessed that the man is a prophet and never did a people enter into imprecation against a prophet of God but they were destroyed".

Would not his insistence to purge the souls of the taints of human nature and vile desires be considered a clear indication of his truth? For, indeed, such solicitude could only proceed from a holy soul completely devoid of personal ends and desires and relying for guidance on divine inspiration. Had this not been the case, he would otherwise have lapsed into contradiction and confusion in pursuance of the different ends and according to the ever-changing phases of circumstance.

The following verse is significant in this connection :

« وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Let the unbelievers consider the meanings of the Koran and meditate the purport thereof; for had it been a discourse of men as they allege, they would not fail to detect therein many incongruities and contradictions".

(*Baidawy's Commentary*).

Would not his wide vision, comprehending as it did, all spheres of human life constitute another sign of his truth? There was not a single concern of man to which he did not prescribe the adequate means for the right conduct thereof. He pointed out the proper attitude in regard to God which leads to the elevation of man's mind and the salvation of his soul, acquainting him thereby, with the finer and higher attributes that dwell within him besides his corporeal frame. Nor was the treatment of his family or of people in general left out, his relations with them were so happily ordered to ensure a happy and contented life.

Would not the failure of the Arabs, who were the acclaimed masters of eloquence and oratory, to emulate the Koran constitute yet another sign of his truth? They were intent on the refutation of his claims and the suppression of his influence; but he continued, therewithal, to upbraid them and heap censure on their conduct as shown in the following verse :

« فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ »

English Supplement of

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

The Prophet Mohammad [1]

(Continued.)

The attitude of Mohammad towards the Christians was just the same; yet, in no single instance, did a Christian or a Jew dare to deny his truth on those occasions despite the bitter hatred and animosity they harboured against him and their eagerness to refute his claims.

Nor was that all, he called upon the Christians at the behest of the Lord

« تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

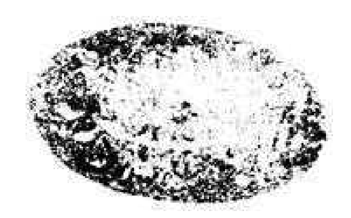
ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

"to summon together his people and their people and make imprecations on those who lied concerning Christ" [2]

(Alucy's Commentary).

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's book *"Messages of Peace"*.

(2) The Christians of Najran sent a deputation to dispute with Mohammad concerning Christ. They agreed to abide the trial mentioned in the verse but at the last moment their courage failed them.



قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ •



نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء التاسع	رمضان سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة



عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف (سابقا
ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى (

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	قرش
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ قرش صاغ داخل القطر و ٤ قرش خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السنة – والبدعة

٢

ويتصل ببحث السنة مسألتان جرى فيهما اختلاف علماء الشريعة (إحداهما) ما يقوم الدليل على أنه سنة ، ثم يتهاون فيه الناس ، ولا يحتفظ به إلا فريق عرفوا باسم المبتدعة من ناحية اعتقاد أو عمل ، وقد ذهب بعض الفقهاء الى ترك هذه السنة احتراسا من التشبه بالمبتدعة ، وضرب المثل لهذا بتسطيح القبور والتختم باليمين ؛ والحق أن محافظة بعض المبتدعة على سنة حتى تصير شعارا لهم ، لا يخرجها عن حقيقة السنة ، ولا يزال خطاب الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فيها متوجها الى أولئك الذين تركوا السنة حتى يعودوا اليها .

(ثانيتهما) ما يخشى من فعله اعتقاد العامة لوجوبه ، فقد راعى بعض الأئمة مفسدة اعتقاد العامة لوجوب ما هو مندوب اليه ، كما ذهب الامام مالك الى كراهة صوم ستة أيام من شوال مع صحة الحديث الوارد فى فضله ، خشية أن يعتقد العامة وجوبها ، قال أبو اسحاق الشاطبي : والذى خشى منه مالك وقع فى العجم ، فصاروا يتركون المسحّرين على عادتهم والبوّاقين .

وكذلك قال أبو اسحاق المروزى من أصحاب الامام الشافعى : لا أحب أن يداوم الامام على مثل أن يقرأ كل يوم جمعة بسورة الجمعة ونحوها ، لئلا يعتقد العامة وجوبه ، والجمهور لا يقيمون للخوف من اعتقاد العامة وزنا . والتبعة فى مثل هذا على أهل العلم

إذ هم المطالبون بتعليم الناس آداب دينهم وهدايتهم الى سبيل ربهم ، وانظروا الى ما صنع عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قبّل الحجر الأسود وقال : « إنى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك [1] » فقد جمع بين الأخذ بالسنة ودفع ما عساه يخطر فى أذهان العامة من اعتقاد فاسد .

البدعة :

البدعة فى اللغة الأمر المحدث على غير مثال ، محمودا كان الأمر أم مذموما ، ووردت البدعة فى لسان الشارع ، فذهب الفقهاء فى الحديث عنها مذهبين : (أحدهما) مذهب من يتوسع فى معناها فيحملها على ما أحدث بعد عهد النبوة ، سواء أكان راجعا الى العبادات أم المعاملات ، وسواء أكان حسنا أم قبيحا ، قال الامام الشافعى رضى الله عنه : المحدثات من الأمور ضربان : أحدهما ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو إجماعا ، فهذه البدعة الضلالة ، والثانى ما أحدث من الخير ، وهذه محدثة غير مذمومة . وعلى هذه الطريقة جرى عز الدين بن عبد السلام إذ قسم البدعة الى واجبة كوضع علم العربية وتعليمه ، ومندوبة كإقامة المدارس ، ومكروهة كتزويق المساجد ، ومحرمة كتلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربى ، ومباحة كوضع الأطعمة على الموائد ألوانا .

(ثانيهما) مذهب من يفسر البدعة بالطريقة المخترعة على أنها من الدين وليست من الدين فى شىء ، فهى مذمومة فى كل حال ، ولا يدخل فى حقيقتها واجب أو مندوب أو مباح ، وعلى هذا المعنى ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « وكل بدعة ضلالة » وهذا ما يريده الامام مالك رضى الله عنه فى قوله : « من ابتدع فى الاسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، لأن الله تعالى يقول : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى) » .

(١) صحيح الامام البخارى .

وأصحاب هذه الطريقة يحملون قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى صلاة التراويح : « نعمت البدعة هذه » على معنى البدعة فى اللغة ، كما أن أصحاب الطريقة الأولى يذهبون فى قوله صلى الله عليه وسلم : (وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة [1]) الى أن المراد من المحدثة والبدعة نوع خاص من المحدثات والبدع ، وهو ما كان مخالفا للكتاب والسنة .

والابتداع إما إحداث أمر فى الدين غير مشروع من أصله ، كصلاة الرغائب فى رجب ، وصلاة ليلة عاشوراء ، وإما زيادة على أمر مشروع ، كالذكر يقرن بالرقص فى حركات متطابقة ، وإما نقص من المشروع ، كالذكر باسم مفرد فى رأى من يعده بدعة ، نظرا الى أن الوارد إنما هو ذكر الله بلفظ مركب مفيد ، وإما تحويل المشروع عن موضعه ، كتقديم خطبة العيد على صلاته .

ويدخل فى البدع كل عمل استند صاحبه فى ابتداعه الى حديث موضوع ، كالرقص فى حال الذكر الذى يروى فيه فاعلوه حديثا موضوعا هو « أن النبى صلى الله عليه وسلم تواجد واهتز حتى سقط الرداء عن منكبه » أما الحديث الضعيف يدل على فضل عمل خاص فينفى عن العمل اسم البدعة ، بشرط أن لا يكون ضعيفا جداً ، وأن يشهد لما رغّب فيه من العمل أصل عام من أصول الشريعة .

ويدخل فى البدعة ترك المأذون فيه على وجه التدين ، وتسمى البدعة التركية ، وقد سدت الشريعة الطريق دون هذه البدعة إذ همّ قوم أن يقعوا فى خطيئتها ، فقال تعالى : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَاَ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ) ولم تعدم هذه البدعة بعد نزول الآية أناسا يتعلقون بها ويحسبون أنهم يتقربون الى الله بالتزامها ، وإنما انحدروا اليها من ناحية الزهد ، وللزهد مواطن لا يدخل ترك الطيبات فى حدودها .

---

(١) أخرجه مسلم .

دعى الحسن البصرى الى طعام ومعه أصحابه وفرقد السبخى [1] فقعدوا على المائدة وعليها ألوان من الدجاج المسمن والفالوذج وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن عليه، وقال: يافرقد أترى لعاب النحل بلباب البر بخالص السمن، يعيبه مسلم!

ومن البدع التى يلبسها بعض المتصوفة بدعوى الزهد أثواب ينشئونها من قطع مختلفة، وتسمى المرقعات، قال القاضى أبوبكر بن العربى فى كتاب العارضة: إن الثوب اذا خلق منه جزء كان طرح جميعه من الكبر والمباهاة والتكاثر فى الدنيا، واذا رقعه كان بعكس ذلك كله، ورقع الخلفاء ثيابهم، والحديث مشهور عن عمر، وذلك شعار الصالحين وسنة المتقين، حتى اتخذه الصوفية شعارا، فجعلته فى الجديد وإنشاء مرقعة من أصلها، وهذا ليس سنة، بل هو بدعة عظيمة، داخل فى باب الرياء، وإنما المقصود بالترقيع استدامة الانتفاع بالثوب على هيئة البلى.

ومن أقبح البدع مابوضع موضع سنة كالاستخارة بنحو المصحف والسبحة بدل الاستخارة الواردة فى السنة التى هى صلاة ركعتين بالفاتحة وسورتى الكافرون والإخلاص، ثم الدعاء (اللهم إنى أستخيرك بعلمك الخ)، ولو قال إنسان لآخر عند الملاقاة: «صباحُ الخير» أو «أسعد الله صباحكم» مثلا — فى موضع السلام عليكم، لعد صنيعه هذا من قبيل وضع المحدث مكان السنة، غير أن الفرق بين هذا المثال وما تقدمه أن الاستخارة بنحو المصحف والسبحة ممنوعة فى نفسها، قال القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب الاحكام بعد أن تكلم على التعرض للغيب: فإن قيل فهل يجوز طلب ذلك فى المصحف؟ قلنا لا يجوز، فإنه لم يتبين المصحف ليعلم به الغيب، إنما بينت آياته، ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به ولا يتعرض أحدكم له. وأما نحو «أسعد

(١) السبخة موضع بالبصرة ينسب إليه فرقد لانه كان ياوى إليه.

الله صباحكم » فإنما ينكر حيث يوضع موضع تحية الاسلام ، فلو أضيف الى التحية الاسلامية لم يكن فى إضافته اليها من بأس .

ومما يفعله بعض الناس بدل حكاية الأذان والدعاء (اللهم رب هذه الدعوة التامة الخ) الثابتين فى الصحيح أن يقول الشخص : « مرحبا بحبيبى وقرة عينى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم » ثم يقبل إبهاميه ويجعلهما على عينيه ، ولا نعلم لهذا الذى يفعلونه من سند يوثق به حتى يصح أن يقام مقام سنة ثابتة .

ولا يدخل فى البدعة ما يفتى به البالغ درجة الاجتهاد وإن خالف الجمهور ، وإنما هو رأى مرجوح وآخر راجح — إلا أن تكون الفتوى مخالفة للنص الجلى من القرآن أو السنة ، أو القواعد القاطعة أو الإجماع ، فإن الفتوى تكون حينئذ زلة لا يصح البقاء عليها أو المتابعة فيها .

والشاهد على ما نقول من أن الأعمال التى تسند الى آراء اجتهادية ولو كانت مرجوحة لا تسمى بدعة ، أن الأئمة المجتهدين يرون أقوال مخالفيهم بالنسبة الى أقوالهم مرجوحة ، ولا ينسبونهم الى ضلال ، ولا ينكرون على من يقتدى بهم فى المذهب ، وإجماعهم على أن حكم الحاكم يرفع الخلاف ، شاهد على أن المجتهد لا يرى أن العمل بقول مخالفه بدعة ، ولو كان فى نظره بدعة لما أفتى بإقراره وهو يعلم أن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . فلا نسمى الصلاة لغير الخسوف والكسوف كالزلزلة والريح الشديدة بدعة وضلالة ، وصاحبها مبتدعا ضالا ، لأنها مشروعة عند بعض الأئمة وإن كانت أدلتهم فيما نرى أو يرى الامام الذى تفقهنا على مذهبه ، واهية مرجوحة .

نقول هذا تحذيرا من قوم لم يدرسوا أصول الدين ، ولم يتعرفوا مقاصد الشريعة ولمجرد مايتلون آية أو حديثا ويبدو لهم — وهم أشباه العامة — أن مايقوله الامام فلان أو الأئمة الأربعة مخالف للآية أو الحديث ، يعجلون الى الإنكار ، ولا يبالون أن يسموا العمل على ماظهر لهم من أنه مخالف لنص الكتاب أو السنة ، بدعة ، وصاحبها مبتدعا .

واذا كان فى أشباه العامة من يقرأ الحديث فى صحيح الامام البخارى أو الامام مسلم مثلا — ولا يحسن أن يتفقه فيه على مقتضى أصول الشريعة ، فيخف الى الطعن فى مذاهب الأئمة حتى ينبزها بلقب البدعة ، فإن فى المستضعفين من أهل العلم من يعمد الى أعمال يبتدعها العامة مخالفة للنصوص الجلية أو القواعد القطعية ، فيتطلب لها مخرجا يبتغى بها مرضاتهم (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) .

ومن أضر البدع ما يكون إتلافا للمال وإنفاقا له فى غير جدوى كإيقاد الشموع على قبور الأولياء بقصد القربة . ومن أجلبها للخسار ما يعوق عن فعل خير كالاستخارات غير الشرعية ، فقد يتفق لفاتح المصحف أن يقع نظره على آية فيها معنى النهى — مثلا — فيترك الأمر ويكون فى فعله لو استشار أو اعتمد على الاستخارة الشرعية خير كثير .

ومن شرها ما يفعل بدعوى القربة ويكون فى الواقع مثيرا للأهواء ، مبعداً للنفوس عن التقوى ، كهذه الأشعار التى توصف فيها الخمور والغوانى والغلمان ، ولا يتحاشى فيها عن ذكر العشق والهجر والوصال والعيون والثغور والرضاب ، ويتغنى بها فى المجامع بزعم أنها كنايات أو إشارات لها تعلق بالحضرة الإلهية أو النبوية .

ومن أسوأ البدع ما يضاهى به بعض طرق المخالفين ، كهذا الذى يدعو اليه بعض الزائغين أو المغفلين من إقامة خليفة (روحى) لا جند له ولا سلاح ، ولا يملك من تنفيذ الأحكام الشرعية قليلا ولا كثيرا ، يدعو اليه الزائغون لأنهم يريدون اتخاذه رمزا لفصل الدين عن السياسة ، ويدعو اليه بعض المغفلين لأنهم لم يتنبهوا لسريرة الزائغين أو لما قصد الشارع فى إقامة الخليفة من مصلحة اتحاد كلمة المسلمين وتنفيذ أحكام شريعته الغراء ، وإنما يتحد المسلمون تحت راية من يحترمونه لعدله وجهاده فى الحق جهادا يطمس على أثر الباطل ، وإنما يقيم أحكام الشريعة على وجهها من يكون فى لسانه حجة وفى يده قوة .

ومن البدع التي جاء الاسلام ليقتلعها من منبتها أعمال يبنيها أصحابها على زعم أنها تقي من الجن، وليس بينها وبين هذه الوقاية من صلة، كذبح حيوان، أو صنع طعام، باعتقاد أنه يجلب رضاهم، ويكون سببا لدفع ضرر يتوهم أنه يجيء من ناحيتهم. ذُكر لابن شهاب أن إبراهيم بن هشام المخزومي أجرى عينا فقال له بعض المهندسين عند ظهور الماء: لو أهرقت عليها دما كان أحرى أن لا تغيض ولا تفور فتقتل من يعمل فيها، فنحر جزائر[1] حتى جرى الماء مختلطا بالدم، وأمر فصنع له ولأصحابه منه طعام، فقال ابن شهاب: أما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يذبح للجن؟

وقد عرفت أن ترك السنة لا يستدعي فعل بدعة — إلا أن تترك السنة على اعتقاد أن خير الدين في تركها، فيكون من قبيل البدعة التركية، كمن يترك الصلاة في جماعة بدعوى أن صلاته في حال انفراد أجمع للقلب وأدعى للخشوع. أما من ترك السنة لغرض دنيوي، فلا يسمى لمجرد تركه السنة مبتدعا، كما اعتاد الناس ترك تشميت[2] الرؤساء مهابة لهم ولو حمدوا الله تعالى بعد العطاس، عطس المأمون مرة في محضر جماعة فلم يشمّته أحد، فقال لهم: لماذا لم تشمتوني؟ قالوا هبناك، فقال: لا خير في مهابة تحرمني من رحمة الله. وإنما أمات هذه السنة في مجالس الرؤساء استنكاف بعضهم من الرد على من يشمّتهم، وما كان لهم أن يستنكفوا.

وإذا كانت البدع تشوه وجه الدين الحنيف في نظر من يجهلون حقائقه فضلا عما تجره من المفاسد العظيمة والمآثم، فمن الواجب على أهل العلم أن يحاربوها ما استطاعوا، وعلى القوة الحاكمة أن تشد أزرهم في تغييرها، وكثير من البدع لا تقتلع عروقها ويطمس على آثارها إلا أن تتعاضد القوتان: العلمية والتنفيذية على إماتتها، قال عز الدين ابن عبد السلام في رسالة[3] أنكر فيها بدعة صلاة الرغائب: «ولما صح عند الملك

---

(١) جمع جزور وهي الناقة المجزورة اي المنحورة. (٢) تشميت العاطس الدعاء له. (٣) أوردها ابن السبكي في طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٠٥

الكامل رحمه الله أنها من البدع المفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبطلها من الديار المصرية ، فطوبى لمن تولى شيئا من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة بدعة أو إحياء سنة » .

هذه كلمة موجزة فى السنة والبدعة ، وسنعود الى هذا البحث إن شاء الله تعالى تارة أخرى ؟

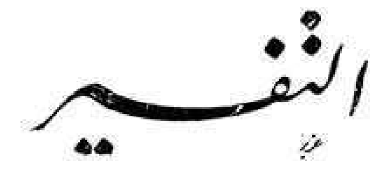
محمد الخضر حسين

الطُرف والمُلح

قال سفيانُ الثَّوْرى : العالم طبيب هذه الأمة ، والمال داؤها ، فاذا كان يَجُرُّ الداء الى نفسه ، فكيف يعالج غيرَه ؟ ! .

* * *

لما مرض الامام الشافعى رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه قال لقومه : اذا أنا متُّ فقولوا لفلان يُغَسِّلنى . فلما تُوُفِّىَ وبلغه الخبر قال : ائتونى بِتَذْكِرَته . فجىء بها اليه ، فوجد فيها على الشافعى سبعين ألف درهم دينا لفلان وفلان ، فكتبها الرجل على نفسه وقال : هذا هو الغُسْل الذى أراده .



تفسير سورة النور

وهى السورة الرابعة والعشرون وآيها ثنتان وستون . وقيل أربع وستون . وهى مدنية إجماعا . واستثنى بعضهم آية :

(وَلْيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ)

والأكثر على أنها مدنية أيضا

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى المجلة سؤال عن تفسير قوله تعالى : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية ، فنظرنا واذا الآية فى سورة النور ، معقبة لآيات تتعلق بتنظيم الحياة المنزلية وصون روابط الأسرة وبيان حقوق وواجبات المعاشرة والاختلاط بين الجنسين : الذكور والأناث ؛ واذا بكل هذا يتصل اتصالا تاما بما بدأنا الكلام فيه من روابط الحياة المنزلية ؛ ثم هو دواء شاف وعلاج ناجع لما أصابنا من الأمراض فى هيئتنا الاجتماعية الحاضرة ، فحدا بنا ذلك كله الى الشروع فى تفسير السورة بتمامها مما يصل بنا إن شاء الله تعالى الى تفسير الآية الكريمة المسئول عنها (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ولا نرى فى ذلك إبعادا مؤلما للسائل . فما ابتعدنا عن غرضه إلا إكمالا لفائدته وفائدة القارئين وفائدتنا معهم إن شاء الله ، والله المستعان :

قال الله تبارك وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

السورة جملة من القرآن الكريم مستقلة بذاتها، ذات بداية ونهاية معلومتين شرعا بالتوقيف، وهي تشتمل على آيات أقلها ثلاث؛ وأصل تسميتها من السور وهو البناء الذي يحيط بالمدينة، لأنها تحيط بالآي المشتملة هي عليها إحاطة تحددها ولا تدع بابا للزيادة عليها ولا للنقص عنها؛ أو من السورة بمعنى المنزلة والمرتبة، فإن كل سورة من القرآن من قرأها وفهمها حق فهمها فقد وصل الى منزلة من العلم ومرتبة حقه أن يعنى بها ويغتبط بإحرازها؛ وكلا الوجهين فيه حكمة لتقسيم القرآن سورا، فإن القارئ اذا حفظ جملة مستقلة بمبدئها ونهايتها حق له أن يستريح الى ما أحرز ويبتهج بما نال، إذ تم جملة صالحة للوقوف عندها، قد جعل لها الشارع معنى مستقلا عما قبلها وما بعدها، وللنفوس عادة استراحة حين وصولها الى تمام شيء تعالجه وإن كان سيليه آخر من نوعه، كالمسافر يقطع مرحلة فيتنفس بالراحة ثم يستأنف السفر بنشاط جديد، وكذلك تسر النفس إذ تشعر أنها أحرزت منزلة خاصة، وحازت مرتبة معينة من الفضائل والفوائد والأحكام، قد جعل لها الشارع قيمة معينة بما جمع من أحكامها وآيها في نسق واحد، فكل من حاز مرتبة منها فقد أحرز شيئا كاملا يبعث سروره ويوجب غبطته.

والإنزال الوحي من الله تعالى الى نبيه، على لسان جبريل أو بدونه، كما قال جل شأنه: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا) والتعبير بالإنزال أو التنزيل، لأن مصدر هذا الوحي هو العلي الأعلى، فكل ما سواه فهو نازل، ومعلوم أن العلو هو العلو الرتبي، إذ ليس للباري جل وعلا مكان ولا جهة، أو لأن الملك الذي ينزل به ينزل من جهة السماء، وهو من الملأ الأعلى، وذلك علو حسي ومعنوي أيضا، باعتبار علو منزلة الملائكة عامة على الانسان في الجملة، وذلك لا ينافي أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق على الإطلاق.

والفرض الحز فى الشيء، والقطع غير المستأصل، ومنه قيل لموضع القوس من الوتر فرض، سمى به الأمر الجازم لما فى الحز من الثبات وعدم المحو، ومنه جاء قوله تعالى فى بيان الجزم فى الأمر: (فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) أى بلغ ما أوحى إليك بلاغا جازما مؤثرا أثرا ثابتا لا يمحى كالصدع فى الزجاج، وعلى كل حال فمعنى القطع فى تحتيم الأمر مستفيض بأى لفظ ورد كالبت والجزم، والآيات جمع آية، وهى فى الأصل العلامة والأمارة، تقول: آية ما بينى وبينك أن أشير بكذا أو أرسل كذا، وأكثر استعمالها فى الشئون ذات الخطر، فهى بهذا تفارق السمة والعلامة، وتطلق على العبرة لأنها علامة ودليل على عظمة قدرة الخالق وعلو سلطانه وقهره، وإطلاقها على الجملة من القرآن الكريم، لأنها بما احتوت عليه من إعجاز أوحكمة بالغة أوخبرعن غيب أوما ماثل ذلك، علامة على صدقه صلى الله عليه وسلم فى أنه إنما يبلغ عن ربه.

والبينات جمع بينة، من بان بمعنى اتضح، ووضوحها إما فى ذاتها وإما فى دلالتها على ما قصد منها وما أقيمت شاهدا على صحته، ومنه البينة بمعنى الشهادة، لأنها واضحة الدلالة على صدق ما قامت عليه.

ولعل فى أصلها للترجى، وهى توقع أمر مرغوب فيه، أو لتوقع أمر مخوف مكروه، وهذا المعنى محال فى حقه جل شأنه، فتحمل فى كلامه عز وجل على التعليل، أى أن ما بعدها علة لما قبلها، فهى كاللام التعليلية — إلا أنه يفرق بين مواقعها ومواقع اللام، فإن اللام وكى وأمثالها تقع فى القرآن العزيز لبيان العلة المؤدية الى المعلول حتما، وأما لعل وعسى فإنها للعلية بمعنى التهيئة للحكم المعلل بها وتيسير أسبابه، ويبقى لتحقق توجه المخاطب أو اختيار من تعلق به الحكم، ومحصل ذلك أن التعليل باللام يكون فى العلة المكتفية بنفسها، والتعليل بعسى ولعل للعلة المتوقفة على اختيار المختار. وقد تستعملان بمعنى الترجية، أى حمل المكلفين على الترجى، كقوله تعالى: (عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ) والتذكر معناه استحضار معلومات كامنة فى النفس غائبة عنها.

بدأ جل شأنه هذه السورة الكريمة بما هو متحقق فى كل سورة ، وهو (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) فما من سورة من القرآن الكريم إلا وهى سورة أنزلها جل شأنه وفرضها على عباده ، فرض الإذعان لها والتصديق بما فيها، والعمل بما احتوت عليه من أحكام إن كانت من سور الأحكام، واعتقاد أنها من عند الله ، وأنزل فيها آيات بينات ، وإنما اختص هذه السورة بهذه البداءة لتربية الانتباه فى نفس سامعها، والتفطن لما سيلق عليه فيها، تنويها بشأنه وتعظيما له ، مثل ذلك — ولله المثل الأعلى — مثل أن تقول لمخاطبك فى أمر تعنى به فضل عناية وتهتم به عظيم اهتمام تقول له : « كلمة أقولها لك » أو « موضوع ألقيه إليك » أو « مسألة عرفتها لك » وما من كلام تحدث به مخاطبك إلا وهو من هذا القبيل ، وإنما تريد بذلك أن تسترعى انتباهه وتوجه اهتمامه ، وكذلك اذا تحدثت الى عظيم فى شئون شتى ثم أردت أن تعرض لأمر أنت به جد مهتم فتقول له : « كلمة أريد أن أقولها » فإنك تسمع منه حينئذ ما يدل على أنه أعطاك إصغاء خاصا ، فتقولها وأنت واثق من إحرازها سمعه وانتباهه .

وإنما عنى فى هذه السورة بذلك لأنها جاءت فى شأن من أخطر شئون الحياة ، وهو صون الحياة المنزلية مما يتهددها من أخطار الأمراض ، وتنظيم الخلطة بين الناس على وجه يكفل الخير ويبعد عن الشر ، فقد تضمنت حكم من لم يحفظ فرجه من زانية وزان ، ومن هذا يظهر سر مناسبة هذه السورة لسورة (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) التى فيها قوله تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) فكأنها عود على بدء ، وبيان شأن الفروج وحفظها، وما يجب أن يراعى فى حفظها ويحتاط به لصونها بيانا شافيا وافيا، لأمر هو من أخطر أمور الحياة وأشدها تعلقا بنظامها ودوام سعادتها ، ثم بيان ما يجب للأبضاع من الحرمة والصون ، حتى عن أن تنال بقذف بالكلام ، ورتب الأحكام الشديدة على القذف ، ومساق قصة الإفك ببسط الآداب والأحكام ، تنبيها على عظم خطره ، وتلا ذلك

الأمر بغض البصر وصون الأجسام عن التبذل والتكشف ، وأمر النساء بالاحتشام والتستر ، وكل ذلك من توسيع الحمى الذى تجب صيانته فى سبيل صون الفروج وحفظها ، ثم الأمر بالاستئذان حذرا من مفاجأة النظر ، ثم الأمر بالإنكاح وأمر من لم يقدر بالاستعفاف ، والنهى عن إكراه الفتيات على البغاء ، وهكذا من الإرشادات التى لا تستقر السعادة فى منزل لم يتمسك بها ، وجاء بعد ذلك وما يتعلق به قوله جل شأنه : (ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) على ما يتضح وجه الجمال فيه إن شاء الله تعالى .

ومما يزيد أحكام هذه السورة عناية فوق ماتقدم أنها تعالج مرضا قوى الاستحكام فى النفوس ، قوى التأثير فيها ، قوى المأخذ والأسباب المؤدية اليه ، وذلك هو طغيان القوة الشهوية فى الانسان حتى تخرج به عن الحد الذى رسمه لها العليم الحكيم ، وحسبك من قوة هذا الشر أنه شر يتعاون فيه نفسان على كل منهما لتفسدا عليه عقله ودينه ، فالرجل مثلا يداعب المرأة ويخاتلها حتى يستتاب منها عفافها ويعبث بصيانتها وعصمتها ، ونفس المرأة وما جبلت عليه من شهوة مستحكمة فيها تساعد ذلك الرجل الصائل ، لأنها هى تشاركه فى هذا الأرب ، فتتعاون نفسها ونفسه الشريرتان على ما فيها من عاطفة خير من حياء أو دين ، أو حمية لعرض أو أسرة ، وعاملان ضعيفان يغلبان قويا ، فما بالك برغبتين قويتى الحياة واليقظة يتسلطان على عامل الحياء أو الدين الذى يضعف رويدا رويدا ، حتى يتوارى ويستنيم مغلوبا على أمره ، لكثرة المداعبات أو المخاطبات التى كل مرة منها تترك فى النفس أثرا سيئا يبعد عن الخير ويقرب الى الشر ، وكما تقول فى مداعبة الرجل للمرأة حتى يغلبها على نفسها تقول فى مشاغل النساء للرجال بالتعرض والتبرج ، والصد تارة والدنو أخرى من وسائل الشيطان وحبائله ، ولا تنس خطرات الشيطان بينهما وسفارته لها حتى يحيك الشرك ويقتنص الفريسة بل الفريستين ، بما يلقيه فى روعهما من تسهيل الخطر واغتنام الفرص ، وهكذا حتى تغفل النفس عن

دينها وأدبها ، وهنا يجيء قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) أى أنه لا يمكن أن يكون حاضر الإيمان مستحضراً لما يعتقده من عقيدة راسخة فى نفسه ، فلو أنها حضرت فى ذهنه حينئذ لاستحال أن يقترب من تلك المعصية ، فلو لم يمنعه الخوف من العقاب لمنعه الحياء من عالى الجناب .

وانظر تعجيب الحريرى فى قوله : « تستحى من مملوكك ، وأنت بمرأى مليكك » فهل تظن أن الرجل الذى يستخزى حين يطلع خادمه على فحشه ، وتضيع رغبته المستحكمة لسماع صوت يخشى أن يكشف سره ولو لم يملك شيئاً من أمره — أتراه يستحضر أن الله مطلع عليه، يعلم سره وعلانيته، ولا يخفى عليه منه شىء ؟ أليس هذا غافلا إلى درجة تشبه الإنكار عن علم ربه وقدرته ؟ حكى أن رجلا عثر بامرأة فامتنعت عليه ، فقال: ماذا تخشين ولا أحد يرانا سوى الكواكب ؟ فقالت : فأين مكوكبها ؟! فكاد يصعق ، وفر هاربا منها ، ألا يعطيك هذا معنى واضحا لحديث (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) ؟

هذا فى قوة داعية الزنى وعوامل اقتحام هذا الحمى المصون . أما آثاره السيئة ونتائجه المقوتة فأكثر من أن تحصى، وأظهر من أن تشرح ، وناهيك بجريمة يرتكبها صاحبها وهو جذلان مسرور ، بينما يجنى على نفسه بإغضاب ربه وتعرضه لشديد عقابه ، وعلى خليلته بهتك عرضها وتعريضها لاقتراف كبيرة وهى لاهية مسرورة ، وتدنيس شرف أسرتها وإلحاق العار بأهلها ولم يقترفوا من جرمها شيئا ، ثم الجناية على الجنين الذى قد يولد بينهما فيعرض للقتل وهو الغالب ، أو الضياع والنفرة منه، والعار الملازم واحتقار كل من عرفه ، أو الجناية على بعلها إن كان لها بعل ، وعلى أولاده بإقحام شخص غريب بينهم يشاركهم بلا حق فى رزقهم وشرفهم واسمهم وكل خواصهم ، ثم يتبع ذلك أحكام لا يعلمها إلا علام الغيوب . فاذا نظرت الى الأضرار الصحية وما أثبته الطب من مضار الزنى مما أفردت له التآليف تبين لك الضرر مجسما .

وبعد ، فإن هذا الأمر الممقوت متى وقع فيه شخص مرة استمرأه وأحب التنقل فيه ، فلا يزال يحيك شراكه لإيقاع الأبرياء فى وهدته حتى يتفاقم الشر ويتزايد الضرر ، وكلما جاء عامل جديد فتح به باب من الشر جديد .

هذا شىء من نتائجه السيئة ، وذاك شىء من عوامله ودواعيه القوية ، فهل يستغرب أن يكون الأسلوب فى علاجه هو أن تجمع الأذهان وتسترعى النفوس لما يلقى عليها فى شأنه من الأحكام المفصلة والآيات البينات لعلكم تذكرون ؟ أجل : إن ذكر الأحكام الزاجرة على الوجه التفصيلى ، وتنويع الأساليب المنبهة لما فيه من مزالق للنفوس الغافلة ، ومسالك للشيطان والأهواء ، مدعاة للذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

وقد قرئ فرّضناها بالتشديد ، إما على معنى فصلنا فرائضها تفصيلا يعين على الذكرى ، وإما على معنى أكثرنا فيها من الفرائض والأحكام ، أو لكثرة المفروض عليهم بكثرة الأحوال التى تمس هذه الأحكام وتتعلق بها ، وهى أحوال لا تكاد تخلو أسرة بل فرد منها ومن التعرض لها ، وقولنا : « يعين على الذكرى » يوضح لك التعليل فى لعل ، وأنه غير التعليل باللام وكى ونحوهما .

قال تعالى : (ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) .

الزنى : الفجور المنكر . ولا نقول المعروف ، فهو أبعد ما يكون عن المعروف . ويعرفه الفقهاء بأنه الإيلاج فى القبل أو التمكين منه ، سواء أحصل من الرجل أو المرأة ، فكل من المولج والممكن يسمى زانيا . والجلد الضرب ، وأصله إصابة الجلد واستعمل فى مطلق الضرب ، أصاب الجلد أو كان على حائل ، بشرط ألا يمنع الألم .

وقيل : الجلد الضرب بالجلد كسوط ونحوه . والأخذ الحيازة . والرأفة الشفقة والتلطف في المعاملة ورقة القلب ، أوهى أشد الرحمة التى هى رقة القلب . ومعنى هذا التعبير التحذير من أن تؤثر الرأفة فى العزيمة فتصرف الشخص عما صمم عليه ؛ وأصل ذلك أن الآخذ يستولى على المأخوذ وينطلق تصرفه فيه حسب ما يريد ، فكأن الرأفة اذا أثرت فيه على وفق مقتضاها وصرفت عزيمته عن وجهتها تكون قد استولت عليه وأخذته ، ومثل ذلك : لا تأخذه فى الله لومة لائم ، أى أن اللوم لا يؤثر فيه ولا يتصرف فى إرادته كما يتصرف الحائز فيما يحوزه ، وهو من أبلغ الأساليب فى التعبير .

وقوله تعالى : (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) من باب إلهاب الحمية واستنهاض العزيمة ، وتقرير التصميم بإسناده الى أعز شىء فى النفس وهو الإيمان ، كما تقول لمخاطبك : إن كنت رجلا فلا تعمل كذا ، وكقولهم : الرجل المهذب لا يبصق فى الطريق ، وهو شائع فى الاستعمال ، وليس معناه أن ترك ذلك مناف للايمان . والطائفة الجماعة المحيطة بالشىء ، من الطواف وهو الدوران حول الشىء . وقد اختلف الفقهاء فى تحديدها هنا : فمنهم من قال : أربعة ، ومنهم من زاد ، ومنهم من اكتفى فى التشهير بواحد .

وهذا أول الأحكام التى تشتمل عليها هذه السورة الكريمة ، والتى مهد لها بهذه البداءة العظيمة فى أول السورة الشريفة ، وقد بدأ به لأنه أهم ما تنبه النفوس الى خطره ، فهو الخطر الأكبر فى هذه المواضيع ، وماقررمنه هو المقصود الأعظم فى هذا التشريع ، وبقية الأحكام الآتية شرعت من أجله وفى طريق تحقيقه ، فهو مركز الدائرة والنقطة الجوهرية ، وما حوله كحمى يرعى لرعايته ، ويصان توصلا لصيانته .

وقد جاء فى حكمه عقوبة دنيوية غير العقوبة الأخروية ، ولعذاب الآخر أشد وأبقى — تلك هى عقوبة الجلد بغير المحصن ، والمحصن هو من وطئ فى زواج شرعى صحيح ، فحده الرجم بالحجارة حتى يموت ؛ وفى الجلد مع الإيذاء معنى الاحتقار وإسقاط منزلة

الزانى عن معنى الانسانية ، وإلحاقه بالحيوانات العجماوات التى لا تعرف التأديب إلا بالضرب ، ولا ينفع معها زجر ولا نصح ، ولا بيان محجة ولا إقامة حجة ، فكأنه تجرد عن الانسانية والفهم باللسان ، ولم يبق له إلا ضرب الجلد وإيجاعه ، فهو الوسيلة الوحيدة لفهمه كالبهائم ، وكما يقول القائل :

العبد يقـــــرع بالعصا والحـــــر تكفيه المقالة

وهل العبد إلا متاع فى المعنى ملحق بالحيوانات العجماوات ؟ وزادت الآية فى التعذيب معنى آخر يدرك نفسهما الانسانية إن بقيت، وهو معنى التشهير والفضيحة : فجعل ضربه أو ضربها أمام طائفة من الناس ، ليكون الخزى والعار أبلغ وأكمل فى حقهما ، وكأن الناس قد شهدت تجريدهما من إنسانيتهما فلا حق لهما فى إعادة الاعتبار ودعوى الافتخار . وزاد بعض الفقهاء فى ذلك تغريب عام ، استنادا للحديث الشريف « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » وهو زيادة فى السنة على ما أفادته الآية ، ومثله لا يسمى نسخا ، لأن النسخ هو إلغاء حكم ثبت ، وهذا زيادة حكم لم ينف ، فإن إثبات حكم لا ينفى ثبوت حكم آخر معه .

وبعض الفقهاء يرى أن الاقتصار فى مقام البيان يفيد الحصر ، فيكون مدلول الآية أن حد الزنى للمحصن هو الجلد لا غيره ، فاذا جاءت زيادة كتغريب أو غيره كانت نسخا ، لحصر الحد فى الجلد المفاد بالآية ، والنسخ لا يكون اذا كان المنسوخ أقوى من الناسخ ، وليست السنة الآحادية فى قوة الكتاب فلا تنسخه ، فاقتصروا فى الحد على الجلد ولم يضيفوا اليه التغريب . هذا فى حد الزانى غير المحصن ، وأما المحصن فحده الرجم كما سبق ، وقيل حده الجلد مع الرجم ، والأول رأى جمهور الفقهاء ، والثانى وهو الجمع بين الجلد والرجم للمحصن رأى الظاهرية ورواية عن الامام أحمد ، وعنه رواية أخرى توافق الجمهور وهى الاقتصار على الرجم فى حد المحصن ، وقد روى عن على أنه جمع فى محصن بين الجلد والرجم ، وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الثيب بالثيب

جلد مائة ورمى بالحجارة » أو « ورجم بالحجارة » فاذا قيل بالجمع بينهما فى حد المحصن فلا يكون هناك نسخ إلا على رأى من يرى الزيادة على الحكم نسخا، لأنها نسخت قصر الحد على الجلد المستفاد من الاقتصار فى مقام البيان على ما سبق .

وأما اذا جرينا على رأى الجمهور من قصر حد المحصن على الرجم وحده، فيكون فى الآية نسخ أو تخصيص ، لأن الزانية والزانى عام للمحصن وغيره ، وقد خرج عنه المحصن بحكم آخر وهو الرجم ، فيكون تخصيصا . وبعضهم يرى التخصيص نسخا لإزالة عموم الحكم ، وبعضهم لا يراه لبقاء الحكم فى البعض ويقصر النسخ على إزالة الحكم بالكلية ، وتفصيل ذلك فى علمى الفقه والأصول ، وإنما الذى يعنينا من هذا هو بيان المخصص لعموم الآية أو الناسخ لها ، فمنهم من يرى تخصيصها أو نسخها بالسنة التى تواترت معنى وإن كانت تفاصيلها آحادا ، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر بالرجم فى عدة وقائع ، والسنة المتواترة تنسخ الكتاب ، بل السنة الآحادية متى صحت يجوز التخصيص عند القائلين بأن هذا تخصيص لا نسخ .

ومنهم من يرى أن النسخ هنا بالكتاب ، وذلك أنه كان فيما أنزل قرآنا آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها ، وهى (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) والنسخ كما يكون للحكم يكون للتلاوة ، ويكون لهما معا ، ونسخ التلاوة داخل فى معنى النسخ الذى هو رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى ، أى لا بقياس ولا إجماع ، فلا ينسخ شىء منهما حكم النص ، والخطاب أعم من القولى والفعلى ، فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم فى باب التشريع صادر عن خطاب الله عز وجل له ، وإنما دخل نسخ التلاوة فى معنى النسخ العام الذى هو رفع حكم شرعى ، لأن معنى نسخ التلاوة رفع حكم التلاوة عنها من صحة الصلاة بها ، وحرمتها على الجنب والحائض ، وحرمة مسها على المحدث وأمثال ذلك ، والحكمة فى النسخ والكلام فى جوازه مبسوط فى أصول

الفقه، وإنما يعنينا منه التماس حكمة لنسخ تلاوة هذه الآية مع بقاء حكمها، وكأنه لإشعار النفوس أن الزنى من المحصن أمر لا ينبغي أن يفرض وقوعه حتى يكون حكم حده متلوا على الألسنة في كل زمان ومكان، بل هو من الشئون التي حقّها العدم من الوجود والزوال من الأذهان، فكأنه يراد تصويره بصورة ما لا يكاد يحصل؛ وعلى ذلك تكون الآية قد نزلت فنسخت عموم الآية السابقة أو خصصتها على اختلافهم في التعبير، ثم نسخت تلاوتها وبقى حكمها.

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال في خطبة: «إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه كتابا، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم — يعني الشيخ والشيخة الخ — فقرأناها ووعيناها» ثم قال: «وإني خشيت أن يطول بالناس زمان، فيقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن» وقد سمعه الصحابة وأقروه فاعتبر إجماعا سكوتيا، وهو يكفي في أنها آية نزلت، ونسخ تلاوتها لا يؤثر في بقاء حكمها وأنه ناسخ أو مخصص لغيره.

ولقد صح ما كاشف به عمر، فجاء جماعة من الخوارج ينكرون الرجم بحجة أنهم لم يروه في كتاب الله، ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أنه لما أنكروا عليه القول بالرجم لأنه ليس في كتاب الله ألزمهم بعدد الركعات في الصلاة ومقادير الزكاة، فقالوا هذا من فعله صلى الله عليه وسلم، فقال: وهذا من فعله صلى الله عليه وسلم. ولا يدل هذا على أن عمر بن عبد العزيز ينكر أن آية الرجم نزلت ثم نسخت تلاوتها، بل هو من الرجوع الى طريق أقرب الى الإلزام والإفحام، وهو الصواب في مناظرة مثل أولئك الخوارج المكابرين ومن يحذو حذوهم.

وعلى الجملة فالقول برجم الزاني المحصن مجمع عليه، ولا عبرة بشذوذ الخوارج، والخلاف إنما هو في موضعين: الأول — أيقتصر في حده على الرجم، وهو رأى الجمهور، أم يجمع بينه وبين الجلد، وبه قال فريق كما تقدم. الثاني — بماذا نسخت آية

الجلد أو خصصت : أبالآية المنسوخة تلاوتها، أم بفعله صلى الله عليه وسلم ؟ وذهب كثير الى الثانى ، لأن فعله صلى الله عليه وسلم قد تواتر وصار قطعى الثبوت ؛ وأما قرآنية تلك الآية فروايتها آحاد ، وذكر عمر لها فى خطبته مع سكوت الصحابة عليه فى رأيهم لا يفيد القطع .

هذا وإن من يتأمل فى هذا البيان المشتملة عليه الآية فيما يتعلق بالزجر عن الزنى وتهويل أمره ، لايبقى لديه شك فى أنه من أشد المنكرات وأكبر الكبائر ، فانظر الى التمهيد لأحكامه بالبداءة العجيبة أول السورة ، ثم إيجابه الحد الزاجر المخزى ، ثم النهى عن الرأفة فى شأنهما ، ثم ربط ذلك النهى عن الرأفة بالايمان بالله واليوم الآخر الدال على أن مقتضى الايمان الغلظة فى حقهما ، ثم إضافة التشهير والفضيحة بالأمر بشهود طائفة عذابهما ، وأن تكون هذه الطائفة من المؤمنين .

انظر الى هذه المعانى فى سبيل تفظيع أمره تر العجب العجاب ، فكيف اذا أضفت اليه أنه خص من بين المنهيات بالنهى عن قربانه بينما ينهى عن ذاتها ، ثم اقترانه بالشرك بالله وقتل النفس ، وأن رتب على جملتها ما رتب فى قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا) ثم انظر الى ما رتب من الأحكام على مجرد الاتهام به من حد القذف وأمر اللعان ، ثم التشديد فى طريق إثباته حتى لا يقدم الناس على الترامى بهذا الأمر الخطير بلا وجه حق ، ليشفى بعضهم غليله من بعض ، الى غير ذلك من أحكام جمة ستتلى عليك فى بقية هذه السورة ، وكلها تدور حول العلاج والاحتياط ، لعدم وقوع هذه الجريمة الكبرى . أما شروط وجوب الحد وتحقق الإحصان فمحل تفصيله فوق ما سبق كتب الفقه ، فليرجع اليها من شاء . والله أعلم م؟

ابراهيم الجبالى

تنزيه الله عن المكان والجهة

كتبنا تحت هذا العنوان كلمة فى تنزيه الله تعالى عن الجهة فى العدد الرابع من هذه السنة جوابا عن سؤال ورد الينا ، فجاءنا خطاب مطول من الأستاذ الشيخ عبد الغفار على المسلاوى أحد العلماء ببنها يبين فيه مذهب السلف والخلف ويبرأ فيه من التجسيم والتشبيه ، كأننا رميناه بذلك ، أو كأن الكلمة كانت موجهة اليه ، وقد اجتهد ما استطاع فى تبرئة السلف من التشبيه ، ولم يعلم أنه جهاد فى غير عدو ؛ ولو التفت قليلا لما كتبناه لأراح نفسه من ذلك العناء ، وأراحنا من العودة الى الموضوع مرة ثانية .

ولنسق لك عيون ما كتبه ، ونعلق عليها بما يعن لنا من الملاحظات :

قال حضرته : إن مذهب السلف رضى الله عنهم التصديق بآيات الصفات وما صح من أحاديثها ، وإمرارها على ظاهرها مع نفى التشبيه والتكييف عنها ، فلا يجوز صرفها عن ظاهرها ، لأن فيه تعطيلا لما جاء فى الكتاب والسنة من صفاته تعالى ، وكذلك لا يجوز تكييفها وتشبيهها بصفات المخلوقين ، لقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وقوله : (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ) فضلا عن دلالة العقل وإجماع الأمة على مخالفته تعالى للحوادث ، فكل ما وصف الله تعالى به نفسه من الوجه والعين واليدين والاستواء على العرش ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم كنزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، فهو عندهم حق على حقيقته التى تليق به تعالى من غير تشبيه ولا تكييف ، فقوله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) الصحيح عندهم مانقله الامام البخارى فى صحيحه وغيره عن مجاهد من أن معناه : علا أى علوا بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته ، كما قال مالك الامام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والايمان به

واجب والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وإنما هو تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ، فقوله تعالى: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) يعنى نفسه ، لا يريد — تعالى وتقدس — أن السماء ظرف له ، وإنما معناه أنه فوقها على العرش بلا تمكن ولا تكييف ، كما أجمعوا على أن له تعالى يدين وعينا ووجها بلا تكييف ولا تشبيه ، الى آخر ماوصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، الى أن قال : وحديث « لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله » قال مخرجه الحافظ أبو عيسى الترمذى فى جامعه لما أخرجه : قال أهل العلم : أراد لهبط على علم الله ، وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . انتهى بلفظه . الى أن قال : وقال أبو عيسى الترمذى أيضا إثر ما روى حديث أبى هريرة « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها» : روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقد قال غير واحد من أهل العلم فى هذا وما يشبهه من الصفات كنزول الرب : نثبت هذه الروايات فى هذا ونؤمن به ، الى أن قال : ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظاهرها ، نعم التشبيه غير مراد منها قطعا ، الى آخر ما قال .

ونحن نقول له أولا : إن ما كتبناه كان جوابا عن سؤال يقول سائله : إن المراد من قوله تعالى : (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ) جهة العلو ، فأثبت الجهة لله تعالى بصريح العبارة . وكثير ممن يطالع كتب ابن القيم وابن تيمية لا يكاد يخلص من تلك العقيدة ، فإنه بكثرة ما يوردونه من التلبيسات والتشكيكات ، وما يموهون به من ذكر الآيات تسرى فيه تلك العقيدة من حيث لا يشعر ، ولو فتش عن قلبه تفتيش المُتَّهِم لنفسه لوجدها راسخة فيه — غير أنه اذا ضويق بما يلزم ذلك من الحدوث لجأ الى كلمات لا محصل لها ، أو هى متناقضة ، ثم اقتنع بذلك واطمأن اليه .

على أننا نقول لحضرة المدافع عن السلف قبل مناقشته فى بعض كلماته : ما الذى هاج أعصابك علينا ؟ وهلا أعدت النظر فيما كتبناه حتى تعرف ما نسبناه الى السلف الذين

تدافع عنهم، وما نسبناه الى الخلف الذين توهمت أنهم المعتزلة أو الجهمية مع أن ذلك مبين فى كتب التوحيد أتم بيان ؟ : وقد قال فى الجوهرة مشيرا الى المذهبين، وهى من أصغر كتب التوحيد، وصاحبها أشعرى صميم :

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

ولنذكر لك ماقلناه فى مقالنا المشار اليه علك تنظر فيه بإنصاف وإمعان، حتى تعرف أنه لاخلاف بيننا وبينك، وأنا كنا نرد على السائل الذى أثبت الجهة لله لاعليك ولا على السلف، وهاك نص ما قلناه فى العدد الرابع :

« ولا بد أن تكون قد عرفت أن السلف فى آيات الصفات وأحاديث الصفات يفوضون بعد التنزيه، وأن الخلف يؤولون خوفا من التشبيه، فكلهم متفقون على التنزيه، وإنما الفرق بينهما أن علماء الخلف يعينون المعنى المراد، فيقولون مثلا فى قوله تعالى : (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ): المراد باليد القدرة ؛ والسلف يفوضون بعد التنزيه، فيقولون : إننا ننزهه تعالى عن الجارحة ولا نعين شيئا خاصا من المعانى التنزيهية كما فعل علماء الخلف » فهل ترى فى ذلك نسبة التشبيه الى السلف حتى تثور ثائرتك ؟ !

ثم نقول لك : ما معنى قولك : إن كل ماوصف الله به نفسه من الوجه والعين واليدين والاستواء على العرش، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم كنزوله الى سماء الدنيا كل ليلة فهو عندهم حق على حقيقته التى تليق به تعالى من غير تشبيه ولا تكييف ؟ نريد منكم أن تفهمونا معنى تلك الكلمات التى تسبق اليها ألسنتكم من حيث تشعرون أو لا تشعرون، فما معنى كون النزول حقا وعلى حقيقته ؟ وهل هناك حقيقة للنزول غير الهبوط من أعلى الى أسفل ؟ : لاتعرف العرب حقيقة للنزول غير هذا وإن جاز استعماله فى غيره على طريق المجاز ؛ وكذلك اليد : لا معنى لها على سبيل الحقيقة عندهم إلا الجارحة

المخصوصة وإن جاز استعمالها فى غيرها على سبيل المجاز ؛ وكذا العين وغيرها ؛ فما معنى كونها عندكم على سبيل الحقيقة ؟ وهل عرفتم لها معنى فى حق الله حتى تحكموا بأنها حقيقة فيه ؟ فإن بينتم لها معنى تنزيهيا لا تشبيه فيه وافقتم الخلف فى هـذا ، وكانت حينئذ على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة ؛ وما معنى قولكم بعد ذلك : بلا تشبيه ولا تكييف ؟ وهل هو إلا قول متهافت لا معنى له بعد أن قررتم أنها ثابتة له على سبيل الحقيقة ؟ ؛ ثم نقول : إنك أثبت له فى خطابك يدين وعينين ، فلماذا لم تثبت له أعينا لا عينين فقط ، مع أنه يقول : (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) ؟ ولماذا لم تثبت له أيديا لا يدين فقط ، فإنه يقول : (خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) ؟ ثم تقول فى قوله تعالى : (الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ) : الصحيح عندهم ما نقله الامام البخارى فى صحيحه وغيره عن مجاهد من أن معناه : علا أى علوا بلا تمكن على العرش لا نعقل كيفيته ، كما قال مالك الامام وقد سئل عن كيفية استوائه على العرش : «الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة » فهو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

ونحن نسألك عما فهمته من كلام مجاهد هـذا : هل فهمت العلو الحسى كما ينبئ عنه قولك الذى تكرره إنه فوق عرشه ؟ واذا تكون قد أثبت له الجهة والحيز لا محالة ، واذا ثبتت له الجهة ثبتت له الجسمية ، ومتى ثبتت له الجسمية ثبتت له لوازمها ؛ وإن أردت العلو المعنوى وافقتنا ولم تأت بشىء جديد ، ولكن قلت إنك لا تعقل ذلك العلو والعلو المعنوى معقول ، فما الذى فهمته وما الذى أثبته ؟ وهل هناك شىء وراء العلو الحسى والعلو المعنوى ، أم هو كلام (كالورد يشم ولا يدعك) ؟ ولماذا لم تقل إنه فى السماء بلا تمكن ، كما قلت إنه فوق العرش بلا تمكن ؟! وهل هناك فرق بين الآيتين ؟ واذا قلتم بفوقية بلا تمكن ولا كيف وهى على حقيقتها ، فلماذا لا تقولون بظرفية بلا

تمكن ولا كيف متى كان الغرض التشبث بكلمات من هذا القبيل تعقل أو لا تعقل ، ثم كنتم تقولون إن الظرفية بلا كيف لا تنافى الفوقية بلا كيف ؟ .

ثم نقول لك بعد ذلك : ماذا فهمت من عبارة الإمام مالك فى قوله : الاستواء معلوم ؟ هل ظننت أن مالكا يثبت الاستواء المعلوم ؟ (اذا يكون مشبها ومجسما) لأن الاستواء المعلوم هو الاستقرار المستلزم للجسمية ولوازمها ، فإن كان الاستواء بغير هذا المعنى فهو غير معلوم ، فيجب اذا أن يكون مراد مالك أنه معلوم الثبوت والورود ، فإنه نطق به القرآن ، لا معلوم الحقيقة والمعنى . على أن بعض المحققين يطعن فى ثبوت الرواية عن مالك ، وهو الذى أقول به ولا أكاد أعتقد غيره ، فإن جعله الاستواء معلوما — على ما يفهم منه — اعتراف بأن المجهول هو الكيف فقط ، وقد يستوى الملك على عرشه بكيفيات كثيرة ، فجهل الكيفية لا يكفى فى التنزيه ، بل يثبت التشبيه ، فإن الكيفية حاصلة على كل حال غير أنها مجهولة ، والاستواء الحقيقى لا يعقل بدون كيفية وإن لم تكن معلومة لنا ، ولكن لا بد له من كيفيته فى الواقع .

هذا . وقد رأيت رواية أخرى فى هذه الواقعة عن عبد الله بن وهب أن مالكا سئل عن الاستواء فأطرق وأخذته الرحضاء ثم قال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ، ولا يقال له كيف ، وكيف عنه مرفوع ، الى آخر ما قال . ومما يلبسون به على الناس أو على أنفسهم قولهم : إن ذلك كله حق على حقيقته ، فإن كلمة (حق) ها هنا تقع فى النفوس موقع الإيمان والقبول ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقول إن ما ورد فى الآيات غير حق ؟ ! ولكننا نستفسر منهم عما أرادوا بتلك الكلمة : فإن كان قصدهم أن هذه النصوص لا يمكن ردها فإنها نصوص قرآنية أو سنة صحيحة ، فهو حق ، ولكن ليس محل النزاع ؛ وإن أرادوا أن معناه الذى يعرفه الناس حق ، فذلك باطل ، ولكنها عادتهم يأتون بالكلام الموجه وبالكلمات المحتملة .

وليت شعرى أى شيء أثبتوا لله تعالى اذا كانت اليد فى حقه ليست على ما نعرف ، والاستواء والنزول بالنسبة اليه على غير ما نعهد ، فما الذى أثبتوه له ؟ ! وهل يمكن التصديق بثبوت شيء لا تفهمه ولا تعقل له معنى ؟ ! كيف وتصور المحمول والموضوع شرط فى التصديق أو شطر منه ، كما هو معروف فى المنطق ! وهل بيننا وبينهم خلاف اذا كانوا سلفيين حقا كما يقولون ؟ فإن الاستواء عندهم وصف كمالى تنزيهى ثابت لله تعالى ، وكذا اليد والعين الخ ، ونحن نقول بثبوت كل كمال الله تعالى فما الذى أثبتوه زائدا على ذلك ؟ ! ونحن نقرر دائما أن كمالات الله لا تتناهى ، وفى الحديث : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » غاية الأمر أن الخلف يؤولون خوفا من وقوع القاصرين فى التشبيه ، فما أرادوا إلا النصح لله وكتابه ورسوله والمسلمين.

على أنى أختار مذهب السلف وأدين به ، وقد قلت فى آخر العدد الرابع ما نصه : « والخلاصة أن أحاديث الصفات ليست على ظاهرها ، وأن لها تأويلات تليق بجلال الله تعالى ولا نقطع بتعيين تأويل منها ، بل نكل ذلك الى العليم الخبير ، ولكن لا بد من التنزيه على كل حال » أما قول الكاتب : إنه تعالى عال على خلقه بائن منهم بلا حد ولا صفة ، فهو من قبيل ما سبقه ، ولست أدرى أيقصد به العلو المعنوى الذى لا يخالف فيه أحد ، أم العلو الحسى الذى يستلزم الجهة ، أم هو شيء لا نعرفه (نحن ولا أنتم) ؟ ومثل ذلك قوله : (أَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ) يعنى نفسه : لا يريد تعالى وتقدس أن السماء ظرف له ، وإنما معناه أنه فوقها على العرش بلا تمكن ولا تكييف ، وهل يظن الكاتب أنه بين معناها بقوله : إنه فوق سمائه على عرشه ، ما دامت الفوقية غير معروفة ؟ .

ثم نقل صاحب الخطاب بعد ذلك عن الترمذى أنه قال فى حديث « لو أنكم دليتم بحبل الى الأرض السفلى لهبط على الله » قال الترمذى فى بيان المراد منه : « لهبط

على علم الله وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه » ولا أدرى لماذا نقلها وقد كان مقتضى مذهبهم ألا يؤولوا هذا التأويل ، لأنهم يبقون النصوص على ظواهرها ويؤمنون بها على حقيقتها ؛ ولعله نقلها لقوله فيها : وهو على العرش كما وصف نفسه فى كتابه . وليت شعرى لماذا لم يقولوا : إن الهبوط على حقيقته ولكن بلا تشبيه ولا تكييف ؟ ؛ ثم قال : قال أبو عيسى الترمذى أيضا إثر ما روى حديث أبى هريرة « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها » : روت عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه ؛ وقد قال غير واحد من أهل العلم فى هذا أو ما يشبهه من الصفات كنزول الرب : نثبت هذه الروايات فى هذا ونؤمن به . ونحن أيضا نثبتها ونؤمن بها ، ولكن النزاع ليس فى ثبوتها والإيمان بها ، ومن ذا الذى لا يؤمن بما ورد عن رسول الله ؟ ؛ ولكننا ممن يجوز إجراء المجازات والكنايات فى أمثال هذه المقامات من غير جزم ولا تحتيم على ما شرحنا .

ثم قال الكاتب : لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه حرف واحد يفيد صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظاهرها ، نعم التشبيه غير مراد منها قطعا . ونحن نقول أيضا : لم يرد عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه حرف يفيد أنها باقية على حقيقتها كما تقولون ، بل ترك ذلك للعقول وتصرفاتها ، وللنصوص المنزهة الكثيرة ، فضلا عن البراهين العقلية ، ولما تعرفه العرب من مجازاتها وكناياتها ؛ ولا أرى قولكم : إن الاستواء على العرش مثلا باق على حقيقته مع التنزيه وعدم التشبيه إلا متناقضا ، فكأنكم قلتم إنه مستقر على عرشه غير مستقر على عرشه : وهل هذا إلا التناقض الصريح ؟ ؛ والذى لا يفهم للاستواء معنى محصلا لا ينبغى له أن يكثر من ذكر الفوقية والاستواء والعلو ، وإلا فليصارحنا بما يعتقد ، ولا يقل إنه سلفى ، فإن السلفى لا يقول

بمعنى معين فى آيات الصفات ، وإنما يمرها كما وردت ، ولا يتعرض لتخيل معناها ، ولا إطالة القول فيه .

ثم قال الكاتب فى آخر كلامه : «لسنا بحمد الله مجسمة ولا حلولية» وإنى أحمد الله على ذلك ، وما رميت الكاتب بالتجسيم ، ولا كان كلامى معه ولا مع السلف الذين ينتمى اليهم ، ولكن كنت أكتب لمن يثبت لله جهة ، أو يقول وقد نزل من على المنبر : « إن الله ينزل من عرشه الى سماء الدنيا كنزولى » .

هذا . وكلامنا اليوم أيضا هو مع هذه الطائفة لا مع الكاتب وإن كان هو المثير غبارها ، فإنى أسلم ما يقرره من عقيدته وأوافقه عليه ، وما أريد بكل ما أكتب إلا النصح للمسلمين ، والتحذير من نزعات الضالين الجاهلين ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء بالازهر

الطُرف والمُلح

نظر الحُطَيْئَةُ الى ابن عباس يتكلم فى مجلس عمر رضى الله عنهم ، فقال : مَنْ هذا الذى نزل عن الناس فى سِنِّه ، وعلاهم فى قوله ؟ .

التوسل والاستغاثة

كنا نشرنا بالعدد الثالث من مجلة نور الاسلام كلمة بعنوان « الحياة وأطوارها » ضمناها حديثا دار بيننا وبين عظيم من علماء الحرمين الشريفين لم نكن استأذناه فى نشر ما دار بيننا، فلم نر من الحق أن نذكر اسمه بدون إذن منه ، وكان ضمن الحديث أمنية أن يتخاطب العلماء وأهل الدراية بالدين والبصر بأحكامه تخاطبا هادئا لينا ، ويتفاهموا فى المواضيع التى يتناولونها بالبحث تفاهما بعيدا عن العلانية الموجبة للضوضاء ، والتى قد تدعو الى حرص كل من الطرفين على مقالته ، فيكون ذلك مبعدا عن الوصول للاتفاق ومنفراً للحق أن يدنو من ساحتهم ، وكل يدعيه لنفسه .

ولشد ما كان اغتباطنا إذ ورد الينا كتاب من فاضل لم يسبق لنا شرف مقابلته ، ودل قلمه على أدب جم وحسن فهم وتقدير ، قلنا قد تحققت الأمنية ووجدنا بين مخالفينا من يستجيب دعوتنا الى التفاهم الانفرادى ، بعيدا عن جلبة المناظرات الصحفية والمنازعات العلنية ، وهو أقرب سبيل للاتفاق ، وأعظم تألف للحق .

طالعنا كتابه فشهد له برجاحة العقل وبصيرة الرأى ، وحبه أن يكون الجدل بالتى هى أحسن ، فأجبناه على كتابه بطريقة المراسلة الخاصة ، ورجوناه فى أن تدوم المحاورة بيننا على هذا الأسلوب ، فعسانا نتفق على كلمة واحدة، فيجمع الله بنا بين فئتين عظيمتين، لا سيما أن كلاً منا ليس له نزعة خاصة فى الموضوع ولا هو بصدد ميدانه ، أو كلانا على الحياد ، وبينا أنا فى انتظار جواب من فضيلته كما بدأنى بفضله ، واذا بأحد إخوانى الفضلاء يطلعنى على إحدى المجلات الدينية وبها مقال بقلم حضرة الكاتب نفسه ، أتى فيه

على كل ما كتبه الىّ ، وزاد عليه مما يرى أنه يعزز رأيه فى الموضوع ، فرأيتنى فى حل من أن أكتب فيه فى المجلة بما أرى ، وإن كنت أود من صميم قلبى ألا تتسع هوة الخلف بين المسلمين فى أمور ليست من أصول الدين فى شىء ، ولا تزيد عن أنها حالات تجرى بين الكثير من الناس عن طيب قلب وحسن اعتقاد ، فينظر اليها غيرهم ويتناولونها بالتأويل والإفساد .

وقبل الدخول فى الموضوع أحصر بين يدى القارئ ما يعلمه من أصول الدين ويعتقده جمهور المسلمين وقد نطق به الكتاب المبين : يقول الله تعالى : (ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) ويقول جل شأنه : (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ) .

والآيات من قبيل الآيتين الكريمتين كثيرة فى القرآن العزيز ، ومن هذه الآيات أجمع المسلمون إلا شواذ من أهل البدع على ألا خلق إلا لله ، وأن كل ما يجرى فى الكون من كلى أو جزئى فهو معلوم لله مراد له من الأزل — ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

مع هذا ربط الله الأشياء بعضها ببعض ، وجعل بعضها سببا فى بعض ، وكلها بقدرته وإيجاده ، وما ذلك التسبب إلا بجعله ، ولو شاء لغاير هذا الربط بما يخالفه .

أحسب عامة المسلمين وخاصتهم اليوم على هذا ، لا يخامر أحدا منهم آمن بالله وكتابه ورسوله شك فى ذلك ، مهما دار على لسانه من كلمات موهمة أو محتاجة للتأويل . وسواء أكان التسبب مفهوم الوجه أو غير مفهومه فإنه لا يطغى على تلك العقيدة الراسخة فى قلوب المؤمنين ، وهى أن الله خالق كل شىء ، وأنه مالك الملك وحده ، لا شريك له ، بيده الأمر كله ، وهو على كل شىء قدير .

بعد تمهيد هذا الأساس يصح أن نفهم سر عناية الشريعة بحياطة النفوس الضعيفة الفهم، وصونها من الانخداع بالأسباب القوية أو الخفية فتقف بعقولها عندها، ولا تنفذ ببصيرتها فيما وراءها، فتسند اليها الآثار التى ربطها الله بها اختيارا منه، فتنقلب من أنها آيات كونية تشهد بجلال قدرة مكونها وعظمته، وأن النظر فيها مدعاة لتمجيده وعبادته، الى أن تكون حاجبا للعقول عن ذلك الشهود المقصود؛ فمن أجل هذا جاء التحذير فى لسان الشرع كثيراً عن الانخداع بالأسباب ووقوف العقول عندها، فورد النهى عن أن يقال: مطرنا بنوء كذا ومثله مما يحول النظر الى الكواكب ويصرفه عن مكوكبها، وجاءت الآيات الكريمة لتفهيم قيمة الأسباب، وتنحيتها عن أن يغتر بها، مثل قوله: (أَفَرَأَيْتُمْ مَاتَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً) (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ) وأمثال هذا فى القرآن كثير مما يقصد به تربية النفوس على صحيح النظر، وإرشاد العقول لتوقى الغفلات.

هذا أصل عظيم فى تربية العقيدة لاينبغى إغفاله ولا التهاون فيه، ولكنه لايجوز أيضا أن يقع فيه الإفراط حتى يقطع معنى السببية وما أودع الله فى هذا العالم من نظام ربط أجزاءه بعضها ببعض؛ ووحد بين جملتها باتصال محكم وثيق صح معه أن يسمى عالما واحدا ينظر اليه نظر واحد، فتتجلى عظمة مبدعه وتظهر حكمته البالغة، فيكون ذلك مدعاة للتمجيد والتعظيم، ويقرب المؤمن مما طاب منه، وهو أن يقدر الله حق قدره.

وهذا أيضا أصل عظيم فى الايمان، به تتعرف عظمة الخالق القدير، وتتجلى حكمته البالغة، فتقبل على عبادته والثناء عليه بما هو أهله. أصلان لايجوز أن يطغى أحدهما على الآخر حتى يبطله فى جملته، ولا مناص لمن يؤمن بربه من أن يرعاهما حق رعايتهما، وأن ينظر بإحدى عينيه لأحدهما وبالأخرى للآخر، لابل ينظر الى أحدهما ليفيده فى الإيمان

بالآخر ، فيتفكر فى الملك ونظامه وأحكامه ، ليفهم صفات مالك الملك وما يجب له وما يصح فى حقه .

ومع ارتباط كل من هذين الأصلين بصاحبه فى جملته نجد تفاصيل كل واحد منهما مما لا يقف عند حد ، فباب الإيمان بالله ووحدانيته وما يصح له أو يجب أو يستحيل باب من العلم واسع فسيح أفرد له فن العقائد ؛ وباب الأسباب وتنوعها وكيفيتها أخذ من الفنون المتنوعة ما لا حصر له ، ولا يستغرق كل ما أودع فى هذا العالم من أسرار .

لا تتوهم أننا ابتعدنا بك عما هيأنا عقلك لاستماعه وهو القول فى الاستغاثة أو التوسل ، وإنما نحن نمهد لك الأصول لنسهل عليك بإذن الله الوصول ، فلا تسأم ولا تضجر ، فالأمر جدير بالتفكير والبحث الكثير :

قد بث الله الروابط بين ظواهر الكائنات ، وناط بعضها ببعض ، وهدانا الى تلك الروابط لنستفيد فى تحصيل أغراضنا بتحصيل ماهو بسبب منها ، ولكن تلك السببية وذلك الارتباط متفاوت المراتب فى الظهور والخفاء : فنه مايعلم فيه السبب والمسبب ووجه السببية ، أو أصل ارتباط هذا بذاك ، ومعناه الاطلاع على صفة فى السبب هى منشأ ترتب المسبب عليه ، كما تراه فى سيلان الماء ورطوبته ، فيذيب بعض الأملاح أو المعادن الطينية ، فيسهل على جذور النبات أو جراثيم البذور امتصاص الصالح منها لغذائها فيكون الماء بذلك منشأ حياة النبات ؛ ومنه ما لا تعرف فيه تلك الصفة التى من أجلها ترتب المسبب على سببه ، ولكنه مع ذلك يعلم الترتب بالتجربة المتكررة التى لا تدع مجالا للشك فى أن هذا مترتب على ذاك ، وإن كنت لا تعرف لماذا ترتب عليه . ومن أمثلة ذلك أن ترى رجلا شريراً ملك الشر نفسه حتى ظهر فى حدقته ، وكان له سمت خاص إذا نظر إليك أو الى شىء يخصك ، تعهد فيه أنه ما نظر الى شىء يعجبه وينال استحسانه إلا لحقه الفساد والضرر لساعته ، تشكو إلى صديقك هذا فيشكو لك نظيره مما اتفق له ،

وتشرح له حادثة فيقفى عليها بحوادث من نظائرها صادفته مع هذا الرجل ، وقد يهجم عليكما ثالث يبادركما بالشكوى مما تشكوان فتطلعانه على ما كنتما تقولان فيتولاكم جميعا العجب ، أفتشكون ثلاثتكم فى أن عين هذا الرجل عين أخاذة مصيبة وأنه حسود ؟ أو لم يتبادر الى ذهنكم كلكم الإيمان بأن العين تورد الرجل القبر والجمل القدر ، ولو لم تكونوا سمعتم به على وجه يقنعكم بصحته ؟ وهل تتوقفون فى الاعتراف بتسبب هذا الرجل فى الضرر بمجرد نظره على أن تفهموا معنى الحسد والإصابة بالعين وسر ذلك ؟ وهل استطاع جمهور المعتقدين عن يقين بأن العين حق أن يعللوا هذه السببية ويربطوا ربطا مقنعا بين رؤية الرجل مايعجبه وبين لحوق الفساد له ؟ وهل اذا كنت ممن لا يعتقد بالحسد وإصابة العين لا تشعر من نفسك بحركة اشمئزاز وتوجس حين يمر عليك ذلك الذى يصفه الناس بالحسد وبين يديك ماهو عزيز عليك مما يعجبك ويعجب الحسود ويعجب الناس ؟ أفلا ترى معى أن الحركة التى أحسستها من نفسك فطردتها بعقلك عن وهمك، ناشئة عن أنه يجوز فى نظرك أن يكون بين رؤية الرجل وحدوث الشر ارتباط خفى لم نعرفه ولم يتكشف لنا ؟ .

إنى أسير معك الآن فى طريق التفهم والتعرف فيما بيننا لنصل الى غاية واحدة غير مشوبة بالمناظرة والجدل ، وإنما هو بحث المرء مع نفسه ، فناشدتك الله لا تفلت من يدى :

اذا كانت الأسباب التى هى مناط الجمال فى العالم منها ما هو خفى السببية ومنها ماهو جليها، واذا كانت الأسباب على تنوعها لا يصح أن تطغى على الخلق والتقدير والتدبير الذى تفرد به العليم القدير، فهل اذا قال قائل: إنى أحس من نفسى أن تكون أقوى اتجاها لنايتها التى تشغل بالها اذا كنت بحضرة أستاذى فلان ، أو استعنت بمشاركة أخى فلان ، أو أجد عزيمتى تقوى حين أستحضر نفس أبى المتوفى وهمته ، أو ألحظ مجد قومى وآثارهم ،

كل هذا أجد له أثراً فى تكيف نفسى فى صدق عزمها أوقوة توجهها أو عظم استجماعها قواها، ثم قيل مع هذا : إنه كلما صدق توجه النفس فى الدعاء أو العبادة أو العمل الدنيوى كان توصيله الى نتيجته أسرع وأصدق ، هل اذا حدثك شخص عن نفسه بهذا الحديث وقال لك هـذه المقالة : تراها مما لا تفهمه العقول ولا تصـدر إلا عن كافر أو مجنون يرى فى أبيه أنه الفعال لما يريد، وأنه المهيمن عليه وعلى أغراضه وغاياته، أم هل ترى فى تفسير هذا ما يبتعد عن معنى السببية التى عرفت ولم يعرف وجهها ومنشؤها ؟ .

يلوح لى بعد هذا البيان أن ليس فى مثل هذا ما ينافى الإيمان ، وأن التكفير بمثل هذه الحالة بهتان أو هذيان ، أو جهل تام بفهم معنى الإيمان ، فالتحدث بتلك الكلمات الضخمة الخطيرة : إيمان وكفر ، وتوحيد وشرك ، فى مثل هذا المقام ، دال على كثير من الجهل والغباء .

هذا من ناحية ، ولكن لا ينبغى لمنصف يريد الوصول الى الحقيقة الناصعة أن يقرأ الكتاب من وجه واحد ، بل يجب استقصاء المبحث حتى يعرف ماله وما عليه ، فالأمر جلل ، والفريقان المختلفان لا غاية لأحـد منهما إلا الإصلاح ما استطاع اليه سبيلا ، ويتمنيان لو اتفقا أو تقاربا ، ولكن قاتل الله الخصومة فى الجدل ، ما أسرع ما تغرى بالأنانية ، وتدفع كلا الى التمسك بكلمته لأنها كلمته فحسب ! نقول : من الحق أن ينظر الى الأمر من كل نواحيه ، وإن التجارب فى الأمم ترشدنا الى أن مثل هذا مما لا ينبغى التساهل فى شأنه وأمن مغبته ، فقديما جرقوما الى الخروج عن إيمانهم وتوحيدهم ، فعبدوا غير ربهم ، وإن كانوا قد يتراجعون ويقولون : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهل بعد الإيمان من عزيز يحتفظ به ، أو بعد التوحيد من مطلب يشغل الهمم ويوجه اليه الإرشاد والهدى ؟ وإذا كان أعز عزيز عندنا الايمان ، وأعلى مطلب هو التوحيد ، فهل من اللائق أن تفتح عليه ثغرات لا يدرى ما وراءها ، وتطمئن نفس المؤمن فى إيمان الى مظاهر أعمال

لا تؤمن عواقبها؟ نعم ليس فى هذا الذى شرحت ما يوجب الكفر أو يدعو الى الشرك، ولكن كيف تهمل العامة البسطاء يسترسلون فى ندائهم : يا سيد ويا سيده ! عليك بفلان، ا كسر ظهره، أدعوك لفلان تشفى مرضه، وهكذا، فماذا بقى بين هؤلاء وبين الإشراك؟ وهل يتهاون فى صون العقيدة الأساسية حتى يهجم عليها ما يهلكها، أو يجب أن تصان فى حرز حريز وتحاط بأسوار بعيدة عنها حتى تكون كعاصمة الدولة هى الوسط المحمى جانبه؟ أفيليق أن تقلص ما حولها حتى تصبح طرفا؟ ألا ترى كيف جعل حمى الإيمان الطاعات، وجعلت النوافل حمى للفرائض، وجعل المكروه حمى للحرام، وقيل : من حام حول الحمى يوشك أن يواقعه؟ .

اذا قلت مثل هذا فالإنصاف يدعونا الى تأييدك، ونقول معك : حقا إن كثيرا من الناس قد ظهرت منهم أعمال يجب التنبه اليها، وإرشادهم الى الطريق المأمون، وهدايتهم بالتعليم والتفهيم، ليعرفوا أدب الدعاء والتوسل والاستغاثة، وما لكل من حدود لا يعدوها، وما ينبغى فى مخاطبة الخالق والمخلوق .

هكذا ينبغى، وهكذا يصح، ولكن الإفراط من جانب يدعو الى الإفراط من الجانب الآخر، فتجىء سياسة شد الحبل كما يقولون، والله تعالى يقول : (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ) .

فباب التربية والإرشاد الى أن هذا أمر قد يجر الى ما لا يحمد، غير باب تقرير الحقائق، وأن هذا العمل معناه كذا وكذا، ومسالك التربية أمر عملى، ومسالك العقائد أمر يقينى برهانى، وقد ينقدح فى نظرى استحسان خطة فى العمل والتربية، بينما ينقدح فى نظر الآخر خلافها، لذلك لم يفسق أصحاب المذاهب الفقهية بعضهم بعضا، ولم

يستنكف أحدهم أن يأتم فى صلاته بمخالفه، ويتقاضى فى أحكامه اليه وينفذ له حكمه، بل يقول: حكم الحاكم يرفع الخلاف. أما باب العقائد فهو من غير هذا الباب، ومسألتنا وإن كانت عملا يقصد به الاحتياط لحفظ العقائد وصونها من أن يتطرق اليها الضرر، فإنها ما زالت عملا حكمها حكم بقية الأعمال، ومثلها مثل قولك: لا يزال الرجل يتغلغل فى المعاصى حتى يران على قلبه، وربما سلب إيمانه والعياذ بالله، وتستشهد على ذلك بما تقذفه أفواه المستهترين فى المعاصى من قولهم لمن ينصحهم ويذكرهم بالآخرة: «ابق خذنا على جناحك الى الجنة».

أما بعد فالكلام فى مقامين: الأول — تقرير العقيدة، وبيان ما ينافى الإيمان ويخل بالتوحيد. والثانى — تربية الناس وتعويدهم ما تحمد مغبته، وتنفيرهم مما عسى أن يجرهم الى ما لا تحمد عقباه.

أما الأول فقد عرفت أنه لا يقتلع الإيمان إلا ما ينافيه، أو ما جعله الشارع علامة لمنافاته كالسجود لصنم أو نحوه مما عبده الجاهلون، وليس من هذا الاستعانة بمخلوق حى أو ميت، ولا التوسل بجاهه الى المولى ليقضى له حاجته، فما كان الأول ليعدو اللاجأ الى الأسباب صحت السببية فى الواقع أم لم تصح، ظهر وجه سببيتها أم لم يظهر، وما كان الثانى إلا تبركا بمن كرمهم الله تعالى وجعل لهم منزلة عنده، فهو أشبه شىء بالاستشفاع الذى يظهر به ما أراد الله أزلا عن طريق بعض أصفيائه، على ما سبق لنا تقريره فى إحدى مقالات المجلة؛ وقولهم فى استنكاره: إنه من العبادة التى حكاها الله عن المشركين فى قوله: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ) قول من لم يفرق بين العبادات والتعظيم، فما كل تعظيم عبادة، ولا كل استعانة فيها اعتراف بالتأثير المنافى للإيمان، وناهيك بقوله تعالى: (وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ) والتفرقة بين الحى والميت

لا وجه لها بعد ما شرحنا من أن حالة البرزخ طور من أطوار الحياة وإن لم نفهم تفصيله وكل أحكامه، وناهيك بقوله جل شأنه فى الشهداء : (بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وقوله : (وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ) وقوله فى آل فرعون : (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فقد قررنا أن هذا قبل يوم القيامة المذكور فى قوله : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) وقوله عليه السلام فى المشركين قتلى بدر : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم » على ما فصلناه لك فى المقال السابق . وإذ كان الأمر لا يعدو السببية ، والسببية لا يلزم فى اعتقادها معرفة وجهها الذى أوجبها ، كان هـذا المعنى مما تحتمله العقول ، ويصح حمله على محمل صحيح تستسيغه العقول بكل سهولة ويسر . أما قولهم : إن الاستغاثة دعاء والدعاء ليس إلا العبادة ، والتمحل لذلك بمثل آية (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا) فمن الاعتساف للتحايل على تكفير المؤمن .

والأولى بالقصد هو العمل على التماس وجه لإنقاذ المؤمن من التكفير لا لترديته فى الكفر، فما قال أحد: إنه لا دعاء إلا العبادة ، فالدعاء يأتى بمعنى العبادة، وليس كل دعاء عبادة ؛ وقد قرر العلماء أنه يؤول للمؤمن فى تصحيح إيمانه من وجه الى سبعين وجها ؛ فها أنت ذا ترى الناس يدعو بعضهم بعضا فى كل زمان ومكان ، ويستعين بعضهم ببعض كذلك ولا يخطر فى بال أحد أن هذا عبادة. وأما التفرقة بين الأحياء والأموات وأنهم لا يستوون لا فى العقل ولا فى الشرع ولا فى الحس ، فهو على معنى أنهم لا يستوون فى كل الأحكام ، لا على معنى أنهم لا يشتركون فى حكم مطلقا .

فنفى المساواة نفى الاشتراك فى جميع الأشياء ، وهذا صادق بثبوت الاشتراك فى بعض الأشياء دون بعض ، يعرف ذلك صغار الطلاب حين تقرر لهم الفرق بين عموم السلب وسلب العموم .

ويغفر الله لحضرة الكاتب فى تلك المجلة تلك الزلة التى فرطت من قلمه عن غير قصد فى قوله : « وأما مخالفتـه للعقل ومكابرته له فإن الناس يعلمون أن الحى اذا مات فقد الشعور والإحساس وانقطع عنه التكليف الشرعى والعرفى وانقطع الخطاب معه وعدوا مخاطبه مجنونا » استغفر الله — أهكذا يجر الجدل والخصام ؟ : سحقا للجدل بغير التى هى أحسن : أهكذا يعدون مخاطبه مجنونا وقد روى المحدثون واقعة بدر التى ذكرناها وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم لقتلى المشركين ؟ : نحن نعلم أن الأستاذ لا يقصد كل ذلك ويقصد انقطاع التكليف ، ونحن نوافقه عليه وحده ، أما انقطاع الشعور والإحساس وعد مخاطبه مجنونا ، فندعها ونعرض عنها ، لأنا لا نتلمس الزلات ، وبخاصة مثل هذا الفاضل المنصف النحرير ، ومن يضمن لنفسه العصمة من الزلل؟ نسأل الله السلامة لنا ولإخواننا، والهداية والتوفيق لما يحب ويرضى.

وأما مثل آية (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ) وقوله : (وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ) ومثل آية (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ) فليست مما نحن بصدده فى شىء . فالأوليان للتيئيس من هدايتهم وقبولهم التعليم بتمثيلهم بصورة ما تعارف الناس فيه انقطاع الصلة والتفاهم بينهم وبينه فى هذه الحياة، فالمراد سماع القبول والانتفاع بالهداية . والثانية من النعى على المشركين عبادتهم من لا يملك لنفسه شيئا حتى يستجيب لغيره ، فهو غافل عن الداعى مشغول بشأنه الذى يعنيه ، فأين هذا مما نحن فيه من تقرير أن الحالة البرزخية طور من أطوار الحياة؟ وقولهم : إنها حياة روحية لا جسمية هو وحده كاف، فما كان المتوسل أو المستغيث يطالب من المتوسل به عملا جسميا كأن يرفع معه صخرا أو يبنى له بيتا ، وإنما ينتظر أن تتوجه روحه الى ربه كتوجه الشفعاء ، وما كان الموت الجسمانى بمبطل لهذا .

أما المقام الثانى وهو تربية الناس على ما تؤمن مغبته ، وتعويدهم من أفعال الزلفى ما لا يجر الى منكر أو كفر ، فإنى أنا شخصيا أوافق عليه ، وأرى أن كثيرا من العامة يصدر منهم ما لا ينبغى أن يقروا عليه ، وما ربما جر الى كفر ، ولكن هذا شيء والتكفير به شيء آخر ، فأرى من واجب العلماء أن يعلموا الناس ما يليق بزيارة الصالحين ، ويتعهدوا عقيدتهم بالوقاية ، ويرشدوهم الى ما يجعل ألسنتهم موافقة لما فى قلوبهم ، وأن ما يجرى على ألسنتهم وإن صح فليس مما ينبغى شرعا . هـذا رأيى الخاص ؛ ولو جاء من يقول لى : إن اعتقادهم فى الصالحين يقوى رغبتهم فى ترسم خطاهم والتأسى بهم فلا بأس به حيث كانت العقيدة مأمونة الصحة ، ما رأيتنى حريصا على تشديد النكير عليه ، فهو مسلك فى التربية وما أراه مسلك ، ولكل وجهة . وعلى هذا فالمسأله مسألة ثانوية لا تنشق لها عصا المسلمين ، ولا يصح أن يتقاطعوا فيها أو يتدابروا من أجلها .

والخلاصة أن كلا من الاستغاثة والتوسل لا يصح التكفير به ، وليس تكفير المسلم من الهنات الهينات ، ولولا خوف السآمة لسقنا نصوص الفقهاء فى الاحتياط فى أمر التكفير ، كما جاء الاحتياط شرعا فى أمر الحدود التى هى أخف منه .

ولكنه ينبغى أن يعدل ذلك العوج الذى فشا فى العامة ، وينهوا عما يصدر من جهلتهم من تقبيل الأعتاب أو النذر غير الصحيح ، أو الطلب الموهم أن للمطلوب منه تصرفا فى أمر من الأمور ، كل هذا ينبغى معالجته وتعديله ، واقتلاع عادته السيئة المتأصلة . وما كانت الكلمات التى توالت تباعا من فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ الدجوى إلا فى المقام الأول ، حرصا على ألا يسلخ من الاسلام من استظل براية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإنا لنطلب الى الهداة المرشدين أن يتكاتفوا على محاربة المنكرات والإلحاد ، ويدعوا أسباب الخلاف التى تفت فى عضد المسلمين (وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) وفقنا الله للخير آمين ؟

ابراهيم الجبالى

حقوق الزوجين

قال الله تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ) .

الكلمة الفذة والحكمة الجامعة لحق كل من الزوجين على الآخر هى قوله تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ) أى وللنساء على الرجال مثل ما للرجال عليهن ، فليؤد كل منهما الى الآخر ما يجب عليه بالمعروف .

نحن لانعلم نصا أنصف الرجل من المرأة ، والمرأة من الرجل كهذا النص الشريف ، ولا شريعة راعت حقوق المرأة ورفعت من شأنها فساوتها من حيث الحقوق بالرجل كالشريعة الاسلامية ، السمحة السهلة ، التى تفضل الله تعالى بها على هذا النوع الانسانى ، ليحول بينه وبين هواه ، وما تسول له نفسه من الظلم وحب الأثرة والاستعباد .

إن الشريعة الاسلامية حافظت على المرأة ، وأوجبت لكل واحد من الزوجين حقوقا على الآخر ، وآية (وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ) لم تبق مقالا لقائل ، ولا مجالا لمفكر ، فهى بعمومها تشمل حسن المعاشرة ولين الكلام ، والمداعبة والرحمة ، والإصلاح والحلم ، وتحمل الأذى ، والقيام بالمصالح ، والعدل والتعليم والتأديب والطاعة ، والانقياد والصيانة ، والأمانة والتعفف ، وغير ذلك من كريم الخصال ؛ وبكل ذلك جاءت الآثار ، وتوالت الأخبار ، فليهنأ المحافظون على هذه الخلال ، الواقفون عند هذه الحدود ، ولتمت غيظا الجاهلون الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون ما لا يعلمون ، فينسبون للاسلام جمود المرأة المسلمة وجهلها وظلمها ، وعدم العناية بها ، ويريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

وقد رأينا أن نذكر إخواننا محبي الهداية ببعض ما جاء فى الشريعة الاسلامية من حقوق الزوج على زوجته، وحقوق الزوجة على زوجها، دفعا لما يفتريه على الاسلام بعض أعدائه، ورجاء أن يتعظ بذلك غافل، ويهتدى به عاقل، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :

حقوق الزوج على زوجته :

نذكر من هذه الحقوق أموراً عشرة، وقبل أن نبتدئ بها نتقدم بالنصيحة الى الراغب فى الزواج أن يختار ذات الدين ويؤثرها على من عداها من ذوات الجمال والمال، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال[1] : « تنكح المرأة لأربع خصال : لمالها، ولحسبها[2] ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت[3] يداك » وليس المراد — والله أعلم — الزجر عن رعاية الجمال، بل المراد الحض على اختيار ذات الدين، وتقديمها على غيرها من ربات المال والحسب والجمال، وذم من يرغب فى الجميلة مثلا — لجمالها، غير ملتفت لدينها وآدابها، وأخرج ابن ماجة حديث : « لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن ؛ ولا تزوجوهن لأموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن ؛ ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة خرقاء ذات دين أفضل » وروى أن سيدنا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قال : « الجمال كاذب، والحسن مُخْلِف » ومنه قول الشاعر :

فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى فما كل مصقول الحديد يمانى

وقال أكثم بن صيفى لبعض بنيه : إياك واختيار اللئيمة بما عندها من المال، فإنه يذهب وتبقى فى حالكِ اللؤم. وقيل : تحت بياض الألوان، سواد صغار وهوان.

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى . (٢) حسب الانسان ما يعده من مفاخر آبائه .

(٣) أى التصقت بالتراب من الفقر . وهذا الدعاء وأمثاله لا يرد بقصد الدعاء على المخاطب، بل للتحريض على الشيء والتعجب منه .

وقد يكون فى ثنايا الألقاب والرتب، مقابر للفضل والأدب. واذا ضم الى ذات الدين كونها رخيصة المهر، ممن تعلمت العلوم الواجبة الضرورية، والفنون المنزلية، ونشأت من أبوين أشربا حب الكمال، وأسرة اعتزت بها الفضيلة، فهناك السعادة التامة والهناء الدائم.

الاول: من حقوق الزوج على زوجته — طاعتها له فى كل ما يطلبه منها مما لا معصية فيه.

ورد فى فضل طاعة الزوج عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة — منها ما أخرجه البزار والطبرانى أن امرأة قالت: يا رسول الله! أنا وافدة النساء إليك، ثم ذكرت ما للرجال فى الجهاد من الأجر والغنيمة، ثم قالت: فما لنا من ذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك، وقليل منكن من يفعله».

وأخرج ابن حبان فى صحيحه عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه قال: لما قدم معاذ ابن جبل من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: ما هذا؟! قال: يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم، فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: «فلا تفعل، فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذى نفسى بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها»:. وأخرج الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وابن ماجة حديث «أيما امرأة باتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة» وأخرج البزار بسند حسن عن عائشة رضى الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أى الناس أعظم حقا على المرأة؟ قال: زوجها. قلت: فأى الناس أعظم حقا على الرجل؟ قال: أمه. وقد قيل: خير الزوجات المطيعة

الحيية الفطنة، الولود الودود، القصيرة اللسان، المطاوعة العنان [1]. وقيل: من أرادت أن يطيعها زوجها فلتطعه.

ومن طاعة الزوجة لزوجها أن لا تنازعه فى شىء أراده، ولو كانت على ثقة من صواب رأيها، فالإذعان والإطاعة أفضل لها، إذ قد ينتج الاختلاف عن أسباب تافهة، وينشأ عن ذلك مشاكل خطيرة، وكثيرا ما تتوصل المرأة الى تحويل الرجل الى رأيها اذا اطرحت العناد جانبا. واذا لم ينشأ عن طاعة الزوجة لزوجها إلا إحرازها لرضاء ربها تعالى، وهناؤها فى حياتها، وتمرين أولادها على طاعتهم لها ولأبيهم، والإذعان لسلطتهما عليهم، لكان ذلك كافيا، ودواء من النزاع بين الزوجين شافيا.

الثانى: أن تصون نفسها عن نظر الغير اليها وتستتر عن الاجانب وتغض بصرها عن رؤيتهم.

قال الله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) وقال تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [2] لابنته فاطمة رضى الله عنها: «أى شىء خير للمرأة»؟ قالت: أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل. فضمها صلى الله عليه وسلم اليه وقال: «ذرية بعضها من بعض» واستحسن كلامها.

ومتى كانت الزوجة قاصرة [3] الطرف، كان ذلك دليلا على إخلاصها لزوجها، وفى ذلك السعادة والهناء، ولم شعث الائتلاف، وقطع دابر الاختلاف. وعلى المرأة أن تحترز من التطلع الى بيوت الجيران والأسواق والسكك من ثقب وكوى وشبابيك، ومن أن يسمع أجنبى صوتها بلا ضرورة أو يعرف شخصها. وعليها أن لا تتعرف الى صديق بعلها فى حاجاتها ولوازمها، واذا استأذن صديق لبعلها ولم يكن البعل حاضرا

---

(١) عنان الدابة ما تقاد به. (٢) رواه البزار والدار قطنى فى الافراد من حديث على رضى الله عنه بسند ضعيف. قاله العراق. (٣) اى حابسة عينها على زوجها فلا تتطلع إلى غيره.

لم تستفهم من هو ولا ما حاجته ؛ وإن دعت الى ذلك ضرورة فلتغير صوتها لئلا يجد الشيطان لذلك مدخلا عليها أو على بعلها أو صديقه ، فإن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم .

الثالث : أن تقوم بكل خدمة فى الدار تقدر عليها .

ينبغى أن تبكر المرأة بالقيام لمباشرة أعمال المنزل، كى يقوى جسمها وعقلها، وتدرأ عن نفسها الأمراض والعلل ، وليقتدى بها غيرها ممن فى المنزل ، فتعنى بكنس الدار كل يوم ، وإصلاح فرشها ، وطبخ ما احتيج لطبخه ، وبالعجن والخبز ، وسقى الدابة إن كانت ، وإعطاء العلف لها ، وخياطة ما تيسر ، وتملأ آنية الوضوء والشرب وبيت الخلاء ، وتحضر ماء الغسل باردا أو مسخنا بحسب اختلاف الأوقات والحاجات ، وتجعل همها إصلاح شأن دارها ، وتدبير منزلها ، وتقوم من ذلك بما فى وسعها مما جرت به العادة وأقره العرف ؛ وجمهور العلماء على أنها بذلك متطوعة ؛ وقيل إن ذلك واجب عليها ديانة إن كانت ممن تخدم نفسها ، وتقدر على ذلك .

وفى البخارى أن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما قالت : تزوجنى الزبير [١] وما له فى الأرض من مال ولا شىء غير فرسه وناضحه [٢] ، فكنت أعلف فرسه — زاد مسلم: وأسوسه — وأدق النوى لناضحه ، وأستقى الماء ، وأخرز غربه [٣] وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى [٤] فرسخ ، حتى أرسل إلىّ أبو بكر بخادم يكفينى سياسة الفرس ، فكأنما أعتقنى ، فجئت يوما والنوى على رأسى ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إخْ إخْ — يستنيخ ناقته ليحملنى خلفه — فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته — وكان أغير الناس — فعرف

(١) هو حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وهو أحد العشرة .
(٢) أى بعيره الذى يستقى عليه . (٣) أى أضبط دلوه . (٤) كناية عن مسافة ساعة .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنى قد استحييت ، فجئت الزبير فحكيت له ما جرى ، فقال : والله لحملك النوى على رأسك أشد عليّ من ركوبك معه صلى الله عليه وسلم ! .

الرابع : أنه لا تخرج من البيت الذى أسكنها فيه الا باذنه الصريح .

إذا أذن الزوج لها بالخروج لضرورة فلتخرج لابسة ثياب الحشمة غير متبهرجة [1] ، لئلا يكون تبهرجها سببا فى لفت خائنة الأعين لها ، ولتطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، فإن خرجت بغير إذن بلا ضرورة كانهدام الدار أثمت ، ولعنتها الملائكة حتى ترجع أو تتوب ، وكخروجها بلا إذن زوجها صعودها على أسطحة دارها ، أو المواضع المرتفعة منها ، ودخولها على جيرانها ، إلا لضرورة تدعو الى ذلك .

أخرج البيهقى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع . قيل : وإن كان ظالما ؟ قال : وإن كان ظالما . قال العراقى : هكذا رواه أبوداود الطيالسى وابن عساكر . وأخرج الترمذى وقال : حسن صحيح ، وابن حبان من حديث ابن مسعود رضى الله عنه : « المرأة عورة [2] فاذا خرجت استشرفها [3] الشيطان » .

وأخرج الحاكم عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة استعطرت فخرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية ، وكل عين زانية » . وعند الطبرانى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه : « أقرب ما تكون المرأة من الله تعالى وهى فى قعر بيتها » .

هذا ولتعلم المرأة المسلمة أن ملازمتها لبيتها لا يراد منه — كما يشيعه بعض أعداء الاسلام — حبسها أو التضييق عليها ، كلا ، ثم كلا ، وإنما يراد منه المحافظة عليها ،

---

(١) المتبهرجة هى التى تخرج متزينة لابسة أفخر ثيابها . فهى إن سلمت بنفسها لم يسلم الناس منها .

(٢) العورة فى الاصل ما يستحى من إظهاره من العار وهو المذمة . كنى بها عن وجوب الاستتار فى حقها .

(٣) استشرفها الشيطان أى ليغويها أو يغوى بها فيوقع أحدهما أو كليهما فى الفتنة .

والإبقاء على حرمتها وآدابها ، وسلامتها من مخالطة الرجال الأجانب ليس إلا ؛ ولا شك أن عدم مخالطتها للأجانب مما يوجب لها العز والفخر ، ويكسبها الثناء وحسن الذكر ، إذ كم انبعث عن مخالطتها الرجال مفاسد ، وكم نشأ عنها مضار . إن عقلاء الغربيين حيارى لا يدرون كيف يدفعون عن بلادهم وأممهم بلاء هذه الفتنة ، فتنة اختلاط المرأة بالرجل ، وهم جازمون بأن عاقبة ذلك سقوط الفضيلة ، وشيوع الرذيلة ، وموت الأخلاق والآداب .

تقول الكاتبة الشهيرة « اللادى كوك » بجريدة الايكو : على قدر كثرة الاختلاط تكون كثرة أولاد الزنى . وهنا البلاء العظيم على المرأة ، فالرجل الذى علقت منه يتركها وشأنها تتقلب على مضجع الفاقة والعناء ، وتذوق مرارة الذل والمهانة والاضطهاد بل الموت . أما الفاقة فلأن الحمل وثقله ، والوحم ودواره من موانع الكسب الذى تحصل به قوتها ، وأما العناء فهو كونها تصبح شريرة حائرة لا تدرى ماذا تصنع بنفسها ؛ وأما الذل والعار فأى عار بعد هذا ؟ وأما الموت فكثيرا ما تفجع المرأة نفسها بالانتحار .

هذا والرجل لا يلم به شيء من ذلك . أما آن هنا أن نبحث عما يخفف — اذا لم نقل يزيل — هذه المصائب التى تعود بالعار على المدنية الغربية ؟ ! أما آن لنا أن نتخذ طرقا تمنع قتل ألوف الألوف من الأطفال الذين لا ذنب لهم ؟ !

يأيها الوالدان : لا يغرنكما بعض دريهمات تكسبها بناتكما باشتغالهن فى المعامل ونحوها ومصيرهن الى ما ذكرنا . علموهن الابتعاد عن الرجال . أخبروهن بعاقبة الكيد الكامن لهن بسبب ذلك . لقد دلنا الإحصاء على أن البلاء الناتج من حمل الزنى يعظم ويتفاقم حيث يكثر اختلاط النساء بالرجال . لقد أدت بنا الحال الى حد من الدناءة لم يكن تصورها بالإمكان . ويلاه من هذه الحالة التعيسة !

وتقول الكاتبة الشهيرة « مس آنى رود » : لأن يشتغل بناتنا فى البيوت خادمات خير وأخف بلاء من اشتغالهن فى المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بما يذهب برونق

حياتها الى الأبد ، ألا ليت بلادنا كبلاد الاسلام فيها الحشمة والعفاف والطهارة : الخ .

فظهر بهذا أن ملازمة المرأة لبيتها يخلصها من آفات جمة ، وبلايا متعددة ، وأن إيجاب الشرع الاسلامى ذلك عليها هو لفائدتها وراحتها ، والسير بها الى ما يوجب الرفعة وعلو الشأن ، والراحة وهناء العيش .

الخامس : أن لا تعطى شيئاً من بيته الا باذنه .

من محاسن المرأة أن لا تفرط فى مال زوجها ، مدخرا كان أو مأكولا أوملبوسا ، بل تحفظه عليه ، فإن لم تفعل كان تفريطها فى ماله سببا لضعف الألفة الزوجية ، وذهاب بهجتها ، وبلاء جدتها ، وذلك مبدأ النفور ، ومبعث الشقاق ، ولذا وجب على الزوجة التباعد عن إضاعة مال زوجها ، والعمل على إصلاحه وتوفيره ، فإن أعطت منه فقيرا أو غيره شيئا ولو قليلا ، فليكن ذلك بإذنه الصريح أو علم رضاه .

أخرج أبو داود الطيالسى والبيهقى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : ولا تعطى شيئا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان له الأجر ، وعليها الوزر . وأخرج البيهقى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : وأن لا تعطى شيئا إلا بإذنه ، فإن فعلت أثمت ولم يتقبل منها .

السادس : أن لا تصوم يوما واحدا أو أكثر تطوعا الا باذنه .

اذا صامت المرأة وزوجها حاضر غير مسافر جاعت وعطشت ، وأثمت فى صومها ، ولم يتقبل منها ، بل هناك من العلماء من قال : إن صومها للنفل بغير إذن لا يصح أصلا . وهذا فى صوم التطوع ، أما صوم الفريضة فإنها لا تحتاج فيه الى إذنه .

أخرج البيهقى من حديث ابن عمر : أن لا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب (١) وأن لا تصوم يوما واحدا إلا بإذنه ، فإن فعلت أثمت ولم يتقبل منها .

---

(١) القتب للجمل كالسرج للفرس .

السابع : أن تلازم الصلاح والانقباض فى غيبته ، والرجوع الى اللعب والانبساط وأسباب اللذة فى حضوره .

لا خير فيمن تلقى زوجها متقبضة الوجه ، مكفهرة ، وسخة الثياب ، قذرة البدن ملأى بالعبوس والتقطيب ، فإنها بذلك تفتح طريقا للشيطان ، وتمهد السبيل للمنازعة والشقاق ، وكفى بهذا هادما لبناء الزوجية ، مفسدا لنظام الأسرة ، فلتجتنب المرأة هذه الخصال الذميمة ، ولتقابل زوجها بالتبسم والفرح ، ولتطلب سروره ورضاه فى جميع أموره ، ولتكن عند مقاباتها له متطيبة متزينة ، نظيفة البدن والأمتعة والثياب ، مزيلة عنها رائحة الأعراق والأوساخ ، محضرة له ما يطلبه ويرغب فيه من طعام وغيره .

أوصت سيدة ابنتها عند زواجها فقالت : أى بنيـة : لا تغفلى عن نظافة بدنك فإن نظافته تضئ وجهك ، وتحبب فيك زوجك ، وتبعـد عنك الأمراض والعلل ، وتقوى جسمك على العمل ، فالمرأة التَفِلَة[1] تمجها الطباع ، وتنبو عنها العيون والأسماع ، واذا قابلت زوجك فقابليه فرحة مستبشرة ، فإن المودة جسم روحه بشاشة الوجه .

الثامن : أن لا تكلفه ما لا يطيقه ولا تطالبه بالزائد من حاجة نفسها .

على المرأة أن تعين زوجها على العيش بالاقتصاد وحسن التدبير ، وتكون قانعة بما رزق الله تعالى ، لا تستزيده فى مأكول ولا ملبوس ، فإن ريح الجشع[2] تطفئ نار المحبة ، وتثير غبار الكراهية ؛ والقناعة والاقتصاد من أحسن صفات المرأة وأكرم نعوتها ، ومتى رزقت المرأة القناعة وتمكن منها هـذا الخلق الجميل ، أمكنها أن تدبر القليل من الرزق فتنتفع به وتحسن التصرف فيه ، ويندرج فى قناعتها تعففها عن كسبه اذا كان حراما ، فإن فى تناول الحرام الهلاك الأبدى ، وكل جسم نبت من حرام فالنار أولى به .

---

(١) التفلة : المنتنة الريح لترك الادهان والطيب . (٢) الجشم محركة : شدة الحرص واسوأ الطمع .

وقد كانت عادة النساء فى السلف اذا خرج الرجل من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ، ولا نصبر على النار .

وعلى الزوجة أن لا تتعض [1] من إعسار زوجها ولا تتغير من تحول حاله ، بل تقابل ذلك بالصبر والرضا ، فالحرة من تكون لزوجها فى عسره كما كانت له فى يسره . وقد رأينا بأم العين من الفضليات من تعين زوجها فى أيام ضيقه على الدهر ، وتتحمل معه بعض آلام العسر ، فتستقطر ثقب إبرتها قطرات من الرزق تدفع بها بعض حاجاتها ، وتسد بها من خلتها ، وهى فى ذلك راضية صابرة ، عالمة أن انتظار الفرج من أفضل أنواع العبادة ، وأن مع العسر اليسر ، وأن نعيم الدنيا قد يكون فى الآخرة بلاء ، وسعادتها قد تكون شقاء ، ومصداق ذلك قوله [2] صلى الله عليه وسلم — وقد أصابه جوع يوما فعمد الى حجر فوضعه على بطنه الشريف : « ألا رُبَّ نفسٍ طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » .

التاسع : أن تبذل جهدها فى أداء واجباتها الدينية .

ينبغى للمرأة أن تقبل على صلاتها وصيامها وسائر ما فرضه الله تعالى عليها ، وليكن أول أعمالها اليومية بعد أن تنهض باكرا من فراشها أداء صلاة الفجر ، ولتوقظ لذلك أولادها ، ولتسهل لهم ولزوجها السبيل الى ذلك ؛ وينبغى للمرأة أن تكون كثيرة الخوف من الله تعالى ، مجتهدة فى عبادته ، متعلمة ما فرض الله تعالى ، لا تقدم على أمر دينها شيئا أبدا .

أخرج ابن حبان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت

---

(١) أى لاتغضب . (٢) أخرجه ابن ابى الدنيا . قاله العراقى .

زوجها، دخلت جنة ربها » وعن الحسن [1] قال : حدثنى من سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أول ما تسأل المرأة يوم القيامة عن صلاتها وعن بعلها » .

العاشر : أن تبر زوجها وتؤثره على ما سواه .

على المرأة أن تقدم حق زوجها على حق نفسها وحق أقاربها ، ومن البر بالزوج احترام أهله، وخاصة أمه التى كانت سببا فى زواجها منه ، فتسلم اليها زمام الرآسة المنزلية وتنقاد لكلامها ، وتعمل بنصائحها، فكثيرا ما كان الخلاف بين الأم والزوجة سببا لحل عقدة النكاح ، أو عقوق الزوج لأمه ، وخسرانه لمرضاة ربه ، والعياذ بالله تعالى .

ومن بر الزوج شكره على ما يأتى به الى الدار من طعام وشراب، وثياب وفاكهة ، وأثاث بيت ، إذ من لؤم الطبع ترك الثناء على الجميل وجحد المعروف . ومن بره أيضا حسن تربيتها لأولادها بحيث تكون رحيمة بهم ، شفيقة عليهم، صابرة على ما تكابده منهم فى الصحة والمرض، قصيرة اللسان عن سبهم والدعاء عليهم ، ممرنة لهم على التقشف وتحمل الصعاب ، مثقفة لأفكارهم ، حاملة لهم على الأدب مع غيرهم، غارسة فى قلوبهم قواعد الايمان والاسلام ، محببة اليهم فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، ناهجة بهم منهج من يرى أن أحب الخلق الى الله أنفعهم لعباد الله ؟

(يتبع) دمشق — محمود ياسين

(١) ذكره فى الزواجر .

المسلمون فى أوربا الشرقية [1]

— يوغوسلافيا —

مملكة الصرب والكروات والسلوفين سابقا
أقلية مسلمة

إن حرية الاعتقاد قد كفلتها المادة الثانية عشرة من دستور المملكة ، فالأقلية المسلمة اليوغوسلافية تشترك الآن فى الحياة العامة الوطنية فى الأحوال والظروف التالية :

احصاء السكان : — إن مجموع سكان هذه المملكة حسب ما جاء بإحصاء وزارة الشعائر الدينية الذى نشرته سنة ١٩٢٣ هو ١٢،٠١٧،٣٢٣ نسمة ، ويبلغ عدد المسلمين من هذا المجموع ١،٣٣٧،٦٨٧ شخصا على الأقل أى بنسبة ١٢٪ (فى المائة) من ذلك المجموع موزعين فى المقاطعات كالآتى :

ففى شمال الصرب : يوجد منهم ١٦،١٨٥ نفسا من مجموع سكان هذه المنطقة البالغ قدرهم ٢،٦٦٩،٥٦٧ شخصا .

وفى جنوب الصرب : ٧٠٥،٥٥٤ نسمة من المسلمين ، وهو عدد ضئيل بالنسبة لمجموع الأهالى الذين يبلغ عددهم ١،٤٧٢،٩٨٢ نفسا ، منهم ٧٤٣،٨٧٢ أرثوذكسيا ، و ١٧،٦٩٩ كاثوليكيا ، و٥،٧٣٧ من الاسرائيليين .

وفى كرواسيا — سلافونيا : (Croatie — Slavonie) يوجد ٢،٤٣٩ مسلما من ٢،٦١٦،٩٣٨ شخصا مكونين لمجموع أهالى هذه المنطقة .

---

(١) مترجم عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

وفى ميجومورية — (Médjoumourié) : يوجد ٥٦ مسلما من مجموع الأهالى البالغ قدرهم ٩٦,٩٧٢ شخصا .

وفى سلوفينى — (Slovénie) : ٦٥٠ مسلما من مجموع السكان وعددهم ١,٠٥٦,٤٨٢ نفسا .

وفى الجبل الاسود — (Montènegro) : ٢٢,٨٥٦ مسلما من مجموع سكانه البالغ عددهم ١٩٩,٨٥٧ نسمة .

وفى البوسنة والهرسك : يوجد ٥٨٨,٢٤٧ من المسلمين من مجموع السكان وهو ١,٥٨٩,٩٢٩ نفسا ، منهم ٨٢٩,١٦٢ أرثوذكسيا و ٤٤٣,٩١٤ كاثوليكيا ، و ١٢,٠٢٨ يهوديا ، و ٩,٢٩٧ من المسيحيين الاغريق المعترفين بسلطة البابا العليا و ٦,٦٢٩ من البرتستانت .

وفى بانا — (Banat) : ٧٣٥ مسلما من ٥٨٢,٥٤٠ نفسا مجموع عدد السكان .

وفى باتشكا — بارانا : (Batchka — Baran) ٩٦٥ مسلما من مجموع سكانها البالغين ٧٩٧,٨٧٣ نفسا .

ولا يوجد مسلمون فى « دالمسيا » ولا بجزيرة « كرك » (Krk) .

ملحوظة : — إن التقسيم الاقليمى السالف الذكر قد تغير فعلا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ ووضع بدلا عنه تقسيم أكثر تجانسا ، ومكون من تسع مقاطعات (Banovines) وهى : « درافا » (Drava) و « سافا » (Sava) و « أوربا » (Urba) و « بريمورسكا » (Primorska) الواقعة على الشاطىء ، و « درينا » (Drina) و « دونافا » (Dunavà) و « زيتا » (Zeta) و « فاردار » (Vardar) .

وعلى وجه الإجمال يكوّن المسلمون ٤٨ ٪ (فى المائه) من مجموع سكان جنوب بلاد الصرب ، و ٣٧ ٪ (فى المائه) من مجموع أهالى البوسنة والهرسك .

دخول الاسلام : — بدئ دخول الاسلام هذه البلاد بحد السيف فى واقعة « تشيرنومن » (Tchernomen) سنة ١٣٧١ ، وواقعة « كوسوفو » سنة ١٣٨٩ من الميلاد ، وأخذ ينتشر بعد الفتح التركى سنة ١٤٥٩ بإقامة القبائل التركية الرحالة (يوروك Yuruks) فى تلك البلاد ، وكذلك المستعمرين العسكريين (أود جاق فى بلغراد) وقد اعتنق الاسلام جزء من الفلاحين ، ولا سيما من فلاحى البوسنة .

وعلاوة على ذلك فقد اعتنق الاسلام منذ الفتح التركى (بين سنة ١٤٨٠ وسنة ١٥٢٢) طبقة أصحاب الإقطاعيات من الكروات والصرب المسيحيين غير الأرثوذكس (من المرقصيين والكاثوليك) وكونوا طبقة البيكوات ، فكان هناك من ٣٦ الى ٤٨ رتبة بيك وراثية ، وكان أصحابها خاضعين خضوعا مّا للوالى التركى فى « ترافنيك » (Travnik) (أو « بانجالوكا » Banjaluka) ، وكانت هذه الطبقة ذات شهامة وشكيمة قوية ، وشديده الغيرة على الاسلام الخالص المحض ، وكان محمد سوكللى (Sokolli) الذى عين صدرا أعظم من سنة ١٥٦٥ الى سنة ١٥٧٩ من هذه الطائفة .

وهذا هو تقسيم المسلمين حسب الأجناس التى دخلت الاسلام :

فالصرب والكروات الذين اعتنقوا الاسلام فى البوسنة والهرسك ونوفى بازار (Novibazar) و « بييلوپولجى » (Biélopoljé) يبلغ عددهم ٦٥٠،٠٠٠ شخصا .

أما الترك القاطنون على الشاطئ الشرقى من نهر « فاردار » (Vardar) فى اتجاه أسكوب (Uskub) فعددهم ٢٨٠،٠٠٠ نسمة ، وأما الالبانيون القاطنون فيما بين « بروكوبلجى» (Prokoupljé) و«دياكوفيكا» (Diakovika) وبالقرب من موناستير فيبلغون ٣٥٠،٠٠٠ نفس ، وأما طوائف النوَر المسلمين (Tseganes) الموجودين فى نيش (Nich) و « فرانيا » (Vranya) و « ليسكوفاتز » (Lescovatz) فعددهم ٥٠،٠٠٠ نفس .

اللغات : — يتكلم اثنان ٪ فى المائة من مسلمى البوسنة اللغة التركية والعربية والفارسية ، إلا أنه منذ سنة ١٩٠٩ ولا سيما منذ سنة ١٩١٢ أخذوا جميعا يتركون استعمال اللغة التركية كلغة مكتوبة وابتدؤا يستعملون اللغة الصربية مكتوبة بحروف عربية عوضا عن الحروف السلافية المبدلة ، وأما مسلمو يوغوسلافيا الآخرون فان اللغة السائدة بينهم هى اللغة التركية وكذلك الكتابة التركية .

اشتراك المسلمين فى الحكم : — كان يوجد عشرة من النواب المسلمين فى مجلس نواب سنة ١٩١٩ .

أما انتخابات ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢٠ لمجلس نواب « سكوبشتينا » (Skoupchtina) فقد أسفرت عن انتخاب ٢٤ مسلما من مسلمى البوسنة من حزب مسلمى يوغوسلافيا ، و١٢ مسلما من مسلمى جنوب الصرب من بين (الراديكاليين) المتطرفين أو الديموقراطيين ، فيكون للمسلمين فى مجلس نواب يوغوسلافيا ٣٦ كرسيا من ٤١٧ كرسيا ، وقد ألف بعضهم حزبا أثناء تلك الدورة النيابية أسموه باسم « الجمعية » (Djemiet) .

وأما الانتخابات التى أجريت فى ١٨ مارس سنة ١٩٢٣ فقد أسفرت عن انتخاب ١٨ مسلما من البوسنة من حزب « سباهو » (Spaho) و ١٣ مسلما من جنوب الصرب من حزب « الجمعية » الذى كان يتآلف من وقت لآخر مع الحزب المتطرف (الراديكالى) .

وقد كان لحزب مسلمى يوغوسلافيا ، فى البوسنة الذى تألف سنة ١٩١٩ كرسيان فى الوزارة اليوغوسلافية التى تشكلت فى مارس سنة ١٩٢١ ، وكان يشغلها الدكتور محمد سبا هو والدكتور قرا محمد وفتش . وفى سنة ١٩٢٢ انقسم حزب مسلمى يوغوسلافية الى شعبتين :

(١) شعبة بقيت حافظة للاسم الأصلى للحزب وهو « الحزب اليوغوسلافى الاسلامى » ويطالب بالاستقلال ويديره الدكتور سباهو ، وكانت جريدة « برافدا » (Pravda) لسان حاله تطبع فى مدينة سيراجيفو ، وتميل الى الانضمام لمطالب الكراويين .

(٢) والشعبة الثانية تسمت باسم « حزب نارودنا اليوغوسلافى الاسلامى ، وقد أسسه سماحة المفتى « مجليلتش » (Magiailitch) وله جريدة لسان حاله اسمها « الإرشاد » ، تطبع فى سيراجيفو أيضا ، وهو حزب وصولى ، وقد انهزم فى انتخابات سنة ١٩٢٣ رغما عن أنه كان له حينئذ كرسيان فى الوزارة يشغلهما الدكتور درويش بك عمروفتش وأحمد شيرتش ، وقد أسس الجزء الأعظم من نواب جنوب صربيا المسلمين الذين هم من أصل تركى أو ألبانى حزبا خاصا فى مجلس نواب سنة ١٩٢٠ أطلقوا عليه اسم « الجمعية » وقد أسسوه فى الوقت المناسب بحيث كان يقود الأغلبية عند التصويت على دستور المملكة ، أما بعض النواب الآخرين الذين هم من أصل صربى مثل المفتى سيف الدين بك « محمود وبيجوفتش » النائب الديموقراطى عن بيلو بولجى ، فقد استمروا منضمين للأحزاب الكبرى مثل الحزب « الراديكالى » (المتطرف) أو « الديموقراطى » (الشعبى) وكان لحزب « الجمعية » جريدة لسان حاله تدعى جريدة « الحق » أسست سنة ١٩٢٠ وتطبع فى مدينة سكوبلجى طبعتين ، طبعة باللغة الصربية والأخرى بالتركية .

وهذان الحزبان من المحافظين ، إلا أنهما انضما لمشروع إصلاح زراعى .

ويوجد عدة مجالس بلدية مكونة أغلبيتها من المسلمين فى البوسنة وفى جنوب الصرب ، ولم تنشر إحصائيات رسمية .

ادارة الشعائر الدينية : — لمسلمى البوسنة رئيس أعلى يدعى رئيس العلماء ، ويقيم فى سيراجيفو طبقا للقانون النظامى النمسوى البوسنى الصادر سنة ١٩٠٩ ، ويشغل هذه الوظيفة فى سنة ١٩٢٨ حاج محمد جمال الدين جاوشيفتش الذى خلف الشيخ حافظ سليمان شاراتز ، ويكاد يكون مستقلا عن وزارة الشعائر الدينية .

أما صربيا (الشمالية والجنوبية) وبلاد الجبل الأسود والفوفودينا (Voïvodina) فالرئيس الدينى للمسلمين فيها هو سماحة المفتى الأكبر ، ومقره فى بلغراد سنة ١٩٢٨ وهو الشيخ محمد زكى تشينارا ويساعده مجلس مكون من عضوين .

وأما كرواسيا (سلافونيا وميجو موريا وسلوفينيا ودالماسيا) فرئيسها الدينى المفتى المقيم بمدينة زغريب ، وكان الشيخ عصمت مفتيفيتش هو الذى يشغل وظيفة الإفتاء بها سنة ١٩٢٨ . وكانت خطبة الجمعة تلقى باسم الخليفة العثمانى فى جميع مساجد يوغوسلافيا حتى سنة ١٩٢٤ .

ويتبع مسلمو يوغوسلافيا مذهب الحنفية ، ورئيس العلماء فى البوسنة يعين بمساعدة مجلس القضاة ورجال الإفتاء (وعددهم سبعة) والأئمة وخطباء المساجد ، وهو نفسه تعينه الحكومة من بين ثلاثة ترشحهم هيئة العلماء المنتخبة من البوسنة ، عملا بقانون ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٩ . وكان يوجد من سنة ١٨٨٤ الى سنة ١٨٩٤ إدارة للاوقاف تشرف عليها الحكومة ولجان استشارية ، وكانت إيراداتها مخصصة للإنفاق على المعاهد الدينية ، وهى:

مدارس ابتدائية ، وتدعى « مكاتب الصبيان » وعددها سبعمائة .

ومدارس ابتدائية نظامية تدعى « مكاتب ابتدائية » وعددها مائة وعشرون .

وغير ذلك كان يوجد ثمانى عشرة « مدرسة » منها أربع نظامية فى سنة ١٩٢٨ يقابلها سبع وثلاثون فى سنة ١٩١٤ ، ومدرسة ثانوية للبنات ، وأخرى تجهيزية للشريعة فى سيراجيفو حيث يؤسس معهد الآن لدراسة علم التوحيد .

وفى مدينة « سكوبجى » أسست المدرسة الكبرى سنة ١٩٢٥ باسم « اسكندر الأول » . ويعدون الآن (سنة ١٩٢٩) مشروع قانون ليتمم استقلال المسلمين فى إدارة شئونهم الدينية ، ومسائل التربية والتعليم والأوقاف ، وهناك مدرسة للقضاء أسست سنة ١٨٨٩ فى مدينة سيراجيفو .

وبجانب كل محكمة عادية فى البوسنة والهرسك توجد محكمة شرعية يديرها قاض شرعى ، وبجانب محكمة سيراجيفو العليا توجد محكمة شرعية عليا مكونة من ثلاثة من كبار القضاة .

وهذا النظام سيمتد الى بقية بلاد يوغوسلافيا حيث يفصل موقتا رجال الإفتاء فى شئون المسلمين . وجماعات الإخوان الاسلامية القديمة تسير الآن فى طريق الانحلال لأن ميل المصريين الذين اعتنقوا الاسلام الى التصوف وتشبع نفوسهم بعوامل الشفقة والزهد ونسيان الذات — كل ذلك أكسب طرق النقشبندية والقادرية والمولوية والخلوتية الكثيرين من مريديها الذين انضموا اليها منذ القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر، ولا يوجد الآن سوى تكيتين للبكتشية فى سيراجيفو . وأما الجماعات المكونة على النظام العثمانى المسماة باسم « أصناف » فلا يزال يوجد منها فى جنوب بلاد الصرب .

الصحافة : — أما الصحف الاسلامية فهى : جريدة « الإرشاد » وألغيت الآن وجريدة « پرافدا » (Pravda) وجريدة « نوفى فريم » (Novi vrome) وجريدة « جيريت » وهى نصف شهرية ، وجريدة نوفى بهار ، وهى كذلك نصف شهرية ، ومجلة « جولستان » الشهرية ، ومجلة اسلامسكا سفيجيست الشهرية ، إلا أنهما أوقفتا سنة ١٩٢٦ ، وكل تلك الصحف كانت تطبع باللغة الصربية بمدينة سيراجيفو . وكان يطبع فى مدينة سكوب جريدة الحق باللغة التركية والصربية ، إلا أنها ألغيت سنة ١٩٢٠ ، وجريدة « البرليق » باللغة التركية والصربية أيضا ، وجريدة « صدائى مليت » وكان يحررها باللغة التركية والصربية كذلك الاستاذ اسكندر بوقفتش فى سنة ١٩٢٧ ، وجريدة « فسنيق » باللغة الصربية . وتنشر بمدينة « توزلا » مجلة « حكمت » الشهرية وتطبع باللغة الصربية .

الطابع الأدبى للاسلام

فى أفريقا الشرقيـــــة [1]

يمتاز الاسلام من بين الأديان الأخرى فى هذه الجهات بأنه دين جاء به كتاب سماوى ، والكثير من الأهالى يتقن لهذا السبب كتابة الحروف العربية وقراءتها ونجد ثمرة ذلك فى لوحات معلقة على أبواب منازلهم ومتاجرهم ، وفى كثير من الخطابات والقصاصات المختلفة . ومما يلفت النظر كذلك أننا نجد بين حين وآخر أناسا يقرءون من كتب عربية أمام منازلهم ، وبالاختصار فإن قليلا من الملاحظة تكفى لبيان أن للإسلام فى هذه الجهات أثرا كبيرا فى الطابع الأدبى بها .

وتزداد هذه الظاهرة وضوحا بسبب تفشى الأمية بين أصحاب الأديان الأخرى ، إلا أنه كثيرا ما توضع اللوحات العربيـة مزدانة بآيات قرآنيـة على أبواب المنازل والمتاجر — كما سبق ذكره — لأغراض أخرى ، مثل إبعاد الأرواح الخبيثة .

وتقوم فئة المدرسين بتلقين تلاميذهم قواعد الكتابة العربية ، حتى يتمكنوا من استذكار بعض الآيات القرآنية وحفظها عن ظهر قلب دون أن يقدر أغلبهم على تفسيرها ، وكذلك كثير من المدرسين أنفسهم لم يصلوا الى درجة من العلم تمكنهم من تفسير القرآن ، وتوجد طبقة أخرى أعلى من مجيدى الكتابة يقدر الكثير منهم على قراءة القرآن قراءة صحيحة وتفسيره أيضا ، ويطلق عليهم لقب « الشيوخ » ، ولا يقل عددهم فى مقاطعة أو سارامو — اذا استثنينا مدينتى دار السلام وباجامايو — عن أحد عشر .

---

(١) نقلا عن مقال للاستاذ ,,Klamroth,, فى مجلة العالم الاسلامى الالمانية التى تصدرها الجمعية الالمانية للمعارف الاسلامية ببرلين .

وينقسم المسلمون فى هذه البلاد الى طوائف مختلفة : فنهم المسلمون المهاجرون الذين نزحوا الى هذه البلاد من الخارج ، ومنهم الأهالى الوطنيون ، وكذلك منهم من هو من أصل هندى ولا أثر له فى إسلام هذه البقاع ، ومنهم من هو من أصل عربى ، ويتكلمون العربية كلغة أساسية ، ولوأن بينهم من يتبع مذاهب مختلفة ، إلا أن الجزء الأكبر منهم كان له الأثر الكبير فى الاسلام هناك . وأما اليوم فإن الممثل الحقيقى للديانة الأسلامية هم الأهالى الوطنيون وليس هم الغرباء ؛ وهم وحدهم الذين يهمنا معرفة مبلغ ما وصلوا اليه من الثقافة الأدبية بفضل الاسلام .

والباحث عن كثب فى أحوال هذه القبائل يمكنه الوصول الى معرفة درجة العلم والأدب التى هم عليها ، وقد يكون فى أخبار من لم يبحث بنفسه فى دخائل الأمور الأدبية ونوعها وحقيقتها شىء من التضليل .

وإنى سأجتهد هنا ما أمكن فى الابتعاد عن آداب لغتهم الأصلية التى وإن كانت مدونة بالحروف العربية ، إلا أنها ليست بالعربية ، وليس للعرب أو الإسلام فيها أى أثر وعلى هذا النهج نحا الأستاذ Becker فى مقاله « القواعد الأدبية فى إسلام افريقا الشرقية الألمانية » الذى نشرته مجلة «الاسلام» الألمانية فى الجزء الأول من المجلد الثانى ص ١٨ ولم يهتم بهذه الناحية من آداب اللغة الأصلية سوى بعض علماء الكنيسة الانجيلية ، أمثال كرابف وبوتنر وماينهوف ، ونشرت لهم أبحاث قيمة فى هذا الصدد فى مجلة « لغات المستعمرات » الألمانية عام ١٩١١

والذى يهمنا الآن البحث فيه هو اللغة العربية لاقترانها بالاسلام فى ثقافة هذه البلاد .

ومما يجب التنبيه اليه — مخافة الوقوع فى اللبس — أن درجة استعمال الكتب ليست دليلا على اهتمام الناس بالقراءة ، فكثيرا ما تستعمل كتب الدين والتفسير

لاقتباس أحكام الشريعة الاسلامية ، فتترك الأيدى أثرا على الكتب دون أن يدل ذلك على استعمالها للقراءة أو نحو ذلك ، كما أن كثيرا من أصحاب هذه الكتب لا يجيدون قراءة اللغة العربية ، ولذا يجب عدم التسرع عند الحكم على مقدار الاطلاع أو تأثير محتويات الكتب العربية على هذه الفئة .

وكثيرا مايخطئ المدرسون الوطنيون فى ترجمة أو كتابة الجمل العربية ، وقد ثبت لى ذلك بوضوح فى كثير من المواقف ، وقد يرجع ذلك الى أن الكثير منهم يعرف الحروف العربية ، ولكنه لم يصل فى معلوماته الى درجة فهم اللغة بتاتا ، أو على الأقل على الوجه الصحيح .

وكثيرا مايختلط على الانسان أن يعرف بالضبط الدرجة التى عندها يصل المدرس الى تفهم معانى الجمل والعبارات العربية على الوجه الأكمل ، ولكن يغلب على الظن أن هذه الدرجة يصلها المدرس عند حصوله على لقب شيخ ، ولو أن درجة إتقان الشيوخ للغة العربية تتفاوت ، فقد تمكن أحدهم من سكان الحضر من ترجمة إحدى العبارات العربية ترجمة صحيحة على حين ادعى الآخر من سكان الريف أن أغلب العبارة — وهو آيات قرآنية — لا يمكن ترجمته ، وأما الباقى فكانت ترجمته فى الجوهر قريبة من الصحيحة ، ولو أن كلا من الشيخين ليسا من علماء اللغة العربية ، إلا أن ترجمتهما كانت قريبة من الأصل ، وذلك فى الجمل العربية المأثورة .

وقد وصلت الى مثل هذه النتيجة فى حديثى مع مدرس لغة أفريقا الشرقية الألمانية الأصلية فى معهد لغات المستعمرات فى هامبورج المدعو ابن بكرى بخصوص معرفة أهالى تلك البلاد بالقراءة والكتابة ، وهو يقسم مسلمى تلك البلاد من هذه الوجهة الأدبية الى قسمين : فمنهم من يشهد الشهادة بالله ورسوله ، ولكنه لايعرف من قواعد الايمان شيئا ومع ذلك يعتبر مسلما ، وأما من يستمر فى طلب العلم فإنه يدرس

قواعد الاسلام الخمس ، وهى الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج ، وقد ذكر ابن بكرى فى حديثه لى أن كثيرا من مسلمى هذه البقاع لا يعرف من هذه القواعد شيئا حتى ولا الشهادة ، ولا يمكن لغير الشيوخ إعطاء معلومات خاصة بقواعد الاسلام الخمس ، حتى أن المدرسين أنفسهم ينقصهم بعض العلم بها ، وأنه — أى ابن بكرى — بالرغم من أنه كان تلميذا على أحد شيوخ مدينة باجامايو الكبار المدعو أبا بكر لم يعرف شيئا عن قواعد الاسلام الخمس ، وهو فى السنة السادسة عشرة من عمره ، فى حين أنه كان قادرا على قراءة القرآن وعلى كتابة الخطابات بالحروف العربية ولو أنه لا يفهم اللغة نفسها ، ولكنه ابتداء من ذلك التاريخ بدأ دراسته الحقيقية فى الشريعة والصلاة والوضوء ، وهذا ما يطلق عليه هناك العلم .

ويميل ابن بكرى الى اعتقاد أن الفرق بين المدرس والشيخ هو أن المدرس يقرأ القرآن ولا يعرف العربيـة ، بعكس الشيخ الذى يقـدر على تفسـير القرآن ومطلع فى العلوم العربية .

ولا يسعنى إلا أن أقر أن ملاحظات ابن بكرى تتفق مع ما وصلت اليه من أبحاث ، إلا أن ابن بكرى يذهب أبعد من ذلك فى التفرقة فى صفوف الشيوخ أنفسهم : فمنهم من يبحث فى أمور الدنيا ، ومنهم من يبحث فى أمور الآخرة ، فالفريق الأول لا يهتم كثيرا بأمور الدين اهتمامه بالأحكام الإلهية والآيات وطرد الأشباح الخ . وأما الفريق الثانى فيعترف بوجود الشياطين والأرواح والجن ، ولكنهم لا يعترفون بما يعتقده الفريق الأول من المس ، ويقولون إن الله لا يرسل الشياطين والأرواح لفساد الانسان . وأغلبية المدرسين يتبعون فريق الدنيا .

وقد اهتممت كثيرا بمعرفة نسبة عدد كل فريق الى الآخر ، ولكن ابن بكرى لم يتمكن من تعيين أسماء الشيوخ أصحاب نظرية الآخرة — غير أنه ذكر اسم مدرسه

أبى بكر الذى هو واحد منهم ولم يعين غيره من شيوخ باجامايو أو دار السلام أو فى القارة الافريقية على العموم ، وذكر أنه يغلب على ظنه أن فى زنجبار كثيرا منهم ولو أنه لا يعرف أسماءهم .

وقد يرجع ذلك الى غيرة بعض الشيوخ وتلاميذهم من البعض الآخر ، فقد حدث أنى ذكرت اسم ابن بكرى أمام أحد شيوخ مدينة دار السلام فأظهر هذا شكا فى مقدرة ابن بكرى باللغة العربية ، ولو أنه يعلم تمام العلم أنه أحد تلاميذ الشيوخ الكبار . وقد تكون هذه الحقيقة ذات أهمية كبرى لنا فى أبحاثنا ، وهى أن كلا منهم كثير الشك والريبة فى مقدرة الآخر على فهم اللغة العربية على أصولها الصحيحة .

اقتصر الحديث الى هنا كما بيّنت فى أول المقال عن المسلمين من الأهالى الوطنيين أما الغرباء المهاجرون الذين أغلبهم من أصل عربى أو هندى فهم كما ذكرت آنفا لا يمثلون الاسلام فى تلك البقاع ، ولا يغيب عن بالنا أن الجنس العربى الأصل — خصوصا الذين هم من حضرموت — لهم اليوم أثر كبير فى الاسلام وكل ما يتعلق به من الشئون فى أفريقا الشرقية الألمانية .

والآن ولهذا السبب يجدر بنا أن نبحث عن قيمة هذه الفئة الأدبية ، ويجدر بى أن أصرح أن ما وصلت اليه من المعلومات من هذه الوجهة لم يكن ليدل على أن اطلاع هؤلاء فى الآداب كذلك لم يصل شأوا بعيدا ، ففى زنجبار تصدر جريدة تسمى « النجاح » وهى تمثل فكرة اتحاد المسلمين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، ويصدرها جماعة من العرب الأباضيين اعتنقوا مذهب الشافعية منذ زمن قريب .

وظهر فى العدد الخامس عشر فى ٢ مارس سنة ١٩١٢ مقالة تبحث فى الأسباب التى من أجلها انحط مستوى الشعب العربى فى أفريقا الشرقية ، واعتقد الكاتب أن السبب لا يمكن أن يكون فى طبيعة العرب أنفسهم ، كما أنه لا يمكن أن يكون بسبب

داء عضال يستعصى دواؤه ، ولكن هناك أمور أخرى هى السبب فى فساد الشعب ، وهذه الأمور ترجع فى الأصل الى سببين رئيسيين :

الأول — تدخل الأوربيين فى تجارة البلاد الداخلية والخارجية ، وبذا تأخرت الزراعة والتجارة الوطنية التى اختصت بها الأهالى والحكومة منذ دخول العرب وقد عاق تقدم الزراعة منع تجارة الرقيق ، واقتصرت بذلك ثروة البنين على ما خلفه لهم الآباء ، فعند ما نفدت أموالهم اضطروا للقرض من الأجانب الأوربيين حتى ، ثقلت ديونهم وذهبت ثرواتهم وكثرت شكواهم واتهمهم الناس بالكسل والاستكانة ، ولكن الأمر فى الحقيقة هو غير ذلك ، بل هو الوقوع فى حالة إغماء ، والجمود رغم الارادة .

وأما السبب الثانى فيرجع لعجز الأسلاف عن مساعدة الشعب من الوجهة الأدبية والعلمية ، فلم يتركوا تراثا لثقافة أحفادهم من علم أو فن أو حرف ، فحال دون نبت الشجر أو إثماره الجفاف وذبول فروعه وأوراقه .

وتجتهد جريدة النجاح فى شد أزر كل حركة ترمى إلى إزالة العائق الثانى وسد النقص من هذه الوجهة ، وهذا المجهود من شأنه توحيد المسلمين من الناحية الأدبية ، ولا يرمى هذا المجهود فى مجموعه الى إيجاد ثقافة عامة فحسب ، بل إن له نزعات وأغراضا أخرى تتضح مما جاء فى نفس الجريدة فى العدد الخامس والعشرين منها الصادر فى ١٢ يونيه سنة ١٩١٢ حيث ذكرت أن آراء العلماء قد اجتمعت على أن الشرق ينقصه كثير من العلم والخبرة العملية ، ولكن ذلك ليس هو ماينقص الشرق مباشرة ، بل إن النقص الأكبر هو فى الوحدة القوية التى لا تجىء إلا عن طريق العلم والعمل ، لأن العلم والعمل كل فى حد ذاته لاينفع الشرق كثيرا ، ولكن الاتفاق وربط كلمة المسلمين هى مفتاح كل خير وسعادة للعالم الاسلامى .

ولقد اختار رسول الله هـذا الطريق ، فإن الوسيلة كانت حتى زوال سطوة الاسلام عن طريق الإخاء الدينى ، وليست عن طريق العلم أو العمل وحده الذى لن يبلغ أحد منهما ما بلغ الرسول أو الخلفاء .

يتضح مما سبق ذكره أن الحكم على الحياة الأدبية وأثر الاسلام فيها فى بلاد أفريقا الشرقية ليس من الأمور السهلة ، وهو من طريق جمع المعلومات بواسطة المحادثات الشفوية أصعب بكثير ، إنما لا مفر للباحث أن يسلكه على ما فيه من صعوبة وعقبات ، حتى يكون الحكم صحيحا لاغبار عليه .

وصعوبة هذا المسلك فى مثل هذه الأبحاث هى أنه قلما يصرح أحد الوطنيين بوضوح عن النقط التى تفيد الباحث الأوربى بطريق مباشر فى عمله ، وهم حريصون جد الحرص فى تصريحاتهم ، بل هى فى كثير من الأحوال إما قليلة الأهمية أو متناقضة ، فلا يبقى للباحث من هذه الوجهة سوى أن يلجأ الى التقارير الأهلية فى هذا الصدد ، ولو أنها كثيرا ماتكون مبنية على أساس غير دقيق ، ولا بد من التحقق من وضعها واختبار صحتها ومقابلتها للحقيقة الواقعة ، وقد وقع كثير من العلماء الباحثين فى هذه الغلطة المبنية على التسرع وعدم الحيطة أكثر من مرة .

وأخيرا وقبل ختام هذا الموضوع يجدر بى أن أنبه أنه من الضرورى لدراسة الطابع الأدبى للاسلام فى أفريقا الشرقية الإحاطة التامة بالأديان الأخرى — وأغلبها وثنية — وما تحتمه من عادات وعبادات ، حتى يسهل للباحث أن يتعرف ما يمكن أن يعزى للاسلام من غيره .

فمن معتقدات الوثنية فى هذه الناحية من الأرض أن الموت ماهو إلا نداء الرب لعبده ، ومثل هذا من العقائد كثير فى الأديان التى تعتقد بوحدة الإله ، ولكنهم لا يقيمون شعائر خاصة احتفالا بموتاهم ، وقد كان للاسلام أثر ظاهر فى هذه العقيدة واتجاهها نحو

طرق فكرية أخرى هى وإن لم تختلف مع العقيدة الأصلية فى الجوهر إلا أنها تباينها فى الطريق الفكرى ، وذلك بأن جعلت الاعتقاد السائد الآن أن الموت ليس نداء الرب ، وإنما هو موافاة الساعة (الأجل) المحتومة ، وبذا تغيرت العقيدة الأصلية فى تفسير الموت من الوجهة الفكرية فقط دون أن يكون لذلك خطر على المقصود بالذات فى جوهر المعنى الأصلى .

ومثل ذلك أمر الأعياد والموالد الأهلية والدينية التى كان للاسلام أثر واضح فى تهذيبها أو إقامتها مع تغيير وجهة النظر العامة فى ماضيها أو نتائجها ، وبهذه المناسبات نجد تضاربا فى الآراء كبيرا يصعب معه تفسيرها أو الوصول بواسطتها الى جمع معلومات تفيدنا فى بحث مثل هذا الموضوع المتشعب .

وأخيرا أشير الى أنه لا يزال هناك عمل صعب كثير يجب تذليله قبل أن نصل الى معالجة هذا الموضوع معالجة وافية ، ويجدر بالمهتمين بمثل هذه الأبحاث التكاتف فى جمع معلوماتهم خدمة للعلم والتاريخ .

الاخلاق الدينية

تأليف فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى مفتش أول مساجد الأوقاف

كتاب قيم يهدى إلى مكارم الأخلاق ويرشد إلى فضائل الأعمال من كتاب الله وهدى الرسول صلى الله عليه وسلم بعبارة سهلة وأسلوب جيد . صدر منه الجزء الأول مطبوعا طبعا متقنا على ورق جيد .

فنشكر فضيلة المؤلف على هذا العمل النافع ، ونحث أهل العلم ولا سيما خطباء المساجد والوعاظ على اقتنائه ؟

الطفل العجيب

« كريستيان هينريش هينيكن »

جاء ذكر هذا الطفل العجيب فى مقال لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى عن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الحسية فى الجزء السابع من المجلد الاول من هذه المجلة ، ولما كان تفصيل هذا الحادث التاريخى العجيب مما يهم قراء المجلة للفائدة التاريخية والحكمية ، رأينا أن ننقل الى العربية ما جاء فى إحدى المجلات العلمية عن تاريخ حياة هذا الطفل العجيب معجزة القرن الثامن عشر :

ولد « كريستيان هينريش هينيكن » فى ٦ فبراير سنة ١٧٢١ بمدينة « ليبك » من أعمال المانية ، وقد كانت حياته القصيرة الحافلة بالعجائب والخوارق الطبعية سببا فى انتشار اسمه فى أنحاء المعمورة حتى زاره الناس من كل صوب ، وبقى ذكره فى جميع المجلات والمؤلفات العلمية حتى هذا العصر .

وكان أبوه رساما ، ومرضت أمه فلم تقو على رضاعته ، فعهد به الى مربية لرضاعته وكان اسمها « صوفى هيلد براندت » وقضى فى حضانتها عشرة أشهر عادية دون أن تمتاز حياته خلالها بأية ظاهرة غريبة ، وكان وهو فى هذه السن يطيل النظر والتأمل فى محتويات الغرف شأن جميع الأطفال ، إلا أنه عند ما لفت نظره أحد أقاربه المدعو «فون شونيش» الى بعض صور الحيوانات ناطقا بأسمائها أمامه ، حاول الطفل إعادة نطقها فأفلح فى ذلك بعد محاولات قليلة ومجهود غير كبير ، ومن ثم أخذ المدعو « فون شونيش » على عاتقه تعليم الطفل وتدريبه ، ولم يلق فى ذلك عناء كبيراً ، فتمكن الطفل من الكلام بوضوح فى أيام معدودة ، وفى نفس السنة بدأ معلمه فى تلقينه التاريخ القديم للكتاب المقدس وأتم دراسته ودراسة الكتب المقدسة الأخرى وسيرة الرسل وهو لم يتجاوز من العمر ثلاثة عشر شهراً .

وقد حاول أهله أن يصدوه عن رضاعة لبن المربية وتعويده على الغذاء مع البالغين فكان يرفض ذلك بتاتا واستمر على الرضاعة، إلا أنه كان يستعلم دائما عن أسماء أنواع الأغذية الأخرى وأصلها وطرق إنتاجها حتى تمكن فى وقت قصير من تفسير كل التركيبات الغذائية وتحليلها، ولم يستغرق فى دراسة التاريخ العام أكثر من ستة أشهر أخرى، كان يجيب بعدها على كل الأسئلة الخاصة بتاريخ اليهود والأشوريين والآريين والفرس والمصريين والاغريق، وكذلك قياصرة الشرق والغرب.

ثم بدأ فى دراسة جغرافية العالم فحفظ عن ظهر قلب أسماء ومواقع البلدان الهامة والأنهار الكبيرة والأقاليم ذات الشأن والمناطق الزراعية والصناعية والتجارية. ثم إنه لم يهمل دراسة اللغة اللاتينية، فكانت تزيد معلوماته من هذه الناحية يوميا زيادة محسوسة. واهتم بجسم الانسان اهتماما كبيرا عندما عرضت عليه الجمجمة لأول مرة، فدرس التشريح وعلم الحياة ووظائف الأعضاء.

ومرض لأول مرة ولما يبلغ من العمر عشرين شهراً، ولكن سرعان ما أبل من مرضه وعكف على علومه، فبدأ دراسة الحقوق وتاريخ بلاده بالتفصيل، وكان قد بلغ فى هذا الوقت من العمر ثلاث سنين ولم يقل نشاطه وإقباله على العلم، فأخذ فى دراسة العلوم الدينية وفلسفتها، وحفظ عن ظهر قلب جملا كثيرة من الكتب السماوية، وكان فى هذا العهد يجيد اللغة اللاتينية إجادة تامة، وهنا بدأ اهتمامه بدراسة التاريخ السياسى لأسوج والروسية وبولندة والمجر وأسبانية وبلاد الانجليز وهو فى بدء السنة الرابعة من حياته.

وقد تظهر قصة حياة هذا الطفل العجيب خرافية، إلا أن المستندات والأوراق الرسمية المحفوظة من ذلك العهد تؤيد جميع ما جاء فيها، وقد أظهر هذا المخلوق العجيب ذاكرة نادرة وموهبة فائقة فى الحفظ والاستذكار، حتى إنها أصبحت مضرب الأمثال على مرور السنين. وأجاد تعلم اللغة الفرنسية فيما بين اطلاعه ودراسته المختلفة، ولكنه

لم يستطع تعلم الكتابة ، فبقيت وحدها العقبة الكؤود أمامه ، ويفسر معاصروه هذا التناقص الغريب بأنه كان ضعيفا نحيل الجسم للغاية ، فلم تقو أصابعه على تحريك القلم والضغط عليه ، ولو أنه كان ينمو نموا طبيعيا عاديا بالرغم من تغذيته على لبن المربية القليل . وتعلم الحساب بسرعة فائقة ، فكان يعد حجة فى عملياته المختلفة علاوة على السرعة الزائدة فى إنجازها .

ومرض للمرة الثانية فى شهر مايو سنة ١٧٢٤ فكان يشكو إسهالا شديدا ، نخيف على حياته عندما كثرت شكواه وطال مرضه ، ولكنه أبل منه فى يوليو من السنة نفسها ، غير أنه كان هزيلا ضعيف البنية ، فقرر ذووه السفر به الى شواطئ بلاد الدانمارك طلبا للراحة ، آملين أن يجدوا من عطف ملك هذه البلاد ما يسد حاجتهم المادية ، فأبحروا من ميناء « ترافيند » على مركب شراعية صادفت أعاصير شديدة حتى قاربت على الغرق والهلاك ، فأجهده السفر كثيرا ، وعند وصوله الى كوبنهاجن عاصمة الدانمارك شرع فى زيارة الجهات التاريخية والمعاهد العلمية ودور الحكومة .

وكان قد بلغ نبأ وصوله الى الجهات المختلفة، فهرع اليه الناس أفواجا لرؤيته والتحدث اليه ، فكان يجيب على أسئلتهم بسرعة خاطر فائقة . ثم سمح له بمقابلة ملك الدانمارك فنفحه هذا بماسة ثمينة وبعض الأحجار الكريمة ، فشكر له صنيعه بكلمات بليغة وانصرف . وتلت هذه الزيارة الملكية زيارات عديدة لأشراف البلد وأعيانها ، فكان موضع الإعجاب والتقدير من العلماء والشيوخ . ثم عاد مع أمه ومربيته الى مدينة ليبك موطنه ومسقط رأسه وهو متعب شارد الفكر ، ولكنه ما لبث أن استعاد قوته وجمع شتات افكاره ، وبدأ فى تدريب نفسه على الكتابة حتى أجادها ، وكان فى هذه الأثناء تعود على ترك الرضاعة تدريجيا ، ولكنه لم يستعض عنها إلا بالنذر اليسير من المأكولات البسيطة .

وعاوده المرض مرارا الى أن نهك جسمه ، وكان كلما ضعفت صحته زادت قواه العقلية ومقدرته الفكرية . واهتم فى آخر أيام حياته بدراسة الفلك وعلم النجوم ، فانقطع لها وعكف على البحث فيها الى أن خارت قواه ولزم الفراش وشعر بقرب منيته ، فكان يخاطب أهله ومعارفه بصوت خافت منذرا دنو أجله .

وفى ٢٧ يونيه سنة ١٧٢٥ توفى وعمره أربع سنوات وأربعة أشهر وواحد وعشرون يوما . وبقيت جثته محفوظة فى فراشها أسبوعين حتى تمكن مئات الألوف من الناس من رؤيتها قبل دفنها ، ثم ووريت التراب فى ١٠ يوليه .

ولهذا الطفل صورة من صنع الرسام المعروف كريستيان فريتش فى سنة ١٧٢٦ ما زالت باقية فى متحف مدينة هامبورج .

الفريدة فى حساب الفريضة

تأليف الاستاذ السيد محمد نسيب البيطار الحسينى رئيس كتاب المحكمة الشرعية بالقدس

كتاب نفيس جمع أحكام الارث بأدلتها ، وفصل مسائل الميراث بعمليات حسابية سهلة قريبة . وفيه أحكام الوصايا المتعلقة بالتركات وفوائد فى كيفية قسمة التركة بين الغرماء ، وفى تقسيم القيراط وكسوره . وقد ذيل بكتاب فى أحكام الانتقال وكيفية قسمة الأراضى الأميرية ومسائل حسابية تتعلق بقسمة الأراضى وبتوحيد الحصص المختلفة فى قيود الطابو ، وقد ظهر هذا الكتاب متقن الطبع جيد الورق . ويطلب من مطبعة بيت المقدس بالقدس الشريف .

وفاة عالم جليل

فى ليلة الثلاثاء السادس والعشرين من شعبان ١٣٥٠ فجع العلم والدين والأدب بوفاة الاستاذ العالم الجليل الشيخ حسن منصور وكيل دار العلوم سابقا ، وأحد محررى مجلة نور الاسلام ، فتصدعت القلوب لهذا المصاب حزنا ، وسالت له العبرات حسرة ، فقد كان الفقيد رحمه الله تعالى راسخا فى العلم ، مهذب الأخلاق ، قوى الايمان ، محمود السيرة ، حسن البيان .

ولد الفقيد فى الاسكندرية وبها نشأ ، وحفظ القرآن وجوّد قراءته على أشهر قراء الاسكندرية المرحوم الشيخ ابراهيم إدريس ، وابتدأ بعد حفظ القرآن وتجويده يطلب العلم فى جامع الشيخ ابراهيم باشا ، وكان هذا الجامع المعهد الدينى بالاسكندرية لذلك الوقت . ثم انتقل الى الازهر الشريف وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين ، ثم دخل دار العلوم واستمر بها حتى أحرز شهادتها ، وولى بعد إحراز الشهادة التدريس فى مدرسة البنات السنية ، ثم ولى التدريس فى مدرسة خليل أغا ، ثم نقل الى محكمة الاستئناف كاتبا ورئيسا لقلم النسخ ، ولما أنشئت مدرسة القضاء عين بها مدرسا ، وظهر تحقيقه بوجه خاص فى التفسير والحديث . ثم عين وكيلا لها مع عدم الانقطاع عن التدريس ، ولما ألغيت مدرسة القضاء وأنشئت تجهيزية دار العلوم عين ناظر لها حينا ثم عين وكيلا لدار العلوم ومدرسا بها وما زال بها حتى بلغ الستين فأحيل على المعاش . ولما عزمت مشيخة الأزهر الجليلة على إصدار مجلة نور الاسلام اختارته للتحرير بها ، فاختص بقسم التفسير ، وشرح السنة ، والملح والطرف ، فدل ما يكتبه على تضلع فى علوم الدين وبراعة فى التحرير ، وسلامة ذوق فى الاختيار .

ومالنا أمام هذا المصاب إلا أن نقول : إنا لله وإنا اليه راجعون . ونسأل الله تعالى أن يفيض على قبر الفقيد رحمة ونورا ، ويعوض المسلمين منه خيرا .

It is feasible on consideration of this aspect of truth, to recognise the favours which the Lord hath bestowed upon the prophets and true believers as well as the punishment which he inflicted on the unbelievers.

This latter aspect of the truth has become well established through the constant corroboration it has received from such events as the Deluge and the drowning of Pharaoh and his host.

It was frequently referred to in the Koran as in the following verses:

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ. وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ. فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن الآلوسى

"And if your people charge thee (Mohammad) with imposture, thou art not the only one who hath been so charged; the people of Noah, and Ad and Themoud, the people of Abraham, and the people of Lot, and the inhabitants of Madian, have charged their prophets Noah, Hud, Saleh and Shoeb with imposture, Moses too was charged with imposture by the Copts.

The Lord hath respited those unbelievers for the allotted span of their lives then he destroyed them and lo, how severe His disapproval was, and what a change He hath wrought!

How many a city whose people were ungodly hath the Lord destroyed because of their wrong-doing and rendered desolate and in ruins; and how many a well hath been abandoned with no one to draw water therefrom after the destruction of those people, and how many a lofty castle hath the Lord deprived of its inhabitants.

Have those people not journeyed in the land to witness the destruction of the unbelievers and take warning thereby! Nay but their hearts are blinded and their minds rendered deficient through the following of passion and indulging in vain imitation."

(*Baidawy's Commentary*).

Heraclius further inquired whether Mohammad had ever been known to betray a trust to which they answered in the negative whereupon he explained, "so it is with prophets, they betray not their trusts."

He knew that prophets are subject to the support as well as trials from the Lord. It has always been the divine rule to put the faith of the prophets and true believers to test in both prosperity and adversity so that they may attain to resignation and gratitude.

Finally, Heraclius inquired of them regarding what Mohammad had enjoined. On learning of them that he enjoined the worship of God as well as prayers, truth, virtue and charity and that he forbade them to worship what their fathers have worshipped before, he said, "This is a sign of a true prophet; I knew that a prophet will be sent but it never occurred to me that he would be from amongst ye; I wish I could join him for I would please wash his feet".

Abu-Sufian Ibn Harb was the one thus addressed. He was an unbeliever and a most impacable foe of Mohammad at the time. On his way out from the presence of Heraclius, he is cited to have said to those in his company "The influence of Mohammad hath become so great that the king of the Romans feareth him".

When he embraced Islam later, Abu Sufian is cited to have said, "I continued to entertain a strong belief that the mission of Mohammad will ultimately succeed until the Lord decreed to guide me unto Islam".

The questions which Heraclius put to Abu Sufian and the investigation that followed thereafter, convinced him, beyond all doubt, that Mohammad was the promised prophet.

Every sane and normal person who hears of those questions and the ivestigation that followed, will readily recognise the great ingenuity with which the discussion was conducted thus contributing widely to the establishment of truth.

Another sign testifying to the truth of a prophet, is the divine rule that the Lord giveth His support to His chosen messengers and afflicteth their enemies with failure, and no matter what betide them, the final victory will be granted the righteous.

Heraclius then explained the significance of those questions thus : He asked them whether one of his forefathers was a king and they answered in the negative, whereupon he said, "had one of his forefathers been a king, I would have said someone claiming the kingdom of his father".

He asked whether someone prior to him had preached what he preached and he received the same answer, whereupon he said "Had someone prior to him preached what he preaches, I would have said someone following the instance of a predecessor". No doubt a thing of frequent occurrence - among human beings, in contradistinction to proclaiming an altogether original saying which was never known to the people of that particular nation before, or the institution of new practices diametrically opposed to the usage of the people. Such latter innovation is indeed, of rare occurrence, nevertheless it could take place.

He then asked whether they have ever accused him of falsehood before he proclaimed what he preached to which they answered in the negative, whereupon Heraclius explained "He would not have refrained from lying to men and then lie to the Lord". For such would be a deliberate lie positively against his principles and could only be told by someone who is in the habit of lying. And if lying is not a characteristic of his, having always been known to tell the truth, and he is averse to lying to people, he would be more decidedly so in regard to God.

Heraclius then inquired whether the number of his followers increase or decrease to which they answered that they do increase, whereupon he explained "Such is the case with true belief until it is rendered perfect and complete".

He then asked whether any of his followers had renounced his faith, in indignation, after adoption thereof to which they answered in the negative, whereupon he explained "Such is' the case with true belief whose sheer joy penetrateth the hearts of men that indignation findeth no way thereto".

He then inquired whether his followers remain steadfast to his faith and continue to uphold its tenets, to which they answered in the affirmative. This again is a sign of truth for falsehood is bound to be exposed in the end with the result that his disciples would desert him and that others would decline to adopt his faith.

The early prophets have declared that the reign of the false claimant to prophethood is short-lived.

Heraclius [1] inquired of Abu-Sufian, who was then an unbeliever regarding Mohammad and ordered those who were in his company to contradict him should he tell an untruth. But they, one and all, agreed to what he said despite their eagerness to refute the claims of Mohammad and belittle his influence.

Heraclius meant by so doing to ascertain the truth of Mohammad's prophethood through the consideration of his qualities and conduct as well as the circumstances in which he was placed. A most ingenious process indeed of establishing a truth.

"Had any of his forefathers been a king ?" inquired Heraclius.

"No", said they.

"Had any one prior to him preached what he preached ?" he continued.

"No", said they.

"Is he of noble lineage ?" asked he.

"Yes", said they.

"Did you ever accuse him of falsehood before he proclaimed what he preached ?" he inquired.

"No", said they, "we have never known him to tell a lie".

"Was he followed by the weak or the strong and vainglorious? " he asked.

"The weak followed him", said they.

"Did his followers increase or decrease ?" inquired he.

"They increased ", said they.

"Did any of them renounce his faith in indignation after embracing it ?" asked he.

"No", said they.

"Was he ever known to betray a trust ?" he asked.

"No", said they.

"What did he enjoin you to do ?" asked he.

"He enjoined us to worship only God and to associate no one else with Him, and ordained prayers, truth, virtue and charity", they said.

---

(1) Heraclius (575 — 642) East Roman Emperor proclaimed in the year 610 A.D. In 629 A.D. the Arabs made their first incursion into his domains. In 636 they won a notable victory on the Yermuk (Hieromax) and in the following years conquered all Syria, Palestine and Egypt.

the first time "Fear thou not, the Lord will never shame thee, for thou givest unto the kindred, speakest the truth, relievest the burthen of the weak, welcomest the guest, renderest succour to the needy and defendest the truth; Aye but whoso combines truth, benevolence and charity will the Lord shame him not".

It is the divine rule that whoso is endowed with noble and unimpeachable conduct enjoyeth the favour and support of God.

Should the one blessed with these attributes fulfil the other characteristics of the prophets, he would be recognised as one of them, particularly if his advent was foretold and his distinctive qualities were known to men. Such knowledge should lead to the positive conviction that he is the promised prophet. It is in reference to this, that the Lord saith :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .
وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The learned people of the Scripture know Mohammad by his qualities even as they know their own children whom they confound not with others, but some pertinacious cavillers from amongst them conceal this fact though they recognise its truth".

(Baidawy's Commentary).

On inquiring of the Moslems regarding what Mohammad preached and on requesting them to recite the Koran, the Negus of Ethiopia came to the conclusion that the revelation of Mohammad bear the same stamp as the revelations of other prophets. He is cited to have said "Verily the revelation of Mohammad and that of Moses issue from the one and the same source".

It is reported that Waraka Ibn Nowfal, who embraced Christianity in pre-Islamic days had said unto Mohammad regarding the revelation "This is the Great Nomos who descended on Moses, and your people will drive thee out". The Prophet inquired whether his people would do that, whereupon Waraka said "No one who had ever preached what you preach but would he incur the enmity of the people; and if I survive until that day, I would afford you my strong support", but he did not survive and died shortly afterwards.

Assuming therefore, that someone came unto mankind, enjoining theocrasy and idolatry and sanctioning wickedness, iniquity and disbelief in God and the Day of Judgment, would such a man be required to perform a miracle or expected to be true? And even granting that he happened to perform what appeares to be a miracle, it would only be a clever piece of jugglery or some sort of quackery. In a word, the innermost of man's thoughts whether right or wrong, good or evil are bound to show on his face and through the slips of his tongue, nay, even in the very gestures he unconsciously makes.

It is in regard to such people that the Lord addresses his Prophet thus:

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Should it please the Lord, He would point the hypocrites out to Mohammad whom he will surely recognise by the peculiar signs whereby the Lord hath marked them and by the perversion and unintelligibility of their words".

(*Baidawy's Commentary*).

And if man's innermost thoughts could be detected without being voiced, they would even be more amenable to be fully understood should they be accompanied with some actual expression thereof.

Again, if the truth or imposture of an informant could be inferred from the premises of the case; nay, even from the very slips of the tongue or twitchings of the face, then how could the truth or imposture of someone who claims prophethood remain undiscovered? And how could the true be undistinguished from the false in view of all such evidence.

Again, people know of their elders and fellow-beings, whose truth and veracity they have long tried, that they do not deliberately tell a lie.

We do not deny that man is liable to change and become an intentional liar that he never was before. But when he does, those who know him, will not fail to perceive the change that has come over him.

It was because Khadija [1] knew Mohammad to be true and righteous, that she said to him when he betrayed fear on receiving the revelation for

---

(1) First wife of Mohammad.

the right path. The light and good example which he affords to mankind could never be attained by the impostor who is influenced by satan.

Of such the Lord saith:

« هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى:

"The unbelievers alleged that the Koran was sent down with satans whereupon the Lord proclaimed that satans could not descend on Mohammad as they descend only on liars and wicked people and Mohammad was neither of these".

(*Baidawy's Commentary*).

It is thus shown that satans hold communion with the false and wicked. Those soothsayers, even though they should chance to predict some unknown event which proves to be true, are essentially wicked impostors whose pretensions will be exposed.

They have no real claim to prophethood and what they reveal could not be the outcome of divine inspiration. For whoso knows the truth, integrity and consistency of the Prophet Mohammad, will realise, out of true conviction, that he is no soothsayer or impostor.

People can easily distinguish between the true and the false by means of the many indications pertaining thereto even in those who profess knowledge of arts and handicrafts. As the truth or vanity of such people is easily discernible from many stand points, so it is with him who proclaims, in word or deed, a faith of love, righteousness and truth; his genuineness or imposture is bound to be detected from many points of view.

Prophethood implies certain knowledge and duties by which a prophet is known. Such knowledge and duties are the most noble of all accomplishments. It is incredible, therefore, that the true could be confounded with the false and that truth and imposture should remain undiscovered in view of all such proofs. It is even more so when we remember that the world never ceased to manifest the influence of some prophet from the time of Adam up to the present day.

Nor is mankind unaware of the kind of revelation proclaimed by the prophets and messengers of God, whose influence still prevails on earth. For men still retain some impressions of those prophets by which they can recognise the verity of their claims and distinguish between prophet and impostor.

ENGLISH SUPPLEMENT OF

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR.

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

THE PROPHET MOHAMMAD [(1)]

(Continued.)

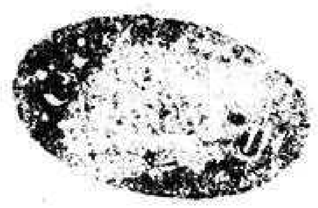
In completion of our subject, we summarise in the following pages a long discourse of Ibn Taimiyya's, one of the most learned doctors of Islam in the seventh century of Hejra.

"There is no one who has honestly claimed prophethood but has displayed such signs as wisdom, truth, charity and other virtuous attributes which constitute a proof of his genuineness in the estimation of any one endowed with an iota of common-sense.

A prophet necessarily preaches and enjoins certain truths and tenets, he has moreover, certain duties to perform. Not so an impostor, whose falsehood will be readily detected in whatever he does or says.

Nay, but when two persons claim a thing, the one being true and the other false, the truth of the former and the quackery of the latter are bound to be revealed in more than one way. For truth is requisite to righteousness and falsehood necessarily implies wickedness. The true is guided by inspirations from on high which urge him on and lead him unto

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh YOUSSEF EL-DIGWY's Book "*Messages of Peace*".



قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

نور الإسلام

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر الشريف

تظهر غرة كل شهر عربي

الجزء العاشر	شوال سنة ١٣٥٠	المجلد الثاني

مدير إدارة المجلة

عبد العزيز محمد بك

المستشار بمحكمة الاستئناف ومن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى (سابقا)

رئيس التحرير

السيد

محمد الخضر حسين

من علماء الأزهر

الادارة

شارع محمد مظلوم باشا رقم ١

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

	صـ
داخل القطر المصري	٤٠
للعلماء غير المدرسين وطلبة المعاهد والمدارس	٢٠
خارج القطر المصري	٥٠
لطلبة المعاهد والمدارس	٣٠

يعامل أئمة المساجد والمأذونون ومعلمو المدارس الأولية والعمال معاملة الطلاب

وثمن الجزء الواحد ٣ صـ صاغ داخل القطر و ٤ صـ خارجه

مطبعة المعاهد الدينية الاسلامية

١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة الاسلام
فى معاملة غير المسلمين

من يدرس أصول الإسلام بجد، ويذهب فى تعرف روح تشريعه مذاهب بعيدة المدى، يدرك دون أن يأخذه ريب أنه دين نزل من السماء ليضرب بهدايته فى أرجاء المعمورة، ويعلم الأمم أرقى نُظم الاجتماع، وقد ارتفعت فى الشرق والغرب رايته، يوم تولى أمره زعماء لبسوا من آدابه برودا سنية، وتحروا فى الدعوة اليه سبلا سوية، ولا أستطيع أن ألمّ فى هذا المقال بما احتوته شريعته من النظم المدنية، والقواعد التى تشهد بأنه تشريع لم يكن للعواطف البشرية والعادات القومية عليه من سلطان، فأكتفى بأن أصف لك ناحية يتمثل فيها عدل قضائه، ورفق سياسته، وسموّ آدابه، تلك الناحية هى أصوله الخاصة فى معاملة غير المسلمين.

المخالفون فى نظر الإسلام محاربون، أو معاهدون، أو أهل ذمة، والمراد ذمة الله أى عهده، فهذا الاسم يشعر بأن من مسهم بأذى فقد خان عهد الله وعهد دينه الحنيف.

أما المحاربون فهم الذين يهاجمون أمة إسلامية، أو يتحفزون للهجوم عليها، أو يمدون أيديهم الى حق من حقوقها، وحكم الإسلام فى هؤلاء أن يدفعوا اذا هاجموا، ويبادروا بما يكف بأسهم اذا تحفزوا، ويقوّموا اذا اعتدوا على الحق حتى ينصفوا، يأذن الاسلام فى دفع المهاجم أو كف المناوئ، مع رعاية جانب الرفق والأخذ بالعرف.

ومن الرفق الذى أقام عليه سياسته الحربيـة أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال كالرهبان والفلاحين والنساء والأطفال والشيخ الهرم والأجير والمعتوه والأعمى والزَّمِن، ومن الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزَّمِن ولو كانا ذوى رأى فى الحرب وتدبير، ولا يجوز قتل النساء وإن استعملن لحراسة الحصون أو رمين بنحو الحجارة، ودليـل هذا قوله تعالى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا) فجعل القتال فى مقابلة القتال، ونبه النبى صلى الله عليه وسلم على أن من لا يقاتل لا يقتل حين وجد امرأة فى بعض الغزوات قتيـلة فأنـكر ذلك وقال : (ما كانت هذه لتقاتل [١]).

واذا وضع المحاربون الأطفال والنساء أمامهم، وجب الكف عن قتالهم ـ إلا أن يتخذوا ذلك ذريعة للفوز علينا، ونخشى أن تكون دائرة السوء على جندنا.

ولا يجيز الإسلام التمثيل بالمحارب، قال صلى الله عليه وسلم : (ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا [٢]) ويمنع من حمل رءوسهم من بلد الى بلد أو حملها الى الولاة، وقد أنكر أبو بكر الصديق رضى الله عنه هذا وقال : هو فعل الأعاجم.

ولم يشرع الإسلام للأسير حكما واحدا، بل جعل أمره موكولا الى الأمير الذى يقدر مصلحة الحرب، وله أن يخلى سبيله بفداء أو بغير فداء.

ولا يرغم الإسلام المحارب على الدخول فى ملته، بل يعرض عليه أن يقيم تحت سلطانه آمنا على نفسه وماله وعرضه ودينه، ويستوى فى هذا الحكم أصحاب الأديان السماوية وغيرهم، قال الامام مالك وصاحبه ابن القاسم : تقبل الجزية من كل من دان بغير الإسلام.

وأما المعاهدون وهم الذين انعقد بيننا وبينهم عهد على السلم، فيجب علينا الوفاء بعهدهم وأن نستقيم لهم ما استقاموا لنا، واذا كان فى بعض ذوى القوة من يحس من خصمه

---

(١) صحيح الامام مسلم . (٢) رواه مسلم .

المعاهد تحفزا الى الخيانة فيسبقه اليها ، فإن الإسلام يوجب فى حال الخوف من خيانة المعاهدين أن ننبذ لهم العهد علنا ، وفى القرآن الكريم (وَإِماَّ تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَائِنِينَ) .

ولم يخص الإسلام تأمين المحارب بصاحب الدولة ، بل هو حق لكل مسلم ومسلمة ، فاذا أمّن رجل أو امرأة من المسلمين محاربا ،كان تأمينه نافذا ، واعتصم بهذا التأمين من أن يناله أحد بسوء حتى يبلغ مأمنه . وليس من شرط التأمين البلوغ ولا الإسلام ، فلو أمّن صبي يعلم ما يقول أو أحد من أهل الذمة بعض المحاربين كان هذا التأمين عقدا محترما .

بلغ الدين فى رعاية عهد الأمان أقصى غاية ، فلو أشار المسلم الى الحربى إشارة يريد بها عدم التأمين ، ففهمها الحربى على التأمين ، وجب له الأمان على حسب ما فهم من تلك الإشارة .

وهذا حكم التأمين فى حال الحرب، أما تأمين المحارب ليدخل البلاد بقصد التجارة فمن شأن أولى الأمر ، ولو أمّن أحد السوقة محاربا فدخل بقصد التجارة وظن المحارب أن هذا التأمين نافذ ، وجب الوفاء له على حسب ظنه ، وليس لولى الأمر إن لم يرض عن هذا التأمين إلا أن يرد المحارب الى مأمنه .

واذا أخذ محارب أمانا لينظر فى الدين ، ولم ينشرح صدره للاسلام ، فما لنا إلا أن نرده الى داره آمنا ، وهذا مايدل عليه قوله تعالى:(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) .

ولو ظفر المسلمون بمحارب جاء مقبلا من بلد العدو فقال : جئت لأطلب الأمان لم يجز التعرض له بمكروه ، واذا لم يروا المصلحة فى تأمينه ردوه الى مأمنه .

ولو وجد المسلمون طائفة من المحاربين فى أطراف بلاد الاسلام فقالوا: جئنا تجاراً وظننا أنكم لا تتعرضون لمن جاء تاجرا، فليس لنا إلا أن ندعهم وشأن تجارتهم أو نردهم الى مأمنهم — إلا أن تقوم الشواهد على أنهم يقصدون من الشر ما لا يقولون.

ومن رعاية الاسلام لعهد التأمين أن أكد فى احترام أموال المعاهدين، حتى اذا رجع المعاهد إلى بلده وترك فى دار الاسلام وديعة أو دينا، وجب إرسالها اليه، فان مات بُعث بها الى ورثته إن عرفوا، فإن لم يعرفوا أرسل بها الى رئيس قومه.

ويدلك على ما لعهد التأمين فى دين الإسلام من حرمة قول عمر بن الخطاب: «إنه بلغنى أن رجالا منكم يطلبون العلج حتى اذا أسند الى الجبل وامتنع قال رجل «مَتَرْس[1]» يقول: لا تخف، حتى اذا أدركه قتله، وإنى والذى نفسى بيده لا أعلم مكان واحد فعل ذلك إلا ضربت عنقه[2]».

وأما من رضوا بالإقامة تحت راية الدولة الاسلامية فقد قرر لهم الدين من الحقوق ما يكفل حريتهم، ويجعلهم أعضاء حية مرتبطة بسائر أعضاء الأمة المسلمة ارتباط ألفة وعطف وتعاون، توجد هذه الروابط فى القرآن والحديث وآثار الصحابة وأقوال أهل العلم من بعدهم.

يقتضى العهد الذى يعقد لأهل الذمة أن يقيموا تحت رايتنا متمتعين بحقوقهم الدينية، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، واليك نص عهد عمر بن الخطاب لأهل إيليا «أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسائر ملتهم، لا تسكن كنائسهم، ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صُلُبهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم».

إن القرآن كقانون أساسى لدولة الاسلام، فلم يترك ناحية من نواحى الاجتماع أو السياسة إلا وضع لها أصلا يهتدى به فى تفاصيل أحكامها، وانظر اليه ماذا صنع

(١) كلمة فارسية معناها لا تخف. (٢) موطا.

فى ناحية هى من أكبر النواحى الاجتماعية أو السياسية ، وهى معاملة الطوائف غير المسلمين اذا اختاروا الاقامة فى جوارنا ولم ينزعوا الى مناوأتنا، إقرأ إن شئت قوله تعالى: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) فالآية تحث على رعاية قانون العدل فى معاملتهم ، وتدل بعد هذا على فضيلة البر بهم ، واذا عبرتْ عن هذا المعنى بعدم النهى عنه ، فلأنها قصدت الرد على ما يسبق الى الذهن من أن مخالفتهم للدين تمنع من برهم وتسهّل الاستهانة بحقوقهم .

وقد جرى أمراء الاسلام العادلون على سيرة هذه الآية ، فكانوا ينصحون لنوابهم بالعدل ، ويخصون أهل الذمة فى نصيحتهم بالذكر ، وأحسن مثل نسوقه على هذا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بن العاص وهو يومئذ والى على مصر ، ومما جاء فى هذا الكتاب « وإن معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم » ومنه « وقد قال صلى الله عليه وسلم : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة ، احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصما فإنه من خاصمه خَصَمه[1] » ومن الأحاديث الثابتة فى هذا الصدد قوله صلى الله عليه وسلم : « من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار » .

فانظروا الى مكانة العهد فى نظر الأسلام ، وزنوها بمعاهدات يأخذ فيها بعض الأقوياء على أنفسهم احترام حقوق شعب إسلامى حتى اذا أمسكوا بناصيته لم يستحيوا أن يعبثوا بالأرواح ، وتجول أيديهم فى الأموال، ويعملوا جهدهم على أن يقلبوهم الى جحود بعد إيمان ، ويحنقون بعد هذا كله على من يسميهم أعداء الانسانية ، وقابضى روح الحرية .

---

(١) روى الخطيب فى تاريخه عن ابن مسعود (من اذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة)

أدرك الفقهاء رعاية شارع الإسلام لأهل الذمة وحرصه على احترام حقوقهم ، فاستنبطوا من أصوله أحكاما جعلوا المسلم وغير المسلم فيها على سواء ، وأذكر من هذه الأحكام أنهم أجازوا للمسلم أن يوصى أو يقف شيئا من ماله لغير المسلمين من أهل الذمة ، وتكون هذه الوصية أو الوقف أمرا نافذا ، ولما قال صلى الله عليه وسلم : (لا يبع الرجل على بيع أخيه ولا يخطبْ على خطبة أخيه[1]) قالوا : البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الاسلام كالبيع على بيع المسلم ، والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم : كلاهما حرام .

واذا ذكر فقهاؤنا آداب المعاشرة نبهوا على حقوق أهل الذمة ، وندبوا الى الرفق بهم ، واحتمال الأذى فى جوارهم ، وحفظ غيبتهم ، ودفع من يتعرض لأذيتهم ، قال شهاب الدين القرافى فى كتاب الفروق : « إن عقد الذمة يوجب حقوقا علينا لأنهم فى جوارنا وفى خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الإسلام ، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أوغيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الاسلام » وقال ابن حزم فى مراتب الإجماع : « إن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب الى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ، ونموت دون ذلك صونا لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

وجعل الاسلام أحكام رؤسائهم فيما بينهم نافذة ، فلهم أن يتحاكموا أمام رؤساء مللهم فيما يعرض لهم من القضايا ، وإنما اختلف علماؤنا فيما اذا رفع الخصمان منهم القضية الى الحاكم المسلم ، فقال المالكية : إن كان ما رفعوه ظلما لا تختلف الشرائع

(١) صحيح الامام مسلم .

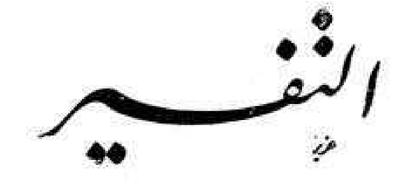
فى تحريمه كالغصب والقتل، وجب على الحاكم المسلم أن يفصل فيه على وجه العدل، فإن كان مما تختلف فيه الشرائع، كان له الخيار فى الفصل بينهم بشريعة الاسلام، أو صرفهم الى رئيس طائفتهم، وحملوا على هذا الوجه قوله تعالى: (فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ) وقال الامام أبو حنيفة: على الحاكم المسلم متى ارتفع اليه الخصمان من أهل الكتاب أن يفصل فى قضيتهم، وليس له الاعراض عنهم. وأخذ فى وجوب الفصل بينهم بقوله تعالى: (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ) وقال: إن الأمر القاطع فى هذه الآية ناسخ للتخيير فى آية (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ).

هذا أصل البحث فى هذه المسألة، أما تفصيل المذاهب وبسط أدلتها فموضعه كتب الفقه وأحكام القرآن.

وأباح للمسلم أن يتزوج تحت سلطان الاسلام يهودية أو نصرانية، وجعل لها من الحقوق ما لزوجته المسلمة، وفى الزواج صلة الصهر، وتتبعها صلة النسب، وفى هذا شاهد على أن الدين الحنيف ليس بالدين الذى يدعو الى التقاطع المانع من المعاشرة بالمعروف والتعاون على مرافق الحياة.

وكره الاسلام أن يجرى المسلم فى مخاطبة غير المسلمين مجرى أولئك الذين يتعصبون لمعتقداتهم بغير الحق، فيطلقون ألسنتهم بإذاية من يجادل فى صحتها، فقال تعالى: (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وقال تعالى: (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

وخاتمة المقال أن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى ممن لا يكيدون لهم كيداً، ولا يظاهرون عليهم عدواً ويمكنهم أن يعيشوا معهم فى صفاء وتعاون على المصالح الوطنية، وكثيراً ما نقرأ أنباء من يشرح الله صدورهم للاسلام فنجدهم حيث يذكرون دواعى اهتدائهم يصرحون بأن من هذه الدواعى ما يرونه فى هذا الدين من سعة الصدر والأمر بالرفق والاحسان فى معاملة المخالفين، وبأن لا يزاد عند جدالهم على دفع الشبهة بالحجة ؟ **محمد الخضر حسين**



سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ).

يحسن بمن يريد تفهم معنى الآية الكريمة أن يكون عنده من الأناة والروية ما يساعده على استيفاء ما قاله المفسرون فيها، وفى سبب نزولها، وفى أحكامها: أمنسوخة أم باقية، ثم يردد النظر حتى تطمئن نفسه الى المعنى الذى يرجحه عقله، فقد اختلفت كلمة المفسرين فى ذلك اختلافا يبعث على عظيم التدبر والتفكير.

ولنسق ذلك فى مقامين: (الأول) فى سبب نزولها، و (الثانى) فى بيان معناها وحكمها، وكونه منسوخا أو باقيا.

المقام الأول: سبب نزول الآية — روى كثير من المفسرين أن ناسا من ضعفاء المهاجرين وفقرائهم لما وردوا المدينة وجدوا بغايا معلنات أقمن الرايات على بيوتهن ليعلم أمرهن فيقصدن لذلك، وكن من أخصب أهل المدينة عيشا وأكثرهم خيرا، منهن من أهل الكتاب، ومنهن إماء لبعض الأنصار أعدوهن للتكسب، كما يعرف من قوله تعالى: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا) وكان فى المهاجرين

فقر شديد لخروجهم من ديارهم وأموالهم فارين بدينهم ، وزادتهم الغربة شدة ، وكان بالمدينة غلاء ، فلما رأوا خصب هؤلاء البغايا وخيرهن حدثتهم نفوسهم لو تزوجوا منهن ليكن عونا لهم على جهد العيش حتى يجعل الله لهم من أمرهم يسرا ، وكان من عادتهن الإنفاق على من تزوجهن ، فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو دأبهم فى كل تصرفاتهم ، إذ كان الزمن زمن تشريع ، ولم تكن الأحكام أخذت مستقرها ، ولم يكن الدين قد وصل الى هذا الكمال ، فنزلت الآية الكريمة ليمتنعوا عن ذلك فامتنعوا .

ولا يطعن فى هذا أن مقام الصحابة وما نشعر به لهم من التجلة والإكبار يأبى أن يصدر من أحد منهم مثل هذه الخواطر المنحطة التى إن لم يمنع منها الدين منع منها الشمم وتأصل الكرامة فى نفوسهم ، نقول لا يطعن هذا فى الرواية لأن إباء النفوس ونفرتها تابع لاستقباح العمل وشدة استهجانه ، والعقيدة وتأصل العادة أكبر مدخل فى أمر الاستقباح أو التسامح ، وكان القوم حديثى عهد بجاهلية لم تكن تنظر الى هذه المنكرات نظر من استقر فى قلبه الدين كاملا ، وملكته عاداته المتأصلة ، فلا جرم صح أن يحمل الفقر المدقع والغربة والشتات قوما فروا بدينهم وبينهم نبيهم يرعاهم ويتعهدهم بالهدى والإرشاد فهم فى مأمن بحياطته ، صح أن يحملهم ذلك على التفكير فى أية وسيلة للعيش ، فيستفهموا عن حكمها ، فإن أذنوا مضوا وإن نهوا انتهوا ، ولا حرج فى ذلك ولا نكر ، وإنما النكير على من نهاه الله فلم يرعو عن غيه ، ولا نقيس وجداننا النفسى — وقد استقر الدين كاملا عندنا ودرجنا على أحكامه ونشأنا عليها — على وجدانهم وهم فى مقام تعرف الأحكام من جديد ، ليخلعوا عادة ويلبسوا خيرا منها .

وروى جماعة منهم أبو داود والترمذى والحاكم والبيهقى أن رجلا يقال له مرثد كان يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، وكان بمكة امرأة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقة له قبل أن يسلم ، فذهب مرة ليحمل أسيرا كان قد وعده أن يحمله ،

فاختبأ فى ظل حائط من حوائط مكة، وكانت ليلة مقمرة ، فمرت به عناق فأبصرته ، فانتهت اليه حتى عرفته ، فقالت مرثد؟ قال مرثد، قالت: مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة ، فقال: يا عناق ! إن الله حرم علينا الزنى ، فصاحت بأهل مكة تنذرهم به وتقول : هذا الرجل يحمل أسراكم ، ففر من وجهها وتبعه ثمانية نفر منهم حتى دخل جبلا من جبال مكة يقال له الخندمة ، فبدا له فيه غار لجأ اليه وأعماهم الله عنه ، ثم رجعوا ورجع الى صاحبه فحمله الى المدينة ، قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أنكح عناق ؟ فأمسك فلم يرد على شيئا حتى نزلت الآية ، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا مرثد ! الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فلا تنكحها» .

وهذا السبب لا يتجه عليه ذلك الاعتراض اتجاهه على الوجه السابق ، فإن النفوس قد تفكر فى ارتكاب بعض ما تكرهه وتنفر منه توصلا الى أمر خطير يتوقف عليه ، وناهيك بتخليص أسرى المسلمين من أيدى المشركين ، واضطرار منقذهم الى الإيواء لامرأة بغى تواريه ، وهو لم يقصد أن يزنى بها ، وإنما أراد أن ينكحها ليأوى اليها توصلا لهذا القصد الشريف ، ولم ير أن يقدم على الأمر بدون أن يستأذنه صلى الله عليه وسلم، وليس توجيهنا هذا معناه أنا نقر قول بعض الناس إن الغاية تبرر الوسيلة ، وإنما وجهتنا فيه أنه لا يبعد أن تفكر النفس فى ارتكاب أخف الضررين تفاديا من أشدهما ، فيبدو لها أن تزوج الزانية أخف من بقاء جماعة من أسرى المسلمين فى أيدى المشركين قد يفتنونهم عن دينهم، على أنه لم يبت فى الأمر ، بل جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه فانتهى.

المقام الثانى : معناها وحكمها — وقبل الشروع فى بيان ذلك نقول : جمهور الفقهاء مطبقون على أن المسلم ولو كان زانيا لا يجوز له أن ينكح المشركة ، وأن المسلمة ولو زانية لا يحل لها أن تنكح المشرك ، وأن الزانى يحل له نكاح العفيفة ، والزانية يحل لها نكاح العفيف .

من أجل هذا كان حمل الآية على معناها المتبادر من أن الزانى لا يحل له أن ينكح إلا زانية أو مشركة ، وأن الزانية لا يحل لها أن تنكح إلا زانيا أو مشركا — مخالفا لما أجمع عليه المسلمون من عدم تزوج المسلم والمسلمة بالمشركين ، ولا يمكن أن يجمعوا على خلاف مقتضى النص إلا اذا كان النص منسوخا ، فقال بعضهم : إن حكم الآية كان مقررا ثم نسخ بآية (وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنكُمْ) ، ولا شك أن المسلمة الزانية لم تخرج بالزنى من أيامى المسلمين . ولا يشكل هذا بأن لفظ الأيامى عام للزوانى وغيرهن ، والعام المخالف حكمه حكم الخاص لا ينسخ الخاص ، بل يحمل على ما عدا الخاص ، حتى يكون كل من الدليلين معمولا به ، ولأن دلالة الخاص أقوى من دلالة العام نقول لا يشكل بهذا ، لأن محل ذلك ما لم ينعقد الإجماع على مقتضى حكم العام ، فإنه حينئذ يتقوى بانعقاد الإجماع على مقتضاه ، وهذا معنى قول بعض العلماء إن الآية منسوخة بالإجماع ، أى إن الآية منسوخة إجماعا ، ونسخها بآية الأيامى ، فإن ظاهر قوله هذا فاسد ، لأن الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به ، فإنه إنما يعول عليه بعد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حيث ينقطع التشريع وينسد بابه ، كما قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا) .

هذا فى نسخ حرمة نكاح الزانية والزانى للعفيف والعفيفة ، أما تحريم نكاح المشركين والمشركات بعد أن كان حلالا فمن قوله تعالى : (وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ) .

هذا رأى لبعضهم ، وحاصله أن الآية واردة لتحريم النكاح على الزوانى والزناة — إلا من بعضهم لبعض ، أو المشركين ، وأن ذلك نسخ فى الموضعين ، فأحل النكاح بين الزناة والعفائف ، وبين الزوانى والأعفاء ، وحرم النكاح بين المسلمين والمشركين .

ورأى جماعة أن هذا من باب الإخبار عن الغالب من أن رغبة كل فريق تتجه الى من يماثله فى طباعه ، وشبه الشيء منجذب اليه ، فكان مساق الآية للتحدث عما يغلب على طباع الناس من ميل الزناة الى الزوانى أو من هن شر منهن وهن المشركات ، وميل الزوانى الى الزناة أو من هم شر منهم وهم المشركون ، وأن المؤمن العفيف الحميد السيرة والمؤمنة العفيفة لا تتجه رغبتهما إلا لمن ماثلهما فى الصون والعفاف والتنزه عما يشين . وهذا المعنى وإن اختاره كثير فليس مما تطمئن النفس الى حمل الآية الكريمة عليه ، فإن التحدث عن العادات والإخبار عنها ليس من مقاصد الهداية والإرشاد ، وفرق بين هذا وبين قولهم فى مواضع كثيرة :(الآية محمولة على الغالب) فإن معنى ذلك أن الآية واردة على معالجة حالة غالبة على الناس ، أو استئصال عادة متفشية فيهم ، أو النهى عن أمر كثر واستفاض بينهم ، وفرق بين معالجة حالة غالبة بالنهى أو الإرشاد أو التشنيع وبين حكايتها والتحدث بخبرها .

والذى نميل اليه ونرجحه من بين أقوالهم فى ذلك هو ما ذكره كثير من المفسرين مختارين له أن الآية مسوقة لتنفير أولئك الضعفاء من المسلمين الذين حدثتهم أنفسهم بالتزوج من أولئك الزوانى ليستعينوا بما هم فيه من رخاء المعيشه ووفرة المال على ماهم فيه من جهد وإعدام لا يطيقون مصابرته حتى يجعل الله بعد عسر يسراً ، فلما استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك نزلت الآية ، ليحفظ على المؤمنين صيانتهم ، والبعد عن الأدناس ولو فى سبيل أكل العيش وتحصيل القوت الضرورى ، ويكون المعنى أن هذا مما لايليق بالمؤمن ، وإنما هو من سمات الزناة ، فهم الذين يميلون أو يقبلون نكاح الزوانى أو من هن أخش منهن وهن المشركات، ثم أردفت تكميلا بشرح أمر الزانية ، فهى التى تقبل أو يليق بها أن تميل الى الزانى ومن هو شر منه وهو المشرك ، فالآية مسوقة للتنفير وبيان أن هذا لايليق بالمؤمن المصون ، وهذا غير المعنى السابق الذى حاصله أن

ذلك حكاية وإخبار عما هو الغالب فى الناس، ففرق بين قولك : إن هذا لا يليق إلا بفئة كذا، وبين قولك : إن هذا لا يحصل غالبا إلا كذا، فالأول من باب قولهم : الكريم لا يعيب، والخير لا يصدر منه إلا الخير، وهو ما نلمحه فى قولهم : كل إناء ينضح بما فيه، وقولهم : وهل ينتظر من السفيه إلا الوصف بما هو فيه . ويقرب من هذا الأسلوب ما يأتى فى قوله تعالى : (ٱلْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَٱلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) على بعض التفاسير فيها كما ستطلع عليه إن شاء الله .

وهذا الوجه مناسب لقصة مرثد أيضا، والمعنى لا ترتكب هذه الخسة ولو لهذا القصد العظيم، ويكون محصل المعنى على هذا الوجه : الفاسق الخبيث الفاجر لا ينتظر منه أن تتجه رغبته وميله إلا بمن تشاكله وتشبهه، فهى الأليق بحاله والأنسب به، وماله وبالعفيفة ينفر طبعها منه ولا تشاطره خبث سيرته ؟ والزانية الخبيثة الفاجرة لا يليق بها إلا خبيث مثلها يشاركها فى فجورها . والغرض منه تنفير ضعاف المسلمين من ذلك الخاطر الذى بدا لهم، أو زجر مرثد من تزوجه بعناق التى استفتى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا المعنى يتفق هو وما روى فى سبب النزول، سواء أكان قصة مرثد أو قصة ضعفاء المؤمنين، ويكون قوله جل شأنه : (وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ) معناه أن نكاح المؤمن المحمود عند الله من زانية خبيثة فاجرة وانخراطه بذلك فى سلك الفساق الذين يغشونها محظور عليه محرم، لا على معنى تحريم العقد على الزانية، وإنما هو على معنى تعرضه لارتكاب آثام ومفاسد جمة: من ضياع النسب الصحيح ومعاشرة الخاطئين وتعود المرء مشاهدة المنكرات، مما يضعف فى النفس روح الحمية للدين، فيتعود إقرار المنكر، وكذلك شأن من تتزوج من الخبيث الزانى، وقد يجرها الى مقارفة الكبيرة، ولا يقتضى هذا حرمة عقد النكاح على الزانية أو الزانى الذى يجر الى فساده حتى يرتكب النسخ الذى هو خلاف الأصل، بل الحرمة حرمة الإقدام، ولكن لو وقع كان صحيحا .

هـذا محصل كلام المفسرين سقناه على اختلافه ، ليتعود القارئ التأمل فى معانى الآيات مستعينا بنظر من قبله ، وبيننا مايرد على بعضها من الاعتراض ليحسن الاختيار بعد التفكير .

وأمّا ما سلكت فى تفسير الآية الكريمة فإن الذى لا يختلف هو ما يفهم من سياقها والإتيان بها بعد آية حد الزنى الذى هو أول الأحكام المشتملة عليها السورة الكريمة ، فإن من تدبر ما سبق فى تلك الآية من الأمر بإقامة الحد عليهما ، والنهى عن الرأفة بهما ، مع التعبير عنها بأنها رأفة فى طريق إقامة الدين ، فكأنها عقبة تعترض طريق الدين ، معلقا ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومعنى ذلك أن هذا مقتضى الإيمان ونتيجته ، ثم الأمر بالتنكيل بهما وإعلان عقوبتهما ، تشهيراً بهما ، وزيادة فى افتضاحهما وأن يكون الحاضر طائفة ومن المؤمنين ، لأن الاستحياء من أهل الإيمان والصلاح أكمل منه بالنسبة للكافرين أو الفساق ، بل ربما عد فى نظر الفجار من أسباب الفخار ، فكل ذلك يعطى صورة من عناية الشارع الحكيم بتفظيع ذلك الجرم العظيم ، لما عرفت فى المقال السابق من قوة دواعيه ، ومن كبير أثره وعظيم خطره ، فاذا ضم الى ذلك ما اشتملت عليه هذه الآية من تفظيع أمر الزنى والتنفير ممن وقع فيه بأنه لا يليق أن يكون بينه وبين مؤمن صلة ، بل ينبغى أن يقتطع ويفر منه كما يفر من الأجذم ، وأنه لا يصح أن يرغب فى الاتصال به إلا من شاركه فى خبثه ، أو كان مشركا لا صلة له بالاسلام والإيمان ، نقول إذا ضم الى الآية السابقة ما يستفاد من هذه الآية بلغ التشنيع عليه والتقبيح له والتنفير منه أعظم مبلغ وأكبره ، وكان جديراً بمن يؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر أن يصون نفسه من هذه الموبقة الفاحشة ، وما أحقه أن يقال فيه : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » كما جاء فى الحديث الشريف !.

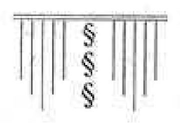
أجل : لا يكاد المرء يصدق أن مؤمنا بالله مصدقا برسالة رسله يسمع ما قال الله فى شأنه من هذه الأحكام والأوصاف ، وما ذكر فى معاملة من وقع فى وهدته ،

وأنه ينبذ ويقاطع ويقتطع من سجل الأسرة الاسلامية، فلا يليق أن يتصل به إلا من كان على مثل حاله وسوء فعاله، ثم يكون مع إيمانه وتصديقه وحضور عقله راضيا لنفسه هـذا المقت وهذا الفحش الأكبر، لا لا، لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، نسأل الله العصمة من الزلات، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه.

بقى من مباحث الآية الكريمة بيان حكمة تقديم الزانية على الزانى فى الآية الأولى، وتقـديم الزانى على الزانية فى الآية الثانية، والسر فى ذلك أن الآية الأولى مسوقة لبيان حكم الزنى، والعامل الأقوى فيه هو المرأة بما يبدو منها دائما من تبرج وتزين ودعاية الى نفسها بشتى الوسائل فى حركاتها وسكناتها ونظرها وإعراضها — حتى فى تمنعها، فلا تكاد تخلو حالة من أحوالها من دواعى لفت النظر اليها، سواء أكان ذلك عن قصد منها أم عن طبيعتها وما ركب فى جبلتها من تكسر ومعنى أنوثة، وكفى بأكبر الركنين دعاية للجريمة استحقاقا للتقديم.

وأما فى الآية الثانية فالكلام فى أمر النكاح والعقد، ولا شك أن الذى يسعى فيه ويعمل على تحقيقه ويبدأ بالخطبة وأمثالها من مقدمات العقد هو الرجل، حتى إن المرأة إذا حاولت ذلك حاولته من طريق خفى، وتحايلت على أن تدفع بالرجل الى أن يفتح الباب من ناحيته، ويبدأ الكلام من جهته، فكان جديراً أن يبدأ بحكمه فى مقام العقد الذى هو من خواصه، والله أعلم بأسرار كلامه ؟

ابراهيم الجبالى



كلمات للوهابية وردها

١ — ذكروا فى حياة الشهداء أنه يحتمل أن يكون المراد بها حياة الذكر فلا تدل الآية الشريفة الواردة فى حياتهم على ما أردنا من ثبوت الحياة لهم وللأنبياء . بخ بخ — لقد أجبتم وأفحمتم ، وأتيتم بما لم يأت به إلا الأوربيون الذين لا يعرفون إلا حياة التاريخ . وكيف يتفق هذا يا حضرات الأفاضل وما جاء فى الحديث الصحيح من أنهم يأكلون من ثمر الجنة أو شجر الجنة ويردون أنهارها ويأوون الى قناديل تحت العرش ، ومن رؤية النبى صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبى طالب يطير مع الملائكة ، ومن قصة ثابت ابن قيس الذى أخبر بعد موته عن درعه التى سرقها أحد الغزاة بغزوة اليمامة ، الى غير ذلك مما لا يحصى ، بل كيف يتفق هذا وما جاء فى القرآن من أنهم (يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ؟ !

فإن قالوا : إنهم يرزقون بعد البعث ، قلنا : إن المؤمنين كلهم كذلك لا خصوص الشهداء . وما معنى كونهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم على هذا ؟ ثم كيف يقول تعالى : (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ) فهل نجهل حياة التاريخ حتى يقول القرآن : ولكن لا تشعرون والصغار عندنا يقولون : نعمل للتاريخ ؟ وهل يخفى على أحد أن من عمل عملا جليلا كان له الذكر الحسن والثناء الجميل الذى يسجله له التاريخ كما يقولون ؟ ولماذا يقول فى الآية الأخرى : (بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) مع أنهم على هذا أحياء عندنا ؟ وكيف يرزقون ويفرحون

ويستبشرون وحياتهم حياة ذكر وتاريخ كما قلنا ؟ وهل يرغّب القرآن المجاهدين في سبيل الله بمثل هذا ؟ وهل يتفق هذا وروح الاسلام الذى يريد من الناس أن يعملوا مخلصين لوجه الله لا للناس ولا للتاريخ ؟ ولكن (هكذا هكذا يكون العلماء الذين عرفوا أسرار الدين ومقاصده السامية وغاياته الشريفة) وأى فرق بين هذه التأويلات السخيفة (الأوربية المادية) وبين تأويلات الباطنية والبابية ؟ ولماذا كل هذا ؟! أفرارا من القول بحياة الأنبياء التى قلنا إنها أولى من حياة الشهداء ؟ وإذاً فليعلموا أنهم ما صنعوا شيئاً غير أنهم أفهمونا مقدار تمسكهم بالدين وفهمهم لنصوص الكتاب المبين ، فتارة تجدهم قرامطة باطنية ، وتارة تجدهم ظاهرية متطرفة ، وصاحب الهوى متلون يجمع بين المتناقضات ، ويتقلب فى المتباينات .

وليعلموا إن لم يكونوا يعلمون أن النصوص فى ذلك متواترة ولا مناص لهم من تسليمها ولو صعدوا الى السماء أو نزلوا الى قرار الماء ، وليس اليوم يوم إطالة ، ولكن لا عجب فقد أنكر رئيس من رؤسائهم الملائكة ، وقال : إنها عبارة عن القوى الطبيعية ، كما أنكر الجن ، وهو كفر لامرية فيه ، ولا داعى للتصريح باسمه ، وكم لهم من ترهات وسخافات يضيق المقام عن ذكرها ، وهل يبقى مع هذه التأويلات الكفرية السخيفة وثوق بنص من النصوص أو حجة على مخالف ؟ وهذا هو ما أراده الباطنية قبل هؤلاء .

٢ — قالوا : إن حديث فاطمة بنت أسد الذى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم سأل الله بحقه وبحق الأنبياء قبله أن يغفر لها ويوسع مدخلها — إنه أوهى من بيت العنكبوت ، لأن فيه روح بن صالح . ونحن نقول لهم قبل كل شىء : ياحضرات المحدثين إنه روح بن صلاح لا روح بن صالح : ثم نقول ثانيا : إن الحديث أخرجه كثير من المحدثين بروايات كثيرة : فقد أخرجه أبو نعيم فى الحلية وفى المعرفة ، وأخرجه الطبرانى فى الكبير ، وأخرجه الديلمى وابن عساكر ، وأخرجه الشيرازى فى الألقاب والحاكم فى مستدركه ،

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه ، وقد روى من طريق أنس وابن عباس وعلى بن أبى طالب ، ففى أى طرقه تنازعون ، وعلى أى مخرجيه تنتقدون ؟ ثم نقول : كيف يحل لكم أن تقولوا : إنه أوهى من بيت العنكبوت يا أرباب الدين والتقوى وقد روى من هذه الطرق كلها ؟ !

على أننا نقول لكم بعد التنزل: إن روح بن صلاح المصرى قد وثقه ابن حبان ، وقال الحاكم : ثقة مأمون . ولا يضرنا أن فيه خلافا ، فقلما يخلو أحد من خلاف ، وما نحن فيه يكفيه هذا القدر ، فكيف يسوغ لهم بعد هذا أن يقولوا : إن الحديث أوهى من بيت العنكبوت اذا كانوا يخافون الله أو يريدون الحق ؟ ! ولعمرى لو وافق الحديث نزعتكم ومذهبكم لا كتفيتم فى روايته بأقل من ذلك بكثير كما هى عادتكم . ثم نقول من جهة أخرى : إن موضوع التوسل لا ينبغى أن نتشدد فيه هذا التشدد كما هو معروف . وأما حديث أنه شرك أو عبادة لغير الله فحديث خرافة مردود بأوليات العقل وبدهيات النقل ، على أن التوسل فيه غير هذا الحديث من الصحاح على ما سمعت وتسمع من الأدلة .

٣ — جاء فى بعض ما كتبناه أن الأفعال تارة تنسب لخالقها نحو (وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وتارة تنسب الى كاسبها نحو (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وأردنا بذلك أن نشير الى جواب آخر غير مشهور فى دفع التنافى بين قوله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) وقوله : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وتركنا الجواب المشهور الذى يعرفه صغار الطلبة من أن الهداية فى قوله تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) بمعنى الدلالة — أردنا أن نشير الى ذلك من طرف خفى إشارة يفهمها الأذكياء ، وما كنا بصدد الجواب عن الآيتين ، وإنما ذكرنا ذلك على سبيل التمثيل لما كنا فيه ، فقام قائمهم يقول : إن الهداية تطلق على الدلالة ، وينقل فى ذلك

كلام الزمخشري وغيره ، وما كان أغناه عن هذا كله ، فالمسألة من أوليات المسائل التى تذكر فى صغار الكتب ، وما أتينا بما يفيد الحصر ، ولكن القوم لا يطلبون حقا ولا يريدون إنصافا ، فتى وجدوا شيئا تافها وقد فهموه على غير وجهه ملأوا الدنيا صياحا معلنين عن أنفسهم وملبسين على الناس . على أن الكاتب ترك أصل الموضوع العلمى وما فيه من أدلة وبراهين ، وأخذ يناقش فى المثال ، وقد قالوا : إن المناقشة فى المثال ، ليست من دأب الرجال ، ولكن أىّ هكذا خلقت ! .

٤ — ذكرنا فى أدلة التوسل حديث توسل آدم عليه السلام به صلى الله عليه وسلم عند ما اقترف الخطيئة ، وقلنا : « أخرجه الحاكم فى المستدرك ولم يتعقبه الذهبي فى كتابه الذى تعقب به الحاكم فى مستدركه » وهو كتاب ذكر فيه الأحاديث التى يرى أنها موضوعة وهى نحو مائة حديث ، فلم يفهموا هذه العبارة الواضحة (وقلما يفهم صاحب الهوى غير ما يوافق هواه أو ينصر نزعته) وإلا فلماذا ذكرنا ذلك الوصف وكان أخصر من هذا أن نقول : « فى تلخيص المستدرك » أو لا تقول شيئا ، فإنه اذا قيل : لم يتعقبه الذهبي ، فهم منه أن ذلك فى التلخيص . هذا هو المعروف إلا عند إخواننا المعروفين ، وقد أردنا أن نفهمهم أن الذهبي رجع عن الحكم بالوضع فى ذلك الكتاب ، فلما لم يفهموا ذلك قالوا : إن الذهبي لم يقره بل ذكر أنه موضوع ، ثم طنطنوا بذلك ما شاء لهم الهوى مما سمحت به آدابهم واقتضته أذواقهم . ونحن نقول لهم أولا : إنكم لم تفهموا عبارتنا فى المجلة مع كونها واضحة ، وقد أوقعهم فى ذلك شغفهم بالطعن على مخالفيهم من جهة ، وقصور اطلاعهم من جهة أخرى ، فإن للذهبي كما قلنا كتابا مخصوصا بموضوعات المستدرك فى رأيه ، وهو كتاب خطى لا يعرفه هؤلاء فيما يظهر ، وهذا غير تلخيص المستدرك الذى يذكر فيه الموضوع والصحيح ، وأما الذى ألفه لمجرد التعقب ، فهو كتاب آخر كما عرفت ، لم يذكر فيه إلا الموضوعات .

فأين هـذا من ذاك ؟ وهل يعقـل أن أنسب ذلك لتلخيص المستدرك وهو مطبوع معه فى نسخة واحدة ؟ وعبارة المجلة واضحة فى ذلك . على أننا نقول : إن الذى قاله الذهبي فى تلخيص المستدرك بعد قول الحاكم : إنه صحيح – هكذا : « بل موضوع وعبد الرحمن بن زيد واه » ولم يزد على ذلك ؛ ونقول : إن هذا مدسوس على الذهبيّ من بعض تلك الطائفة ، ويبعد جدا أن يكون من كلامه ، وكثيرا ما رأينا ذلك وتثبتنا منه ، وربما جرّت اليه المناسبة فى الأعداد الآتية ، فإن ذلك لو كان من الذهبي لقال : «فيه فلان الكذاب أو الوضاع» ولا يكفى فى الحكم عليه بالوضع أن يقول: إن عبد الرحمن واه ثم يسكت ، بل كان يقول على الأقل : واه جدا . وكيف يقول إنه موضوع وقد رواه البيهقى فى كتاب دلائل النبوة الذى قال فيه الذهبي نفسه : إن هذا الكتاب كله هدًى ونور ، ورواه القاضى عياض فى الشفاء بسند صحيح عن الامام مالك فى قصته مع المنصور ، ولا مطعن فى ذلك السند ، خلافا لمن توهم ذلك ، وسيتبين لك ؟ وقد ذكره صاحب المواهب وشارحها ولم يتعقباه .

قال الطاعنون : إن فى سنده عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف . ونحن نقول : نعم هو ضعيف ، ولكن ليس بوضاع ، ثم نقول : معلوم أن الضعيف الذى يغلب عليه الوهم قد يصح حديثه ، ويعرف ذلك الحفاظ بقرائن كثيرة تفيدهم صحة الحديث وإن كان راويه ضعيفاً ، ويدل على ذلك فيما نحن فيه أن الحاكم ممن ضعف عبد الرحمن بن زيد ، فكيف يروى عنه ويصحح له وهو من مضعفيه ؟ فلا بد أن يكون قد علم أن عبد الرحمن لم يهم ولم يغلط فى هذا الحديث ، ويمكنه أن يعرف ذلك مثلا – بما روى عن مالك فى قصة المنصور ، مع ملاحظة أن مالكا كان أول الطاعنين على عبد الرحمن بن زيد ، فلم يقل مالك للمنصور : «لماذا تصرف وجهك عن رسول الله وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم » إلا وقد ثبت عنده صحة الحديث ، وكفى بمالك حجة .

فالحديث لا يمكن أن يكون موضوعا بحال من الأحوال ، والذهبي لا يمكن أن يجهل ذلك ، فلا يمكن أن يحكم بوضعه حكما غير مبين كما سمعت ، ولا يمكن أن يتفق القاضي عياض في الشفاء وشراحه ، وصاحب المواهب وشراحها ، والبيهقي في الدلائل على ذكره من غير أن يشير واحد منهم الى ذلك بكلمة تفيد الوضع أو أن هناك من قال به . على أن ابن عدي قال في عبد الرحمن بن زيد هذا : « له أحاديث حسان وهو ممن احتمله الناس ووثقه بعضهم ويكتب حديثه » وقد روى عنه وكيع وابن عيينة وغيرهما ولم يلتفتوا الى من تكلم فيه ، على أننا نرى النقاد من المحدثين ينتقون من روايات من تكلم فيهم من جهة الضبط ما يخرجونه في عداد الصحاح كما فعل مسلم وغيره ، ومن ظن أن الكلام في الأحاديث تصحيحا وتوضيعا وفي الرواة تجريحا وتعديلا أمر هين ، فقد هان عليه العلم ، فكيف يكون حديثه موضوعا بعد هذا كله الخ ؟

على أن الحجة في ذلك كلام مالك مع المنصور ، وهو الدليل الواضح على أن عبد الرحمن ما غلط وما وهم في هذا الحديث ، وربما كان من الواجب أن نتعرض لما أورده بعضهم من الطعن في الرواية عن مالك بأن فيها يعقوب بن اسحق بن أبي اسرائيل رواه عن ابن حميد المعمري مع أنه لم يدرك ابن حميد المعمري ، وإنما أدرك ابن حميد الرازي وهو ضعيف غير ثقة ، فهذا محصل طعنهم في الرواية عن مالك . ونحن نقول أولا : إن الطاعن لجهله أو تضليله حرّف كلمة (عن) الى كلمة (ابن) أو اغتر بكتاب محرف كما وقع لكثير منهم عند ما نظروا في الكتب المطبوعة المحرفة ، ولا ريب في أن يعقوب بن اسحق يروي عن أبيه اسحق ، بل هو راويته . ونقول ثانيا : إننا اذا سلمنا أنه روى عن ابن حميد الرازي ، فلا نسلم أن الرازي غير ثقة ، فقد وثقه يحيى بن معين والامام أحمد ، ولو كان الحديث مما يصادف هوى في نفوسهم لطاروا به فرحا وملأوا الدنيا كلاما ، مستندين الى توثيق أحمد ولو لم يكن معه ابن معين ، فكيف بمن وثقه أحمد وابن معين جميعا ؟ ولا يخفى عليك تشدد ابن معين في توثيق رجال الحديث .

فما قيمة من تكلم فيه بعد توثيق هذين الإمامين ؟ وقد يقولون — ولا نستبعد منهم شيئا — : إن الخطيب البغدادى لم يذكر ابن حميد الرازى فى رواة مالك ، وما أوهى ذلك سنداً وأضعفه حجة ! فكم ترك الخطيب من رواة مالك . على أن ثبوت معاصرة الثقة يغنى عن ثبوت اللقىّ عند مسلم صاحب الصحيح كما هو معروف ، وقد توفى الرازى المذكور سنة ٢٤٨ عن اثنتين وثمانين سنة ، وبين رواة مالك من تأخرت وفاته الى ما بعد سنة ٢٥٨ .

وبعد هذا كله يجدر بنا أن نلفت نظرك فى هذا المقام الى أن هناك ماهو أطم وأعظم من ذلك كله ، وهو أنه يلزم على مذهب الوهابيين أن يكون كل من خرّج هذا الحديث من أرباب الكتب المصنفة ، وكل راو من رواته الكثيرين هو وأمثاله من الأحاديث كحديث عثمان بن حنيف (لا سهل بن حنيف) كما غلطوا فيه ، وهم المبرزون فى علم الحديث على مايزعمون : نقول يلزم أن يكون أولئك الرواة حتى مالك بن أنس (حتى عثمان بن حنيف الصحابى الجليل من أوائل المجرمين أو الكافرين) لأنهم رووا ما يوجب الإجرام أو الكفر ، وليس يخفى عليك حال الراضى بالشرك ، فما بالك بالداعى اليه والناقل له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعوذ بالله أن نرمى أصحاب رسول الله أو علماء المسلمين بشىء من هذا (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) .

وأظنك بعدُ لم تنس ما قلناه من أن المتوسل ما طلب إلا من الله سائلا إياه بمنزلة نبيه عنده ، وهى هى لم تتغير فى حياته ولا بعد مماته ، بل نقول : إنه لو طلب من النبى نفسه أن يفعل له لم يكن كافراً ولا مشركا ، فإنه يطلب منه على سبيل التسبب وكل من يطلب من المخلوق على سبيل التسبب لا يكون مشركا ولا كافراً . وما أدرى أينازعون

فى الصغرى أم فى الكبرى ؟ واذا يكونون قد خرجوا الى المهاترة وسقطت معهم المناظرة، واذا كان الطالب من الأولياء والأنبياء هو على سبيل التسبب فلا كفر فيه كما هو بدهى ولو كان الطالب غالطا (على سبيل الفرض) ويكون كمن طلب المعونة من المقعد غير عالم أنه مقعد ، فغاية ما فيه الغلط والجهل لا الشرك والكفر ، وإلا كان الناس كلهم مشركين ، فإن هذا العالم مبنى على الأسباب والمسببات .

هذا وقد نقلنا لك من المغنى للحنابلة الذى طبعه الشيخ رشيد أن الزائر له صلى الله عليه وسلم يتشفع به الى الله عند زيارته ، وهم حنابلة على ما يزعمون ، والشيخ رشيد عالمهم ومفتيهم ، ونقلنا لهم عن ابن القيم وهو من أئمتهم أن الروح الكبيرة ربما هزمت جيشا ، ونقلنا لهم عبارة الشوكانى فى ذلك وهو من أئمتهم أيضا ، فليت شعرى ماذا يقولون بعد ذلك كله ؟ ولكن القوم لا يعجزهم شىء ، ويمكنهم الجواب عن كل شىء ، شتما وإقذاعا وتخيلا وافتراء .

وليس يهمنا أن يشتموا أو يسبوا — غير أنا نحب لهم أن ينصفوا ولا يتعصبوا ، على أنا بجانب هـذا نخجل من ثناء المثنين وإطراء المطرين ، فإن كنا مخلصين فأجر الآخرة بعد ذلك خير وأبقى ، وإن كنا غير مخلصين أنشدنا قول القائل :

اذا رضيت عنى كرام عشيرتى   فلا زال غضبانا على سوامم

وربما ذكرنا لك فى الأعداد المقبلة من كلماتهم الفارغة وأجوبتهم الجاهلة، وخيالات علمائهم عندنا بمصر، وتصحيفهم الأحاديث الصحيحة المشهورة (لأجل نقطة) ما يعرفك أنهم ليسوا من العلم فى ورد ولا صدر ، ولا من الفهم فى قليل ولا كثير

فرقة تدعى الحديث ولكن   لا يكادون يفقهون حديثا

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

روابط الأسرة

الطلاق

قال الله تعالى : (ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) .

قد علمنا أن النكاح هو أساس تكوين الأسرة تكوينا صحيحا ثابتا ، وأنه ينبوع لسعادة الحياة وهناءة المعيشة المنزلية على وجه مستقر قوى الأركان متين البنيان لا تهزه أعاصير الحياة ولا تقتلعه عواصفها ، وأن الاختلاط التابع لمجرد الهوى والميل ، والذى لم تحكم رابطته بعقدة النكاح إن هو إلا نزعة هوى يذريها الهواء ، ونزوة نفس لا تلبث أن تتلاشى كمنثورا لهباء ، فالحياة عرضة لأعاصير الهموم والأحزان ، ومثار لتقلبات الأكدار والشجون ، فلا بقاء لتلك العواطف الوقتية ، ولا ثبات لتلك النزوات النفسية إلا ساعة الغفلة وركود الحياة ونوم عواملها ، فمتى تحركت أسبابها وجد جدها أطفأت لهبها وجعلتها كأن لم تكن شيئا مذكورا ، فهى والحالة هذه لا تصلح لأن تكون أساسا يبنى عليه نشأة جيل جديد يخلف ما قبله فى عمارة الكون واستمرار الوجود ، جيل يحتاج فى نشأته الى تضافر قوى الأبوين وتوافر أسباب عنايتهما به ، ومصابرتهما كل مضض يلحق بهمامن أجله ، وناهيك باختلاف رأيهما لمصلحته وما يجره ذلك من معاندة ومخاصمة يليهما اشمئزاز واستنكار ، هل يصبر لذلك ويصمد له إلا نفسان توثقت الروابط بينهما ، وأشعرت كلا منهما بأنه لا مندوحة له عن معاشرة الآخر ومبادلته المصالح والتفكير ، والحقوق والواجبات ، وأن لكل منهما على صاحبها حق الاستمساك والاستيثاق والارتباط ، رضيت نفسه أم كرهت ؟ .

ولقد حاطت الشريعة الغراء هذه الرابطة المقدسة بأمتن الروابط وأحكم الصلات، واتخذت لها الأساليب العديدة التي تكفل ثباتها واستقرارها أمام عواصف الأهواء، فبدأت الأمر بينهما بالتعرف البسيط البريء الذي لا يخشى منه على الأخلاق أن تفسد، ولا الأعراض أن تنتهك، فأباحت لمريد الزواج أن ينظر ممن يريدها لنفسه وجهها وكفيها متى صمم على خطبتها، وكفى بذلك تعرفا لما يهمه ويعنيه، ثم أمامه البحث وتعرف أخلاقها ونشأتها وأسرتها وهلم جرا لا يمانع في ذلك ولا يدافع، فاذا ما خطب وعقد فقد وجب عليه الصداق المفروض، ثم وجب عليه لها النفقة الدائمة، ووجب له عليها الطاعة والاستسلام في أمور العشرة الزوجية، فتبادُل هذه الحقوق والواجبات لكل منهما على صاحبه ضمان لاستمرار الهناءة والسعادة في معيشتهما، خصوصا بعد التمهيد لها بتلك الخطبة التي بها يتعلق كل منهما بصاحبه تعلقا تاما، بحيث يشعر أنه مبدأ سعادته وراحته.

وقد امتن الله على الزوجين بهذه النعمة العظمى: نعمة المودة والرحمة المجعولة جعلا إلهيا، كما قال جل شأنه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً) كل هذا ليوفر للأسرة أسباب السعادة وعوامل القوة في رابطتها، والمتانة لكتلتها، لتبقى متضامة متماسكة، لتقوى على مصابرة عوامل الحياة وطوارئها، وتنهض بتنشيء الجيل الذي يليها على أحسن الوجوه وأكملها، فتتكون منه أمة غير مفككة الأوصال ولا واهنة الرابطة، حكمة منه وفضلا، ولكن الانسان هو الانسان: نزواته نزواته، ونزغات الشيطان فيه نزغاته، وما كانت الشرائع مهما كملت لتقتلع طباعه أو تخلقه خلقا جديدا، وإنما هي لتهذيب نفسه وتشذيب شذوذه وتقويم اعوجاجه، علاجا لا استئصالا، وتعديلا لا تبديلا، فشرعت أحكام الزواج والطلاق في الشريعة الاسلامية وافية بكل هذا على أكمل الوجوه وأتمها، كما سيتبين من مقارنتها بغيرها.

كما اختلفت الشرائع السماوية التى وصل الينا علمها فى أمر تعدد الزوجات اختلفت فى إباحة الطلاق ، فأباحته الشريعة الموسوية ، وأباحت الرجعة بعده مالم تتزوج من رجل آخر فليس لها عودة اليه ، ولعل حكمته تسهيل أمر العشرة الزوجية ورفع الحرج فيها حتى يكثر الإقبال عليها فيكثر الشعب الاسرائيلى بسرعة ، وقد كان فيه النبوة والدعوة الى الله وإلى طريق الخير ، ومن الحكمة تقوية شعب جعل الله فيه النبوة وعهد اليه بتحمل أعباء الهداية .

ومنعته الشريعة المسيحية لما اكتمل الشعب واستجمع قوته ، وأراد الحق جل جلاله أن يقتلع العادة التى تأصلت فيه ، فسد باب التعدد كلية لينسى أمره وتنقطع طماعيته ، فلما استقر الأمر على ما أراد الحكيم العليم جاءت الشريعة المطهرة الكاملة التى تناسب أجيال الناس فى مختلف أحوالها من حضارة وبداوة وضعف وقوة ، فجاءت بحكم يتفق مع مظاهر الحياة كلها لا يتقيد بعلاج حال طارئة ، فراعت الحكمة الإلهية أن الزوجين وهما يتعاشران ويقومان معا بأعباء الحياة ، كلّ بحسب ما تهيأ له ، هما عرضة لهبوب عواصف من هموم الحياة وأكدارها ، فلا بد أن تثور النفس فى بعض الأحيان ثورانا قد يحدث أثره فى النفس الأخرى ، وقد يتماديان فى المغاضبة حتى يضيق الذرع وتنفر النفوس من هذا القيد الذى ارتبطا به ، وتنقلب تلك الرابطة المقدسة قيداً فى الأرجل ، وغلاّ فى الأعناق ، وحرجا فى الصدور ، فتسوء الحياة ويسود وجه المعيشة ، ويكون ما قصد منه الهناءة والسعادة مبعثا للشقاء والتعاسة ، فرفع الله الرحمن الرحيم عن الأسرة هذا الحرج ، ومكن أحد الطرفين وهو الأثبت رأيا ، والأرزن عقلا ، والأقدر على ضبط النفس ، والعرضة للغرامة المالية فى الحل والعقد وهو الرجل — مكنه من أن يحل تلك العقدة اذا توافرت أمامه دواعيها ، فجعل له الطلاق ، ولكن نفره منه من جهة أخرى ، حتى ورد «أبغض الحلال الى الله الطلاق» لكيلا يقدم عليه إلا بعد الأناة وطول التفكير ، فليس أصعب على المؤمن من الهجوم على أمر مبغوض لله ، ولكن أليس من

الجائز القريب أن تلك الثورة الغضبية التى عملت عملها فى نفسيهما حتى بدلت اجتماعهما فرقة ووصالهما قطيعة تهدأ، فتسكن الأعصاب وتعاود النفوس النظر، فنذكر ما سبق من حسنات تذهب تلك السيئات، فيأسف على ما فات، ويود أن يتداركه فيما هو آت؟

نعم هذا محتمل وقريب الاحتمال جدا، والمشاهدات المتكررة أكبر شاهد، فلذلك شرع الحكيم الخبير أمر العدة فرصة للمعاودة، وقدرها بمدة تكفى فى مراجعة النفوس سابق عهدها وإحسان التأمل فى إرجاع البصر، وذلك مدة ثلاثة قروء تنتهى غالباً بثلاثة أشهر، أو بثلاثة أشهر إذا لم تكن المعتدة من ذوات الأقراء، ولا شك أن مثل هذه المدة كاف فى مراجعة النفوس لشئونها ونسيانها السيئة التى لا يجسمها فى التذكير إلا التهاب النفوس بالقوة الغضبية وهياجها من ألم السيئة، فمكن الله الزوج من الرجعة فى مدة العدة المذكورة أو ما هو فى حكمها من وضع الحمل الذى هو حادث يعتبر فى الحياة الزوجية بمنزلة ختام فصل من روايتها متمم لما قبله جعله دورا قائما بنفسه، فاذا تراجع الزوجان فقد يتعرضان لمثل ذلك، فأباح لهما هذا بعينه مرة أخرى، فاذا راجعها ووقع بعد ذلك أن طلقها، كان بكثرة تكراره هاجما على رابطة محترمة ينبغى صونها عن التلاعب، ولا يصح أن تبقى دائما أبدا مظهرا للسخط والغضب، وكفى أن قد أعذر اليه فى المرتين الأوليين، وأنه تصور الفراق وخراب البيت وانهيار صرح السعادة تصوراً يجب أن يكون رادعا، فاذا لم يرتدع بالمرتين، ولم يحرص على ما يجب أن يحرص عليه ولم يحتفظ به، فهى نعمة ينبغى أن يحرم منها، وأن يحال بينه وبين العودة اليها والتنعم بها، وكذلك الزوجة اذا رأت أن عقدتها فى يده، وأنها بإغضابه تعرض نفسها لزوال ما هى فيه من نعمة، احتاطت لنفسها فلم ترتكب ما يوجب ذلك الغضب المشئوم، وهذا منتهى الرحمة والتربية العادلة، وعلاج المعاشرة المقدسة بالدواء الشافى، حتى يبطش المريض بنفسه، فيكون مستحقا لتجرع الغصة بما جنت يداه، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

سيقول السفهاء من الناس : إنا نرى الكثير من الرجال يسيء استعمال هذا الحق فيتخذ عقدة النكاح لعبة يلهو بها إجابة لشهواته وأغراضه السقيمة ، فكيف يكون نعمة وهو يجر على المرأة شقاء عظيما ، وهي مخلوق ضعيف ينبغي أن يحاط بالرحمة بكل ما يمكن ؟ فنقول لهم : ومتى كانت النعم الإلهية مستعملة دائما في أقرب الوجوه للصواب ؟ فهل كل الأغنياء استعملوا ثروتهم فيما يطلب منهم ؟ وهل كل الأقوياء بذلوا قوتهم فيما يجب عليهم ؟ وهل كل العقلاء صرفوا عقولهم لاستنباط الحق وفهم الأمور على وجهها وتمييز حسنها من قبيحها ؟ وهل كل ذوي اللسن أرشدوا الناس الى ما ينفعهم وما يضرهم ؟ لا يستطيع أحد أن يقول إن كل النعم صرفت في وجوه الخير والمنفعة ، بل نرى الكثير منها صرف الى محض الضرر ، كالثروة تعين على الشرف المقوت ، والقوة تساعد على التعدي والإيذاء ، فهل خرجت النعمة بهذا عن أن تكون نعمة ؟ كلا ، إن النعمة شيء وإحسان استعمالها فيما هيئت له شيء آخر ، وخروج المنعم عليه عن الشكر الى الكفران لا يخرج النعمة عن أن تكون نعمة ، فالطلاق على ما شرحناه نعمة على البشر أحسنوا استعماله أم لا ، بل مجرد مشروعيته نعمة ، لأنه يفهم الطرفين أن هذه العقدة ليست ضربة لازب يستحيل حلها ، لا بل هي نعمة جائز زوالها ، فلا تتجنوا فيها فتجنوا على أنفسكم ما تكرهون . متى علمت الزوجة ذلك احتاطت لنفسها وأبقت على العشرة وحفظت حق الزوجية ، ومتى علم الزوج ذلك وأن الطلاق هدم لعشه وتخريب لبيته ونقض لغزله ، وهو بحاجة الى من يعاشره ويكون له سكنا يبادله الرحمة والمودة ولا غنى له عن ذلك ، وأن تجديد النكاح سيعود عليه بغرامة مالية ربما لا يستطيعها ، وقد يقع في شر من هذه التي يشكو منها ، نقول : متى علم الزوج ذلك ابتعد عن مغاضبة زوجه ، حتى لا يثير نفسها ولا يدفعها للسوء بسوء فعله ، فكان في مشروعية الطلاق عون على أن يقوم كل بواجبه نحو الآخر ، ويوفيه حقه الذي طلب منه ، ولن يضره بعد أن كانت

له هذه المحاسن أنه يستعين به الشرير على الإساءة ، فالليل رحمة وإن استعان بظلامه السارق على السرقة ، والنهار رحمة وإن تمكن القاتل بضوئه من تسديد الرمية .

العدة — : ومما يلتحق بالكلام فى النكاح والطلاق الكلام فى العدة ، ويمكن تقريبها فى أقسام :

(الأول) وضع الحمل ، وهو الأصل فى كل العدد ، فالمعتدة الحامل عدتها وضع حملها ، سواء أكانت عدة طلاق أم عدة وفاة ، وذلك أن وضع الحمل على ما سبق كتتميم فصل من رواية الزوج وختم دور من أدوار الحياة الزوجية ، فما شرع الزواج فى الأصل إلا للتناسل ، فكل وضع يكون كزرعة قائمة بنفسها فى الحرث ، وما بعده يكون كاستئناف دور آخر .

و (الثانى) الزمن ، وهو فى المتوفى عنها مطلقاً اذا كانت غير حامل ، سواء أكانت من ذوات الحيض أم لا ، ومدتها أربعة أشهر وعشر ، وسواء أكانت مدخولا بها أم لا ، والحكمة فيها القيام بحق الوفاء ومراعاة واجب العشرة المقدسة ، وفى ذلك من محاسن الأخلاق ما لا يحتاج الى شرح ؛ وفى المطلقة اذا لم تكن من ذوات الحيض كصغيرة لم تبلغ أو كبيرة انقطع عنها الحيض ، والمعنى فى ذلك مراعاة كرامة الارتباط السابق والعشرة المتقدمة ، والإبقاء عليها حتى تفتر النفوس عن ملاحظتها وذكرياتها ، فلا يثور بها غضب النخوة ، ولا يجد الشيطان مرتعاً لنزغاته الخبيثة ، فيولد الشرور والضغائن بين الزوج القديم والزوج الجديد ؛ وفيهما مع ذلك مراعاة لصون البضع عن أن يكون متاعا متداولا بابتذال بلا مراعاة حرمة التصون والاحتفاظ ، فليس البضع كبيت يخرج منه ساكن ليحتله عقبه ساكن آخر ، ولا كثوب أو نعل يخلعه هذا ليلبسه ذاك ، وإنما هو كائن حى ذو كرامة يستحق الصون ويربأ به أن يكون كرة متقاذفة فى أيدى اللاعبين .

و(الثالث) الأقراء، وذلك للمطلقة التي هي من ذوات الحيض، وذلك ثلاثة قروء، وفيه من الحكمة مع ما سبق من طول العهد بين الزوجيتين حتى لا يعكر قديمها صفو حديثها — فيه استيقان براءة الرحم وصون الأنساب عن الاختلاط ، وهذا وإن كفى فيه حيضة واحدة فإن الوجه الأول وهو إطالة العهد حتى ينسى القديم وتزول صورته من الاذهان استدعى ذلك التعدد، ولذلك اكتفى فى عدة الزوجة التي هي أمة بقرءين ، فإن التعلق بالإماء والغيرة عليهن وغضب النفوس من أجلهن ليس الأمر فيه كالحرائر ، فالأمة أعدت فى أصلها للخدمة والابتذال ، والتمتع بالنسبة لها كالعارض ، بخلاف الحرة ، ولكنها على كل حال زوجة ، فأما اذا كانت أمة استمتع بها مالكها بملك اليمين وانتقلت بالبيع أو الهبة أو نحوهما الى مالك آخر ، فإنه يكفى فى حل استمتاع مالكها بها حيضة واحدة يعلم بها نقاء الرحم من الحمل حتى لا تختلط الأنساب .

النسب — : نعم النسب ، فهو النتيجة لهذا كله ، والثمرة المقصودة من كل تلك الأحكام ، وهو الذى من أجله أودع الله فى النفوس هذه الميول والعواطف ليبقى الكون معموراً ، فحبب للآباء أن يفنوا صحتهم وقواهم فى طريق تربية الأبناء مهما بلغ بهم اليأس من أن ينتفعوا بهم ، وحببهم فى إيثارهم على أنفسهم باللذائذ والطيبات مهما بلغ منهم الشح والأثرة ، وغرس فى قلوبهم معنى أن وجودهم (أى الأبناء) فى معنى وجود الآباء أنفسهم ، وأنهم إذ فاتهم الخلود والبقاء بأنفسهم فقد عوضوه فى أبنائهم .

هذا شأن البنوة والأبوة: يتجنى الابن على الأب ويجنى عليه وكأنه يجتنى منه ثمراً شهيا ، ويرى الابن أن له على أبيه حق التربية والتنشىء وليس عليه فى مقابلة ذلك إلا البر والحب والاحترام ، ويوافقه الأب على ذلك فلا يريد منه جزاء ولا شكورا ، بل كثيرا ما يتسامح معه وترضى نفسه منه بما هو دون الرضا . كل هذا ينبغى أن يحافظ عليه ويحتاط له ، فتدفع عنه الوساوس والشكوك حتى يكون المحسن دائما مطمئن النفس بأن إحسانه

صادف محله ، ثم لم يجعل عرضة للتردد والارتياب فينقطع متى ظنت الظنون أو حامت الريب والشكوك . كل هذا راعاه الشارع الحكيم فجعل الولد للفراش ، وحماه فى ضعفه عن أن يكون فى مهب عواصف الغضب والمخاصمات فيجنى الأبوان ويعذب الابن المسكين ، ثم فرض له على كليهما ما يحسن القيام به ، فكانت نفقته على أبيه ، وكانت حضانته لأمه ، ردا لكل شىء الى نصابه ووضعا له فى محله اللائق به .

هذه نبذة صغيرة بقدر ما تسع مداركنا اجتلاءه من محاسن الشريعة الغراء فى باب النكاح وما يتبعه ، وهى قليل من كثير من أنوارها المتلألئة فى كل باب ، ونعمها الجمة على كل إنسان ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . فنسأله تعالى أن يرزقنا التوفيق لشكر نعمه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ابراهيم الجبالى

الظرف والملح

كان مالك بن دينار يخرج الى القبور كلَّ خميس على حمار ويقول :

أَلاَ حىِّ القبورَ ومن بِهِنَّهْ   وجـوهٌ فى القبور أُحِبُّهنَّهْ

فلو أَنَّ القبورَ سَمِعْنَ صوتى   إِذًا لأَجَبْنَنِى مِنْ وَجْدِهِنَّهْ

ولـكنَّ القبورَ صَمَتْنَ عـنِّى   فأُبْتُ بحسرة مِنْ عِنْدِهِنَّـهْ

ثم يبكى ونبكى .

الفتاوى والأحكام

حكم الانتفاع بالمرهون

من أرض وغيرها

جاءنا هذا الخطاب من حضرة صاحب الامضاء :

سيدى المحترم صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ **يوسف الدجوى**

تحية وسلاما وبعد ، فهأنذا أكتب إليكم اليوم متطلعا لذلكم القبس الذى بددتم به ظلام الباطل ، فطالما أتيتم بحججكم الباهرة على أضاليل المغررين ، وأظهرتم الحق واضحا جليا لذى عينين ومن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أريد أن أستطلع رأى فضيلتكم فى نوع من المعاملات جرى التعامل به بين الناس واشتهر أمره فيما بين الخاص والعام ، ذلك النوع من المعاملة هو أن يعطى شخص شخصا آخر مائة جنيه مثلا — فى نظير أن يحبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ، ويكون للمرتهن بمجرد العقد أن يتصرف فى الرهن كيف شاء : فإما أن يؤجرها الى الراهن ويضم قيمة الإيجار الى المبلغ الأصلى ، وبذلك تزداد المائة باطراد كل سنة ، وإما أن يؤجرها الى غير الراهن ويأخذ قيمة الإيجار لنفسه بدون أن يخصمها من أصل المبلغ ، وإما أن يزرعها هو ويأخذ الزرع من غير أن يكون للراهن أى نصيب فيه ، وفى جميع الحالات تبقى الأرض تحت يده على سبيل الرهن ، فهل هذا يجوز ؟

أرجو أن تجيبوا عن هـذا السؤال على صفحات مجلة نور الاسلام إحقاقا للحق ولكم جزيل الأجر وخالص الشكر ؟

ع . ح
بالبريجات

الجواب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .

وبعد ، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على تحريم الربا بسائر أقسامه ، واتفق العلماء من السلف والخلف على أن منها ربا بالقرض ، وقد اشتهر فى ذلك قولهم : « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » بحيث صار كالضرورى بين أهل العلم ، وهذا النوع من المعاملة الوارد بالسؤال وهو أن يعطى شخص شخصا آخر مائة جنيه مثلا فى نظير أن يحبس قطعة من الأرض على سبيل الرهن ويكون للمرتهن بمجرد العقد الانتفاع بالمرهون بوجه من الوجوه التى ذكرها حضرة السائل — فيه ربا القرض من غير شك . ومما يوضح ذلك أن شرط الانتفاع بالمرهون شرط باطل ينافى مقتضى القرض ، إذهو تمليك مال على أن يرد مثله فقط ابتغاء الثواب الأخروى طلبا لمرضاة الله تعالى ، وينافى أيضا مقتضى الرهن ، إذ هـو شرعا جعل عين مُتَمَوَّلةٍ تحت يد الدائن بدينه يستوفى منها عند تعذر الوفاء ، وإذاً فلا سبيل لحل انتفاع المقرض المرتهن بالمرهون فهو حرام لمكان الزيادة التى لا حق له فيها .

والربا فى الأصل الزيادة . وقد تقرر بالاتفاق التحريم لكل قرض اشترط فيه أن تكون منفعة المرهون المقرض مطلقا من غير تفصيل — إلا ما يذكر عن الشافعية من أن محل التحريم وقوع الشرط الباطل فى صلب العقد ، ولكن من المقرر عندهم أيضا أن المجلس حريم العقد فله حكمه ، فإن تواطأ المتعاقدان على ذلك قبل العقد ، فلا

حرمة ، على ما يراه كثير منهم ، لكن قال محققون منهم أيضا : هذا من حيث الظاهر ، وأما من حيث الباطن فحرام (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) .

هذا وقول الحنفية : نماء المرهون يتبعه ، ليس معناه أن المرتهن يستحقه ملكا كما قد يتوهم بعض الناس ، بل المعنى أن النماء يكون مرهونا كالأصل ، فالدائن المرتهن لا يستحق شيئا من المنفعة ولا يحل له ذلك ، حيث إن الزيادة لا يقابلها شيء من المقرض ، ولكن هل لنا حالة يمكن أن يكون للمرتهن فيها حق الانتفاع باعتبار آخر ؟ يتضح لك جواب هذا السؤال مما يأتى :

قال الامام ابن رشد فى بداية المجتهد : « والجمهور على أن ليس للمرتهن أن ينتفع بشيء من الرهن » وقال قوم : اذا كان الرهن حيوانا فللمرتهن أن يحلبه ويركبه بقدر ما يعلفه وينفق عليه . وهو قول أحمد واسحاق بما رواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الرهن محلوب ومركوب) انتهت عبارته . وهذا الحديث روى أيضا بغير هذا اللفظ — قال صلى الله عليه وسلم : (الظهر يركب بنفقته اذا كان مرهونا ، ولبن الدر يشرب بنفقته اذا كان مرهونا ، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة) أخرجه الدار قطنى والحاكم والبيهقى وابن حبان .

ورأى الجمهور أنه يخالف أصولا مجمعا عليها وآثارا ثابتة لا يختلف فى صحتها (كما فى شروح البخارى ونيل الأوطار وغيرها) فقال بعضهم : إنه منسوخ ، ويدل لذلك حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن البخارى وغيره : (لا تحلب ماشية امرئ بغير إذنه) وتعقب بأن التاريخ لا يعرف حتى يقال بالنسخ ، لذلك ذهب الأكثر الى التأويل فيتعين حمل الحديث على ما إذا امتنع الراهن من الإنفاق على المرهون ، فيباح حينئذ للمرتهن ، وهو قول الأوزاعى والليث وأبى ثور رحمهم الله تعالى .

ومما يدل للجمهور أيضا حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يغلق الرهن من صاحبه الذى رهنه : له غنمه وعليه غرمه [١]) قال فى منتقى الأخبار : رواه الشافعى والدار قطنى ، وقال : إسناد حسن متصل ، وقال شارحه : إنه رواه أيضا الحاكم وابن حبان فى صحيحه ، وإنه روى من طرف مختلفة — منها صحيح ومنها ضعيف وإنه روى مرفوعا وموقوفا ومرسلا . ومن هنا يظهر أنه صالح للاحتجاج به للجمهور ، بل الحديث اذا روى من طريق صحيح وآخر ضعيف كان أقوى مما اذا روى من طريق صحيح فقط .

والخلاصة أن التحريم متفق عليه فى غير مسألة المركوب والمحلوب ، ونقول فى غير مسألة المرهون اذا كان حيوانا محتاجا للنفقة ، أما فيها فقد قيل بالحل ، ولكن الجمهور على خلافه ، ولا شك أن الأرض المرهونة ليست كالحيوان حتى تقاس عليه ، فلا يجوز أن يكون القرض على رهنها سببا فى الانتفاع بها اتفاقا ، فإن محل الخلاف بين الجمهور وغيرهم إنما هو الحيوان كما علمت .

وبعد فالمؤمن ينظر لنفسه ويستفتى قلبه وإن أفتاه المفتون ، ويدع ما يريبه الى ما لا يريبه ، ولذلك لم نعرج على ما عسى أن تكون قد سمعت مما يخالف ما كتبناه ، والله يتولى هدى الجميع ؟

يوسف الدجوى
من هيئة كبار العلماء

(١) غلق الرهن كفرح : استحقه المرتهن . فمعنى لايغلق الرهن : لايملكه صاحب الدين بدينه بل هو لصاحبه فان تعذر الوفاء بيع واستوفى منه . ومعنى له غنمه وعليه غرمه أن له زيادته ونماءه واذا نقص أو تلف فعليه .

اجتهاد ابن القاسم

ورد إدارة المجلة ما يأتى :

نجد فى كتب الفقه مسائل يجتمع فيها قول الإمام مالك وقول ابن القاسم تلميذه، فيقولون : قول مالك ضعيف، وقول ابن القاسم هو المعتمد .

فهل قول ابن القاسم هذا معدود من أقوال الامام أم لا ؟ فاذا كان قوله استنبطه من أقوال إمامه، فكيف يصح العزو اليه ويجعل مقابلا لقول الامام وردا عليه ؟ واذا كان من عند نفسه فكيف يسوغ لنا أن نترك قول إمام المذهب ونتبع قول تلميذه ؟ وكيف نجترىء ونقول : قول الامام ضعيف، وقول تلميذه هو المعتمد، ومن اعتمد هذا وضعف ذاك ؟

خالد آدم

بمعهد السودان العلمى

الجواب

يقسم علماء الشريعة المجتهد الى مجتهد مطلق، وهو الذى يرجع فى تقرير الحكم الى الكتاب والسنة وما يرجع اليهما من الأقيسة الصحيحة والقواعد القاطعة، ومجتهد مذهب، وهو الذى يجرى على طريقة إمامه فى الاستدلال فيراعى قواعده وما يراه شرطا لصحة الاستنباط .

وقد جرى خلاف فى ابن القاسم هل هو مجتهد مطلق، أو مقيد بطريقة الامام مالك فى الاستدلال، قال المقرى : « شهدت مجلس أبى تاشفين صاحب تلمسان، فذكر فيه أبو زيد بن الامام أن ابن القاسم مقلد لمالك، ونازعه أبو موسى بن عمران، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج بمخالفته لمالك فى كثير من المسائل، وذكر منها نظائر ».

وكذلك استدل ابن عبد السلام على أن ابن القاسم مجتهد مطلق بمخالفته للإمام فى كثير من الأحكام ، وخالفه ابن عرفة ونفى عنه الاجتهاد المطلق ، وقال : إن بضاعة ابن القاسم فى الحديث مزجاة.

والظاهر من سيرة ابن القاسم فى الفتوى أنه يجرى فى اجتهاده على قواعد مذهب الامام مالك ، فإنه كان يقول للمستفتى : سمعت مالكا يقول كذا ، أو بلغنى عنه كذا ، ومسألتك مثلها ، وهذه طريقة مجتهد المذهب .

ولا يخرجه عن مرتبة الاجتهاد فى المذهب أنه يخالف الامام مالكا فى بعض المسائل ، كما قال فيما كان من شأن الرجل والمرأة من متاع البيت : إنه يقسم بينهما عند التنازع ، بعد أيمانهما ، لاشتراكهما فى وضع اليد عليه ، ومذهب مالك أنه للرجل حتى تقيم المرأة البينة لأن البيت بيته ، وكما قال فيمن لم يوص به الأب الى أحد ولم يقدم عليه الحاكم من ينظر فى أمره : إنه ينظر فى حاله يوم بيعه وابتياعه ، فإن كان رشيدا جازت أفعاله ، وإن كان سفيها لم يجز منها شيء ، ومذهب مالك أن أفعاله كلها بعد البلوغ جائزة نافذة رشيدا كان أو سفيها . وكما قال فيمن قال لعبده : أنت حر وعليك مائة دينار : هو حر ولا يتبع بشىء . ومذهب مالك أن العبد حر وتبقى المائة فى ذمته .

فأمثال هـذه المخالفة محمولة على أنه رأى ما أفتى به الإمام غير جار على قواعده ، فأفتى بما يراه المطابق لقواعد مذهب الإمام ، ومقتضى هذا أنه يرى الامام غير مصيب فى استنباط هذا الحكم الخاص ، وليس فى مثل هـذا غضاضة على الامام مالك فإنه لا يدعى لنفسه العصمة ، ولا أن أهل العلم من أصحابه يعتقدون فيه أنه لا يخطئ فى حال ، وقد نقل عنه أنه قال : « إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ، فانظروا فى رأيى ، فما وافق الكتاب والسنة فخذوا به ، وما لم يوافق فاتركوه » واذا كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد غفل عن قوله تعالى : (وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا)

فأراد تحديد المهور، حتى ذكرته بها امرأة، فرجع عن رأيه، فمن المحتمل أن يقع الامام مالك أو غيره من الأئمة فى خطأ الاجتهاد، ولأصحابه من بعده أن ينقدوا فتواه حتى اذا وجدوها غير مطابقة لقواعده ردوها الى أصلها، وصح من هذا الوجه نسبة الحكم الذى يقرره بعض أصحابه الى مذهبه.

وقد رجع الامام نفسه فى مسائل فأفتى فيها بغير ما أفتى به أولا، وهذه المسائل معروفة فى كتب الفقه، وربما اعتمد أصحابه القول الذى رجع عنه، حيث يظهر لهم أنه أوضح دليلا، وأقوم قيلا.

ومن يرى أن الاجتهاد المطلق يتجزأ، على معنى أن فى الفقهاء من يبلغ رتبة الاجتهاد فى باب دون باب، وأن له أن يأخذ باجتهاده فى الباب الذى استطاع فيه الاجتهاد، قد يحمل مخالفة ابن القاسم للامام مالك على أنها من قبيل الاجتهاد فى أبواب بلغ فيها رتبة الاجتهاد بإطلاق، ثم إن الفقهاء الذين جاءوا بعد ابن القاسم ولم يقصروا عن درجة الترجيح، قد يرون فى قول ابن القاسم رجحانا فيأخذون به. ويعدون قول الإمام تجاهه ضعيفا.

والخلاف الذى جرى فى اجتهاد ابن القاسم قد جرى فى الامام أشهب، فذهب بعضهم الى أنه مجتهد مطلق، واستدل على هذا بمخالفته للامام مالك فى كثير من المسائل، ويروى أنه سئل عن مسألة من باب العتق، فأفتى فيها بما يخالف مذهب الامام مالك، ولما ذكر له قول الامام، قال: « وإن قاله مالك فلسنا له بمماليك » والظاهر أن أشهب كابن القاسم يجتهد فى بعض المسائل على مقتضى أصول مالك، وإذا خالف الامام أو نفى أن يكون مملوكا له، فلأنه يرى أن الأصول قد تقضى بغير ما أفتى به الامام وتمنعه من أن يتبعه فى كل ما يفتى به متابعة العبد لمالكه، وقد رأينا كثيرا من المالكية كأبى بكر بن العربى وعبد الحميد الصائغ قد يأخذون بغير مذهب مالك فى المسائل التى يظهر لهم أن أدلة غيره فيها أرجح من أدلته وأقوى ؟

محمد الخضر حسين

نـــداء

صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

بازاء حوادث التبشير

الى اخوانى المسلمين

وصلت الىّ شكاوى عما يقوم به بعض المبشرين من مهاجمة الاسلام فى موطنه وبلاده حتى مصر، وهى تاج البلاد الاسلامية، ودين دولتها المنصوص فى دستورها هو الاسلام.

ولو أنهم كانوا يقتصرون على طريقة المباحثة ومقارعة الدليل بمثله لهان الأمر، ولكنهم يستغلون سذاجة المستضعفين من الفتيات والولدان المسلمين لصرفهم عن الدين الاسلامى بالطعن فيه وفى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم بواسطة الكتب المدرسية وغيرها.

ولقد ذاع أنهم لا يقفون عند هـذا الحد بل يتجاوزونه الى ما لا تقره الشرائع ولا الانسانية من وسائل الاستهواء والتأثير فى بعض المستضعفين، حتى اذا تم لهم ما أرادوا حالوا بينه وبين أهله ولو بإرساله خفية الى بلاد نائية.

وإنى فى الوقت الذى أستنكر فيه هـذه الأعمال أشد الاستنكار من غير أن أتعرض الى الحوادث التى بين يدى القضاء أوجه أنظار الآباء المسلمين ومن فى حكمهم الى أنهم مسـئولون أمام الله القوى القاهر عمن تحت ولايتهم من التلاميذ وغـيرهم وواجب عليهم شرعا حمايتهم من هذه الأخطار وإبعادهم عن مظنات هذه الأعمال.

ويدخل الطمأنينة على قلبى ما علمته من أن حكومة حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم حامى حمى الدين معيرة هذا الأمر الهام ما يستحقه من عناية واهتمام، وعاملة على صون الدين وأبناء الدين من عبث العابثين، والله جل شأنه ولى التوفيق ؟

شيخ الجامع الازهر

محمد الاحمدى الظواهرى

حقوق الزوجين

٢

حقوق الزوجة على زوجها :

نقتصر من هذه الحقوق على عشرة أيضا دفعا للتطويل ، وطلبا لتساوى حقوق الزوجة بحقوق الزوج ، ونرى من الواجب علينا قبل أن نبتدئ بذكر هذه الحقوق أن نتقدم الى المرأة وأوليائها بالنصيحة الخالصة فى أن يختاروا لابنتهم الزوج الشريف الأخلاق ، ذا الدين والمروءة ، المجرب المدرب ، فلا يغرهم اللقب ولا الشهرة ، ولا يغويهم حب المال ولا الجمال ، وليحذروا التسرع والعجلة فى بت هذا الأمر ، فقد رأينا ورأى غيرنا قتلى هذه العجلة ، وصرعى هذا التسرع ؛ وما يقع فى المحاكم كل يوم ، وسجلات الحكام الشرعيين أصدق شاهد على ما نقول ، والله يقول الحق وهو ولىّ الصادقين .

الاول من حقوق الزوجة على زوجها — أداء مهرها كاملا اليها

أخرج الطبرانى فى الصغير والأوسط بسند رواته ثقات أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى اليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان » الحديث . وأخرج البيهقى عنه صلى الله عليه وسلم « من أعظم الذنوب عند الله عز وجل رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلّقها وذهب بمهرها » الحديث .

الثانى — الانفاق عليها بالمعروف

الزوج مأمور بالإحسان الى زوجته وإيصالها حقها نفقة ومئونة وكسوة برضا منه وطيب نفس ولين من القول ، وهو مسئول عن ذلك وآثم فى تقصيره ، ففى

الحديث [1] الشريف : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . وأخرج أبو داود والنسائى من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت » أى من يلزمه قوته .

وعلى الزوج أن لا يقتر فى الانفاق على زوجته ولا يسرف ، بل يكون سيره معها قصدا [2] . قال الله تعالى : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) ، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنساء وحض على الإحسان اليهن ، وقال تعالى ذكره : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) فوجب لهذا على الزوج معاشرة زوجته بالمعروف ، والإحسان اليها فى الكسوة والنفقة ، ففى حديث الترمذى — وقال حديث حسن صحيح غريب — وابن ماجه أنه صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع : « ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان [3] عندكم » الى أن قال : « ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن » . وعند أبى داود وابن حبان فى صحيحه : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها اذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح » أى لا تسمعها مكروها . ومن الإحسان الى الزوجة أن لا يستأثر الزوج دونها بمأكول لذيذ ، بل يشركها فى الأكل منه ، وأن يعمل لها الحلوى مما جرت به عادة أمثاله ، قال محمد بن سيرين : أستحب للرجل أن يعمل لأهله فى كل جمعة فالوذجة [4] . وهذا وأمثاله يرجع الى العادة ، وهى تختلف باختلاف الناس والبلاد .

---

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه . (٢) قصد فى الأمر توسط . (٣) واحدة العوانى عانية وهى الاسيرة . يقول : إنما هن عندكم بمنزلة الاسرى . (٤) هى ما يعمل من الدقيق أو النشا مع السمن ويحلى بالسكر أو العسل .

وإذا أكل الزوج فليأكل مع زوجته وأهل بيته صغاراً وكباراً على مائدة واحدة ، قال سفيان الثورى رحمه الله : بلغنا أن الله وملائكته يصلون على أهل بيت يأكلون فى جماعة .

ومن الآداب أن يأمر الزوج زجته بالتصدق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك ، وبجمع ما تناثر من فتات الخبز ، وبلعق الأصابع والإناء ، وبعدم التساهل فى اطراح البقية التى تبقى فى الإناء من الطعام . وينبغى أن يحتسب الرجل نفقته على زوجته وسائر أفراد أسرته فينوى بالإنفاق عليهم أداء الواجب عليه ،امتثالا لأمر الله تعالى ،وصونهم عن الحاجة للغير . أخرج البخارى من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهو له صدقة » ، وأخرج مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة[1] ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك — أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » .

ومن كانت نيته من الإنفاق على زوجته وأفراد أسرته رضا الله تعالى وامتثال أمره ، فأحرى به أن لا يلبسهم غير الألبسة الوطنية المتينة القوية ، وأن يمتنع من إلباسهم تلك الألبسة الغربية الشفافة الرقيقة البراقة ، فإن فى شرائها الوزر فى العقبى ، وعقوق الوطن فى الدنيا .

الثالث — الانفاق عليها من الحلال

من أهم مايجب على الزوج مراعاته كون نفقته على زوجته وسائر أفراد أسرته من الحلال الطيب ، فلا يجوز له أن يدخل مداخل السوء والتهم من أجلهم ، فإن ذلك جناية

---

(١) أى فى تحرير رقبة وإعتاقها .

عليه وعليهم ، والحرام عار فى الدنيا ودمار فى الآخرة ، وقد قيل : كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به ، وفى التنزيل العزيز : (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » وفيه : « والرجل راع فى أهله ، ومسئول عن رعيته » .

الرابع — أن يجتهد فى تعليمها واجباتها الدينية

تعليم المرأة واجب من واجبات الزوج ، وحق للزوجة عليه ، قال أهل العلم : ومتى كان الرجل قائما بتعليم ما يجب لزوجته امتنع عليها الخروج لسؤال العلماء ، وكذا إن ناب عنها فى السؤال وعرّفها الجواب ، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال ، بل عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها . ومهما أهملت المرأة حكما من الأحكام الواجبة ولم يعلمها الرجل إياه خرج معها وشاركها فى الإثم ، اذ تعلم أحكام الدين التى هى العقائد والعبادات وما يحتاج اليه فى المعاملات واجب على المسلم البالغ العاقل ذكراً كان أو أنثى .

وفى قوله تعالى : (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً) دلالة على أن الزوج مكلف بتعليم زوجته جميع ذلك ، فيلقنها اعتقاد أهل السنة ، ويزيل عن قلبها كل بدعة تسربت اليها ، ويعلمها الوضوء والغسل ، والطهارة من النجاسة ، وما تحتاج اليه من أحكام الحيض والنفاس والاستحاضة ، وأحكام الصلاة والصيام ، فالعبادة بلا علم كالكتابة على الماء . قال سهل التسترى رحمه الله تعالى : ما عصى الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل ، وقال على[1] رضى الله عنه فى قوله تعالى : (قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ

(١) نقله الحافظ ابن كثير .

ناراً) : أدبوهم وعلموهم . وقال قتادة : تأمرهم بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصيته ، وتقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه ، فاذا رأيت معصية قذعتهم وزجرتهم .

ويحسن أن يضيف الى ذلك تعليمها شيئا من العلوم الأخلاقية والتاريخية ، وخاصة تاريخ السيرة النبوية وتراجم أمهات المؤمنين لتزكو بذلك نفسها ، ويتسع عقلها ، وتنشأ على حب الفضائل ومكارم الأخلاق ، فتسعد بزوجها ويسعد زوجها بها ، وتعيش فى حياتها بهناء وسرور . أما تعليمها القراءة والكتابة وبعض العلوم الضرورية وعلم (تدبير المنزل) فقد تكفلت به التربية الأولية ، فأغنى ذلك عن الحث عليها ، والحض على تعليمها .

الخامس — أنه لا يفشى سرها

ليس للزوج أن يطلع أحداً على ما بينه وبين زوجته من سر حفظاً لكرامتها ، ووفاء لها بحقها ، وهو أمر مشترك بينه وبينها ، وإفشاؤه نكث بعهد الزوجية ، وخيانة للمرأة ، وإيذاء لها ، وحط من مقام أسرتها ؛ وهو أيضاً برهان على قلة المروءة ، ودليل على سوء التربية ، وفساد الطوية ، وسبب عظيم لظهور نيران الاختلاف ، وتطاير شرر الشقاق .

ولعظيم أخطاره وكثرة أضراره جاء الشرع الشريف بتحريمه وذم صاحبه ، فقال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى الى امرأته وتفضى اليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه » .

السادس — الغيرة عليها والاعتدال فى ذلك

غيرة الزوج على زوجته هى الصفة التى يمتاز بها كرام الرجال وأرباب الشهامة والشرف منهم ؛ وكلما تمكنت هذه الصفة الجليلة من قلب رجل كان ذلك برهانا على رجولته وغيرته وحميته .

نحن لا نعلم صفة أحط المرجل من أن يكون ضعيف الغيرة على امرأته ، قليل العناية بها ، كما لا نعلم صفة يتمدح بها أرباب الشرف والحمية أعظم من هـذه الصفة ، صفة المحافظة على المرأة والغيرة عليها .

جاء الدين الاسـلامى ليتمم مكارم الأخلاق ، ومن مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال تقوية هذه البذرة ، وتعهد هذه الخلة التى تنتهى بحماية المرأة من كل ما يوقعها فى الشك ، ويرمى بها فى مرامى الريبة .

لم يحرم الاسلام اختلاط المرأة بالرجال الأجانب ، وخلوتها بالأجنبى وإن كان من أتقى الناس ، وخروجها من بيتها لغير ضرورة ، ومشيها متعطرة متزينة إلا لحمايتها من مواقع التهم ، وصونها من مواقف الريب . ومن سعادة المسلمين وموجبات العزة لدينهم أنه لم يفرق فى هذا المنع بين عالمة وجاهلة ، ولا بين غنية وفقيرة ، فحظر على كل من يصح أن يطلق عليه اسم « المرأة » أن تقف مواقف الشين ، وتقعد مقاعد الشـك ، وعد خلوتها بالأجنبى ولو كان أخا لزوجها وتبهرجها أمامه خارماً للمروءة ، وقادحا فى الشهامة ، ومنافياً للشرف والعزة الاسلامية . ومن هنا قال سيدنا على رضى الله عنه : ألا تستحيون ؟ ألا تغارون ؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر اليهم وينظرون اليها !

وقد أذكرتنى كلمة هذا الامام الجليل ما كنت قرأته فى الأنساب للحافظ السمعانى عنـد الـكلام على الخطمى قال : موسى بن اسحق الانصارى الخطمى كان فصيحاً ثبتاً ، كثير السماع محموداً ، وكان إليه القضاء بكور الأهواز . قال أبو عبد الله بن موسى : حضرت مجلسه وهو القاضى بالرى سنة ٢٨٦ هـ وتقدمت امرأة فادعى وليها على زوجها خمسمائة درهم مهراً فأنكر ، فقال القاضى : شهودك ، قال : قد أحضرتهم ، فاستدعى بعض الشهود أن ينظر المرأة ليشير اليها فى شهادته فقام ، وقيل للمرأة : قومى ، فقال

الزوج : تفعل ماذا ؟ قال الوكيل : ينظرون الى امرأتك وهى مسفرة ليصح عندهم معرفتها ، فقال الزوج : إنى أشهد القاضى أن لها علىّ هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها ، فرُدت المرأة ، وأخبرت المرأة بما كان من زوجها فقالت : إنى أشهد الله والقاضى أنى قد وهبت له هذا المهر ، وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة ، فقال القاضى : يكتب هذا فى مكارم الأخلاق . وكانت ولادته سنة عشر ومائتين ، ومات بالأهواز فى المحرم سنة ٢٩٧ هـ .

فعلى المسلم الذى كان فى جميع أدوار حياته مثالا للفتوة والمروءة ، والأنفة والإباء أن لا يتساهل فى أخذ أسباب الحيطة لذلك ، فلا يتغافل عن بوادر الأمور وظواهرها التى تخشى غوائلها ، لكن يجب أن لا يبالغ فى إساءة الظن والتعنت ، وتجسس البواطن ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يطلب عثراتهم . وروى أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث جابر بن عتيك رضى الله عنه « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله ، وهى غيرة الرجل على أهله من غير ريبة » .

السابع — حسن خلقه معها

حسن الخلق من المعاشرة بالمعروف المأمور بها فى قوله تعالى : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) . وحسن الخلق اسم جامع لجميع صفات الكمال ؛ ومن تحلى به حلت بداره السعادة وعاش فى بحبوحة الهناء . وقد قيل : حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار .

ومن فوائد حسن خلق الرجل مع امرأته حفظ لسانه من الزلل معها ، فرب كلمة جرّت كلمات ؛ والبلاء موكل بالمنطق ، ورب رأس كان حصيد لسان .

(١) قال العراقى : رواه مسلم .

وفى تعظيم حق الزوجات على أزواجهن قال الله سبحانه: (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)، أى عهداً مؤكدا شديدا . وآخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كلمات ظل يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه — جعل صلى الله عليه وسلم يقول [1] : « الصلاة ! الصلاة ! وما ملكت أيمانكم ! لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء . فإنهن عوان [2] فى أيديكم ، أخذتموهن بعهد الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله [3] » . وأخرج الشيخان وغيرهما حديث : « استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء » .

الثامن — احتمال الأذى منها

جدير بالزوج أن يتغافل عن كثير مما يصدر عن الزوجة ترحماً عليها ، وشفقة بها ، وقد شبه الله تعالى حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين فقال فى حق الوالدين : (وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً) وقال فى حق الزوجات : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) . واحتمال الأذى من المرأة عند طيشها وغضبها من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحتمل ذلك من بعض نسائه حلماً وكرماً ، روى مسلم حديث « ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وفى تاريخ ابن عساكر من حديث أنس رضى الله عنه : « كان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالصبيان والعيال » .

التاسع — ممازحتها ومداعبتها

فى المداعبة تطيب قلوب النساء وترتاح نفوسهن ، ويكون ذلك داعياً لنشاطهن

---

(١) رواه النسائى فى الكبرى وابن ماجة من حديث أم سلمة رضى الله عنها . قاله العراق .

(٢) جمع عانية اى كالاسرى فى أيديكم . (٣) هى التزويج المباح بنص الكتاب المنزل . وقيل هى كلمة التوحيد إذ لا يحل لمن كان مشركا أن يتزوج مسلمة .

وقيامهن بما كلفن به من الأعمال . وقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح مع النساء، ويتنزل الى درجات عقولهن فى الأعمال والأخلاق؛ وكان يسابق سيدتنا عائشة فى العدو فسبقته يوما، وسبقها فى بعض الأيام، فقال صلى الله عليه وسلم[1] : « هذه بتلك » ، وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان[2] من أفكه الناس مع نسائه . وأخرج الترمذى والنسائى — واللفظ له — عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » .

وعلى الزوج أن يكون فى مداعبته لزوجته حسن النية، مراعياً فى ذلك جبر قلبها، وعليه أن لا ينبسط فى مداعبتها إلى حد يفسد خلقها، ويجرؤها عليه ، فالاعتدال وسلوك سبيل التوسط ممتدح الرجل ، ومحل الثناء عليه ؛ وعليه أن يتبع فى مخالفتها وموافقتها الحق والعدل، فبالعدل قامت السموات والأرض ومن فيهن .

العاشر — القسم[3] بين الزوجات

اذا كان للرجل نسوة كان من الحقوق الواجبة عليه أن يعدل بينهن على وفق ما جاءت به الشريعة الاسلامية .

ومن العجيب أن يظن بعض الناس أن الاسلام يبيح تعدد الزوجات بغير شرط ولا نظام، ذهابا مع الشهوة ، وإضراراً بالمرأة ، مع أنه إنما يبيح ذلك إباحة، ولم يوجبه إيجابا عينياً على كل فرد من أتباعه . والسبب فى الإباحة ظاهر النفع ، جلى الفائدة ، اذ لا ينكر أحد فائدة هذه الإباحة عند تناقص الرجال عقب حرب طاحنة ، وعند دخولها فى سن الهرم بحيث تصبح لا تغنى الزوج فى إرضاء شهوته البدنية، وعند ثبوت

---

(١) قال العراق : رواه أبو داود والنسائى فى الكبرى وابن ماجة من حديث عائشة بسند صحيح .

(٢) ذكره فى الأحياء وقال العراق : رواه الحسن بن سفيان فى مسنده من حديث أنس دون قوله : « مع نسائه » .

(٣) القسم : العدل .

أنها عقيم والزوج ولود يتطلب الأولاد ، وعند ثبوت أن الوقاع يرديها أو يحدث لها أمراضاً جديدة والزوج فى حاجة اليه .

أباح الاسلام تعدد الزوجات ، واشترط لذلك شروطا متعددة ، تدور كلها حول دائرة واحدة من العدل ، أساسها تأمين راحة الزوجات ، ورفع الضرر عنهن ، والضرب على يد الزوج بيد من حديد ، لئلا يخرج عن هذه الدائرة التى رسمها له . ونحن على تأييدنا لشريعة تعدد الزوجات لما اشتملت عليه من الفوائد ، ولما يدعو اليها من الأسباب المارذكر بعضها — نعترف بأن الشروط التى وضعها الاسلام لجواز التعدد قلما تتحقق فى كثير من الناس مهما بلغت درجتهم ، وعلت منزلتهم ، وذلك فيما نرى ليس ناشئاً عن خلل فى هذا التشريع من أصله ، بل عن فشو الجهل بين جميع الطبقات ، وضعف الوزاع الدينى فى النفوس .

وقد صرح علماء الاسلام بأن من لم يعلم أحكام القسم والنشوز[1] ويعمل بمقتضاها يحرم عليه تعدد الزوجات ، ويستحق على عمله هذا أن يعد فى الدنيا من الممقوتين ، ويحشر فى الآخرة مع الظالمين .

على الزوج أن يعدل بين نسائه

ويجب عليه الاحسان اليهن فى المطعم والمشرب ، والملبس والمسكن ، ومعاشرتهن بالمعروف ، ويحرم عليه أن يقيم بمسكن واحدة ، ويدعو من بقى اليه ، وأن يجمع بينهن إلا برضائهن ، وأن يدخل بيت غير صاحبة النوبة بلا حاجة . واذا خرج الى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن . كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه .

---

(١) النشوز: الخروج عن الطاعة .

والأصل فى ذلك قوله[١] صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فمال الى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » . وقوله[٢] صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ناقص » . وأخرج مسلم وغيره حديث « إن المقسطين[٣] على منابر من نور عن يمين الرحمن — وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولّوا » وروى ابن سعد فى الطبقات من رواية محمد بن على ابن الحسين أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان يُحمل فى ثوب يطاف به على نسائه وهو مريض يقسم بينهن » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم استأذن أزواجه أن يمرّض فى بيتى فاذنّ له » . هذا ونظرة واحدة لقوله تعالى : (فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) كافية لردع أولئك المعتدين ، ودليل واضح على براءة هذا الدين .

على أن المنع من تعدد الزوجات يؤدى — كما هو مشاهد — الى تعطيل كثير من النساء عن الزواج الشرعى ومنعهن من النسل ، وتسهيل طرق الفساد لهن ، وفى ذلك من الضرر على المجتمع البشرى مالا يخفى على منصف . فعلى الأمة التى ترغب فى أن يكثر نسلها ، وينمو عدد أبنائها ، ويسود فيها الطهر والعفاف ، وتغلق بيدها أبواب المراقص ، ومواخير الفحش المضرة بالبشر والبشرية — أن تؤيد شريعة تعدد الزوجات وتذيع فوائدها بين الناس . إن الذين منعوا من تعدد الزوجات ورخصوا للمرأة أن تخرج بأبهى زينة ، متبرجة متبهرجة ، تفتن النواظر ، وتتلاعب بالقلوب والأفكار ، اضطروا الى إباحة الزنى ، وتعدد أماكن الرقص والخلاعة ، وحماية مواخير الفحش ، وأن تطلق للمرأة حريتها تفعل ماتشاء ، فتولدت فيهم الأمراض الزهرية ، وانتشرت فيهم الأدواء

(١) أخرجه أبو داود . (٢) أخرجه الترمذى وتكلم فيه والحاكم وصححه .
(٣) من اقسط : عدل .

الاجتماعية التي أدت الى ضعف نسلهم، وقلة عددهم، وانتشار العهر فيهم، وفشو الأمراض السارية بأبنائهم، ولا سبيل لخلاصهم من كل هذا إلا بالرجوع الى ما جاء به الاسلام ورضيه المنصفون العقلاء. يقول الكاتب الشهير (توس) ما مؤداه: بإباحة تعدد الزوجات يزول البلاء لا محالة، وتصبح بناتنا ربات بيوت، فالبلاء كل البلاء فى إجبار الرجل الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة، هذا التحديد هو الذى جعل بناتنا شوارد وقذف بهن الى التماس أعمال الرجال، ولا بد من تفاقم الشر اذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة. أىّ بلاء يحيط بأولئك الذين لهم أولاد غير شرعيين! فقد أصبحوا عالة وعارا على المجتمع الانسانى، فلو كان تعدد الزوجات مباحا لما حاق بأولئك الأولاد وأمهاتهم ما هم فيه من العذاب والهوان. إن مزاحمة المرأة الرجل ستحل بنا الدمار، ألم تروا خلقتها كيف تنادى بأن عليها ما ليس على الرجل، وعليه ما ليس عليها؛ وبإباحة تعدد الزوجات تصبح كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين.

الخاتمة

هذا ما كان يعنى به علماء الملة الاسلامية، ويجتهدون فى دلالة الناس عليه، وحضهم على التمسك به، لما يرون من فائدته لهم، وعائدته عليهم — أوردناه فى هذه الرسالة على حين إعراض الناس عن الأحكام الدينية، وغفلتهم عن الآداب الاسلامية، فانتشر بسبب ذلك الجهل، وغلب الهوى، وعم الظلم، وضاعت الحقوق، واستحكم الشقاق بين الزوجين، واشتد النفور بين الأليفين، وأصبح ما كان عذبا عذابا، وما كان لذة عنتا وآثاما، ورغب أكثر الشبان عن الزواج الشرعى، وهو من أكبر لذات الحياة، وخفيت الحكمة منه عليهم فأعرضوا عنه، واتبعوا بذلك سبيل الشيطان. فعسى أن يكون لما ذكرنا فائدة وثمرة، والمأمول أن يكون فيه ما يحمد ذكره، ويشيع أمره، ويستمسك به الصالحون، ويزدجر بزواجره الغافلون، فهو لعَمْر الصدق

طريق الراحة للزوجين ، وسبيل هنائهما فى جميع أدوار حياتهما ، وكل راحة فى غيره فهى راحة وهمية ، وكل هناء من غير طريقه فهو عناء ، ونحن لا نكلف المرتاب فى ذلك إلا أن يتتبع سير الحوادث التى تحدث كل يوم (بين الزوجين وأهليهما) من جراء الإعراض عن هذا الطريق الواضح ، والصراط المستقيم .

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، ورد على المسلمين دينهم فقد فقدوا بترك أحكامه عظيما ، ونشأ عن جهلهم بآياته تفرق كلمتهم وضياع عزهم ، وانهيار بناء مجدهم ، فهم لا يهتدون الى النهوض سبيلا .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وتقال العثرات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إخوانه النبيين وسلم تسليما كثيرا ؟

دمشق — **محمود ياسين**

الظُرف والمُلح

قال بعض الحكماء : إن لك فى مالك شريكين : الحِدْثان [1] والوارث ، فإن استطعت أَلَّا تكونَ أبخسَ الشركاء حظا فافعلْ .

---

(١) حوادث الدهر ونوائبه .

احتجاج

صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر

شيخ الجامع الازهر

على اضطهاد المسلمين فى روسيا

كنا نتلهف على معرفة أحوال المسلمين فى روسيا ومبلغ ما ألم بهم من الاضطهاد الدينى فى تلك البلاد بعد أن أصبحت سوفيتية الى أن قدم الى مصر أخيرا بعض زعماء مسلمى القفقاز وإيدل أورال وقصوا علينا كثيرا من صنوف المعاملات الشاذة التى يعامل بها المسلمون هناك، ودونوا ملخص ذلك فى مذكرة قدموها الينا وفيها الشىء الكثير من الفظائع التى ترتكب ضد الاسلام والمسلمين فى روسيا، وشفعوها بكثير من البيانات والوثائق التى تؤيدها.

وقد أزعجتنا تلك الفظائع التى قصوها علينا أو وردت فى مذكرتهم والتى تدل فى مجموعها على الاضطهاد الدينى الشديد الموجه بنوع خاص الى المسلمين فى القفقاز وإيدل أورال.

فبإزاء هذا نحتج على هذا الاضطهاد أشد الاحتجاج، ونطلب الى جميع المسلمين أن يبتهلوا الى الله الواحد القهار عقب الصلوات الجامعة أن يرفع هذه الكارثة العظمى عن المسلمين فى روسيا.

وإنى أضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم ما نزل بهم، وأن يحفظ الاسلام والمسلمين فى بقاع الأرض إنه سميع مجيب ؟

شيخ الجامع الازهر

محمد الاحمدى الظواهرى

المسلمون فى أوربا الشرقية[1]

— بلغاريا —

الاحصائيات : — إن آخر إحصاء أجرى كان فى سنة ١٩٢٦ ، أما نتائج الإحصائيات حسب المهن فيرجع تاريخها الى سنة ١٩٢٠ ، وكانوا يقدرون حينئذ أن العناصر الاسلامية تبلغ أقل من ١٨ ٪ (فى المائة) من مجموع السكان العام أى نحو ٦٩٠،٧٣٤ مسلما منهم ٧٠،٠٠٠ من « البوماك » (Pomaks) ومجموع السكان الكلى هو ٤،٨٤٦،٩٧١ نسمة .

والإحصائيات الرسمية التى سبقتها (إحصائيات سنة ١٩١٠ وإحصائيات سنة ١٩١٤) جاءت بالأرقام التالية ، ويرى أنها أعظم كثيراً من المذكورة ، وهى ٩٨٢،٨٤٩ مسلما حسب ما يأتى :

٦٠٢،٠١٤ مسلما فى نفس بلغاريا الأصلية ، و ٣٨٠،٨٣٥ مسلما فى طراقيا الغربية من مجموع الأهالى الذى كان يبلغ قدره حينئذ ٥،٥١٧،٧٠٠ نسمة ، وهذا الفرق الذى نقص الآن من عدد مسلمى بلغاريا وهو ٢٣٢،٠٠٠ مسلم يمكن أن يعادل عدد سكان طراقيا الغربية التى ضمت لبلاد اليونان سنة ١٩١٩ مع عدد المهاجرين من المسلمين الى تركيا .

دخول الاسلام فى بلغاريا : — ولو أن لفظ « بلغار » يرجع الى قبائل الترك التتارية من مناطق نهر الفولجا ونزحت الى البلقان فى القرن السابع الى القرن الثالث عشر — وهذا التآخى الجنسى أدى الى عقد التحالف التركى البلغارى من سنة ١٩١٤— سنة ١٩١٨ — إنه بالرغم من أن هذا اللفظ (بلغار) يرجع إلى تلك القبائل الاسلامية

---

(١) عن الفرنسية من كتاب دليل العالم الاسلامى .

إلا أن الاسلام الذى هو دين الفاتحين العثمانيين لم يجتذب اليه من أهالى بلغاريا المسيحيين الهراطقة (المرقصيين من تبعة الهرطيق مانيس) بقدر ما اجتذب اليه فى يوغوسلافيا ، ولم يكن پاسوان أو غلو من بلدة فيدى (ببلغاريا) بلغارى الأصل بل كان صربيا اعتنق الاسلام ، وهو أول من أيقظ روح الوطنية البلغارية بثورته على الباب العالى بين سنتى ١٧٩٦ و ١٨٠٧ .

الأجناس : — إن الأغلبية العظمى لمسلمى بلغاريا من الجنس التركى التتارى ، فكان عددهم ٤٨٨،٠١٠ مسلم فى نفس بلغاريا سنة ١٩١٠ ، و٢٧٥،٩٨٤ فى طراقيا الغربية سنة ١٩١٤ ، وعشرهم فقط من الجنس البلغارى ويتكلم اللغة البلغارية وهم البوماك من أهالى جبال الرودوب ، ويبلغ عددهم ١٦،٠٠٠ فى نفس بلغاريا ، و ٧٥،٣٣٧ فى طراقيا ، وهذا العدد آخذ فى النقصان ، ومنهم من جماعات النور المسلمين ، ويبلغ عددهم ٩٨،٠٠٤ فى بلغاريا فى سنة ١٩١٠ ، ونحو ٤٠،٠٠٠ فى طراقيا ، ويتكلمون اللغة التركية ، وكذلك لغة النور .

وهناك طوائف أخرى فى ديلى — أورمان " Deli — Orman " (حيث يوجد فى بلدة طوزلق مركز صغير لأهل البدعة من الشيعيين المتطرفين) وفى سيستوف ورازجراد ومالجار (حيث كانت مقرا للمسيحيين الذين كانوا يأوون الى النوائيس) وفى شوملا وسليفنو وستارا زاجورا ثم فى وسط بلغاريا الشرقى فى كريشين ونفروكوب وجرادشنتا وجومائى — بالا وكوستنديل وفارنا . والأتراك هم الذين أدخلوا صناعة خلاصة عطر الورد فى قازانليك .

اشتراك المسلمين فى الحكم : — كان يوجد تسعة أعضاء من المسلمين فى مجلس نواب بلغاريا من ٢٤٦ عضوا انتخبوا فى ٣١ مارس سنة ١٩٢٠ ، وكان عددهم عشرة فى المجلس سنة ١٩٢٣ ولم يكن من بينهم أى بلغارى من البوماك (وهم مسلمو بلغاريا

الذين نزحوا اليها من جبال الرودوب) . وليس هناك أى شبه بين النظام النيابى لمسلمى بلغاريا وبين النظام المتبع فى يوغوسلافيا .

الادارة الدينية : — لا يوجد ببلغاريا رئيس علماء ، فمنذ الأصل كان شيخ الاسلام بالاستانة هو الذى يعين رجال الإفتاء ، وهناك المفتى الأكبر لمملكة بلغاريا ويقيم بمدينة صوفيا عاصمتها ، وللمديريات ستة عشر مفتيا وعشرون نائب مفت ، وببلاد بلغاريا ١٫٢٩٤ مدرسة منظمة أحسن تنظيم لتعليم القرآن يديرها مجلس منتخب ، ولها أوقاف محبوسة للإنفاق عليها ، كما يوجد نحو عشرين مدرسة ثانوية ، ويتبعون فى المدارس طريقة الكتابة حسب « الأصول الجديدة » المتبعة فى اللغة التركية ، كما هو الحال فى قازان ، وبها مدرسة للمعلمين فى مدينة « شوملا » (شومن) ، وكذلك بعض تكايا للبكتاشية فى مدينتى رازجراد وروشتوك ، كما يوجد من الطرق الشاذلية والجلشنية والنقشبندية والمولوية . وكانت تلقى خطبة الجمعة باسم الخليفة العثمانى فى جميع مساجد بلغاريا . وقد لعب البلغار المسلمون دورا فى تاريخ آل عثمان ، فقد كان أحمد مدحت باشا من مسلمى بلغاريا «البوماك» . هذا وقد منع نشر الجرائد باللغة التركية من سنة ١٩٠٧ .

الصحافة : — ويوجد ببلغاريا من الصحف ما يأتى : جريدة « الأهالى » وهى جريدة يومية كانت تنشر باللغة التركية بمدينة « أوريهيفو » وجريدة « دوستايلك » وهى كذلك يومية ، وكان يحررها « على كمال » باللغة التركية بمدينة «بلوفديف» ، وجريدة « ديلى أورمان » وكان يحررها محمد نجم الدين بمدينة رازجراد ، وكانت تصدر باللغة التركية وهى جريدة يومية ، وجريدة «ضياء» وقد أوقفت ، وكانت تصدر بمدينة صوفيا .

بلاد اليونان

إن المقاطعة الاغريقية الوحيدة التى لا يزال بها أقلية مسلمة هى طراقيا الغربية فى قسمها الجنوبى فى منطقة « زانتى » و « جوموجينا » و « ددياجاتش » التى استمرت

تابعة للبلغار من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩١٨ ، ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة ٣٥٠،٠٠٠ نسمة — منهم ١٨٠،٠٠٠ مسلم يمثلهم أربعة من النواب المسلمين فى مجلس نواب سنة ١٩١٨ هذا عدا بعض الأسر الألبانية التى تقطن فى المناطق الواقعة فى جنوب البانيا .

هذا وقد نقل بصفة رسمية من بلاد اليونان الى تركيا فيما بين سنتى ١٩٢٣ و ١٩٢٥ نحو ٣٦٠،٠٠٠ نفس ممن كانوا استبعدوا ، وذلك طبقا لنصوص الاتفاق اليونانى التركى المبرم فى لوزان فى ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣ الذى يحتم تبادل سكان تركيا التابعين للمذهب الاغريقى الارثوذكسى والمقيمين فى البلاد التركية مع السكان المسلمين القاطنين فى بلاد اليونان ، مع استثناء السكان اليونانيين الذين يقطنون الاستانة والسكان المسلمين المقيمين بطراقيا الغربية ، وهذا النوع من ترحيل السكان بهذا العدد الكثيف الذى حاولت عصبة الأمم أن تضع له نظاما مّا قد أدخل فى قانوننا الدولى العام طريقة كان من المأمول أنه قد قضى عليها منذ عهد الأشوريين ، أما المسلمون الدينمية " Deunmehs " وهم خليط من أهل البدعة واليهود ، ومقرهم بسالونيكا ولهم ارتباط عجيب بالحركة الماسونية العثمانية (لجنة الاتحاد والترقى) فقد حصلوا على تصريح بالبقاء فى بلاد اليونان ، ويبلغ عددهم ٥٠٠ من « المامينين » وينقسمون الى ثلاث طوائف تتكلم التركية واليهودية الاسبانيولية ، ومن « الطربوشيين » و « الكافاليروس » (الفرسان) و « الهونيوزوس » .

وقد درس دانون (Danon) أعيادهم الخمسة عشر ومبادئهم الثمانية عشر التى يرجع أصلها الى ساباتائى سيفى (Sabataï Cevi) فى سنة ١٦٧٦ .

هـذا ولا يزال النفوذ العثمانى موجودا فى بلاد اليونان من الوجهة التاريخية من حيث أسماء الجبال وأسماء المضايق (البوغازات) ومجارى الأنهار الشمالية التى ترجع أسماؤها الى الرحالة الأتراك الذين نزحوا الى بلغاريا من آسيا الصغرى . وكذلك من حيث تقسيم الأراضى الزراعية الى ضيعات (شفالك) اذ كان يوجد فى سنة ١٩١٦

أربع وأربعون ضيعة من بين ٧٥ ضيعة فى مركز « كلكيش » (Kilkich) تحمل أسماء تركية .

الصحافة فى بلاد الاغريق : — يوجد ببلاد الاغريق بعض الصحف الاسلامية مثل مجلة « يارين » (Yarén) ويحررها باللغة التركية هـ . فهمى وتوكالى مصطفى صبرى وتصدر بمدينة « غوموجينا » (Jümüldjina) منذ سنة ١٩٢٧ وهى نصف شهرية ، وتصدر جريدة « ينى آدين » باللغة التركية فى مدينة « زانتشى » (Xanthi) ويحررها « محمد حلمى » .

قبرص

احتلت بريطانيا العظمى جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ وضمتها الى مستعمراتها فى سنة ١٩١٤ ، ويبلغ عدد سكان هذه الجزيرة ٣١٠٫٧٠٩ أنفس (حسب تعداد سنة ١٩٢١) غالبيتهم من الاغريق ، ومنهم ٦١٫٤٢٢ نفسا من المسلمين جلهم من الجنس التركى .

وهناك أربع محاكم شرعية للمسلمين يختارون ثلاثة أعضاء من بين اثنى عشر عضوا من المجلس التشريعى الذى يبلغ عدد أعضائه ثمانية عشر عضوا .

الصحافة : — توجد عدة صحف تحرر بالتركية وأخرى بالانجليزية وأخرى باليونانية ، مثل : جريدة « بيرليك » (Birlik) وتصدر باللغة التركية منذ سنة ١٩٢٤ ويحررها «فاضل نيازى» ، وهى جريدة أسبوعية ، وجريدة «سويز» (Soez) وتصدر منذ سنة ١٩١٩ باللغة التركية ، ويحررها « م . رمزى » وهى كذلك جريدة أسبوعية ، وجريدة « دوغرو يول » (Doghrou Yol) وكانت تصدر أسبوعيا باللغة التركية منذ سنة ١٩٢٠ وجريدة « وطن » وتصدر أسبوعيا باللغة التركية ، ويحررها « هـ . جنغيز » ، ثم جريدة «أليتيا» «واليفتريا» «وكيريس» «وماستيجيون» «وفونيه» «وفيلاكس» وتصدر باليونانية ، ومجلة « قبرص غازيت » وتصدر بالانجليزية .

رودس وجزر الدوديكانيز

احتلت ايطاليا جزر الدوديكانيز منذ سنة ١٩١٢ وضمتها الى أملاكها سنة ١٩٢٠ واعترفت بهذا الضم معاهدة لوزان المبرمة فى سنة ١٩٢٣ . وقد صدرت إرادة ملكية فى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٥ بمنح سكان تلك الجزر الجنسية الايطالية مع المحافظة على قانون الأحوال الشخصية الخاص بهم .

ويبلغ عدد المسلمين بها ١٢٫٢٦٠ نسمة من مجموع سكانها البالغ قدرهم ١٠٠٫١٩٨ نفسا فى سنة ١٩١٧ ، ويوجد من أولئك المسلمين ٧٫٦٠٠ مسلم فى جزيرة رودس وحدها والباقون فى جزيرة كو (Coo) .

رومانيا

بلغ عدد المسلمين فى سنة ١٩٢٥ — ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة من مجموع السكان البالغ قدرهم حسب تعداد سنة ١٩٢٢ — ١٦٫٧٠٠٫٠٠٠ نفس ، وغالبية المسلمين وعددهم ١٧٨٫٥٠٠ (فى سنة ١٩٢١) من أصل تركى ، ولغتهم التركية ، وينقسمون الى طائفتين :

(ا) « النوجائيس » فى دوبروجا ويقال لهم « تشيتاخ » وقد نزحوا من بسارابيا فى القرن السابع عشر من الميلاد .

(ب) وطائفة مكونة من جماعات من الأتراك أقامت كل منها فى جهات مختلفة على طول شاطىء نهر الدانوب كما فى سيليسترى وفى كونستانزا ، وفى جزيرة « ادا — كاليه » بالقرب من « أورسوفا » كما توجد جالية عربية بدوكوزاشى .

أما تاتار الغاغاوز فى بسارابيا البالغ قدرهم ٥٥٫٧٩٠ نسمة فى سنة ١٨٩٧ ، والذين نزح بعضهم الى أدرنه فسكنوها ، فيظهر أنهم خرجوا من المذهب الروحانى وانضموا إلى الكنيسة الاغريقية الارثوذكسية فى القرن الثامن عشر دون أن يتأثروا بتعاليم الاسلام تأثيرا محسا رغم أنهم لا يزالون يتكلمون التركية .

وعدا ذلك يوجد ٧٠,٠٠٠ من الأصل الآرى ، وهم من جماعات النَّوَر الذين جاؤا منذ سنة ١٣٥٠ ميلادية كأرقاء للتاتار .

ويبجل المسلمون مدينة « باباداغ » (Babadagh) لوجود ضريح « سارى — سالتيك » بها الذى كان يعتبره المسلمون قديسا مسلما ، والذى بعد أن استعمر الدوبروجا أخذ يبشر بالاسلام حتى بحيرة أورشيدا فى البانيا . ويوجد من رجال الإفتاء المسلمين أربعة فى تولشيا ، وكونستانزيا ، وسيليسترى ، وبازاجيك .

وفى رومانيامدرسة معلمين عليا إسلامية بمدينة مجيدية ، ومن التكايا ثلاث للقادرية والبكتاشية والشاذلية وبعض الأندية التركية العصرية . ولم يدخل العثمانيون فى رومانيا إلا فى سنة ١٤٨٤ . وقد بقيت ذكرى « سيليسترى » عزيزة لدى الأتراك العثمانيين منذ حرب سنة ١٨٧٧ ، وقد أشاد بذكرها نامق كمال فى روايته الموسومة باسم « وطن » .

الصحافة : — توجد فى مدينة بازارجيق جريدة تركية تصدر باسم « رومانيا » ، وفى مدينة سيليسترى جريدة تونا دوناريا (Tuna — Dunarea) وتصدر باللغة التركية .

بلاد المجر

لا يزال يفد الى بودابست عاصمة المجر كل عام — حتى يوم ٣ ابريل سنة ١٩٢٧ — بعض المسلمين لزيارة ضريح البكتاشى « جول بابا » (Gul Baba) الذى حل ببلاد المجر فى سنة ١٥٤١ . وتقوم الحكومة بتعهد هذا الضريح والإنفاق عليه .

وفى ستيريا لا يزالون يحافظون على أسماء الأتراك الذين دخلوا الاسلام فى القرن الخامس عشر من الميلاد .

بولونيا

يوجد نحو ٦٠٠٠ مسلم بولونى من ٢٨ مليونا أى نحو ٠٦ ٪ هم بعض الأشراف (ناجمان وبهوات وغيرهم) وبعض « النوجائيس » الرحالة القدماء ، وهم من سلالة الترك

التاتار الذين استوطنوا ليتوانيا فيما بين سنتى ١٤١٠ و ١٤٣٢ من الميلاد ، فيوجد منهم ٢٫٧٤٧ مسلما فى مديرية فيلنو (Wilno) و ١٫٦٢٠ فى مديرية « جرودنو » (Grodnos) والباقون يقطنون على طول حدود مديرية « منسك » (Minsk) القديمة التى لم تطالب روسيا بضمها اليها ، كما يوجد فى « تروكى » (Troki) ٨٠٠ يهودى من الاسرائليين القرايين الذين يتكلمون اللغة التركية السكومانية .

ولمسلمى بولونيا نحو ٦٠ مسجدا ، ويتكلمون لغتين : لغة الروس البيض ، واللغة التركية ويكتبون ويطبعون اللغة البولونية بحروف عربية . هذا وقد انعقد مؤتمر فى مدينة فيلنو (Wilno) فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ وانتخب ج تشيكيفيش (J. Szynkiewiez) مفتيا للمسلمين فى بولونيا .

وصلات الود والعطف التقليدية التى بين الأتراك والبولونيين معروفة ، وقد تأيدت باتفاق خاص جديد أبرم بين تركيا وبولونيا فى لوزان سنة ١٩٢٣ .

وكذلك تكونت لجنة لدراسة الآداب التتارية ألفها س . ضيادوليفيشا فى مدينة فيلنـــــا .

ليتوانيا

يوجد فى ليتوانيا ١٫١٠٧ مسلم حسب تعداد سنة ١٩٢٧ ينقسمون الى ثلاث طوائف .

فينلاندا

يوجد بها نحو ٩٠٠ مسلم فى سنة ١٩٢٨ ، كما يوجد ٣٠٠ مسلم فى استونيا من الدول الواقعة على بحر البلطيق ؟

العلوم والآداب

أسطورة داروين[1]

وأثرها فى تضليل الجنس البشرى

تسلم العلوم الثابتة الآن بأن العناصر المختلفة مكونة من مادة أولية واحدة ، وهذا الفرض هو بذاته — من حيث المبدأ — ما يقوله يوحنا المعمدان من أن كل الأشياء من صنع واحد وبدونه لما صنع شىء . ومما لا جدال فيه أن يوحنا قرأ كثيرا فى الكتب الهندية القديمة المعروفة باسم « كتب فيدا المقدسة » كما اطلع عليها باستور المشهور وكورى وزوجته مكتشفى الراديوم ونشاط الراديو .

يسلم العلماء أيضا بأن الكهربائية وجميع العناصر مكونة من عدد كبير من الالكترونات الموجبة والسالبة ، ولا بد للانسان أن يتمثل الذرة فى شكل مجموعة شمسية مصغرة وغاية فى الدقة ، فاذا كانت الالكترونات فى غير حالة التوازن فإن تنسيقها يختلف وتُقذف بسرعة فائقة بسبب الدوران السريع ، فى حين أن الوزن الذرى يقل فينشأ عن ذلك عنصر جديد .

والمفروض أن الالكترون مكون من الكهربائية أى من قوة ، وعلى ذلك فإن الذرة عبارة عن جزء صغير من القوة ، فتكون المادة مكونة من عدد كبير جدا من القوة الدقيقة ، وبذا تكون (أى المادة) فى حكم العدم ، ولكنها — وهى عبارة

(١) منقولة عن الالمانية من كتاب العالم الجليل الاستاذ « س . فان هوفنسفيلت » فى نقد وتفنيد نظرية داروين .

عن عدد كبير من جزئيات الذرة — تظهر أمامنا فى حالة الوجود ، وهذه حقيقة يجب وضعها محل الاعتبار والأخذ بها .

والعلوم الثابتة لما تحل بعد مشكلة الأثير أو الالكترونات ؛ ولقد جاء ذكر نظرية الأثير والالكترونات من قديم الأزل ، فهى مفصلة بوضوح فى كتب «فيدا الهندية» ولكن بأسماء أخرى ، وكذلك توصل « يعقوب بومه » العالم الروحانى المشهور بأبحاثه قديما الى كشف كثير من أسرار الطبيعة الغامضة .

ولقد دلت الكتب الهندية القديمة وكتاب الموتى المصرى على أنه كثيرا ما بحثت هذه المسائل ، وعلى الأخص مسألة الخلق قديما فى هذه العصور ، فقد جاء فى كتاب « ربج فيدا » ما معناه : « من أين أتى العالم — هل نشأ أو لم ينشأ — لا يعلم ذلك إلا هو — الذى تطل علينا عينه من أعلى السماء — هو وحده قادر على العلم بذلك — وهل يعلم ذلك » ؟

ويغلب على الظن أن كتب « ربج فيدا » يرجع تاريخها الى أربعة أو خمسة آلاف سنة ، والى الوقت الحاضر لم نتوصل بعلومنا وتجاربنا الى تفسير مشكلة التطور تفسيرا يقربنا من الحقيقة بالرغم من أن آلاف العلماء يشتغلون بها .

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن « فولتير » فيلسوف القرن الثامن عشر استمر منكرا وجود الإله فى الشطر الأكبر من حياته ، وكان له أثر كبير فى عصره ، فكان اذا أيد شيئا كان لحكمه له انتصار وفوز مبين ، واذا فند شيئا كان فى حكمه القضاء عليه ، وقد ضل على أثره مئات الألوف من الناس وتزعزعت عقائدهم حتى أنكروا وجود الخالق ، ولكنه رجع فى أفكاره وارتد عن رأيه قبيل وفاته واعتقد فى وجود رب للعالم ، ودفن فى الكنيسة رغما من إرادة الشعب ، إلا أن رفاته أخرج بعد ذلك بقليل من مرقده الأخير وألقى به فى جهة خربة . وهذا مثل واحد من أمثال كثيرة يغير فيها العلماء آراءهم فى النظريات العلمية أو العقائد الدينية .

وقلما شهد العالم ثورة فكرية كالتى أحدثها « كوبرنيكوس » عند ما اكتشف أن الأرض هى التى تدور حول الشمس وليست الشمس هى الدائرة كما كان الاعتقاد قديما، فمند ما تبينت الجهات الدينية أن الحق فى جانب « كوبرنيكوس » رجعت عن الفكرة القديمة الزائلة واعتنقت الفكرة الجديدة .

ولكن المبادئ التى نشرها داروين فى نظريته الموهومة عن نشأة الأجناس — ولو أن صاحبها لم يعززها بالبراهين الكافية — قد أثارت عاصفة كبيرة حولها، وأحدثت اضطرابا فكريا بين الناس أجمعين ، وتزعزعت بسببها عقائد الكثيرين ، ولا يمكننا أن نتكهن بمقدار الخسائر الأدبية والشقاء الذى لحق بالانسانية على اختلاف نحلها من جراء أفكار داروين .

لم يجد داروين لنظريته أى برهان يقبله العقل البشرى السليم، ولو أنه وجد فى الناس من أعاروه أذنا صاغية . لم يجد ما يعزز به النظرية التعسة التى جاء بها لتفسير نشأة الأجناس وتطورها — اللهم إلا الحجة الواهية القائمة على فساد ما ذهب اليه ، وهى أنه نجح فى المزاوجة بين أوزة أوربية وبين أوزة صينية .

هذا هو كل ما أفلح فيه صاحب أسطورة نشأة الأجناس للاستدلال على صحة آرائه . إنه لم يصل بأبحاثه مثلا الى نشأة نوع جديد بطريق التطور كما كان يجب أن يكون، حتى تكون الدعامة التى يبنى عليها نظريته ثابتة سليمة الأساس . ولكن أنصاره يرددون بكثرة ذكر البراهين الثابتة والحجج القاطعة التى قدمها داروين تأييدا لما جاء بنظريته، ولكننا اذا بحثنا هذه الدعاوى والبراهين لم نجد أنهم ظفروا بشىء مما يؤيد كلامهم وادعاءاتهم من أى وجه من الوجوه — اللهم إلا تغيير طفيف طرأ على النسل دون أن يمس الأصل فى جوهره بشىء . هذا الى أن التزاوج بين الأوزتين المختلفتين لم يأت بطريق التطوع والاختيار، بل إنهما اضطرا الى ذلك اضطرارا ، ومع ذلك

فإنهما لم ينتجا نوعا جديدا ، بل لم تتعد التغيرات الحادثة النوارقَ العادية فى داخل حدود أى فصيلة من فصائل الحيوانات الراقية .

وإننا لو أطلنا البحث فى كل ماجاء به داروين من البراهين والإثباتات العملية ، لوجدنا أنه لم يذكر سوى أمور تستند على حقيقة معروفة منذ القدم ، وهى أن لكل أنواع النباتات الراقية وفصائل الحيوانات الراقية استعدادا طبيعيا لأن يحدث فيها تغيرات فى الشكل فقط ، دون أن يمسها التغير فى جوهرها ، وأن الانسان يمكنه بطريق التلاقح والمزاوجة المختلطة أن يحدث مثل هذه التغيرات فى أنواع النباتات وفصائل الحيوانات الراقية ؛ وهذا ماهو مسلم به من قديم الزمان وليس بالشىء الجديد ، وما من أحد يشك فى أنه من مصلحة الجنس البشرى أن يكون هناك درجات مختلفة فى كل نوع من أنواع النبات أو فصائل الحيوان ، إذ مما لا يختلف فيه اثنان أن تعدد أصناف النوع الواحد من النبات أو الحيوان ضرورى بسبب تعدد أذواق الناس ومشاربهم ، ولولا هذه الاختلافات لكان بنو آدم — اذا استثنينا المرضى طبعا الذين هم من سن واحد ومن جنس واحد — متشابهين تمام الشبه من جميع الوجوه ، وهذا ما قد لا يرضى الكثير من الناس .

يتضح مما سبق أنه كان الأجدر بعلماء الطبيعة المهتمين بالبحث عن أصل الانسان وأطوار نشأته أن لا تضللهم مثل هذه التغيرات التى تطرأ على كل الحيوانات والنباتات الراقية .

ويعيش بين ظهرانينا الآن عالم هولندى ذو شهرة عالمية كبيرة فى علم النبات اسمه « هوجودى فريز » ، وهو يُعد من بين أنصار نظرية التطور والنشوء أكبر أعلامها بعد داروين ولا مارك وهيكل ، ولهذا السبب فإنى أود أن لا يفوتنى مناقشة آرائه فى هذه العجالة على وجه خاص ، خصوصا وأنه كان له تأثير كبير فى اعتقاد الكثير

فى صحة هـذه النظرية واعتناقها مذهبا ، إذ قيل إنه توصل بعلمه وأبحاثه الى إيجاد نوع عضـوى جديد لم يكن له من قبل وجود فى عالم النبات بواسـطة التغيير المتواصل . وهذا فى اعتقادى هو أكبر دليل وأصدق شاهد على أن هؤلاء العلماء الأنصار إنما كانوا ولا يزالون دائبين فى البحث عن برهان حسى لإقامة صروح دعواهم ، وبذا تسقط حجج من سبقهم ممن ادعوا ثبوت النظرية قطعا . وعند ما نشر « دى فريز » دعواه وما وصل اليه من الأبحاث أخذها عنه العلماء الآخرون بدون مناقشـة أو تمحيص ، وهكذا كان ينقلها أحدهم عن الآخر ولا يتحقق صحة الدعوى من فسادها ، وهل يمكن اعتبار الزهرة المسماة « أيونوتيرا لاماركيانا » Oenothera lamarckiana) — وهى نتيجة التجارب العلمية التى قام بها الأستاذ «دى فريز» — نوعا جديدا فى عالم النبات ؟

وهكذا تناقلت الألسن وأفاضت الجرائد والمجـلات فى ذكر النجاح الباهر فى إقامة الدليل المادى على صحة نظرية داروين ، وأن الانسان سليل القردة ، وأن لا وجود للخالق ومثل هذه الأضاليل الـكاذبة والدعاوى الفاسدة .

هـذا ، مع أنه قامت فى وجه هؤلاء المهرجين اعتراضات جدية لا يدخلها الشك من أى وجه فى أن هـذه الزهرة ليست وليدة جديدة أو مسـتحدثا لا سابق له ، وثبت ذلك لـكلّ من « باور » و « باتيسـون » وغيرهما من أساطين علم الحيـاة ، كما ظهر أن النتيجة التى وصل اليها « دى فريز » لم تقـدم العلم خطوة واحدة فى سـبيل كشف أصل الانسان وأطوار نشأته .

قامت تجارب «دى فريز» على زهرة خاصة وهى «أيونوترا لاماركيانا» ، فى حين أنه كان يمكنه أن يصل الى مثل هـذه النتيجة لو أنه اتخـذ نوعا آخر من مئات أنواع الزهور المختلفة ، كما كان يسـتطيع أن يكتب على التغيرات المختلفة التى تطرأ على كل منها مجلدات ضخمة مثل كتابه عن الزهرة المذكورة .

وكل صبي صغير مشتغل بزراعة الحدائق يتبين أن كثيرا من زهور الحدائق مثل السنبل والسوسن والزعفران والورد والبطاطس التى تتكاثر بواسطة الأبصال والأفنان والفروع دون تلاقح جنسى — تبقى ثابتة لا تتغير ، ولكنها لا تصلح للبذر ، وهذا ما يثبت عدم تفاوتها التى نشأت عن خلط مولدها مئات السنين تلو مئات السنين ، فلماذا لا تكون زهرة « أيونوترا لاماركيانا » سائرة على هذه القاعدة دون أن تستثنى من سائر أمثالها ؟

يتضح من ذلك أن هذه العقيدة إنما بنيت على التخمينات الواهية المجردة من كل الإثباتات التى يقبلها العقل السليم بدون تحيز أو هوى فى النفس .

يبلغ « هوجو دى فريز » الآن من العمر ٨٠ عاما ، ويؤلمنى كثيرا أن يصادف كتابه مثل هذا النقد الشديد بعد أن قضى المؤلف بين أعماله المفيدة وأبحاثه المثمرة حياة زاهرة ، وهو عالم ذو شهرة واسعة وصيت ذائع ، وله أياد بيضاء على علم النبات الحديث ، وهو المؤلف العبقرى صاحب كتاب « Intracellulairen Pengenesis » ومعيد مجد قوانين الوراثة للأستاذ « مندل » فهذا الرجل العالم الكبير فى النبات هو أيضا صاحب « نظرية التغير » ، وما كنت لأجرؤ على نقد مثل هذا الرجل العظيم لو أنه بقى فى اختصاصه واقتصر على علمه وبحثه ، ولكنه تعدى ذلك الى مذهب التطور ، الذى لا يعلم عنه مخلوق أى شىء إيجابى .

سبق لنا الإشارة الى أن « فولتير » الكاتب الفيلسوف الفرنسى الكبير الذى قضى الشطر الأول من حياته ملحدا ، عاد الى عقيدته الدينية قبيل وفاته ، وإننا نرجو من كل أفئدتنا أن يتخذه عالمنا الهولندى أسوة حسنة ويهتدى الى الصراط المستقيم .

إنى لا أميل الى تكرار الإيضاح ، ولكنى لا يسعنى فى هذا البحث إلا أن أعيد أن أنصار مذهب التطور فى عالم الأحياء لم يسعدهم طالعهم بالاهتداء الى براهين

معقولة لإقامة دعواهم، وأن كل نظرياتهم كانت خاطئة وظهر فسادها من كل الوجوه وفى كل آونة .

كما ظهر من علم الحفريات أن النتائج التى وصل اليها البحاثون فى الأحياء المتحجرة لم تساعد على إقامة أى دليل على التسلسل أو التطور التدريجى، بل ثبت على عكس ذلك أن الفروق الدقيقة بين صفوف الأجناس التى نعرفها بقيت على الدوام فاغرة ولم تتلاش أو تقرب من ذلك، ولا يمكن أن نعد ذلك راجعا الى نقص فى المجموعات المتحجرة التى وصلت الينا، أو بقايا الهيا كل التى اهتدينا الى تركيبها، بل ظهر بكل وضوح أن كل عضو من مجموعة الأجناس المختلفة مستقل استقلالا تاما عن الآخر، ولا يمثل بأى حال من الأحوال حلقة من سلسلة تامة الحلقات، أو طورا من أطوار التدرج المزعوم .

توصل العالم الى معرفة آلاف من أنواع النبات والحيوان المختلفة البائدة، ولكن لم يستطع أحد من علمائنا أن يكشف لنا عن نوع واحد مستحدث .

وليس من المنطق فى شىء أن نفرض — طالما لم يقم الدليل المحسوس ولا ينتظر أن ينهض — أن نوعا من أنواع القردة يمكن أن يتطور ويتدرج الى أن ينقاب رأسا على عقب ليصير نوعا آخر مارا بسلسلة يمكن تتبع حلقاتها الواحدة بعد الأخرى، بل إن المنطق السليم يحتم علينا فرض وجود إله قادر على كل شىء هو الخالق للنبات والحيوان والانسان، وأن الأجدر بالانسان أن لا يجهد نفسه كثيرا فى محاولة الوصول الى معرفة خلق الانسان، إذ أن الصانع وحده هو الذى يعرف حقيقة ما صنع، وأما المصنوع فلا يصل ولن يصل الى إدراك كيفية وجوده وخلقه .

الراديوم[1]

الراديوم هو أثمن المواد المعروفة فى العالم ، وتاريخ اكتشافه قريب العهد جدا إذ تمكن من استخراجه لأول مرة المدعو كورى وزوجته فى سنة ١٩٠٠ من أطنان عديدة من معدن الاورانيوم ، وقد توصل العالم فى الثلاثين عاما الماضية الى استخراج ٦٠٠ جرام فقط من هذه المادة النفيسة فُقد منها حتى الآن حوالى ٨٠ جراما ، ويقدر ثمن الجرام بمبلغ ١٥٠٠٠ جنيه وبذا لا يقل ثمن الموجود من هذه المادة فى العالم عن سبعة ملايين وخمسماية الف جنيه .

وتُبذل عناية كبيرة فى استخدام الراديوم أو نقله ، وذلك لتأثيره الخطر فى خلايا وأنسجة الجسم ، هذا علاوة على قيمته النادرة وثمنه النفيس .

فيأخذ المشتغلون به فى المعامل لأنفسهم حيطة خاصة اتقاء لشره ، فيجعلون فاصلا بينهم وبين هذا العنصر الذى يشع بذاته حائطا من الرصاص يبلغ سمكه ١٥ سنتيمترا لا تنفذ منه اشعاعاته الخطرة التى كانت سببا فى هلاك كثير من العلماء المشتغلين به قبل اكتشاف قدرته ، ويحفظ عادة عشر الجرام من الراديوم داخل صندوق من الرصاص زنته ٢٥ كيلوجرام ، حتى تكون حائلا منيعا بينه وبين من يحمله .

ويسهر على حراسته أثناء نقله من جهة الى أخرى رجال أشداء من البوليس السرى ، ويحفظ داخل خزائن فولاذية تحت رقابة شديدة .

---

(١) نقلا عن إحدى المجلات العلمية الالمانية .

غوث العباد ببيان الرشاد

تاليف حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ مصطفى الحمامى أحد علماء الازهر الشريف وخطيب المسجد الزينبي وهو كتاب مفيد تكلم فيه الاستاذ عن حياة الانبياء عليهم الصلاة والسلام فى قبورهم ، وعن الشفاعة يوم القيامة ، ورد على من أنكر الكرامة ، وبسط القول فى حقيقة الاجتهاد وما ينبغى أن يكون عليه المجتهد ، الى غير هذا من المباحث الجليلة . وقد طبع الكتاب بمطبعة دار إحياء الكتب العربية .

فنحث أهل العلم على الاستفادة منه .

المرجو من القارئ الكريم تصحيح الأخطاء الآتية :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٨٥	١٧	منْ المشركين	منَ المشركين
٦٩٤	١٤	بما هم فيه	بما هن فيه
٧٠٩	٢	فنذكر	فتذكر
٧١٧	٤	من طرف	من طرق
٧٢٢	١٠	ولله يقول	والله يقول

ووقع فى ص ٦١٩ س ٥ من الجزء التاسع سهو فى الآية التى أوردت فى صدر التفسير فقد وردت هكذا (وليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم) والصواب : (يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ) الآية ؟

Withal I like Mahomet for his total freedom from cant. He is a rough self-helping son of the wilderness; does not pretend to be what he is not. There is no ostentaneous pride in him; but neither does he go much upon humility: he is there as he can be, in cloak and shoes of his own clouting; speaks plainly to all manner of Persian Kings, Greek Emperors, what it is they are bound to do; knows well enough about himself, 'the respect due unto thee'. In a life-and-death war with the Bedouins, cruel things could not fail; but neither are acts of mercy, of noble natural pity and generosity wanting, Mahomet makes no apology for the one, no boast of the other."

"No Dilettantism in this Mahomet; it is business of Reprobation and Salvation with him, of Time and eternity: he is in deadly earnest about it! Dilettantism, hypothesis, speculation, a kind of amateur-search for Truth, toying and coquetting with Truth: this is the sorest sin. It consists in the heart and soul of the man never having been open to Truth; — 'living in a vain show'."

"On the other hand, Islam, like any great Faith, and insight into the essence of man, is a perfect equaliser of men: the soul of one believer outweighs all earthly kingships; all men, according to Islam too, are equal."

Finally Carlyle observes:

"These Arabs believe their Religion, and try to live by it. No Christians, since the early ages, or only perhaps the English Puritans in modern times, have ever stood by their Faith as the Moslems do by theirs, — believing it wholly, fronting Time with it, and eternity with it."

"To the Arab Nation it was as a birth from darkness into light; Arabia first became alive by means of it. A poor shepherd people, roaming unnoticed in its deserts since the creation of the world: a Hero-Prophet was sent down to them with a word they could believe: see, the unnoticed becomes world-notable, the small has grown world-great; within one century afterwards Arabia is a Grenada on this hand, at Delhi on that; — glancing in valour and splendour and the light of genuis, Arabia shines through long ages over a great section of the world. Belief is great, live-giving. The history of a Nation becomes fruitful, soul-elevating, great, so soon as it believes."

Ah no: this deep-hearted Son of the Wilderness, with his beaming black eyes and open social deep soul, had other thoughts in him than ambition. A silent great soul; he was one of those who cannot but be in earnest; whom Nature herself has appointed to be sincere. While others walk in formulas and hearsays, contented enought to dwell there, this man could not screen himself in formulas; he was alone with his own soul and the reality of things. The great Mystery of Existence, as I said, glared-in upon him, with its terrors, with its splendours; no hearsays could hide that unspeakable fact, 'Here am I!' Such sincerity as we named it, has in very truth something of divine. The word of such a man is a Voice direct from Nature's own Heart. Men do and must listen to that as to nothing else; — all else is wind in comparison."

"We will leave it altogether, this impostor hypothesis, as not credible; not very tolerable even, worthy chiefly of dismissal by us."

"Such light had come, as it could, to illuminate the darkness of this wild Arab soul. A confused dazzling splendour as of life and Heaven, in the great darkness which threatened to be death."

Carlyle then goes on to say:

"And now if the wild idolatrous men did believe this, and with their fiery hearts lay hold of it to do it, in what form soever it came to them, I say it was well worthy of being believed. In one form or the other, I say it is still the one thing worthy of being believed by all men. Man does hereby become the high-priest of this Temple of a World. He is in harmony with the Decrees of the Author of this World; coöperating with them, not vainly withstanding them."

"Islam devoured all these vain jangling Sects; and I think had right to do so. It was a Reality, direct from the great Heart of Nature once more. Arab idolatries, Syrian formulas, whatsoever was not equally real, had to go up in flame, — mere dead fuel, in various senses, for this which was fire."

"Forger and juggler? No, no! This great fiery heart, seething, simmering like a great furnace of thoughts, was not a juggler's. His life was a Fact to him; this God's Universe an awful Fact and Reality."

"Sincerity, in all senses, seems to me the merit of the Koran; what had rendered it precious to the wild Arab men. It is, after all, the first and last merit in a book; gives rise to merits of all kinds, — nay, at bottom, it alone can give rise to merit of any kind."

Speaking of Mohammad's character Carlyle remarks:

"Traits of that kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, — the veritable Son of our Common Mother.

"But of a Great Man especially, of him I will venture to assert that it is incredible he should have been other than true. It seems to me the primary foundation of him, and of all that can lie in him, this. No man adequate to do anything, but is first of all in right earnest about it; what I call a sincere man."

"This Mahomet, then, we will in no wise consider as an Inanity and Theatricality, a poor conscious ambitions schemer; we cannot conceive him so. The rude message he delivered was a real one withal; an earnest confused voice from the unknown Deep. The man's words were not false, nor his workings here below; no Inanity and Simulacrum; a fiery mass of Life cast-up from the great bosom of Nature herself. To kindle the world; the world's Maker had ordered it so."

"One other circumstance we must not forget: that he had no school-learning; of the thing we call school-learning none at all. The art of writing was but just introduced into Arabia; it seems to be the true opinion that Mahomet never could write."

"Curious, if we will reflect on it, this of having no books. The wisdom that had been before him or at a distance from him in the world, was in a manner as good as not there for him. Of the great souls, flame-beacons through so many lands and times, no one directly communicates with this great soul. He is alone there, deep down in the bosom of wilderness; has to grow up so, — alone with Nature and his own Thoughts.

But, from an early age, he had been remarked as a thoughtful man. His Companions named him "Al-Amin", The Faithful. A man of truth and fidelity; true in what he did, in what he spake and thought. They noted that he always meant something. A man rather taciturn in speech; silent when there was nothing to be said; but pertinent, wise, sincere, when he did speak; always throwing light on the matter. This is the only sort of speech worth speaking! Through life we find him to have been regarded as an altogether solid, brotherly, genuine man. A serious, sincere character; yet amiable, cordial, companionable, jocose even; — a good laugh within him withal: there are men whose laugh is as untrue as anything about them; who cannot laugh. A spontaneous, passionate, yet just, true-meaning man!"

"All his 'ambition', seemingly, had been, hitherto, to live an honest life; his 'fame', the mere good opinion of neighbours that knew him, had been sufficient hitherto. Not till he was already getting old, the pururient heat of his life all burnt out, and peace growing to be the chief thing this world could give him, did he start on the 'career of ambition'; and, belying all his past character and existence, set-up as a wretched empty charlatan to acquire what he could no longer enjoy! For my share, I have no faith whatever in that.

It was in this same vein of argument that Carlyle the great English writer and philosopher adressed his fellow-Christians in his lectures on heroes when speaking of Mohammad.

The following are a few quotations of his discourse:

"Our current hypothesis about Mahomet, that he was a scheming Impostor, a falsehood incarnate, that his religion is a mere mass of quackery and fatuity, begins really to be now untenable to any one. The lies, which well-meaning zeal has heaped round this man, are disgraceful to ourselves only."

"The word this man spoke has been the life-guidance now of a hundred-and-eighty millions [1] of men these twelve-hundred years. These hundred-and-eighty millions were made by God as well as we. A greater number of God's creatures believe in Mahomet's word at this hour than in any other word whatever. Are we to suppose that it was a miserable piece of spiritual legerdemain, this which so many creatures of the Almighty have lived by and died by? I, for my part, cannot form any such supposition. I will believe most things sooner than that. One would be entirely at a loss what to think of this world at all, if quackery so grew and were sanctioned here.

Alas, such theories are very lamentable. If we would attain to knowledge of anything in God's true Creation, let us believe them wholly! They are the product of an Age of Scepticism; they indicate the saddest spiritual paralysis, and mere death-life of the souls of men; more godless theory, I think, was never promulgated in this earth. A false man found a religion? Why, a false man cannot build a brick house! If he do not know and follow truly the properties of mortar, burnt clay and what else he works in, it is no house that he makes, but a rubbish-heap. It will not stand for twelve centuries, to lodge a hundred-and-eighty millions; it will fall straightway. A man must conform to Nature's laws, be verily in communion with Nature and the truth of things, or nature will answer him, No, not at all! Speciosities are specious — ah me! — a Cagliostro (2), many Cagliostros, prominent world-leaders, do prosper by their quackery, for a day."

---

(1) This was written in 1840 ie, 92 years ago. The number of Moslems throughout the world is at present Three hundred Millions at a very modest estimation.

(2) Cagliostro (1743 — 1795 A.D), Italian alchemist, and impostor, was born at Palermo. His real name was Giuseppe Balsamo. He perpetrated a series of ingenious crimes and fled from Sicily to escape punishment. He visited Greece, Egypt, Arabia, Persia, Rhodes (where he studied Alchemy) and practiced his quackeries in many European country.

the remains thereof, as the annihilation of the Army of the Elephant lead by Abraha or the remains of those people in Syria, Yemen and Hedjaz. As to the latter, knowledge thereof is derived from authentic history which is very often established by constant corroboration, as the story of Moses and Pharaoh, the drowning of Pharaoh and his host in the Red Sea, the story of Abraham and Nimrod, Noah and the Deluge and many such other stories acknowledged by all religions.

The narration of these stories is indeed more reliable than any other story, be it of kings or great men as for instance the story of Persian kings, Arabs in pre-Islamic era or Greece with its learned men of medicine, astronomy and philosophy among whom Hippocrates [1], Galen [2], Ptolemy [3], Socrates [4], Plato [5] and Aristotle [6] figure prominently.

It is evident that the stories of prophets, their people and enemies are, by far, of greater import than the stories of all those mentioned before.

---

(1) Hippocrates (460 B.C.), Greek physician, was born on the Island of Cos off the Coast of Asia Minor. He is regarded as the "Father of Medicine" and is famous for his great Collection on Medicine.

(2) Galen (130 — 200 A.D.), Greek physician, was born in Pergamum, the capital of Mysia in Asia Minor. He was the author of some 500 treatises on medicine and philosophy.

(3) Ptolemy, celebrated Greek mathematician, astronomer and geographer, was born at Ptolemais Hermii a Grecian city of the Thebaid in the 2nd. century of the Christian era. He devoted his life to the study of astronomy and kindred subjects and is the author of the Ptolemaic System pertaining to the structure of the heavens and the motions of heavenly bodies.

(4) Socrates, celebrated Greek philosopher, (469 — 399 B.C.), was born in Athens. He wrote nothing himself but his doctrines were expounded chiefly in the Dialogues of Plato and the Memorabilia of Xenophon.

(5) Plato, Greek philosopher, (428 — 348 B.C.), author of the "Republic", "Gorgias", "Phaedo" etc.

(6) Aristotle, Greek philosopher, (384 — 322 B.C.), was born at Stagira, a Greek colonial town on the north-western shores of the Aegaean. He was the founder of literary criticism.

And :

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Several apostles were sent unto the world, the stories of only a few of them were told to Mohammad in the Koran. No apostle had the power to work a miracle unless the Lord so willed it, far certain miracles are assigned to each apostle in accordance with the judicious dispensation of the Lord; they have no choice to work one or the other. But when the Lord ordaineth punishment in this world or the Hereafter, everyone will be accorded his just deserts, and then those who challenged the Prophets to work further miracles, after what had already been worked, will perish for their disbelief."

(*Baidawy's Commentary*).

Warning against the sad ending and the punishment inflicted upon those who evoked God's wrath, is reiterated in the Chapter of the Poets after the stories of Moses, Abraham, Noah and other Prophets are given thus :

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"There is verily a sign in what had befallen those people who have gainsaid their Prophet as most of them believed not, for the Lord is mighty in dealing with those who disobeyed His injunctions and merciful to those who obeyed."

(*Baidawy's Commentary*).

The Lord hath shown that knowledge of such endings is reached through the medium of seeing and hearing or both together. The former applies to those who have witnessed the destruction of the unbelievers or

have also done so before the Meccans. Each of those people schemed against their particular prophet and strove to inflict harm and torture upon him; they disputed with vain words to refute the truth he was sent with whereupon the Lord hath destroyed them and lo, how severe His punishment was!"

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"Have the unbelievers not journeyed in the earth and witnessed the sad ending of those who charged their Prophets with imposture before them and take warning thereby! Those past people were far mightier than the Meccans and their castles and strongholds more enduring than theirs, yet the Lord hath destroyed them because of their sins and there was no one to prevent this fate befalling them. This, because they disbelieved the miracles of the Prophets who were sent unto them; and the Lord hath therefore destroyed them for He is mighty and severe of punishment."

(*Baidawy's Commentary*).

And:

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The Lord proclaimeth that He would render support to His apostles and to those who believed in them and wreak vengeance upon the unbelievers in this world and the Hereafter when Prophets, angels and true believers shall be called to bear witness on the judgment Day."

(*Baidawy's Commentary*).

English Supplement of

NOUR-EL-ISLAM REVIEW

Published by AL-AZHAR.

مترجمة عن كتاب « رسائل السلام » لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى

The Prophet Mohammad [(1)]

(Continued.)

We have already referred to the punishment which the Lord inflicted upon those who denied the truth of the Prophets sent to them. Such punishment was referred to in the Koran as in the following verses :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »

ترجمة تفسير هذه الآية نقلا عن البيضاوى

"The unbelievers of Mecca were not the only people who charged their Prophet with imposture ; the people of Noah and the people of Ad and Themoud and other people who confederated against their Prophets,

(1) Translated from the Very Reverend Sheikh Youssef El-Digwy's Book *"Messages of Peace"*.

